

International Islamic University
Islamabad – Pakistan
Faculty of Usulluddin
Department of Dawah& Islmic
cultures



الجامعة الإسلامية العالمية
إسلام آباد – باكستان
كلية أصول الدين
قسم الدعوة و الثقافة الإسلامية
مرحلة الدراسات العليا – الدكتوراه

فقه الدعوة في منهج دراسة السيرة النبوية عند المعاصرين

(المودودي، والغزالي والبوطي نموذجاً)

دراسة وصفية تحليلية مقارنة

بمبحث تكميلي لبحث دكتوراه في الدعوة و الثقافة الإسلامية

مقدمه الباحث: جنيد الله ظهير

Reg no: 449- FU/phddic-S20

تحت اشراف الأستاذ: الدكتور محمد عارف – حفظه الله-

العام الدراسي: ١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م



إهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى روح والدي (رحمه الله)، وإلى والدتي (حفظها الله)، اللذين قاما بتربيتي على أحسن وجه، وغرسا في قلبي محبة الدين والعلم، وشجعاني على طلب العلم، وبيّنا لي فضله ومنزلته في الدنيا والآخرة، كما أدعو لهما بالمغفرة والرحمة والفردوس الأعلى، انطلاقاً من

قول الله تعالى: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) (الإسراء: ٢٤)

كلمة الشكر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وقائد المجاهدين ، محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد !

فأتوجه بالشكر إلى الله سبحانه وتعالى أولاً وآخرأ على نعمه وآلائه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ، حيث وفقني إلى إتمام هذا العمل المتواضع ، فله الفضل والشكر كله .

ثم أتوجه بجزيل الشكر إلى الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد حيث هيأت لطلبة العلم ومحبيه مجالا للدراسة والبحث العلمي ، ووفرت لذلك كثيراً من الوسائل والأسباب . كما أتوجه بجزيل الشكر إلى أساتذتي في "كلية أصول الدين" الذين تعلمت منهم الكثير فترة دراستي بالكلية في مراحلها الثلاثة ، فلهم الفضل على والمنة - بفضل الله تعالى .

وأتوجه بجزيل الشكر وخالص التقدير والامتنان إلى الأستاذ الدكتور محمد عارف المشرف على هذا البحث ، الذي بذل معي جهداً كبيراً ، ولم يبخل عليّ بنصح أو إرشاد ، إلى أن اتخذت الرسالة هذا الشكل ، كما لا يفوتني أن أشكر الأساتذة الفضلاء الدكتور عبد الحميد خروب رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين سابقاً والدكتور خليل الرحمن رئيس القسم سابقاً ، وسائر أساتذتي في القسم خلال مرحلة الدكتوراه ، الذين كانوا خير عون لي في اختيار هذا الموضوع القيم .

وأتوجه بالشكر كذلك إلى أسرتي الكريمة التي شجعتني على تحصيل العلم وطلبه ، وكذلك كافة أهل الخير الذين مددوا لي يد العون والمساعدة خلال فترات الدراسة ، وشجعوني بمساعدتهم على أن أواصل الدراسة . كما لا يفوتني توجيه الشكر إلى الإخوة و الزملاء الأفاضل الذين ساعدوني خلال كتابة الرسالة ، وقد كانت كلماتهم - بعد توفيق الله تعالى - خير عون لي أستند إليه ، فلهم كل الشكر والتقدير ، وأن يجزيهم الله عني خير الجزاء .

الخلاصة

برز في العصر الحديث علماء أجلاء، جددوا الكتابة في السيرة النبوية، منهم الإمام أبو الأعلى المودودي، والشيخ محمد الغزالي والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمهم الله تعالى؛ حيث ركز هؤلاء العلماء والدعاة على تفعيل السيرة النبوية في الحياة المعاصرة من خلال مناهج علمية دقيقة متنوعة غنية بفقهاء الدعوة، تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتخطب العقل والعاطفة وتميز بين الوحي والاجتهاد، ويلزم المنطق السليم في الوصف والتحليل والنقد والاستنتاج ودحض الشبهات والأباطيل.

فكانت السيرة في كتب هؤلاء العلماء زاد الدعوة والدعاة ومنهج حياة، والمصباح المنير لطريق الإنسانية جمعاء، والقُدوة العملية المنقذة لها من التيه والضياغ والدليل الناصع على صدق صاحبها عليه أفضل الصلوات وأزكى التساليم.

وهذه المناهج التي قدمها هؤلاء الأعلام مع اتحاد العصر والظروف والثقافة التي عايشوها؛ تعد مناهج جديدة ومستقلة تختلف عن بعضها البعض في عناصرها كما تشترك في بعضها الآخر.

وقد شدد المودودي في كتابه "سيرة سيد العالم" على الدعوة بحجة أن السيرة هي النموذج العملي لهذه المسيرة، وقراءته تنير الطريق للدعاة، وأما "فقه السيرة" للغزالي فكتب على أثر فتور حركة الدعوة لسقوط القدس في القرن المنصرم، وبالتالي يركز على الكليات والقواعد العامة للدعوة. وأما الدكتور البوطي يكتب "فقه السيرة" بغية تنفيذ شبهات المستشرقين وعاب على المستغربين، وقدم مع ذلك فقهها للجزئيات لأحكام تفصيلية في أبواب الدعوة والجهاد والهجرة وما إلى ذلك.

ونظراً لأهمية ما سبق فقد جاءت هذه الرسالة تحت مسمى "فقه الدعوة في منهج دراسة السيرة النبوية عند المعاصرين - المودودي والغزالي والبطي نموذجاً"، وذلك لابرار دور هؤلاء الأعلام في تقديم مادة الدعوة الإسلامية من خلال السيرة النبوية المباركة، ولكل من هؤلاء في هذا الباب آراء و مواقف واضحة مستنبطة مستقلة مع ما يجمعهم في كثير من المجالات.

ولهذا سارت الدراسة بمنهج وصفي، تحليلي مع ضرورة المقارنة في مجمل بحوثها ودراساتها بغية الوقوف التام على مواقفهم وآراءهم في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: فقه الدعوة، السيرة النبوية، الداعي، المدعو، الوسائل والأساليب. أبو الأعلى المودودي، محمد الغزالي، رمضان البوطي.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل رسله وخاتم أنبياءه محمد بن عبد الله الذي بعثه الله رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد

فالسيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام من أشرف العلوم وأعزها هدفا ومطلبا، وأصحها سنداً ورواية؛ حيث يعرف بها المسلم أحوال نبيه ودينه وتاريخ المسيرة العطرة للدعوة الإلهية منذ أن كان صاحبها صبياً إلى أن اختاره الله لحمل رسالته بالوحي والرسالة، وحمل عبء الدعوة إليه وإلى دينه؛ فقد قام بأحسن وجه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة بعد بذل كل جهود متواصلة وما عاناه من البلاء والمحن في هذا السبيل إلى أن أيده الله ونصره وتمت كلمته صدقاً وعدلاً.

التعريف بالموضوع: السيرة النبوية هي المصدر الثاني في الدعوة الإسلامية في كل العصور والأزمنة؛ فقد يجد الباحث في غصونها النماذج العملية والحية لكل مراحل الدعوة إلى جنب الوسائل والأساليب التي سلكها الداعية الأول لنشر الدين الإسلامي والتعريف بها.

ولقد كثرت في الأوانة الأخيرة الكتابات حول السيرة النبوية، وكانت لهذه الكتابات اسهاماً بالغاً في تشكيل وبناء منهجيات دعوية، وقد أفرز الواقع المعاصر بعض المستجدات الحديثة عليها وأنضجت الفكر الإسلامي المرن والمتوازن.

إن هذه الكتابات انتجت مناهج مفيدة تساعد على النهوض بعملية الدعوة وحسن تقديمها واعداد الداعية وبناء الشخصية المعاصرة كما يحفظ الدعوة من المزالق الفكرية والانحرافات التطبيقية.

ولقد كان للمفكرين الإسلاميين في القرن المنصرم وبالأخص الإمام أبو الأعلى المودودي اسهاماً بالغاً في تحرير كتابه سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في تحرير كتابيهما "فقه السيرة".

ويعد كل واحد منهم منهجاً دعوياً متوازناً في مجال فقه الدعوة موضوعاً، داعياً، مدعواً وأسلوباً ووسائل ونتيجة؛ وقد أثرى هؤلاء هذا المجال بتجاربههم الثرية في ضوء الاستقطاب الفكري وقدموا للدعوة تجربتهم في ظلال السيرة النبوية المطهرة.

أهمية الموضوع: تبرز أهمية الموضوع في النقاط التالية:

الف- تبرز أهمية هذه الدراسة في مجال الدعوة الإسلامية بكون السيرة النبوية المصدر الأساسي الثاني للدعوة والتي يستقي من ينبوعها الدعاة مسيراً لها، فقد يجد الداعي في سيرة الرسول ﷺ أساليب الدعوة، ومراحلها المتسلسلة و كما يعرف لهم الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها وبالتالي يستفيد منها في اتصاله بالناس ودعوتهم للإسلام،

ويلمس الجهد العظيم الذي بذله الرسول ﷺ من أجل إعلاء كلمة الله وكيفية التصرف أمام العقبات والتحديات التي تواجهها؛ فيستدرك الموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن.

ب- إن فقه الدعوة إلى الله تعالى مبني على فهم السنة المطهرة والسيرة النبوية العطرة، وذلك باستنباط أسس الدعوة وركائزها التي تقوم عليها؛ وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يكون الدعاة على بصيرة من الأمر حيث يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨). وبالتالي لا تكون كذلك إلا إذا كانت على علم وبيان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ج- لقد كان لهؤلاء الأعلام (المودودي، الغزالي والبوطي) جهد في فقه السيرة النبوية حيث استندوا إلى الوقائع والأحداث النبوية لا على أساس حوادث تاريخية فحسب بل لاستخراج المعالم الأساسية لبناء المستقبل، وتبصير البصائر التي ترسم لنا طريق الدعوة.

د- الناظر في كتبهم ليرى صفحات السيرة النبوية ولكن في ضوء الدعوة والداعية والرسول والرسالة، وقد قدموا كلا منهم من خلال تجربتهم الدعوية المعاصرة الدروس والعبر المستفادة من السيرة النبوية العطرة في حقل الدعوة وهداية الناس، وذلك لأنهم استوعبوا مغزى هذه المسيرة المباركة ولم يسردوا كتبهم سرد المؤرخين كما لم يجادلوا في طياتها فعل الفقهاء والمتكلمين بل نظروا فيها قبل كل شيء بعين الداعية وفقه الدعوة الذي يرى في سيرة النبي العظيم الأسوة الحسنة لكل الدعاة المصلحين.

هـ- لقد احتوت الدعوة وفقهها البحث المستفيض في فكر ومؤلفات هؤلاء الأعلام بمختلف جوانبها حتى اشتهروا بها إلا أن الدور الدعوي المستفيد من خلال فقه السيرة ما زال بحاجة إلى دراسة جادة بحكم كونه المدرسة المتكاملة والأساس لها.

أسباب اختيار الموضوع: لقد دعاني إلى اختيار هذا الموضوع (فقه الدعوة في منهج دراسة السيرة النبوية عند المعاصرين - المودودي، والغزالي والبوطي نموذجاً -) عدة أسباب، منها ذاتية وبعضها موضوعية.

الف- أما السبب الذاتي فقد تعود إلى محبتي لسيرة الرسول ﷺ فقد يجعل قارئها في متعة روحية وعقلية وتاريخية، فقد تعلقت بقرائنها منذ الصغر فأحببت أن يكون موضوع رسالتي في مرحلة الدكتوراه - إن شاء الله تعالى في فقه الدعوة في السيرة النبوية عند المعاصرين، وخاصة في كتب هؤلاء الأعلام الدعاة المعاصرين الذين حملوا هموم وقضايا الأمة في قلوبهم، ورفعوا لواء الكفاح في سبيل إعلاء كلمة الحق، وكان حقاً علينا أن نوفيهم ونبرز معالم منهجهم في كتبهم القيمة.

ب- كتب السيرة النبوية وخاصة المعاصرة منها هي المجال الخصب لفقه الدعوة، فأكثر موضوعاتها تتعلق بالداعية إلى الله، ومنها ما يتعلق بالمدعويين، ومنها ما يتعلق بموضوع الدعوة والآخر منها يتعلق بوسائل الدعوة وأساليبها؛ وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها.

ج- الإسهام والرغبة في المشاركة في خدمة الدعوة الإسلامية من خلال السيرة النبوية ودراساتها دراسة دعوية لأستفيد ويستفيد منها الدعاة إلى الله في العصر الحديث .

د- تقديم الحل الأنسب لما قد يحدث بين الدعاة من خلاف وتنازع في القضايا المستجدة للدعوة ومنهاجها، وذلك من خلال الرد إلى سنة رسول الله ﷺ وسيرته العطرة والتي هي أحد الحكمين الذين أمرنا بالرد إليهما عند التنازع والاختلاف وهما كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

هـ- وأما أسباب اختيار كتب هؤلاء الأعلام الثلاثة بالذات دون غيرهم فيتمثل في أسباب تالية:

١- لم ينل كتاب الإمام المودودي رحمه الله في السيرة النبوية الشهرة وخاصة بين قراء اللغة العربية كما حظيت باقي كتبها؛ وقد حفلت بفقهاء دعوي موسع كما اشتهر أكثر كتبه في المجالات الأخرى؛ ولهذا أحببت إبراز دورها.

٢- لقد حملت كتاب الشيخ محمد الغزالي والدكتور البوطي مادة الدعوة مباشرة من خلال عرضهما للسيرة النبوية المباركة؛ وقد جاءت تسمية كتابيهما بعنوان "فقه السيرة"؛ وهم من أوائل من تنبهوا أو درسوا السيرة النبوية على هذا النسق وبهذا المسمى في القرن المنصرم، وهكذا بينا في مقدمة كتابيهما هذا الغرض والموضوع.

٣- إضافة إلى ذلك فقد جمع بين هؤلاء تقارب الزمان وشيء من تأثر المتقدم على اللاحق كما هو البين في كتابي فقه السيرة للغزالي والبطوطي، وكذلك الشهرة الفائقة لهؤلاء الأعلام في مجتمعاتهم ومولعهم القراء.

مشكلات البحث

الف- إن دراسة فقه الدعوة من خلال كتب السيرة النبوية رغم كثرة تناولها في بطون المراجع والمصادر إلا أنها تناثرت وتباينت في ذكر الدروس والعبر والفوائد والأحداث بين كتب السيرة قديما وحديثا، فمثلا أحيانا يذكر الذهبي ما لم يذكره ابن هشام، ويذكر ابن كثير ما لم يذكره أصحاب السنن، أما في العصر الحديث فقد ذكر السباعي ما لم يذكره الغزالي، وما ذكره المودودي لم يذكره الغضبان ولا البوطي... وهكذا يلزم على الباحث أن يجمع تلك الفوائد ويثريها بالحوار والنقاش حتى يدرسها ويخرج منها بمنهج دقيقة ويقارن بعضها ببعض.

ب- إن تراث هؤلاء الأعلام (المودودي، الغزالي والبطوطي) رغم كثرة تناولها في مختلف المجالات من قبل الباحثين إلا أنها لم تعني هذا الجانب وهي دراسة فقه الدعوة من خلال كتب السيرة لم ينل بالقسط الأوفر من الإهتمام والدراسة البحثية ولم نجد دراسة حول هذا الموضوع رغم بداهة واشتغال هذا الجانب على شخصيتهم وتراثهم.

ج- إن تجربة البحث في موضوع فقه الدعوة من خلال كتب السيرة المعاصرة تعد محاولة علمية تهدف إلى استنباط واستخراج مجمل الصيغ والأساليب والرسائل التي تدور حول هذه الدراسة.

تساؤلات الدراسة: وبالتالي يمكن صياغة إشكالية هذه الدراسة بالتساؤلات الآتية:

س ١: ما الفقه الدعوي في جهود كل من الإمام مودودي والشيخ محمد الغزالي والدكتور البوطي في كتبهم عن السيرة النبوية؟

س ٢: كيف يمكن أن نستخرج المنهج الدعوي المستخلص من الدراسة المتعلقة بالداعية والمدعو من كتب هؤلاء الأعلام؟

س ٣: ما هو المنهج الدعوي المستخلص من الدراسة المتعلقة بموضوع الدعوة من كتب هؤلاء الأعلام؟

س ٤: أي المنهج الدعوي المستخلص من الدراسة المتعلقة بوسائل وأساليب الدعوة من كتب هؤلاء الأعلام؟

س ٥: أين موقع الدعوة في السيرة النبوية؟

س ٦: إلى حد وفق هؤلاء الأعلام في مشروع فقه الدعوة عن دراسة السيرة النبوية؟

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى أهداف عديدة من أهمها ما يلي:

الف- تقديم دراسة تأصيلية في علم فقه الدعوة وحديثها ومادتها من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك من خلال دراسة ثلاثة كتب أعلام الدعوة في العصر الحديث الإمام أبو الأعلى المودودي، الشيخ محمد الغزالي والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي لكي نصوغ مناهج دقيقة في الدعوة الإسلامية.

ب- كشف الفوائد والمعارف والفقه الدعوي في أفكار وكتب هؤلاء الأعلام الثلاثة.

ج- تأصيل مبدأ الرجوع إلى النصوص الشرعية والسيرة النبوية وخاصة في قضايا الدعوة التي تكاثر فيها رجوع الناس إلى آراء الفرق الضالة.

د- توفير وإيجاد المراجع المعتمدة من السيرة النبوية للدعاة وطلبة العلم، وذلك بدراسة هذا الجانب دراسة دعوية لا مجرد سرد حوادث وتاريخ واستنباط الفوائد في فقه الدعوة من أصح كتب السيرة النبوية قديما وحديثا.

هـ- إبراز الجانب الدعوي لهؤلاء الأعلام الثلاثة وخاصة أنهم عاشوا فترة زمنية عسيرة على الأمة الإسلامية في ظل الاستقطاب الفكري والإستعمار الغربي في القرن العشرين المنصرم.

الدراسات السابقة

لم أشر خلال بحثي عن دراسات سابقة تناولت فقه الدعوة في السيرة النبوية عند هؤلاء الأعلام إلا أنني قد وجدت جملة من الدراسات التي تناولت أفكار الإمام أبي الأعلى المودودي والشيخ محمد الغزالي والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي من الجانب التفسيري والعقدي والسياسي والدعوي، وفيما يلي إشارة إلى بعض هؤلاء:

الف- "الأستاذ أبو الأعلى المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم" للباحث أليف الدين ترابي، لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة أم القرى بمكة المكرمة تحت إشراف الأستاذ الدكتور أحمد غلوش عام ١٤٠٢-١٤٠٣ هـ. وقد تناولت الدراسة منهج المودودي في تفسيره وتطرق إلى أفكاره ودعوته وتأثيره على العالم الإسلامي.

ب- "الحكمة في الدعوة إلى الله عند الشيخ محمد الغزالي من خلال كتابه مع الله" للطالب أحمد سكال للحصول على شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية تخصص الدعوة والإعلام تحت إشراف الدكتور مصطفى

بلقاسمي، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي عام ٢٠١٦-٢٠١٧م، وقد تناولت الدراسة مفهوم الحكمة ثم محاولة تلمس الحكمة الدعوية في شخص الشيخ محمد الغزالي.

ج- "الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي وأراؤه الإعتقادية" للطالب سمير روين عبد الحليم الجعبري للحصول على درجة الماجستير في أصول الدين تحت اشراف الأستاذ الدكتور حافظ محمد حيدر الجعبري، جامعة الخليل عام ٢٠١٥م، وقد تناولت هذه الرسالة أراء الشيخ البوطي الإعتقادية ومن أبرز موضوعاتها بيان أسباب الردة وموجباتها والتكفير وأخطاره وضوابطه.

د- "مفهوم الجهاد عند الأستاذ المودودي والأستاذ البوطي" للطالب محمد غياث الدين حافظ، للحصول على درجة الماجستير في تخصص معارف الوحي والتراث الإسلامي تحت اشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد زين، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا عام ١٩٩٧م، وقد تناولت هذه الرسالة أراء الشيخين المودودي والبطوي حول مفهوم الجهاد وأهدافه ومن ثم أبرز الفروق بينهما عند المقارنة.

هـ- "أبو الأعلى المودودي ومنهجه التربوي في تفسيره تفهيم القرآن" للطالب محمود حقيقت نيا، للحصول على درجة الدكتوراة في تخصص معارف الوحي والتراث الإسلامي تحت اشراف الأستاذ الدكتور إسرار أحمد خان والأستاذ الدكتور نور محمد عثمان، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا عام ٢٠١٨م، وقد تناولت هذه الرسالة أراء الشيخ المودودي حول مفهوم التربية ومنهجه في تربية الأفراد والأسرة والأمة من خلال كتابه تفهيم القرآن.

الفرق بين دراستي والدراسات السابقة

الدراسات السابقة معظمها اتفقت على دراسة علم من أعلام الدعوة إلى الله تعالى الثلاثة وجهودهم في إحدى المجالات الإسلامية من التفسير والعقيدة والدعوة، وهكذا ساهم كثير من الباحثين في إبراز أدوار مختلفة للسيرة النبوية ولهم الفضل في هذا؛ لكن هذه الدراسة أساسا تركز على استنباط فقه الدعوة على ضوء السيرة النبوية الصحيحة من خلال كتب هؤلاء الأعلام الثلاثة في السيرة النبوية، وقد اشتهروا وبرعوا في مجال الدعوة في العصر الحديث. ولا شك أن تناولهم لموضوع الدعوة في أسلوب جديد بلغة العصر تساعد الدعاة إلى الله في دعوتهم موضوعا، داعيا، مدعوا ووسائل وأساليب وما إلى ذلك.

منهج البحث: إن هذا النوع من الدراسة تقتضي استخدام المنهج الوصفي التحليلي المقارن، وذلك حتى يتمكن الباحث أن يأخذ الفكرة لتحليلها واستقراءها ومن ثم المقارنة بين أفكار هؤلاء الأعلام.

وكان أسلوبني في ذلك العرض كالتالي

١- عزوت كل آية وحديث إلى مصدرهما وجعلت ذلك في المتن بالنسبة للقرآن الكريم.

٢- خرجت الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في ثانيا الرسالة من كتب الحديث المشهورة، وذلك بذكر بابها وكتابها، وكذلك رقم الحديث؛ ومن ثم ذكرت الحكم عليها من خلال كتب الشيخ الألباني بالنسبة للسنن الأربعة،

وذكر حكم المحققين في باقي الكتب المذكورة، وتركت أحاديث كتاب الصحيحين بحجة تلقي الأمة لهما بالقبول.

٣- شرحت في أكثر الأحيان المصطلحات والكلمات الغريبة.

٤- عزوت كل قول أو نص إلى قائله وكاتبه في أسفل الصفحة بالهامش، فإن كانت مختصرة فنقلتها حرفيا وإلا صغتها بأسلوبي ومن ثم أشرت إليها في الهامش بلفظ "انظر".

٥- ترجمت للأعلام المعاصرين، وتركت الأعلام التراثية القديمة الذين اشتهروا واستغنوا عن التعريف كالصحابة والتابعين والأئمة المشهورين.

٦- لقد كان اعتمادي في كتابة البحث على كتب هؤلاء الأعلام باعتبارهم المصادر الأصلية لمعرفة أفكار المفكرين، ثم استعنت بكثير من المراجع الأخرى التي تعد مصادر ثانية.

٧- وضعت فهرس علمية في آخر الرسالة لكل من: الآيات القرآنية، الأحاديث النبوية، الأعلام، المصادر والمراجع وكذلك فهرس الموضوعات.

٨- طبق طبيعة الموضوع فقد قسمت البحث تقسيما زمنيا على حساب السيرة النبوية بالمرحلة المكية والمدنية كما هو المعمول في هذا الجانب، و تصنيفا دعويا طبق أركان الدعوة الأربعة، ومن ثم تقسيما فنيا بدراءة الأحداث والأفكار الدعوية عند كل من المودودي والغزالي والبوطي بدءا على تسابق الزمن الذي عايشوهم.

٩- وأخيرا، فإن هذا البحث وإن كان موضوعه يأتي في سياق الكتب المعاصرة إلا أن ذلك لا يغنيانا عن الاعتماد على التراث القديم الذي يمثل قاعدة انطلاق عند هؤلاء الأعلام الأجلاء.

خطة البحث

التمهيد وتشمل على جزئين:

١- فقه الدعوة وعلاقتها بالسيرة النبوية .

٢- نبذة عن حياة وكتب:

الف- التعريف بالإمام أبي الأعلى المودودي وكتابه سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم).

ب- التعريف بالشيخ محمد الغزالي وكتابه فقه السيرة

ج- التعريف بالدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وكتابه فقه السيرة

الباب الأول

فقه أصول الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي

الفصل الأول: فقه موضوعات الدعوة في العصر المكي

المبحث الأول: فقه موضوعات الدعوة عند الإمام أبي الأعلى المودودي في العصر المكي

المبحث الثاني: فقه موضوعات الدعوة عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المكي

المبحث الثالث: فقه موضوعات الدعوة عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في العصر المكي

الفصل الثاني: فقه موضوعات الدعوة في العصر المدني

المبحث الأول: فقه موضوعات الدعوة عند الإمام أبي الأعلى المودودي في العصر المدني

المبحث الثاني: فقه موضوعات الدعوة عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المدني

المبحث الثالث: فقه موضوعات الدعوة عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في العصر المدني

الباب الثاني

فقه الداعي والمدعو في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبطي

الفصل الأول: فقه الداعي في العصر المكي

المبحث الأول: فقه الداعي في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى المودودي

المبحث الثاني: فقه الداعي عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المكي

المبحث الثالث: فقه الداعي في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الفصل الثاني: فقه الداعي في العصر المدني

المبحث الأول: فقه الداعي في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى المودودي

المبحث الثاني: فقه الداعي عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المدني

المبحث الثالث: فقه الداعي في العصر المدني عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الفصل الثالث: فقه المدعو في العصر المكي

المبحث الأول: فقه المدعو في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى المودودي

المبحث الثاني: فقه المدعو عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المكي

المبحث الثالث: فقه المدعو في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الفصل الرابع: فقه المدعو في العصر المدني

المبحث الأول: فقه المدعو في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى المودودي

المبحث الثاني: فقه المدعو عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المدني

المبحث الثالث: فقه المدعو في العصر المدني عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الباب الثالث

فقه الوسائل والأساليب في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبطي

الفصل الأول: فقه الوسائل والأساليب في العصر المكي

المبحث الأول: فقه الوسائل والأساليب في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى المودودي

المبحث الثاني: فقه الوسائل والأساليب في العصر المكي عند الشيخ محمد الغزالي

المبحث الثالث: فقه الوسائل والأساليب في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الفصل الثاني: فقه الوسائل والأساليب في العصر المدني

المبحث الأول: فقه الوسائل والأساليب في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى المودودي

المبحث الثاني: فقه الوسائل والأساليب في العصر المدني عند الشيخ محمد الغزالي

المبحث الثالث: فقه الوسائل والأساليب في العصر المدني عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الفصل الثالث: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبطوطي في ميزان الدعوة

المبحث الأول: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الإمام أبي الأعلى المودودي

المبحث الثاني: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الشيخ محمد الغزالي

المبحث الثالث: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

- الخاتمة وفيها؛

- نتائج البحث

- التوصيات.

- الفهارس.

التمهيد

١- تحديد المفاهيم والمصطلحات

قبل الخوض في تحديد العلاقة بين السيرة النبوية وفقه الدعوة يحسن بنا أن نتطرق إلى تحديد المفاهيم والمصطلحات في هذا المجال:

١- **فقه الدعوة**: هذا المصطلح مكون من اسمين: الفقه، والدعوة.

الف- الفقه: أما الفقه لغة فهو العلم بالشيء والفهم له، وكذلك الفطنة، وغلب استعماله على علم الدين لفضله وسيادته وشرفه على كافة أنواع العلوم^(١). وقد ورد في جملة من الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢)، وقوله تعالى: ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٧٨).

و أما الفقه اصطلاحاً فقد عرفه جمع كثير من العلماء قديماً وحديثاً، وإن اختلف مفاهيمهم عن البعض عموماً وخصوصاً. ومن أقدم من عرفه الإمام أبو حنيفة رحمه الله (ت ١٥٠ هـ) قائلاً: هو "معرفة النفس ما لها وما عليها"^(٢). والمراد بالمعرفة ادراك الجزئيات عن دليل، وأما جملة "ما لها وما عليها" فيتناول جميع المستلزمات من الاعتقادات والسلوك، والأحكام العملية.

وقد فرق التهانوي^(٣) في موسوعته في صدد تعريف الفقه: فإن أريد بالفقه العلم المتداول زيد مصطلح عملاً على قوله "ما لها وما عليها"، وإن قصد الأقسام الثلاثة كلها فلا يزداد قيد عملاً. وذكر قول الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) كذلك أن الناس تصرفوا في اسم الفقه فخصوه بعلم الفتاوى، ولكنها في العصر الأول كان مطلقاً على علم الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس والاطلاع على الآخرة^(٤).

(١) انظر: ابن منظور الإفريقي، محمد بن مكرم جمال الدين، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ط ٣، ١٤١٤ هـ)، ج ١٣، ص ٥٢، مادة (ف ق هـ). وكذلك انظر: الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد، القاموس المحيط (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٨، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م)، ص ١٦١٤.

(٢) ابن نجيم المصري، زين الدين بن إبراهيم، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (بيروت: دار الكتاب الإسلامي، ط ٢، ب ت)، ج ١، ص ٦. وانظر: ابن عابدين، حمد أمين بن عمر بن عبد العزيز، رد المحتار على الدر المختار (بيروت: دار الفكر، ط ٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م)، ج ١، ص ٦١.

(٣) التهانوي محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد (٠٠٠ - بعد ١١٥٨ هـ): باحث هندي له كشف اصطلاحات الفنون. أنظر: الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ٢٩٥.

(٤) انظر: التهانوي، محمد علي، كشف اصطلاحات العلوم والفنون (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٦)، ج ١، ص ٤٠.

و أما الجرجاني^(١) ففي كتاب التعريفات أخذ الفقه بتعريفه المتداول بين الفقهاء: بأنه "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية. وقيل هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم، و هو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل"^(٢).

و أرى أن الفقه بغير معناه المتداول كعلم للأحكام الشرعية العملية دالة على كشف المعاني واستنباط الأحكام عن طريق النظر والاستدلال ومن ثم ينسب ويضاف إلى كل معرفة انسانية.

ب- الدعوة: أما الدعوة لغة فالكلمة مشتقة من فعل (دعا)، ومن مشتقاته دعوا، دعوة، دعاء، دعوى. و أصل الفعل يرد على عدة معان؛ ومن أشهرها: الطلب، فيقال دعا بالشيء أي طلب احضاره، و بمعنى الاحتياج كقوله دعا بالكتاب و الشيء إلى كذا أي احتاج إليه. وترد بمعنى الدعاء كقوله: دعا الله أي رجا منه الخير، أو دعا على فلان، كما ترد بمعنى الحث والترغيب كقوله: دعا إلى الشيء أي حثه على قصده، ومن أشهر معانيه كما يقال: دعاه إلى الصلاة أو القتال، دعاه إلى الدين أو إلى المذهب أي حثه على اعتقاده. وكذلك ساقه إليه كقوله: دعاه إلى الأمر، وترد بمعنى الدفع والاضطرار كقوله: ما دعاه إلى أن يفعل كذا أي ما اضطره و دفعه^(٣).

الدعوة: اصطلاحاً: مصطلح الدعوة وإن كان لغوياً يطلق على كل طلب أو حث أمر، إلا أنها في الشريعة الإسلامية يراد منها الدعوة إلى الله و دينه؛ ومن ثم وردت لها تعريفات منها:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): "الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا و ذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة و صوم رمضان و حج البيت و الدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه و رسله و البعث بعد الموت و الإيمان بالقدر خيره وشره و الدعوة إلى أن يعبد العبد كأنه يراه"^(٤).

(١) الجرجاني علي بن محمد بن علي (٨١٦هـ - ١٣٤٠هـ): فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية. ولد في تاكو ودرس في شيراز إلى أن توفي بها. له نحو خمسين مصنفًا، منها: التعريفات. أنظر: الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٧.

(٢) الجرجاني، علي بن محمد، كتاب التعريفات (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، ص ١٦٨.

(٣) انظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط (القاهرة: دار الدعوة، ب. ت. ط)، ج ١، ص ١٩٤. وكذلك: الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (بيروت: المكتبة العلمية، ب. ت. ط)، ج ١، ص ١٩٤.

(٤) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، ج ١٥، ص ١٦٨.

٢- ويقول الدكتور أحمد غلوش^(١): "الدعوة هي العلم الذي به تعرف سائر المحاولات والجهود الفنية والرامية إلى تبليغ الناس الإسلام وبما يشتمل: من عقيدة، و شريعة و أخلاق"^(٢).

٣- ويرى الدكتور عبد الكريم زيدان^(٣): نعني بالدعوة؛ الدعوة إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨)، و المقصود بالدعوة إلى الله: "إلى دينه وهو الإسلام" ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩)

الذي جاء به محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى"^(٤). والناظر ليرى في هذه التعريفات تكاملاً لبعضها البعض و أن المراد بالدعوة الإلهية هي الحث و طلب الناس إلى الدين الإسلامي وشريعته الكاملة، و أضيف نسبتها إلى الله عز وجل بناء على إيراد المصطلح القرآني، و بما أن الدين وضع إلهي فنسب الدعوة إليه.

ج- **فقه الدعوة:** و أما مصطلح فقه الدعوة كعلم مسمى لهذا العلم فلا تتفاوت عن سابقتها إلا من ناحية المنهجية و الأصول، وقد عرفها بعض اهل العلم كالتالي:

فقه الدعوة: هو فهم واستنباط تاريخ الدعوة مع كافة أركانها وأساليبها و وسائلها و أهدافها، مع نتائجها على ضوء الكتاب و السنة، و كذلك فهم السلف الصالح؛ ويمكن ذلك الدعاة من عرضها بأحسن طريقة و أكثر ملاءمة لمن توجه إليهم الدعوة في مختلف البيئات، و تباين الألسنة، و تعدد الأجناس^(٥). وبناء على ما تقدم ففقه الدعوة عبارة عن دراسة أصول ومنهجية الدعوة المتعلقة بأركانها، أي موضوعها، داعيا، مدعوا، و وسائل و أساليب، إلى جنب تاريخها ونتائجها المرجوة في ضوء أصول النص الصحيح و فهم المتخصصين؛ و ذلك بغية استخدام أمثل الطرق سهولة و أكثرها ثمارا .

(١) الدكتور أحمد غلوش: كاتب وأكاديمي مصري، ولد عام ١٩٣٦م. تخرج من جامعة الأزهر كلية أصول الدين تخصص الدعوة الإسلامية، عمل إماماً وخطيباً ومن ثم أستاذاً في كلية أصول الدين؛ يعد من مؤسسي كلية الدعوة الإسلامية بالأزهر، وهو أول رئيس لها، ثم أعير إلى جامعة الملك سعود بالرياض ومن بعدها جامعة أم القرى بمكة المكرمة. وهو صاحب قلم وكتابات في مجال الدعوة الإسلامية من خلال دعوة الأنبياء والمرسلين، وخصوصاً في سيرة الرسول ﷺ في كلتا مرحلتي الدعوة المكية والمدنية. انظر: الدكتور أحمد غلوش شيخ أساتذة الدعوة في مصر (سيرة ومسيرة)، جريدة المحجة، العدد: ٤٣٨، ٢٠١٧م. almahajjafes.net

(٢) غلوش، أحمد أحمد، الدعوة الإسلامية- أصولها ووسائلها (القاهرة: دار الكتاب المصري، ط ٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، ص ١٠.

(٣) الدكتور عبد الكريم زيدان (١٩٢١ م - ٢٠١٤): المراقب العام السابق لجامعة الإخوان المسلمين في العراق، وأحد علماء أصول الفقه والشرعية الإسلامية. رحل إلى العمل في اليمن وعمل في العديد من جامعاتها. عمل كأستاذ الشريعة الإسلامية ورئيس قسمها في كلية الحقوق بجامعة بغداد سابقاً، كما عمل وزيراً لأوقاف العراق عام ١٩٦٨م. له مؤلفات قيمة في موضوعات مختلفة منها: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية و أصول الدعوة. انظر: ويكبيديا العربية.

(٤) زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٩، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م)، ص ١٠.

(٥) انظر: القحطاني: سعيد بن علي بن وهف، فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط ١، ١٤٢١هـ)، ص ٦. وكذلك: محمود: علي عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله (المنصورة: دار الوفاء للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٠هـ)، ج ١، ص ١٨.

و فقه الدعوة بهذا المعنى قد تختلف عن الدعوة و ذلك لأن الثاني يتناول موضوع و رسالة الإسلام، و أما الأول فموضوعه ضوابط الدعوة التي يجب على القائمين أخذها و هو بذلك بضاعة و تخصص الدعوة دون غيرهم.

٢- المنهج: في اللغة: مصدر لفعل نَهَجَ ، و معناه وضح و استبان، يقال: طريق نهج أي بين واضح، و كذلك يرد بمعنى السلوك كقوله: استنهج الطريق أي صار نهجا و سبيل فلان، سلك مسلكه ، و منه المنهاج وهو الطريق الواضح كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) (١).

و في المصطلحات المعاصرة نعني بالمنهج الخطة المرسومة، و منه مناهج الدراسة و التعليم ونحوه. و أما في الإصطلاح فمفهومها تبع لطبيعة اختصاص المضاف إليه مثل مناهج الفكر، مناهج البحث، مناهج التفسير، مناهج الدعوة، والتي تعني في مجموعها الطريق البين، الخطة المرسومة و ما إلى ذلك.

٣- السيرة النبوية: السيرة لغة: الطريقة، يقال: سار بهم سيرة حسنة. والسيرة بمعنى الهيئة كما في القرآن الكريم ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه: ٢٠)، و السيرة كذلك نوع من السير (٢).

السيرة اصطلاحاً: لقد عرف أكثر أهل العلم السيرة النبوية ضمن السنة النبوية و ذلك لأن من معاني السيرة في اللغة السنة، و بالتالي اشتمل كذلك على ذكر حياة النبي ﷺ كلها قبل البعثة حتى وفاته. و قد أفرد البعض تعريفات لها من ضمنها:

١- السيرة النبوية هي "الترجمة الماثورة لحياة النبي ﷺ" (٣).

و الملاحظ أنه إذا قيل السيرة النبوية فإنما يراد به سيرة المصطفى ﷺ و ذكر أدق تفاصيل حياته سواء كانت قبل بعثته أو بعدها، و من ثم درج أهل العلم حياة النبي ﷺ بالسيرة النبوية.

٢- السيرة هي حياة الرسول ﷺ من الولادة إلى الوفاة بمراحلها و تفاعلاتها المختلفة الشخصية و الاجتماعية.

و الناظر في هذا التعريف يرى شمول حياة النبي ﷺ من ولادته إلى وفاته، و إن كان لفظ (النبوية) توحى بادي الأمر بأنها تبحث في عصر النبوة فحسب، و لكن لما كان الإنسان ابن بيئته و ظروفه التي يعيش فيها و ينشأ بين أجوائها، فلا بد من دراسة هذه كلها إلى جوانب التأثير و التأثر من خلال طفولته و شبابه من حيث النواحي الاجتماعية، و الطبيعية و الاقتصادية و السياسية.

و على صعيد آخر معرفة الصفات الانسانية الفطرية و الوراثة تساعد كذلك على معرفة الشخصية الانسانية و بالتالي لجأ أهل السيرة في دراستهم إلى التعرف على النسب و الآباء و الأجداد، كما عكفوا على حياته ﷺ قبل النبوة حتى

(١) انظر: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٩٥٧. وكذلك: الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح (بيروت: المكتبة العصرية، ط ٥، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، ص ٣٢٠.

(٢) انظر: القاموس المحيط، ص ٤١٢. و المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٦٧.

(٣) العواجي، محمد بن محمد، أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ب ت ط)، ص ٧.

يطلعوا على جميع جوانب الحياة الشريفة قبل البعثة وبعدها... و كل هذا للاطلاع بكل ما يحيط بصاحب السيرة من عوامل فاعلة في حياته و حياة المجتمع المحيط^(١).

٤- المعاصرون: لفظ المعاصرين جاءت لتحديد الوقت الزمني لهذه الدراسات.

ليس المقصود من الدراسات والمؤلفات القديمة في السيرة النبوية، و الذي يمثل تراثا إسلاميا هائلا، بل المراد هو الكتابات التي ألفها المؤرخون و المفكرون في العصر الحاضر. و التي تميزت بالواقعية و مستجدات و تطورات القضايا التي لا توجد في غيره، فكل عصر يصنعه علماءه ومفكره.

والسيرة النبوية كغيرها من المعارف شهدت في الآونة الأخيرة طفرة واسعة من ناحية الشكل و المضمون والتي حظيت بالقبول في الأوساط المختلفة و أدت إلى انتشار رسالتها بين الشرائح المختلفة.

٢- فقه الدعوة و علاقتها بالسيرة النبوية

إن الدعوة إلى الله سبحانه و تعالى من أشرف مسالك الدين، والخوض في مباحثه ومجالاته من أهم موضوعات هذه الشريعة السامية، و يكفي استشهادا على ذلك الموقف القرآني الواضح تجاه هذه القضية؛ فهو الذي حدد موضوعها، و رسم مناهجها و قص تاريخها عبر تاريخ الرسالات السماوية، و وضع معالم أساليبها و وسائلها... و بالتالي فالدعوة هي الهدف الأول من القرآن الكريم وغايته السامية.

و لقد حفل القرآن الكريم في أكثر من آياته الدالة على هذه الحقيقة؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩). ويقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١). وبناء على ذلك فالقرآن الكريم هو كتاب الدعوة، و لا جديد في الدعوة بعد القرآن الكريم، اللهم إلا الاجتهادات العقلية في مجال التطبيق، و الملائمة بين القضية و الواقع في اطار مفهوم القرآن الكريم.

والرسول ﷺ بعث للدعوة فهي مسؤوليته ووظيفته، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧).

وقد أكد الله صفة نبيه ومهمته مرتبطين بالدعوة قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وداعيا إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦).

ومن هنا يرى الناظر أن هناك تزاوجا واضحا بين القرآن الكريم وبين سنة رسول الله ﷺ في الدعوة وكذا الصلة الوثيقة بينهما، فالقرآن الكريم دعوة تعليمية، توجيهية؛ و سيرة رسول الله ﷺ دعوة تطبيقية عملية؛ وبهذا التلاقي

(١) انظر: رضا، صالح أحمد، إنها النبوة - بصائر وعبر من سيرة خير البشر - (دبي: دار الخيل للنشر والتوزيع، ط ٣، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م)، ص ٢٤.

تحققت المثالية الإسلامية في مجال الواقع والتقت الفطرة البشرية مع الوحي الإلهي العظيم، وتجسدت في رسول الله ﷺ الذي جعل القرآن تطبيقاً عملياً في خلقه وسلوكه^(١).

ولقد صرح بهذا المعنى السامي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وهم الذين شهدوا تنزيل الوحي ورأوا تجسيده بالمعنى الشامل في رسول الله ﷺ. فعن سعد بن هشام بن عامر، قال: أتيت عائشة، فقلت: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِيَنِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)^(٢).

ومن هنا جاءت السيرة النبوية ﷺ إبرازاً لشخصيته الكريمة في خصائصها وكمالاتها من جانب، وكذلك تاريخاً للدعوة وازدهاراً لجهاده ﷺ وتحمل مشاق الدعوة الذي يتحرك بها مع الناس من جانب آخر.

وصفوة القول إن السيرة النبوية لم تعد مجرد تاريخ يقال أو يكتب؛ بل هو صارت الدين كله. فالسيرة النبوية تحتضن في طياتها وذلك من خلال الأحداث والوقائع التي واجهتها الرسول الكريم ﷺ العطاء الفياض الرائد في التربية والتوجيه، ويلزم على دارسها أن يوسع نظره لكي يستوعب جل جوانبه؛ شخصية، سياسية، دعوية، واجتماعية.

والفارق الأساسي الذي يميز بها السيرة النبوية عن باقي السير أنها "معالجة واقعة تمتد جذورها إلى عالم الغيب، وترتبط أسبابها بالسماء ويكون فيها الوحي همزه وصل مباشرة بين الله سبحانه ورسوله الكريم، ويتربى في ظلها المنتمون على عين الله ورسوله ليكونوا تعبيراً حياً عن إيمانهم، وقدوة حسنة للقادمين من بعدهم"^(٣).

وإذا كانت السيرة النبوية هي الدين المتجسد في شخصية الرسول ﷺ فإنها تعد كذلك زاداً كاملاً لكل شرائح المجتمع بحجة أن الرسول ﷺ الشخصية الكاملة الفذة، وهو ذو أبعاد إنسانية بكاملها.

وبالتالي فهو قدوة لقائد محارب، وحاكم حكيم، وسياسي محنك، ومربي وداع بارع وزاهد وقاض عادل... وعلى هذا فكل مسلم يجد بغيته فيها.

وأما ما يتعلق بالدعوة فإنه الميدان الرحب للدعاة حيث يتمكنهم من أخذ أساليب الدعوة ومراحلها المتسلسلة ويتعرفون من خلالها معرفة الوسائل المناسبة لكل طور من أطوار الدعوة. وبالتالي يستفيدون في اتصاله بالناس ودعوتهم للإسلام، وسوف يدركون من خلال اطلاعهم على مدى الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ من أجل إعلاء كلمة الله كما أنهم يقفون على كيفية التعامل والتصرف أمام العوائق والتحديات والصعوبات التي يواجههم أهل الحق من أصحاب الباطل، ويعلمهم الموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن.

(١) غلوش، أحمد أحمد، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (القاهرة: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، ص ١٧.

(٢) أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنه، رقم الحديث: ٢٤٦٠١. (المسند بتحقيق شعيب الأرنؤوط)، وقال: حديث صحيح.

(٣) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، السيرة النبوية (دمشق: دار ابن كثير، ط ١٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)، ص ١٥.

والسيرة النبوية تعين الدعاة في مجال الدعوة والتربية حيث يمكن أصحابها التأثير على المدعوين وذلك من خلال تربية الرسول ﷺ لأصحابه الأجلاء؛ وهم الذين رباهم على يديه وكلاهم بعنايته، فأخرج منهم جيلا قرآنيا فريدا وكون منهم أمة هي خير أمة للناس في مشارق الأرض ومغاربها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ومن ثم على إثرها قاموا ببناء دولة سادت العدل بين أتباعها^(١).

وقد تنبه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين على أهمية هذا العلم وتمسكوا بها بحجة أن تناولها سبب لتعليم الآداب الرفيعة والأخلاق الحميدة والعقائد السليمة والعبادة الصحيحة، وسمو الروح وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة في سبيله. ولهذا قال الواقدي^(٢): "وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَمِّي الزُّهْرِيَّ يَقُولُ: فِي عِلْمِ الْمَغَازِي عِلْمُ الْآخِرَةِ وَالْدُّنْيَا. وَقَدْ رَوَى الْوَاقِدِيُّ كَذَلِكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أَبِيهِ سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: كُنَّا نَعْلَمُ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ كَمَا نَعْلَمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ"^(٣).

والناظر في التراث الهائل للأمة الإسلامية لسوف يجد مؤلفات ضخمة وموسوعات عملاقة حول السيرة النبوية، وهذا يدل على:

١- إن الدنيا لم تعرف بشرا أحصيت آثاره ونقدت بجذره، ومحصت بدقة كما حدث في آثار محمد بن عبد الله ﷺ.

٢- إن في السنة كنوزا من الحكمة العالية، لونسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين. فعلى سبيل المثال: عندما نأخذ تراث محمد ﷺ في الأخلاق وذاكرنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل، خيل إلينا لو أن جيشا من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب، ولا شك أن الأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد ﷺ^(٤).

(١) انظر: الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية- عرض وقائع وتحليل أحداث (لبنان: شركة أبناء شريف الأنصاري، ط ١٢، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م)، ص ٦-٥.

(٢) الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧ هـ): محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث. ولد بالمدينة، وكان حناطا (تاجر حنطة) بها، وضاعت ثروته، فانتقل إلى العراق سنة ١٨٠ هـ في أيام الرشيد، واتصل ييحيى بن خالد البرمكي فأفاض عليه عطايه وقربه من الخليفة، فولى القضاء ببغداد. واستمر إلى أن توفي فيها. من كتبه: المغازي النبوية. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ٣١١. (٣) لقد اشتهرت علم السيرة النبوية بأسماء عديدة منها مصطلح السيرة والمغازي. فقد ذهب طائفة من المحققين أن لفظة السيرة والمغازي مستعملان بمعنى واحد، ولا يفرق بينهما. وقد سمي ابن اسحاق كتابه بالمغازي رغم أنه يتناول جميع أبحاث السيرة وإن كانت لفظ المغازي تدل على سرد حوادث الغزوات و سرايا النبي صلى الله عليه وسلم، كما أن لفظة السيرة غير مقيدة بسيرة وأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فالتنوع الواسع في المواضيع ظاهرة مهمة في أدب السيرة والمغازي. انظر: الواقدي، محمد بن عمر بن واقد، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس (بيروت: دار الأعلمي، ط ٣، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م)، ج ١، ص ١٩.

(٤) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، المحقق: علي شيري، البداية والنهاية (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م)، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٥) انظر: حوى، سعيد، الأساس في السنة وفقهها (القاهرة: دار السلام، ط ٣، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م)، ج ١، ص ١٢

ومما يلفت أنباه القراء في هذا التراث الضخم في كل الأزمنة أن الكتابات وإن تشابهت في سرد وتاريخ الأحداث بحجة أن السيرة جزء منها عرض الحوادث والحياة الكريمة إلا أن فقهها تختلف عن مؤلف إلى مؤلف ومن زمان إلى زمان ومن جانب إلى جانب.

ولهذا أكد الباحثون على متناولي هذا الفن الخوض في فقه السيرة حتى يعيش كاتبها مع الأحداث لاستخراج العبر حتى لا تروى السيرة في صورة جامدة خامدة لا يليق برسول الله ﷺ الذي أفنى حياته في خدمة الإسلام وتبليغ الدعوة والدفاع عن دين الله... وجملة فإن السيرة النبوية إذا درست مع التحليل واستنباط العبر فإنها تعد تاريخاً للدعوة في عصر الرسول ﷺ.

وبناء على ما تقدم فقد عد دارسو السيرة النبوية الطاهرة أهداف هذا العلم الشريف إلى أهداف متعددة تتعلق أكثرها بالدعوة الإسلامية، نذكر بعضها:

- ١- إن السيرة النبوية وقوف على التطبيق العملي للأحكام الإلهية المبينة في القرآن الكريم والسنة النبوية.
- ٢- إن التأسى بالرسول الكريم تقتضي معرفة شمائله وأحواله؛ لأن معرفة الخصائص والحياة تورث محبة واقتداء المحبوب، وبالتالي تورث معه محبة الله عزوجل حيث يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

٣- الدارس للسيرة النبوية يقف على دلائل معجزاته، ودلائل نبوته وهذا ما يقوي الإيمان.

٤- إن معرفة ما حفلت به السيرة من مواقف إيمانية التي وقفها الرسول ﷺ وأصحابه لإعلاء كلمة الله سبب لتقوية عزائم المؤمنين السائرين على منهج درس الرسول الكريم. كما يثبت أقدام هؤلاء في سبيل الدفاع عن الدين والحق وطمأنية لنفوسهم.

٥- السيرة النبوية حافل بالدروس والعظات والحكم ولا يعتبر بها إلا من كان ذا لب حاكماً أو محكوماً.

٦- السيرة النبوية درس شامل وخير مواساة للدعاة في مواجهة أنواع الإبتلاءات والمحن التي يواجهونها، كما أنها نبع تربوي صاف لترشيدهم في جميع الجوانب.

٧- السيرة النبوية خير معين على فهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

٨- يتعرف القاريء والدارس للسيرة النبوية على تطور الدعوة الإسلامية، وما لاقاه الرسول الكريم وأصحابه في أمر الدعوة من مشاكل وتحديات ثم كيف تصرف هؤلاء في تذليل تلك العقبات وحل تلك المشاكل.

٩- إن السيرة النبوية تعد حركة الرسول بالدعوة، وإبراز كيفية مواجهته للناس على اختلافهم. فمنهم الملائ، ومنهم الضعيف والسادة والعبيد... وبذلك دعا الرسول ﷺ قومه جميعاً ووصل إلى عقولهم، وناقش حججهم وهدم ضلالهم... وبذلك تظهر منهجية الدعوة.

١٠- من قراءة السيرة تستنبط الركائز المستفادة من دعوة الرسول ﷺ حتى تكون ركيزة يستفاد بها في الدعوة إلى الله تعالى^(١).

وما سبق من أهداف السيرة النبوية السالفة وإن كانت دالة على وجه العموم على كل شرائح العلوم والفنون إلا أنها حظيت بنصيب أكبر للدعاة والمربين الذين أخذوا على عواتقهم الدعوة والتوجيه والبلاغ بحجة أن النبي ﷺ وسيرته الطيبة ما هي إلا توجيه ودعوة للدين، فما من موقف إلا وتفوح منه رائحة الدعوة والبلاغ، وبالتالي فكل الأحداث والمواقف النبوية محطات وينابيع دعوية تجدر أن تؤخذ منه المادة والتوجيهات الدعوية.

وجملة فإن السيرة النبوية تعد زادا ودليلا للدعاة في كل جوانبها والذي يستغنيها عن سواها. ومن هذه المآثر تعين الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح. والناظر في تاريخ الأمم السالفة ليدرك أين يتجه؟ وإلى أين المصير؟. وقد كان معايير الحياة قبله ﷺ امتلاك النفر والمال ومن ثم السيطرة والنفوذ على الآخرين، وما أن جاء الحبيب المصطفى حيث انقلبت الأهداف وغير المسار إلى معناه الحقيقي وهو معرفة فاطر السموات والأرض، وأن المجال الحقيقي لجهد الإنسان هو الفوز برضوان الله وحده، والرضا به وبقدره؛ وبالتالي فهي السعادة الحقيقية ونهاية كماله ومعراج قلبه وروحه، وما كان هذا التغير المعكوس في مسيرة الإنسان طفرة فجائية؛ بل كانت بفضل الله وما وضعه الرسول ﷺ من قواعد التربية وأصول الدعوة. فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ

اتَّبَعَنِي وَسُبِّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (يوسف: ١٠٨)^(٢).

ومن هذا المنطلق فقد أنزل الله على رسوله ﷺ القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وقد كان مهمة هذا النبي العظيم كما يقول الشيخ محمد عبد الله دراز^(٣): "ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا: الوعي والحفظ، ثم الحكاية والتبليغ، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ. أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه ما هو منهما سبيل وليس له من أمرهما شيء، إن هو إلا وحي يوحى"^(٤). وهناك كثير من آيات كتاب الله دالة على بيان مهمة النبي ﷺ قائلا: ﴿هُوَ

(١) انظر: أحمد، مهدي رزق الله، صفوة السيرة النبوية في سيرة خير البشرية (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط ٣، ١٤٢٣هـ - ٢٠١١م)، ص ٦-٥. وكذلك انظر: أحمد، مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ص ١٤.

(٢) حمزة، عمر يوسف، أهمية السيرة النبوية في ثقافة الداعية، ص ١٣. (جامعة قطر، بحث منشور على Q Space المستودع الرقمي، ١٩٩٠م. Qspace.qu.edu.qa)

(٣) محمد بن عبد الله دراز (١٨٩٤م - ١٩٥٨م) فقيه وأديب وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس تحت عنوان (دستور الأخلاق في القرآن). إثر عودته إلى مصر في مارس ١٩٤٨م انتدب لتدريس علم تاريخ الأديان والتفسير بجامعة القاهرة وكذلك مادة اللغة العربية وتدريس فلسفة الأخلاق في قسم التخصص بجامعة الأزهر. وظل يكتب في موضوعات عديدة، ومن ضمن مؤلفاته: النبأ العظيم. انظر: الموسوعة العربية العالمية.

(٤) دراز، محمد بن عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم (القاهرة: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م)، ص ٤٩.

الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾

وقد ذهب المفسر الفقيه ابن عطية^(١) بأن المراد بالكتاب في الآيات المذكورة القرآن الكريم، "والحكمة هي: السنة المتعلمة من لسانه عليه السلام"^(٢).

وعلى المنهج السابق فقد سار النبي ﷺ يدعوا الناس إلى الإسلام بدءاً بتلاوة آيات الله، وهو أسبق في الترتيب من التزكية والتربية، وحتى التعليم لأحكام الدين، وذلك لأنه المتبادر للذهن بخلاف العرض والدروس المتأنية التي يحتاج إلى فكر وتدبر.

وعلى هذا فقد انتهج النبي ﷺ في دعوته بأسلوب حكيم، فقد أوتي جوامع الكلم؛ حيث كانت كلمات قليلة يحصيها العاد ولكن تضيء في الحال طريق العمل، وتلبي حاجة المتعجل، وإن كان لها في ذات الوقت أعماق بعيدة لا يبلغ الواعي مداها.

والأمثلة على هذا كثيرة، فقد أفرد العلامة المحدث عبد الفتاح أبو غدة^(٣)، وعد هذه الأساليب في كتابه القيم بعنوان (الرسول المعلم وأساليبه في التعليم) واستدل منها على كمال شخصيته التعليمية والدعوية مقارناً؛ لقد أثبت التاريخ أن رسول الله ﷺ كان معلماً، ومن خلال النظرة اليسيرة إلى ما كانت عليه البشرية قبل نبوته وبعدها تعطينا أوضح شاهد ودليل على ثبوت ذلك.

وإذا لاحظنا النماذج العملية الهادئة من النوع الإنساني التي شاهدها البشرية بعد الرسول المعلم ﷺ رأيناها تدل أقوى الدلالة على عظم هذا المعلم والمربي الكبير والذي تتقاصر أمامه أسماء كل الكبار الذين عرفوا وذكروها في عالم التعليم والتربية وتاريخهما.

وعلى هذا فيقول: "فأي معلم من المرين تخرج على يديه عدد أوفر وأهدى من هذا الرسول الكريم الذي تخرج به هؤلاء الأصحاب والأتباع؟ فكيف كانوا قبله؟ وكيف صاروا بعده؟. إن كل واحد من هؤلاء الأصحاب دليل ناطق على عظم هذا المعلم المربي الفريد الأوحد"^(٤).

(١) ابن عطية (٤٨١ - ٥٤٢ هـ): مفسر فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة. عارف بالأحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملشمين. له المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٢٨٢.

(٢) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢ هـ)، ج ١، ص ٥٣٧.

(٣) عبد الفتاح أبو غدة (١٩١٧م - ١٩٩٧م): عالم دين سوري، باحث محقق، وأستاذ جامعي ومحدث مسند، واشتغل معه منصب المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا. وله مؤلفات قيمة في علم الحديث وأصوله. انظر: الموسوعة العربية العالمية.

(٤) أبو غدة، عبد الفتاح، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم (بيروت: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط ٤، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م)، ص ١٤.

ونظرا إلى هذه الثمرة البانعة نقل الإمام القرافي^(١) قول بعض جهابذة الأصوليين حينما قالوا: "لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته. فقد روي أن عليا رضي الله عنه جلس عند ابن عباس رضي الله عنهما يتكلم في الباء من (بسم الله) من العشاء إلى أن طلع الفجر"^(٢).

وخلاصة القول فإن السيرة النبوية هي المصدر الفياض للدعوة من جهة المصدر، الأساليب، والموضوع والقواعد التي يجب أن يأخذ بها الدعاة في مسيرتهم النيرة. وهكذا تاريخ جميع الأنبياء، والسيرة النبوية تاريخ لمسير الدعوة الإسلامية، تنير الطريق لسائرهم، وكذلك تعلمهم أصولها، موضوعها وقواعدها التي نحتاج إليها في صفات الدعاة وكيفية التأثير بالمدعوين.

٣- نبذة عن حياة الإمام السيد أبي الأعلى المودودي وكتابه سيرت سرور عالم :

تشهد الأمة الإسلامية في العصر الحاضر عددا من المفكرين والمصلحين الذين قاموا بمهمة الدعوة الإسلامية وفحص ما يعانيها هذه الأمة من أزمت فكرية وعقدية؛ ولذلك قدموا جهودا جبارة خلال تفحصهم وخطاباتهم وكتاباتهم في ضوء سيرة إمام الدعاة والمرسلين محمد ﷺ، فقدّموا فقه سيرته النيرة بأسلوب وزاد دعوي تعد كل واحد منهم دعاويا على حدة في هذه المسيرة المباركة، ومن هؤلاء الأعلام الأجلاء الإمام السيد أبو الأعلى المودودي، الشيخ محمد الغزالي، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وفيما يلي نبذة يسيرة عن حياة هؤلاء الأعلام وجهودهم في السيرة النبوية.

١- نبذة عن حياة الإمام المودودي وتعلمه

لقد ألقى الإمام المودودي نظرة عابرة على حياته وسيرته وكذلك نظرياته ودعواته في مؤلفاته الخاصة وذاكراته؛ وحسب شهادة المؤرخين إن أدق المعلومة هو ما يكتبه الإنسان عن نفسه أو ما يمليه للآخرين. فالإمام المودودي كما يقول عن نفسه تنتسب إلى بيت معروف بالعلم والورع والزهد والتي تمتد جذورها إلى أسرة عريقة الأمجاد من أهل البيت في القرن الثالث الهجري. وقد اتخذت منطقة (چشت) من محافظة هرات الأفغانية موطنًا ومسكنًا لها، و إلى نفس الأسرة تنتسب الشيخ قطب الدين مودود چشتي^(٣) شيخ شيوخ سلسلة الجشتية الهندية، ورئيس الأسرة المودودية. وقد انتقلت هذه الأسرة في أواخر القرن التاسع الهجري من چشت هرات إلى

(١) القرافي (ت ٦٨٤ هـ): أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، من علماء المالكية ومن برابرة المغرب، سمي بالقرافي نسبة إلى القرافة (المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي) بالقاهرة. وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. له مصنفات جليّة في الفقه والأصول، منها: أنوار البروق في أنواء الفروق. انظر: الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد، الأعلام (دمشق، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م)، ج ١، ص ٩٤.

(٢) القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس، أنوار البروق في أنواء الفروق (الفروق) (بيروت: عالم الكتب، ب ت ط)، ج ٤، ص ١٧٠.

(٣) خواجه قطب الدين مودود چشتي (٤٥٩هـ-٥٢٧هـ): عارف كبير وشيخ سلسلة الجشتية الصوفية، يمتد سلالة نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنه. حفظ القرآن الكريم في الصغر ومن ثم تداول العلوم الشرعية والعقلية المتداولة في زمنه. خلف والده بعد وفاته في ميدان العلم والتزكية؛ فالتف حوله ألوفا من الخلق يدعوههم إلى الله وسلوك طريقه. انظر: الكاندهلوي، محمد زكريا، تاريخ مشايخ چشت (كراتشي: مجلس نشریات اسلام، ١٣٩٧هـ)، ص ١٥٩-١٦٠.

الهند وذلك في زمن سكندر اللودهي^(١) على يد رئيسهم أبو الأعلى المودودي (ت ٩٣٥هـ) الجد الأكبر لصاحب الترجمة، وقد اقتطن في مدينة (برناس) الواقعة شمال غرب العاصمة دلهي، وانتقلوا بعدها في عهد ملوك المغول شاه عالم إلى العاصمة دلهي إلى أن استقر بهم المقام أجيالا بعد جيل^(٢).

أما المودودي فقه ولد في بيت والده سيد أحمد حسن المودودي عن السيدة رقيه بيگم في ٣ رجب ١٣٣١هـ الموافق ل ٢٥ سبتمبر ١٩٠٣م في مدينة اورنگ آباد من محافظة الدكن، وقد سماه والده تيمنا باسم جده الأكبر أبو الأعلى المودودي. فتح المودودي عينيه في أسرة صالحة معروفة بالورع والتقوى حيث ترك والده عمل المحاماة بعد ولادته بسنة واعتزل عن مشاغله الدنيوية للزهد والعكوف على العبادة والأذكار؛ وقد كان لهذا أثر كبير في حياته حيث رسم في قلبه وعقله معالم الدين العميقة.

حرص والده على تربيته وتنشئته بمنهج الإسلام، فعلمه العلم والتربية في بيته بنفسه وبعض الأساتذة؛ حيث درس القرآن الكريم والحديث والفقه، كما تعلم اللغات العربية والأردية والفارسية.

وقد عرف بالذكاء الفائق وقوة الحافظة منذ صغره حتى أنه قام بحفظ كتاب الموطأ للإمام مالك رحمه الله في هذه الفترة المبكرة من عمره^(٣). كان والده حريصا على تربيته وتنشئته بالعلوم الدينية حتى أنه جنبه بادي الأمر عن دراسة العلوم واللغة الإنجليزية، وكان بالمقابل جل اهتمامه بالعربية وما يتصل من علوم وفنون؛ وسرعان ما برزت تفوقه فيها حتى أنه استطاع ترجمة كتاب (الإسلام والإصلاح) للشيخ عبد العزيز جاويز^(٤)، وكتاب (المرأة الجديدة) للكاتب المصري المشهور قاسم أمين^(٥) إلى اللغة الأردنية، ولم يتجاوز آنذاك الثالثة عشرة من عمره^(٦).

لقد بدأ الشيخ أبي الأعلى المودودي التعليم البدائي في بيته وبيئته حتى ظهر فيه نوع من التفوق والنبوغ وهذا ما تأهله بالالتحاق بالسنة الثامنة من المدرسة الفرقيانية^(٧) بأورنگ آباد وذلك في المرحلة (الرشيدية)، وكان آنذاك عمره

(١) سكندر اللودهي: ثاني سلاطين السلالة اللودية الأفغانية والذين حكموا على دلهي، اعتلى عرش السلطنة سنة ٨٩٤هـ، وتوفي سنة ٩٢٣م في مدينة أغرة التي أسسها، واشتهر بسيرته الحسنة وحبه للعلم. انظر: ويكبيديا العربية، الموسوعة الحرة.

(٢) انظر: جيلاني، أسعد، أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته (باكستان: الأكاديمية الإسلامية بمنصورة، ط ٦، ١٩٨٣م)، ص ١٦-١٧.

(٣) الحامدي، خليل، الإمام أبو الأعلى المودودي (حياته، دعوته، جهاده) (الرياض: مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤٠٣هـ)، ص ١٦-١٧.

(٤) عبد العزيز جاويز (١٨٧٦م - ١٩٢٩م): خطيب، ومن الكتاب، له علم بالأدب والتفسير، من رجال الحركة الوطنية بمصر. تعلم بالأزهر ودار العلوم. واختير أستاذا للأدب العربي في جامعة "كمبردج" وعاد إلى مصر، فاشتغل مدرسا فمفتشا للغة العربية في مدارس الحكومة. ورحل إلى الآستانة، فأصدر جريدة "الهلال" فمجلة "الهداية" ثم مجلة "العالم الإسلامي" وأرسلته الحكومة العثمانية في خلال الحرب العامة الأولى إلى برلين، للدعاية. ودخل مصر خلصة بعد الحرب، ثم أظهر نفسه، فعين مراقبا عاما للتعليم الأولى. وشارك في إنشاء جمعية الشبان المسلمين. وتوفي بالقاهرة. له كتب، منها "أثر القرآن الكريم في تحرير الفكر البشري و... انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ١٧.

(٥) قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨م): كاتب وباحث مصري مشهور، اشتهر بمناصره للمرأة ودفاعه عن حريتها. كردي الأصل. ولد ببلدة "طره" بمصر. وانتقل مع أبيه، فنشأ وتعلم بها، وأكمل دراسة الحقوق في مونبلييه بفرنسة. وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥ فكان وكيلا للنائب العمومي بالمحكمة المختلطة. فمستشارا بمحكمة الاستئناف. وتوفي بالقاهرة. من أشهر كتبه "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة". انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ١٨٤.

(٦) انظر: المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم (الرياض: دار الشواف للنشر والتوزيع، ١٩٩٢هـ)، ج ٢، ص ٧.

(٧) المدرسة الفوقانية أكبر مدرسة ذو تعليم مميز أسست قبل انشاء الجامعة العثمانية في ولاية حيدر آباد بواسطة نواب عماد الملك بلگرامي على اثر نصيحة العلماء الأجلاء شبلي المرحوم وحيد الدين فراهي. وقد سموا المدرسة العليا بغسم (مدرسة فوقانية) والمتوسطة رشيدية والثانوية باسم مولوي.

إحدى عشرة سنة، ثم اجتاز في سنة ١٩١٤م اختبار المرحلة صف (المولوي) والذي كان منهجه مشتملا إلى جنب المواد الحديثة الثانوية المواد الدينية اللازمة من الفقه والحديث والمنطق حيث كانت تدرس بواسطة نخبة من الأساتذة الأجلاء.

وبعد اجتياز هذه المرحلة جرت الأقدار أقدام المودودي إلى الالتحاق بدار العلوم حيدر آباد مرحلة (المولوي العالم) إثر انتقال والده من اورنگ آباد إلى حيدرآباد إلى أنه سرعان ما انتقل إلى بهوبال تاركا أسرته وولده في حيدرآباد.

استمر المودودي مواصلا دراسته في دار العلوم ساكنا في بيت تبعد عن دار العلوم بخمسة عشر كيلو مترا، وكان يذهب إليها ويعود منها ...، وكان أحيانا لا ينال ما يأكله، واستمر به الوضع إلى أن أصيب والده بالشلل الشديد؛ وهذا ما اضطره إلى مغادرة حيدرآباد ودراسته إلى بهوبال حيث قام بخدمة والده كإبن بار له حتى وافته المنية عام ١٩٢٠م^(١).

المودوي في ميدان الصحافة: يصف الأستاذ خليل أحمد الحامدي ناقلا عن الإمام المودودي الفترة بعد وفاة والده مرحلة قاسية في حياته، وذلك لأنه لم يبق له سند من الناس ولزم عليه التجول في الأرض طلبا للرزق، فكان متشتت الفكر ودائب الرحلة من بلدة إلى بلدة أخرى، حتى استقر به الأمر بمدينة (بجنور). وكان بداية عمله في الصحافة مع أخيه الأكبر سيد أبو الخير المودودي في صحيفة بجنور، لكنه سرعان ما غادرها إلى مجلة أسبوعية في نفس المدينة باسم (التاج) وكان فيها إلى نهاية عام ١٩٢١م حيث كانت دافعة عن حركة الخلافة. وفي هذا العام حل به المكان إلى دلهي كرئيس تحرير لجريدة (المسلم) ومن بعدها صحيفة (الجمعية) إلى غاية ١٩٢٨م الناطقتين باسم جمعية علماء الهند.

وقد اكتسب المودودي في ميدان الصحافة تجربة فكر ودفاع عن الإسلام والتفاعل مع أحداث العالم الإسلامي وخاصة في دولة الخلافة التي كانت محل أطماع الأعداء بعد الذهول والضعف التي أصابها بعد شوط من الزمن، وهذا ما دفعه بالحماس بالكتابة في هذه القضايا الحادة بدء بكتاب (النشاطات التبشيرية في تركيا)، وترجمة كتاب (مجازر اليونانيين في سمرنا) كما أنه ألف لاحقا كتاب (مصدر قوة المسلم) عام ١٩٢٥م وكتاب (الجهاد في الإسلام) عام ١٩٢٨م. والكتاب الأخير أعجب منه العلامة سيد سليمان الندوي^(٢) علامة الهند وقام بطبعه في ٥٠٠

وقد كانت الدراسة في مرحلتي المتوسطة والثانوية باللغة الأردية بالإضافة إلى اللغة العربية. والجدير بالذكر أن شهادة مولوي تعادل حاليا بشهادة الثانوية العامة. انظر: أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته، ص ٢٨.

(١) انظر: تراي، أليف الدين، أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته (الكويت: دار القلم، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، ص ١٢٥.

(٢) سيد سليمان الندوي (ت ١٩٥٣م): قاض وكبير علماء المسلمين في القارة الهندية. تفوق في الحديث وتاريخ الإسلام. نسبته إلى (دار الندوة) ولي القضاء في بهوبال. وتولى مناصب علمية أخرى. وأصدر مجلة (المعارف). وانتقل إلى كراتشي سنة ١٣٧٠ هـ فكان فيها رئيسا لجمعية علماء الإسلام. له تصانيف مطبوعة باللغة الأردية ترجم بعضها إلى العربية والتركية، أشهرها السيرة النبوية. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ١٣٧.

صفحة من القطع الكبير، كما أن الدكتور العلامة محمد إقبال^(١) بلغ به الإعجاب بأن جعل ينصح للشباب المسلمين بإقتنائه وانتفاعه.

وقد قال المودودي حول الثمرة الياقة عن كتابه: "إن كتاب الجهاد نفعتني أكثر من أي قارئ له، فقد بدأت تأليفه وأنا على حمى القومية وفرغت وأنا على حمى الإسلام"^(٢).

وأصل الكتاب جاء بناءً على أمنية خطيب مسجد جامع دلهي محمد علي جوهر^(٣) حينما أعلن من منبر الجمعة عام ١٩٢٦م على إثر اغتيال هندوسي (شردهانند) في تلك البلاد حيث ظهرت دجة كبيرة بين الفئتين المسلمين والهندوس؛ ومن أجلها اتهم الإسلام وتعليماته السامية بالعنف والإرهاب، فقال الشيخ: "ليت نجد من بين المثقفين المسلمين أحد يتصدى لهذه الحملة الشرسة ويكتب عن مشروعية الجهاد في سبيل الله وحكمه في الإسلام؛ وحينما ظهر الكتاب كان مطابقاً لأمنية ذاك الرجل"^(٤).

وقد كانت في هذه الفترة كممارس للعمل في ميدان الصحافة أتاح للمودودي الانتهاال بكثير من الثقافة والعلوم والفنون في مدينة دلهي ملتقى ثقافات الإسلام والغرب، فقد أقبل الشيخ بهمة عالية على تزويد معرفته للعربية وذلك بدراسته لعلوم البلاغة والأدب على أيدي متخصصين في تلك البلاد، كما أتيح له فرصة قراءة أمهات كتب الحديث من كبار علمائها أمثال الشيخ إشفاق الرحمن الكاندهلوي والشيخ شريف الله خان، وغالباً ما كان يأخذ هذه الدراسة قبيل صلاة الفجر تيمناً بالبركة من ينبوعها وقت السحر واغتناماً للفرصة.

كما أن الرجل لم يغفل عن أمر العلوم العصرية، فقد تعلم اللغة الإنجليزية على أحد أساتذتها في غضون أربعة أشهر، وعن طريقها أطل على كثير من علوم الغرب من تاريخ، فلسفة، وعلوم إجتماعية، كما أنه وقف من خلالها على مواضع التلاقي والافتراق بين الثقافتين، ولولاه لما كان له اليد الطولى في هذه البضاعة بعد أن وفقه الله عز وجل فيها.

(١) محمد إقبال (١٨٧٧م-١٩٣٨م): شاعر وفيلسوف باكستاني بارز. له تأثير ديني وثقافي وصل إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي ضمن كتبه وأشعاره المترجمة إلى عديد من لغات العالم. وهكذا برز اسمه بالتجديد وبناء فلسفة إسلامية متكاملة، فهو يرى أن الفكر الإسلامي الحديث يحتاج إلى فهم جديد في ضوء النصوص ومقتضيات ما جرى على المعرفة الإنسانية من التطورات وقد برز هذا في كتاب "تجديد التفكير الديني في الإسلام" الذي يعد أول عمل يمكن الرجوع إليه عالج هذا الموضوع في العصر الحديث انظر: عبدالغني، عبدالمقصود، محمد إقبال ومنهجه في تجديد الفكر الإسلامي (القاهرة، مكتبة الزهراء، ٢٠٠٠م) ص ٧.

(٢) الحامدي، خليل، الإمام أبو الأعلى المودودي (حياته، دعوته، جهاده)، ص ١٨.

(٣) محمد علي جوهر (١٨٧٨م-١٩٣١م): قائد وسياسي، وصحفي وشاعر مسلم هندي، من أبرز الشخصيات الرائدة في حركة الخلافة التي قدمت المساعدة للخليفة العثماني في آخر أيامه، وأصبح الرئيس السادس للمؤتمر الوطني الهندي لبضعة أشهر، ويعد كذلك من أبرز مؤسسي العصبة الإسلامية لعموم الهند، وقد عارض الاحتلال البريطاني بجسارة، وعرف بمناصرته للمسلمين وقضايا التحرر ومن أهمها قضية فلسطين، وتقديراً لدعمه دفن بباحة المسجد الأقصى- المبارك والذي استوطن آخر حياته فيه. انظر: محمد علي جوهر.. بطل الهند ودفن المسجد الأقصى- مقال منشور في الموسوعة لشبكة الجزيرة بتاريخ ٢٠١٧/١٨/١٧م.

(٤) المودودي، السيد أبو الأعلى، الجهاد في الإسلام (لاهور: إدارة ترجمان القرآن، ط ١٦، ١٩٩٦هـ)، ص ١٤.

وقد كان لهذا التوسع والتنوع الثقافي أثر عميق في نفس وشخصية المودودي، فحصل لديه من العلم ما أتاح له النظرة الشاملة والمتكاملة عن الإسلام مختلفا عما يراه المشايخ المقلدون في ذاك الديار وغيره^(١).

وفي عام ١٩٢٨م قرر الإمام المودودي ترك مجال الصحافة وذلك إعدادا لعمل الدعوة، فقد سافر إلى حيدر آباد حيث كان شقيقه الأكبر في دار الترجمة العثمانية، ومن ثم تفرغ نفسه للقراءة استعدادا لعمل جليل الدعوة، واستمرت هذه الفترة من ١٩٢٨م إلى ١٩٣٢م وكان يقضي معظم وقته في العكوف على قراءة الكتب وتأليف وترجمة بعض أمهات الكتب منها تأليف تاريخ السلاجقة، وتاريخ الدكن وترجمة الجزء المختص بالفاطميين من تاريخ ابن خلكان والأسفار الأربعة للشيخ صدر الدين الشيرازي^(٢) في الفلسفة^(٣).

المودودي داعيا: وفي عام ١٩٣٢م عاد الأستاذ المودودي للصحافة مجددا وذلك بإصدار مجلة شهرية بعنوان (ترجمان القرآن)، وقد كتب على غلافه عهد للقراء بأن "غايته إعلاء كلمة الله والدعوة إلى الجهاد في سبيله، ووسيلتها إلى ذلك نقد الأفكار المنحرفة ومبادئ الحضارة الغربية بمحك القرآن، ثم عرض المبادئ، التي جاء بها كتاب الله وسنة رسوله في مجالات الفلسفة والعلوم والسياسة والاقتصاد والاجتماع"^(٤)، وظلت هذه المجلة منشئة باسمه منبرا لنشر الدعوة حتى وفاته عام ١٩٧٩م.

وأثناء تلك الفترة ١٩٣٧م تزوج المودودي بالسيدة محمودة بنت السيد نصير الدين الشمسي في دلهي واستقرت به الحياة الزوجية معها، وكانت مساعدة له في أمور الدعوية طوال حياته.

وأما عن أفكار السيد المودودي فسرعان ما انتشر ووجد له صدى في مواطن المسلمين وخاصة على مدى شبه القارة الهندية، وكانت سرعة انتشارها بين المسلمين كاشعاع نور الفجر التي تنشق الظلام.

وكان من بين المعجبين بمقالات السيد المودودي من خلال مجلة ترجمان القرآن الدكتور محمد إقبال والذي سبق أن رسم أفكاره في كتبه وشعره العملاق حيث تدور على إيمانه بعظمة الإنسان المسلم، واحتقار ضعفه الذي مسخ ذاته، فقد وجد الرجل في كتابات وشخصية المودودي تحقيقا لأمنيته وذلك لأنه عمد إلى تحقيق هدفه بإعادة ثقة النفس للمسلمين من خلال إيقاظ عناصر الذاتية وبعث وعيها لحقائق هذا الدين... وبالتالي فكتب إلى صديق له في حيدرآباد يبلغه الرغبة في مقابلة هذا الفتى اليقظ، فلم يبرح حتى التقى في لاهور بشاعر الإسلام محمد إقبال، وقد وجد كل منهما بضاعة فكره في ذاك اللقاء، حيث تم الاتفاق بينهما على ركيزتين أساسيتين لا نجاح بدونهما:

(١) انظر: عمارة، محمد، أبو الأعلى المودودي والصحة الإسلامية (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ب ت ط)، ص ٢٤.

(٢) صدر الدين الشيرازي (٩٨٠هـ - ١٠٥٠هـ): ملا صدرا محمد بن إبراهيم والمعروف بصدر المتألهين، حكيم وفيلسوف مسلم شيعي إثني عشري، هو خاتمة حكماء الشيعة جمع بين فرعي المعرفة النظري والعملية والذي يسمى بالحكمة المتعالية، وكان طرحه متطورا جدا وفاق حدود عصره. انظر: ويكبيديا الموسوعة الحرة.

(٣) انظر: ترابي، أليف الدين، أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته، ص ١٢٨.

(٤) المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، ج ٢، ص ٩.

الف- احسان العرض لعظمة النظام الإسلامي بالأسلوب العلمي المقنع.

ب- إعداد الرجال الذين يصلحون لقيادة المسلمين فكرا وعملا.

ونظرا لتطبيق هذا المشروع اقترح محمد إقبال الهجرة إلى لاهور، وبالفعل قد جاء إليه عام ١٩٣٧م، بيد أن الأجل وافى إقبال سنة ١٩٣٨م ولم يتح له فرصة التعاون والعمل معا، وبذلك فقد المودودي أكبر سند في دنياه بسبب موت هذا المفكر العظيم^(١).

بات الشيخ المودودي مستقرا في مدينة دار السلام بلاهور حيث حلم بهذه القرية النموذجية في مجلة ترجمان القرآن والتي تقام على أسس إسلامية سامية، وقد اتخذ المسجد في هذا المكان مركزا ومقرا لدعوته، وكان التركيز الأول على العقيدة الإسلامية وأركانه وبيان حكمها وفلسفتها.

وانطلاقا من هذا العمل الجليل فقد عمد الشيخ أبو الأعلى المودودي بعد ثماني سنوات من إصدار مجلة ترجمان القرآن والعمل الدائب بتأسيس الجماعة الإسلامية في أول شعبان ١٣٦٠هـ الموافق ل ٢٥/٨/١٩٤١م وذلك على إثر انعقاد مؤتمر عام حيث حضره ٧٥ عالما ومفكرا؛ وقد انتخب الإمام المودودي أميرا لها. وظل هذه الجماعة منذ تأسيسها إلى غاية عام ١٩٤٧م تحت قيادة الإمام المودودي مرتكزة على تكوين وتربية الجماعة المسلمة، وكانت وسائلهم في هذه المرحلة عبارة عن:

١- إعداد الرجال الذين يحملون لواء الحركة الإسلامية والتميزين بالصمود مهما تكن الظروف قاسية.

٢- تنظيم الجماعة على أقوى الأسس لكي تتمكن من مواجهة الأوضاع الراهنة في سبيل الدعوة.

٣- كتابة وصياغة كتب إسلامية قيمة تعد منهاجا تربويا لكل نواحي الحياة الفردية والاجتماعية بأسلوب عصري وبلغه العصر.

ومن هذا المنطلق جعل الأستاذ يفكر بأنه مهما يبذل جهده في سبيل الدعوة بلسانه وقلمه فلن يفلح إلا إذا جعل القرآن الكريم وسيلة للوصول إلى ذلك الهدف القيم، وهذا ما حمّله بأن يقوم بكتابة تفسير القرآن باسم (تفهم القرآن). وبدأ بكتابته في فبراير عام ١٩٤٢م واستمر فيه طيلة ثلاثين سنة حتى أكمله في ٧/٧/١٩٧٢م.

وقد كتب الشيخ تفسيره بمنهج قوي متميز ومبدع خلاصته أن القرآن كتاب حركة ودعوة، فقد فسر الشيخ القرآن باعتباره كتاب ودليل دعوة يهدي للدعاة الطريق، مبينا لخطوات التي لا بد للدعوة أن تمر بها، كما يعني بتربية جماعة من الدعاة محددات لهم المناهج الدعوية في ظروف وأوضاع لم يتعودوا عليها ثم جاء بنماذج عملية من سيرة الدعاة التي سبقوها^(٢).

(١) انظر: السابق نفسه، ج ٢، ص ١٣.

(٢) انظر: نيا، محود حقيقت، أبو الأعلى المودودي ومنهجه التربوي في تفسيره تفهم القرآن (الجماعة الإسلامية العالمية بماليزيا، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، عام ٢٠١٨م)، ص ٥٩.

وفي عام ١٩٤٧م انقسمت الهند بعد تحريرها إلى دولتين مستقلتين الهند وباكستان، ونتيجة لذلك انتصفت الجماعة معها إلى جزئين. وقد ظل المودودي راعيا لهذه الجماعة في باكستان حيث كانت التجمع الإسلامي بالأغلبية رافعا شعار تأسيس النظام الإسلامي وتطبيق الشريعة، مطالباً بوضع الدستور الإسلامي بدل القوانين الوضعية؛ إلا أن هذه المطالبات تعرضت للرفض والدفع من تيار العلمانيين ومنكري السنة، وعلى إثرها اعتقل الإمام المودودي عام ١٩٤٨م وظل حابساً في السجن عشرين شهراً. وبعد سراحه اضطرت الحكومة إلى إصدار قرار بوضع مبادئ الدولة، وفي ١٩٥٠م أسند الأمر إلى العلماء حتى يقوموا بوضع مبادئ أساسية للدولة ولكن بشرط أن لا تكون محل خلاف بين الفرق، واجتمع المجلس تحت رئاسة الشيخ سليمان الندوي؛ حيث اتفقوا في آخرها على وضع اثنين وعشرين مبدأ أساسياً، وكان للأستاذ المودودي دور مهم في صياغته.

وفي ١٩٥٢م حمل الإمام المودودي لواء المطالبة بتطبيق الدستور الإسلامي وقام لهذا الغرض بجولات في شرق البلاد وغربها يشرح للجماهير أهمية النظام الإسلامي والعقد التي جاءت من أجلها البلاد إلى حيز الوجود. وفي عام ١٩٥٣م واجه السيد المودودي موجة جديدة للفتن وذلك في بيان زيف الفرقة القاديانية، وكتب الشيخ حولها كتاب (المسألة القاديانية) مكتشفاً عن عقائد هذه النحلة الضالة ومؤامراتهم ضد الإسلام والمسلمين؛ إلا أن الحكومة قاومت تلك الدعوة بحجة ترويج العنف وأصدرت قراراً بالإعدام على المودودي، ومن العجب أن موظف السجن حينما أبلغ القرار العسكري للسيد مودودي طلب منه كتابة الإسترحام لكنه رد عليه قائلاً: "لا أسترحم أحداً سوى الله، وأحكام الموت لا تصدر في الأرض وإنما تصدر في السماء". وأخيراً جاء قدر الله بإطلاق سراحه بعد ثلاث سنوات من اعتقاله بريئاً بحكم المحكمة العليا في بنجاب عام ١٩٥٦م^(١).

وفي مستهل عام ١٩٥٦م سافر المودودي إلى دمشق للحضور في جلسات المؤتمر المنعقد من قبل المؤتمر الإسلامي والتقى بزعماء الحركات الإسلامية، وبعدها غادر إلى الأردن وأخيراً متجهاً إلى أرض الحرمين لأداء فريضة الحج وتشرف زيارة المسجد النبوي الشريف. وفي عام ١٩٥٨م وقع الانقلاب العسكري في باكستان وألغي الدستور المعمول به، كما أغلقت فعاليات كافة الأحزاب السياسية؛ وهذا ما توقعه السيد المودودي قبل وقوعه بساعات واستمرت هذه الحواجز على الجماعات إلى غاية ١٩٦٢م حيث رفع القيود مسمحا لهم الأنشطة السياسية إلا أن العيون كانت على الشيخ المودودي واجتماعاته. ففي أكتوبر ١٩٦٣م انعقدت المؤتمر العام للجماعة الإسلامية في مدينة لاهور ولكن السلطات تضايقت عليهم حتى أنهم رفضوا استخدام مكبر الصوت فيه، ولكن الإمام قام بين الحشود مستعملاً طريقة قديمة للتبليغ وهي طريق المكبرين ولكن المشغبين قاموا أثناء الاجتماع بإيجاد الفوضى محاولين اغتيال المودودي، لكنه نجا بقدر ورعاية الله وقد انتهت أعمال المؤتمر بنجاح محققاً لأهدافه^(٢).

(١) انظر: المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، ج ٢، ص ٢٠.

(٢) انظر: الحامدي، خليل، الإمام أبو الأعلى المودودي (حياته، دعوته، جهاده)، ص ٦٩.

وبعد نجاح المؤتمر اضطرت السلطات مرة أخرى للقضاء على انحلال الجماعة الإسلامية واعتقال الإمام المودودي وخيرة أصحابه، لكنهم بدلوا السجن بمعهد تربيوي علمي حتى جاء قرار سراحهم عام ١٩٦٤م من قبل المحكمة العليا بباكستان الشرقية وكذلك محكمة الاستئناف بحجة أن الحبس كان غير قانوني والإفراج عن كافة المعتقلين فوراً.

وفي سبتمبر عام ١٩٦٩م قام الأستاذ المودودي بجولة إلى الرباط في المغرب لحضور مؤتمر التعليم الإسلامي بجامعة القروين بفأس ولقاء زعماء الحركات الإسلامية.

وفي عام ١٩٧٠م خرج الإمام وجماعته محتفلين بيوم عظمة الإسلام في جميع أنحاء البلاد شرقاً وغرباً، وكان شعاره رفع هتاف (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأيضاً (لاشرقية ولا غربية إسلامية إسلامية).

وفي عام ١٩٧١م شهر ديسمبر انفصلت باكستان الشرقية باسم بنغلاديش عن باكستان نتيجة حوادث دامية التي سبقتها والتي أنبأ المودودي عنها في خطابه وكتاباته آنذاك.

وفي عام ١٩٧٢م اضطّر المودودي أن يتنحى عن إمارة الجماعة الإسلامية نتيجة شدة مرضه وكذلك أمنيته في كتابة سيرة النبي ﷺ، وظل إلى آخر حياته عاكفاً على كتبه ساعياً في بعث روح الجد واليقظة لدى شباب المسلمين.

وفي عام ١٩٧٩م نال الإمام المودودي جائزة الملك فيصل العالمية في مجال خدمة الإسلام من بين عشرات المرشحين. وأخيراً توفي هذا الإمام الجليل عام ١٩٧٩م بعد عقود من الدعوة والجهاد تاركاً وراءه مكتبة علمية وفكرًا دعويًا، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته^(١).

فكره ومؤلفاته: لقد عاش السيد المودودي في وقت عصيب من تاريخ الأمة الإسلامية حيث كان عواصف التيارات المعادية والهجمات المتتالية للأعداء تضرب كيان الأمة، وقد بلغت مؤامرات ومكائد الأعداء الصهيونية والصليبية ذروتها إلى أن قضوا على المنارة المفقودة الخلافة الإسلامية وبث سمومهم المختلفة من القومية والعلمانية والاشتراكية والوجودية و... بين أبناء الأمة الإسلامية وأخذت القوات المستعمرة تحتل البلاد الإسلامية كما تفقد هويتها وذاتيتها، وكانت هذه البلاد تعيش في جو من اليأس والقنوط وفي مقدمة هذه البلاد شبه القارة الهندية حيث كان الإسلام مستهدفاً لتعليماته ودساتيره وكذلك مجتمعات المسلمين وكياناتهم المختلفة، وأصبح المجتمعات الإسلامية مجتمعات لا تفهم دينهم فهما سليماً كما أخذت حضارتهم الطابع الغربي مسيطراً على عاداتهم وتقاليدهم ، ولم يكن العلماء والمفكرين يعيدون عن هذا الجو الخامل.

لقد ولد مفكرنا في هذا الجو وترعرع بين أسرته التقية ناشئاً على التربية الدينية ولكنه لم يكن متميزاً عن باقي الناس وكان أميل إلى التقاليد الجارية وحتى إلى مسألة القومية ونعرات الوطنية، لكنه سرعان ما أفيق بعد اطلاعه على أمهات الكتب من التراث الإسلامي وبصيرته الفائقة مع الأحداث ففهم رسالة الإسلام وآمن به إيماناً عن دراسة

(١) انظر: تراوي، أليف الدين، أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته، ص ١٦١-١٦٢.

عميقة، وقد كان لكتابه (الجهاد في الإسلام) تغيرا لمسار فكره، فقد عرف الإسلام على حقيقته ودوره في انقاذ البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور ومن ثم إسعادها عندما تقبل على تعاليمه وشرائعه وتطبيقها في واقع الحياة، كما استطاع أن يعرف الواجب الملقي على كاهله واجب الدعوة إلى الله وإحياء دينه من جديد.

دخل المودودي في المسيرة الدعوية وأثریت اطلاعه الواسع على الحركات السائدة من زمانه وكذلك عمله الإسلامي المنظم فأكسبه تجربة ثرية واطلاعا واسعا تصل إلى نتيجة ملموسة وهي أن الإسلام دين دعوة وجهاد، وأن المسلمين أمة عقائدية من واجباتها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هذا المنطلق بدأ يبيث فكره من خلال كتبه المختلفة ومجلته صاحب الرسالة العظيمة ترجمان القرآن، وكذلك عمله الدعوي المنظم المتمثل في الحركة الإسلامية^(١).

لقد وضع الإمام المودودي قدميه في هذه المسيرة ولكن على أساس فكره التجديدي الأصيل يعرض للناس كما أنزله الله لا كما يشتهي أو يتوهمه الناس. وهذه الدعوة تميزت بثلاث ميزات أساسية:

١- الالتزام بالإسلام كل الإسلام: كانت دعوته إلى الإسلام الشامل الذي لا يقتصر على العقيدة وإن كانت هي أساس البناء ومنها انطلق إلى نظرياته السياسية، ولا يقف عند حد العبادة الشعائرية بل ينطلق منها إلى جعل الدين كله عبادة، ولا يكتفي بالأخلاق على الرغم من منزلتها؛ إنما الإسلام عنده نظام كامل للحياة، فهو نظام عبادي ونظام خلقي واجتماعي واقتصادي.

ومن اللافت النظر أن الإمام المودودي بغية وصوله إلى هذا الهدف لم يكن رجلا سطحيا فقد وضع إلى هذه الدعوة أصولا رصينة تبدأ من اصلاح الأفكار والمعتقدات موصلا إلى نتيجة اصلاح ذات الفرد نفسه وتلقائيا تصبح هذا الإصلاح حركة عامة في اصلاح المجتمع، وأحيانا يمد النظام الحكومي يد العون لها وذلك إن لم يكن الحكم مضادا أو مخالفا لها، وأخيرا الوصول إلى اصلاح الحكم نفسه.

٢- الركيزة الثانية عند الإمام التي يجب اختياره في الدعوة المعاصرة ينبغي أن نقدم هذه الدعوة بلغة العصر، فكان يخاطب العقل المعاصر بلغته ويحاجه بمنطقه ويلزمه بمقتضى مسلماته الفكرية والعملية. والناظر في كتب المودودي ورسائله ليلمس أنه كان يعيش في عصره، وكان مطلعا على مشكلاته وخيرا بما يدور في مجتمعه من تيارات^(٢).

٣- المواجهة: ومن أهم السمات التي اتخذها الإمام المودودي في دعوته أسلوب المواجهة أمام الحضارة الغربية، وبالتالي لم يسلك سبيل المعتذرين عن الإسلام أو المحامين الذين تصوروا الإسلام داخل قفص الإتهام ثم يقومون بالدفاع عنه، بل قام بالهجوم اللاذع والمواجهة القوية، ولهذا جاءت كتبه كموسوعة إسلامية دفاعية تبرز اهتماماته

(١) انظر: الرقب، صالح حسين، أبو الأعلى المودودي ومنهجه في الاصلاح والدعوة (جامعة أم القرى، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة، عام ١٤٠٢هـ-١٤٠٣هـ)، ص ٢٥٢.

(٢) انظر: القرضاوي، يوسف، نظرات في فكر الإمام المودودي (القاهرة: دار المقاصد، ط ١، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م)، ص ٢٥.

بالمخاطر الكبرى التي تعوق الإسلام إلى الهيمنة على حياة المسلمين سواء أكان مصدر هذه المخاطر التغريب الوافد من الحضارة الغربية أم التخلف المورث من المسلمين... ولذلك فلقد نجده يتعرض لاضطهاد القوى العلمانية والهجوم على المؤسسات التقليدية على السواء^(١).

وبالجملة فإن الأستاذ أبا الأعلى المودودي كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي^(٢) رحمه الله مفكر عملاق قامت دعوته على أسس علمية أعمق، وكانت كتاباته وخطبه موجهة إلى معرفة طبيعة الحضارة الغربية وفلسفتها للحياة وتحليلها بحثا علميا قلما يوجد له نظير في الزمن القريب.

لقد ملأ الرجل بكتاباته الفراغ الموجود في الأدب الإسلامي المعاصر معرضا للإسلام ونظم حياته وأوضاع حضارته وحكمه وصياغته للمجتمع والحياة وقيادته للركب البشري والمسيرة الانسانية، كما أنه سجل في كتاباته إعادة الثقة إلى نفوس الشباب المثقف بصلاحية الإسلام بمسيرة العصر الحديث بل لقيادته والتغلب على مشاكله المعقدة ومعالجتها لمنع عن وقوعها^(٣).

وأما عن كتبه ومؤلفاته كما يقول العلامة الدكتور يوسف القرضاوي^(٤) رحمه الله: فهو من أحد الرجال القلائل الذين جمعوا بين الفكر والحركة أو بين العمل الدعوي والعمل التنظيمي والدعوي، فقد ألف الرجال والكتب معا. وجملة هذه الكتب تعود إلى علوم متعددة نذكر بعضها حسب التصنيف الموضوعي:

الف- القرآن والحديث: تفسير تفهيم القرآن، الاصطلاحات الأساسية في القرآن، المكانة القانونية للسنة، الأصول الأساسية لفهم القرآن.

ب- التعليمات الأساسية للإسلام: قضايا دينية (دينيات)، محاضرات (خطبات)، مسألة الجبر والقدر، الرسائل والمسائل، عقوبة المرتد في الإسلام، التفهيمات، الحضارة الإسلامية أصولها ومبادئها، العبادات في الإسلام، نظام الحياة الإسلامي، الإسلام والجاهلية، الدين الحق، وجهة النظر الأخلاقية في الإسلام.

ج- وفي مجال السياسة: حركة تحرير الهند والمسلمين، نظرية الإسلام السياسية، الخلافة والملوكية.

د- الدستور والقانون: القانون الإسلامي، أسس الدستور الإسلامي، الحقوق الأساسية.

(١) انظر: عمارة، محمد، أبو الأعلى المودودي والصحة الإسلامية، ص ٤٥.

(٢) أبو الحسن الندوي (١٩١٤م - ١٩٩٩م): من أكثر المفكرين الإسلاميين المعاصرين شهرة في العالم الإسلامي، ولد في عائلة بارزة دينية في الهند، وحصل على إجازة في الأدب العربي من مقاطعة لاهور الهندية عام ١٩٢٩م، انضم عام ١٩٣٤ في ندوة العلماء وأصبح معلما في دار العلوم. بدأ الندوي يكتب كتاب ومقالات، من أشهرها ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ والذي ذيع صداه في أكثر أقطار العالم الإسلامي وترجم لعدد من اللغات، ومن أهم أفكاره: أهمية الإسلام، عالمية الإسلام. انظر: موسوعة الحركة الإسلامية، ص ٣٩٩.

(٣) انظر: الندوي، أبو الحسن علي الحسني، من أعلام المسلمين ومشاهيرهم (دمشق: دار ابن كثير، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، ص ٣٣٨.

(٤) يوسف القرضاوي (١٩٢٦ - ٢٠٢٢م): عالم ومفكر إسلامي مصري معروف بفكره الأصولي والمعتدل في الأوساط الإسلامية، تخرج من جامعة الأزهر، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في مصر واستقر بعدها في دولة قطر، حيث عمل في جامعتها من عميد كلية القانون، ورئيس مركز أبحاث السنة. له أكثر من مائة مؤلف في موضوعات علمية وحركية، نال إعجاب القراء في العالمين الإسلامي والعربي. انظر: موسوعة الحركات الإسلامية، ص ٣٦٥.

هـ- القضايا الدعوية: الجهاد في الإسلام، الدعوة الإسلامية ومتطلباتها، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، تجديد إحياء الدين، شهادة الحق.

و- الاقتصاد: المشكلة الاقتصادية للإنسان والحل الإسلامي، قضية ملكية الأرض، الربا، النظريات الاقتصادية في القرآن، الاقتصاد الإسلامي.

ز- الأسرة المسلمة: الحجاب، تنظيم الأسرة، حقوق الزوجين.

ح- التعليم: تعليمات، نظام التعليم الجديد، نظام التعليم الإسلامي^(١).

التعريف بكتاب سيرت سيد العالم (سيرة سرور عالم)

تعد السيرة النبوية تاريخاً وزاداً دعوياً ومسيرة حياة إمام الدعاة والمرسلين والتي لا يمكن للدعاة أن يستغني عنها، وبالتالي فقد أنيط فهم هذه المهمة بدراسة هذا الجانب دراسة شاملة كي تنير الطريق لهم، ومن هذا المنطلق قام الإمام السيد أبو الأعلى المودودي بدراسة هذه المسيرة المباركة وكان مشغلاً بها طيلة حياته، فقد تميزت خطابه وكتاباته وخاصة تفسيره القيم (تفهيم القرآن) مصدراً ثرياً للسيرة النبوية.

وقد تعود صلة هذا الرجل بهذا العلم المبارك إلى أيام مبكرة من عمره، ففي عام ١٩١٥م قام هذا الفتى الذكي بكتابة مقالات قسم من السيرة النبوية وكان عمره آنذاك لم يتجاوز ١٢ عاماً، وقد كتب في آخر هذه الصفحات سطوراً من صميم قلبه تعد رسالة لقراءه وهي: وبعد هذه السطور البدائية علينا أن نكشف الصفحات المشرقة من سيرة حبيب رب العالمين، وأن نعلم أن هذا الرسول هو أعظم من في الكون من حكيماً، وعالم وتقي وحتى الأنبياء والمرسلين، وقد أعطاه الله عز وجل المقام العالي واصطفاه على سائر الخلق.

وإن هذه السيرة لتفسير وبيان لمعاني الإنسانية، وعلى الباحثين عن هذه القيمة أن يستلهموا هذه المعاني من سيرته، وأن يدركوا أنها المصدر الوحيد لهدفهم كما تعد إلى جانب ذلك تجلياً لجمال الله عز وجل^(٢).

والمتمتع لحياة الإمام المودودي ليرى خير شاهد على أن أكثر حياته ٦٤ عاماً من أصل ٧٦ عاماً اشتغل فيه الرجل بالبحث في ظلال السيرة النبوية. فكتابات، خطابات وأجوبة، مقدمات، والتفنيدات على الشبهات ترتبط بهذا العلم الشريف. وفيما يلي بيان لهذه الجهود نذكر منها ما يلي:

مقالات السيرة النبوية والمذكورة في الوثائق، مقالة مدينة الرسول، قضية إهانة سيد العالمين، الحكم في قضية الرسول المزيف وهي عبارة عن الرد على الفيلم الهندي (زنگيلا رسول)، فتنة إهانة الرسول، خطبات سيد العالم، ليلة المعراج، أعمال سيد العالم، رسالة المعراج، المسألة القاديانية، ختم النبوة، رسالة السيرة النبوية، النظام الحكومي للرسول ﷺ، مقتضيات النظام الإسلامي، الصلاة والسلام عليه، مقالة (وإنك لعلی خلق عظيم)، كما كتب إلى جنب كل هذا كلمات افتتاحية على بعض كتابات السيرة مؤخراً نحو: كتاب محسن الإنسانية للشيخ نعيم

(١) انظر: جيلاني، أسعد، أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته، ص ٤١٧-٤٢٢.

(٢) انظر: شاکر، عبد الجبار، المودودي وكتابة السيرة النبوية (سيرت نگاری او مولانا مودوی) (لاهور: مجلة ترجمان القرآن، مايو ٢٠٠٦م)، ص ٤

صديقي، مرآة الحقيقة لمير عبد الباسط، الرسول لإعجاز الحق قدوسي، فيوض الحرمين لسيد عبد العزيز شرقي وسيرة المختار للشيخ مصطفى غلاميني^(١).

ومن الأعمال المهمة كذلك في هذا الجانب رحلة المودودي إلى أرض الحرمين، فقد ذكر محمد عاصم الحداد عن ذكريات هذه الرحلة في كتابه الموسوم سفرنامه أرض القرآن (حكايات رحلة أرض القرآن) وفصل في هذا الجانب، نذكر منها:

إن السيد المودودي سافر خلال عام ١٩٥٦م إلى بعض البلدان العربية وكانت آخر محطاتها أرض الحرمين لأداء فريضة الحج، وكانت غاية الشيخ إلى جنب أداء مناسك الحج الاطلاع وزيارة الآثار ومنها المتعلقة بالسيرة النبوية، لكن حرارة الجو وضيق الوقت والحالة الصحية أحالت أمام المبتغي. وقد بقيت هذه الأمنية معلقة إلى ثلاث سنوات حتى وقع في باكستان الانقلاب العسكري فعطلت الأعمال السياسية، وهنا وجد الشيخ بضاعته فعزم إلى تحقيق مبتغاه وإرواء غليله البحثي والعلمي.

وفي عام ١٩٥٩م سافر الشيخ إلى كل من البحرين، السعودية، الأردن، سوريا، فلسطين ومصر والكويت، وكانت أولى محطاته في بلاد الحرمين حيث زار في هذه البلاد بعض المواقع نذكر منها:

ألف- مكة: زار فيها وادي الأرقم، جبل أبو قبيس، مسجد الرؤية، مسجد الجن، قبور المعلى، جبل النور، الأماكن بين مشعر منى وعرفات، ومنها موقف حجة الوداع، مسجد محصب، مسجد الكباش وجبل الثور.

ب- الطائف: وفيه زار وادي كراء (موطن بنو ثقيف)، مسجد كوع، مسجد ابن عباس، قلعة الطائف، قبور شهداء الطائف، سوق عكاظ، وادي حنين:

ج- الحديبية.

د- المدينة المنورة: وفيها زار كلا من بدر، المسجد النبوي، أحد، قباء، مسجد الجمعة، دار كلثوم، مسجد ضرار، مسجد القبلتين، بئر رومة (بئر عثمان)، وادي عقيق، الخندق، جبل سلع، مسجد ذوباب، مسجد فتح، مساجد خمسة، كهف بني حرام، مسجد شمس، حصن كعب بن الأشرف، مسجد الغمامة، بئر بضاعة، سقيفة بني ساعدة، دار جعفر الصادق وأبي أيوب الأنصاري، والبقيع.

هـ- وخارج المدينة: العلا، مدائن صالح، خيبر، تيما، تبوك.

وقد تأثر الإمام المودودي بهدم بعض هذه الآثار حيث لم يبق لها أي أثر وعلامة تذكر، فقد قال فيها: إن جملة هذه الأماكن لها من الأهمية والقيمة ويذكرنا بتلك الحوادث التي مر بها التاريخ الإسلامي، وهدمها يعد ضياعاً لهذه القيم؛ ولقد انتقد المودودي السلطات السعودية لهذا العمل، وأشار إنه كان من الممكن أن يمنع الناس من اللجوء إلى الأعمال الشريكة والبدعية بدل أن تهدم هذه الأماكن والآثار^(٢).

(١) السابق نفسه، ص ١٠

(٢) انظر: الحداد، محمد عاصم، سفرنامه (رحلة) أرض القرآن (لاهور: فيصل لنشر الكتب، ٢٠٠٣م)، ص ٩-١٦، ١١٢.

وأما عن أهمية السيرة النبوية والكتابة فيها يقول السيد المودودي: إن نعمة الإسلام تصل إلى الإنسانية عن طريق كلام الله وكذلك شخصية الأنبياء عليهم السلام، فيقوم الآخرون بتبليغ وتعليم أحكام الله إلى الناس من جانب، وعلى صعيد آخر يرشدون ويقودون البشرية إلى المقام الأنسب. فالأنبياء يزكون بكلام الله أفرادا ومجتمعات بشرية ويننون مع الصلاح.

إن هذين المصدرين المذكورين بينهما بالتلازم ترابط لهداية الإنسان، وبتنحية واحد منهما عن الآخر يفوت على الإنسانية الخير والرشد والهداية، ثم يمثل لذلك بأن الكتاب بدون النبي كحال السفينة التي تساق بدون القائد والنتيجة المحتومة هي غرق من فيها. وأما حال النبي بدون كتاب فهو سلوك الطريق إلى الله بدل أن يصل الرجل إليه يجعل من نفسه إلها، ثم يأتي لمدعاه؛ أمثلة من التاريخ البشري، فطبق المثال الأول على الهندوسية حيث أضاعوا سيرة أنبياءهم وعكفوا على كتبهم، ومحض كلماتهم ثم أضاعوها أخيرا، وأما النموذج للحال الثاني فهم المسيحيون الذين حرفوا كتاب ربهم وأمسكوا بذيول سيرة أنبياءهم ووصل بهم الحال إلى أن جعلوه إنا لله ثم الله نفسه.

ونظرا لأهمية مما تبين فهداية البشرية إلى يوم الدين منوط بكلام الله القرآن وكذلك الأسوة بالنبي محمد ﷺ؛ فالقرآن يؤخذ من النبي وكذلك الرسول يدرك بالقرآن، وبالتالي من فهمهما فهم الإسلام والدين.

ثم يردف على كتابه قائلا: "ونظرا لأهمية هذين المصدرين فقد أنعم الله على وله الشكر والإمتنان بأن محاولاتي وجهودي في فهم القرآن الكريم قد وصل إلى حد غايته وتمت باسم (تفهم القرآن)، وبعد تفرغي منه كان أمنية قلبي بأن أبدأ بنفس المنهج كتاب حول السيرة النبوية الطيبة ولكن الالفت للنظر أن العمل السابق أخذ مني قرابة ثلاثين سنة، وكذلك لا أجد في نفسي الطاقة التي كانت وقتها، وبالتالي وقعت حسرة في قلبي على عدم انجاز هذا العمل الجليل؛ وإذا بالفجاءة أن السيد نعيم صديقي والمحترم عبد الوكيل علوي جزاهما الله خيرا قد وضع أمامي مجموعة من مقالاتي وخطاباتي المختلفة التي ألفتها وكتبتها حول السيرة النبوية، وهما قد رتبتهما بحسن التنسيق والترتيب مع مراعاة الأمانة الكاملة، وهذا ما أثير إعجابي ودهشتي نظرا لهذه الكمية، فشكرتهما وأثنت على عملهما من صميم القلب... وبهذا قد شفي شيء من غليلي، ولكنني أعترف أن هذه المجموعة لن يوفى حق السيرة كما هو المطلوب ولكنني آمل بأن المجموعة سوف تساعد إلى حد ما عشاق النبي وسيرته الطيبة ﷺ" (١).

ومن اللازم التنويه إلى أن كتاب السيرة للسيد أبي الأعلى المودودي ليس بدعا يمثل هذه الطريقة فقد سبق لمولانا أبي الكلام آزاد (١٩٥٨م - ١٨٨٨م) أنه جمعت له كتاباته حول السيرة النبوية وصنف من قبل مولانا غلام رسول مهر (٢) باسم (رسول الرحمة)، وبالتالي فكتاب (رسول الرحمة) وكتاب سيرة سيد العالم (سيرة سرور عالم) بينهما

(١) مودودي، سيد أبو الأعلى، مقدمة سيرت سرور عالم (سيد العالم) (لاهور: إدارة ترجمان القرآن، ط ٣، ٢٠١٩م)، ج ١، ص ٣٥-٣٦

(٢) مولانا غلام رسول مهر (١٨٩٥م - ١٩٧١م): عالم وأديب، مؤرخ نقاد وصحفي باكستاني مسلم، كان باحثا مؤيدا لمحمد إقبال وميرزا غالب، كما مارس السياسية، وهو مؤلف لكتب عديدة. انظر: ويكبيديا، الموسوعة الحرة باللغة الأردية.

اشترك وافترق. فالكاتبان لم يكتبوا بغرض كتاب السيرة بدأ بل صُنفا من المقالات والخطب ولكن ما يميز كتاب المودودي أن المرتبين نعيم صديقي وعبد الوكيل علوي قد عرضا جمعهما على صاحبه مباشرة، وقد قام المودودي بتعديل إضافات حيث تزيد على ثلاث مائة صفحة وقد طبعت مجلدان في حياته^(١).

وعن ترتيب هذا الكتاب القيم يقول الشيخ نعيم صديقي^(٢): "أنا فخور بأنني كنت من القلائل الذين أشرنا على الإمام كتابة السيرة النبوية، وبعد البحث الطويل أسند الأمر إلى بجمع كتابات وخطب السيد المتعلقة بهذا الجانب. فقد بدأنا بانجاز هذا العمل الجليل مع مولانا عبد الوكيل العلوي^(٣) وكانت مهمتنا فيها جمع المواد العلمية المتناثرة في تفسير تفهيم القرآن والمقالات المكتوبة والخطابات الملقية في مختلف المناسبات. وبعد انجازها قمنا بتنقيح هذه الدراسة ورتبناها على الأبواب والفصول حتى خرجت بعد عامين ونصف حيز الوجود وسلمناها للإمام المودودي.

الإمام بمجرد رؤية هذا المشروع أثاره العجب على هذه الكمية الهائلة في مجلدات ثلاثة، وقد جاء في المجلد الأول المباحث المتعلقة بالنبوة، نظام الوحي، أحوال البيئة البشرية أثناء البعثة وقبلها. وفي المجلد الثاني جاءت السيرة العطرة من الميلاد إلى الهجرة، وكان من المقرر أن تكون المجلد الثالث حول الفترة المدنية إلى وفاته ﷺ، والرابع كانت عبارة عن أنظمة الحياة التي أسسها الرسول الكريم عليه السلام"^(٤).

وأما عن مصادر هذا الكتاب في مجلديه الأولين كالتالي: المصدر الأساسي لهذا الكتاب هو تفسير تفهيم القرآن حيث اخذ منه ٤٠٨ صفحات من أصل ٧٦٤ صفحة، والصفحات الباقية ٢٤٣ انجزت من ١٦ كتابا، وفي المجلد الثاني الذي يشتمل على ٧٦٣ صفحة جاءت ٣٥٥ صفحة من تفهيم القرآن، ٦١ صفحة من الكتب الأخرى والباقية ٣٤٧ صفحة قد جاءت بصيغة إضافات وتعديلات من قبل الأستاذ المودودي والتي كتبت حديثة بيده.

وقد شاء قدر الله أن تخرج هذان المجلدان في حياة صاحبه حيث كان فخورا به، ففي عام ١٩٧٥م حينما سأل الصحفي (وليم كراي) مراسل اذاعة BBC في انجلترا عن تصنيفه الحديث قال: إنني أشتغل هذه الأيام بكتابة السيرة النبوية وقد اخترت لها طريقة مبدعة لم يسبق إليها غيري قبلها وأنا قد أوقفت كل حياتي لها، ولكن من المؤسف أن صاحب الكتاب والفكرة في عام ١٩٧٩م انتقل إلى جوار الله وبقيت الأمانة غير مكتملة. وبعد وفاة الإمام دبر الشيخ خليل أحمد الحامدي الأمر وطلب من الشيخ عبد الوكيل العلوي أن يكتب ما تبقى من السيرة من تفهيم القرآن وباقي كتب الإمام حتى تكتمل المرحلة المدنية، وبعد جمع المادة العلمية قام السيد حفيظ الرحمن

(١) انظر: شاكراً، عبد الجبار، المودودي وكتابة السيرة النبوية، ص ٣.

(٢) نعيم صديقي (١٩١٦م - ٢٠٠٢م): عالم وأديب، مؤرخ نقاد وصحفي باكستاني وكاتب وسياسي إسلامي باكستاني، من بين الأعضاء المؤسسين للجماعة الإسلامية الباكستانية، ومن المقربين للمودودي. انظر: ويكبيديا، الموسوعة الحرة.

(٣) عبد الوكيل علوي: داعية ومترجم إسلامي باكستاني، ترجم ورتب أكثر مؤلفات السيد مودودي، توفي سنة ٢٠١٦م. انظر: ويكبيديا، الموسوعة الحرة.

(٤) صديقي، نعيم، مقدمة سيرت سرور عالم (سيد العالم)، ج ١، ص ٩-١٠.

أنس بتنظيمه وترتيبه ثم شكلت لجنة أخرى لإخراجه النهائي وعمل فيها كل من الدكتور رفيع الدين الهاشمي، وجودهري محمد أسلم سليمي والحافظ محمد إدريس، وأخيرا اكتمل الكتاب عام ٢٠١١م بعد أعوام عديدة وجهد متواصل بعد وفاة صاحبه^(١).

وبالجملة فكتاب سيرة سرور عالم تعد موسوعة علمية كبيرة في السيرة النبوية جمعت فيه رسالة ومهمة هذا العلم الشريف، كما تتضمن الفقه المستفاد من هذه الأحداث التي مر بها الرسول الكريم ﷺ. وإن هذا الكتاب وإن أهملت بعض الحوادث التي تسرد في باقي كتب هذا العلم اعتبارا بالتسلسل الزمني فإنها تضمنت الأبحاث المتعلقة بالنبوة وعقيدة ختم النبوة، كما أثريت بالمفاهيم الدعوية باعتبارها المهمة الأساسية لهذا المنصب.

وتعد هذا الكتاب إضافة إلى باقي مزاياه مصدرا علميا في الآداب الأردنية حيث كتب بأسلوب سلس، حلو البيان يجذب قارئه بمجرد النظر والاطلاع عليه ويوصله إلى أفق بعيدة من الوعي والفهم.

٤- نبذة عن حياة الشيخ محمد الغزالي وكتابه فقه السيرة

الشيخ محمد الغزالي واحد من ثلة العلماء الذين أثروا بتجربتهم النظرية والعملية وعطائهم الفياض ميدان الإصلاح والصحة الإسلامية، وكان داعيا بمعنى الكلمة حيث نادى إلى مجد الإسلام وحضارته في ظلال السيرة النبوية العطرة صلى الله عليه وسلم.

ولد الشيخ محمد الغزالي عام ١٣٣٦هـ الموافق لـ ١٩١٧/٩/٢٢م في قرية (نكلا العنب) لمركز (ايتاي البارود) من محافظة البحيرة لجمهورية مصر العربية في أسرة ثرية تمارس التجارة. اسماه والده الشيخ محمد السقا بمحمد الغزالي حبا لذلك الحجة العملاق في العلوم الإسلامية إثر رؤياه في المنام، ولكن صاحب الترجمة محمد الغزالي لم يتأثر بفكر ذاك الحجة أبو حامد الغزالي^(٢) رغم انتفاعه بكتابه "تهافت الفلاسفة" كما استفاد من كتاب خصمه ابن رشد^(٣) "تهافت التهافت"، وبما أن الرجل لما عمد إليه تدريس كتاب "ميزان العلوم" في كلية الدراسات الإسلامية

(١) أحمد، خورشيد، مقدمة سيرت سرور عالم (سيد العالم)، ج ٣، ص ٢٢.

(٢) أبو حامد الغزالي: (٤٥٠-٥٠٥هـ) الملقب بـ "حجة الإسلام" وهو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ولد في الطابران من قرى الطوس، رحل في طلب العلم التدريس إلى نيسابور ثم إلى بغداد، فالحجاز، فبلاد الشام، فمصر ثم عاد إلى بلده إلى أن توفي بها. تتلمذ على يد إمام الحرمين الجويني، وكان صاحب دُكَّاءٍ مُفْرَط، ومَهَرٍ في الكلام والجدل، حتَّى صارَ عَيْنَ المناظِرِينَ، وعلى إثرها أقبلَ عَلَيْهِ نِظَامُ الْمَلِكِ الْوَزِير، وَسَرَّ بِوُجُودِهِ، وَنَاطَرَ الْكِبَارَ بِحَضْرَتِهِ، فَانْبَهَرَ لَهُ، وَشَاعَ أَمْرُهُ، فَوَلَّاهُ النِّظَامُ تَدْرِيسَ نِظَامِيَّةِ بَغْدَاد، فَقَدَمَهَا بَعْدَ الثَّمَانِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، وَأَخَذَ فِي تَأْلِيفِ الْأُصُولِ وَالْفِقْهِ وَالْكَلَامِ وَالْحِكْمَةِ. من أشهر كتبه: إحياء علوم الدين، المستصفى، الإقتصاد في الاعتقاد، المنقذ من الضلال، تهافت الفلاسفة وغيرها. أنظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م)، ج ١٩، ص ٣٢٣.

(٣) ابن رشد (٥٢٠هـ - ٥٩٥هـ): هو العلامة، الفيلسوف، الفقيه، والمتكلم أبو الوليد، محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شيخ المالكية أبي الوليد مُحَمَّدُ بن أَحْمَد بن أَحْمَد بن أحمد بن رشد القرطبي. ولد بقرطبة في بيت علم، وفقه وقضاء. عرض "الموطأ" على أبيه. وبرع في الفقه، وأخذ الطب عن أبي مروان بن حَرْبُول، ثم أقبل على علوم الأوائل حتى صار يضرب به المثل في ذلك. وله من التّصانيف: "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" في الفقه، و"الكليات" في الطب، ولي قضاء قرطبة، فحمدت سيرته. أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٥٠٢.

بجامع الأزهر ضاق له صدره، وأخيراً قرر عدم تدريسه بذكر بعض التعليقات والمآخذ ومن ثم اقترح بدله تدريس كتاب "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله^(١).

نشأ الشيخ في أسرته التقية المتدينة وكان والده حافظاً ومتقناً للقرآن الكريم، كما كان حريصاً أن يكون طفله حافظاً وعالماً بهذا الكتاب الجليل. أرسله والده إلى كتاب القرية ليتعلم الخط والحساب ويحفظ القرآن الكريم، وكان يحفظ هذا الطفل الذكي حصة من الشيخ ويضيف عليه والده حصة أخرى؛ فما أن بلغ العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم كاملاً.

وعن ثمرة حفظ القرآن وتأثيره على شخصية المسلم الذي كان طابع ذاك الزمان وهواية أصحابها يقول الشيخ محمد الغزالي: ولا بد أن يكون لهذا أثره العميق في تركيبه النفسي والعقلي، كما لا يستبعد أن يكون ذلك من الحوافز الباعثة على الطموح إلى مثل المكانة التي سبق إليها أولئك المتقدمون.

هاجرت أسرته بعد اتمام حفظه من البحيرة بحجة خلو مسقط رأسه من وجود المعهد الأزهرى آنذاك وحرصاً على تعليمه اقتطنوا محافظة الاسكندرية حيث التحق فيها الغزالي بمعهد الأزهر، وبقي فيه حتى نال بعد مضي أربع سنوات المرحلة الابتدائية ومن ثم واصل دراسته حتى نال شهادة الكفاءة ومن بعدها بعامين استطاع أن يحصل شهادة المرحلة الثانوية عام ١٩٣٧م.

ومن اللازم التنويه أن سبب تأخر تخرجه بسنة ترجع إلى فصله من الدراسة تعود إلى اشتراكه في الأنشطة الطلابية ضد الاحتلال الإنجليزي، حيث وضع في السجن وخرج منه بالكفالة.

وبعد اتمام المرحلة الثانوية انتقل الشيخ محمد الغزالي إلى القاهرة لمواصلة المرحلة الجامعية في كلية أصول الدين ونال منها شهادة التخرج بعد أربع سنوات متتالية ومن بعدها التحق بتخصص الدعوة والإرشاد حيث نال منها الشهادة بعد سنتين، وهو ما يعادل مرحلة الماجستير، وقد تزوج وهو مازال طالباً بكلية أصول الدين وقد رزق منه تسعة من الأولاد^(٢).

وعن فترة دراسته ورحلته مع العلم فكان الرجل محباً للقراءة شغوفاً بها، يقرأ كل شيء وفي أي علم وأي مجال، ومن ثم كان عمله القراءة وكان وراءه التفكير كفقيه وداعية. وقد كان يرى أن الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه هي القراءة، وغالباً القصور التي تطرأ على الدعاة والفقهاء ترجع إلى فقرهم عن القراءة؛ وأن هذا الفقر لهذه الفئة تعد أشد من فقر الدم للإنسان... وكان هذا دأب الشيخ يقرأ كتب الإيمان والسنة وحتى كتب أهل الزيع والإلحاد للوقوف على أفكارهم.

ولهذا يقول الشيخ محمد الغزالي: وعندي أن علماء الإسلام يجب أن تكون لهم أقدام راسخة في كل مجالات المعرفة وأن تكون إحاطتهم بالمذاهب الجائرة أكثر من إحاطة أهلها. كما أن الشيخ عاب على المنتمين للإسلام

(١) انظر: المصري، عبد الله، الداعية الشهيد الشيخ محمد الغزالي (القاهرة: دار الاعتصام، ب ت ط)، ص ١١.

(٢) انظر: المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، ج ١، ص ٢٦٦.

والمتحمسين لدعوته وحال كونهم ضئيل الثقافة فيقول: ويحزنني أن أذكر هنا أن إعدادا كثيفة من المنتمين إلى الدين فقيرة إلى سعة الإدراك والنفاد إلى الأعماق، وعمل هؤلاء في ميادين الدعوة يضر أكثر مما ينفع. ولم يكن عبقرية الشيخ وفكره العملاق نتيجة قراءة كتب وتمعن فحسب بل عاش الرجل مع كوكبة من العلماء حيث تربى على أيديهم، ومن هؤلاء زمن دراسته بالمعهد الأزهرى الشيخ إبراهيم الغرباوي والشيخ عبد العزيز بلال رحمهما الله وكان في زمنهما مضربا للأمثال في رقابة الله وحب الآخرة، وقد تأثر كذلك بالشيخ محمود شلتوت^(١) شيخ الأزهر السابق وكذلك بالشيخ عبد العظيم الزرقاني^(٢) الذي كان مدرسا بكلية أصول الدين وصاحب كتاب قيم "مناهل العرفان في علوم القرآن". ولقد كان للتلمذة على أيدي هؤلاء الأفاضل والاستصغاء في مجالسهم التأثير البالغ في تكوين شخصية هذا العملاق، وكذلك تغير مساره الفكري، وقد عد كل هؤلاء مشايخ في العلم أسوة حسنة في السلوك والفكر^(٣).

التأثر بالإمام الشهيد حسن البنا وعلاقته بجماعة الإخوان المسلمين

ومن الأشخاص الذين تأثر بهم في عنفوان شبابه حيث كان دليلا إلى اختيار مسيرته الدعوية والحركية هو الإمام الشهيد حسن البنا^(٤)؛ حيث تعرف به أثناء دراسته الأولى الثانوية في الإسكندرية، فيحكي أنه طبق العادة كان يذاكر دروسه بعد المغرب في مسجد عبد الرحمن بن هرمز في منطقة رأس التين، وذات مساء إذا بأحد الشبان يقوم ويلقي على الناس موعظة قصيرة وشرحا لحديث الشريف: عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: - .. (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)^(٥).

فكان لهذا الدرس وقع في القلب، وما أن نزل حتى تعلق قلبه به.

ومنذ تلك الساعة توثقت علاقتي به ومضيت معه عقب صلاة العشاء إلى مجلس يضم بعض رجال الدعوة وبقيت معه مرابطا طول حياته إلى أن استشهد عام ١٩٤٩م^(٦).

(١) محمود شلتوت (١٨٩٣م-١٩٦٣م): كان شيخ الأزهر وإمامها الأكبر أثناء فترة ١٩٥٨م إلى ١٩٦٣م، ويعد من الذين قاموا باصلاح الأزهر، كما عارض اخضاعها لسلطان الدولة. عرف بأراءه الفقهية الخاصة حيث يحاول ربط الدين بالحقائق الاقتصادية والسياسية المعاصرة، وكذلك التقريب بين المذاهب الإسلامية. انظر: موسوعة الحركات الإسلامية، ص ٣٢٥.

(٢) محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٩٤٨ م): من علماء الأزهر بمصر. تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث. وتوفي بالقاهرة. من كتبه: مناهل العرفان في علوم القرآن. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ٢١٠.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، ص ١٥٠.

(٤) حسن البنا: (١٩٤٩-١٩٠٦م): المؤسس والمرشد العام الأول للإخوان المسلمين في مصر، أكثر الزعماء المؤثرين في الحركات الإسلامية الحديثة، كان مفكرا عملاقا يأخذ الإسلام بالمفهوم الشامل، تبلور في فكره مفهوم الإسلام السياسي. انظر: أحمد الموصلي، موسوعة الحركات الإسلامية، ص ١٧٧.

(٥) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، المحقق: أحمد محمد شاكر و محمد فؤاد عبد الباقي (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٩٥ هـ-١٩٧٥)، باب مَا جَاءَ فِي مُعَاشَرَةِ النَّاسِ، رقم الحديث: ١٩٨٧، وقال الألباني: حديث حسن.

(٦) علماء ومفكرون عرفتهم، ج ١، ص ٢٦٧.

وعن تأثير الإمام البنا في شخصية الغزالي يقول المفكر الإسلامي الدكتور يوسف القرضاوي رحمه الله: كبر الشيخ محمد الغزالي وعظم مقامه في عالم الإسلام كله، ولكنه لم يكبر على حسن البنا الرجل الذي عرف على يديه حقيقة الإسلام الحي المتحرك، وأمن بمواهبه العقلية والنفسية والروحية والعملية لقيادة الدعوة الإسلامية، والعمل الإسلامي في عصر ابتلى الإسلام فيه بعجز علمائه وجهل أبنائه وكيد أعدائه وفساد أمرائه وشح أغنيائه.

والغزالي وإن كان معجبا بحسن البنا ولكنه ليس إعجاب التقديس أو التهويل، بل كان يرى أنه مهد الطريق وعلينا إكمال المسيرة بحيث لا نراجع ولا نتوقف. لقد أدى الرجل ما عليه وبقي على أبنائه وإخوانه أن يؤديوا ما عليهم^(١). وعن مدى إعجابه بالإمام يقول مجيباً لأحد الصحفيين: "إنه كان قدرة خارقة على دراسة الحقائق الكبيرة والفلسفات الخطيرة، فالرجل يقدر تقديم معارف جديدة للناس لم يسمعوها من قبل. ومع سعة معرفته واطلاعه، فهو صاحب رسالة يجمع الناس حولها ويربطهم بمبادئهم ويجندهم فكريا وسلوكيا لخدمتها... كان ذكاؤه مذهشا وذاكرته حديدية، وقدرته على تأليف القلوب عجيبة، كان المستمع يخرج من لقائه وهو محب للدين، غيور على تعاليمه، راغب في الدفاع عنه والموت في سبيله"^(٢).

ولم يكن هذا التأثير بهذه الشخصية الفذة منحصرًا على الإعجاب بل أصبح الرجل متحركًا مفتتحًا لمواهبه الأدبية والفكرية من خلال صحافة جماعة الإخوان المسلمين حيث كان من أحد كتابها البارزين حتى أطلق عليه لقب أديب الدعوة. كما اشتغل في مجلة الإخوان مهمة سكرتير التحرير الذي كان يرأسه الأستاذ صالح العشماوي إلى جانب عضوية مكتب الإرشاد ومسؤول للجنة الدعوة.

وفي سنة ١٩٤٥م تلقى رسالة من الإمام البنا يثنيه على عمله وكتاباته ونص الرسالة كالآتي:

أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي! ... "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد ... قرأت مقالك (الإخوان المسلمون والأحزاب في العدد الأخير من مجلة (الإخوان المسلمون)، فطربت لعبارته الجزلة ومعانيه الدقيقة، وأدبه العف الرصين، هكذا يجب أن تكتبوا أيها الإخوان المسلمون! اكتبوا دائما وروح القدس يؤيدك، والله معك"^(٣).

وظل الرجل وفيًا لفكره وجماعته في حياة المرشد الأول الإمام حسن البنا، وقد لاقى في سبيل ذلك التنكيل والتعذيب والسجن، ففي سنة ١٩٤٩م اعتقل لمدة عام انتقل فيها بين عدة سجون بدأ بسجن الدب الأحمر، مروا بـ(لهايكتسب) وانتهى به المقام إلى معتقل الطور الشهير، وفي كل مراحل السجن كان الشيخ إماما ومربيا للسجناء. وبعد الإفراج عنه عمل مع خلف الإمام البنا الأستاذ حسن الهضيبي، وكان علاقته معه وطيدة حتى وقعت ثورة ٢٣ سبتمبر فوق على إثرها الخلاف بين قيادات الجماعة واستغلت السلطات بتوسعة الفرجة بينهما، ونتج عن ذلك فصل بعض القيادات من الجماعة وكان من بينهم الشيخ محمد الغزالي.

(١) انظر: القرضاوي، يوسف، الشيخ الغزالي كما عرفته - رحلة نصف قرن (القاهرة: دار الشروق، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، ص ٣١-٣٢.

(٢) السابق نفسه، ص ٣١-٣٢.

(٣) العقيل، عبد الله، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة (القاهرة: دار البشير، ط ١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)، ج ٢، ص ٩٤٠.

وقد ظل الشيخ حتى بعد فصله عن الجماعة متصلا بفكر الإمام حسن البنا وعطاءه الفياض فكتب كتاب (دستور الوحدة الثقافية للمسلمين) الذي شرح فيه الأصول العشرين للبنا كما أضاف إلى جانبها عشرة مقررات ومواد أخرى حسبها ضرورية إلى إضافتها بغية الوصول إلى الحق.

وقد أثبت ولاءه في عام ١٩٦٥م حينما أجبره الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر على مهاجمة الإخوان؛ فرفض، وعلى إثرها دخل سجن (ليمان طرة) لأيام معدودة، وقد عانى خلالها المعاناة والتحقيق مع الشهيد سيد قطب^(١) حتى خرج منه بريئا^(٢).

أعماله: صرف الشيخ محمد الغزالي الخطيب المفوه والأديب والكاظم الدعوي جل حياته في خدمة الدعوة الإسلامية حيث بدأ حياته الرسمية بالعمل بمساجد ووزارة الأوقاف، فقد شارك في اختبار تلك الوزارة للمختصين في حقل الدعوة لخريجي جامعة الأزهر، وإجتاز اختبارها بتفوق عال حتى عين إماما وخطيبا ومدرسا لمسجد عزبان بالعتبة الخضراء في القاهرة، وكان هذا العمل أول تقليد رسمي حكومي له، ارتقى بكفاءته إلى مرتبة مفتش مساجد القاهرة ومنها انتقل إلى مرتبة واعظ بالأزهر.

فقد عين بادي الأمر بمرتبة واعظ ومرشد في مكة أبو قرقاص بمحافظة المنيا ثم للقاهرة كواعظ للأزهر، وبعدها عمل كرئيس تحرير لمجلة (نور الإسلام) من عام ١٩٤٦م إلى غاية ١٩٤٧م والتي كانت ناطقة باسم جامعة الأزهر للعلماء ومختصين في حقل الدعوة الإسلامية.

انتقل الشيخ بعدها إلى وزارة الأوقاف مرة أخرى فعمل وكيلا لإدارة المساجد ثم مديرا للمساجد وظل في هذا العمل يتقلب فيها متدرجا لوظائف عديدة، فعين مراقبا عاما للشؤون الدينية ثم مديرا عاما للتدريب ثم مديرا عاما للدعوة والإرشاد سنة ١٩٧١م، وكان آخرها وكيل وزارة الأوقاف للشؤون الدعوية حتى استقال منها في ٨ مارس ١٩٨١م إبان صلح مصر والتطبيع مع إسرائيل^(٣).

وقد عمل الشيخ إلى جنب كل هذا ممارسا أعمالا دعوية وتعليمية منها مدرسا لمادة الدعوة بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، مدرسا لمادة المجتمع العربي بكلية أصول الدين، مدرسا لمادة السيرة التحليلية بكلية التربية ومدرسا للحديث النبوي الشريف بكلية الدراسات العربية والإسلامية، كما أنه مارس مهمة الخطبة يوم الجمعة في مساجد مصر تطوعا ومنها الجامع الأزهر والذي خطب فيه طوال سبع سنوات حتى ترك المنبر بعد قرار وزاري بمنعه من الخطابة في هذا الجامع، وانتقل بعده إلى جامع عمر مكرم بميدان التحرير إلا أنه فوجئ مرة أخرى بمنعه من هذا المسجد بقرار وزاري. وقد ظل الشيخ ممنوعا من الصعود على المنابر وخطبته الجماهيرية حتى تولى الدكتور عبد

(١) سيد قطب: (١٩٦٦-١٩٠٦م) مفكر إسلامي عملاق تبنى الأصولية كطريقة للحياة، انضم إلى الإخوان المسلمين ثم ألف كتباً عديدة خلاصتها أن الإسلام هو الحل. انظر: موسوعة الحركات الإسلامية، د. أحمد الموصلي، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) انظر: الشيخ الغزالي كما عرفته، ص ٤٤. و انظر: الداعية الشهيد الشيخ محمد الغزالي ص ٣٢.

(٣) انظر: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ج ٢، ص ٩٤١. وكذلك: انظر: عمارة، محمد، الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م)، ص ٣١.

الحليم محمود عام ١٩٧١م بإمامة الأكبر في الأزهر، فطلب من السلطات إلغاء قرار منع الشيخ محمد الغزالي عن الخطابة وجاءت الموافقة على أثر شخصية هذا العالم الزاهد.

وبعد إلغاء القرار طلب الدكتور عبد الحليم محمود^(١) من الشيخ محمد الغزالي أن يستعد لخطبة يوم الجمعة القادمة في جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه ذاك المسجد العريق القديم في هذه الديار.

وبالفعل بدأ الشيخ محمد الغزالي خطبه الجياشة من منبر مسجد هذا الصحابي الجليل، وكان المسجد قبل اتيانه أشبه بمزرعة بالية حيث كان فيها عدد قليل من النخل العقيم وأرضها كانت مفرشة بالتراب يتحول في الشتاء وقت المطر إلى طين، وأبوابها مغلقة دائما، وفي وسط الصحن كان بئر ماء راكد يتوضأ منه الناس، ولم يكن للمسجد أي حيوية ونشاط بل كان مركز بدع وخرافات ترد عليه النساء والشيخ تأخذ من أوراق شجرها البركة ومن مائها الاستشفاء من العقم ونحوه.

والشيخ بعد توليته أمر خطبة الجمعة أخذته الغيرة تجاه هذا المسجد العريق لهذا الصحابي الجليل وقصد اصلاح حال المسجد، وبإيدي الأمر حث مجموعة الشباب الجامعيين من جامعة الأزهر والقاهرة على تنظيف المسجد وإعداده للمصلين ثم عزم على اصلاح بناء المسجد فعين لجنة مكونة من المصلين وأميننا لصندوق جمع التبرعات ولكن حينها لما وجد الدولة في الأمر جدا بدأت تتدخل، وأخذ محافظ القاهرة حمدي عاشور الإشراف على هذا المشروع الكبير وظل فيه حتى بنى المسجد بشكل مرموق مناسب لاسم هذا الصحابي الجليل.

وأما عن البناء المعنوي فقد زاد عدد المصلين فيه حتى وصلت إلى ثلاثين ألف أو يزيد، وكان الشيخ محمد الغزالي يتابع خطبه بكل هفاوة وافتخار في بيان تفسير القرآن الكريم، وكذلك رد لأباطيل المستشرقين والمستغربين من هذا المنبر الجليل حسب القضايا وأهميته^(٢).

وفي سنة ١٩٧٤م كان له وللشيخ محمد أبي زهرة موقف معارض للتعديلات التي طرأت على قانون الأحوال الشخصية من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية حيث كان بمجملها تدور على تقييد تعدد الزوجات للرجال وتحويل أمر الطلاق للنساء بدل الرجال.... فما كان من الشيخين إلا رفع صوت الاعتراض على هذا القانون المخالف للشريعة حتى حول الأمر إلى الأزهر للحوار والمناقشة، وكان من بين المتصددين لهذه الحملة الشيخ محمد الغزالي؛ فأفند هذا القانون بالحجج الدامغة من القرآن والسنة، وعلى إثرها جاء قرار وزاري بتنحية الشيخ محمد الغزالي عن هذا المنبر ونقله كموظف اداري في مسجد صلاح الدين، وبهذا ترك الشيخ منبر أول مسجد في إفريقيا عام ١٩٧٤م مرغما ومكرها له^(٣).

(١) عبد الحليم محمود (١٩١٠م-١٩٧٨م): عالم أزهرى ووزير مصري سابق وشيخ الأزهر وإمامها الأكبر أثناء فترة ١٩٧٣م إلى ١٩٧٨م، حقق أثناء مشيخته نجاحا باهرا بحيث جعل للأزهر مكانة مرموقة عالية، فضلا عن توسيع إنشاء المعاهد الأزهرية، وللشيخ أكثر من ستين مؤلفا في التصوف والفلسفة. انظر: عبد الرحمن، سعيد، شيوخ الأزهر (القاهرة: الشركة العربية للنشر والتوزيع، ١٣٩٧م)، ج ٥، ص ١٥-١٦.

(٢) انظر: الداعية الشهيد الشيخ محمد الغزالي، ص ٤٣.

(٣) انظر: السابق نفسه، ص ٥٦.

وبعد تنحية الحياة المنبرية سافر الشيخ محمد الغزالي إلى السعودية حيث التحق بعضوية هيئة التدريس بجامعة أم القرى بمكة المكرمة بين أعوام ١٩٧٤م إلى ١٩٨١م، وقد شغل رئاسة قسم الدعوة وأصول الدين في هذه الجامعة، ثم انتدب ما بين سنة ١٩٨٢م إلى ١٩٨٥م كأستاذ زائر في جامعة قطر. وأخيرا وصل به المقام ما بين ١٩٨٥م إلى ١٩٨٨م كمؤسس وراعي جامعة الأمير عبد القادر في الجزائر.

وبعد هذا العام عاد الشيخ محمد الغزالي للإقامة الدائمة بمصر وعكف على كتابة الكتب ورصد فكره والسفر إلى أنحاء العالم لإلقاء الخطب والمحاضرات في المؤتمرات والملتقيات، وتكريما لخدماته حصل عام ١٩٨٩م جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام بالمملكة العربية السعودية وكذلك غيره من الجائزات وأوسمة الشرف في ميدان العلم والدعوة.

وفي عام ١٩٩٦م سافر إلى مقر الأمم المتحدة بنيويورك في عيدها الخمسين ممثلا للأزهر الشريف والتقى هناك بالجاليات المسلمة في تلك الديار.

وفي آخر مطاف له سافر بعد عودته من أمريكا إلى المملكة العربية السعودية للمشاركة في المهرجان الوطني للثقافة، وأثناء المحاضرة في قاعة الملك فيصل عن (الإسلام والغرب) لقي ربه ليلة الجمعة في ٩/ مارس/ ١٩٩٦م بعد دعوة و جهاد، وقد نقل جسمانه إلى عاصمة النبوة المدينة المنورة ودفن بمقبرة البقيع بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين^(١).

فكره ومؤلفاته:

الشيخ محمد الغزالي هو الداعي العملاق والمفكر الإسلامي الذي عاش بفكره وخطبه وكتبه في حقل الدعوة مفتخرا بماضيه ومجدا وساعيا في الحال ومتحمسا لمستقبل هذا الفكر العظيم. دخل هذا الرجل منذ نعومة أظفاره في خدمة الدين والفكر، وقد وهب حياته في سبيله كمدافع عن الإسلام ومهاجما على أعدائه، وهذا ما أكسبه تجربة عظيمة وباعا طويلا، كما أنه رزق بصيرة ونظرة حذاقة تتعامل مع مختلف القضايا الدين والدنيا وينتقد ما يراه غير صالح لعرضه في الدين وإن أخذت طابعا دينيا ومكانة مرموقة بين الناس.

وعن معالم شخصيته يقول الدكتور يوسف القرضاوي رحمه الله: "إن الشيخ الغزالي هو رجل الدعوة قبل كل شيء، الإسلام لحمته وسداه وشغل نهاره وحلم ليله، ومحور حياته كلها، والدعوة إلى الإسلام لها كل عقله وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهده وجهاده، لا يستطيع الابتعاد عنها إلا كما يستطيع الحوت أن يبتعد عن الماء... ولهذا حين يتحدث عن الإسلام فإنما يتحدث قلبه قبل لسانه، أكره شيء إلا نفاق الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم"^(٢).

ولقد أخذ هذا الداعي العملاق في دعوته وفكره عددا من القضايا والمحاور التي تواجهها الأمة الإسلامية والفكر الإسلامي خاصة وذلك بغية معالجتها، وهذه القضايا في مجملها كالآتي:

(١) من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة ، ج ٢، ص ٩٤٧ .

(٢) الشيخ الغزالي كما عرفته، ص ٥٧ .

١- كانت رسالة الشيخ محمد الغزالي في حياته الفكرية والعملية والدعوية بمجملها إحياء أمة الإسلام وتحريك طاقاتها الإحيائية التي عطلت، وفي ذلك يقول: "فالجهد الأول (المطلوب) هو تحريك قافلة الإسلام التي توقفت في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر!! وسوف تتلاشى كل التحديثات التي تواجهها يوم يعتنق المسلمون ويدخلون فيه أفواجا، حكاما، وشعوبا"^(١).

٢- الدعوة لتحرير العقل المسلم من قيود الجمود والتقليد، وذلك بعد ما عطلت هذه المواهب العقلية بعد مسيرة طويلة من العطاء المتواصل، فقد دعا الرجل إلى التمييز بين مصادر الإسلام المعصومة من الوحي الإلهي وبين الفكر الإسلامي غير المعصوم. وفي سبيل ذلك رد على الذين يرون بأن المتقدمين لم يدعوا للآخرين مجالا في الإجتهد والتجديد، ولهذا يقول: "كما نرفض حصر الفقه الإسلامي في اجتهد أولئك الأربعة الكبار وإغلاق أبوابه بعدهم، فإن فضل الله لم يحتكره نفر من العلماء مهما علت منازلهم، ومصالح الشعوب تتجدد على اختلاف الزمان والمكان، وتحدث لها فتاوى وأقضية ينهض بها المتأخرون كما نهض بأمثالها المستقدمون"^(٢).

٣- الدعوة إلى تطبيق العدالة الاجتماعية في الحياة البشرية وهي بذلك تعد شرطا لإصلاح الدنيا، وبالتالي لا تقوم أمور الدين ولا تصلح القلوب، وفي هذا يقول الشيخ: وفقدان العدالة الاجتماعية في أنحاء هذا الوادي جعل الناس يخرجون من ظلام الأرحام إلى ظلام الدنيا المليئة بالفاقة والجهالة، لا عمل لهم إلا ما توارثوه من بذر الحب وانتظار الثمار من الرب كما يقولون، ولهذا يبرهن الشيخ محمد الغزالي في مقدمة كتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) بمصطلح الدين في خدمة الشعوب فيقول: "وكان لهذا المصطلح المستخدم عندي ما يبرره، فقد كان في مواجهة ذلك المصطلح روح له الشيوعيون في تلك الفترة (الدين أفيون الشعوب) واستخدامي لهذا المصطلح ينبع من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ^(٣).

٤- الدعوة إلى فهم المصادر الأولية للإسلام المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد شدد الرجل على القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للإسلام وعين محاوره الأساسية: الله الواحد، والكون الدال على خالقه، والقصص القرآني والبعث والجزاء، والتربية والتشريع، وقد عد هذه الموضوعات أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها، ولهذا جاء كتابه تحت عنوان "المحاور الخمسة للقرآن الكريم"، كما أن الرجل دافع عن سنة رسول الله ﷺ باعتباره الجزء المتمم لفهم القرآن وهي بالتالي قوام الإسلام وامتداد لسنا القرآن والتفسير لمعناه والتحقيق لأهدافه ووصاياه.

٥- الشيخ محمد الغزالي هو ذاك المجاهد الذي يحرس على ثغر الإسلام واتخذ موقف المدافع والمهاجم عن حمى الإسلام، فهو يدفع عن الإسلام ويهاجم أعداءه، وهكذا كل كتبه وخطاباته على هذا المنوال، فتارة يهاجم على اليهود كيدهم في كتاب "حصار الغروب"، وتارة على المنصرين في كتابه "صيحة تحذير من دعاة التنصير"، ومرة

(١) الغزالي، محمد، هموم داعية (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، ص ١٧.

(٢) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص ٩٥.

(٣) الغزالي، محمد، الإسلام والأوضاع الاقتصادية (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، ص ٥٥.

على المستشرقين وخاصة زعيمه جولد تسيهر^(١)، وعلى الشيوعيين في كتابه "الإسلام في وجه الزحف الأحمر"، وكذلك على الحضارة الغربية في كتابه "ظلام من الغرب"، ومن ثم على الاستعمار في كتابه "الاستعمار أحقاد وأطماع"، وهكذا على القومية اللادينية كما في كتابه "حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي". وعن دور هذا يقول الدكتور يوسف القرضاوي رحمه الله: لقد كتبت الأقدار على الشيخ أن يحارب في جبهتين واسعتين:

الف- جبهة الخصوم الكائدين للإسلام، المتربصين به الشر، الكارهين لانتشار أنواره الذين اختلفت ديانتهم واختلفت طرائقهم ولكن اتحدت أهدافهم على ضرب الإسلام. وهذه الفئة خصومتهم من خارج الإسلام ولكن مع الأسف هناك نفر تصدوا لعداوة الإسلام من داخل أرضيته رغم أنهم يحملون أسماء إسلامية مثل: محمد، أحمد، حسن، حسين، عمر، علي... ولكنهم يضمرون للإسلام شرا ولدعائه عداوة ولشريعته تنكرا؛ والسبب في ذلك أن الإسلام جاء ضد شهواتهم المحرمة وضد مظالمهم المفترسة ومصالحهم الآثمة وضد مطامعهم الفاجرة.

ب- جبهة الأصدقاء الجهلة وهم بلا شك يضررون الإسلام أبغ من الفئة الأولى رغم رفع شعارهم بأنهم ينفعون للإسلام ويزودون عنه، ولهذا سماهم الشيخ محمد الغزالي "الدعاة الفتنين"، وهؤلاء مهمتهم أنهم يشغلون الناس بالفروع عن الأصول وبالجزئيات عن الكلليات وبالمختلف فيه عن المتفق عليه وبأعمال الجوارح من أعمال القلوب^(٢).

وبالجملة فالشيخ محمد الغزالي هو الداعية الموهوب الذي جعل كل حياته وعيشه وهمه الدعوة إلى الله واصلاح المجتمع، وفي سبيلها قدم كل مجهوده وما تيسره له في هذه المهمة العليا، وقد كان من أدواته في هذه:

١- الخطب سواء كان من منبر المسجد كما مر بنا أو خطب دعوية في مؤتمرات ولقاءات علمية، وكانت من بينهما في السجن بين المعتقلين.

٢- منبر الصحافة: هذا هو المعلم الواضح في هذا العصر حيث اتخذه رواد الفكر الإسلامي في هذا العصر وسيلة لنشر أفكارهم، ومنها انطلقت أكثر الصحوات الإسلامية؛ فقد بدأ الشيخ من مجلة "الإخوان المسلمون" الأسبوعية مارا بمجلة "المباحث"، ثم "مجلة الدعوة" التي أسسها الأستاذ صالح عشاوي، وكذلك المجلات الإسلامية مثل: لواء الإسلام في مصر، ومجلة الأمة القطرية، وكذلك في عمود أسبوعي بجريدة "الشعب" المصرية تحت عنوان "هذا ديننا"، وصحيفة "المسلمون" السعودية تحت عمود "الحق المر".

(١) جولد تسيهر (١٨٥٠م-١٩٢١م): مستشرق يهودي مجري عرف بنقده للإسلام ويجدية كتاباته، ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية، ولقد اشتهر بغزارة إنتاجه عن الإسلام حتى عد من أهم المستشرقين لكثرة إسهامه وتحقيقاته عن الإسلام ورجاله، ولكنه متأثرا في كل ذلك بيهودية، وهو أبرز من قام بمحاولة واسعة وشاملة لنسف السيرة النبوية. انظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين (بيروت: دار العالم للمالين، ط ٣، ١٩٩٣م)، ص ١٩٧.

(٢) انظر: ملكاوي، فتحي حسن، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (مقال الدكتور يوسف القرضاوي - الغزالي رجل الدعوة) (الأردن: المعهد الإسلامي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ص ٢١٨-٢١٩.

٣- الإذاعة والتلفاز: ولم يغفل الشيخ محمد الغزالي عن هذه الوسيلة وتأثيرها على الجمهور سواء كان المرئي والمسموع منها، فقد عمل فيها بغية تنوير العقول بالمفاهيم الصحيحة، وفي ترفيق القلوب وتزكية الأنفس بالمعاني الربانية... وظلت أحاديثه تذاق من إذاعة الصباح في السعودية لسنوات، كما أنه أذاع محاضرات مذاقة ومتلفزة في كل من قطر، الكويت، الإمارات وكذلك حديث متلفز أسبوعيا في مساء كل إثنين بالجزائر.

٤- الكتب والدعوة بالقلم: وقد كان هذا الجانب من أغنى الميادين وبالتالي تعد كتبه مشروعا فكريا متكاملا حيا في العصر المعاصر، فقد جاهد الرجل بقلمه ولم ينقص تأثير قلمه عن حدة سيوف الجيوش الجرارة التي تحارب أقاليم عديدة.

وقد تميز قلمه وكتاباته ببلاغته وروعة أسلوبه وقوة منطقته، ومحتواه في غاية الوضوح، وأنه مفهوم لمن يقرأه. وعن مدى أهمية أسلوبه يقول الشيخ يوسف القرضاوي رحمه الله: إن الغزالي يخاطب بكتاباته الفطرية ويجتهد أن يقنع العقل ويحرك القلب، لهذا لا يتفعر ولا يتكلف ولا يتعسف، وكلما يستخدم المصطلحات والكلمات التي بين قوسين، بل يحاول أن ينفذ إلى قارئه بنصاعة الأديب المبدع ووضوح الداعية المشعة وله في بيان الله ورسوله أسوة حسنة^(١).

وأهم ما ميز الغزالي أن كتبه جاء في مجالات عديدة من الفكر الإسلامي متمثلا دين الله الكامل الشامل، وفيما يلي بيان لكتبه:

- ١- الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ٢- الإسلام والمناهج الاشتراكية، ٣- الإسلام والاستبداد السياسي، ٤- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والراسماليين، ٥- من هنا نتعلم، ٦- تأملات في الدين والحياة، ٧- خلق المسلم، ٨- عقيدة المسلم، ٩- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ١٠- فقه السيرة، ١١- في موكب الدعوة، ١٢- ظلام من الغرب، ١٣- جدد حياتك، ١٤- ليس من الإسلام، ١٥- من معالم الحق، ١٦- كيف نفهم الإسلام؟، ١٧- نظرات في القرآن، ١٨- مع الله، ١٩- معركة المصحف، ٢٠- كفاح دين، ٢١- الإسلام والطاقات المعطلة، ٢٢- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ٢٣- هذا ديننا، ٢٤- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ٢٥- الجانب العاطفي من الإسلام، ٢٦- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ٢٧- ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ٢٨- حصاد الغرور، ٢٩- الإسلام في وجه الزحف الأحمر، ٣٠- قذائف الحق، ٣١- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ٣٢- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، ٣٣- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ٣٤- واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر، ٣٥- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ٣٦- هموم داعية، ٣٧- مائة سؤال في الإسلام، ٣٨- علل وأدوية، ٣٩- قصة حياة، ٤٠- مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه، ٤١- سر تأخر العرب والمسلمين، ٤٢- الطريق من هنا، ٤٣- جهاد الدعوة بين عجز

(١) انظر: الداعية الشهيد الشيخ محمد الغزالي، ص ٦٤.

الداخل وكيد الخارج، ٤٤- الحق المر، ٤٥- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ٤٦- المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ٤٧- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ٤٨- قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة والوافدة، ٤٩- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ٥٠- كيف نتعامل مع القرآن؟، ٥١- صيحة نذير من دعاة التنصير، ٥٢- نحو تفسير موضوعي، ٥٣- من كنوز السنة، ٥٤- الإستعمار أحقاد وأطماع^(١).

التعريف بكتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي

لقد اعتمد الشيخ محمد الغزالي في دعوته على المصادر الأولية للدين الإسلامي بدأ من القرآن الكريم والسنة النبوية حيث جعل الآخر ضروريا لفهم الأول بحجة أن السنة النبوية هي الشرح النظري أو التطبيق العملي له. وفي علوم السنة كان مرتكزا على السيرة النبوية لأنها تمثل لها في الجانب العملي، فقد جعل الله نبيه ﷺ أسوة حسنة كي يقتدى المسلمون به في فعالهم. وصفوة القول فإنها تمثل جسدي للإسلام، أو عبارة أخرى هي القرآن الحي الذي يراه المسلمون في صورة وقائع ومواقف يلمسونها ويتعظون بها عامة وخاصة.

ومن هنا نجد أن تراث الشيخ محمد الغزالي تضمنت أحاديث نبوية ووقائع من صفوة السيرة النبوية في سياق عرضه لأيات القرآن الكريم؛ فقد وضع الرجل على عاتقه مهمة بيان حقائق الإسلام ورد أباطيل خصومه، وكل هذا منوط على الوقوف في ظلال السيرة النبوية حتى يصور لقرائه ومدعويه عدل الإسلام ورحمته، وتعليمه وتوجيهه وشفقته و... وقد ظل الرجل معلقا بهذا العلم وأصبح هوايته، ففي مقدمة كتاب "فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء" يقول: "شغفت بسير العباد الصالحين، وحاولت أن أقبس منها شعاعا استضيء به. كنت بقلبي مع موسى عليه السلام في مدين وهو يحس لدع الوحشية والحاجة، وكنت مع عيسى عليه السلام وهو يواجه مساءلة دقيقة ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية، وكنت مع إبراهيم عليه السلام وهو بوادي مكة المجذب يسلم ابنه للقدر الموهوب ويسأل الله الأنيس لأهله.

غير أنني انبهرت وتاهت مني نفسي، وأنا بين يدي النبي الخاتم محمد بن عبد الله وهو يدعو (الدعاء) ويدعو (الدعوة)... وفي هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء^(٢).

وعلى أساس من الحب والضرورة بدأ الشيخ محمد الغزالي بتحرير كتابه الموسوم "فقه السيرة"، وقد بدأ به وهو في آخر عهد شبابه حيث كان فائق الذكاء والموهبة والإحساس، وقد تألم قبله بأحداث النكبة الأليمة سقوط القدس إلى أيادي الصهيونية وعانى المسلمون مرارة عيشهم وتخلفهم الفكري، وفي هذا الجو المظلم وجد بعض المسلمين ينتسبون إلى الرسول الأعظم ويرفعون عن السيرة قشورا خفيفة لا تحرك القلوب ولا تثير الهمم، وهم يعظمون النبي ﷺ وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة على هذا النحو التافه تساوي الجهل بها، إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة

(١) العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، ص ٢٢٧.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، مقدمة كتاب فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء (دمشق: دار الشروق، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، ص ٩.

أن تتحول إلى أسطورة خارقة... إن حياة محمد ﷺ بالنسبة للمسلم مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقدة محايدة، كلا، كلا. إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ومنع الشريعة العظيمة التي يدين بها.

وأما عن مهمته فيقول: "وقد بذلت وسعي في إعطاء القاريء صورة صادقة عن سيرة رسول الله ﷺ واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث ثم تركت للحقائق أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتيال"^(١). وعن تأثير ومنهج هذا الكتاب يقول المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة: كتب الغزالي هذه السيرة وهو داعم العين، جياش المشاعر وكان في أكثر أوقاته في الروضة الشريفة في المسجد النبوي وبعضه في مكة أمام الحرم، واعتمد المؤلف فيه على القرآن والصحيح من السنة والعقل الراشد.

وأما عن منهجه فقد جمع الغزالي كما يقول في مقدمة كتابه طريقة المؤرخين المحدثين والذين يميلون إلى التعليل والموازنة، وكذلك ربط الحوادث في سياق متماسك، وهو طريق المؤرخين القدامى حيث كانوا يعتمدون على حشد الآثار ويمحصون الأسانيد ويسجلون ما دق وجل من الوقائع، وبذلك جعل الشيخ بهذا الجمع المبدع من تفاصيل السيرة موضوعا متماسكا يشد أجزاءه روح واحدة. وفائدة دراسة السيرة على هذا النمط كما يقول الشيخ ينمي الإيمان، ويزكي الخلق ويلهب الكفاح"^(٢).

وأهم الشيء الذي يدرك في هذا الكتاب القيم أن مؤلفه كتب هذه الصفحات على أساس من الشغف والحب المسيطر على قلبه، وفي عقله تعظيم لصاحب السيرة، وذلك لأنه القدوة والأسوة الحسنة في الاعتقاد والتشريع والسلوك، وقد عبر الشيخ عن هذه الأحاسيس بجملة جميلة كما يقول: "إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده أو تابع عن سيده أو تلميذ عن أستاذه، ولست كما قلت مؤرخا محايدا مبتوب الصلة بمن يكتب عنه"^(٣).

وأما عن موضوعات الكتاب فقد جاء في تسعة فصول هي: رسالة وإمام، من الميلاد إلى البعث، جهاد الدعوة، الهجرة العامة، أسس البناء للمجتمع الجديد، الكفاح الدامي، طور جديد، أمهات المؤمنين، الرفيق الأعلى.

وبالبحث النقاد ليرى في تقسيم هذا الكتاب تقسيما مبدعا مختلفا عما جاء به رواد السيرة النبوية، وذلك لأن الرجل كتب هذا القسم وأمام عينيه مناظر من تأخر المسلمين العاطفي والفكري؛ وبالتالي أراد أن يورد وقائع السيرة بأسلوب يعالج حاضرننا المؤسف قريبا أو بعيدا، وهذا ما وضعه الشيخ على عاتقه إذ يقول: "كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر وجلال العمل، كي أعالج هذا التأخر المثير"^(٤).

وبالجملة ففقه السيرة تعد دليلا دعويا وترشيذا لمجتمع، وعلاج نفسي وإصلاح فكر وعاطفة للمسلمين في العصر الحاضر، وذلك من خلال السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلوات والتسليمات.

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي، ط٧، ١٩٧٦م)، ص ٧.

(٢) انظر: الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية، ص ٥٥.

(٣) فقه السيرة، ص ٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٥.

٥- نبذة عن حياة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وكتابه فقه السيرة

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي أحد رواد علم الشريعة الإسلامية في العصر المعاصر حيث أدرك في فترة مبكرة من حياته أصالة ومقصد هذه الشريعة السامية وعاب على الذين يخضعون هذا القسم من الدين إلى تجربة العلوم الحسية بحجة تنزيلها للتحديث ومؤاومتها للمجتمع الغربي .

لقد درس الدكتور بوطي السيرة النبوية المطهرة بعين الاعتبار واستخرج من خلالها المادة الخصبة لعلماء الشريعة تصلح زادا لدعوتهم ومصباحا تنير طريقهم الشاق، كما يستغنيهم عن غيرهم، وعلى هذا انتقد الرجل المنهج التقليدي لدراسة السيرة النبوية باعتبارها قصصا وحوادث مجردة لاغير. وفيما يلي نبذة عن حياته وفكره وكتابه القيم فقه السيرة.

حياته: تنتسب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي إلى أسرة كردية اقتطنت قرية (جيلكا) التابعة لجزيرة بوطان (ابن عمر) والواقعة في تركيا قرب حدود العراق. كان والده الشيخ ملا محمد رمضان بن عمر بن مراد مشغلا أول حياته بالفلاحة والزراعة مع جده، كما كان محبا للدراسة والسير إلى طلب العلم، وبعد اشتراكه في الحرب العالمية الأولى (من ١٩١٤م إلى ١٩١٨م) تزوج بسيدة كردية باسم منجي ورزق منها أولادا آخرها قبل الأخير كان صاحب الترجمة.

ولد الدكتور بوطي سنة ١٩٢٩م في تلك القرية وسماه والده باسم فضيل تيمنا باسم ذاك العالم الزاهد الشهير، وفي اليوم التالي من ولادته حمله إلى شيخه ومرشده الشيخ سعيد والمشهور بـ"شيخ سيدا" حتى يدعوا له بطول العمر ويحتنكه لأن معظم أولاده يختطفه الموت عقب ولادته، وعقب الدعاء المطول أصر على والده أن يسميه "سعيد" فرأى والده أن يجمع بين رغبته الخاصة واصرار شيخه؛ فسيبقى كلا الاسمين ولكن الاسم الثاني سبق السجلات الرسمية وأصبح مشهورا بين الناس^(١).

عكف والد الدكتور بوطي بعد ولادته بسنة على العبادة والتبتل فقد ذهب بادي الأمر لأداء مناسك الحج مشيا على الأقدام لكنه بعد العودة أصيب بمرض شديد أقعده في البيت والفرش، وكان خائفا أثناءه على مولوده المحبوب من تنشئته في القرية التي تفشى فيها الجهل وبعد أهلها عن ضوابط الدين والأخلاق، وبعدما اندمل عكف على كتابة مجموعة من النصائح والوصايا لابنه مخافة أن لا يعاوده المرض، وقد كان حلم الشيخ أن تنشأ طفله على المبادئ التربوية والعلمية ليكون عزا له ولأهله ولكنه بفضل الله شفي وأخذ البوطي يتلقى تلك التعاليم والنصائح منه مباشرة، وقد كان لهذه المبادئ أثر طيلة حياته وزاد عليها شيئا ثم طبعت ككتيب في العلم والأخلاق.

نشأ البوطي في أسرته مكتسبا التربية الدينية على الطريق التقليدية من والده إلى أن اضطرت أسرته إلى الهجرة من مسقط رأسه إلى دمشق، وقد يعود ذلك إلى عدة أسباب أهمها:

(١) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، شخصيات استوقفتني (دمشق: دار الفكر، ط٧، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ص ١٩.

سلسلة الإساءات المتعمدة الحاقدة التي وجهها أتاترك^(١) إلى الإسلام وذلك بعد تمكنه من الغاء الخلافة الإسلامية ومن ثم مهاجمة شعائر الإسلام وتعليماته مثل الغاء الأذان باللغة العربية ثم استبدال الأحرف العربية إلى اللغة اللاتينية، ومنع تلاوة القرآن الكريم في الأماكن العامة وإحلال القرآن المترجم إلى اللغة التركية محله ، وهكذا إجبار الرجال على لبس القبعة الغربية وإجبار النساء على رفع النقاب والحجاب... ولم تكن قرية جيلكا بمسجدها والعدد الكبير من طلاب العلم فيها يبعد عن هذه الحملة الشرسة فكانت ترد إليها دوريات مكثفة من الجنود والشرطة التركية... إلى جنب ذلك كان هناك عوامل أخرى مثل تفشي الجهال والعادات السيئة في القرية وكذلك تحكم الأهواء في رؤوس كثير من كبارها وموالاتها لأتاتورك؛ وكل هذا حمل والده أن يترك بلده وينتقل إلى الشام.

وأما عن اختيار الشام كموطن للإقامة فذلك يعود إلى اعتقاد الرجل نحو هذا البلد واجلاله وكثير ما ينعته بالأرض المقدسة ويحفظ أحاديث عديدة وإن كانت بعضها ضعيفة. ومنها ما رواه الإمام أبو داؤود في سننه والحاكم في المستدرک بعد تصحيحه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه في فضل الشام وغوطتها بلفظ: (إِنَّ قُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْعُوطَةِ، إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ)^(٢).

ونظرا لهذا فقد عدل الرجل عن الإقامة في أرض الحجاز ولم يرد لها إلا كالزائر أو المعتمر وذلك لأن طول المقام من شأنه أن ينسى الرجل ضوابط الأدب والالتزام. وعلى أية حال فقد هاجرت هذه الأسرة بعد عناء شديد من السفر تاركا أمتعته و أرضه حتى استقر به المقام في سفح جبل قاسيون (حي ركن الدين)، وكان عمر الدكتور البوطي أربع سنوات^(٣).

تعليمه ورحلاته في طلب العلم: اشتهر والد الدكتور بوطي بعد مجيئه إلى دمشق بعلمه الغزير ونضج آرائه بين الناس حتى سرعان ما اشتهر بأنه العالم الأول في فقه الإمام الشافعي بين علماء الحي، وكان يدرس على يديه جمع كثير من أهل المنطقة وخارجها كما أكسبه إمامة المسجد شهرة فائقة ومرجعية الفتوى وذلك من خلال مسجد ركن الدين ومن بعده مسجد الرفاعي في أوقاف دمشق.

وأما عن تعليم ابنه فحسب اعتقاد والده فإن أول مدرسة التي لابد أن يربي فيها الناس هي مدرسة الأم والأب لأنهما يلقيان الناس جملة من الحقائق ويهيئون عقولهم لادراك الأمور وحفظها.

(١) مصطفى كمال أتاترك (١٨٨١م-١٩٣٨م): مؤسس الجمهورية التركية وقائد الحركة التركية الوطنية بعد اسقاط الدولة العثمانية بيديه، اعتمد سياسته على العلمانية والقومية والشعبية. انظر: ويكيديا الموسوعة الحرة.

(٢) أبو داؤد، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: المكتبة العصرية، صيدا، ب ت ط)، كتاب الملاحم، باب في المعقل من الملاحم، رقم الحديث: ٤٢٩٨. وقال الألباني: حديث صحيح. و الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، باب أما حديث أبي عوانة، ج ٤، ص ٥٣٢.

(٣) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، هذا والدي- القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي (دمشق: دار الفكر ٢٠٠٨م)، ص ٣٠-٣٣.

وبناً على ذلك فقد عهد تربية هذا الولد مباشرة من قبل والده ثم تسلمها إلى امرأة فاضلة في القرية وكانت تعلم الأطفال قراءة القرآن، ومعها التحق بمدرسة ابتدائية أهلية خاصة في زقاق القرماني حيث كانت تعنى بتعليم الدين واللغة العربية والرياضيات.

وفي عام ١٩٤٢م توفيت والدته بعد مرض عانت منها سنوات وكانت لهذه الواقعة تأثير على حياته ، وفي نفس العام تعرف والده على عالم جليل من علماء دمشق وهو الشيخ حسن حبنكة الميداني^(١) فانضم إليه ولده في جامع منجك الذي أنشأ فيه معهد التوجيه الإسلامي (وإن لم يكسب هذا الاسم في ذاك الزمان)، وقد كان هذا المعهد آنذاك مكوناً من بضعة عشر شاباً حيث كانوا يدرسون العلوم الشرعية من الشيخ الميداني صباح كل يوم، والنظام المتبع في المعهد كان على الطلاب أن يتفرغوا للعلم منقطعين عن بيوتهم وكانت إقامتهم في غرف تابعة لجامع منجك في حي الجزماتية بالميدان.

وفي تلك الفترة رغم صغر السن تفوق البوطي على زملائه، فكان يتابع دروسه مع الشيخ الميداني والشيخ محمود المارديني والذي يحسبه المشرف الأول في ذاك المعهد.

ولم يكتف هذا الطالب بدروس هذا المعهد فقد كان يرجع كل ثلثاء إلى بيته وهنا يتلقى من والده دروساً في النحو والبلاغة كما عمد إلى حفظ كتاب عقود الجمان للإمام السيوطي والعكوف على كتب المنطق والمقولات العشر ودراسة شرح جمع الجوامع في الأصول.

وفي عام ١٩٤٧م تزوج الدكتور بوطي وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره وذلك بناءً على إصرار والده لأنه كان يميل إلى القول بوجوب تزويج الوالد ابنه إذا بلغ مبلغ الرجال، واستمر البوطي متابعاً لدروسه حتى تمكن من التخرج في الدراسة الشرعية الثانوية من ذاك المعهد المرموق في عام ١٩٥٣م، وقد كانت تلك السنوات عبارة عن سنوات التأسيس في حياته العلمية^(٢).

وفي عام ١٩٥٣ استدعي البوطي إلى الخدمة العسكرية الإلزامية ولم يكن أمامه بد إلا سبيل مواصلة الدراسة على مستوى جامعي مقبول، وذلك لأن جامعة دمشق لم تفتح فيها كلية الشريعة آنذاك وبالتالي التحق بجامعة الأزهر الشريف، وقد حصل منها على الشهادة العالمية الليسانس عام ١٩٥٦م، كما انتسب إلى كلية اللغة العربية في تلك الجامعة ونال منها دبلوم التربية في العام نفسه.

وقد عرف الدكتور بوطي أثناء الدراسة الجامعية بنشاطه حيث كان يكتب كل أسبوع مقالا أدبيا واجتماعيا يرسلها إلى جريدة الأيام التي كان يصدرها المرحوم نصوح بابل تحت عمود (من أسبوع إلى أسبوع) وذلك خلال أعوام

(١) حسن حبنكة الميداني (١٩٠٨م-١٩٧٨م): عالم دين وفقه، وخطيب سوري، اشتهر بجرأته في قول الحق، وهو رائد نهضة علمية ودعوية في دمشق عموماً وفي حي الميدان خصوصاً، وقد تخرج على يديه كبار العلماء في سوريا في العصر الحديث. انظر: ويكيبديا الموسوعة الحرة.

(٢) انظر: هذا والدي، ص ٦٠. عليوان، هشام وفادي، البوطي- الدعوة والجهاد والإسلام السياسي (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط ١، ٢٠١٢م)، ص ١٥.

١٩٥٤-١٩٥٥م. وبعد أخذ شهادة كلية الشريعة من جامعة الأزهر عاد البوطي إلى دمشق واشترك بمشورة والده في مسابقة وظائف تدريس التربية الدينية في المدارس الإعدادية والثانوية حيث يرفضها أول الأمر ونجح فيها بتفوق ومن ثم التحق عام ١٩٥٧م في سلك التدريس.

وظل الرجل في هذا المسلك يدرس مادة التربية الإسلامية في حمص بين أعوام ١٩٥٨م إلى ١٩٦٠م أي ما يقارب ثلاث سنوات ثم نقل إلى محافظة القنيطرة وأخيراً إلى دمشق العاصمة ومنها إلى دار المعلمين، وكان لحضوره دور فعال في تشييد هذا الصرح العلمي حيث وضع أسس ومبادئ التربية المعاصرة في التفكير والتطبيق لتكون منهجاً قوياً في مستقبل الأجيال.

وفي تلك الفترة تأثر البوطي من جو اتحاد وتعاون جمهوريتي مصر العربية وسوريا وبدأ ينقل أحاسيسه من خلال مقالات وكتابات جمع فيما بعد باسم كتاب "في سبيل الله والحق"^(١).

وفي عام ١٩٦٠م عين البوطي معيداً في كلية الشريعة بجامعة دمشق وذلك بترشيح الدكتور مصطفى السباعي^(٢) رحمه الله عميد كلية الشريعة آنذاك وظل فيها فترة وجيزة حيث تأثر عن شخصية هذا الرجل العظيم رغم ما وجه إليه انتقادات قبل أن يلتحق في جامعة دمشق وذلك أوان تولي مسؤولية المراقب العام للإخوان المسلمين في سوريا، يقول البوطي عنه: لقد قال لي: "لعلك تحسب أن في نفسي شيئاً عليك، بسبب كتابتك عني، ولقد سكت إذ ذاك ولم أجب... ولكنه تابع يقول: إن الإسلام يا أخي! ليس في مجاملة، فكتب جميع ما تعتقده وتراه فذلك واجبك، ولقد أحببتك لإخلاصك وإني أطمئنك أنه لن يتغير ما في نفسي عنك، مهما كتبت عني بعد اليوم أيضاً من انتقادات وردود"^(٣).

وعن شخصيته يقول أيضاً: الناظر في الدكتور السباعي وفيما تركه من آثار ومؤلفات ليدرك صورته كمجاهد ومناضل يغزو القلوب بسلاحين: سلاح من نار الثورة والحماسة وآخر من نور العلم والفقه والتشريع؛ وهو في كلا الحالين متدفق ناثراً، مرة ينفث في القلوب ضرام الثورة والحماس، وأخرى يحاكم العقول إلى حقائق العلم وروح القانون وهدى التشريع^(٤).

وفي عام ١٩٦٥م أوفد إلى كلية الشريعة بجامعة الأزهر حيث حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة وكانت بعنوان "ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية" وبعد تخرجه عاد إلى دمشق حيث عين مدرساً في كلية الشريعة كما أنه كان يتعاون مع والده الشيخ ملا محمد رمضان في خطبة ليوم الجمعة

(١) انظر: البوطي - الدعوة والجهاد والإسلام السياسي، ص ١٦.

(٢) مصطفى السباعي (١٩١٥م - ١٩٦٤م): أحد المفكرين البارزين الإسلاميين السوريين ومؤسس جماعة الإخوان المسلمين فيها، تخرج من جامعة الأزهر بمصر، وتقرب مع الشيخ حسن البنا، وعلى إثرها خرج لفلسطين مرابطاً في صفوف المجاهدين، يتركز فكره في كتاباته على معنى العدالة الاجتماعية من خلال المبادئ الأساسية للإسلام. انظر: أحمد الموصلي، موسوعة الحركات الإسلامية، ص ٣١١.

(٣) شخصيات استوقفتني، ص ١٩٩.

(٤) السابق نفسه، ص ١٩٧.

في مسجده، وفي عام ١٩٧٠م ارتقى إلى درجة أستاذ مساعد، وفي عام ١٩٧٥م إلى درجة الأستاذ الدكتور، وفي العام نفسه عين وكيلا لكلية الشريعة وظل فيها حتى ارتقى عام ١٩٧٧م كعميد لكلية وبقي فيها حتى تقاعد سنة ١٩٩٣م من مهمة التدريس ولكنه كان يمارس مهامه الدعوية والتربوية والتعليمية في أنحاء مساجد دمشق إلى أن لقي ربه شهيدا.

وأما عن حياته في باقي المجالات فقد كان البوطي داعيا فقيها زاهدا أخذ على عاتقه نصيحة السلطات والحكومات وتقديم الحلول والأفكار كلما استجد له الأمر، ففي عام ١٩٨٠م ألقى كلمة في جامعة دمشق في مهرجان خطابي كبير دعت إليه وزارة الأوقاف السورية بمناسبة دخول القرن الخامس عشر الهجري وفي حضور رئيس الجمهورية آنذاك حافظ الأسد قدم كلمة شهيرة حيث كانت مرتكزة على التناصح وتوجيه المسؤولين إلى مهامهم، وفي مستهل هذا عرض عليه السلطات إنشاء حزب إسلامي ليقوم من خلاله ترأس كتلة إسلامية داخل الجبهة الوطنية التقدمية في سوريا لكنه رفضه رفضا تاما على اعتبار أن الإسلام سيتقاسم مع أعضاء الجبهة وهذا تقليص لسلطان الإسلام وسلطته^(١).

وفي عام ١٩٩٠م توفي والده عن عمر يناهز ١٠٤ عاما وقد كان لهذه الواقعة تأثيرا على حياته رغم ما وصل إليه هذا الشيخ من الشيخوخة إلا أنه كان بمثابة معلم ومرشد له كل الوقت، وكان دعاؤه وتوجيهاته له في كل الأحيان لخير عون في المسيرة كلها، وقد كان دائم التوجيه له حتى في وصيته الأخيرة له وكتب في آخرها له: " وأسأل الله تعالى أن يفهمهم معنى كلامي وأن يدبر أمرهم تديبرا"^(٢).

وفي عام ١٩٩٠ بدأ البوطي بالقاء دروس في التلفزيون العربي السوري تحت عنوان (الدراسات القرآنية) وعن طريق هذه النافذة وصل صوته للجمهور، كما أنه دخل في إحدى جلسات التلفاز بمناقشة جادة في جلسة جمعه مع الكاتب الماركسي الطيب تيزيني حيث عرض علو شريعة الإسلام عليه.

وفي عام ١٩٩١م بدأ بترجمة بعض كتبه إلى الإنجليزية والفرنسية بإصدار سلسلة رسائل الإسلام يخاطب فيها الإنسان الغربي المثقف وكان ذلك من خلال زيارته إلى الديار الغربية. وفي عام ١٩٩٣م أصدر كتابه الشهير "الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟"، وكان لهذا الكتاب صدى في الأوساط العلمية وأصحاب التوجهات الإسلامية، وهذا ما دفع الرجل بأن يصدر ملحقا سماه "زوايع وأصداء حول كتاب الجهاد" رد فيه على المعارضين. وفي عام ٢٠٠٠م أم صلاة الجنازة على الرئيس الراحل السوري حافظ الأسد، وكانت إمامته للصلاة آنذاك محورا لانتقادات التيارات الإسلامية داخل سوريا وخارجها كما استمرت العلاقة بالنظام من بعدها وإن قل من السابق، وظل باقيا في دياره إلى آخر حياته.

(١) انظر: البوطي، الدعوة والجهاد والإسلام السياسي، ص ١٨.

(٢) هذا والدي، ص ١٧٠.

ومهما يكن الأمر فإن الدكتور بوطي لم يستفد ماديا من النظام حتى أنه لما طلب منه أن يطلب شخصيا كان طلبه إخراج من هو السجن وافساح فرصة العودة للإسلاميين الذين يعيشون خوفا من النظام خارج البلاد، وبفضل تلك العلاقة أفرج عن عدد كبير من سجناء ثمانينات القرن الماضي والذين اعتقلوا على خلفية صراع ذاك الفترة^(١).

ولقد عكف الشيخ البوطي بعد هذا على نشر أفكاره وكتبه، فقد أطلق في عام ٢٠٠٠م موقعا شخصيا على شبكة الإنترنت حيث ضم إليه أرشيفا موسعا من مقالاته ومحاضراته وخطب الجمعة، وقد خصص نافذة للأجوبة على أسئلة الناس وتصدير الفتوى، كما أفرد في كل شهر مكانا لكلمته الخاصة لزائري الموقع وكان يترجم باللغات الإنجليزية، الألمانية، الفرنسية، التركية والفارسية.

وفي عام ٢٠٠٥م نال الدكتور بوطي جائزة شخصية العالم الإسلامي في الدورة ١٨ من قبل جائزة دبي للقرآن الكريم، وفي سنة ٢٠٠٩م حل في المرتبة ٢٢ ضمن الشخصيات الإسلامية الأكثر تأثيرا في العالم وفق إحصائية باحثين دوليين في كتاب (أكثر ٥٠٠ شخصية مسلمة تأثيرا لعام ٢٠٠٩م).

لقد شغل الدكتور بوطي إلى جنب دعوته في السنوات الأخيرة مناصب علمية آتية:

عضو في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، عضو في المجلس الأعلى لأكاديمية أكسفورد في إنجلترا، عضو في هيئة الرقابة الشرعية لبنك شام الإسلامي. كما أن الرجل كان له مساهمات ومشاركات عالمية كثيرة قد تناولت مختلف وجوه الثقافة الإسلامية والفكرية في دول عربية، إسلامية وأوروبية.

وبعد سنوات من الدعوة والكفاح والعطاء المتواصل استشهد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي مغرب يوم الخميس في ٢٠١٣/٣/٢١م وذلك خلال تقديم درس في تفسير القرآن الكريم في مسجد الإيمان بحي المزرعة في دمشق، وكان معه ٤٢ قتلى أبرياء إلى جنب حفيده أحمد بن محمد توفيق البوطي، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته^(٢).

دعوته ومؤلفاته:

يعتبر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي أحد العلماء الجهابذة الذي عرفه العصر الحديث من الأمة الإسلامية باجتهاداته الحية والمرنة لمختلف قضايا العصر وذلك من خلال آيات القرآن لكريم والسيرة النبوية العطرة، كما اختار في دعوته أسلوبا ومنهجاً وسطاً يرفض عمل المفرطين الذين غالوا بسلوكياتهم، كما أنه يرد على التيار الذين اختار أسلوب التشدد وتضليل الآخرين، بل كان مهمة الرجل الدعوة إلى المحافظة على الفهم الأصولي للإسلام والتعامل بالريب والشك مع الاتجاهات التحديثية في فهم الإسلام.

(١) انظر: الجعبري، سمير رابين عبد الحليم، الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي وأراؤه الإعتقادية (جامعة خليل، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في أصول الدين، ٢٠١٥م)، ص ٢٢.

(٢) انظر: البوطي - الدعوة والجهاد والإسلام السياسي، ص ٢١.

لقد عرف دعوة هذا العملاق ومسلكه في الحياة بعيد من المزايا والمحاوَر التي قلما نجده عند باقي الدعاة، وبالتالي أهم محاور فكره ودعوته كالآتي:

١- ركز الدكتور البوطي في منهجه على الجانب العبادي والأذكار والأوراد ويعيب على حاملي الدعوة الإهمال فيه، فقد عد هذا القسم من الدين زادا مهما في مهمتهم وعلى هذا يقول الشيخ للدعاة: "إن أثر الدعوة في نفوس السامعين ليس آتيا من مجرد الكلام لمنطقه الذي يقبله العقل، وإنما هو آت في معظمه من تجليات ربانية على قلب الداعي والمرشد عندما يكون قلبه صافيا من كدورات النفس وأهوائها، مشرقا بشهود الله ومراقبته^(١)."

٢- كره البوطي السياسي وأثر البعد عنها، كما عاب على التيارات الإسلامية أكثرها التخضب بهذه الصنعة التي واجهتهم مع السلطات إلى جانب، ومن طرف آخر أكسبهم الانغماس في السياسة التناقض في متطلبات الدعوة، وذلك لأنهم بالخوض فيها تنقطع الجسور منذ أول عهد على حسب قوله بينهم وبين أندادهم الداعين إلى أنظمة وأفكار أخرى ذلك لأنهم فرضوا على أنفسهم جماعة تزاحمهم وتسابقهم إلى كراسي الحكم، وهكذا يجعلون من أنفسهم خصوما وأندادا لتلك الأحزاب والفئات الأخرى. وبأي دافع تنهياً منهم النفوس للإصغاء إلى دعوة هؤلاء الإسلاميين الذين ينافسونهم على عواطف الجمهور سعيًا منهم عن طريق ذلك الحكم؟ كما أنهم يشيعون في أوساط الحزبين الآخرين اتهام الإسلاميين الحركين باستغلال الشعارات الإسلامية التي من شأنها أن تهيج الجماهير للوصول إلى الحكم^(٢)."

والدكتور البوطي بهذا المنهج الذي سلكه وجد فرصة التفرغ للدعوة إلى الله كما أتيح له فتح الأبواب على الجماهير لنشر أرائه وأفكاره الدعوية في شتى المجالات والميادين، ومع ذلك فقد عرف عنه أنه كان ينصح الحكام والملوك وظل أمينًا على العهد الذي أخذ منه والده ملا رمضان وهو: رفض مقتضيات الفتنة واتخاذ موقع النصيح من أي حاكم، وقد جمع مجموع كلماته وخطاباته أمام الحكام والسلطات في كتاب اسماء "هذا ما قلته أمام بعض الرؤساء والملوك".

وحسب آراء الباحثين بدأ نجم الدكتور بوطي يلمع بقوة في أواسط الثمانينات من القرن الماضي الميلادي من بين سائر الشخصيات والتيارات الإسلامية وذلك لعاملين اثنين:

١- التفاهم السياسي الضمني بين البوطي والمؤسسة الحاكمة في سوريا، وبموجبه تم منحه حرية كبيرة في العمل والدعوة وممارسة الأنشطة الإسلامية، كما أتيح له فرصة الظهور في جميع المناسبات والندوات التي تتطلب وجود ممثل التيار الإسلامي، وتم تخصيص برنامج أسبوعي له في التلفزيون السوري لأعوام عديدة.

ب- امتلاك البوطي موهبة وشخصية متميزة في الخطابة والتأثير في المتلقي، فضلا عن تفوق تمكنه وأسلوبه الأدبي البارع في الكتابة والتأليف مع القائه دروسا أسبوعيا في بعض مساجد دمشق وخطبته ليوم الجمعة في مسجد

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان، هكذا فلندع إلى الإسلام (دمشق: مؤسسة الرسالة، ب ت ط)، ص ١٨.

(٢) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، الإسلام والعصر تحديات وآفاق (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨)، ص ٦٥.

الرفاعي، كما أتيح له أيضا فرصة انتشار دروسه وخطبه في أواسط مريديه من خلال أشرطة التسجيل المرئي والسمعي، وقد أخذ قفزات سريعة بعد ظهور وتعميم شبكة الإنترنت، كما أن المساهمات العلمية للرجل من خلال كتبه ومشاركته في المؤتمرات أكسبه ودا وحبا بين الباحثين المثقفين والجامعيين داخل سوريا وخارجه^(١).

ولعل ما يبرر موقف الدكتور البوطي حول منهجه يعود إلى الوضع القائم الراهن في أراضي سوريا والصراعات بين التيارات الإسلامية في القرن الماضي الميلادي، كما أن فشل تجربة بعض الحركات الإسلامية في عديد من الاقطار الإسلامية واخفاق المنهج السياسي لهم دفع الشيخ أن يكره السياسة رغم مكانتها المرموقة في الشريعة الإسلامية، وإلى جانب آخر نصيحة والده الصوفي الزاهد حملة على أن يبتعد عن دنيا السياسة وصراعاتها ويعكف على العبادة والعلم. ومن الحق أن نقول إن الشيخ مع رفعة مكانه في العلم وشخصيته في الأدب والعبادة انزلق في حياته السياسية رغم كراهيته له، فقد تزلف إلى الحكام والسلطات الظالمة وخاصة حين اندلاع الثورة السورية عام ٢٠١١م حيث بقي مع النظام الغاشم، ساكتا عما يرتفعه تلك السلطات تجاه شعبه، وبالتالي لم نجد له أي عذر ومبرر لها، وهذا ما أخذ عليه العلماء والمفكرون في حياته.

٣- ركز الدكتور البوطي في كتاباته وفكره على تصحيح مفهوم الجهاد السائد بين المسلمين حيث يعتقد أن أكثرهم قاصرون عن درك معنى الجهاد، ولم يعوا أن هذه الفريضة كل لا يتجزأ متكامل يأخذ بعضه بحجز بعض. وسبب قصور هؤلاء أن أكثرهم يرون أن الجهاد هو جزء أصيل من أحكام الإسلام وشرائعه قد شرع بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، لم يكن للجهاد قبل ذلك حكم ولا ذكر؛ أما الحقيقة فهي غير ذلك، فالعهد المكي من حياة الرسول ﷺ حافل بالجهاد، كما حفي به العهد المدني والقرآن المكي تحدث عن الجهاد وأمر به كالقرآني المدني تماما.

ويستدل بعدد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (٥٢) الفرقان: ٥٢. ونرى أن هذه الآيات من سورة الفرقان وهي مكية النزول.

والسبب الثاني الذي استقر في أذهان كثير من الناس أنهم حصروا الجهاد في معناه القتالي، ولا شك أن مقاتلة المشركين إنما شرعت بعد استقرار رسول الله في المدينة، فظنوا أن الجهاد عموما إنما شرع بعد الهجرة، ولقد أدى هذا التصور إلى إزالة سمة الجهاد عن كثير من أنواعه بل عن أهمه، وإنما من أهم أنواع الجهاد التي شرعت مع فجر الإسلام مواجهة رسول الله المشركين ومن ورائه أصحابه بدعوتهم إلى الحق، وتفنيد ما كانوا يعكفون عليه من تقاليد آبائهم وأجدادهم، وكذلك ثباتهم على الصدع بكلمة الحق، وكذلك من أهم أنواعه مضيه في التبصير بكتاب الله والتعريف به والتنبية إلى أخباراته وأحكامه... ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة واستقر به المقام فيها، بقيت هذه الأصول الجهادية مشروعة كما هي واستمر المسلمون ومعه أصحابه في نشر الإسلام والتعريف به من منطلق

(١) انظر: البوطي - الدعوة والجهاد والإسلام السياسي، ص ٧٢.

هذا الأصل الجهادي الراسخ، وحينها جاء طور جديد للجهاد ومن نوعها التصدي بالقتال لكل من أقبل يتربص بأي من مقومات الدولة ونظامها، أو جاء طامعا غازيا للدار الإسلامية أو دفعا للذين يريدون مقاومة الدعوة الإسلامية و.... وعن هذه المراحل يردف الدكتور البوطي يقول: إن جملة هذه المعاني المذكورة للجهاد لم تكن أطوارا تنقلت شرعة الجهاد خلالها لتستقر عند آخر طور لها، كما هو الشأن في تحريم الخمر مثلا وإنما هي عبارة عن شرائع جهادية متعددة تنفذ كل شرعة في حالاتها وظروفها^(١).

٣- الدكتور البوطي بخلاف الدعاة الآخرين يحمل نوعا من التفاؤل في هذا الوضع الراهن للأمة الإسلامية ويدرك أن المسلمين رغم الابتعاد عن منهجهم الإسلامي العظيم فيهم نوع من الخيرية وعنصر من الحيوية يجعلهم يقومون من جديد. ولهذا هو يقول: "فإن الذي أؤمن به أن الناشئة وجيل المسلم المعاصر يملك الوعي ودقة الملاحظة ما لم يكن يملكه المسلمون في أي عهد مضى، وسوف لن يمر زمن غير طويل حتى يجد أن هذا الوعي قد انقلب إلى حركة ايجابية عاملة، تصلح الإنحراف، وتقوم الاعوجاج، وتعيد البناء الإسلامي من جديد"^(٢).

وبناء على هذا فالشيخ يكره التعسف والعنف على المدعويين ويدعو بالرحمة والشفقة عليهم، حيث يقول: "ندعوا إلى الله تعالى من منطلق الشفقة على عباد الله جميعا لكي لا يقعوا غدا في آلام كاوية من الندامة التي لا تغنيهم شيئا فإن رب العباد جل جلاله ما دعى عباده إلى دينه إلا رحمة بهم وحبا في إسعادهم، فأولى بك وأنت جندي أن تدعوا الناس بدعوته تعالى ولن يدفعك إلى ذلك إلا الرحمة والشفقة والغيرة عليهم"^(٣).

وبالجملة فإن الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي واحد من الدعاة المعاصرين الذي أخذ على عاتقه مهمة الدعوة إلى الدين بنوع من الشفقة والتفاؤل وتعميم رسالة سلام الإسلام مجانباً عن الغلو والتفريط وإن كان عليه بعض المآخذ في منهجه وأسلوبه وأهدافه، ولكن ما يبرر الرجل فإنه واحد من البشر يعتريه الخطأ ولا ندعي له العصمة والكمال؛ فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد.

وأما عن وسائل دعوته فهو رجل أوقف جل حياته للعلم والدعوة تعليمًا ودعوة وتدريسًا، ولم يترك مجالاً ولا ساحة إلا واستغلها لنشر الخير والدعوة إلى الدين الإسلامي الحنيف.

الف- فقد استغل المسجد كخطيب ومحاضر بدأ من مسجد الرفاعي، وجامع سنجقدار في دروس دورية في كل أسبوع مرتين، ثم انتقل إلى جامع "تنكز" في وسط دمشق، وأخيرا إلى جامع الإيمان أكبر مساجد دمشق وفيه لقي ربه شهيدا.

(١) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ (دمشق: دار الفكر المعاصر، ط ١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، ص ٢٢-٢٦.

(٢) البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الرشدة (بتصرف يسير) (دمشق: دار الفكر، ط ٤٤، ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م)، ص ٢٢-٢٦.

(٣) هكذا فلندع إلى الإسلام، ص ٢٦.

ب- برنامج الإذاعة والتلفاز: وكان له في ناحية الإعلام مشاركات وحلقات من أهمها: (لا يأتيه الباطل) على قناة شام وقناة صانعي القرار، (دراسات قرآنية) على القناة الفضائية السورية، (شرح الحكم العطائية لابن عطاء الله الاسكندري) على قناة صوفية، (هذا هو الجهاد) على قناة أزهرى، (شرح كتاب كبرى اليقينيات الكونية) على قناة الرسالة، (مشاهد وعبر) على قناة الرسالة، (الجديد في إعجاز القرآن الكريم) على قناة إقرأ، (مع البوطي في حياته وفكره) على قناة شام، (مع البوطي قضايا الساعة) على قناة نور الشام^(١).

كتبه ومؤلفاته: الدكتور البوطي من العلماء والمفكرين الذي أثروا المكتبة الإسلامية في مختلف علومها فقها وأصولها، وكذلك العقيدة الإسلامية إلى جنب المناقشات الفكرية والدينية مع المخالفين في المنهج، إضافة إلى المواعظ والرفائق، وميز أسلوبه الجزالة والإيضاح.

وكانت بداية ظهوره ككاتب يعود إلى أيام دراسته الأولى في دمشق عام ١٩٤٩م حيث خاض أول تجربة بكتابة مقال علمي بعنوان "أمام المرأة" حيث نشر على صفحات مجلة التمدن الإسلامي الشهيرة لصاحبها أحمد مظهر العظمة، وقد أعجب به ومنحه لقب (أديب إلى جنب اسمه)^(٢).

وأما عن كتبه ومؤلفاته فتندرج تحت أصناف العلوم المختلفة نذكر منها ما يلي:

١- دراسات قرآنية: من روائع القرآن، لا يأتيه الباطل، منهج الحضارة الانسانية، في القرآن منهج تربوي، فوائد في القرآن.

ب- الفقه الإسلامي: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، مباحث الكتاب والسنة، قضايا فقهية معاصرة، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟، محاضرات في الفقه المقارن، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الإسلامي، المذاهب الاقتصادية بين الشيوعية والإسلام، مسائل تحديد النسل وقاية وعلاجاً.

ج- العقيدة: كبرى اليقينيات الكونية، الإنسان مسير أم مخير؟، مدخل إلى فهم جذور الدين والفلسفة، الإنسان وعد الله في الأرض، من هو سيد القدر في حياة الإنسان؟.

د- المذاهب: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، السلفية مرحلة زمانية مباركة، نقض أوهام المادية الجدلية والديالكتيك.

هـ- التصوف: الحكم العطائية- شرح وتحليل-، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث العلمي.

و- التراجم: شخصيات استوقفتني، هذا والدي، عائشة أم المؤمنين.

ز- السيرة والتاريخ: فقه السيرة.

ح- الفكر الإسلامي: الإسلام ملاذ المجتمعات، يغالطونك إذ يقولون، هذه مشكلاتهم، منهج العودة إلى الإسلام، هكذا فلندعوا إلى الإسلام، الإسلام ومشكلات الشباب، إلى كل فتاة تؤمن بالله، الله أم الإنسان أقدر على رعاية

(١) انظر: الحسين، عثمان، محمد سعيد رمضان البوطي وآثاره الأدبية (دمشق: دار الفكر، ٢٠١٥م)، ص ١٣.

(٢) البوطي، محمد سعيد رمضان، البدايات باكورة أعماله الفكرية (دمشق: دار الفكر، ط ٢، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م)، ص ٧.

الشباب، باطن الإثم، حرية الإنسان في ظل عبوديته لله، حكم وحكمة، حوار حل مشكلات حضارية، من المسؤول عن تخلف المسلمين؟، مشورات اجتماعية، مع الناس مشورات وفتاوى، الإسلام والعصر تحديات وأفاق، مع الطيب الديزيني، التغير مفهومه وطريقه، كلمات في مناسبات هذا ما قلته أمام الملوك والرؤساء، البدايات باكورة أعماله الفكرية.

ط- الأدب: مموزين قصة حب نبتت في الأرض وأينعت في السماء، سيمامند ابن الأدغال، من الفكر والقلب^(١).

التعرف بكتاب فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي:

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي من العلماء والدعاة الأفاضل الذين درسوا واقع الأمة الإسلامية في ظلال السيرة النبوية العطرة، كما درس هذا التاريخ النير بأسلوب موضوعي علمي وذلك بغية تقريب مفاهيمه إلى أذهان الناس، وجعله سيرة حية لتكون منهاج حياة المسلمين.

لقد اشتغل هذا الرجل بدراسة هذا العلم في فترة مبكرة من حياته وكان من أوائل العلوم التي أخذها في الصغر عن والده، فقد علمه أبوه المعلم الأول مبادئ العقيدة الإسلامية وكذلك موجزا من سيرة الرسول الكريم حيث كتب له رسالة صغيرة بعنوان "ذخيرة اللبيب في سيرة الحبيب" وكان مولعا ومعجبا به طوال حياته^(٢).

وعلى مر الأيام حينما نضج علم وعمر الشيخ عكف على دراسة قضايا إسلامية بيانا وكتابة، فكان منهجه فيه الاستدلال من القرآن الكريم والسيرة النبوية وذلك لأنهما مصدر المذهب الحق، وفي مستهل ذلك استدلل على وقائع وأحداث عديدة من السيرة النبوية في مجالات مختلفة، ومنها مفهوم الجهاد حيث بين المسار الصحيح وأهدافه التي شرعت من أجله.

ونظرا لأهمية هذا الجانب عكف الشيخ على بيان وكتابة هذا القسم في فترات ومناسبات مختلفة، وقد كان مولعا بهذا العلم المبارك حيث كان يدرسه لعامة الناس في المساجد، كما كان يدرسه في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وكان بدوره من أحب المواد إليه. ولما كتب كتابه القيم "فقه السيرة" قدمه على شكل محاضرات القائية على شاشة قناة اقرأ.

والشيء الملفت في مناقب هذا الرجل أن هذا الإمام بهذا العلم لم يكن على أساس شغل وتوظيف بل كان على أساس ودافع من الحب والشغف تجاه نبينا ﷺ، فقد عرف عنه عظمة المحبة حيث كان يبكي ويبكي من حوله وخاصة عند تدريس السيرة النبوية في الجامعة والمسجد^(٣).

وأما عن كتابه القيم الذي جاء في أولى طبعاته عام ١٩٧٢م باسم "فقه السيرة - دراسات منهجية علمية لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وما تنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام - فهي دراسة منهجية حول السيرة

(١) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي وآثاره الأدبية، ص ٢٠-٢٢.

(٢) انظر: هذا والدي، ص ٥٧.

(٣) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي وآثاره الأدبية، ص ٣٠-٣١.

النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين ثم عدل عنوانه في الطبقات الآتية اختصاراً إلى هذا العنوان "فقه السيرة مع موجز لتاريخ الخلافة الرشدة" وهو في الأصل كانت محاضرات أُلقيت على طلاب السنة الأولى والثانية بكلية الشريعة من جامعة دمشق.

وعن أهمية عمله يقول الشيخ في مقدمة كتابه: ليس الغرض من دراسة فقه السيرة مجرد الوقوف على الأحداث التاريخية ولا سرد قصصها ووقائعها، فليس من شأنها كشأن الاطلاع على سيرة الخلفاء، بل الغرض منها أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية بمجموعها متجسدة في حياته ﷺ في شقيها النظري والتطبيقي.

وعلى هذا يؤكد البوطي على ضرورة وجوب الاطلاع على السيرة النبوية حتى يستلهم المسلم في سلوكه ومعاملاته منها، وإلا مجرد الاطلاع النظري تعد نوعاً من العبث الذي لا فائدة من ورائها. فالرسول ﷺ بحكم الله والقرآن جعله الله قدوة للإنسانية كلها إذ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

وأما عن صلة هذا العلم بالدعوة والتبليغ فقد عدها الشيخ دليلاً لأصحابها حيث يقول: أن يكون لدى المعلم والداعية الإسلامية نموذج حي عن طرائق التربية والتعليم، فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم ناصحاً ومربياً فاضلاً لم يأل جهداً في تلمس أجدى الطرق الصالحة من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته^(١).

وأما عن منهج الدكتور البوطي في كتابه، يقول: إن المنهج المتبع في كتب السيرة تمثل في محورين: الف- عمل تاريخي يعني بسلسلة رواية السيرة العطرة حتى ينقلها محفوظة مكثورة ضمن تلك الوقاية العلمية التي من شأنها ضبط الرواية من حيث الإسناد واتصاله، ومن حيث المتن أو المحادثة وما قد يطوف بها من شذوذ ونحوه.

ب- عملية استنتاج النتائج والأحكام والمبادئ من تلك الأحداث ضمن قالب علمي يقصدها عن سلطان الوهم وشهوة الإرادة النفسية.

وأما عن منهجه فيقول: أردت أن أقدم محمداً ﷺ من خلال الهوية التي قدم نفسه بها إلى أمته من حيث كونه نبياً ورسولاً مبلغاً عن الله وحيه ودينه، لا كما حاول بعض الكتاب تصويره بكونه زعيماً سياسياً أو قائداً وطنياً أو رجلاً فكرياً ومذهباً، أو مصلحاً اجتماعياً حسب تعبيره.

وبالجملة فإن الدكتور البوطي أراد بعمله أن يهدم الأطلال القائمة لتلك المدرسة التي سموا أنفسهم بأصحاب القراءة المعاصرة من جانب، ومن جانب آخر يريد أن يستنبط القواعد والأحكام المستفادة من السيرة النبوية^(٢).

(١) انظر: فقه السيرة النبوية - بتصرف، ص ٣٠-٣١.

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية - بتصرف، ص ٣٢.

وأما عن مصادر الكتاب فالدكتور البوطي رغم تعهده في الكتاب أنه يلزم أو يختار الروايات التي صحت فيها من كتب الحديث والسيرة النبوية، ويعرض عن ذكر ما لم يصح منها على طريقة علماء الحديث ونقده، إلا أنه لم يلتزم به حسب تفحص متخصصي الرواية والنقد، وقد أخذ عليه جملة من الأمور ترجع أكثرها إلى الاعتماد على المصادر الضعيفة والواهية كما أنه يؤخذ عليه بإيراده لبعض المسائل الفرعية الجزئية المختلف فيها ومن ثم تضخيمها، وأن الرجل رغم غزارة علمه وسعة قلمه أحياناً يتأثر في النقل عن الكتب المعاصرة، وذلك أمثال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه "فقه السيرة"، والدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه "السيرة النبوية دروس وعبر". وقد وقف على هذه المسائل العلامة ناصر الدين الألباني^(١) في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة) وسأطرق له إن شاء الله في صلب البحث.

واحتوى الكتاب على أقسام عديدة أولها المقدمات العامة حول أهمية السيرة والمنهج العلمي المتبع لدراسة هذا العلم، القسم الثاني الأحوال وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم من الميلاد إلى البعثة، والقسم الثالث من البعثة إلى الهجرة، القسم الرابع بيان أسس المجتمع الجديد، القسم الخامس مرحلة الحرب الدفاعية، القسم السادس الفتح مقدماته ونتائجه. وقد تضمنت خاتمة في بعض صفاته ﷺ وفضل زيارة مسجده وقبره. وأخيراً انضم إليها خلاصة عن تاريخ الخلافة الراشدة.

وبالجملة فإن هذا الكتاب يستلهم النصوص بما يجلي الحكم ويبسط الأحكام ويميز الخبيث من الطيب في الأصول والفروع في شؤون العقيدة والتشريع والسلوك، كما تعد فقهاً للجزئيات لأحكام تفصيلية لأبواب الدعوة.

(١) ناصر الدين الألباني (١٩١٤م - ١٩٩٩م): أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، ولد في أشقودرة بألبانيا. وتلقى تعليمه في دمشق على يد عدد من الشيوخ وكبار رجال العلم حتى تجنس جنسية سورية. حُب الله، سبَّحانه وتعالى، إليه علم الحديث النبوي الشريف، فعكف على دراسته طوال سني عمره، وتفوق فيه على جميع معاصريه. هو صاحب مدرسة متميزة في علم الحديث وأغنى الحقل العلمي بها. وقد أفاد، بعلمه الغزير ومؤلفاته ودروسه عدداً كبيراً من طلاب العلم ودارسي الحديث النبوي الشريف. ومن أبرز كتبه: سلسلة الأحاديث الصحيحة؛ سلسلة الأحاديث الضعيفة؛ وغيرها من مؤلفات ومراجع لا غنى عنها لدارسي الحديث. انظر: الموسوعة العربية العالمية <http://www.mawsoah.net>

الباب الأول

فقه أصول الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي

تشتمل هذا الباب على فصلين

١- الفصل الأول: فقه موضوعات الدعوة في العصر المكي

٢- الفصل الثاني: فقه موضوعات الدعوة في العصر المدني

الفصل الأول

فقه موضوعات الدعوة في العصر المكي

قبل الخوض في الموضوعات والمحاوِر الأساسية للدعوة النبوية في العصر المكي يحسن أن نتطرق إلى تعريف مصطلح موضوع الدعوة على أساس أنها الركن الأول لهذا العلم، حيث يقوم على أساسه باقي الأركان، فالموضوع والمضمون هو الذي يحتويه الأسلوب ويحركه الوسائل ويقوم به الدعاة ويعرض للمدعوين.

ومن أجل البدييات في هذا المجال أن موضوع الدعوة النبوية هي الدعوة إلى الإيمان والإسلام والدعوة إلى الخير والحث عليه والتحذير من الشر والنفور عنه، وقد يتمثل هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ

إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

ومن أقدم من تطرق إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث يقول: "فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَالنَّهْيَ عَنِ كُلِّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَالنَّهْيُ عَنِ كُلِّ مُنْكَرٍ"^(١).

وموضوع الدعوة اتسمت بالوحدة خلال رسالات الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، فقد واثمت خلال تلك المراحل كلها مع الفطرة البشرية، كما اتسمت بالصدق والواقعية، إلا أن الناظر ليرى أن الإنسان متعدد النزعات والأفكار ويتأثر بطبيعة الحال من البيئة والجغرافيا الذي يعيش فيها، كما أن العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية... إلخ لها تأثير في أفكاره وعقيدته ولذلك اقتضى حكمة الله أن يبعث في كل أمة رسولا من أنفسهم بلسان قومه بغية أن يبلغهم العقيدة الدينية، ويكلفهم بالأعمال والشعائر، كما يزكي نفوسهم من مواريث الجهل والضلال وبناء الحياة على الحق والصواب.

وهكذا جاءت رسالة كل الأنبياء مراعيًا أحوال المدعوين مع ملاحظة مستواهم وقدراتهم العقلية والحضارية في التوجيه والمناقشة، وقبلها الموضوع والهدف الذي يحتاجون إليهم في حياته وإن كان مرجع كلهم والقوامة المطلقة لله جل وعلا لازمة على خلقه جميعا، فلا يقوم شيء إلا لله، ولا سيادة على الخلق إلا من الله والتحاكم إلى الوحي المنزل، والأخذ من توجيهات النبي المرسل؛ إلا أن الرسل في جانب الشريعة قد اختلفوا عن بعضهم البعض فقد أتى كل واحد بشريعة خاصة مناسبة لقومه، فيها الحلال والحرام، وفيها التكاليف العملية المتنوعة المتناسبة لهم، حتى أنها تفاوتت في رسالة نبي ومرسل واحد في فترات مختلفة من حياتهم ودعوتهم بناء على أن الحياة البشرية في التفاوت والتغيير المستمر^(٢).

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ١٥، ص ١٦١.

(٢) انظر: غلوش، أحمد، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص ٩.

والعصر المكي للسيرة النبوية كما اصطلح له علماء السيرة مرحلة قيمة في عصر النبوة حيث كان النشأة والتربية والتكوين للأمة الإسلامية، وموضوعات دعوته بطبيعة الحال له ارتباط بالبيئة والواقع المليء بالفساد والضلال؛ ولذلك أهتم علماء السيرة النبوية بدراساتها دراسة وافية لما فيها الاهتمام بالعقيدة الإسلامية وإظهار قيمة الحق والصواب، ومكارم الأخلاق. ولأهمية هذا الجانب اهتم الدعاة المعاصرون في كتاباتهم بالسيرة النبوية حول المحاور الأساسية لهذه المرحلة المباركة، وفيما يلي بيان لموضوعات الدعوة النبوية في العصر المكي عند الأعلام الثلاثة:

المبحث الأول: فقه موضوعات الدعوة عند الإمام أبي الأعلى المودودي في العصر المكي

لقد بعث النبي ﷺ وكلف بالرسالة العالمية في جو مظلم حيث كانت البشرية في أمس حاجة إلى دين ورسول ينقذهم من الضلال، كما يبعدهم عن الهوان والمذلة التي كانت مسيطرة منذ أمد بعيد في حياتهم وعقولهم وأفكارهم وتصوراتهم، وهكذا تجلت رحمة الله تعالى بالناس في صناعة العالم بمنهج الله تعالى.

وكانت للمرحلة المكية في الدعوة النبوية قيمة وأهمية دعوية باعتبارها حجر أساس وتنشئة أمة جديدة فجاءت بموضوعات بديعة مختلفة عما كانت عليه الحضارت المعاصرة لذلك العصر.

ونظرا لأهمية هذا الجانب فقد ركز الإمام أبو الأعلى المودودي في كتابه على هذا المحور أشد الاهتمام، وفصل هذا الجانب حيث وضع بابا مستقلا عنه وسماه حقيقة الدعوة الإسلامية، وفي مستهل هذا يقول: ما حقيقة دعوة النبي ﷺ في رسالته؟ وما هي خصائص هذه الدعوة التي عارضته قريش خاصة والعرب عامة؟ وما هي عوامل نجاح هذه الرسالة التي أجاثت كل معارضيها على مر العصور.

وعلى إجابته هذه الأسئلة يقول: إن هذه الدعوة قامت على مجموعة من الأسس والثوابت حيث تتمثل في عدة أمور منها:

١- تعليم التوحيد ونفي الشرك.

٢- الدعوة إلى الإيمان بالرسالة المحمدية.

٣- الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم ككتاب وتشريع إلهي الملزم اتباعها.

٤- الدعوة إلى الإيمان بالآخرة.

٥- الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

٦- تأسيس الأمة الإسلامية العالمية^(١).

ويمكن جمع هذه الأسس تحت مطالب ثلاثة، أولاها حول البناء العقدي، الثاني حول البناء الخلقي وأخرها تأسيس المجتمع الصالح المثالي، وفيما يلي تفصيل كل منها في مطالب مستقلة.

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سيد العالم، ج ٢، ص ١٩١.

المطلب الأول : البناء العقدي

تحتل العقيدة الإسلامية في المنهج الرباني كضابط أمين تحكم على التصرفات الإنسانية حيث توجه سلوكها ويتوقف على مدى انضباطها وأحكامها كل ما يصدر عن النفس من كلمات وحركات... والعقيدة بهذا المعنى دماغ التصرفات، فإذا تعطل جزء منها حدث فساد كبير في كل التصرفات وعدل الإنسان عن الصراط السوي الذي رسمه الله له، ونظرا لأهميته فقد عني القرآن الكريم ببناء العقيدة، ولاتكاد تخلو سورة مكية أو مدنية من مضمونها، وهكذا كل الانحرافات التي طرأت على السلوك الفردية والجماعية ناجمة عن الانحراف في التصور العقدي ومضمونها بالجملة، الإيمان بأركان الإيمان المعروفة^(١).

ونظرا لأهمية هذا الجانب فقد شدد المودودي في سيرته وكتاباتاته على أجزاء هذا القسم، مشددا على دور النبي ﷺ في رسائله، وفي ما يلي بيان هذه الأجزاء.

أ- إثبات توحيد الله تعالى ونفي الشرك: تمثل إثبات توحيد الله تعالى ونفي الشرك الأساس الأول الذي يقوم عليه الإسلام وأساسه ولكنه احتل في هذه المرحلة كنقطة بداية للعقيدة الإسلامية والرسالة النبوية حيث ارتبط باقي الأركان به، وتعمل كخادم له، وبالتالي لن يقوم للإيمان مقام بدونها.

والناظر في سيرة النبي ﷺ ليدرك أن خلاصة الرسالة المحمدية هي إثبات التوحيد الإلهي ونفي الشرك بكل أنواعه التي كانت مسيطرة في المجتمعات البشرية آنذاك، وإن كانت شخصيته الطاهرة قبل تكليفه بالرسالة معترفا بالتوحيد ومنكرا للوثنية، وقد كان هو مع زمرة المتألهين الموحدين في المجتمع العربي. فقد تميزه النبي ﷺ منذ صباه بفطرته الذكية مبتعدا عن كل مظاهر الشرك والوثنية وكان لا يحضر حتى في أعياد الوثنية واحتفالاتها، بل كان مبغضا للمعبودات الباطلة.

فقد روى ابن هشام في سيرته قصة بحيرى الراهب حينما سافر النبي ﷺ مع عمه أبي طالب سفره الأول إلى الشام ولقي ببصرى من أرض الشام راهبا يقال له بحيرى في صومعة له، وقد دار بينهما حديث حيث قال له: "يا غلام، أَسْأَلُكَ بِحَقِّ اللَّاتِ وَالْعُزَّى إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ بِحَيْرَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ سَمِعَ قَوْمَهُ يَحْلِفُونَ بِهِمَا. فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَهُ): لَا تَسْأَلْنِي بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَوَاللَّهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بَعْضَهُمَا"^(٢).

وتدل هذه القصة على نكران النبي ﷺ مظاهر الوثنية؛ فقد كان هذا صوت فطرته الذكية حيث لم يكلف آنذاك بالنبوة وحتى لم يكن مطلعا لها. ولكن هذه الفطرة والعقيدة التي كانت عليها النبي ﷺ تتباين عن الدعوة والمهمة التي بعث لأجلها، فالرجل الذي يدعو الناس إلى التوحيد ويحارب مظاهر الشرك والوثنية غير الذي ينكر عادة زمانه وبيئته الفاسدة. ومجمل القول أن النبي ﷺ قام بعد تكليف رسالته بالدعوة إلى التوحيد الخالص ونفي كل مظاهر

(١) انظر: عزام، عبد الله يوسف، العقيدة وأثرها في بناء الجيل (بشاور: مكتب خدمات المجاهدين، ط ١، ١٩٨٨هـ)، ص ١٩

(٢) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م)، ج ١، ص ١٨٢.

الشرك والوثنية وكان جل اهتمامه في هذا إثبات مفهوم الوحدانية المطلقة لله عزوجل وبيان مقتضيات التوحيد ورد كل مظاهر الشرك التي كانت مسيطرة على عقولهم حيث ورثهم جيلا عن جيل عن آباءهم وأجدادهم.

وقد ذكر المودودي رحمه الله هذه التعاليم ومحاوها السامية مستدلا بالآيات القرآنية نجملها كالتالي:

١- لم ينكر المجمع العربي وجود الله تعالى بل أنكروا توحيد (وحدانيته)؛ فقد كانوا معترفين بخالقيته لهم وللكون، وكانوا يعبدونه ولكنهم يشركون خلائقه معه في الربوبية والألوهية حتى يسمون غيره ألهة معه ويعتقدون باستحقاقهم للعبودية معه.

وقد وصلت بهم الحال إلى أن أصبح الشرك سجيتهم حيث كانوا ينفرون عن صفاء التوحيد رغم بداهته وسذاجته كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوْ أَنِ ادَّبَرَهُمْ نُفُورًا ۖ﴾ (بنو إسرائيل: ٤٦).

ويقول أيضا: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۖ﴾ (الزمر: ٤٥).

يقول المودودي معلقا على حال المشركين: إنهم اعتادوا أن ينفروا من سماع توحيد الله الخالص حيث يثقل عليهم خلو تلك الدعوة من ذكر الآلهة المزيفة والتي كانوا يتوجهون إليها، فقد كان دعوة النبي ﷺ خاليا من ذكر تعظيمهم، كما قد كانوا معترفين أن كل الفيوضات والبركات التي تحل عليهم نتجت عن الاعتراف الجميل نحو الآلهة، وقد بعدت فطرتهم حيث يتعجبون إذا وكل الغيب إلى الله أو يعتقد بأنه الملك أو المتصرف المطلق الواحد، وكانوا يناقشون النبي ﷺ قائلين: أين حظ ألھتنا الذين يرزقنا ويهب لنا الأولاد ويشفي المرضى وهن المراد أثناء التوجه؟ ولم تكن هذه السجية مختصة بعرب زمن النبي ﷺ بل امتدت إلى كل فئات المشركين عبر العصور، ومع الأسف انتقلت حتى في أوساط المسلمين الضعفاء الذين يعتقدون قوليا بالله عزوجل ولكنه في الحقيقة تنوء وتشمثر بذكر الله وحده، وإذا ذكر معه دونه يستبشرون فرحا^(١).

وقد نقل المودودي عن الإمام الألوسي^(٢) صاحب روح المعاني واقعة: أنه "قال يوما لرجل يستغيث في كربه ببعض الأموات وينادي مثلا يافلان اغثني، فقلت له: قل الله، ألم تسمع أن الله يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي

عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن (بشاور، إدارة احياء العلوم، ط ١، ١٩٨٥هـ)، ج ٤، ص ٥٨٣.

(٢) شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي (١٢٧٠-١٢٩٧هـ) فقيه حنفي ومفسر ومحدث. ولد في بغداد، وتلقى العلوم على شيوخ عصره، وكان شديد الحرص على التعلم، عرف بذكاءه الفطن، لا يكاد ينسى شيئا سمعه، حتى صار إمام عصره بلا منازع. اشتغل بالتأليف والتدريس في سن مبكرة، فذاع صيته وكثر تلاميذه، تولى منصب الإفتاء وبقي فيه حتى سنة ١٢٦٣هـ، له عدة كتب قيّمة، أبرزها تفسيره الكبير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم استغرق تأليفه خمس عشرة سنة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٧، ص ١٧٦.

فغضب على مقولتي وبلغني أنه يقول عني: فلان منكر على الأولياء، وحتى بعضهم يقولون: الولي أسرع إجابة من الله عزوجل^(١).

ويبدو أن المودودي على فكرة ترابط الأزمنة والمجتمعات بناء على القواسم والظواهر المشتركة بينها، فيربط عقيدة ذلك الزمان بالعصر المعاصر ويصطلح على كليهما مفهوم الجاهلية ولا تبعد حتى المجتمعات الإسلامية منها، وبالتالي يحث الدعاة المعاصرين إلى محاربتها كما قاومها السلف ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢- لقد بدأ النبي ﷺ دعوته في ظلام دامس من الضلال حتى أن المجتمعات أنكروا البداة وعابوا على دعوته وذلك كالمريض الذي يجد في العسل مرارة ويحرم ذوقه، فقد اتهموا النبي ﷺ وصفاء دعوته بأعجب العجائب كما اتهم صاحبها بالشاعر والمجنون كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ (الصافات: ٣٥-٣٦)، وقال ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٥) (ص: ٥).

وفي وسط هذه الأجواء دعا النبي ﷺ البشرية إلى الحقيقة الناصعة، وأنكر على الناس ضلالتهم معلنا فيهم أن الله هو الرب والإله الحقيقي وأن ماسواه باطل، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٩٨) (طه: ٩٨)، ويقول: ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٦) (الأنبياء: ٥٦).

وقد ربط مفهوم الألوهية بالربوبية إذ أن الأولى من لوازمها، ومن الظلم البين أن يترك الإنسان معبوده الحقيقي الذي هو ربه ويأخذ لنفسه إلها غيره والذي يفنى آخر الأمر ويرجع إلى الله كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) (القصص: ٨٨).

ومن سرد هذه الآيات والتدبر المتعمق فيها يدرك الإنسان أن النبي ﷺ بدأ دعوته في جو مظلم حيث كانت البشرية مبعدا تمام البعد عن فطرتهم، حيث غشاهم الضلال بصيرتهم وقريحتهم البديهة والتي يدركها الإنسان بمجرد الإمعان والنظر إلى الأنفس والكون، وقد كان مهمة النبي ﷺ لفت أنباه مدعويهم إلى مظاهر الكون حتى يدرك بفطرتهم بعد تركيتها وصفاءها، وقدم من خلال الأدلة الواضحة مبعدا عن التعقيدات الفلسفية القول بالإيمان بالله عزوجل وتوحيده.

وعنه يقول المودودي: "ومن معاني التوحيد نفي كل معاني الشرك والتوجه إلى الله تعالى وتفرد عبادته ومن مقتضياته:

(١) الآلوسي، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ)، ج ١٠، ص ٢٦.

- ١- التوجه إلى الله في العبادة واختصاص العبادة إليه .
- ٢- الإخلاص في الدعاء والاستعانة من الله تعالى وحده وخاصة إن كانت فوق الأسباب المادية .
- ٣- الله وحده هو عالم الغيب ويعلم ما خفى من أنظار البشرية ماضيهم وما ينتظر مستقبلهم .
- ٤- يجب أن تكون زكاة النسك باسم الله وحده ويحرم على من سواه .
- ٥- يجب على المؤمن إلى جنب اعتقاد مالكية الله تعالى وقدرته وربوبيته للخلائق أن نوكل إليه الحاكمية المطلقة لكل أعمال الإنسانية من الخلق، المدنية، المجتمع، السياسة والقانون، وبذلك لا يكون الحكم والدستور إلا لله، فلا يكون أمام المؤمن أي الخيار بين الأمرين إلا التسليم وبالتالي الحلال هو ما أحله الله والحرام هو ما حرمه الله، وعلى هذا فلا يحق للفرد ولا للجماعة الإنسانية أن يتخذ لنفسه دستوراً يدير به حياته إذ هو الحق المختص الإلهي^(١) .
- وأساس القضية الأخيرة والذي تميز به فكر المودودي هو ارتكازه على مفهوم العبادة بهذا المعنى، فقد يأخذها إلى جنب المعاني المرادة بمعنى الطاعة، ويستدل على ذلك بآيات من القرآن الكريم كقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آٰمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ هُمُ الْبَاقُونَ صَالِحِينَ﴾ (يس: ٦٠).

ويقول المودودي حول الآية: "الظاهر أنه لا يتأله ولا يعبد أحد للشيطان في هذه الدنيا، بل كل يلعبه ويعوذ من نفسه، ولكن الجريمة الشنعاء التي يذم بها الله تعالى بني آدم يوم القيامة ليست تألهم للشيطان في الحياة الدنيا، بل طاعتهم وخضوعهم لأمره واتباعهم لحكمه وتسرعهم إلى السبل التي أراهم إياهم"^(٢).

وقد سمى الله أحبار اليهود والنصارى بأرباب من دون الله؛ ولم يكن هؤلاء طلبوا من الناس عبادتهم وتألههم كما يفعلونهم نحو الأصنام والأوثان، بل المراد أنهم أضلوا الخلق بنصحهم وتشريعهم المزيف؛ ففسد عقائد الناس باسم النصح والإصلاح، وبالتالي فالتقليد الأعمى لأولئك الخداعين والاتباع لأحكامهم وقد عبر عنه بكلمة العبادة حيث قال: ﴿اَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَحْدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١).

والمراد باتخاذ العلماء والأحبار أرباباً من دون الله ثم عبادتهم في هذه الآية هو الإيمان بكونهم ما لك الأمر والنهي والإطاعة لأحكامهم بدون سند من عند الله ورسوله، وإلى هذا المعنى يشير النبي ﷺ في حديث عدي بن حاتم حيث قال: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِّنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ٢١٩-٢٢٢.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: محمد كاظم سباق (الكويت، دار القلم، ط ٥، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م)، ص ١٠١.

سُورَةِ بَرَاءَةِ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١)، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ^(١).

وإلى نفس المعنى والنسق يشير المفكر الإسلامي سيد قطب رحمه الله تحت الآية الكريمة ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (يوسف: ٤٠)،

حيث يقول: "وتقرير معنى أن الحكم لله وحده في كافة أمور الناس ناشئ من أمر وحكم الله سبحانه بأن لا يعبد إلا إياه. والتعبير القرآني في هذه القضية يحدد بدقة مدلول مصطلح «العبادة» تحديدا دقيقا ومناسبا. وهكذا فهي الحكم من جانب الله والدينونة والطاعة من جانب البشر.. وهذا هو بالذات (الدين القيم)؛ فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس و الحكم لله وحده. وهكذا لا عبادة لله إذا دان الناس لغير الله في شأن من شؤون الحياة. وبناء على ذلك فتوحيد الألوهية يقتضي الربوبية. والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم والدينونة لله.. أو أن تكون العبادة كله لله.. فهما مترادفان أو متلازمان"^(٢).

وبالجملة فالسيد المودودي في إثبات قضية التوحيد ونفي الشرك يذهب إلى أبعد مدى عن المعنى التقليدي المشهور ويطبقه على عصره حيث ظهرت دعوات العلمانية وتفشى في المجتمعات الإسلامية التقليد الأعمى باسم الدين والعبادة، ألجؤوا الناس إلى التحكم بغير الله حيث عده وثنية هذا العصر وقام برده وتفنيده وقد عول عن المفهوم التقليدي للوثنية وذلك لوضوح سخافته وبطلانه.

٢- الدعوة إلى الإيمان بالرسالة وختم النبوة:

القضية المحورية الثانية في موضوعات الدعوة هي الدعوة إلى الإيمان بالرسالة وختم النبوة؛ وذلك لأن الهداية الإنسانية في دين الله والعبادة الصحيحة منوطة بالإيمان بالنبوة، والأنبياء هم الذين يمثلون شرع الله والسبيل الوحيد التي توصل الإنسانية إلى مطلوبهم الذي فطر عليه، وهكذا لن يستقيم أمر توحيد الله عز وجل والإنكار من ربوبية والوهية الأرباب والطواغيت إلا بالإيمان بهم، وكما أن دعوتهم تحدد مصيرهم ومآلهم من الفلاح والخسران. وقد أخبر الله تعالى بني آدم حين خلقهم، بأنهم مكلفون باتباع الرسل ورسالتهم في أمر الهداية حيث قال:

﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣٦﴾ (الأعراف: ٣٥ - ٣٦).

(١) سنن الترمذي، باب: ومن سورة التوبة، رقم الحديث: ٣٠٩٥. قال الألباني: هذا حديث حسن.

(٢) قطب، سيد، في ظلال القرآن (بتصرف يسير)، (القاهرة، دار الشروق، ط١٧، ١٤١٢هـ)، ج٤، ص ١٩٦٤.

وعلى هذا لما يلاقي أصحاب النار مصيرهم يوم القيامة يلزمهم الله قوله قائلا: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ (الملك: ٨-٩).

والآيات القرآنية الناطقة على أهمية الرسالة وإناطة مصير الإنسان الدنيوي والأخروي بفلاحها وخسارها وصلت إلى البدهة.

والسيد المودودي في سرد حديثه عن النبوة والأنبياء لم يثنهم باعتبار شخصيتهم الفذة وذكائهم الفائقة بل جعل أهمية الإيمان بهم السبيل الوحيد إلى الوصول إلى غاية خلق الإنسان وتوحيد الله عز وجل والتي تعد الكلمة العليا في الدين وجوهر دعوته السامية.

كما شدد الرجل على ضرورة النبوة باعتبارها الضرورة الإنسانية القصوى؛ واستدل على ذلك بالدلائل العقلية منها: الإنسان كائن حي متميز بالفكر والعمل في هذه المعمورة، والسلوك إلى مبتغاه بحاجة إلى اختيار مناهج وطرق عديدة؛ لكنه من البدهة أن الحق منحصر في طريقة واحدة والتي تبنى على أساس ونظريات سليمة، وبالتالي اختيار هذه الطريقة ضرورة قصوى في حياته، وهذه الضرورة حيزت بمكانة عالية بالنسبة لباقي الضرورات والتي تشترك في هذا الكائن مع سائر الموجودات والتي تكفل الله عز وجل برعايتها بإرادة تدبير دقيق توائم كل مخلوق فطرته... ومن هنا إذا كان الله يتكفل لعبادة الحوائج البدائية والدنيوية فكيف يغفل عن الضرورة الملحة التي فطر الناس لأجلها وعلى هذا يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النمل: ٩)،

ولاشك أن قصد السبيل منوط بإرسال الأنبياء والرسول^(١).

وقد يربط السيد مودودي بضرورة الأنبياء وبعثهم بوجود العلامات المهدية في الحياة الدنيوية ويستدل على قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُم مَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ١٦)،

وحوله يقول: إن الله تعالى لم يخلق الأرض صعيدا واحدا بل جعلها قطعاً متباينة ومن ثم جعل في كل منها علامات مميزة تعرف بها حيث سماها Land marks ، ومن ضمن فوائد هذه العلاقات أن الإنسان يهتدي به في أسفاره وترحالاته، وقد يدرك قدره إذا كان في رحلة صحرائية رملية أو عبر بحار ممتدة عريضة؛ وقد عرف الإنسان أهميته عبر أزمان عديدة.

ومن هنا نجد ترابط إشارة لطيفة بين دليل توحيد ربوبية الله وبين دليل الرسالة، حيث أنه لم يغفل عن رعاية عباده في أسفارهم الدنيوية فكيف يمكن أن يتركهم في سفر حياتهم الأبدية^(٢).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ١، ص ٥٥.

(٢) انظر: السابق، ج ١، ص ٢٢.

وبعد اثبات ضرورة عقيدة الإيمان بالرسالة والأنبياء نقلها وعقلها يمر المودودي من خلالها إلى إثبات عقيدة ختم النبوة ورسالة محمد ﷺ مبينا مكانة هذه العقيدة من خلال تاريخ البشرية وإبراز أهميتها في الحضارات الإنسانية فيقول: إن الأنبياء لا يولدون كل يوم، وليس من الضرورة أن تكون لكل أمة نبي في كل حين من أحيانها، وذلك لأنه حياة النبي في إحياء تعاليمه ورسالته؛ فهو حي مادامت تعاليمه حية، وهكذا مات الأنبياء والرسل وخفت تعاليمهم عبر الأجيال البشرية بعد ما مزجت تلك الأنوار بأهواء وآراء أتباعهم، ولا يوجد اليوم كتاب من كتبهم في صورته الأصلية وقد نسي البشرية سيرة هؤلاء الأنبياء، أما بالمقابل فنحننا محمد ﷺ فلا يزال حيا لأن هدايته حية ولا يزال بأيدينا وذلك القرآن الكريم الذي أنزله الله عزوجل بالفاظ أصلية، وما طرأ أي تغير في أحرف من حروفه الأصلية، ولا في حركة من حركاته ولا نقطة من نقاطه وحتى حظيت إلى جانبه جميع أقوال، وأعمال وخلق وسيرة ذلك النبي البشري صلى الله ﷺ بالحفظ والتدوين حتى صارت سنته وسيرته مرئية لقارئها كأنه يراه بأعينه ويتكلم بحكمه الفياضة كل حين.

وعلى هذا فلاحاجة للبشر اليوم إلى نبي مرسل من عند الله بعد إرسال النبي ﷺ، وقد عد المودودي فكره على مقدمات علمية تؤدي في منتهاها إلى عقيدة ختم النبوة وذلك كالتالي:

لا يرسل الله نبيا بعد نبي بين الأمم إلا لأسباب ثلاثة:

- ١- أن يكون تعليم النبي السابق قد محا وظهرت الحاجة لعرضه على الأمم مرة أخرى .
- ٢- أن تكون تلك التعاليم السابقة منحصرة في أمة خاصة وتكون الأمة الأخرى بحاجة إلى مرسل مثله .
- ٣- أن تكون تلك التعاليم السالفة ناقصة بطبيعة الفطرة البشرية وهي بحاجة إلى إتمام في الأمم اللاحقة .. والناظر في تاريخ النبوة ليرى انعدام تلك الأسباب في نبوة محمد ﷺ وذلك لأن تعاليمه حية وحظيت بالتدوين والاهتمام مالم ينل أي تراث ديني ولا إنساني. وميزة هذه التعاليم أنها اتسمت بالكمال والاتمام فلا حاجة اليوم إلى أن يضاف إليه شيء أو ينقص منه شيء، وأخيرا إن مخاطبي دعوة النبي ﷺ العالمين جميعا، ولم تنحصر دعوته إلى أمة دون أمة ولا زمان ومكان دون زمان ومكان؛ وبالتالي فلا حاجة إلى نبي آخر، وإنما هي بحاجة إلى رجال يتبعون النبي ﷺ ويدعون الناس إلى اتباعه، وهديه، ويقيموا على أسس هديه دولة تحكمها تلك الشريعة^(١).

قد يلجأ المودودي بعد هذا العرض العقلي لعقيدة ختم النبوة مستدلا ببعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية معضدا هذه العقيدة السامية وضم إليها وجه الاستدلال من تلك النصوص والنتيجة التي توصل إليها فيقول: إن النبي ﷺ وسيلة الهداية لكافة نوع الإنسان حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، مبادئ الإسلام، (الكويت، الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م)، ص ٣١-٣٣.

وتعني هذه الآية أن الرسول ﷺ لم يرسل إلى أهل بلد وزمان خاص بل بعث إلى العالم والناس كافة، وأن أهل ذلك الزمان بيئته الخاصة لم يعرف مكانته المرموقة ولم يدرك تلك النعمة والرحمة التي أنعم الله بهم؛ وذلك لأنه مرسل إلى قيام الساعة للناس عامة، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وقد فسر المودودي هذه الآية على وجهين: الوجه الأول: يا محمد ﷺ إن بعثك للناس في الحقيقة رحمة منا على الدنيا والناس.

الوجه الثاني: لقد أرسلناك رحمة للناس، ومهما يكن الأمر فهذان المعنيان دالة على أن بعثه ﷺ منه ورحمة إلهية للناس؛ إذ هو يفرق بين الحق والباطل، ويوقظ الناس عن غفلتهم ويرشدتهم إلى طريقة السعادة والفلاح؛ وقد كان هذا الخطاب للنبي ﷺ مقابل ادعاء وزعم المشركين حيث عد وجوده وبعثه مصيبة وعنتا عليهم حيث جلب لهم المذلة والهوان^(١).

وتؤيد هاتان الآيتان وغيرهما من الآيات هذا المدلول كما تدل عليه جملة من الأحاديث النبوية ﷺ، ونذكر منها: قال ﷺ: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ إِنَّمَا يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً)^(٢).

ويستدل المودودي كذلك من حديث: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ، أَوْ: كَهَاتَيْنِ وَفَرَنَ بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى)^(٣). والحديث النبوي وإن كان دالا على قرب الساعة إلا أنه يدل كذلك على ختم النبوة، فكما أن الإصبعين الوسطى والسبابة لا يحول بينهما شيء فكذلك بعثة النبي ﷺ والقيامة لا يحولهما رسالة أو نبي آخر؛ وبالتالي تبقى نبوته إلى يوم الدين^(٤).

وبعد عرض عقيدة ختم النبوة وتقديم أدلتها العقلية والنقلية يفند المودودي ويرد على الذين يشككون في هذه العقيدة المرموقة، ويعد تلك الدعاوي أباطيل لا أساس لها؛ وقد ظهرت هذه الفتنة طوال التاريخ الإسلامي وخاصة إثر وفاة الرسول ﷺ حيث تصدى لها الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ظهرت أخيرا في العصر المودودي باسم الطائفة القاديانية وذلك في أوائل تأسيس دولة باكستان، فقد تصدى في وجهها علماء أجلاء وأثبتوا مرة أخرى بطلان وزيف هذه الدعوى رغم بداهة بطلانها؛ وقد كان في مقدمة هؤلاء المودودي حيث دافع عنها بالكلمة والحركة، وفي مستهل ذلك يقول: أخرجت تلك الطائفة في هذا العصر فتنة عظيمة حيث تأولوا تلك الآية

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ٣، ص ٢٥٠

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند جابر بن عبد الله، رقم الحديث: ١٤٢٦٤. (المسند بتحقيق شعيب الأرنؤوط)، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ)، كتاب الطلاق، باب: اللعان، رقم الحديث: ٥٣٠١.

(٤) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ١٧٥.

الكريمة الواضحة: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

فقد ذهب أصحابهم بأن لفظ (خاتم) بمعنى الختم ومعناها أن الأنبياء بعد رسول الله ﷺ بحاجة أن يختتموا رسالتهم حتى يصيروا أنبياء، وقد أولوا أيضا بأن المراد من خاتم النبيين أفضل النبيين.... وهكذا سخافة تلك الدعوة واضحة وجلية لاحتاجة لردّها؛ فمصطلح خاتم النبيين من حيث اللغة لا ترد إلا لمعاني الانتهاء والنفاذ ومجمل معناها الختم، الوصول إلى النهاية، الكمال، والسكر وقد يقال ختم العمل أي فرغ من العمل، وختم الكتاب أي وضع عليه الختم حتى يحفظ، وهكذا يقال ختام كل مشروب يعني الذوق الذي يجده الشارب في آخر الشرب وختم الشيء أي بلغ آخره، وهكذا يقال خاتم القوم أي آخرهم^(١).

وبناء على هذا فخاتم النبيين عند قاطبة أهل اللغة والتفسير لا يعني إلا آخر النبيين وقد يؤيد هذا المقصد الشريف أحاديث نبوية صريحة منها:

قال الرسول ﷺ: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْشُرُونَ)^(٢).

قال الرسول ﷺ: (إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ، مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ، أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا حَذَرَ أُمَّتَهُ الدَّجَالَ، وَأَنَا آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ)^(٣).

وهكذا قول الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب حيث قال له: (أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي)^(٤).

وعلى هذا فعقيدة ختم النبوة وترسيخها من الموضوعات الجوهرية في موضوعات الدعوة من الفترة المكية والتي تقوم عليها دعائم الإسلام إذ أنها واسطة بين الله وخلقه، وفي جانب آخر فعقيدة ختم النبوة تنبؤ بكمال الإسلام وتمام نعمة الله على عباده، وبالتالي يسد كل طريق ومنهج جديد في الدين، كما أنها تمثل بداية مهمة دعويه على

(١) انظر: لسان العرب، مادة (خ ت م)، ج ١٢، ص ١٦٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث: ٣٤٥٥.

(٣) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (مصر: دار إحياء الكتب العربية، ب ت ط)، كتاب: الفتن، باب: فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم رقم الحديث: ٤٠٧٧. قال الألباني: هذا حديث ضعيف.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، رقم الحديث: ٤٤١٦.

عائق الدعاة الوارثين لمهام النبوة و يقف أمام كل دعوات تمس النبوة ومكانتها وقد برز جهوده في هذا المجال أمام فرق القاديانية^(١) والبرويزية^(٢) في هذا العصر.

٣- الدعوة إلى الإيمان بالقرآن وتشريع إلهي الملزم اتباعه

المحور الثالث في موضوعات الرسالة المحمدية هي الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم ككتاب منزل سماوي ومصدر تشريع إلهي، ختم به الرسالة الإلهية حيث وصل الأمر إلى تمامه، فكما أن الرسالة والنبوة وصلت بنبوة محمد ﷺ إلى منتهاها فكذا سد باب تنزيل الكتب بنزول القرآن الكريم، وتعد كلاهما متلازمين تكمل بعضهما البعض، فالكتاب دون الرسول، والرسول دون تعاليم أو كتاب تعدان كارثة ابتليت بها الحضارات الإنسانية العظيمة على مر العصور. وهكذا كما مر فإن جوهر الرسالة والنبوة كتابها المنزل حيث تبقى بعد حياة حاملهم الرسل والأنبياء؛ ولذلك فقد حظيت الرسالة المحمدية بالحفظ الدوام من أجل القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه إلى يوم الدين .

وقد أكد الإمام المودودي على هذا المحور باعتبارها موضوعا دعويا ومصدرا يستقي منه ومرجعا يحكم على الحياة فيقول: والأساس الثالث الذي يقوم عليه الدعوة الإسلامية حث الناس إلى الإيمان بالقرآن الكريم على أنه من الله، ويجب عليهم أن يتبعوه ويبني عليه عقائدهم، وأفكارهم، وعبادتهم، وخلقهم، ومعاملاتهم وأن يكون هذا الكتاب دستور حياتهم ويرد كل نظر أو منهج يخالف تعاليمه .

وميزة هذا الكتاب أنه كلام الله أنزله وحيا على رسوله وليس كما يزعم البعض — أنه معان تلقاه الرسول في قلبه من الله، بل ألفاظه نفس تلك الكلمات التي أنزلها على الرسول ومن ثم نقله بأمانة كاملة دون زيادة ونقصان وتحريف، وهو محفوظ بأن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه^(٣).

والرسول ﷺ هو الملزم الأول باتباعه، والقرآن هو الحاكم عليه قبل غيرهم؛ وعلى هذا ما حظى النبي ﷺ من علو المرتبة والإجلال نتج عن طاعة الله تعالى ومتابعة القرآن واليسر على أحكامه وإبلاغه بالوجه الأحسن إلى الناس وإلا لما كان له من المرتبة، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ

إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٤٥).

(١) القاديانية: حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام. ومن أهم معتقداته بأن النبوة لم تختم بمحمد ﷺ بل هي جارية، والله يرسل الرسول حسب الضرورة. انظر: الجهني، مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (الرياض، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٤ ، ١٤٢٠هـ)، ج ١، ص ٤١٧.

(٢) البرويزية: طائفة مضلة أسسها غلام أحمد پرويز وتعتقد أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد للهداية البشرية، وفيه غنى عن المصادر الأخرى وفي مقدمتها السنة النبوية؛ بحجة أن القرآن حفظه الله عن الضياع والتحريف وليست السنة كذلك. انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، السنة ومكانتها التشريعية، ص ١٨.

(٣) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ٢٩٣.

ويقول أيضا: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس: ١٥).

"فهذه الآيات دالة على تقرب الرسول لله عز وجل، وأنه منوط بالتقرب والإطاعة وأنه بخلاف زعم المشركين لا يملك مع الله أية قرابة كما يعتقد أصحاب الديانات الأخرى تجاه رسولهم ومعلمهم وهو بذلك عبد مطيع بمعنى الكلمة روحا وقلبا"^(١).

واتباع القرآن الكريم وجعله دستورا للحياة الإنسانية التي أقامها الإسلام، قد أنزل الله كتابا مستقلا لهذه الأمة وبين ألفاظه بوضوح تام ماهو الحق و ماهو الباطل؟، ثم أتاح للبشرية فرصة أن يلجأوا إليه في كل الوقت تمس حاجتهم وأن ينالوا رضا ربهم به. ومن منة الله عليهم أن بعث رسولا معه كي يبين مدلول هذا الدستور، وبالتالي يجب عليهم أن يقتدوا به كما يجب اطاعته، وبذلك سد وجه كل الأهواء التي تعترى أمامهم، وقد يجب على البشرية كونهم أفرادا وجماعات أن يتبعوا الرسول والكتاب الهاديين في كل شؤون حياتهم، وبقي الدستور صالحا للعمل والاتباع بعد وفاة الرسول إلا أن صاحبه ترك سنته قائمة مفسرة وموضحة لكل ما يعتريه الغموض في فهمه؛ وبذلك سد باب كل الهوى والتأويل الفاسد، أو ما يقتبسه الأشخاص في تفسير هذا الدستور العظيم يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

ومن مقتضى العقل الإنساني أن الكتاب غالبا ما يحتاج إلى شرح وبيان وإلا لما كانت الحاجة إلى الرسل، فقد بين النبي ﷺ بأقواله وأفعاله مراد قوله عز وجل وهو مفهوم معنى قوله (لتبين للناس) وذلك لأن العقول البشرية قاصرة عن درك كل معاني الكتاب العزيز^(٢).

وأهم ما يميز هذا الكتاب من باقي الكتب أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه؛ وبهذا ذهب المودودي إلى تفسير هذه الميزة تفسيراً علمياً واقعياً تناسب دعوة الإسلام وحقيقة القرآن فيقول: المراد بعدم إتيان الباطل من وجه أن لا يملك أحد أن يعارض القرآن أو يكشف فيه من الأباطيل، وأما عن الخلف فمفهومه أنه مستحيل أن تكشف في المستقبل نظريات وقوانين علمية تعارض بكل ما أتى به القرآن من علم أو معجزات أو حقائق في ذلك الزمن البدائي بل العكس يستحق كل الآيات القرآنية صرفها فيه من التعليمات العقديّة والخلقية والدستورية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وعلى هذا يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (حم السجدة: ٥٣).

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، القرآن والرسول (قرآن اور پیغمبر)، (لاهور، مکتبہ تعمیر انسانیت، ط ١، ١٩٨٧م)، ص ٢٧-٢٨.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ٢٩٤.

ومرة أخرى نرى السيد المودودي في تفسير هذه الآية الكريمة مؤمناً مخلصاً إلى دينه وكتابه حيث يذهب إلى مدى أبعد متجاوزاً عن المدلول اللفظي القريب فيقول: إن هذه الآية مع بداهة لفظه توحى معنيين : معنى قريب وهو أن الله سيظهر آيات قدرته في رحاب الآفاق وفي نفس الإنسان ، وسيأخذ وجه الدنيا بسعتها وهذا ما ستبصرهم بأعينكم وبذلك ستقام ثورة إنسانية عظيمة ، تكون مردها إصلاح الخلق والفكر والحضارة والسياسة والاقتصاد^(١).

والنتيجة التي يصل إليها السيد المودودي هي أن القرآن الكريم كتاب دعوة ، ومنهج حركة يجب على الدعاة أن يأخذوه كدستور وفي ذلك يقول: إن القرآن كان نزوله مقترناً بالدعوة وتطورها وسيرها فنزلت منه قطع مختلفة وفق حاجات الدعوة المتجددة ومقتضاها الواقعي في كل مراحلها ومنازلها منذ بدايتها حتى اكتمالها ، كما أن القطع المختلفة الأحجام التي كانت نزلت منسجمة مع تطور الدعوة ، وهكذا موضوعه الأساسي هو الإنسان أي: ما هو مدار نجاحه وسعادته وما هو مدار خسارته وشقائه؟.

وبحثه الرئيسي: النظريات التي وضعها الإنسان وعن حياة الدنيا وعن نظام الكون وعن ذات الإله ، مدفوعاً بدراسته السطحية وتقديراته الخالية وخضوعه لسلطان الأهواء ، ومن ثم مواقفه التي اتخذها على أساس تلك النظريات فإنها كلها باطلة مهلكة للإنسان نفسه من ناحية المصير ، وإنما الحق هو الذي علمه الله الإنسان حين جعله خليفة له في الأرض.

وهدف القرآن : "دعوة الإنسان إلى هذا المنهج الصحيح ، و تبيان لهدى الله الذي ضل عن الإنسان لعدم المبالاة ، أو شوهه بدافع من غروره ومكابرته"^(٢).

وبالجملة فالمودودي يعتبر القرآن الكريم في دعوة النبي محمد ﷺ من الموضوعات الأساسية المحورية التي قامت عليها تلك الدعوة حيث دعا الناس إلى الإيمان به واتباعه في الحياة بحجة أنه دستور حياة أنزله الله لكي يدرك سعادتهم الفاتنة التي بعدت عنهم ، كما أن هذا الكتاب يرشد البشرية إلى المعاني والقيم النبيلة السامية حتى يصبحوا بذلك مستخلفين على الأرض ويمسكوا في ظلالها لجام القيادة الإنسانية.

٤- الإيمان بالمعاد واليوم الآخر

لقد ركز النبي ﷺ في دعوته المكية على الإيمان بالمعاد واليوم الآخر غاية التركيز ، فقل أن توجد سورة أو حديث نبوي لم يذكر فيها أحوال القيامة ، وبما فيها من نعيم أو عذاب وكذلك حشر الناس و محاسبتهم حتى كأن الإنسان يرى أحوالها رأي العين .

وعرض هذه القضية في نظر المودودي كما يصطلح عليه بالركيزة الرابعة للدعوة النبوية ، ليست نقطة مختصرة تذكر بل تحمل في طياتها حقائق ومفاهيم كبيرة تندرج تحت مسمى الإيمان بالآخرة ، ومجمل هذه العقيدة مبنية على نقاط أساسية تالية :

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، المبادئ الأساسية لفهم القرآن، (بيروت، دار التراث العربي، ب ت ط)، ص ١٠-١١.

١- إن الدنيا بالنسبة لأعمال الإنسان ليست دارا غير مسؤولة بل هي دار ابتلاء واختبار حيث يحاسبهم الله في كل ما قدمه من أعمال .

٢- لقد عين الله لهذه المحاسبة موعدا لن يخلفه، وبها تقوم الساعة حيث تمحو العالم وكل مافيه من الخلائق.

٣- يحيي الله الخلائق من أولهم إلى آخرهم ومن ثم يعرضونه لعدل الله حيث يقدمون كل على حساب ذاته وبما قد كسبوه من خير وشر في حياتهم الدنيا بدون نقص ولا زيادة.

٥- تقام هذه المحكمة على أساس العدل؛ ويقدم للإنسان صحيفة كل ما عمله ويكون مزودة بالشهادات والبراهين.

٦- الأساس الذي يحكم به على العباد في ذلك اليوم مدى قبولهم ورفضهم لدعوة الأنبياء والمرسلين ومن ثم فالذين يغفر لهم يدخلون الجنة والذين يعاقبهم يدخلون النار^(١).

وتحتل هذه العقيدة في الدعوة الإسلامية مكانة عالية تحذو بأهمية الإيمان بالتوحيد والرسالة والإيمان بالقرآن الكريم، وتعد غاية أو نتيجة للعقائد السابقة؛ وبهذا لم تكن للدعوة أية جدوى أو فائدة إذا انعدم الإيمان باليوم الآخر، وتعود المسألة في أصلها برأي المودودي إلى جبهة فطرة الإنسان حيث يقول: "الإنسان بفطرته السابقة والمودعة يرى أنه لا طائل ولا فائدة تحت أمر لا يرجع عليه بجدوى أو منفعة. ولأجل ذلك لا تنشط ولا تتحرك لعمل لا ترجو منه فائدة أو مكسبا لنفسك وهكذا لاتبعد عن محمل تستيقين أنه لن يصيبك منه ضرر، وهذه في الحقيقة هي حال الريب والشك؛ فإن كل شيء ترتاب في فائدته ومكسبه لايمكن أن ترغب فيه وتقوم للقيام والعمل به،... و هكذا حال الرجل الذي لا يؤمن بالآخرة؛ فإنه يرى الإيمان بالله واتباع أوامره في الدنيا عبثا لا طائل تحته؛ وبالتالي فلا فائدة في نظره لطاعة الله والخضوع له و في المقابل يرى أنه لا ضرر لمعصيته، فكيف يرجى من الرجل أن يكلف نفسه ويكرهها على طاعة أوامر الله التي أنزلها على رسوله وفي كتبه؟ وحتى لو آمن بالله ودينه فلا معنى لإيمانه، لأنه لن يطيع الله في حياته وفقا لمرضاته تعالى ومرضاته وحبه"^(٢).

واحتلت هذه العقيدة إلى جانب أهميتها الإيمانية والعقدية مكانة سلوكية حاکمة على أعمال الإنسان وتصرفاته فيجعل منه موجودا يحس بمسؤوليته في هذا الكون والمعمورة، كما يراعي أن لا يتوقع الشر للآخرين بل يطلب الصلاح والخير، ومن هنا يقول المودودي: إن هذه العقيدة لما فيها من الأهمية لما عرضها الرسول الكريم على قريش خاصة والعرب عامة أنكروا قوله ونفروا منه؛ حتى أنهم جعل كلامه مخالفا للعقل الإنساني، وأمر مستحيلا، وحسبوه نوعا من الجنون والأضحوكة، وقد كانوا يحسبون أن هذه العقيدة قد تسد باب الحريات المتاحة أمامهم فلا يستطيعون أن يفعلوا ما يشاءون أو تجري الأمور حسب أهواءهم؛ وبالتالي فهي تشبه جندا وشرطيا سريا تراقب الإنسان وتحكم على سائر تصرفاته.

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، مبادئ الإسلام، ص ٤٧-٤٨.

وإلى هذا أشار الله عزوجل في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقَتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ : ٨٧).

وقد كان سادة قريش يعلمون أنهم عاجزون عن أن يتهموا النبي الصادق الأمين بالكذب حيث لم يجربوا كذبا عليه قط ، وبالتالي لم تمكن لهم أن يتهموا في باقي أمهات مسائل العقيدة، إلا أنهم في هذه القضية اتهموه بأن دعواه لم تخلو عن أحد أمرين: إما أنه (معاذالله) الرجل يفترى على الله بعلمه وحذاقته، أو أنه أصابه نوع من الجنون؛ ولكن الجمهور وحتى أنفسهم كانوا يدركون أن اتهامه بالجنون أكثر سخافة من استحالة اتهامه بالكذب؛ ولأجل شناعة وسخافة فعلهم جعل الله كلامهم عبثا وتافها فلم يرد اتهامه عليهم وتركهم في طغيانهم يعمهون بل أثبت المعاد وحده^(١).

ومن ثمرات ذكر هذه القضية كذلك الانتباه من الغفلة والتيقظ للغاية التي خلق العبد لأجلها، ألا وهي عبادة الله عزوجل، كما أنها تساعد على أن يبعد الإنسان عن المعصية ويتوب إلى الله ويريح نفسه عما فاته من متاع الدنيا، وهكذا عليه أن لا يحزن على زينة الدنيا إن لم يحصلها؛ وذلك لأنه يعلم علم اليقين أن الدنيا زائلة وفانية وبالمقابل الدار الآخرة باقية ودائمة، وهكذا هذه العقيدة تعين على إصلاح النية في طلب الدنيا والاجتهاد في تحصيلها لتكون مدرجة إلى الآخرة فهي بمثابة العملة التي تحصل بها الأشياء وخير ما يحصل بها طاعة الله تعالى^(٢).

وصفوة القول إن عقيدة الإيمان بالآخرة أو المعاد من الموضوعات الأساسية للدعوة النبوية وخاصة في المرحلة المكية منها، وقد تعد محصلة لباقي العقائد، وعلى هذا النسق نجد أن القرآن الكريم والسنة النبوية تربط هذه العقيدة في أكثر مواضعها مع الإيمان بالله عزوجل، وقد عرض السيد مودودي هذه العقيدة بأدلة عقلية وعقلية كما سلك في إثباتها بمنهج علماء المتكلمين وهي دليل العدل، وشدد كذلك بأهميتها السلوكية في حياة الإنسان المسؤول المريد.

المطلب الثاني: الدعوة إلى مكارم الأخلاق

تحتل مكارم الأخلاق والتزكية و الدعوة إلى الفضائل والبعد عن الرذائل الركن الأساسي في دعوة جميع الأنبياء عليهم السلام، وخاصة في دعوة سيد المرسلين ﷺ، وذلك أنه حدد هدف دعوته إكمال مكارم الأخلاق، أو صالح الأخلاق. وكان بعثه منة من الله على البشرية حيث زكاهم مما أصابهم من السيئات والرذائل والضلال المبين. يقول

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٣٢٥-٣٢٨، وكذلك: تفهيم القرآن، ج ٤، ص ٢٨٧١.

(٢) هنداي، عبد الحميد، موسوعة الدار الآخرة، (مصر، مكتبة العلوم والحكم، ٢٠٠٧م)، ص ٢٤-٢٥.

الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

والمتتبع في سيرة النبي ﷺ ليدرك هذا المعنى بوضوح وبصيرة تامة، فقد كانت دعوته دعوة خلق وفضيلة، وكل ما أتى به تحسن مادة الأخلاق مباشرة أو تعريضا، وما من تعليم إلا وتفوح منه رائحة الخلق والفضيلة. لقد ركز المودودي في كتابه على هذا الموضوع في الدعوة المكية للرسول ﷺ وعده ركنا أساسيا لموضوع الدعوة كلها، وبالأخص المرحلة المكية فيها وفي مستهل هذا يقول: لقد اهتمت الدعوة الإسلامية بعد ترسيخ مفهوم العقيدة بموضوع الخلق والفضيلة حيث وضع لهذه القضية تصورا واضحا، وكل من يقرأ القرآن ليرى ببداية ما هو الواجب فعله؟ وماذا يجب تركه؟ ولم يكن مدى هذا الاهتمام بالأمر والنهي بل وضع لكل منهما نماذج عملية وطرق مؤثرة حتى تشع هذه الأنوار وتجد مكانا في سويداء القلب، وبالتالي فكل ما أتى في هذا المجال تتميز بالصراحة، والتفصيل والوضوح وهو ممكن الإدراك عقليا، ويجد مكانا في القلب حتى أن الذين طمست فطرتهم بظلام الجاهلية ليدرك نضاعة هذا الجانب، وشتان هذا الخلق وذاك^(١).

وقد تتجلى في الفقرة السالفة مرة أخرى الأساس الفكري للمودودي حيث يسمى كل تصور خارج دائرة الإسلام وتعاليمه باسم الجاهلية ومظاهرة، وبالتالي يرى الحضارات الإنسانية المبعدة عن تعاليم نبي الإسلام ﷺ وأنبيائه بالجاهلية قديمة كانت أو حديثة؛ وذلك لأن الرجل يؤمن بأن الأخلاق والسلوك نابع من الإيمان والعقيدة وفي هذا يقول: لقد أعطى الله للإنسان خلقه فسماه بأحسن تقويم حيث لم يعطه لأحد من الخلائق، ووهبه قوة الفكر والعلم والعقل ففاهه بذلك عن سائر المخلوقات؛ ومن ثم لو اختار الإنسان طريقا من غير نهج الإيمان والعمل الصالح وصدر بقوة عقله وجسمه لخذله الله وأحطه من منزلته إلى درجة الأنعام بل هم أضل^(٢).

ومن هنا يرى هو وغيره من الدعاة أن الأخلاق هو نبع إيماني صادق أو الترجمة العملية الصادقة للعقيدة والإيمان، وهكذا فالأخلاق ليس شيئا ثانويا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري؛ إنما هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح، وبالتالي فالإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي، أو حين نرى عكسه أن نتساءل أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك^(٣).

وأما عن أهمية هذا المجال القيم في الدعوة وحتى في الحياة الإنسانية فقد لجأ المودودي بإثباتها على أساس عقلي ومنطق سليم وعده بالجملة مناط رقى الإنسان وانحطاطه يقول: "إن وجود الإنسان أمام وجهتين متناقضتين قد

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٣٨٨.

(٢) انظر: السابق نفسه، ج ٢، ص ٣٩٠.

(٣) انظر: قطب، سيد، دراسات إسلامية، (القاهرة، دار الشروق، ط ١١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، ص ١٣٠.

تتشارك وتختلفان معا، فالوجهة الأولى أن له وجودا طبيعيا وحيوانيا؛ وقد تجري عليه نفس القوانين التي تطبق على سائر الطبيعيات والحيوانات في هذا الكون. وهذا الوجود يقوم عمله على الأدوات والوسائل والأسباب المادية وكذلك الأحوال الطبيعية، وبالتالي لا يمكن لهذا الوجود أن يأتي بعمل إلا في ضمن القوانين الطبيعية، والوجهة الثانية متجلية في الإنسان أنه من البشر أي أن له وجودا خلقيا لا يخضع للطبيعيات بل يسيطر عليها ويتصرف فيها، وهكذا فإنه يستخدم جسد الإنسان الحيواني والطبيعي كآلة من الآت العمل ويحاول الاستيلاء والتغلب على أسباب الدنيا الخارجية والتصرف فيها، وأما قواه العاملة فإنما هي الصفات الخلقية التي أودع في الإنسان من لدن ربه الخالق الكريم وقد تحكمه القوانين الخلقية دون القوانين الطبيعية ... وبالجمله فهاتان الوجهتان تتكاملان في الإنسان مشتركين وبالتالي يتوقف نجاحه وفشله ورفعته وانحطاطه على القوى المادية والخلقية معا^(١).

لقد ربط المودودي من خلال تفحصه أساليب مواجهة الكفار والمعادنين لدعوة الأنبياء عليهم السلام وكذلك دعوة النبي ﷺ فوجده نفس الأساليب حيث قام كل منهم برفض ما قدمه لهم هؤلاء الصفوة وجمله هذه الأساليب تعود إلى رذائل أخلاقية تنافي الفضيلة والمكارم حيث سماها بمسمى أسباب الضلال وهي كالتالي:

١- التقليد الأعمى للآباء .

٢- اتباع السادة والأكابر .

٣- الغرور والتكبر .

٤- ترف الحياة والتلذذ بالشهوات .

٤- اتباع الظن والأهواء .

٥- السفسطة وتقلب الحقائق وجعل الفضيلة رذيلة وبالعكس .

٦- عقيدة الشفاعة المزيفة .

فعلى سبيل المثال نرى في السبب الأول أن قريشا قدموا دليل إصرارهم على الرذيلة تقليد آبائهم فقد كانوا يطوفون حول البيت عريانا، ويستدلون على أنهم وجدوا آباءهم عليه حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٨).

ولم يكن هذا دليل مشركي مكة فحسب بل كل الأقوام السالفة الذين ذكروا في القرآن لجأوا إلى نفس الأسلوب، فقوم هود، وصالح، وشعيب وإبراهيم وموسى عليهم السلام لم يعارضوا أنبياءهم إلا بهذه الطريقة. فلم يكن قول قوم شعيب لنبيهم وإصرارهم على المنكر ومعارضتهم لنبيهم إلا أنها ميراث آبائهم. يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية (بتصرف يسير) (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، ص ١٨-١٩.

يَشْعَبُ أَصْلُوْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ (هود: ٨٧).

ولم تكف القرآن الكريم بدم جاهلية الحضارات السابقة بل كونه كتاب حقيقة يتنبؤ بجاهلية الأمم اللاحقة ويذكر أنهم سيلجأون في توجيه المنكر إلى نفس الأسلوب حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (لقمان: ٢١) ^(١).

والملفت للنظر في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أن جملة مفسد الأمم تعود في أصلها إلى رذائل ومنكرات خلقية إما بكونها موضوعا دعويا مباشرا منها عنها أو دليلا تلجأ إليه الأمم في توجيه فساد عقيدتهم وإصرارهم على الباطل، وهكذا تخصيص جزء القرآن إلى القصص ما هي إلا دعوة إلى الفضيلة بالتأسي بالأنبياء المهددين في حب الخير والحق والفضيلة ومحاربة الباطل والمنكر في أفعال المنكرين المعاندين.

والملاحظة في دعوة الرسول ﷺ أن تعليمه الخلقي في هذه المرحلة لم تكن منحصرة على إصلاح الفرد فحسب بل تعدت إلى إصلاح المجتمع كذلك، فقد ذهب المودودي في عرض هذه الحقيقة إلى أن دعوة النبي ﷺ الخلقي دعوة إصلاحية اجتماعية وبهذا لم يكن مقصود الإسلام أن يربي أفرادا صالحين فحسب بل المجتمع بأكمله وذلك أن بدون إصلاح المجتمع لن يحصل فلاح الإنسانية وسعادتها.

ومن هنا يقول: "والميزة الأساسية للنظام الخلقي الإسلامي أن يدعوا الناس ويطلب منهم إقامة نظام الحياة الذي يقوم بنيانه على المعروف فلا يشوبه ويخالطه شيء من المنكر، فيدعوهم جملة إلى أن يعموا الحسنات وقيموا الخيرات التي نظرت إليها الإنسانية في كل زمان ومكان بنظر التوقير والإجلال وفي المقابل أن يقضوا على المنكرات التي طالما نظرت إليها بعين الاحتقار والازدراء؛ فهذه هي الدعوة التي حث إليها الإسلام البشرية، فالذين استجابوا رسالته ولبوا دعوته جمعهم على الكلمة الجامعة واتخذ منهم أمة مسلمة، وما كان هدفه منها إلا أن يجمعوا ما في مستطاعهم من الجهود ويسعوا في إقامة المعروف وتعميمه، وهكذا كبح جماح المنكر والقضاء عليه في جذورها" ^(٢).

ويستدل المودودي في صدق ما يقوله على دليل قرآني في سورة جامعة لكل الخير وهي سورة العصر، حيث

يقول تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا

بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ (العصر: ١-٣).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، نظام الحياة في الإسلام، تعريب: محمد عاصم الحداد، (دمشق، دار الفكر الإسلامي، ط ٢، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م)، ص ٢٠-١٩.

فهذه الآيات مع اختصارها بينت أن نوع الإنسانية فردها ومجتمعها ابتلوا بالخسران في أنهم مبعدون عن الفلاح ولن يفلحوا إلا بالإيمان والعمل الصالح الذي هي نتيجة الإيمان وكذلك التناصح بالخير والحق والتلقين بالصبر. والصفتان الأوليان تعني بإصلاح النوع الإنساني فرديا، وأما الإصلاح الاجتماعي فلن يتسنى بهما إلى أن يزودا إليهما صفتين أخريتين ألا وهما التناصح على الحق وكذلك التلقين على الصبر.

ونعني بالحق الطريق المستقيم الصحيح القائم على العدل والقسط وتندرج في كل مجالات الفكر والعقيدة والأعمال الإنسانية ولن يتمثل الحق إلا بتعميم الخير والصالح للآخرين، فلو أن إنسانا صالحا ملتزما يسكت لرؤية الباطل والمنكر ولن يتحرك ضميره لمخالفة الباطل وحماية الحق فلن تصدق عليه صفة اتباع الحق ولن يتمكن من الفلاح الذي أنيط مع إيمانه العمل الصالح إلا أن يدعوا الآخرين له، وأخيرا أن يصبروا بكل ما يعانينهم في سبيل ما يدعون إليه وأن يضبط عواطفه وهواه ومنطقه وفكره بحدود الله عز وجل^(١).

وخلاصة القول إن التعاليم الخلقي تحتل في دعوة النبي ﷺ، إلى جانب التعليم العقدي مكانة مرموقة عالية، وكما يصطلح له المودودي فإن الأول هي عبارة عن ثمرة طبيعية للإيمان، وقد يربط النبي ﷺ في أحاديث بينها حيث ربط بين مكارم الأخلاق مع الإيمان بالله واليوم الآخر.

وأهم ما يميز هذا الجانب في نظره إنه اتسم بالشمول والكمال، وبالتالي فالإسلام ينظر إلى إصلاح الفرد والمجتمع معا، وبهذا لم يغفل الإسلام عن الجانب الثاني مع تركيزه على الأول بحجة أن الصالح والخير لم يستقيما أو يدوما إلا إذا شمل المجتمع؛ وهنا يبرز مكانة دعوة النبي ﷺ ورسالتها الخاتمة حيث وضع على عاتق أمته مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبحت بذلك خير أمة وما هذه المهمة إلا تعميما للخير والحق وسدا للباطل والمنكر.

المطلب الثالث: تأسيس أمة عالمية

لقد اتسمت دعوة النبي ﷺ في كل مراحلها بالشمول والكمال، ولم تكن دعوته منحصرة على موضوعات روحية أو معنوية فحسب، بل اتجهت نحو باقي شؤون الحياة من السياسة والاقتصاد والاجتماع وهو بذلك دعا إلى دين صار منهجا كاملا تنظم الحياة كاملة، وقد كانت هذه السمة مطبقة حتى في المرحلة المكية من دعوته ﷺ؛ رغم ما فيها من العنت والتعب الذي كان يواجهونهما المسلمون وحتى أن مقومات التعليم لم تكمل آنذاك، ومن بين هذه الموضوعات الأساسية التي دعا إليها النبي ﷺ تأسيس أمة عالمية.

تنظر الدعوة الإسلامية نحو البشرية في هذه المعمورة بنظرة وحدة إنسانية تجمعهم الفطرة الإنسانية رغم تباين القومية واللغة والجنسية؛ وما كل ذلك إلا أسس التعارف حتى يتعاونوا بينهم، لا لأن يختلفوا أو أن يمزق بعضهم بعضا،

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٣٣٦-٣٤٠.

ولكن الأساس الذي يتميز هذا من ذاك تنحصر في تباين العقيدة الصحيحة والفكر، وسمي هذه بمصطلح الأمة حيث يتفاضل أتباعها على أساس تقوى الله عزوجل ومدى إطاعة دستاتيره وتعاليمه المنزلة.

ومن هنا يرى السيد المودودي: إن أهم ما يميز الإسلام عن باقي الأديان أنه جمعت البشرية رغم تباين وجهاتها على أساس العقيدة والدين ولم تفصل بينهم إلا هذا الأساس، فمن أمن بالتوحيد والرسالة الخاتمة وكتابه المنزل والمعاد سمي مؤمنا ويصير أخا مع غيره المعتقد لهذه العقيدة، ويصير تلقائيا عضوا للأمة الإسلامية ومجتمعها، ويتحظى حقوقها بالتساوي مع الآخرين، وأما بالمقابل فكل أواصر الأسرة والنسب تنفصل إذا تباينت العقيدة، ومن اللازم التنويه إلى أن الإسلام لم يحرم التعامل مع المجتمعات الكافرة إذا اقتضت الضرورة المادية معها؛ حتى أن الإسلام أمر بالبر والقسط معهم؛ ولكن شتان بين هذا وبين الولاء القائمة على أساس الود والمحبة، وبذلك لاتقوم هذه الجماعة إلا على أساس العقيدة. وفي تعاليم الإسلام أن الله حرم على المؤمنين طلب الاستغفار لأقرباء المشركين إذا ماتوا، وقد صارع الابن أباه الكافر وأقرباءه الكفرة في معارك الإيمان ولم تنفعهم اشتراك النسب والرحم في ذلك^(١). وقد ذكر الحافظ ابن كثير في سبب نزول هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣)، "إنها نزلت في أبي طالب عم النبي ﷺ لَمَّا حَضَرَتْ لَهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ: أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَقَالَ: أَنَا عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْكَ، فَتَزَكَّ الْآيَةُ"^(٢).

وقد أصبح تأسيس هذه الأمة في التاريخ مظهرا فريدا من حيث نوعها عرفها المجتمع الإنساني عامة والعرب خاصة، بخلاف ما قد ورثوها عن آبائهم وأجدادهم محبة القبيلة والفخر عليها، والنبي ﷺ أقام أمة تميز عن كل الأسس القديمة، وعلى أساس الأخوة العالمية والتعاون قام أتباعها بهدم الأفكار القائمة على التعصب فقاموا بالدعوة إلى البر والخير ومن ثم إيصالها إلى الآخرين وهكذا شرف الأمة أنيطت بالإيصال للآخرين... وهذه الدعوة في رأي كثير من الباحثين كان نوعا من الثورة الفكرية حيث سميت من القدم بالأمة الإسلامية، ولم تكن مبدعها الرسول محمد ﷺ بل امتدت جذورها في دعوة كل الأنبياء والمرسلين، وهي كما يصطلح المودودي لها أمة أزلية أبدية، فأزليتها تعود إلى قديم كلام الله عزوجل حيث يقول: ﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٤٤١-٤٤٢.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ)، ج ٢، ص ٦٣٦.

وتعني هذه الآية الكريمة أن الله سمي هذه الأمة مسلمة قديما ويظل بهذا المسمى إلى أن تقوم الساعة، وقد كانت بنفس المسمى في دعوة كل الأنبياء، فلم تأخذ اسم النوحى، ولا الإبراهيمي، ولا موسوي ولا مسيحي ولا محمدي بل أخذت مسمى المسلمة حيث توحى أنها من الله عز وجل^(١).

والناظر في الفقرة السابقة ليدرك مدى فكر السيد المودودي حول خصائص الإسلام، حيث يرى أن هذه الأمة اتسمت بالعالمية، وأنها حكمة الله الأزلية والأبدية في هذه المعمورة، وما من نبي أو رسول إلا وقد بعث برسالة الإسلام الخالدة؛ وبهذا كل من آمن برسالة الإسلام قديما أو حديثا فهو مسلم مؤمن.

لقد استدل المودودي في ما يعتقد به أن القرآن الكريم في هذا الموضع اتسمت بالوضوح والصرحة فقول ربنا تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ﴾ وَإِذْ يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٢﴾ (القصص: ٥٢-٥٣)، توحى أن بعض أهل الكتاب الذين آمنوا بالقرآن كانوا مسلمين قبل نزوله وهؤلاء بإيمانهم بقوا مسلمين كما كانوا.

لقد تعجب المودودي في هذا الصدد من موقف بعض العلماء الأجلاء الذين عجزوا عن إدراك هذه الحقيقة المبرهنة وذهبوا إلى القول بأن مسمى الأمة المسلمة مختص بالأمة المحمدية ﷺ، ومن بين هؤلاء الإمام الجليل جلال الدين السيوطي رحمه الله (ت ٩١١هـ)، ولقد اتخذ الأخير تأويلا حرجا عن هذه الآية ودعا الله أن يشرح صدره في مبتغى هذه الأمة، وآخر قوله أن معنى هذه الآيات تؤول أن أهل الكتاب كانوا عازمين للإيمان قبل نزوله، وأن الله لعلم الإيمان بعلمه الأزلي بأن يكون مسلمين؛ ولكن المودودي يرد هذه التأويلات ويحسبها بعيدا عن المعنى المطلوب، وبرأيه أن المسألة واضحة ومبرهنة وباقي الآيات القرآنية يؤكد ما يقوله.

وهناك مصطلحان أخران توحيان نفس معنى الأمة وهي لفظ الحزب، حيث استعمل مرتين في القرآن الكريم ووصف (بحزب لله) وتعني كل جماعة وقفت نفسها لدين الله واختار بدل الانتماء القومي والأسري والشعبي اتباع منهج حزب الله، وفي مقابل ذلك حزب الشيطان كما يقول تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ

حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة: ١٩). واللفظة الثانية كلمة الجماعة حيث استعملت في أحاديث النبي ﷺ كقوله: (يد الله مع الجماعة)^(٢).... وبهذا يدرك المتتبع لسيرة رسول الله ﷺ أنه استعمل هذه المصطلحات وتجنب أن يدعو الناس بلفظ القوم أو الشعب رغم اشتهاها في مجتمعه^(٣).

وأما عن تأثير هذه الوحدة في الأمة فلم تكن بالمسمى فحسب، بل ظهرت ملامحه في الحياة العملية، وبها صارت الأسر والقبائل بأسرها مجتمعا واحدا حيث يقدمون النجدة والتعاطف والتراحم والإخاء إلى بعضهم البعض، وبهذا

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٢) سنن الترمذي، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، رقم الحديث: ٣٠٩٥. قال الألباني: هذا حديث صحيح.

(٣) انظر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥١.

انتهت كل الشعارات القبلية القائمة على التعصب والفضل الذي يطلبه السادة على جمهور الناس، فقد روي الطبري في تفسيره عن سبب نزول آية: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١):

"أن أبا لهب قال للنبي ﷺ: ماذا أُعطى يا محمد إن آمنت بك؟ قال؟ كما يُعطى المسلمون، فقال: مالي عليهم فضل؟ قال: وأي شيءٍ تبتغي؟ قال: تبا لهذا من دين تبا، أن أكون أنا وهؤلاء سواء، فأُنزل الله: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) يقول: بما عملت أيديهم" (١).

ولم يكن الانتساب لهذه الأمة مجرد الاعتزاز والفخر بل أنيطت كسبها بمهمة وضوابط عالية من أهمها مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذا نال هذه الأمة خيرها وفضلها كما يقول تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وقد توحى هذه الآية الكريمة أن الله عزوجل حول قيادة وتوجيه البشرية برسالة محمد ﷺ إلى هذه الأمة، وأزاح السطوة عن بني إسرائيل بسبب كفرانهم وتكاسلهم عن مهمتهم، ولكن ما على هذه الأمة إلا أن يتدرجوا إلى معالي الأخلاق والأعمال النبيلة، حتى ينالوا على أثرها أهلية الإمامة العادلة في المعمورة، وهذه الدرجة الرفيعة لن تنال إلا بهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانتقاد والسير مع مفهوم لا إله إلا الله الواحد (٢).

وبالجملة فإن الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة المبكرة من عصر النبوة حيث كانت مرحلة التأسيس والبناء اتخذت من هذا الموضوع أساسا، وأنشأ أمة عالمية لها جذور عقدية وضوابط ومميزات ليست بالمسمى فقط، بل اتخذ طابعا عمليا تؤلف القلوب وتلم شمل المسلمين حتى من خارج الجزيرة العربية، ولهذا اعتنق الناس لهذا الدين سرا وجهرا، ودخل عناصر غير عربية في الإسلام مثل سلمان الفارسي من فارس وبلال ابن رباح من الحبشة، و، وصهيب الرومي من الروم، وإن هذه اللحظة تستحق وقفة التأمل والتفكير؛ فلقد تنبأ المصطفى ﷺ بالمد المبارك للإسلام ووعد بالنصر من ربه العليم الخبير؛ وبهذا يمكن تشبيه هؤلاء الثلاثة غير العرب أنهم مثلوا العالم القديم كله بدخولهم إلى الإسلام تأييدا لعالمية دين الإسلام منذ شروق شمسه المجيدة، فمثلا بلال تمثل قارة أفريقيا، و سليمان آسيا، وصهيب قارة أوربا؛ وما العالم القديم إلا هذه القارات الثلاث (٣).

ولقد نجح السيد المودودي في عرض هذه القضية فأثبت بدلائله مكانة هذا الموضوع في الدعوة الإسلامية وضوابطها، كما أثبت أن الإسلام هي كلمة الله الأزلية والأبدية في هذا الكون وأنها جاءت لقيادة البشرية واصلاحها،

(١) أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، المحقق: أحمد محمد شاكر (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م)، ج ١، ص ٣٦٥.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ١، ص ٣٦٥.

(٣) الأشعري، أحمد داوود المزجاجي، مقدمة في الإدارة الإسلامية (جدة، جامعة الملك عبد العزيز، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م)، ص ٨٦-٨٧.

ولم تكن هذه القضية مجرد شعار وعواطف ترفع بل زودت بتطبيقات ومظاهر عملية جعلت في آخرها أمة وسطا وخيرا بين الأمم كلها.

المبحث الثاني: فقه موضوعات الدعوة عن الشيخ محمد غزالي في العصر المكي

لقد تمثل الفترة المكية في دعوة النبي ﷺ المجال الخصب في موضوعات الدعوة؛ حيث كانت بداية الرسالة الخاتم، والمجتمع الذي بدأ فيه مهمته مجتمع قاس، والعمل فيه أكثر خطورة وفي أعظم صورها النضالية التي تمثل قوة نضال الحق مع الباطل؛ وبالتالي تعد ضروريا للدعاة من ناحية المضمون والمغزى، وتعد كل فقرة منها لبنة وأساس الدعوة في جملتها.

ويرى الناظر في كتب السيرة النبوية نوعا من التشابه من حيث الموضوعات إلا أن العرض الذي قدمه مؤلفوه وكذلك ربطه بالعصر المعاصر، وبما فيها من العظات يختلف عن بعضها البعض بطبيعة الحال، ومن بين هؤلاء العلماء الدعاة الشيخ محمد الغزالي؛ فقد عرف بأسلوبه المميز الدعوي والمتجنب عن التطويل. لقد ركز الشيخ في كتابه فقه السيرة على هذا الجانب ومن ثم وضعها تحت عنوان إلام يدعو الناس؟ وفي مقدمته يقول: "شرع محمد ﷺ يكلم الناس في الإسلام ويعرض عليهم الأخذ بهذا الدين الذي أرسله الله به، وسور القرآن التي نزلت بمكة تبين العقائد والأعمال التي كلف الله بها عباده وأوحى إلى نبيه أن يتعهد قيامها ونماءها"^(١). وهذه الموضوعات الدعوية التي ذكرها متشعبة الأبعاد نسردها كالآتي:

المطلب الأول: إلام يدعو الناس؟

لقد اتخذ النبي الداعي المربي ﷺ منهجا قويا في دعوته وقدم بناء على توجيه من الله عز وجل تعليمات وموضوعات دعوية تناسب ما يحتاج الناس في إصلاح دينهم ودنياهم، وكانت هذه الموضوعات مرتبة على الأولويات في كل فترة، ولا بد أن تبدأ بأساسيات الدين حيث يتمثل في العقيد والتزكية والعبادات وإحياء روح التكافل الاجتماعي بين المسلمين، وفيما يلي بيان لهذه الدعائم.

أ- الدعوة إلى الوحدانية المطلقة والرد على مزاعم الوثنية: تعد الدعوة إلى التوحيد والوحدانية المطلقة هي القاسم المشترك في دعوة كل الأنبياء والمرسلين، وهي الجذر الأساسي الذي تقوم به سائر الأعمال، وبناء على ذلك اهتم بها الدعاة في جميع المراحل الدعوية، ولم تغفل عنها لحظة من حياتهم.

لقد تلمس الشيخ محمد الغزالي كغيره من الدعاة هذه المادة في فقه سيرة الرسول ﷺ وعده من البديهيات الفطرية في دعوته رغم ما غفل عنه الناس جيلا بعد جيل، وقد دعا النبي ﷺ البشرية بأن الإنسان ليس عبدا لكائن في الأرض ولا في السماء لأن كل شيء فيهما عبد لله يحن لجلاله ويقوم في ساحته ويخضع لحكمه وقضائه، وليس هناك له شركاء ولا وسطاء ولا شفعاء، ومن حق كل امرئ أن ينوب إلى ربه وإلهه شريطة أن لا يستصحب معه

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ٩٦.

خلقا آخر، مهما كبر أو حقر شأنه، وحق عليهم أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود بشرا كانوا أو حجارة أو ما سوى ذلك، ويلزم أن تقوم كل هذه الصلات الفردية والجماعية على أساس التفرد والتوحيد لله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة^(١).

وتدل هذه الفقرة على أن البشرية ابتليت منذ القدم بشر عبودية حيث أخطأوا في تصور الألوهية، وتوجهوا لمخلوق عاجزين مثلهم، وجعلوا منه ألهة يتوجهون إليه في السراء والضراء؛ ولذلك كانت دعوة النبي ﷺ إطلاق سراح هذه العبودية المزيفة والتوجه إلى الله الواحد الحق.

ويرى الغزالي كذلك أن: تعدد الآلهة خرافة وهراع نبذها الإسلام بقوة، وحمل على كفاحها يالحاح؛ ومن ثم تتبع أوهام الناس فيها وهما وهما، وكل هذا لكي يكشف ظلماتها و سخافتها ويدحض شبهاته، ومن هنا فالتوحيد المطلق شعار الإسلام في ميدان الاعتقاد والعمل؛ وقد عرف به، ومن أجله حورب وعليه دار جدل.

ومقتضيات التوحيد أن هذا الإله الواحد هو ولي الناس فلا يجوز أن يتعلقوا بولاية غيره، وهو أيضا شفيع الناس ومقيل عثراتهم، وملجؤهم في سرائرهم لا يشركه في ذلك سواه.

وتوحيد الاعتقاد يتبعه بطبيعة الحال توحيد العمل فيجب على المؤمن أن يحب ويخلص ربه ويعول عليه، وأن تكون كذلك مشاعر قلبه وخلجات ضميره متجهة إليه وحده بحيث لا تعدوه إلى كائن ما، وبهذا المسلم لا يعبد سواه ولا يدعوا إلا الله، ولا يطيع ولا ينفذ إلا أمره وحكمه، وهو يحل ما أحل ويحرم ما حرم، وهكذا يقف عند حده، ويتحرك على وفق ما طلب منه^(٢).

وليس التوحيد الذي يطالبه الإسلام الناس مجرد فكر أو قول يلفظ بل إلى جنب ذلك نية وعمل يظهر من ذلك النبع الصافي، ولهذا قام النبي ﷺ بإرساء هذا المفهوم القيم، وكما يقول الغزالي فإنه حقيقة وعنوان، وساحة لها أركان وباعث وهدف؛ ولهذا ينبغي لهذه الأمة أن تكون مثلاً رفيعاً في اسلام الوجه لله والخضوع له وافراة بالنية والعمل، غير أننا نشاهد - بكل الأسف - أن هناك مسالك شائعة بين الجماهير من المسلمين لها دلالتها الخطيرة على ضلال الاتجاه وفساد التفكير، واضطراب المقصد. ويضرب الغزالي على ذلك مثلاً حياً من مجتمعه فيقول: ولكننا أمام تصرفات خاطئة يلزم علينا تجاهها النظر الطويل، والمعالجة بهدي القرآن والسنة كلما وجد عنها أدنى انحراف.

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ٩٧.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، هذا ديننا (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، ص ١٨.

فلقد اهتمت حكومة الإنجليز بمصر في سبيل مكافحة الشيوعية (في ذاك العصر) بالحالة الدينية، ومما طمأنها على ذلك إيمان أهله بأن ثلاثة ملايين مسلم ومواطن زاروا ضريح الشيخ أحمد البدوي^(١) بطنطا هذا العام، وقد جاءوا أولئك الضريح عرفانا للوفاء بالنذر والابتهاال بالدعاء^(٢).

والناظر في تاريخ البشرية والحضارات القديمة يدرك أن البشرية على مر العصور لم يدرك معنى التوحيد بأكمله مع أنه من البديهيات التي يدركها الإنسان بفطرته ويهتدي إليها بطبيعته، وكونه ليس من مسائل العلوم المعقدة ولا من حقائق التفكير المضطرب بل صاروا حيناً بعد حين، إلى ظلمات لجى من الضلال والغواية، وقد كانت فترات رشدهم واستقامتهم أقل بقليل من اعوجاجهم وغوايتهم المتوالية رغم ما وصلت إليه من آفاق الواسعة ومن العلم الكثير والتجارب الثرية، والعلم والآداب والفنون وشتى الفلاسفات والأفكار؛ إلا أنهم سقطت من مكانتها التي عينها الله عزوجل لها وانسلخت عن صورتها اللايق.

وبهذا يقول الشيخ الغزالي: إن أهم الضرر الذي أصيب البشرية من شيوخ الوثنية أنها اغتالته وفرضت عليها السقوط في الأرض، فأمسى الإنسان الذي استخلفه الله ليكون ملكاً في المعمورة أمسى عبداً مسخراً وتابعا لأدنى شيء في السماوات والأرض. -ومع الأسف- إن كل هذه جاءت من داخل نفسها وتفكيرها لا من خارج حياتها فلا يفرض المحزون كاتبه على ما حوله، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة شباحا جائمة، كذلك يفرض المرء الممسوخ غباء عقله على البيئة التي يحيا فيها فيؤله من حيوانها وجمادها ما يشاء^(٣).

ولم يكن ضرر الوثنية وتعبدها منحصرة على معتنقيها كما مر بنا بل أصاب المجتمع الإنساني ونظامها، وبهذا فقد أمنها وسلامها ورخاءها وسلط عليهم شرارهم، وما أحسن ما يقوله الغزالي في هذا: "والظلام الذي ران على الأفئدة والعقول في غيبة أنوار التوحيد طوى سواده أيضا تقاليد الجماعة، وأنظمة الحكم فكانت مذابة يسوءها الفتك والاعتقال ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة، وأي خير يرجى في أحضان وثنية كفرت بالعقل، ونسيت الله ولانت في أيدي الدجالين؟"^(٤).

وخلاصة القول: إن التوحيد هو الدعم الأساسي في دعوة الأنبياء والمرسلين وما هو إلا دليل إصلاح الإنسانية إلى مسارها الصحيح الذي لأجله خلق في هذه المعمورة، وبه ينجو من هيمنة الطواغيت الذي يعرقل حرياته وحقوقه، وجاءت دعوة الأنبياء لإثباتها حتى يضع الأضر الموضوعة عليهم ويفك الأغلال التي كانت عليهم ويمنحهم حرية

(١) الشيخ أحمد البدوي (٥٩٦هـ - ٦٧٥هـ): هو شيخ العرب والملقب بالصمات أبو الفرج صاحب الطريقة الأحمدية، ولد بفاس وتوفي بطنطا مصر، واشتهر ذاك المكان بأتباعه ومريديه حتى أصبحت مدينة كبيرة بعد ما كانت قرية صغيرة. وأما الطريقة فقد صارت بفضل أصحابه ومجاهدة أصحابه مع عامة الناس من أكثر الطرق عمقا في تاريخ مصر دينيا واجتماعيا واقتصاديا وفكر، ولم يترك صاحب الطريقة كتابات لها أهمية فكرية إلا أن له أوراها ووصايا وصلوات؛ وبالتالي فهي طريقة أخلاقية أكثر منها عرفانية. انظر: الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الصوفية (القاهرة، دار الرشد، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ص ٤٣-٤٩.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، عقيدة المسلم (القاهرة: دار نهضة مصر، ط ٤، ٢٠٠٥م)، ص ٦٤-٦٥.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٦-١٧.

(٤) السابق نفسه، ص ١٩.

التفكير والاستضاء بنور الإيمان كما يهبهم المقام الأنسب لخلافة الأرض حتى يصير بذلك سيد المعمورة. وقد وفق الشيخ محمد الغزالي في عرضه وذلك لأنه أشار إلى ثماره على المجتمع الإنساني و تهوور نتيجة إهماله ، كما أنه ربط القضية بالواقع المعاصر حيث انغمست المجتمعات في الوثنية الجديدة يتغير ملبسها ومظهرها ، وقد شدد كذلك على التوحيد العملي الذي ينبع من العقيدة والنظر وتعد من متطلباته ولوازمه الأساسية.

٢- الاهتمام بدار الآخرة: إن بحث الإيمان بالبعث والاهتمام بدار الآخرة من أهم قضايا الإيمان ، فهو ما يطلع إليه المؤمن بعد ما يجتاز الحياة الدنيوية إليها. والمسألة رغم بدايتها ووضوحها إلا أنها سرعان ما يغيب عن العقل بسبب نشوة الحياة وسكرها وقد يذهل عن التفكير فيه ، بما وراءه ويعود الإنسان إلى غفلة ، لهذا ركز القرآن الكريم على الإيمان بدار الآخرة ودعى كل الأنبياء عليهم السلام إلى أهميتها وخطورتها ، وبين للإنسان أن تلك الدار هي دار الخلود وأن حياتنا ممتدة بعد مغادرة الحياة الدنيا.

إن التركيز على الإيمان بالبعث والآخرة نتج على أنها قضية غيبية لا تدرك بالحواس ولا بالعقل ، وغاية ما يدركها الإنسان بدايته وهو أن الموت نهاية محسوسة لكل حي ، ومصير لا بد أن ترد كل نفس إليه ؛ وأكثر الناس يأخذ عن الموت فكرة غامضة ويكون عنده صورة مشوهة في الفهم يظنه أنه ختام لمعنى الحياة أو بداية لحالة جديدة لا شعور فيها ولا إحساس معها^(١).

ولهذا لم يكن بد من أن توضح في دعوة الأنبياء والمرسلين لأنهم السبل الوحيد لمعرفة، فهم أمناء وحي الله ورسالته وقد بينوا أن الله كما بدأ الخلق يعيده ، وقد يكون حياة أبدية غير زائلة وفي هذا اليوم يلقي الناس خالقهم وربهم ، ويحاسبهم بالدقة على حياتهم الأولى كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾ (٨) (الزلزلة: ٧-٨)، ومن ثم فهناك إما نعيم مفرح يسر فيه الأخيار وإما جحيم مهلك ومشؤمة يشقي فيها الكفار والأشرار.

ولم تكن هذه القضية في رسالة النبي ﷺ مجرد عقيدة أو إيمان غيبي أو شيء ينظر إليه نظرة بحتة بل أصبحت سلوكا وحرمة حاكمة على أعمال الإنسان ، ومن هنا ربط الله ورسله الأعمال والسلوك الإنسانية في أغلب الأحوال بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وقد نرى في دعوة المرحلة المكية للنبي ﷺ كذلك إبداع التصور الفني للقرآن الكريم والسنة النبوية ﷺ في ترسيخ هذه العقيدة وبيان أهميتها وتبديلها إلى سلوك إنساني مميز ، ومن مظهر هذا يقول الشيخ محمد الغزالي : "لقد أنزل بمكة أكثر من نصف القرآن ، وجرى على السنة حفاظ المسلمين وتداولته كذلك صحائف السفارة الكرام البررة ، والقران النازل المكي فيها تصوير الآخرة كراي العين ، فتوشك أن تمد كفك ، وتقطف من

(١) انظر: الغزالي ، محمد ، عقيدة المسلم ، ص ٢١١

أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن يسير في لحظة فداء من رمضاء وفيافي الجزيرة إلى أنهار البساتين والرحيق المختوم^(١).

وهكذا فإن التصور البديع للجنان والاعتقاد الجازم بها له أثر في نهضة الأمة، فجيلة الإنسان فطر على أن ينتفع إذا رأى خير المال وحسنه وبالتالي يسعى لكسبه ونيله فعند ما تختار هذه الصورة في نفوس أفراد الأمة فإنهم يندفعون لمرضاة الله ولأجلها يقدمون الغالي والنفيس وتفقد عنهم الوهن وكراهة الموت، وعلى عكس ذلك تنفجر في نفوسهم العزيمة والطاقة الهائلة لمواصلة المسير والإعزاز بدين الله عز وجل.

ولم تتحدد دعوة النبي ﷺ لأئمة وتربية الصحابة على البشارة فحسب فهو نبي بشارة وإنذار، وقد أُنذر أمته وفق منهج رباني من يوم القيامة وفزاعة أهوالها، وطى السماء وقبض الأرض، ونسف الجبال، وتفجير وتسجير البحار وموران السماء وانفطارها، وتكوين الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم، وهكذا صور القرآن في آخرها حال الكفار وهوانهم وذلتهم وحسرتهم وإحباط أعمالهم ومن ثم حشرهم إلى النار وادخالهم مع المنافقين فيها^(٢). ولهذا احتلت هذه العقيدة الدعائم الأساسية لدعوة النبي ﷺ في المرحلة المكية لما لها قيمة عقدية وكذلك كونها حاكمه على أعمال الإنسان وسلوكه في هذا الدار الفانية فجاءت بثمار يانعة تصلح مسيرة الحياة وحركتها.

٣- الاهتمام بتزكية النفس: احتلت تزكية النفس والدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن الرذائل كمظهر سلوكي وعملي لها، الركن الأساسي في دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وخاصة للرسول والنبي محمد فقد جعل ﷺ هذا الجانب كغاية الأولى من بعثته، وكان المنهاج المبين في دعوته قائلاً: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)^(٣). والآية الناطقة في القرآن الكريم التي تبين موضوع الرسالة جعل هذا الجانب من الأركان الأساسية في دعوته ﷺ حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢)، وهذه الآية كما يقول المفسرون آية محكمة ومدلولها واضح قطعي الدلالة، وبالتالي تزكية النفس إلى جانب المهمتين العظيمتين كانت من المهام الأساسية للأنبياء والمرسلين، ومن هنا كانت النبوة ثلاث وظائف مهمة.

أ- بلاغ الشريعة وبيانه وتعلمه للناس سواء في ذلك العقائد النظرية والأحكام العملية.

ب - سلطة تنفيذ الأحكام ومعاقبة المقصر وردع المعتدي وتحكيم الشرع.

ج: - تزكية النفوس وقيادة الأرواح في سيرها نحو الحق تعالى.

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٦٠.

(٢) انظر: الصلابي، علي محمد، وسطية القرآن في العقائد (إسكندرية: دار الإيمان، ٢٠٠٢م)، ص ٤٠٧.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند أبي هريرة، رقم الحديث: ٨٩٥٢، ج ١٤، ص ٥١٣. (المسند بتحقيق شعيب الأرناؤوط)، وقال: حديث صحيح.

"وقد كانت هذه الوظائف الثلاثة مشتملة في شخص الرسول ﷺ، فكان في نفس الوقت مبلغ الدين ومعلمها، و النموذج العملي المثالي يهذب النفوس ويقود الأرواح وهكذا الحاكم المنفذ والراعي الحكيم بسلطان الشرع والنبوة"^(١).

والناظر سوف يرى في عرض هذه المهام النبوية نوعا من التناقض فأحيانا يقدم النصوص لتوحيد الله عزوجل ووحدانيته على سائر الأعمال والمهام، وأحيانا يحدد الرسول ﷺ غاية رسالته تزكية النفوس وإتمام مكارم الأخلاق والبعد عن الرزائل، ولكن المتبع للحق ينفذ هذا التعارض ويجمع بينها من خلال شواهد النصوص بين المهمتين ويربط بينهما، ومن بين هؤلاء الشيخ محمد الغزالي رحمه الله حيث ذهب إلى القول بالتقاء الدين بالخلق. وفي مقدمة كتابه الموسوم (خلق المسلم) يقول: العبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركاناً فيها ليست طقوساً من النوع المبهمة الذي يربط الإنسان بالغييب المجهول، وهكذا هي ليست تكاليف غامضة أو حركات لا معنى لها... بل كل ذلك في الحقيقة تمارين ورياضة متكررة لتعويد المرء أنه يحيا بأخلاقه وأنه يظل مستمسكا بهذه مهما تغيرت أمامه الأحوال والظروف، والمبصر إلى جملة العبادات كذلك ليدرك أنها رغم تباينها في مظهرها وجوهرها تلتقي عند الغاية التي رسمها النبي ﷺ وهو إتمام مكارم الأخلاق، وبالتالي فالغاية القصوى منه الأخلاق ومكارمه، وهكذا الإيمان قوة عاصمة وصيانة عن الدنيا دافعة إلى المكرمات ودعوة إلى الخير ونفور عن الشر وكل ذلك ينتج عن الإيمان المستقر في القلوب، وما أكثر ما يقول الله في كتابه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ثم يذكره بعد ما يكلفهم به^(٢).

ومن هنا يتبين أن الأخلاق والإيمان بينهما صلة وثيقة، فالخلق والتزكية ثمرة الإيمان الياقة وغايته والإيمان القوي ينتج الخلق القوية حتما، وأن انهيار الأخلاق يرجع إلى ضعف الإيمان أو فقدانه، وقد يضرب الرسول الكريم ﷺ مثالا عمليا يوضح هذا المفهوم حيث يقول: (إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ قُرْنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ)^(٣). وقد يرى الشيخ الغزالي أن موضوع تزكية النفس في الدعوة المكية لم تكن مجرد اعتقاد أو صفاء نفسي بل كانت مظهرا سلوكيا، وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله وترك أمور أخرى حذر منها؛ والأخلاق بهذا المعنى كما يصلح له أرباب هذا الفن تشتمل الالتزام بالأوامر وهذا ما يسمى بالتحلى والابتعاد عما نهى عنه حيث يسمونه بالتخلي. والمتتبع في آيات القرآن للمرحلة المكية ليجد أن الموضوع غالبا ما تدور حول هذين الموضوعين، فمثلا الله تعالى يأمر المؤمنين بجملة من القيم الأخلاقية ومنها، ألا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من

(١) الشافعي، حسن، وأبو اليزيد العجمي، في التصوف الإسلامي (القاهرة: دار السلام، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م)، ص ٢٠.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، خلق المسلم (إسكندرية: دار الدعوة، ٥ ط، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م)، ص ١١-١٤.

(٣) ابن أبي شبة، عبد الله بن محمد، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المحقق: كمال يوسف الحوت (الرياض: مكتبة الرشد، ط ١، ١٤٠٩هـ)، باب: ما ذكر في الحياء وما جاء فيه، رقم الحديث: ٢٥٣٥٠.

إملاق، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى^(١).

ونظرا لأهمية هذا الباب فقد أدخل النبي ﷺ في بنود البيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشر من البعثة مع الحجيج الذين جاءوا من يشرب (المدينة)، فقد لقيهم النبي بالعقبة وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده والاستمسك بفضائل الأعمال والبعد عن منكرها، وعن القيم الأخلاق فيها، يروي الإمام أحمد حديث عبادة بن الصامت حيث قال: (أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النَّسَاءِ، أَوِ النَّاسِ أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا نَغْتَابَ، وَلَا يَعْصَهُ بَعْضُنَا بَعْضًا، وَلَا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ...) (٢).

وبالجملة فتركية النفس والحث على مكارم الأخلاق والنهي عن الرزائل من الموضوعات الأساسية في المرحلة المكية للدعوة النبوية، وقد كانت منظومة شاملة من المكارم والبعد عن الرزائل، وقد ربطت هذه المستلزمات بالعقيدة والشعائر والعبادات وذلك لكي يدرك الأمة الإسلامية أنها الثمرة الطبيعية للإيمان والشعائر وأنها غاية الدين وعلامته.

٤- التركيز على العبادات والشعائر الدينية: العبادات والخضوع لله تعالى من المقاصد لخلق الإنسان في هذه المعمورة؛ وكل ما امتاز به هذا الموجود من الكرامة والتخليف في الأرض نتجت عن مقام العبودية على وجه الرضا؛ وعلى هذا فقد دعا الأنبياء والمرسلون بعد إرساء مفهوم التوحيد والإيمان إليها حتى تتحلى هذا المخلوق بمهمة ويكسب رضا الله في آخرته.

ولقد شدد النبي ﷺ على هذه المهمة في المرحلة الأولى من دعوته وحث الناس على عبادة الله وحده، وكان مبتغاه إلى جنب دعوته إليها تصحيح مسار الناس فيها، وذلك لأن الناس فطروا على العبادة وفيهم من التدين والخضوع والقداسة إلى من هو أعلى وأجل.

وأهم ما تميز به هذه الرسالة تصحيح مفهوم العبودية والذي أخطأ فيه كثير من البشرية وعبروا عنها بالسطوة على المحكومين وإرهابهم، ولم يكن مقصد الإسلام ذلك بل عبر عنها بمفهوم شامل "العبادة خضوع مشرب بحب؛ وليست استسلام المغلوب للدليل للظافر أو إذعان الضائق الخانع للقيد بل إنها إطاعة المحب لمن يهاب ويجل، وتفانيه فيمن يقدر ويعز، وهي حالة لا تليق بإنسان إلا مع ربه" (٣).

وقد كان حال البشرية حين جاء الإسلام أنهم وقعوا تحت وطأة الجبارة فأحكموا عليهم سطوتهم وجعل منهم عبدة أذلة صاغرين خاضعين على أساس التنافر والبطش، ولكن لما جاء الإسلام فأول ما فعله أن أطلق سراح المقيدين بأغلال الطواغيت والأصبر التي كانت عليهم ومن ثم منحهم حرية المعتقد والرضا في اختيار العبودية وذلك لكي

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٩٧-٩٨.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تنمة مسند الأنصار، رقم الحديث: ٢٢٧٣٢. المسند بتحقيق شعيب الأرناؤوط، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) الغزالي، محمد، هذا ديننا، ص ٩٣.

يختاروا ما يسمو بهم ويناسبهم فجاءت عبوديتهم على أساس الإعجاب والرغبة، والإعظام والرغبة وقد انفرد بها رب العالمين ، ولذلك لا يجوز إطلاق هذا اللفظ إلا في هذا المجال .
وقد توسع هذا المفهوم الجليل فلم ينحصر في نطاق ضيق أو طقوس معينة بل أصبح نظاما شاملا لكل مجالات الحياة ولكن على أساس الحب والعظمة والخوف من الله عز وجل .
وعلى هذا فالعبادات في الإسلام على نوعين :

١- العبادة المفروضة والتي أنشأ الشارع حقيقته وصورته فلا يعرف إلا عن طريقه كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغير ذلك .

٢- العبادة بمفهومها الأوسع ، فيشتمل فيه كل ما يعمل به الإنسان أو يتركه ، ويدخل فيه ذاك الشعور الذي يقبل عليه الإنسان تقربا إلى الله أو يطرده من أجل الله ، ويشتمل فيه كذلك أنواع النشاط الإنساني كلها ولو كان لنفسه ، ولكن الضابط فيه أن تقع على حسن نية وشرف غاية فإنها تحول إلى عبادة إلهية^(١) .

الالتزام بالشعائر والعبادات التي تطلبه الإسلام من الناس ليست مجرد طقوس وتكاليف مخصصة تؤديها بل صارت وسيلة للتقرب الإلهي ، وتطهير النفوس من أدرانها كما أن الروح تأخذ منها زادها ووقودها ويدفعها لأداء المهمات على عاتقه وعلى رأس كلها الصلاة المفروضة . وعن أهميتها يقول الشيخ محمد الغزالي : "وفي ليلة المعراج فرضت الصلوات الخمس المكتوبة ، شرعت في السماء لتكون معراجا يرقى ويرفع إليه الناس كلما اهوت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا وزينتها . وهكذا فالصلوات التي شرعها الله غير الصلاة التي يؤديها - الآن - كثير من الناس وعلاقة صدق الصلاة مع تكرارها - لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة ؛ فهي صلاة كاذبة"^(٢) .

والفقرة السابقة دالة على أهمية الصلاة إذ تحتل هي في مقدمة العبادات المفروضة ، فكما أنها فرضت ليلة المعراج فإن أداءها سمو وعروج المؤمن بين يدي الله وهي كذلك طهارة وتركيز لقلبه ونفسه ؛ كما أن الوضوء قبله دالة على طهارة بدنه وبالتالي هي عبادة بدنية تعود على المرء الطهارة والنقاء الظاهرية والباطنية ، و الصلاة تسبب طمأنينة النفس وراحتها وحاجزة عن المعاصي التي تعرض في طريقها .

وقد كانت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين عند ما كانوا يؤدون صلاتهم كان يستريح لهم نفوسهم ، وكانت صلاتهم دافعة لفعل الخير والابتعاد عن المنكرات ، وفوق ذلك كله كانت سدا منيعا من الوقوع في المعاصي والآثام^(٣) .

٥- إحياء روح التكافل الإجتماعي: إن دعوة الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ اتسمت بالخيرية وشعور المسؤولية تجاه الآخرين فليست هذه التعاليم مجرد طلب الفلاح والسعادة للنفس ، بل يجب على المسلم أن يحمل معه مجتمعه

(١) انظر: محمود، عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله (المنصورة: دار الوفاء ، ط ٢، ١٤١١هـ-، ١٩٩٠م)، ج ١، ص ٤٧١.

(٢) الغزالي ، محمد، فقه السيرة، ص ١٤٣.

(٣) انظر: كرزون، أنس أحمد، منهج الإسلام في تركيز النفس وأثره في الدعوة إلى الله (مكة المكرمة: جامعة أم القرى ، ١٤١٥هـ-، ١٩٩٥م)، ص ١٤٧.

ويمد يد العون والمساعدة للمنكوبين والمتساقطين على الطريقة حتى ولو بالكلمة الطيبة؛ وذلك لأن الإسلام يرى أن المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون يشبه جسدا واحدا، ولا بد أن يتداعى العضو للآخر بالسهر والحمى. والناظر في شرائع الإسلام وآدابه ليدرك أن الفرد المسلم جزء لا ينفصم من كيان الأمة، وعضو موصول بجسمه لا ينفك عنها، والأعضاء تأخذ نصيبها بما يتوزع على الجسم كله من غذاء ونمو وشعور.

وتتجلى هذه الخاصة في كل شؤون الحياة حتى في الصلاة التي يؤديها كفريضة عينية شخصية منفصلة، ومن ثم إذا وقف المسلم بين يدي ربه ليناجيه لم تجر العبادة على لسانه كعبد مفصل عن مجموعته وإخوانه، بل يؤديها كطرف من مجموع مرتبط ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).

وهو يسلك نفس النهج حتى في الدعاء؛ فقد يسأل الله من خيره وهدايه فلا يختص لنفسه بالدعاء بل يطلب معه رحمة الله لغيره فيقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) ^(١).

وأساس تأكيد بهذه المسؤولية يرجع إلى الفطرة الإنسانية فهم في مجتمعهم يعيشون جنبا إلى جنب ويحتاج بعضهم بعضا، وفي مجموعهم يؤلفون قوة متماسكة لا يبدو تمامها وإكتمالها إلا بقوة كل الأفراد وسعادتهم، وعلى هذا بمقدار ما تتوفر هذه القوة للأفراد فيعتبر المجتمع قويا وبمقدار ما تتوفر لهم السعادة ويعتبر كل فرد منهم سعيدا. ونظرا لأهمية هذا الجانب فالعصر الحديث للبشرية فطن لهذه الحقيقة وبدأ ينادي شعار التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ولكن المفهوم قصر على تحقيق مطالب المعاييش للفئات المعروفة من الغذاء والكساء والسكن وما أشبهها؛ ولكن الإسلام قد سبق من كل هذه الشعارات وأنشأ لذلك نظاما متكاملا للتكافل الاجتماعي فبعد أن قرر لكل فرد من أفراد المجتمع حقوقه وكرامته، نظر إلى الذين تحول ظروف الحياة بينهم وبين تمتعهم بها، فاعتبر المجتمع هو المسؤول عن تحقيق حالهم.

والفارق الأساسي الذي يميز هذا الجانب عن غيرها أن النظام الإسلامي لا يجعل هذا المطلب قاصرا على المطالب الغذائية والكسائية أو السكنية وما أشبهها، بل يجعله شاملا لكل نواحي الحياة المادية والمعنوية ^(٢).

ونظرا لأهمية هذا الجانب فقد اهتم الرسول ﷺ في تأسيس أول مجتمع إسلامي على هذا الجانب، وبدأ يدعو المسلمين الميسرين إلى بذل مالهم في هذا السبيل، ولا سيما أن المسلمين الأوائل كانوا يواجهون أشد أنواع التنكيل والعناء في سبيل دينهم؛ وعلى هذا فكانت دعوة الرسول ﷺ لحفظ كيان هذه الجماعة المسلمة وعددها وحدة متماسكة تقوم بنيانه على التعاون والأخوة وذلك يقتضي نصر المظلوم وتقوية الضعيف وإعطاء المحروم. وعلى هذا ففي سورة المدثر وهي أول سورة أمر الرسول ﷺ فيها بالبلاغ لنرى قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ۖ ۝٣٨﴾

إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ ۖ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ۖ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۖ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ

(١) انظر: الغزالي، محمد، خلق المسلم، ص ١٨٣.

(٢) انظر: السباعي، مصطفى، التكافل الاجتماعي في الإسلام (بيروت: دار الوراق، ط ١، ١٤٣٠هـ-، ٢٠١٠م)، ص ١٨١-١٨٢.

الْمُسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْفَافِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ

﴿٤٨﴾ (المدثر : ٣٨ – ٤٨).

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه لا يرى مستضعفا يعذب من المؤمنين إلا بذل جهده وماله في سبيل فكاك أسره وإنقاذه مما به ^(١).

ومن هنا فقد أفرد ابن هشام في سيرته عنوان (من أعتقهم أبو بكر مع بلال) فيقول: ثم اعتق بلال ومعه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ب ستة رقاب، بلال سابعهم، عامر بن فهيرة، وأم عبس، وزنيرة، وغيرها، وقد وصل به الحال إلى أن أباه أبو قحافة لام على ابنه أبو بكر وقال له: "يَا بُنَيَّ، إِنِّي أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَابًا ضِعَافًا، فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ أَعْتَقْتَ رَجُلًا جُلْدًا يَمْنَعُونَكَ وَيَقُومُونَ دُونَكَ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَبَتُ، إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مَا أُرِيدُ، لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" ^(٢).

ولقد تنبه الرسول ﷺ لهذا الدعم في المرحلة الأولى وجعله ضروريا في حفظ كيان الأمة الإسلامية حتى أنه لم يغفل عنه في تأسيس دعوته للمجتمع الأنصاري أثناء بيعة العقبة الثانية سنة ١٣ من البعثة حيث أقامت على أساس نصرة المسلمين وحمائيتهم.

ومن تأثيرها يقول الشيخ محمد الغزالي: "ثم إن النبي ﷺ جعل من هذا الإيمان رباطا يعقد من تلقاء نفسه صلة التناصر والحب بين فئات المؤمنين شرقا وغربا. فالمسلم في المدينة – مع أنه لم ير أخاه المستضعف في مكة يحنو عليه، ويغضب من ظالمه ويقا تل دونه...؛ تجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب في ذات الله" ^(٣).

وبالجملة فإحياء روح التكافل الاجتماعي والنصرة والتناصر وحفظ كيان الأمة الإسلامية من مستلزمات الإيمان ومن خصائص دعوة الفترة المكية للرسول ﷺ، وظهرت ثمارها اليا نعة على المجتمع الإسلامي فربط إعضائها كجسد واحد كما حقق الله لهم النصر والتمكين على أعدائهم.

المطلب الثاني: أساسات الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية

الدعوة الإسلامية فريضة إلهية وضعها الله على عاتق المرسلين والدعاة لكي ينير للناس طريقهم ويهديهم إلى ما فيه صلاح دنياهم وآخرهم؛ ولم تكن هذه الفريضة منحصرة لدعوة الخارجين والمعاندين عن الإسلام فحسب بل شمل المعتنقين المؤمنين معهم على السواء، وذلك لأن موضوع الدعوة ومهمتها لن ينتهي بدعوة الخارجين إلووووى البناء العقدي وإصلاح الخلق وغيره من التشريعات، بل يجب على الدعاة أن يدعوا المؤمنين بها إلى

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٩٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٣١٨.

(٣) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٦٠.

جنب ذلك إلى أسس متينة تمسك أصول دينهم ، ويعصمهم من المزالق والتحديات التي يواجهونها في سبيل دعوة الدين الإسلامي الحنيف ؛ وعلى هذا فالاعتصام والتمسك بهذا الدين مطلب أساسي ومهمة صعبة . وهذه الأسس كموضوع دعوي تختلف بطبيعة الحال عن مرحلة إلى مرحلة ، فما كانت في المرحلة المكية من دعوة النبي ﷺ تحز من الأهمية في المرحلة اللاحقة من دعوته في المرحلة المدنية بل تبدلت بأسس جديدة تناسب هذه المرحلة . وقد ركز الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في فقه سيرة الرسول ﷺ على بعض الأسس في المرحلة المكية من دعوته ﷺ ونذكر منها :

أ- الدعوة إلى الثبات والثقة بنصر الله: إن الابتلاء والمحن سنة من سنن الدعوة إلى الله والتي قدرها الله لعباده المخلصين المصلحين من الدعاة وكذلك على من سار على دربهم ونهجهم إلى يوم الدين ؛ وذلك لكي يمحص الله به صف المؤمنين الصابرين وغيرهم من أصحاب دعوات الإيمان والذين ينتمون إليها في حالة الرخاء والسراء ، وعلى هذا فلا بد من التحلى بصفة الثبات والصمود أمام كل هذه الفتن والابتلاءات والتي تعترهم في هذا السبيل . ولم تكن معنى الصمود والثبات مجرد تحمل الأذى والمحن بل توحى إلى معنى ومفهوم شامل في كل الأحوال حيث تعني الاستقامة على الهدى والتمسك بالتقى ، والجام النفس وضبطها على سلوك طريق الخير والحق ، وكذلك عدم الالتفات إلى صوارف الهوى ووساوس الشيطان وطغيان النفس وغيرها . وأما في الدعوة الإسلامية فمعناه الثبات والصمود على طريق الدين والدعوة ومن ثم تحمل ما يحدث من المحن والابتلاءات ، بقوى نفسية ورضا عما تحملها من نتائج وأخطار جسيمة .

والمتتبع في سيرة الرسول ﷺ ليدرك أن زعماء قريش في المرحلة المكية لم يكتف بموقف الصد والمعارضة والتحدى النظرية بل بغاتهم عمدوا إلى إيقاع الأذى على المسلمين واضطهادهم وفتنتهم عن الإسلام إلى الكفر . وقد كان لهذا الاضطهاد والصدود أثارا خطيرة في سير الدعوة في العصر المكي ببرمته ، بل يمكن أن يقال إنه من أهم أحداث هذا العهد وأبعدها أثرا ، ولقد احتوى القرآن آيات فيها صور ومشاهد متعددة لهذا الموقف ونتائجه ، وجملة هذه الآيات دالة على أن هذه المحنة بدأت منذ الفترات الأولى للدعوة النبوية واستمرت طوال المرحلة المكية ، وقد بقي بعض مظاهرها على ضعفاء المسلمين المستبقيين في مكة ولم يهاجروا إلى السنة الثامنة من الهجرة النبوية حتى فتحها . وقد كانت أهم نتائج هذه المحنة الهجرة الأولى والثانية للمسلمين إلى الحبشة والثالثة مع الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة وقبلها ذهابه ﷺ إلى الطائف لنصرة ثقيف^(١) .

والثبات في الطريق سبب لتحقيق الأهداف العظيمة وسلم وصوله وغاية نبيلة حث عليه إمام الدعاة والمرسلين ، ولقد كان ﷺ مع رفعة مكانته دوما ما يدعو على الثبات ، فعن أنس بن مالك قال : (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ :

(١) انظر: دروزة، محمد عزة، سيرة الرسول ﷺ- صور مقتبسة من القرآن الكريم (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ب ت ط)، ج ١، ص ٢٥٨-٢٥٩.

- اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، فَقَالَ: إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ يَقْلِبُهَا^(١).

وعنه يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: إنما كان ذلك أكثر دعائه لإطلاعه على عظيم صنع الله في عجائب القلب، وتقلبه فإنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء وتأثر أصابه من جانب آخر ما يضائيه فيغير وصفه، وعجيب صنع الله في تقلبه لا يهتدي إليه إلا المراقبون بقلوبهم والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى^(٢). ونظرا للأهمية القصوى بهذه القضية في الدين والدعوة فإنها تعود على صاحبها، والدعوة من الثمار الياقة وتعد كذلك دليل على سلامة المنهج كما أنها ضريبة النصر والتمكين والطريق الموصولة إلى المجد والرفعة وعنهما يقول الشيخ محمد الغزالي في فقه سيرة ﷺ: "أما السابقون الأولون من المؤمنين فقد علموا أن ضياع المنافع وهلاك المصالح الخاصة أو ما يلحقون من تضحية في سبيل عقيدتهم. ولا أحسب شيئا يهذب ويربي النفوس على التجرد بمثل هذا التفاني في الحق، وللحق ذاته؛ ثم إن القرآن موقفا صارما في قمع المتجارة بالعقائد، والاثراء على حسابها والعلو في الأرض باسمها: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾^(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾" (هود: ١٥-١٦).

وفي أيام الشعب (محنة شعب أبي طالب) كان المسلمون يلحقون غيرهم في موسم الحج ولم تشغلهم يوما آلامهم عن تبليغ ورسالة الدعوة وعرضها على كل وفد؛ فإن الاضطهاد والمحن لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقا وفروعها امتدادا^(٣).

والجزء الثاني المكمل الذي يدعم عنصر الثبات والصمود للدعاة هو الثقة بنصر الله واليقين بأن المستقبل لهذا الدين، فالدعاة ومدعوهم هم البشر ويطرأ عليهم الوهن والضعف وغالبا إذا تأخر النصر والفرج فإنهم تزل أقدامهم وتهن عزائمهم، وما هي الثقة بنصر الله إلا سبب لعلو همتهم وثباتهم وتخفيف آلامهم التي يعانونها؛ وعلى هذا فيجب على قائد الميسرة أن ترسخ هذه الصفة في قلوب أتباعه كما يجب أن يأخذ الدعاة كموضوع ومآل في دعوتهم بأنهم يستنصرون عاجلا وآجلا.

يرى الشيخ محمد الغزالي في عرض فقه السيرة النبوية أن الرسول ﷺ وصحابته الأوفياء كانوا واثقين بنصر الله وبمشوبة من الله خير، وعلى هذا عملوا واجتهدوا حتى نالوا مبتغاهم، وحسب الرسول ﷺ أن قدم هذا الخير الجزيل ومن ثم درب أصحابه أن ساقته العناية لهم، فإذا أودوا في الله فليحتسبوا من الله وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان

(١) سنن ابن ماجه، كتاب: الدعاء، باب: دعاء الرسول ﷺ، رقم الحديث: ٣٨٣٤. قال الألباني: هذا حديث صحيح.

(٢) انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة، ب ت ط)، ج ٣، ص ٤٦.

(٣) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٢٦.

والطغاة فليزمو ما عرفوا، والحرب القائمة بين الإيمان والكفر سينجلي ويزيح غبارها يوما ما ثم تنكشف عن شهداء وهلكي، وكذلك عن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين يأذن الله^(١).

ثم يردف في وصف الرسول الداعي ومهمته فيقول: "وكان رسول ﷺ يث عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام وانتشار مبادئه وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب"^(٢).

وقد وصلت هذه الثقة إلى أعلى مراتبه حتى كاد اليقين، واتخذ في المقابل أعدائه مادة لسخريتهم وضحكهم، فقد نقل الإمام البيهقي في كتابه دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة عن البلاذري: أن الأسود بن المطلب من كبار سناديد قریش والمبالغين في استهزاء الرسول ﷺ كان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه يقولون: (قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر ثم يمكّون ويصفرون)^(٣).

والثقة بنصر الله ودينه ليست مجرد فكرة نظرية عاطفية فحسب بل هي مدلول قرآني نطق به كتاب ربنا في مواضع عديدة وأن من يتدبر معانيه الجليلة والدقيقة ليدرك أن الله سيعز دينه، وقد استشهد الشيخ محمد الغزالي بقول الله عز وجل لعيسى ابن مريم: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥).

و المراد من الآية الكريمة هي الأمة المسلمة والذين يعتقدون ببشرية عيسى بن مريم عليه السلام وليست المسيحية المزيفة المنحرفة، وقد يستدل على الآية بسياق قبله حيث قال الله تعالى: ﴿وَجِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ (آل عمران: ٥٠ — ٥١).

وبناء على ذلك فالإيمان بالله وحده وبأن عيسى المسيح رسوله هو وضعنا نحن المسلمين وهكذا الآيات كثيرة في أن الله مظهر الإسلام على كل الأديان، لكن الأمر خاضع لقوانين محكمة ثابتة يجب أن يحترمها ويلتزمها المسلمون قبل غيرهم، وبهذا فإن الحق لا ينتصر إلا بأفراد أيقاظ ساهرين مضحين لأجله، ولا ينتصر إلا بعد عراك مرير ومؤلم مع مبادئ وملل أخرى خدع لسحرها واستماتوا لنصرتها^(٤).

وبالجملة فالثبات والثقة بنصر الله جزآن متممان للدعوة الإسلامية يجب الإيمان والتحلي بهما، وهما بذلك خير معنيين لمواصلة المسيرة ودليل على موضوع سلامة هذا المنهج الرباني، وإن ثمارها ولذتها وإن كانت مؤجلة إلا أنها باقية ولذتها في الشعور بتوفيق الله والآمل في إرضاه، وقد سلك النبي ﷺ في دعوته المنهج السليم وبالتالي أكسب لأصحابه الطموح والمعالي.

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١١٣.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١١٠.

(٣) أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، (بيروت: دار إحياء الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ)، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٤) انظر: الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية في القرن الحالي (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، ص ١٧٧.

٢- **مكانة الدعاء واليقين في الأهوال:** الدعاء واليقين بها من أهم الموضوعات التي تتعلق بمصير الدعوة الإسلامية وهي تعد بمثابة قلعة حصينة يأوي إليها الدعاة من تخفيف الأهوال والنوائب التي يواجهونها، كما أنها خير زاد توصل بهم إلى مسيرهم مشاق السير وصعوبتها، والدعاء من أهم أسباب نجاح الداعية في دعوتها؛ فيلجأ إلى الله بالدعاء في كل وقته فيسأل منه التوفيق والسداد، ويكثر منه في وقت الشدة والرخاء وهذا ما غفل عنه الدعاة المعاصرون وأهميته في هذا المجال يعود إلى أسباب عديدة.

١- أن هداية الناس وترشيدهم بيد الله تعالى لأنه مالك القلوب ومصرفها لذا على الداعية أن لا يغفل عنها ويدعوا بها لاستجابة دعوتها وصلاح الناس.

٢- الدعاء سنة ومنهج الأنبياء عليهم السلام في الدعوة، فهذا سيدنا إبراهيم يدعو لأهله المستقبلين حين اقتطانه أرض مكة الجذباء بالدعوة الصالحة حيث قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

٣- الدعاء عبادة إلهية أمر الله به رسوله لتكون مساعدة في مهمته وغفرانا له ولأمة حيث يقول تعالى: ﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (محمد: ١٩)^(١).

٤- المتعب في سيرة خير البرية ﷺ ليدرك أنه كان يستعين في كل مراحل دعوته من الدعاء وكان يجعلها زادا دعويا يقوى بها على الصعاب والأعباء المتتالية، فقد كان ﷺ بشرا يعيه التعب والمشاق، وكان يصيبه الرهق ولهذا كان يستعين على الدعوات، وعن هذا يقول الشيخ محمد الغزالي: "لا ريب أنه ﷺ خاتم الأنبياء المرسلين وقد آتاه الله بسطة في العلم والجسم لتكون سندا وعونا على أضخم رسالة حملها إلى البشر، لكنه سبغ النهار في العبادة وسهر الليل في القيام والتلاوة ومن ثم الكدح والجهد المستمر، وحمل مع ذلك آلام الخلق والعباد؛ وقد كان إطراد هذه المعاناة ربع قرن وهي تزيد ولا يخف مع خفيف من الطعام والشراب؛ وهذا كله أتعب الجسم وأرهقه، وكان يتحمل مع هذا الإقلال أعباء الغزوات والمعارك التي قضت الوثنية، ومن ثم أعياء التربة التي أطلعت من الجزيرة الجذباء رجالا أثار العالمين. ولكن الإمدادات الروحية النازلة من السماء هي من وراء هذه الأعصاب الحديدية ... دعاؤه لله وذكره وتفويضه لله"^(٢).

ولم يكن الدعاء والالتجاء إلى الله مجرد عون على المشاق بل كانت هوية وشوقا نبويا لمناجاة الله عز وجل، وكان يعلم أنها أحب الأحوال عند الله، فقد كان يطلب فيه الأحب والغالي، وقد كان ﷺ يستعين بها في طلب الهداية

(١) انظر: العيد، سليمان بن قاسم، الدعاء وأهميته في الدعوة إلى الله في ضوء القرآن والسنة (الرياض: جامعة الملك سعود، ط ١، ١٤٢٤هـ)، ص ٣٧.

(٢) الغزالي، محمد، فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء (بيروت: دار الشروق، ط ١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، ص ٧٧-٧٨.

والمغفرة لأحب الناس عنده أو من كان يرجى في الخير لدعوته، وقد دعا بعز الإسلام بعمر رضي الله عنه أو بأبي جهل فاستجيب له في عمر^(١).

وكان من دأب النبي ﷺ فيها أنه كان يطلب من الله فيها التوفيق والسداد، وقد علم أمته كذلك أن الأعمال والجهود الإنسانية التي يتوصلها الشخص لمرضاة ربه مهما كبر وعظم، فإنها لن يوفي حق الله بها ولن يستطيع أن يثنى الله بها حق الثناء؛ ولذلك حرى على المسلم أن يبتهل ويعترف بتقصيره وهفواته، ويلج على الله أن يقبله رغم التقصير، فهذا رسول الله ﷺ يرفع يديه يوم الطائف مالا قاه من ثقيف يدعوا من التوفيق والسداد والقبول رغم التقصير قائلا: (اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلْنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)^(٢).

وقد اختار ﷺ موقفا مماثلا في موقف حرج مثله وذلك حين اضطر إلى الهجرة على هذا النحو، وقد أعلن سادتها عن الجوائز المغرية لاغتياله، وقد كان ﷺ أرسخ أهل الأرض يقينا وإيمانا بأن الله حافظه وناصره وأنه مظهر لدينه، غير أنه تحسر للفظاظلة التي قبل بها، وللعناء الذي لاحقه من بدء رسالته، وفي الموقف يرفع يديه والذي اشتمل الدعاء على إظهار الضعف، طلب التوفيق والسداد، القبول من الله، إظهار التقصير ويقين الاستجابة^(٣).

وكان هذا الدعاء على هذا النحو: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَلَمْ أَكْ شَيْئًا، اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى هَوْلِ الدُّنْيَا، وَبَوَائِقِ الدَّهْرِ، وَمَصَائِبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ. اللَّهُمَّ أَصْحَبْنِي فِي سَفَرِي، وَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي، وَلَكَ فَذَلِّلْنِي، وَعَلَى صَالِحِ خَلْقِي فَقَوِّمْنِي، وَإِلَيْكَ رَبِّ فَحَبِّبْنِي، وَإِلَى النَّاسِ فَلَا تَكِلْنِي. رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَكُشِفَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، أَنْ تَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبَكَ، أَوْ تَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَفَجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ. لَكَ الْعُتْبَى عِنْدِي خَيْرٌ مَا اسْتَطَعْتُ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)^(٤).

وصفوة القول فإن الدعاء مع رفعة مكانتها العبادية احتلت وسيلة وزادا دعويا في دعوة النبي ﷺ، وقد كان يحث أمته عليها كموضوع دعوة إلهية كي يستعين به المدعوين على الشدائد والمصائب، ويطلب فيها التوفيق والسداد، كما يظهر فيها التقصير والعجز لله رب العالمين صاحب الحول والقوة.

(١) عياض، ابن موسى بن عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، (عمان: دار الفحاء، ١٤٠٧هـ)، ج ١، ص ٢٨٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٤٢٠.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٧٧.

(٤) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م)، ج ١، ص ١١٤.

المبحث الثالث: فقه موضوعات الدعوة عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في العصر المكي

العهد المكي في سيرة الرسول ﷺ بداية رسالة وتنشئة أمة فريدة من نوعها من حيث المقصد والتنوع، ودعوة تربط بين رسالات الأنبياء إلى جنب اتسامها بالشمول والكمال بغية الختام إلى يوم الدين، وقد جاءت هذه المرحلة بعد ما انهارت الحضارات إلى الدرك الأسفل من الانحطاط؛ وفجأة أخذ سيد المرسلين ﷺ زمامها لكي ينفذ البشرية ويدرك ما فاتهم وينالوا الرفعة والمجد، ولقد تناول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي فقه السيرة النبوية ليست بمجرد ذكر وسرد الحوادث بل أخذه باعتبار الحقيقة الإسلامية الكاملة والمتجسدة في حياة الرسول ﷺ وذلك لكي يكون للمسلمين قدوة ومثلاً أعلى في أمور الدين والحياة. وقد اشتمل فهمه عن السيرة النبوية بمادة غزيرة حيث تعد منهجاً في فقه الدعوة إلى الله عز وجل؛ ويحسن أن نتطرق إلى موضوعات هذه المرحلة الدعوية ومحاورها الأساسية.

المطلب الأول: منطلقات الدعوة في هذه المرحلة

هذه المرحلة كما أشرت إليها كانت مرحلة جديدة في الدعوة؛ فكانت غريبة على العقول والأسماع نتيجة انخراط العقول على الزيغ والضلال القديم؛ وبالتالي ركز النبي ﷺ على تطهير القلوب والعقول فيمن رجسها ومن ثم غرس المفاهيم السليمة إلى جنب حماية تلك القيم، وأهم هذه المنطلقات كالآتي:

أ- محاربة التقاليد السائدة للوثنية: عقيدة التوحيد الصافية جوهر للديانات السماوية، فما من نبي إلا وقد دعا قومه أن لا إله إلا الله وإياه فاعبدون، وعلى هذا فالتوحيد هو أساس التكليف وعليه مدار الإسلام؛ ولكن هذه العقيدة رغم بدايتها والدعوة المستمرة غاب عن الناس وسلخوا مسالك خاطئة جرت بهم إلى الزيغ والضلال. والدكتور بوطي في مستهل فقه السيرة عمد إلى فحص جذور هذه الكارثة فوجدها أن الأمم انخرطوا نتيجة متابعة التقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد، وبالتالي الشيطان والتعصب والهوى حثهم على متابعتها فأبعدوهم عن الصواب والحق.

وفي هذا يقول الدكتور البوطي: "فلما عاب آلهم ودينهم، وسفه عقولهم وأحلامهم وجر اعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأوثان أنها تقاليد آبائهم وأجدادهم الأولين إلى وصف أولئك بعدم العقل، أعظموا أولئك الأمر ناكرين وأجمعوا على خلافه وعدوانه، إلا من عصم الله منهم بالإسلام وإلا عمه أبا طالب الذي زود دونه"^(١).

لقد عاب النبي ﷺ حالة قومه وحث أمته على إقلاع جذور هذه الجرثومة في التقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد حيث تحيل تفكيرهم في مدى صلاحهم وفسادهم ودعا إلى تحرير العقول والفكر من أسر اتباع التقليد الأعمى والعصبية المبعدة على أساس الفكرة والمنطق. والمنطلق الأساسي الذي يعيب الإسلام التقليد ويذمه كونه اتباع واقتداء دون أن يكون فيه لعنصر البحث والتفكير أي تأثير وهي بالتالي محاكاة واتباع عاطفي وبمثابة حشائش

(١) البوطي، فقه السيرة، ص ٨٨.

ضارة تعوق سبيل التفكير السليم، ولهذا يعرفه البوطي نقلا عن علماء الإجماع أنه: "مجموع العادات المورثة التي ينقلها الآباء عن الأجداد و تسرى بعامل الاحتكاك في بيئة من البيئات أو مكان من الأماكن شريطة أن يكون عامل التقليد المجرد هو العصب الرئيسي الذي يمتد في تلك العادات من أجل البقاء والحياة"^(١).

ويعرفه الجرجاني في التعريفات: "التقليد عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقدا للحقيقة من غير نظر وتأمل في الدليل كأنه هذا المتبع، جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه، أو هي عبارة عن قبول الغير بلا حجة ولادليل"^(٢).

وأفة الحضارات والمجتمعات البشرية هي أن التقاليد السائدة المورثة من الآباء والأجداد لم تتحدد في نمط مظاهر اللهو في الأفراح ولا في أشكال الحداد في المآسي والأحزان، بل رفع إلى مستوى دين وعقيدة حاکمة على مختلف النظم والأحكام، وقد كان هذا هو العائق لسماع الحق واتباعه. لقد حكى القرآن الكريم عن حال قريش ومما نعتهم عن اتباع الحق قائلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٤).

وبناء على ذلك لقد أعلن الدين حربا على التقاليد والدخول في أسرها، وأطلق بدله للعقل والمنطق عنانه حتى يكون الإنسان في بصيرة من أمره ويهتدي بنور عقله إلى ما فيه صلاحه العاجل والآجل، ومن هنا فكان من أهم شروط صحة الإيمان بالله وغيره من العقائد أن يكون على أساس من اليقين والفكر الحر، وقد أوضع منهجا علميا صحيحا تميزها عن مسالك باقي الأديان.

وعن أهميته يقول الدكتور البوطي: "ويتمثل هذه المدافعة في آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦).

وقوله تعالى وهو ينعى على أقوام غالوا بقولهم حتى وقعوا في مستنقع الظنون والأوهام التي من شأنها أن يستدل على الحقائق المعوجة حيث قال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس: ٣٦).

وبناء عليه فالإسلام جعل طريق الدين ما يشبه العقل الصافي من الدلائل اليقينية التي من شأنها أن تكشف من حقيقة المطلوب"^(٣).

ويضرب البوطي في صدق مدعاه مثالا عمليا من مظاهر هذا الضابط فيقول: وهذا هو السر أن القرآن الكريم لم يفصل البيان في القوانين العملية المتعلقة بالأمور المحسوسة والمشاهدة، وذلك حتى لا يكون فيها حملا للعقول

(١) المصدر السابق، ص ٩٠.

(٢) الجرجاني، كتاب التعريفات، ص ٥٨.

(٣) البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية (دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٩٩٧)، ص ٣٢.

البشرية على تبني الحقائق والقضايا العلمية دون الطلب والسلوك إليها في سبيل براهينها المتسقة من التجربة والمشاهدة؛ وهذا ما لا يحمل القرآن أحدا من الناس عليه تكريما للعقل وليسير في المنهج الطبيعي إلى كشف الحقائق الملموسة^(١).

والنتيجة اللازمة من هذا كله أن جميع ما أتى به الإسلام من عقيدة ونظم وتشريعات تقوم على أساس ومبدأ التفكير والعقل، وربما قد تحذوا العقول الإنسانية إلى مبادئ لا تكون صحيحة لشذوذ أفكار أصحابها إلا أن تعليمات الإسلام لا تخرج أبدا عن الصواب والمعقولات وذلك لأن صاحبها وواضعها هو خالق العقول والأفكار وكل فعله فيه حكمة وبصيرة.

ولم يكن ذم التقاليد منحصرة عند البوطي على المجتمعات الجاهلية قبل الإسلام بل خطرنا مضمرة وأكبر على المجتمعات الإسلامية، فالذين يرفعون شعارات التقاليد الإسلامية يسيئون للإسلام رغم محبتهم له، وبالتالي يساعدون أعداء الإسلام عاجلا أو آجلا لكي يحاربوا الإسلام ويرموه بالتهم كلما تيسر لهم.

ولقد تصدى الدكتور بوطي في مقدمة كتابه فقه السيرة لبعض تلك الهجمات من أهمها هجمة المستشرق (جيب)^(٢) في كتابه (بنية الفكر الديني في الإسلام) وذلك تحت عنوان "محمد والقرآن" وقد ذهب القول: بأن محمد ﷺ لم يستطع القضاء على معظم ما كان معروفا عند العرب من التقاليد والطقوس الغيبية بل أسبغ كل ذلك بثوب الديانة، وهكذا جل ما فعله الرجل أنه أضاف إلى مجموعة العقائد الغيبية رقابة عليها قوامها شخصية الإله (الله) وظل العرب يستمرون في إيمان المغيبات من الجن، والسحر، والملائكة كما عدل بعض الطقوس في طواف الكعبة ونحوه باسم الشعائر الدينية^(٣).

وقد رد البوطي على هذا الزعم الباطل وذلك من خلال دلائل نبوة محمد ﷺ والذي أيده الله بظاهرة الوحي ومعجزة القرآن، وكذلك ظاهرة التطابق بين دعوته والأنبياء والمرسلين السابقين، وهكذا التاريخ المشرق لبناء الكعبة والعبادة حولها وصلت حد التواتر، وتعاقب الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد والمغيبات فيما جاءوا بهم من الله، وقد صدقه التاريخ ولذلك لا يمكن أن نسميها (بقايا عهد إبراهيم).

وقد ذهب البوطي في ختام تنفيذ تلك الهجمة قائلا: "ولارب أننا لا نسوق عملا مثل هذا الفكر المحرف للمناقشة والنظر، فمن العبث مناقشة لغو فاضح مثله، ولكننا نهدف أن يدرك القاريء مدى بطلان ما تفعله العصبية العمياء

(١) انظر: المصدر السابق، ص ٣٨.

(٢) السير هاملتون أ. ر جيب: مستشرق انجليزي معاصر، عمل كاستاذ في جامعة اكسفورد منذ عام ١٩٣٧م، وأستاذ في جامعة هارفارد الأمريكية، وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة، وأحد محرري الموسوعة الإسلامية في طبعها الأولى. ولد في القاهرة، وأقام فيها فترة من الوقت؛ فتأثر بالجو الإسلامي وانجبل على السمة الشرقية، وكان في عام ١٩٤٢م من الداعين إلى الوحدة العربية. انظر: مقدمة بنية الفكر الديني في الإسلام، ص ٥٣.

(٣) انظر: جيب، بنية الفكر الديني في الإسلام، تعريب: عادل العوا (دمشق: جامعة دمشق، ط ١، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م)، ص ٨٠.

بصاحبها، كما تريد أن يقف على حقيقة ما يدعيه بعض الناس من منهجية البحث والموضوع لدى علماء الغرب، وهكذا ما يفعله التقليد المعوج الأعمى بالمسلمين أنفسهم^(١).

وبالجملة فالتقاليد العمياء هي الآفة التي ابتليت بها البشرية ومن ثم جعلوها تبريرا لغيهم وضلالهم، وما هي إلا غشاوة لسد الحق المبين؛ وقد حاربه الإسلام بكل أنواعه سواء كان لاتباع الآباء والأجداد أو للتاريخ والقبيلة أو ما كان مؤثرا من البيئة ونحوه، وفي مقابل ذلك عرف المنهج الإسلامي باثبات العقائد والأحكام على أنه معقول المعنى، وما على الإنسان أن يمعن نظره ويستعمل منطقته بغية الوصول إلى الحقيقة.

٢- تلقين فن الصبر: الصبر والمصابرة من أهم الدعائم التي قامت عليها الدعوة الإسلامية وذلك لأنها طريقة عسيرة والسير عليها يتطلب مشقة ومحنة بالغة، ونرى في كثير من الأحيان متساقطين على الطريق حيث عجزوا عن مواصلة السير لوعرها وصعوبتها، وذلك لأنها طريقة اتسمت بالخوض في المشاق والنضال لأجل الحق وتغيير المنكر، وعلى الغالب تقف الخصوم لمواجهتها وردعها؛ وما على الدعاة إلا أن يثبتوا أو يأخذوا من الصبر زادا لمواصلة مسيرهم حتى يأتيهم الفرج وينالوا من دونهم.

وقد يتساءل كثير من الناس، ويشير عدد من المستشرقين اعتراضا على مدى حقيقة الدعوة الإسلامية متسائلا فيم هذا العذاب والمحنة الذي لقيه الرسول وصحابته وهم على الحق؟ ولماذا لم يعصم الله نبيه وأصحابه في دعوة دينه وجهاده في سبيله وهو القادر على ذلك؟.

وقد بنى الدكتور البوطي هذه الإثارات بمقدمات وخطوات علمية مجملها كالآتي:

أ- الإنسان وجد في هذه المعمورة على وصف التكليف .

ب - الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله من أهم موضوعات ومظاهر هذا التكليف .

ج - التكليف من مستلزمات العبودية لله تعالى ولا يتحقق هذا المعنى إلا به .

د- يستلزم معنى التكليف تحمل المشاق ومجاهدة النفس وهواها، وبمعنى آخر: إنه واجب عباد الله في الدنيا أمران:

١- التمسك بدين الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي الصحيح .

٢- سلوك طريق الإسلام واقتحام مخاطر تقديم الغالي والنفيس .

وهكذا فالإنسان بمجموعه أمام قانون مزيج من الرخاء والشدة، وقد يبتليه الله تارة بالنعم فينظر هل يشكر على هذا الرخاء، وتارة يمتحنه بالبلاء وينظر هل يصبر ويعلم رضا لرضى الله أم يسخط، وهذه السنة الربانية ماضية في الناس منذ بزوع فجر الإنسانية وباقية بقضاء الله إلى يوم القيامة^(٢).

(١) البوطي، فقه السيرة، ص ٥٧-٥٨.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٩٣. وكذلك، من سنن الله في عبادته، للمؤلف نفسه (دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٩٩٧ ب ت ط)، ص ٣٢.

والملفت للنظر في تاريخ الأنبياء والرسل والدعاة قاطبة ليرى أن ما يلاقيه الدعاة إلى الله تعالى ، والمجاهدون في سبيله سنة إلهية ثابتة وذلك لحكمة بالغة حتى يظهر صدق الصادقين ومدى إخلاصهم وكذب المدعين بأفواههم .

والفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميزه الله به الصادقين والكاذبين ، وصدق الله القائل حيث يقول: ﴿ أَحْسِبْ

النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ

﴿ العنكبوت: ٢-٣ ﴾ .

ومن أعظم الحكم في الابتلاءات والمحن والمصابرة عليها أيضا أن كل ذلك ينبيء باقتراب الوصول إلى الغاية والمقصود ، ودليل على الفرج ، وبهذا النصر والفرج مرهون بمقدار ما يبذله الدعاة من التضحية أو ما يجدون في

طريقه من العذاب وما يسقط منهم من الشهداء ، وإلى هذا المطلب يشير تعالى في قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا

الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ

اللَّهِ ؕ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۚ ﴾ (البقرة: ٢١٤) .

وقد نبه النبي ﷺ خباب بن الأرت حين جاءه وأعياه العذاب مستدعيا نصر الله من رسوله فقال له : (كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ

قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَثْنَيْنِ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ،

وَيَمْشِطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ ، حَتَّى

يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ ، أَوِ الذُّبَابَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) ^(١) .

فهذا الهدى النبوي تنبئ على إشارة النصر ، وأن الله سيفتح على عباده المؤمنين بلاد الفارس والروم ولكن لم يتيسر

هذه الفتوح إلا بعد وفاة النبي ﷺ بزمن غير يسير ، مع أنه كان صاحب فضل عند ربه وحظى بأعظم درجة عند الله ؛

ولكن القضية أصلا ارتبطت بالسنة الإلهية وهي أن المسلمين لم يدفعوا في حياته الشريفة ثمن الانتصار بل اكتملت

بعد وفاته ﷺ ، وأن السنن في الدنيا تعمم للبشرية على السواء ، وهذا هو الملاحظة في نصر الكفار على المسلمين

في بعض الأحيان .

والمتتبع في المرحلة المكية من الدعوة ليدرك أن الرسول الأعظم ﷺ يدرّب أمتة على مختلف ألوان المحنة وذلك

لكي يأخذوا الصبر والمصابرة و سائر التشريعات ، وهكذا حياته وسيرته العلمية نموذج فيما لاقاه من قومه وغيره

من الناس ؛ وما هي إلا صورة عملية للتلقين فن الصبر .

لقد ذهب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في العبر والعظات من سفر النبي ﷺ إلى الطائف حيث كان أشد

الأيام عليه بصراحته ﷺ ، حتى من يوم أحد فيقول: فكما أنه أرسل لتبليغ العقيدة الصحيحة عن الكون وخالفه ،

(١) صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: ٣٦١٢ .

والأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات والأخلاق كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم ربهم من واجب الصبر وكيفية تطبيق الصبر والمصابرة، والذين أمر بهما في هديه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَٰبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وهكذا علمنا الرسول ﷺ القيام بالعبادات بالوسيلة العملية فقال: (وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) ^(١)، وكقوله في الحج: (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ) ^(٢)؛ وبناء على هذا المبدأ نفسه تحمل أقصى أنواع المحن في سبيل الدعوة ليقول بلسان حاله لكافة الدعاة من بعده: (اصبروا كما رأيتموني أصبر)، ووضح لهم أن مصارعة الشدائد والصبر من أهم مبادئ وأصول الإسلام التي بعث بها إلى الناس كافة ^(٣).

وصفوة القول: أن الصبر ليس مجرد خلق أو فضيلة يطالب بها المسلم بل هو أساس دعوى تربط بعنصر الإيمان والعمل الصالح، وهو موضوع دعوة أمر به النبي ﷺ أصحابه، ومن بعده أمته في أقواله وأفعاله، وعلى هذا اقترن في أكثر الأحوال مع الأوامر لأنه يحدد النتيجة والمصير كما هو سلم الفرج والنصر على الأعداء والمحن.

٣- الدعوة إلى التمسك والحفاظ على الدين: لقد خلق الله الإنسان على فطرة متميزة بين الخلائق وجعله مزيجاً من الروح والمادة؛ ثم جعل لكل جانب منه متطلباته ومستلزماته، ولكن جانب الروح وإن كان بحاجة إلى الجسم إلا أنه يحتل النصيب الأكبر في وجوده، وعلى هذا فالدين والعقيدة من أهم متطلبات الجانب الروحي، ولأجله خلق الإنسان في هذه المعمورة كي يدين بدين الإسلام ويعتق عقيدة التوحيد الصافية وينكر عبادة ما سوى الله عز وجل.

والأنبياء قد أرسلوا لتبليغ الدين وتوجيهه كي يقوموا للناس حياتهم ويسعدهم في الحياة الدنيوية والأخروية، وبناء على ذلك فالدين والعقيدة من أهم ثروات الإنسان الذي يجب أن يأمنه ويقدم الثمن الغالي في محافظته والدفاع عنه، ويرد كذلك كل الاغراءات والأهواء والوساوس التي تحول أمامه، ويقتحم المخاطر في الزود عنه.

ويرى علماء المقاصد أن حفظ الدين أصل ثابت في الشريعة وعليه مدار الإسلام، ولا يمكن للشريعة أن تغفل وتهمل عنه لحظة، وذلك لأن في ضياعه فوات المقاصد الأخرى، ويتسبب لخراب الدنيا بأسرها، ويضطرب أنظمة الحياة البشرية السائدة بينهم فيسلط القوي على الضعيف والغني على الفقير.

وقد شبه الله عز وجل من فقدوا الدين الحق والذين لم يستنبروا بنوره وبصيرته بحال الموتى الذين يفقدون الإحساس والعقل والتميز، وبالتالي لا يرجى منهم نفع ولا يستجيبون للمضطر كما قال تعالى: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، رقم الحديث: ٦٣١.

(٢) مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ب ت ط)، كتاب: الحج، باب استحباب رمي جمره العقبة يوم النحر راكباً، رقم الحديث: ٥١.

(٣) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١١٧.

فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ (الأنعام: ٢٢).

ففي هذه الآية الكريمة شبه الله حال الإنسان قبل إيمانه بالميت والكفر بالظلمات المتخبطة بعضها على بعض فوقها حيث يعوق بصيرتهم ورؤيتهم للمسيرة^(١).

والناظر في سيرة الرسول ﷺ ليدرك أن جل مراحل دعوته كانت تربية الناس على الدين وإنشاء أمة دينية ومن ثم ترسيخ مفهوم المحافظة عليه، وجعلهم يتهيأون لأن يقدموا النفيس والغالي لأجل الدين ولا يساوم في سبيله معه أي شيء. وفي المرحلة المكية من دعوته ﷺ قد لاقى هو ومن معه ما لاقى، وضحى بعض أصحابه حياتهم لأجله وترك فئة منهم بأمر النبي ﷺ دارهم ووطنهم وأموالهم للحفاظ على الدين، وعلى هذا فقد شرعت الهجرة حيث كانت الأولى منها في السنة الخامسة للبعثة النبوية؛ ولم تكن هذه الفريضة وسيلة للحفاظ على الحياة فحسب بل حملت في طياتها مفهوما عظيما كما يصطلح له الدكتور البوطي (إنما يكون الوطن والأرض سياجا لحفظ العقيدة والعكس خطأ كبير).

وأما عن أهمية الحفاظ على هذا الأساس فيقول الدكتور بوطي رحمه الله: إن الدين والاستمسك به أساس ومصدر كل القوات، وهو سياج لحفظ كل حقوق الإنسان من مال وأرض، وحرية وكرامة، ومن هذا المنطلق يلزم على دعاة الحق والمجاهدين أن يبذلوا كل قواتهم ووسائلهم لحفظ العقيدة والدين، وأن يضحي في سبيله النفيس والغالي حتى وإن يطلب منهم الأرض والمال والحياة. وهكذا إذا فقد الدين فلن ينفع من ورائه الوطن والمال والأرض، وبإثره سيذهب كل ذلك تبعا معه، أما بالمقابل فإن الأمة لو حافظت على دينها وتعت من ثروتها ووطنها وأرضها في سبيله فإنه سرعان ما يعيد قوتهم ويستحوذون على وطنهم وأراضيهم المغصوبة ويعاد إليهم قوتهم معززة مضاعفة.

وقد يعود دليل هذا الأمر في سنة الله الجارية في كونه حيث جعل القوة المعنوية هي الحفاضة للمكاسب والقوى المادية، وعلى هذا فمهما كانت الأمة أرسخ في عقيدتها وغنية في خلقها ومبادئها الاجتماعية فإن سلطانها المادية يغدو أكثر تماسكا وأرسخ بقاء، وبالعكس لو كانت فقيرة في الجانب الأول فيكون أحوالها تائهة مضطربة ويواجه الاضمحلال والزوال... وهذا ما أثبتته صفحات التاريخ^(٢).

(١) انظر: البوي، محمد سعد بن أحمد، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (الرياض: دار ابن الجوزي، ط ٦، ١٤٣٦هـ)، ص ٣٢.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١١٧.

وأما في قضية مشروعية الهجرة كما مر فلم تكن هروبا من الأذى وطلب الراحة بل هو في الأصل ضرب من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين ، وقد ذهب القاضي أبو بكر ابن العربي^(١) بإيضاح مفهومه حيث يقول في بيان كلمة (وهاجروا) أنه : "هُمُ الَّذِينَ تَرَكُوا أَوْطَانَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِيثَارًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي إِعْلَاءِ دِينِهِ ، وَإِظْهَارِ كَلِمَتِهِ ، وَلُزُومِ طَاعَتِهِ ، وَعُمُومِ دَعْوَتِهِ"^(٢).

ومن هنا يقول الفقهاء إن نوعا من أنواع الهجرة هو خروج المسلم من دار الحرب إلى دار السلام باقية مفروضة إلى يوم القيامة وهي في حالة إذا كان المسلم يعجز عن ممارسة أداء الشائعات الدينية ولم يتمكن الفعل منه ، فيجب عليه حينئذ أن يخرج بالحفاظ على الدين وإذا بقي فيها فقد عصى الله^(٣).

وبالجملة فالحفاظ بالدين والتمسك على العقيدة مطلب أساسي في الدعوة النبوية ، وكان الهدف منه أن يأخذ المسلم بواجبه ويستشعر بمسؤوليته ويجعل هذا الجانب فوق كل حاجاته ، وذلك لأن الدين هو الأساس الذي يقوم عليه صلاح الدنيا والآخرة فإن استقام فقد قام الأمر كله ولوهدمت فلن تقوم للأوامر بعده قائمة.

المطلب الثاني: السمات الدعوية في هذه المرحلة

إن البحث في السمات الدعوية وإن كانت تتعلق بالخصائص الدعوية إلا أنها ترتبط بنوع ما بموضوعاتها وهي على ذلك سبيل في معرفة كثيرة من الموضوعات الدعوية ؛ ففقيه الدعوة يمكن أن يتخذ من البحث في الخصائص والسمات الدعوية منطلقا وأساسا في مهمته . و بناء على هذا فالدعوة الإسلامية قد حظيت في مجموعها بالسمات العامة إلا أن لكل مرحلة وفترة دعوية سمات معينة وتعد بدورها خطوطا أساسية التي يجب أن يأخذها الدعاة في دعوتهم .

والمنع في سيرة الرسول الأعظم ﷺ ليجد أن المرحلة المكية أغنى مرحلة دعوية إذ هي مرحلة بناء وتأسيس ، وقد كانت هذه السمات برمتها مجالا بدعا في المجتمعات البشرية ؛ ويحسن بنا أن نتطرق إلى بعض هذه السمات عند الدكتور بوطي رحمه الله .

١- حقيقة الدعوة الإسلامية وتميزها من الأهداف والأغراض الدنوية

إن الدعوة الإسلامية الذي بدأها النبي ﷺ كانت دعوة ربانية متميزة معنوية جاء بتوجيه من الله عزوجل لعلو الإنسان وسموه من هيمنة الدنيا وسطوتها إلى نور الإيمان وصفائها ، وكانت مزهدة عما في أيدي الناس من زهرة الدنيا

(١) أبو بكر ابن العربي (٤٦٨ - ٤٥٣ هـ): محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، قاض، من حفاظ الحديث. ولد في إشبيلية، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية قال ابن بشكوال: ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها. من كتبه: العواصم من القواصم، أحكام القرآن. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ٢٣٠.

(٢) ابن العربي، محمد بن عبد الله أبو بكر، أحكام القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م)، ج ٢، ص ٤٣٨.

(٣) انظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م)، ج ٢، ص ٣٣.

وزيتها، وبالتالي لم يلق له بالا واهتماما، ولم يأخذها كهدف وغاية وإن جاء في بعض الأحيان فقد يأخذها باعتبار وسيلة تخدم الغاية فحسب.

وعلى هذا فقد كانت الدعوة متميزة من الأغراض الدنيوية وأهدافها، وكانت رسالته وحياته هي الكلمة الصادقة الربانية التي تخدم مشروع الدين وأهدافه العليا والذي يتمثل في عبادة الله عزوجل وتحكيم شرع الله وإعلاء كلمته والنكران عن الطاغوت.

والقارئ في سيرة المرسلين ﷺ ليدرك بسهولة أن دعوته الطاهرة كانت مبعدة تماما عما يتخبطه الدعوات الجديدة والمنادون بالثورة والإصلاح، وعلى هذا فلم يكن دعوته وراء وصول إلى ملك ولا إلى مستوى رفيع من الزعامة، ولا الثروة ولا الغنى وحتى أدنى شيء الرغبة في زواج امرأة؛ بل فاقت عن كل هذا رغم تعريضه عليه مرارا.

روى ابن هشام في سيرته أن مشركي قريش بعثوا الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ يفاوضه في ترك دعوته مقابل تعريضات قائلا: "يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثا ترأه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه"^(١).

وقد رد النبي ﷺ تعريضاتهم وسخروا منه، وفي لقاء آخر لوفد من قريش عرض بمطالبة بمثلها وذلك عند وجهاء القوم وهنا قد رد عليهم الرسول ﷺ ردا صريحا وبين لهم ما يريد من دعوته قائلا: "ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"^(٢).

والناظر ليجد في الفقرة السالفة مدى سمو دعوة النبي ﷺ وعلو مكانته حيث لم تحط بأي مطالب الدنيا وإغراء تهما؛ بل استقام بعصمة الله له ولدعوته فلم يعوج من مسيرته؛ وكثير ما نجد أصحاب الدعوات الحققة رغم رفعة شعارها ودعواهم ينزلون في وسط الطريق ويقبلون على الدنيا ومناصبها وينسون ما عليهم من الواجبات، وأما النبي ﷺ فأكمل مسيرته على أحسن الوجوه وبلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه الله اليقين.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ج ١، ص ٢٩٥.

ومع بداهة هذه الحقيقة السامية في دعوة النبي ﷺ فقد عمد بعض المستشرقين أمثال كريم^(١)، وفان فلوتن^(٢) إلى اتهام رسالته ﷺ ظلما وزورا إلى أن دافع دعوته كانت الرغبة في السيادة والملك والاستحواذ على البلاد، وما هذه الافتراءات إلا هراعا وحسدا تظهر من أفواههم.

ويرى الدكتور بوطي في العبر المستفادة من مفاوضات قريش مع النبي ﷺ أنه يدل على مفهوم عظيم حيث يقول: كان من جليل حكمة الله عز وجل أن يقوم هؤلاء المشركين بسلسلة من المفاوضات مع النبي ﷺ بعد أن صورا في أنفسهم ونظرتهم كل هذه الاحتمالات؛ وهم أعلم الناس بطبيعة دعوته وهدفه المبعد من رسالته وبأنه لم ينزل عند شيء من أمنيائهم ومغرياتهم، ولكن هكذا شاءت الإرادة الإلهية حتى يشهد التاريخ بتكذيب كل من سيأتي من بعده من محترفي التشكيك والغزو الفكري^(٣).

وموقف النبي ﷺ تجاه الإغراءات التي عرض عليه، حيث قام بالرد القاطع لجملة هذه قاطبة لتدل على مدى حقيقة دعوته ورسالته، ولا يمكن لصاحب رسالة حق أن تسقط لتلك المكائد لأسباب آتية:

١- أن النفس الرفيعة تأبى أن تأخذ ثمنا بخسا في مقابل الدعوة الربانية، وما قيمة هذا الثمن أن يصبح الإنسان طوع أمهم ونهيهم.

٢- لا يقال إنه يستغل الملك لصالح الدعوة والرسالة، وذلك لأن ما يقترح له ملك دنيوي زائل وهو يدعو إلى الآخرة.

٣- إن الملك المقترح والذي يعطي من الممكن أن يأخذه في أي وقت؛ فيكون قد خسر الدعوة و الملك.

٤- فلو قبل الرسول ﷺ ملكهم على أمل باطن أن يدخل هؤلاء في الإسلام؛ لكان ذلك أبعد صفة عن الفرد المخلص لدعوته وبالتالي لسقط آخر الأمر من أعينهم وحط احترامه منهم.

٥- ولوقبله منهم ما قدموه عليه لانتهدت دعوته ورسالته إلى الأبد ولم تقم دعوة الدين بعد^(٤).

ولم يكن هذا الرد اللاذع من الرسول ﷺ أمام مقترحات قريش استغناؤه وعلوه بل كان سجيته الثابتة في كل الأحوال، وقد كانت معيشته الحياتية مطابقة لأقواله ولم يكن رده للزعامة والمال كلاما ترد على الأفواه؛ بل ظهر في حياته العملية كذلك، فقد كان ﷺ بسيطا في مأكله ومشربه ولا يعلو على حالة فقراء المسلمين ومساكنهم، وعن حالته كما

(١) ألفرد فن كريم (١٨٢٨م - ١٨٨٩م): مستشرق نمسوي، من الوزراء، يحمل لقب (بارون) ولد وتعلم في فينة. وتجوّل في مصر والشام. ودرّس العربية في بلده. وعين قنصلا في مصر، ثم في بيروت سنة ١٨٧٠م وعاد إلى فينة، فولّي وزارة الخارجية ووزارات أخرى إلى أن توفي. نشر نحو عشرين كتابا "عربيا"، منها (المغازي) للواقدي، و (الأحكام السلطانية) للماوردي. وله كتابات كثيرة باللغة الألمانية عن الإسلام والثقافة الإسلامية. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ٧.

(٢) خرلوف فان فلوتن (١٨٦٦م - ١٩٠٣هـ): مستشرق هولندي تتلمذ على دي خويه، وهو من أوائل المستشرقين الذين عنوا واهتموا بآثار أعمال جاحظ. وقد عمل كمترجم وكاتب وأمين مكتبة. انظر: ويكبيديا الموسوعة الحرة.

(٣) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٩٨.

(٤) انظر: رضا، صالح أحمد، إنها النبوة، ص ١٣٩.

رواه أنس بن مالك قائلًا: (مَا عَلِمْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَكَلَ عَلَى سُكَّرَجَةٍ قَطُّ، وَلَا خُبْزَ لَهُ مُرَقَّقٌ قَطُّ، وَلَا أَكَلَ عَلَى خِوَانٍ قَطُّ) «قِيلَ لِقَتَادَةَ: فَعَلَامَ كَانُوا يَأْكُلُونَ؟ قَالَ: عَلَى السُّفْرِ»^(١).

ولم يرفع نفسه عن باقي المؤمنين، فعن ابن مسعود قال:
- (أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تَرَعْدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوْنٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ)^(٢).

وبالجملة فقد كانت دعوة النبي ﷺ دعوة معنوية عالية جاءت لسمو الإنسان وفلاحه وما أحسن ما اختصر العلامة صفي الرحمان مباركفوري^(٣) دعوته وتأثيره في كلمات حيث يقول: ولم يزل النبي ﷺ يغذي ويسقي أرواحهم بمطلبات الإيمان، ويزكي نفوسهم بهدي القرآن والحكمة، ويربيهم تربية عميقة يسموا بنفوسهم إلى منازل الأرواح والقلوب الطاهرة، وينظف الخلق ويحررها من هيمنة الماديات، والمقاومة للشهوات والأهواء والمنزعة إلى خالق السموات والأرض، وكما يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويحثهم على تحمل المكاره وقهر النفس والصفح الجميل، وبهذا ازدادوا إيماناً ورسوخاً في الدين، فتنحوا عن الشهوات وتفانوا في سبيله مرضاة وحنينا إلى الجنة، فقد كان صحابته محبين للعلم، فقهاء في الدين، محاسبين لأنفسهم ومقهرين لنزعاتهم وأهواءهم، مسيطرين على عواطفهم وغالبين على التأثيرات بالصبر والاستقامة^(٤).

٢- الإسلام كلمة الله السابقة والأخيرة لعباده: إن دعوة الرسول ﷺ لم تكن دعوة جديدة من الله لعباده؛ بل هي سلسلة مستمرة ومداومة منذ أن خلق الله الخلق إلى أن يشاء الله بفناء هذه المعمورة، وبناء على ذلك فالأنبياء كانوا إخوة ودعوتهم نورا من مشكاة واحدة، ولم يختلف الشرائع في جوهرها بل نظرا لمرعاة تطبيق الزمان والمكان واختلاف أحوال الناس اختلفت تيسيرا لهم، وبهذا ارتبطت الرسالات السماوية، فمهمة اللاحق بالسابق التصديق والتأييد، والسابق باللاحق البشارة، وإلى هذا أشار عز وجل في محكم كتابه حاكيا عن عيسى عليه السلام قائلًا: ﴿وَإِذْ

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأطعمة، باب: الخبز المرقق والأكل على الخوان والسفرة، رقم الحديث: ٥٣٨٦.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب: الأطعمة، باب: القديد، رقم الحديث: ٣٣١٢.

(٣) صفي الرحمن المباركفوري (١٩٤٢ م - ٢٠٠٦ م): عالم وباحث هندي معروف، درس على الطريقة النظامية المعروفة في مدرسة فيض وبعد التخرج اختير الشيخ مدرسا في نفس المدرسة، ثم أستاذاً في الفقه والحديث لعدة سنوات في الجامعة السلفية ببينارس، ثم شغل بعد ذلك منصب رئيس التحرير لمجلة (محدث)، وفي عام ١٤٠٨ هـ اختير باحثاً في مركز السنة والسيرة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، واستمر فيه إلى عام ١٤١٨ هـ. وقد اختير الشيخ أميراً لجمعية أهل الحديث في الهند في عام ١٤١٨ هـ إلا أنه وبعد مرور بضعة أشهر اعتذر عنها لانشغاله بأموره العلمية والدعوية وكذلك ظروفه الصحية لم تساعده. الشيخ له خدمات جليلة في نصرة الإسلام والمسلمين في الهند وغيره، ومن خدماته تنفيذ لشبهات الجماعات المنحرفة التي أضلت كثيراً من الشباب في شبه القارة الهندية كالكاديانية ومنكري السنة أو القرآنيون. له مؤلفات كثيرة منها: الرحيق المختوم، روضة الأنوار، منة المنعم في التعليق على صحيح مسلم. انظر: تعريف المباركفوري، مع مقدمة الرحيق المختوم.

(٤) انظر: مباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ط ١، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م)، ص ١٤١.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ (الصف: ٦).

ومع الانحراف التي طرأ على النصرانية إلا أن نفرا منهم والذين كانوا ثابتين على الحق والحنفية أظهروا تأييدهم واتباعهم للإسلام ، فقد كانوا يدركون أن دوام تلك الرسالة ومواصلة للمسيرة التي بدأها عيسى عليه السلام وفي مجموعها دعوة ربانية .

ففي هجرة الأولى للصحابة السنة الخامسة من البعثة وإيواؤهم من قبل النجاشي ملك الحبشة آنذاك وخاصة بعد إرسال وفد قريش له برد المهاجرين ، حيث رفض ذلك الطلب إثر لقاء في حضرته بين المسلمين وقريش دلالة عظيمة ، وكان من بين موضوعات اللقاء كما تذكر الروايات حث قريش للنجاشي في سمع قول المسلمين في المسيح عليه السلام حيث قالوا: "أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا.... قَالَ لَهُمْ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيًّا ﷺ، (يَقُولُ): هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبُتُولِ. قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا عَدَا عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مَا قُلْتُ هَذَا الْعُودَ" ^(١).

فالفقرة السابقة تبين مدى صدق النجاشي في عقيدته حيث كان مخلصا وصادقا في دينه ، وكان قائما على الحق ولم تختلف عقيدته عما جاء به الإنجيل وما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام . وعلى هذا لما سمع الرجل قول المؤمنين فيه أيدهم وقال: (إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لِيُخْرِجُ مِنْ مَشْكَاءٍ وَاحِدَةٍ) وقد كان هذا الكلام في مسمع ومرآى بطارقة الروم والذين يزعمون بالوهمية عيسى عليه السلام أو بنوته من الله أو أنه ثالث ثلاثة .

وفي حادثة يمثلها قدم إلى مكة في المرحلة المكية أول وفد نصارى الحبشة حيث يبلغ عددهم قرابة عشرين شخصا فلما جلسوا إلى رسول الله ﷺ وسمعوا منه آيات الله ودعوته ، واطلعوا على صفاته وأحواله آمنوا به جميعا ، ولما علم أبو جهل بإيمانهم جاء وقال لهم: "خبيكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقتم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركبا ، أحقق منكم فقالوا: سلام عليكم لانجاهلكم لنا ما نحبه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا" ^(٢).

فهاتان القصتان دالتان على صدق أولئك الركب ومن قبله النجاشي ، فقد كانوا على عقيدة صحيحة وعلى هذا لم تختلف العقيدة التي جاء بها محمد ﷺ مع العقيدة المبنية على لسان عيسى بن مريم ؛ وقد جاءوا بعقيدة واحدة وأن الاختلاف الذي طرأ في العقيدة المسيحية لم يكن إلا بعد بغى علمائهم على كتبهم المقدسة وعقائدها .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

ومن هذا المنطلق يرى الدكتور بوطي في العبر والعظات المستفادة من إيمان وفد نصارى الحبشة أن إيمان أولئك نفر لم يكن إيمان المخرج من الظلمات إلى النور، أو الإيمان الجديد بل كان استمرارا لإيمانهم السالف، وسلوك ما كانوا يتمسكون به من عقيدة ودين. إن أولئك نفر والنجاشي هم المتبعون الحق للإنجيل ويسرون على هديه، وقد كان مقتضى الإيمان بذلك الكتاب السماوي هو استمرار الإيمان واتباع الرسول الذي يأتي من بعد عيسى عليه السلام والمبشر به باسم أحمد، وقد تحدث عن صفاته وأحواله، وبالتالي فإيمان هؤلاء بالنبي والرسول محمد ﷺ استمرارا لإيمانهم السابق.

لقد أمر الله نبيه ورسوله أن يكتفي من دعوة هؤلاء إلى الإسلام بمجرد مطالبهم تطبيق ما في كتبهم التوراة والإنجيل لأنها تصحيح لمسارهم ولن يستقيم أمرهم إلا بالإيمان بهما كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٨).

والنتيجة اللازمة من هذا أن الدين الحق عند الله من لدن آدم عليه السلام إلى بعثة الرسول ﷺ واحد، واستخدام مصطلح الأديان السماوية كلمة لا أساس ولا معنى لها^(١).

وأما عن حقيقة الترابط والصلات بين الدعوات السماوية وخاصة علاقة دعوة سيد المرسلين بالأنبياء السابقين فقائمة على أساس التأكيد والتتيميم، فهدف كل منهم في الجملة واحدة، وقد ترابطت الدعوات بدقة وتماسكت وبدت كسلسلة متشابكة مكونة من مجموعات من الحلقات، فكل دعوة حلقة فيها وبترباط بعضها البعض أصبحت تكوينا متكاملًا يستفاد به، وأما عن صلتها ببعض فالآتي تكمل ما سبقها والسابق تمهد لما سيأتي بعدها، وبمثلها الرسالات حيث تصدق بسابقتها وتكمل بما يأتي وتمهد لللاحق الآتي من رسالات الله عز وجل. وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا الترابط في حديث نبوي بقوله: (إِنَّ مَثَلِي مَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ)^(٢).

ففي هذا الحديث الله عز وجل هو صاحب البيت والدار والرسول مع رسالتهم لبنات فيه، والرسول ﷺ هو اللبنة الأخيرة الذي كمل به البيت، واللبنات كلها تتضافرت وأعطى البيت كماله الدقيق وجماله المبهر؛ واتحاد الدعوات على هذه الصورة تظهر مدى الترابط بينها، وتري من سياق قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١١١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ، رقم الحديث: ٣٥٣٥.

وهكذا فالكمال الذي تحقق للدين وتمام النعمة التي أتمها الله عز وجل جاءت نتيجة اشتغال الدين على مجموعة حزمة من الأجزاء بحيث إذا أوجدت تحقق التمام والكمال. ومعنى كمال الدين تحقيق معانيه وذاته بلا نقص وعيب، وتمام النعمة التي يفيد اجتماع الأجزاء كلها، والحسن الجميل والإبداع الدقيق في تلاقي اللبنة في البناء الواحد. وأن نهاية الجمال والحسن يكون باللينة الخاتمة في بناء الله العظيم الذي جعل الله دعوته ورسوله ﷺ هي الخاتمة للرسالات السماوية^(١).

والمتتبع في الكتب الدينية للديانات ليجد هذا الترابط بشكل واضح رغم التحريف الذي طرأ عليه، فالبعض يذكر بعض الإشارات رغم الإنكار والجحود الذي يظهره عملياً، وأما أصدق هذه الإشارات فمرجعها عندنا كمسلمين في الكتاب المؤمن القرآن الكريم حيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويحسن بنا أن أذكر بعض هذه النصوص:

١- يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ۖ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦).

ففي هذه الآية بين الله عز وجل أن الإنجيل كتاب معطى لعيسى عليه السلام وقد اشتمل على الهداية والنور الرباني، ومن شأنه تصديق التوراة، وعلى هذا فعيسى عليه السلام لم يهدم ما سبقه من الكتب السماوية كما هو شأن البشر حيث يبطلون دستور الآخرين حينما يستولون على البلاد، بل الأنبياء صدق بعضهم البعض وحاولوا إتمامه، كما أنهم إلى جنب ذلك يبشرون برسل يأتي من بعدهم كما بشر به المسيح عليه السلام في الآية المذكورة بالنبي والرسول محمد ﷺ باسم أحمد.

وقد ذكر في الكتاب المقدس عند المسيحيين أن عيسى عليه السلام لم يأت لانقاض ما كان قبله من الأنبياء بل جاء لتكميل المهمة، وهذا هو المبين على لسان عليه السلام حيث يقول "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل"^(٢).

ونفس المهمة أسند إلى النبي ﷺ فكان مصداقاً لما بين يديه من الكتب، وأضيف إليه مهمة الحفظ والهيمنة كذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨).

فقد ذكر المفسرون أن المراد من جملة (مهيمناً عليه) أنه رقيب على سائر الكتب السماوية فيشهد صحتها، وثباتها ويمنع ويبطل ما دخل عليه من الزيف والتحريف، كما أنه ينبه على أصول الشريعة الثابتة وفروعها الدائمة، وبعض

(١) انظر: غلوش، أحمد أحمد، الدعوة الإسلامية- أصولها ووسائلها، ص ١٧٥-١٧٦.

(٢) الكتاب المقدس، انجيل متى، إصحاح ٥، فقرة ١٧.

المؤقتة المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها وانقضاء العمل بها ، وهو بذلك حافظ وحارس على جميعها وهي خاصة القرآن الكريم وحده لا غير^(١).

ومظاهر هذه الوحدة بين الرسالات السماوية لم تكن بالمسمى فحسب بل شملت مجالات أساسية من الدين كالعقيدة والأخلاق واختلفت في جانب التشريع لحكمة بالغة كي يتسنى للبشرية أحكام الدين ، ويكون في سعة من أمرهم ، وهكذا أحوال الحياة الإنسانية في تغيير وتجدد مستمر وما كان صالحا في الماضي لم تعد صالحا للحاضر وهكذا في المستقبل ؛ وعن هذا يقول الدكتور البوطي رحمه الله : إن دعوة كل الأنبياء تقوم على مبدئين اثنين : الأول العقيدة ، والثاني التشريع والأخلاق . فأما العقيدة فلم يختلف مضمونها وحقيقتها منذ آدم عليه السلام إلى غاية ارسال خاتم النبيين محمد ﷺ ، وذلك لأن الإيمان هدفه وحدانية الله وتنزيهه عن كل عيب ، والإيمان باليوم الآخر و..... وبهذا لا يتصور أن تتباين دعوات الأنبياء الصادقين في هذا المجال ؛ ودليل ذلك لأن أمور الإيمان هو نوع من الإخبار ، ولا يمكن أن تختلف الإخبار عن مخبر إلى مخبر .

وعلى سبيل المثال لو أخبرنا المخبر -والعياذ بالله- بأن الله ثالث ثلاثة ويأتي بعده المخبر ويخبر قومه بأنه واحد لا شريك له ، وكلاهما كانا صادقين لتعارض هذه المهمة وذهبت أهمية الدين بين الناس .

أما التشريع فتتعلق بالأحكام التي تنظم حياة المجتمع والأفراد البشرية ؛ وهذا بطبيعة الحال يختلف في الكم والكيف ما بين بعثة إلى بعثة . والأساس الذي يبني عليه الأمر كذلك هو أن التشريع نوع من الإنشاء أمر ونهي ؛ فلا ضير أن يختلف عن زمان إلى زمان ومكان إلى مكان ، ومن حكمة الله تعالى أيضا أنه جعل أصل فكرة التشريع على أساس مصالح العباد في الدنيا والآخرة ، والناظر إلى مصالح الناس ليجد أنه تتباين .

فعلى سبيل المثال لقد بعث الله موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل وكان مقتضى المصلحة لحالهم أن تكون الشريعة شديدة قائمة في مجموعها على العزائم بدل الرخص ، ولكن في زمن سيدنا عيسى عليه السلام كان حال الناس يتطلب اليسر والسهولة بالنسبة لما قبلها فجاءت على غير وجه مما كان . وقد أشار الله عز وجل في كتابه إلى هذه الحقيقة حيث يقول : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ

بِنَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴾ (آل عمران : ٥٠)^(٢).

لقد بين الله أن رسالة عيسى عليه السلام كانت تصديقا للرسالة المبينة في التوراة فيما يتعلق بجانب العقيدة وكانت مؤكدة على أحكامها ، أما جانب التشريع والحلال والحرام فقد طرأ عليه التغيرات ومن ضمنها التسهيلات والرخص ، كما نسخ بعض الشدائد والأوصار التي كانت على من قبلهم والتي وضعت عليهم كعقاب أو امتحان من الله

(١) انظر : : أبو السعود ، محمد بن محمد بن مصطفى ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ب ت ط) ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

(٢) انظر : البوطي ، فقه السيرة ، ص ٤٩ - ٥٠ .

عزوجل ، وقد ظل الأمر حتى بعث النبي ﷺ برسالة اليسر والسماحة والحنفية التي تجلب للبشرية خير دنياهم وآخرهم .

ولقد أثار بعض المستشرقين والمعاندين لمظاهر الوحدة بين الرسالات السماوية شكوكا وشبهاتا على الرسالة الخاتمة للنبي ﷺ حتى ذهبوا بالقول إلى : أن التشابه وأحيانا التماثل بين الأديان في العقيدة خاصة ثم في بعض المناسك التعبدية والتشريعات الاجتماعية باعث على الشك ؛ والنتيجة اللازمة منها أن الإسلام ليس مصدره الوحي الإلهي ، بل هو نسيج من تعاليم سابقة ، فالبعض قد استمد من التوراة كقصص الأنبياء ، وبعضها من الإنجيل وبعضها من الحضارات البشرية العريقة كالرومان و... وجملة هذه الاعتراضات قائمة على أساس التعصب والهوى وبعيدة عن الأسس العلمية ، بل إنهم لم يدركوا أن التماثل دليل واضح على وحدة المصدر الإلهي^(١) .

وخلاصة القول : إن الدعوة النبوية هي تلك الدعوة الربانية التي حملت بواسطة الأنبياء والرسل لهداية الخلق في حقبات مختلفة ، وظلت حتى كملت برسالة محمد ﷺ ، وهذه الرسالة في مجموعها حقيقة واحدة وخاصة في الجانب العقدي منها ، ولم تتباين عن الآخر إلا في الجانب التشريعي منها ، وميزتها أنها جاءت بنسق وترتيب عال ؛ حتى أن هذه الوحدة دليل صادق على ربانيتها ، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وقد سمى الله هذه الرسالات بمجموعها باسم الإسلام وارتضاه للناس ، ولم تكن هذه التسمية نسبة إلى القوم الأول المعتنقين لها ، ولا باسم مكان نشأتها ، وحتى باسم المرشد والموجه الذي جاهد لأجله كما هو الحال في الديانات الوضعية ؛ وبهذا أصبح الإسلام كلمة الله الأولى والأخيرة لعباده .

(١) انظر : العمري ، أكرم ضياء ، الرسالة والرسول (المدينة المنورة : الجامعة الإسلامية ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م) ، ص ١٤١٩ .

الفصل الثاني

فقه موضوعات الدعوة في العصر المدني

توطئة: المرحلة المدنية رغم قصرها بالنسبة للفترة المكية هي الفترة الخصبة في تاريخ الدعوة الإسلامية، فبعد أن قامت للدعوة الإسلامية أساس وأرضية في مكة، ودخل الرعيل الأول بتوجيه الرسول ﷺ إلى الإسلام، حيث دعاهم لإصلاح العقيدة والأخلاق، وكما أخذوا نوعاً ما تشريعاً عبادياً؛ إلا أن تلك المرحلة كانت مليئة بالابتلاءات والمحن، ولاق الرسول الأعظم وأصحابه مآلقه.. وظل الأمر فيها حتى أبرم الرسول ﷺ مع أنصار المدينة بيعتي العقبة الأولى والثانية فمهد الطريق لنصرتهم والهجرة والإيواء إلى تلك الديار.

وبعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى تلك الديار وكما سماه بأرض الإيمان، أدرك المسلمون صدوراً رحبة تساق لهم، وكذلك للدين والدعوة معقلاً بعد أن كانت تحارب أهلها في مكة، فقد وجد المسلمون أرضية حقيقية تقام عليها دولة الإسلام منذ لحظتها الأولى وذلك بدعم وضع دستور شرعي ومجتمع يسودها العدل والمؤاخاة القائمة على أساس الدين والتي تفوق عن كل معايير القرابة والعنصرية وحمية الجاهلية.

وحيزت تلك الفترة بامتيازات وخصائص فائقة بالنسبة للدعوة الإسلامية، وقد تعد مرحلة فاصلة بالنسبة لما قبلها مع اشتراك بعض النقاط بسابقتها، وبعبارة أخرى تعد هذه المرحلة استكمالاً لتلك المهام الدعوية التي بدأها النبي ﷺ، وأهم خصائص هذه المرحلة نوجزها كما يلي:

١- لقد استمر نزول الوحي الإلهي على الرسول ﷺ ولكن لم تكن التركيز على العقيدة فحسب كما كانت في مكة بل تناولت موضوع الشريعة والأخلاق أيضاً.

٢- دخلت الدعوة الإسلامية في طورها الجديد، فقد خرجت عن سياسة (وكفوا أيديكم) -أي تحملوا الأذى إلى سياسة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠) والتي تحمل معنى الدفاع والعزة.

٣- رسخت في هذه المرحلة الدعائم التي أقيمت في المرحلة المكية بحيث لا تقبل الإزاحة ولا التغيير ولا الانحراف وجعلهم يعيشون بالإسلام ويعملون له.

٤- إن العقيدة الإسلامية التي جعل من مهاجري مكة يضحون كل شيء لأجل الدين، جعلت من الأنصار بنفس المستوى أناساً يؤثرون الغير على أنفسهم رغم الخصاصة الواقعة بهم، وكما أنهم يتركون حظوظ النفس لأجل نصره دين الله عز وجل.

٥- لقد ظهرت آثار العقيدة الإسلامية في المدينة الطيبة على الجماعة المسلمة الصافية التي شكلت في مكة، وقد كانت غايتها آنذاك كسب رضا الله وطاعته ولكن هنا احتاجوا إلى جنبها إلى شريعة سامية تعرف مراد الله، وتتمثل في الأوامر والنواهي؛ لكي يكون عملهم وخلقهم متوازناً مع الإيمان.

٦- إن هذه المرحلة في الحقيقة استمرار لتلك المسيرة، وبالتالي لم يلحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الدين وبلغ الرسالة وأدى الأمانة.

٧- هذه الفترة كلها مرحلة توجيه رباني ونزول وحي إلهي، ولم تمر زمنا إلا قد أرشد المسلمون في حياتهم العملية بوحى إلهي، وذلك لكي يخضع جوارح المؤمنين بأحكام الله بعد ما أمنت قلوبهم إذعانا لعقيدتها.

٨- لقد كانت هذه المرحلة فترة غنية بالنشاط الدعوي، فلم تكن أمر النبي ﷺ بالوعظ والتبشير والإنذار، بل أخذ الإسلام يظهر في أقوال النبي ﷺ بلاغا، ودعوة في عمله، وسلوكا وعملا وفي قلبه صدقا وانفعالا، وفي أخلاقه مودة ورحمة، ومع الناس حياة وحضارة وعزة^(١).

ولقد استمرت تلك الفترة في حضور الرسول الأعظم مع أصحابه الأوفياء حتى دخل الناس أفواجا في هذه الدعوة، وكما شاع تبشير النصر في الأرجاء حتى لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى وترك أمته على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك.

وبالنسبة لموضوعاتها فهي حافلة لمفاهيم جديدة تكميلية لتلك الفترة التأسيسية، وهي تعد في مجموعها استكمالا وتوسعة لتلك المفاهيم، ويحسن بنا أن نستعرض لبعض هذه الموضوعات والمفاهيم في فقه السيرة النبوية في العهد المدني عند أعلامنا الأجلاء.

المبحث الأول: فقه موضوعات الدعوة عند الإمام أبي الأعلى المودودي في العصر المدني

تعد الفترة المدنية في الرسالة النبوية ﷺ مرحلة نشاط وقوة على حساب الدعوة الإسلامية حيث كملت كثيرا من متطلباتها، وذلك بامتلاك أرضية واقعية ومجتمع خالص يقودها ويوجهها الرسول ﷺ، كما أن المسلمين وجدوا مأمنا مطمئنا رغم التحديات والعقبات التي تواجهها تلك الدولة الفتية. وبناء على ذلك تميزت تلك المرحلة بموضوعاتها؛ ونظرا لأهميتها ركز الإمام أبي الأعلى المودودي عليها وبحث على قضاياها الأساسية حيث نستعرضها على المطالب فيما يلي:

المطلب الأول: مبادئ الدعوة الإسلامية في الفترة المدنية

لقد قامت هذه الفترة الشطة على مجموعة من التعليمات العقدية والخلقية والتشريعية، وبها صارت معتنقوها أصحاب تعليم ودستور كامل يستغنيهم عن الآخرين، كما حظيت بالخير والفضل نتيجة تطبيقها والدعوة إليها، وأقاموا كذلك على أثرها حضارة عظيمة تشار إليه بالبنان، وأهم مبادئها كالآتي:

١- الدعوة إلى الإيمان الذي يصدر عنه الأعمال الصالحة: لم تستغني هذه المرحلة من مباحث الإيمان والعقيدة والذي يتمثل الأساس والجذر بالنسبة لسائر الأعمال، بل صارت مفهوما راسخا تستقر في القلوب ومنبعا تصدر منه الأعمال الصالحة، وتفوح من صاحبه الأخلاق الإيمانية، وهذا الخطاب الذي توجه لأصحابه في هذه المرحلة تفتقرن

(١) انظر: غلوش، أحمد أحمد، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م)، ص ٧-١٠.

ب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) على حسب رأي المفسرين والمحدثين ، بالنسبة لما كانت في المرحلة المكية حيث تنادي ب (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) أو ب (يَا بَنِي آدَمَ) غالبا^(١).

وعلى هذا فالمرحلة المدنية ركز أشد التركيز على مفهوم الإيمان المستقر قي القلب ، يصدقه العمل بالجوارح . وعن خاصية هذا الإيمان يقول المودودي : "ليس الإيمان بالله حقيقة محضة فلسفية يعتقد المرء بل هو مزيج من التصديق والتخلق والعمل ، وتربط بينهم وثاق محكم ؛ ومتى استقر في القلب فتصدر عنه طبقا لفطرته أعمالا وخلقا ، ومدى كثرته وقلته تتعلق بجزم هذه الشجرة ورسخوها وعمقها في القلب ، وعلى هذا لا يمكن أن نجني من الإيمان المستقر في القلب خلق الشرك والرهبة أو فكر أصحاب الدهريين ونحوه وهكذا بالعكس" ^(٢).

ويرى المودودي أن تأكيد الإسلام على هذا المبدأ ليس إهمالا بالتعاليم والمبادئ الأخرى فقد نجد التأكيد عليها واضحا ، ولكن ما تحتله هذه العقيدة من الأهمية تعود إلى مكانتها وتفوقها على سائر الأعمال ، وهي بالنسبة للغير كالأساس الذي تعتمد على وجود الشيء ؛ وبمنظرة الإسلام فإن كل أنواع الفساد التي ظهرت في المجتمعات والحضارات الإنسانية وسوء الأحوال نجمت عن الحرية المطلقة للإنسانية والفرار من المسؤولية ، أو بعبارة أخرى أنهم جعلوا أنفسهم إلها أو تسلموا للغير هذا المنصب .

بمنظرة الإسلام لم تكن عقيدة التوحيد مجرد تصور عقدي أو تصديق قلبي يؤمن بها المسلم بل تحمل معها بناء نظام اجتماعي للبشرية حيث تنكر عليهم حريتهم المطلقة وكذا دعوة الألوهية لغير الله .

إن هذه العقيدة هو شعار المؤمن الذي يرفعه المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله ، ولت تصغي إليه الأسماع ؛ فهي دعوات تحمل معاني عظيمة منها : أنه ليس لي ملك ولا سلطة مقتدرة ولا حكم يحكم علي ، ولا تجب طاعة أو خضوع أحد ، ولا أقدر ولا أؤمن بصلاحيات أحد إلا الله عز وجل وأعلن تنكري لهذا عن غير الله .

وقد رفعت هذه الدعوة من محمد ﷺ ، ووقف أمامها من رأي مكانتهم على خطر من القساوسة وأصحاب السلطات والرئاسة ، وهكذا حامل دعوة القومية أو المفتخر بمجد الآباء والأجداد ... وقد عدتهم الإسلام في جملتها (الكفرة ملة واحدة) وفي المقابل يصاغ لهذه الدعوة النبيلة أصحاب عقول سليمة حيث كانوا يحبون الحقيقة وتحملوا في سبيلها المشاق والمخاطر من القتل والتعذيب ، والشرد والحرمان والسب وما إلى ذلك ، وعلى هذا لا تقوم أساس الحركة الإسلامية إلا بدونها^(٣) .

والمتمفحص في أوراق السيرة النبوية من المرحلة المدنية ليجد غزارة هذه المادة ، فهذا هو يرسل سنة ستة من الهجرة ملوك الدنيا وأمرائها ويدعونهم إلى الإيمان بالله وحده وترك الشرك . ففي رسالته إلى المنذر بن الحارث صاحب

(١) انظر : السيوطي ، جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، الإتقان في علوم القرآن (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) ، ج ١ ، ص ٦٨ .

(٢) المودودي ، السيد أبو الأعلى ، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم) ، ج ١ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) انظر : المودودي ، سيد أبو الأعلى ، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم) ، ج ٣ ، ص ٤٤٨ - ٤٥٠ .

دمشق يكتب له: "سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِهِ إِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَبْقَى لَكَ مُلْكُكَ" (١).

فالرسول ﷺ جعل هدفه وغايته دعوة الناس إلى التوحيد والإيمان به، ولم يطلبهم أكثر من ذلك حتى أنه أقر أن يبقوهم على ملكهم إن قبلوا ذلك؛ فلما كان غايته غير ذلك لما راسلهم قاطبة بل اكتفى ببعض الأقربين والضعفاء وخاصة أنه أطمأن بعد إبرام صلح الحديبية من ألد أعدائه مشركي قريش بأنهم لا يباغتهم، أو أراد في طلبهم غير ذلك؛ وعلى هذا مضمون تلك الخطابات قاطبة توحى معنى واحدا وهو الدعوة إلى الإيمان والعقيدة الصحيحة، ونرى كذلك تأكيداً على نفس المفهوم والمضمون في أخريات رسائله في حجة الوداع بعد أن حمد الله على إتمام رسالته، وثناؤه عليه فيقول: "أَمَّا بَعْدُ! أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ إِنْ يُطْعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ" (٢).

وصفوة القول: إن التوحيد والتأكيد على العقيدة الصافية جوهر الرسالة المحمدية في كلا الفترتين، لأنه الأساس الذي يقوم عليه الإسلام. وقد كان مهمة النبي ﷺ أولاً وأخيراً ترسيخ هذا المبدأ السامي، وهذه العقيدة تحمل في طياته بناء النظام الإنساني الذي يواجه الانهيار نتيجة تخبطه لاتباع الهوى وتعبده للطواغيت، كما أن هذه العقيدة يحث الإنسان إلى أن يدرك مسؤولياته الذي لأجله فطر في هذه المعمورة وأن يحب ويفعل الخير ويكون عبدا صالحا على مقتضى إيمانه.

٢- تعميم مفهوم عبودية الله في أنحاء الحياة وإعلان شعائر الإسلام: العبادة والشعائر من أهم الدعائم التي يعرف بها الدين، وهي تمثل الجانب الحسي والعملي له، وهي على ذلك ترجمة للعقيدة والإيمان الذي يعتنقه أتباع ذلك الدين، وبعبارة أخرى العبادة هي المظهر العملي للعقيدة والتي يعتنقه المرء، وتعود أهميتها بالنسبة لسائر الأعمال أنها صلة ربط ترابط المرء بخالقه وإلهه.

وبناء على ذلك فقد احتلت في الرسالة النبوية المكانة الرفيعة وقد كان النبي ﷺ يعلمه للأمة بعد أخذه وتعليمه من الله عز وجل بواسطة جبرئيل الأمين، والعبادات وإن كانت شرعت في الفترة الأولى للدعوة المكية إلا أن الأحوال والظروف التي كانوا يعيشون فيها المسلمون كانت تحول عن أدائها جهرا، وإلى جنب ذلك مسaire على أصل التدرج لم تكمل هيئتها ولم تزود بالشعائر والعلاقات العبادية المميزة للإسلام حيث تفصل بها عن سائر العبادات وطقوس الأديان.

والعبادة على هذا مفهوم عام وشامل تضم الاشتغال لأوامر الله والبعد عن نواهيه، وليست مجرد أداء طقوس محدده، وكما يقول المودودي، أنها من المصطلحات الأساسية في القرآن الكريم، وترد بمعنى تقارب مفهومها اللغوي،

(١) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، ج ٢، ص ٦٥٢.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٦٠٤.

حيث تعني "الخضوع والتذلل ، وبمعنى أوضح هي استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقيادا لا مقاومة معه ، ولا عدول عنه ولا عصيان له ، حتى يستخدمه هو حسب ما يرضى كيف ما يشاء" ^(١).

وفي التعريف السابق ليدرك القاري أنه ليس المراد من العبادة الخضوع والاستسلام والإطاعة المطلقة بل تضاف إليها عنصر عاطفي ، وأما المراد بالشعائر فكما يذكره ابن الأثير: "فهي المعالم التي ندب الله وأمر القيام عليها. فمثلا نقول: شعائر الحج المراد منه الآثار ، وعلامته أو كل ما كان من أعماله كالوقوف والطواف والسعي والرمي" ^(٢).

وعلى هذا فهناك فارق بين العبادة والشعيرة: فالشعائر معالم الطاعات والقرب ، وهي جمع متعبدات الله عز وجل التي أشعر بها على عباده وجعلها أعلاما ، وعبارة أخرى هي أعلام الطاعة ، وأما العبادة فمنها ما هو خفي بين العبد وربّه ومنها الظاهر البين والتي تسمى الشعائر ومن هنا فيبينهما عموم وخصوص من وجه.

والمطلع على سيرة النبي ﷺ ليجد أن الأمر بالعبادة والطقوس الدينية المعروفة في النظام العبادي لم تؤسس في المجتمع المدني ، بل كانت موجودة في الفترة الأولى من الدعوة المكية إلا أنها لم تكن منفصلة عن المجتمع الوثني فلم تزود بالشعائر والعلامات الفاصلة ، وعن هذا يقول أصحاب السير: وبعد مضي ثلاث عشرة سنة لم تكن للمؤمنين والمسلمين مركز علني ثابت لأداء الصلاة ولا لإقامة شعائر التوحيد ، بل كانوا يصلون أحيانا في الكعبة؛ وبيت الله الحرام الذي أحاط به ثلاث مائة وستون صنما ، كما أن كل شعائر الشرك قد تقام حوله ، ولما هاجر النبي ﷺ أسس بادئ الأمر مسجد قباء كما ذكر القرآن الكريم وهو أول مسجد أسس بنيانه على التقوى ، ورواده كذلك هم أول ركب من المسلمين الخالصين والذين يرفعون شعار التوحيد ويرفعون رأيه (لا إله إلا الله) ، وذلك في جو آمن بعيد عن خوف سلطة قاهرة تفرض عليهم غير شعائر الإيمان ^(٣).

ومن أهم هذه العبادات التي فرضت أو أدت على هيئتها المطلوبة صلاة الجمعة وفريضة الصيام؛ فصلاة يوم الجمعة من العبادات والشعائر التي ميز الله بها هذه الأمة ، وعن أهميتها يقول المودودي: لقد فرضت صلاة الجمعة أواخر الفترة المكية وقبل قليل من الهجرة النبوية ، لكنه لم يتيسر للرسول ﷺ وأصحابه أنه يؤدوا تلك الفريضة بطبيعتها الاجتماعية ، وذلك لأنه لم يتسن للمسلمون في أجواء مكة آنذاك التجمع ولا الحرية المطلقة في أداء طقوسها الدينية إلا أن نفرا من المسلمين الذين هاجروا قبل الرسول الله ﷺ ومن ضمنهم مصعب بن عمير أدوها بأمر الرسول ﷺ ، وهكذا كان الأنصار يؤدونها بادئ الأمر كما تشير إليها الروايات حتى قبل نزول حكمها فيما بينهم ، و أن أول من أداها سعد بن زرارة رضي الله عنه حيث اجتمع أربعون من الأنصار في منطقة حرة بني بياضة وقد كان أداؤها

(١) المودودي ، السيد أبو الأعلى ، المصطلحات الأربعة في القرآن ، ص ٩٧.

(٢) ابن الأثير ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي (بيروت: المكتبة العلمية ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، ج ٢ ، ص ٤٧٩.

(٣) انظر: الغضبان ، منير محمد ، المنهج الحركي للسيرة النبوية (الأردن: مكتبة المنار ، ط ٦ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م) ، ج ١ ، ص ١٩٩-٢٠٠.

تطلعا للعبادة الاجتماعية لهم وكذلك تثبिता لهويتهم الذاتية بصفة أمة مستقلة منفصلة عن المجتمعات اليهودية والمسيحية حيث كانوا يخصصون يومي السبت والأحد علامة دينية لتجمعهم.

وفي هذا دلالة عظيمة على القوة الفائقة لأصحاب رسول الله ﷺ، ومن روائع الفكر الإسلامي حيث أن اتباعه كانوا يتطلعون للحكم قبل نزولها، وقد أداها النبي ﷺ حين مقدمه إلى المدينة، فكان أول عمل يعمله آنذاك وذلك في يوم الجمعة في حي بني سالم بن عوف.

واهتمام الإسلام بيوم الجمعة تعود إلى أن أهل الكتاب قد عينوا يوما خاصا كشعائر أمتهم، فاليهود عينوا يوم السبت رمزا للنجاة من أسر فرعون وملائه، والنصارى حددوا الأحد رغم أن لا يوجد أية تصريح من المسيح عليه السلام حوله إلا أن الإمبرطورية الرومية حينما اعتنقت النصرانية أعلنوا في سنة ٣٢١م يوم الأحد المصادف باليوم التالي من صليب عيسى عليه السلام -والعياذ بالله- حيث قام من قبره حسب زعمهم؛ فالشريعة الإسلامية جاءت وتميزت يومها من شرائع أهل الكتاب، فاختارت يوم الجمعة والتي سميت بيوم العروبة قبلها وعينت فيها أداء عبادة جماعية وطقوس معينه لذلك اليوم^(١).

ومما سبق يتضح أن المرحلة المدنية كانت مظهرا للعبادات الاجتماعية وذلك بعد أن رسخت مفهوم العبادة على مستوى الأفراد في الفترة المكية، وقد أسست أول اجتماع إسلامي مستقل بيد رسول الله ﷺ؛ وذلك لكي يدرك المسلمون أن العبادة ليست ظاهرة فردية فحسب، وقد ميزت هذه العبادات بشعائر الإسلام دالة على أن أمة الإسلام ملة مستقلة ولها ذاتية ولا تتبع لأي شرائع.

وأما الصيام فقد فرضت كفريضة بدنية على المسلمين بعد استقرارهم في المدينة الطيبة، وكان بادي الأمر ثلاثة أيام في الشهر حتى جاء حكم فرضيتها في السنة الثانية من شهر رمضان، لكن كان متسعا على الناس حتى كانوا مختارين في دفع الفدية عن صيامهم، وظل الأمر على هيئته حتى جاء الأمر النهائي بأمر صيامه على الأصحاء والقادرين عليها مطلقا.

وفي عبادة الصيام حكمة بالغة من بين سائر العبادات وهي كما يقول السيد المودودي: "ليست عبادة ولا حصول تقوى فقط كما تذكره آية فرضية الصيام (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، بل زيد عليها تكليف الامتثال والشكر لله عز وجل على ما وهب الله لهم الهداية والرشد وذلك بإنزال القرآن الكريم، وخاصة في غضون هذا الشهر العظيم. وليست الصيام إلا الإعراف بجميل الله والشكر على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ومن أعظم هذه النعم الهداية حيث قال تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥)"^(٢).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٤٩-٥٠، وكذلك تفهيم القرآن، ج ٥، ص ٧٠٠.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، كتاب الصوم، جمع: حفيظ الرحمن حسن (لاهور، البدر پبلي كشنر، ١٩٧٨م)، ص ٢٤-٢١.

والمثلث في فريضة الصيام ليجد كذلك حكمة تشريعية بالغة وهي أن الإسلام قد حدد لأداء العبادات أوقاتا معينة تناسب البشرية على مر الأزمان وتغير الأماكن، وتتابع الأجيال جيلا بعد جيل في حضاراتهم المختلفة رغم رقيهم وانحطاطهم؛ وعلى هذا لم تكن أوقات العبادات على حساب عد الساعات ومقدارها بل ارتبطت بأثارها في تحكم العدالة الإلهية وهي دالة في مجموعها على ربانية الشرع^(١).

وميزت هذه الفترة من الدعوة الإسلامية بتشريع الشعائر والعلامات الدينية المتميزة في مجال العبادات الدينية، وذلك لأن عناصر تشكيل المجتمع الصافي للفئة المؤمنة تحت قيادة رسول الله ﷺ قد كملت، وكان لزاما أن تكون للأمة الإسلامية هويتها المستقلة بعيدة عن شعائر الأديان الوضعية والمنحرفة ومتسمة بصبغة التوحيد لله عز وجل، وقد كانت على رأس هذه المظاهر تشريع الأذان وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام؛ وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يتطلعون إلى تشريعهما بناء على الفطرة المنضبطة بالوحي الإلهي، وفيما يلي بيان لهذين الشعيرتين:

١- الأذان: قد شرع الأذان في الفترة المدنية وذلك بعد بناء المسجد النبوي وإقامة صلوات الجماعة فيها؛ ولم يكن بادي الأمر للمسلمين وسيلة لأعلام الصلاة فيها، فاجتمع النبي ﷺ مع أصحابه لاتخاذ وسيلة لإعلام الصلاة فيها، فقال بعضهم توقد نارا ونضرب ناقوسا أو نتخذ بوقا، وعورض الأراء بحجة أن كلا منها شعيرة المجوس واليهود والنصارى، وفي هذا الأثناء جاء عبدالله بن زيد الأنصاري وقصص على النبي ﷺ رؤياه أن رجلا يعلمه الأذان كوسيلة لإعلام الصلاة، فصدقه الرسول ﷺ وأمره بأن يعلمه بلالا حتى يؤذنه بصوت عال؛ فلما رفع بصوت الأذان جاء عمر بن الخطاب ووافقه في رؤياه، وقد حمد رسول الله ﷺ واتخذوه المسلمون وسيلة لإعلام الصلاة، وقد ذهب العلامة ابن حجر بعد سرده لروايات الأذان أن في يوم الرؤيا جاء الوحي السماوي بتعليم الأذان^(٢).

٢- تحويل القبلة: قد توجه النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة في صلواته ستة عشر أو سبعة عشر شهرا إلى أن جاء حكم تحويل القبلة نحو بيت الله الحرام، وقد كان هذا الحكم في السنة الثانية من الهجرة في شهر رجب أو شعبان. روى ابن سعد في سيرته أن النبي ﷺ قد ذهب إلى دعوة أم بشر البراء بن معرور وأثناء صلاة الظهر جاء حكم تحويل القبلة في الركعة الثالثة من الصلاة حيث نزل قوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤)، فولوا كلهم وجوههم، وهكذا عم الحكم حتى أن بني سلمة بلغهم النداء وقد كانوا على صلاة الجماعة في ركوعها أثناء صلاة الفجر، فنادى المنادي ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة فمالوا إلى الكعبة^(٣).

(١) انظر: مودودي، سيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ١١٩.

(٢) انظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري (بيروت: دار المعرفة، ط ١، ١٣٧٩هـ)، ج ٢، ص ٧٩.

(٣) انظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م)، ج ١، ص ١٨٦.

وقد وردت في الرواية أن النبي ﷺ كان يحب قبل نزول الحكم أن يصرف وجهه نحو الكعبة حتى قال لجبريل: (يا جبريل وددت أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود، فقال جبرئيل: إنما أنا عبد فادع ربك وسله، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء فنزلت عليه: ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤).

وعن سر تحويل القبلة يقول المودودي رحمه الله: "يرى السفهاء كما اصطاح عليه القرآن الكريم أن تحويل القبلة مجرد تغير جهة إلى جهة، ولكن حقيقة الأمر غير ذلك فإن الحكم يحمل في طيأته حكما عظيما وهو أن بهذا التحويل قد أزيح عن بني إسرائيل زمام الإمامة والقيادة البشرية التي كانت عليها طوال القرون، واسندت إلى الأمة المحمدية على وسطيتها وخيريتها لدعوتهم إلى الخير والصلاح" (١).

وبالجملة فتحويل القبلة شعيرة الهية حملت مفاهيم عظيمة، أولاها تصحيح مسار عقدي حيث كان السفهاء يعتقدون بتحديد الله في جهة خاصة، والعياذ بالله فجاءت الآية: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، وكذلك منحت للأمة المحمدية ذاتيتها المستقلة فقد كان النبي ﷺ يتطلع إلى نزول الحكم بتغير القبلة، وبهذا قد أعيدت الأمر إلى نصابها حيث كان أول بيت وضع على أساس التوحيد، كما نزع زمام القيادة من أهل الكتاب وفوضت إلى هذه الأمة بناء على وسطيتها وشهادتها على الناس بالحق والخير، وأخيرا كانت اختيارا ومحنة لتمييز الصفوف الصادقين وغيرها حيث قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

٣- الدعوة إلى ترابط المجتمع الإسلامي بعقد المؤاخاة الدينية: لقد ربط النبي ﷺ بآبرام عقد المؤاخاة بين فئات المجتمع الإسلامي فجعل منهم بنيانا مرصوصا، وكيانا تفوق على سائر المجتمعات حيث ذابت فيه نغرات العصبية والجاهلية، وجعلهم يؤمنون بأن لا حمية إلا للإسلام و كما سقطت كل الفوارق بين الفئات على أساس النسب واللون والوطن... وبالتالي لا يتقدم ولا يفوق أحد على غير إلا بدينه وتقواه.

واحتلت هذه الدعوة في مقدمة موضوعات دعوته الدينية نظرا إلى أهميتها وجاءت بعد إكمال الخطوة الأولى ببناء المسجد النبوي ﷺ، وذلك لكي يتلاحم المجتمع الإسلامي ويتألف وتتضح معالم تكوينه الجديد.

وعن أهمية هذا العقد يقول المودودي: "لقد كان هذا العقد مثل المعجزة في تاريخ العالم حيث قدم الأنصار بصدورهم الرحبة مثالا للتضحية والإيثار نتيجة الأخوة القائمة على أساس الدين، وبالتالي فتحوا ديارهم للنبي ﷺ ومن معه من المهاجرين، فسماه الرسول ﷺ من ذلك الحين بمدينة دار الهجرة، وعن مدى إخلاصهم يقول الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٣، ص ١١٥.

وبفعل الأنصار الفائق الذي قدموا النفيس والغالي لإخوانهم تكفل معيشتهم الضنكة والقاسية إثر ترك الديار والأموال، وقد استفاد هؤلاء بجانب آخر بتربية دينية وفكرية أثر امتزاجهم بهم؛ فأصبح هذا المجتمع الوسيط على مر ثمان أو تسع سنوات فقط كمرکز لسلطة العرب كله تسودها الأمن والإطمئنان والرخاء كما توفد لها من كل فج أفواجا ينتهل من ينبوع الهداية والسعادة^(١).

ولم تكن عقد تلك الأخوة في تلك الفترة مجرد حاجة دعت إليها الظروف بل حملت في طياته مفاهيم عظيمة استمرت رسالتها في دعوة الإسلام الخالدة، فأهم آثارها أنها قضت على روح الفوارق بين المجتمعات في ذاك الزمان حيث كانت العصبية دينهم وعقيدتهم، واستهدف عملية الإخاء ياذابة هذه الفوارق بصورة واقعية عملية، وبهذا جعلها رسول ﷺ عقدا نافذا ومجريا ليست على الألفاظ الفارغة فحسب، وعملا لها ترابط بالأموال والدماء، وكما تدل هذا المظهر على رسالة العدالة الاجتماعية للإسلام في كل الأحيان، فصنيع الأنصار حيث حملوا إخوانهم المهاجرين وقسموا ما عندهم من السراء والضراء وإنزالهم في بيوتهم ما دام فيهن متسع لهما، و من ثم إعطاءهم نصف أموالهم ما دام غنا عنهم، دلالة عظيمة على العدالة الاجتماعية في الإسلام، وكل ذلك نتجت عن المؤاخاة الفذة التاريخية التي عقدها صاحب الرسالة والشرية محمد ﷺ بنفسه^(٢).

وأما أهم أثر هذه المؤاخاة والتي ظهرت ثمارها اليناعة في الدعوة الإسلامية وكذلك في كل الأحيان فقد مثلت في "أنها من الأسباب المعنوية للتمكين؛ وهذه المهمة منوطة بالعمل على تربية الأفراد تربية ربانية، وكذلك إعداد القيادة الربانية ومحاربة أسباب الفرقة والأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والوصول إلى هذا المبتغى تمر عن طريق تحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين. وعن هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾ (الأنفال: ٦٢ - ٦٣).^(٣)

وتعليل ذلك وصلتها بالنصر أن المؤاخاة سبب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم، كما أنها تثير المعنويات وباعثة على الشموخ والاعتزاز ويطرد الوهن والفتور.

وقد ذكر ثلة من المؤرخين أن تلك الأخوة قد أوجدت أصلها في مكة بين المهاجرين وعلى رأس هؤلاء أحمد بن يحيى البلاذري^(٤) حيث أشار بأن النبي ﷺ أخى بين المؤمنين قبل الهجرة وكان موضوعها الحق والمواساة ومن بين

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٣، ص ٥٩-٦١.

(٢) انظر: السباعي، مصطفى بن حسني، السيرة النبوية - دروس وعبر (بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م)، ص ٧٥.

(٣) انظر: الصلابي، علي محمد، فقه التمكن في القرآن الكريم (عمان، دار البيارق، ط ١، ١٩٩٩ م)، ص ٢٤٣.

(٤) البلاذري (٢٧٩ - ٣٠٠ هـ): أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري: مؤرخ، جغرافي، نساب، له شعر. من أهل بغداد. جالس المتوكل العباسي، ومات في أيام المعتمد، وله في المأمون مدائح. وكان يجيد الفارسية وترجم عنها كتاب (عهد أزدشير). من كتبه: فتوح البلدان، والقراة وتاريخ الأشراف أجزاء منه، ويسمى (أنساب الأشراف). انظر: الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ٢٦٧.

الذين أخی بينهم: بين حمزة و زيد بن حارثة، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود، وبين أبي بكر وعمر وبين عثمان بن عفان.... وكان بين رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب (١).

وقد ضعف أصحاب السير الرواية السابقة حتى أنها لم يذكرها من القدماء إلا البلاذري، وقد عللوا القول: "بأن المهاجرين كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار، وقربة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار" (٢).

ومن اللازم التنويه أن عقد المؤاخاة وإن جاء في المرحلة المدنية إلا أن بوادرها قد ظهرت في المرحلة المكية من دعوة النبي ﷺ حيث دعا أصحابه في تلك الفترة العصبية إلى إحياء روح التكافل والمؤاساة والتناصح إلى الخير والصبر على المصائب ونحوه، وقد ورد عنه ﷺ قوله: (لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ) (٣).

وهنا تختلف الدعوة إلى الأخوة في تلك المرحلتين؛ فالأخوة الأولى في الفترة المكية جاءت على منطلق القيم الأخلاقية وإحياء روح التكافل الاجتماعي بين المسلمين الميسرين والمعسرين في تلك الفترة العصبية من الدعوة الإسلامية، وأما في المرحلة المدنية فكانت الأساس الأول منها القضاء على الفوارق بين فئات المجتمع الإسلامي الجديد الخالص والمكون من المهاجرين والأنصار، وكذلك التكافل والرعاية لحالة المهاجرين المطردين من ديارهم من جانب وكذلك تربية والرعاية الفكرية لأصحاب الدار (الأنصار) حيث كانوا حديثو عهد بالإسلام، وعلى هذا لم تكن النظر إلى الظروف المعيشية هي الأساس الأول منها، وكما صرح المودودي فإنها لو كانت لأعطى الله في الميراث حقاً لهم ولكنه جعله حقاً خالصاً في الورثة على أساس القرابة فحسب، ومن هنا جاءت نتيجة هذه الأخوة سريعة في حياة المسلمين.

المطلب الثاني: محاربة أنواع الجاهلية والفساد

لقد أخذ الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم إلى جنب الحث والترغيب إلى مكارم الأعمال ومعاليتها وعلى رأسها توحيد الله عزوجل، نبذ وحارب سفاسف الأعمال وأحطها التي تنزل الإنسانية إلى درجة الأنعام وتبعدهم عن المكانة المرموقة التي عين الله عزوجل لهم.

وبناء على ذلك فالدعوة النبوية تكونت من محورين أساسيين:

١- جانب التعليمات الوجودية وهي التي حث عليها وأمر الامتثال بها.

(١) انظر: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي (بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م)، ج ١، ص ٢٧٠.

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر سعد شمس الدين، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)، ج ٣، ص ٥٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الأداب، باب: الهجرة، رقم الحديث: ٦٠٧٦.

٢- جانب التعليمات العدمية وهي التي حذر الله عباده عن اقترافها والاقتراب منها؛ وعلى رأس هذه التعليمات قمع الفساد ومحاربة الجاهلية بأنواعها.

قمع جذور الفساد: الفساد هي تغير الحالة الأصلية في الكون والحياة والتي وضعها الله تعالى على حالة الصلاح، وبها بعث أنبياءه حتى يسيروا عليها إلى أن يلقوا ربهم على تلك الفطرة السليمة؛ إلى أن النزعات الشيطانية والنفيسة توحى إلى الإنسانية بتغير المسيرة ويتقلب الحال إلى سواها، وحينئذ من مهام الأنبياء أن تقلع هذه الجرثومة من جذورها ويرشد الناس إلى صلاحهم.

وعن تعريف هذه الظاهرة يعني الفساد يقول المودودي رحمه الله: "الفساد هو الخروج عن طاعة وعبودية الله تعالى والتوجه نحو النفس والآخرين، وكذلك ترك التعليمات الإلهية في مجال الخلق، والعيش والحضارة والأخذ بدلا منها بمناهج غير الإلهية بعيدة عن الدين"^(١).

والناظر في التعريف السابق ليرى أن الفساد مفهوم شامل ترتبط بكل مجالات الحياة وليست منحصرة في نطاق العقيدة والتدين كما هو المألوف بل تشمل الخلق والمعيشة والحياة الحضارية بمفهومها المعاصر؛ وبالتالي تتن المجتمعات البشرية من كوارثها في شتى النواحي وهو المقصود القرآني بقمعها وإزاحتها.

ويرى المودودي أن الكون أحدث على نظام الصلاح والاستصلاح ولم يكن الفساد والجهالة والتمرد الذي يسببها الإنسان إلا عارضة لاحقة جاءت بعد الحالة الأصلية واستمرت فيها حتى أفسدوا الكون نتيجة الشرك والبهيمة والجهالة، وعلى هذا فقد أرسل الله رسله لتغير المسار الخاطئ وتوجيه الناس إلى حقيقتهم ورشدهم.

ودعوى النبوة احتوت بطبيعة الحال على تغير التكافل للمسار الإنساني، ويقتضي دعوتها وجود نظام سياسي يمثل فيها طاعة الله بوجهه الأكمل وكذلك استصلاح حالة الناس المادية والمعنوية إلى ما فيها خير وصلاح دنياهم وأخراهم.

إن جذور هذه الفتنة العريضة في طول تاريخ الإنسانية نتجت عن ادعاء ألوهية الإنسانية لنفسه أو لغيره، فتارة تكون على هيئة فردية وتارة يدعيها لقومه أو لطبقاتهم، وعلى هذا يعلنون القومية إلى مقام الألوهية، وما الأنظمة الدكتاتورية إلا صورة من الادعاء السابق لفرعون حيث قال: ﴿يَتَأَيَّهَا أَلَمَلًا مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾، وهذا الادعاء يجعل الإنسان سكرانا مخمورا كما لو شرب كأسا من الخمر وفقد وعيه وتصرفاته ويصدر منه أعمالا لا يعيها، فال بشرية التي ادعوا الألوهية صدرت عنهم الظلم والطغيان والتمرد وقضوا على إثرها على قيم العدل والحرية وكل النزعات الفطرية^(٢).

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ١، ص ٦٩.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، اسلامي رياست، ترتيب: خورشيد أحمد (لاهور، اسلامك پبليكيشن، ط ١، ١٩٦٧م)، ج ١، ص ١٤٩.

والمتتبع في سيرة النبي ﷺ ليجد خير شاهد على هذا، فهو جعل جوهر دعوته القضاء على جرثومة الفساد المتمثلة في الشرك وعبادة غير الله، وقد كان صورة العهد المكي دعوة نظرية، وأما في المرحلة المدنية فضمت إلى الدعوة النظرية العمل التطبيقي أيضا وهي ازاحة مظاهر الشرك أيا كان. والنبي ﷺ عمد في آخر حياته الطيبة إلى إزاحة آخر معادل الشرك في أنحاء الجزيرة العربية وأنهى مع المشركين والكفار موافيقهم، وعن هذا يقول المودودي: لقد بعث رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة بعد غزوة تبوك أبابكر الصديق أميرا للحج، وفي تلك الأثناء نزل الوحي بآيات من سورة براءة بشأن أمور الحج وتنظيم المجتمع الإسلامي؛ ثم أرسل على رسله علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى يقوم بين الناس ويبلغ رسالة الرسول ﷺ إليهم وفيها:

١- لا يدخل الجنة بتاتا من ينكر حقيقة الإسلام.

٢- ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك.

٣- ولا يطوف أحد بالبيت عريانا.

٤- نبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأجل لهم أربعة أشهر حتى يتركوا البلاد، أو أن يسلموا، وإلا النهاية مع الحرب القائمة عليهم، وقد أبقى للذين لم ينقضوا العهد إلى مدتهم.

وهذا الإعلان والنداء كانت بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب وأنها لا تبدي ولا تعيد بعد هذا العام، وأصبح بالفعل وجودهم عمليا خارج الدستور وما عليهم إلا أن يستسلموا.

وقد ظهرت حكمة هذا الإعلان في وقت قصير بعد وفاة النبي ﷺ حيث ارتد قبائل العرب عن الإسلام، فلو لم يعلن النبي ﷺ نهاية هذه الفتنة آنذاك لكان أولئك المشركين يترصدون للمسلمين ومنتهزين للفرص، إما بهجوم الفرس والروم أو بوفاة النبي ﷺ حتى يأتي على المسلمين من بين أيديهم وخلفهم، وهذه البراءة تظهر كذلك سمو أخلاق النبي ﷺ وعلو دستوره حيث عمد إلى نهاية العهد بضرب الأجل لهم وما أتى عليهم بغتة^(١).

محاربة أنواع الجاهلية: لقد واجه النبي ﷺ في دعوته أمام عديد من التحديات الأساسية؛ وكانت على رأس هذه العوائق الجاهلية بأنواعها حيث اتخذها الناس في تلك الزمان كدين ومنهج لحياتهم.

ويقول السيد المودودي حول تعريف المصطلح: "وفي مواجهة مصطلح الدين الحق لفظ الجاهلية، ونعني بها كل الأنظمة المخالفة للإسلام؛ بحجة أن أساس الدين الإسلامي هو الوحي الإلهي وأما الأنظمة الوضعية فتسير على وفق الهوى والتقدير والاهتمام؛ ولهذا أنسب مصطلح لها الجاهلية"^(٢).

وقد جاءت هذه الجاهلية بأنماطها المختلفة على شكل العقيدة والخلق والعادات والعبادات ويمكن أن نصنفها في ثلاث مجموعات وإن اختلفت قوتها وضعفها في حياتهم إلى ثلاثة أنواع.

الجاهلية المحضة، جاهلة الوثنية والشرك وآخرها جاهلة الرهبة، وفيما يلي بشيء من التفصيل حولها:

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٣٩٨، وكذلك انظر: تفهيم القرآن، ج ٢، ص ١٧٨.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٢٥٣.

١- الجاهلية المحضة: إن أول نمط لهذه الظاهرة هي الجاهلية المحضة والتي سيطرت على عقول الناس وعقيدتهم وأفكارهم وخلقتهم وعاداتهم ، وبدت تظهر مظاهرها في كل الأحيان واستمرت حتى يومنا هذا ، وغدت تسيطر على روح الحضارات الغربية في صورتها الجديدة رغم دفع شعار العلم والتنوير ، وقد أصبح روادها يسطرون لها الأصول والقوانين ومن ثم يطرحونها في صفحات العلوم والفنون الجميلة .

يرى المودودي أن الجاهلية المحضة في صورتها القديمة عبارة عن التصور الخاطئ للكون ونوع التصرف الإنساني وحولها يقول: "يرى هؤلاء إن وجود هذا الكون نوع من الصدفة ولا يوجد وراءها حكمة ولا مصلحة ولا أي نوع من المقصد وهكذا تحدث وتفني ، وبالتالي الإنسان فيها نوع من الوجود ، لا يوجد وراءها أي غاية ، وأقصى ما يجب على الإنسان فعله هو تحقيق رغباته الحوانية ، وبهذا لا يوجد وراء ذلك أي مصدر إلهي تنير للإنسان طريقه وإن جل ما أدركه الإنسانية من الدساتير والقوانين فهو يستجد عن التجارب التاريخية حيث أكسبها على مر العصور واستبدلت بالقوانين ومناهج الحياة فحسب"^(١).

ومما سبق يتبين أن الجاهلية هي آفة البشرية والتي ابتليت بها على مر العصور وأبعدهم عن الغاية المنشودة التي لأجلها خلق في هذه المعمورة ، وعلى هذا يرون أتباعها أنهم أحرار عن كل الالتزامات التي يضبط حركاتهم و سكناتهم ويجعلهم يفكرون أن مقياس الظفر بالحياة هي الأخذ بالعاجل والقريب وأن الفائز هو الذي يأخذ من عيش الحياة وملذاته ، وبالعكس يرون القيم الإنسانية خدعة وحيلة يظفر بها من يكون صاحب حظ أوفر من الحيل والمكر ، والقسوة والخباثت وهكذا من يأخذ على الآخرين بالبطش والعنف ؛ وقد ظهرت هذه الظاهرة في فلسفات العصر الحديث فيرى أحد نجومه اللامعة ميكاولي^(٢) حيث يرى أن المراد بالحق هو القوة والباطل عدم تملكها ، ويقول أيضا أن المعرفة السياسية مهمتها تعليم الحاكم فن الشر ؛ وعلى هذا فقد أصبحت الميكافلية على مر العصور رمز للخدع والغدر والأخلاق^(٣).

والناظر في سيرة الأنبياء عليهم السلام وخصوصا في سيرة النبي ﷺ سيجد الحرب الشرسة مع هذا النوع من الجاهلية . فهذا هو الحبيب ﷺ حينما سمع مشاجرة بعض المسلمين في غزوة بني المصطلق سنة ٦ من الهجرة ، حيث كان واحدا من قبل المهاجرين باسم جهجاه بن سعود الغفاري والآخر من الأنصار باسم سنان بن وبر الجهني ، و ضرب أحدهما الآخر برجله وعاب على قومهم فنادى الأنصار عشيرته وقومهم عليه والمقابل مثله ، فلما سمع النبي ﷺ

(١) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٣٥٤-٣٥٥ .

(٢) نيكو مكيا فيلي (١٤٦٩م - ١٥٢٧م) : كان مفكرا وفيلسوبا سياسيا إيطاليا إبان عصر النهضة . وأصبح هو الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي ، والذي أصبحت فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي ، أشهر كتبه على الإطلاق كتاب الأمير ، والذي كان عملا هدف منه أن يكتب نصائح للحاكم ، وقد نشر الكتاب بعد موته وأيد فيه فكرة أن ما هو مفيد فهو ضروري ، والتي كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية ، وقد فصلت هذه النظريات في القرن العشرين . انظر : ويكبيديا الموسوعة الحرة .

(٣) انظر : مجاهد ، حورية توفيق ، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبدة (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١ ، ١٩٨٦م) ، ص ٣٠٦ .

حذرهم قائلا: (مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟ ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ فَأَخْبَرَ بِكَسَعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعَوْهَا فَإِنَّهَا خَيْثَةٌ^(١)).

فالحديث السابق يوضح مدى محاربة الإسلام للمظاهر الجاهلية والتي حدثت بين فئات المؤمنين حيث عمد إلى الأسلوب السابقين لاستعمال البطش وكذلك مناشدة طائفة في مقابل الآخر، وقد حذر النبي ﷺ أثناء رفع دعواها وعد كل منهما مظاهر الجاهلية بلفظة صريحة " مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟ "، وقد شبه بمثل هذه الشعارات والمباهاة بالجيفة والمنتنة يفر منها العقلاء. وعلى هذا جاءت رسالة الإسلام بالكلمة السمحة وعد التحلى بمعالي الأخلاق والقيم أصل النجاح والفوز، والذي يملك نفسه عند الغضب فهو الرجل الشديد والمصارع لنفسه، وبالتالي فقد جاءت المصلحة النهائية لهذه القيم أن المجتمع الإسلامي أصبحت مجتمعا مثاليا في معاني الإنسانية والتفوق. **٢- الجاهلية الوثنية الشركية:** النوع الثاني من أنواع الجاهلية هي جاهلية الوثنية الشركية والتي سيطرت على العقول البشرية والحضارات الإنسانية على مر العصور؛ فقد اختلفت هذا النوع من سابقتها (الجاهلية المحضة) في معتقدها ومدى تصورهما عن الكون والخالق إلا أنها اشتركت معا في السلوك والأخلاق وهكذا في الوسائل والأسباب. وقد كانت مهمة الأنبياء طوال العهود القضاء على هذه الظاهرة حيث ظهرت في كل مرحلة بأشكال عديدة من تقديس عناصر الطبيعة، وعبادة الأنبياء والمرسلين وحتى الأولياء وكذلك تقديس بعض المعاني المجردة والعناصر الخيالية التي لا وجود لها في الخارج إلا المسمى.

وعن تعريفها يقول المودودي: "جاهلية الوثنية عبارة من التصور والمعتقد السائد في المجتمعات البشرية المنحرفة حيث يرون أن العالم والكون خارج عن الصدفة وقد تحكمه ألهة متعددة؛ وهذا التصور افرقت بنوعين من المعتقدات: معتقد إله الأكبر والذي تنضم حوله آلهة صغيرة أو أرباب متفرقون يساعدون في تصرف الأمور وإنفاذ أوامره، ونوع لا تحد تحت سيطرة الإله الأكبر بل تعد كل منهن -والعباد بالله- ذوات مستقلة ولها دوائر ومجالات"^(٢). فالتعريف السالف يوضح أن هذا النوع من الجاهلية على عكس نمطها الأول منهج روعي وميتافيزيقي ترشد الإنسان بأن يؤمن بوجود آلهة تحكم العالم أما بصورها المستقلة و على حدة أو بوجود أكبر إله ملتهف حوله مجموعة من الآلهة الصغيرة وله تصرف وتدبر وسلطة على الآلهة الصغيرة، وأما الإنسان في هذا النوع فهو تحت مراقبة عقدية وحريتها مضبوطة بالالتزام ببعض الأصول والقواعد مع الآلهة بخلاف ما كانت في الجاهلية المحضة.

وقد تتابع المودودي مسيرة هذه الوثنية في الفترات المختلفة وذهب القول بأن آفة البشرية: "أنهم قد ابتلوا على تلو الجاهلية المحضة بالجاهلية الوثنية واختاروا لأنفسهم آلهة يتوجهون إليهم في السراء والضراء، وقد بعث الله في كل فترة أنبياء ورسله كي يعدلهم عن الغي والطغيان الفكري، إلا أن هؤلاء قد زادوا الطين بلة بعد وفاة أولئك الهداة المرشدين فاختاروا الأنبياء، والأولياء والشهداء والصالحين والمجاهدين وغيرها من المسميات التي ابتدعوها من

(١) صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: ما ينهى من دعوة الجاهلية، رقم الحديث: ٤٩٠٧.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٢٥٧.

الأقطاب^(١) والأبدال^(٢) والأوتاد^(٣)، والعلماء والمشايخ وباقي الأسماء المتداولة في التصوف كمتصرفي حياتهم يأوون إليهم، وعد هؤلاء جميعا واسطة تقربهم نحو الإله الحقيقي، وبالتالي اتخذوا قبورهم وآثارهم معلما ظاهرة للوصول إليهم.

ومع العجب أنهم أحدثوا بعده سلوكا وأصولا تيا لوجية مزودة بالتعليمات وأهمها التوسل والاكتساب والفيض ونحوه يطبقها مع الطقوس الخاصة في حياتهم العلمية، ومن هنا قد تلقى هذه الوجهة مع الوجهة الشريكية القديمة إلا أن الفارق أنهم تغيروا أعلام ابن الله، ديوتا، أوتار ونحوه وهؤلاء يعرضونها باسم القطب، الأبدال وأهل الله وغيره من المسميات الشريكية وما هي عملهم إلا كالوجه الثاني للعملة القديمة^(٤).

والناظر في تاريخ العرب والحضارات المعاصرة لبعثة النبي ﷺ ليرى أن تلك المجتمعات قد ابتليت بهذا النوع من الوثنية حيث ورثوها العرب جيلا بعد جيل المباهاة والتقديس بالصالحين والأولياء وعدوا أولئك كالشفعاء عند الله، وكانوا يعبد منهم بنية التقرب إلى الله، وأما في الجانب السلوكي والعيش خارج إطار الروحانية المزيفة فالتفت هذا النوع من الجاهلية بمثلتيها المحضة في أكثر أحوالها واختلفت في أشياء بسيطة؛ وعلى هذا يحسن بنا أن نتطرق إلى بعض الفروق بينهما:

١- إن علاقة الإنسان بالإله في الجاهلية الوثنية تتحدد في نطاق تصور العبودية؛ حيث يتصور صاحبها أن الإله ذو نفع وضر ويجب التوجه إليه، وأما في باقي التوجهات والأوامر حول منهج الحياة فلا دخل له للإنسان، وهنا تلتقي بالجاهلية المحضة في سير الحياة ومواصلة السير الحضاري في الخلق والأعمال.

٢- لا توجد ثمة فارق بين الجاهليتين في اكتساب العلوم والفنون وتصورهما إلا أن المناهج تختلف في أمر اكتسابها، فالجاهلية الوثنية تميل إلى نوع من الخيال وبالعكس لا تميل إلى هذا المنهج بل تعتمد إلى الأمور المحسوسة فحسب.

٣- لقد التقت الجاهلية في نوع التعامل الحضاري ومع مجتمعاتها إلا أن نوع الأساليب والصور اختلفت، فالجاهلية المشتركة يمنحون للملوك مقام الإله ويرفعون الموجهين الروحانية إلى جنبها نظر التقديس، وأما في الجاهلية

(١) القطب عند الصوفية: هو الذي يكون على قلب محمد عليه الصلاة والسلام ويسمى أيضا بقطب العالم ويسمى بالغوث أيضا. وهو بذلك أعلى مرتبة يصل إليها الصوفي ومن وظائفه كما يقول التصوف والتأثير في الكون ووقاية الأفراد. انظر: التهانوي، كشف اصطلاحات العلوم والفنون. ج ٢، ص ٣١٨.

(٢) الأبدال في اصطلاح الصوفية يطلق تارة على جماعة بدلوا صفاتهم الذميمة بالصفات الحميدة وليس عددهم محصورا، وتارة يطلق على عدد معين؛ وسموا بذلك لأن الحق جل وعلا أعطاهم قوة بحيث يتنقلون حيث يشاءون، وإذا أرادوا أمكنهم وضع صورتهم في موضع، فإنهم يضعون شخصا على مثالهم بدلا عنهم. انظر السابق نفسه، ج ١: ص ٨٧.

(٣) الأوتاد هم الرجال الأربعة الذين على منازلهم الجهات الأربع من العالم، أي المشرق والمغرب والجنوب والشمال، بهم يحفظ الله تلك الجهات لكونهم محال نظره تعالى. انظر: السابق نفسه، ج ٢، ص ١٧٥٥.

(٤) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٣٥٧-٣٥٨.

المحضنة فالكلمة العليا والأخيرة لأصحاب البطش والقوة والديكتاتورية التي نتجت عن نظام الطبقات أو العرف نحوه^(١).

وقد حظي هذا النوع من الجاهلية والذي كان مسيطر في المجتمعات الإنسانية زمن بعثة النبي ﷺ الاهتمام بمحاربتها، وقد بدأت باكورة الدعوة المكية بإصلاح العقيدة إلا أنها في المرحلة المدنية قد صرف جل الاهتمام لنزعها واقتلاعها، وقد تحققت في أخريات حياته الطيبة ﷺ في المجتمع العربي وأوصى أمته على الانتباه لها لعظمة خطورتها وفيما يلي إشارة إلى نموذج منها: لما من الله على رسوله ﷺ في السنة الثامنة من الهجرة بفتح مكة بعث على إثرها سراياه إلى الأوثان والأصنام التي كانت حول الكعبة فهدمت كلها، فكان منها اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ونادى منادي بين أهله: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَلَا يَدْعُنَّ فِي بَيْتِهِ صَنَمًا إِلَّا كَسَرَهُ)^(٢)، وقد بعث بعدها سراياه إلى القبائل المحاطة فهدموا أصنامهم وكان من بين الآثار الجاهلية المقدسة وشعائرها الظاهرة عندهم ذو الخلصة حيث هدمت على الفور^(٣).

روي الإمام البخاري عن جرير بن عبد الله قال: (كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْتٌ، يُقَالُ لَهُ ذُو الْخَلَصَةِ وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الْكَعْبَةُ الْيَمَانِيَّةُ أَوِ الْكَعْبَةُ الشَّأْمِيَّةُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ أَنْتَ مُرِيحِي مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ قَالَ: فَنفَرْتُ إِلَيْهِ فِي خَمْسِينَ وَمِائَةِ فَارِسٍ مِنْ أَحْمَسَ، قَالَ: فَكَسَرْنَا، وَقَتَلْنَا مَنْ وَجَدْنَا عِنْدَهُ، فَأَتَيْنَاهُ فَأَخْبَرْنَاهُ، فَدَعَا لَنَا وَلِأَحْمَسَ)^(٤).

وفي حادثة مثلها لقد سد النبي ﷺ في ختام رسالته ونبوته أبواب الوثنية والشرك وذلك بوضع تشريعات للمجتمع الإسلامي، فمنها أن في السنة الثامنة من الهجرة قد ترك الحج بعد فتح مكة على طريقتها القديمة، وفي السنة التالية أدوه المسلمون على طريقتهم والمشركون على طريقتهم، وفي أثناءها جاء الإعلان الإلهي بجعل هذا البيت خالصة لأهل التوحيد، ومن ثم جاء النبي ﷺ في السنة العاشرة حاجا إليه وقد كانت جذور الشرك قد اجتثت من حولها. ولم يكن ذلك الإعلان بمنع هؤلاء من الحج فحسب بل كان بمنعهم عن الإقتراب لحدود الحرم حيث قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٨).

(١) انظر: السابق نفسه، ج ١، ص ٣٥٩.

(٢) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، المحقق: رشدي الصالح ملحق (بيروت، دار الأندلس للنشر، ب ت ط)، ج ١، ص ١٢٣.

(٣) انظر: الندوي، أبو الحسن علي الحسني، السيرة النبوية، ص ٤٦١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: ذكر جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، رقم الحديث: ٣٨٢٣.

وقد كانت ضمن التشريعات نهاية تولية ورعاية المسجد الحرام حيث أخذت من المشركين والعرب الذين كانوا يؤدونها كحق إرثي لهم ومن ثم جاء الإعلان الإلهي بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (التوبة: ١٧).

وهذا الإعلان الإلهي تشريع صارم بأن المساجد بنيت لعبادة الله وحده، وبالتالي لا يكون متولي أمورهم وراعيهم وخدمهم إلا من يؤمن بالله وحده؛ ولا يمكن بتاتا أن يكون للذين يتخذون مع الله شركاء في ذاته وصفاته وأسمائه وكذلك في مدى حاكميته وتشريعه. وفي الآية التالية جعل الله هذا المنصب لأهل الإيمان خاصة قائلا: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٨) ﴿ أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) (التوبة: ١٨-١٩).

و في الآية الكريمة الأخيرة إشارة واضحة لمتولي مظاهر الشرك في كل الأحيان، فكثير ما تأخذ الأسر الروحانية رعاية القبور ومعالم الأولياء وأثارهم، يبنون المنارات بمقامهم ومن ثم ينسبون أنفسهم متولى هذه المقامات ويحسبون أنهم جلساء بساطهم وغيرها من البدعات فإنها لا تعدل عند الله بأية منزلة وما هم إلا نوعا للظلم و البدع^(١).

وبالجملة فإن الرسالة النبوية ﷺ في العهد المدني كافح مظاهر الجاهلية الوثنية والشركية وأعلن حربا شاملا على كل مظاهرها، وأوصى أمته البعد عن جرائم مظاهرها في خطبة حجة الوداع، معلنا أن الشيطان قد يئس من أن يعبد في هذه الأرض الأوثان والأصنام إلى أنه يسعى بأن تظهر معالمها في حياتكم، فالحذر كل الحذر من إتباعها وخطورتها.

٣- الجاهلية الرهبانية: النوع الثالث من أنواع الجاهلية التي كافحها النبي ﷺ في دعوته جاهلية الرهبانية والتي كانت سائدة في بعض مجتمعات الجزيرة العربية وكذلك في الحضارات الرومية، والأوساط البوذية المنتشرة في ربوع الأرض، وقد كانت خطورتها ليست بقليلة بل أكثر من الجاهلتين السابقتين؛ فأحدهما سيطرت على حياة الناس المادية والأخرى على حياتهم المادية والمعنوية وأما هذا النوع فقد غدت سيطرت على الحياة المعنوية وأثرت في الحياة المادية وكانت نكباتها أثقل من الآخرتين المحضة والوثنية.

وعن تعريفها يقول المودودي رحمه الله: "إن أصحاب هذه النظرية تقول أن هذه الدنيا وهذا الوجود الإنساني المسجد دار عذاب وشقاء للإنسان، وما روح الإنسان في هيكل جسده إلا كالأسير حبس في السجن جزاء ما

(١) انظر: مودودي، سيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ٢، ص ٢٦١-٢٦٣.

قدمت يده، وأما اللذات والرغبات وجميع ما يمس الإنسان من الحوائج فهي في نفس الأمر أغلال هذا السجن وسلسله^(١).

فالتعريف السابق بين أن هذا النوع من الجاهلية نمط روحي ومعنوي سيطرت على عقول الناس باسم الدين والروحانية وفرضت عليهم طقوسا وتكاليف فوق ما يطاق وأصبح حالهم معها كالأغلال والسلاسل في مواجهة سير الأمور والتي لم يكتب الله عليهم كما يقول جلا وعلا: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٧).

وبالتالي كان على الناس أشد وطئا على نفوسهم والتجأوا إلى النفور من الدين والبراءة منه، وقد جاءت نتائجها معكوسة وصب الماء في صالح الطالحين، وعن تأثيرها السيئ ولقاءه مع النوعين السابقين يقول المودودي رحمه الله:

١- إن الجاهلية الرهبانية تعزل أهل الصلاح والبر عن أمور الدنيا ومشاغلها في المجتمعات وترمي بهم في الزوايا والخلوات، وبالتالي يخلو الجو والمكان لأقصى أنواع المفسدين، فيفعلون كما يشاؤون بينما يظل الصالحون يرهقون ويتعبون بصفوف المشاق.

٢- إن جاهلية الرهبة حيثما ينفذ أثرها في عامة المجتمع تجعل أولئك لقمة سائغة لأهل الظلم والأهواء والعدوان، وتبعث على إثرها في نفوسهم التشاؤم والقنوط؛ ولأجل ذلك لم يزل الملوك والأمراء يهتمون عناية خاصة ببث الفلسفة الرهبانية في رعاياهم.

٣- عندما تخيب هذه الفلسفة الزائفة ونظام أخلاق الرهبة في إصلاح البشر فيلجأ أصحابها إلى الحيل والمعاذير يستتر بهما، فمرة تبتدع عقيدة كفارة المسيح ليستنى للمرء أن يخوض في المآثم والملاهي بلا حذر، و تارة تحاول الاستسلام للشهوات باسم العشق المجازي المقدس حتى يتيسر للمرء أن يقضي لبانة غريزته ونفسه الأمارة بالسوء بدون أن تنتهم طهره، ومرة أخرى يأتي دهاء وحيل رجال الدين في التآمر مع الملوك والأمراء باسم الزهد في الدنيا وهم يأخذون معهم نصيبهم الدنيوي^(٢).

والناظر في تاريخ البشرية ليدرك ببصيرة تامة أن الرهبانية كانت مصيبة جديدة على الإنسانية، زادت لها نكبات متراكمة، وعلى إثرها فقدت البشرية خصالها الحميدة حيث كانت فيها منذ الفطرة الأزلية واستبدلت تلك القيم بالرزائل، وزلزلت دعائم الحياة الأسرية وأصبحت المجتمع مجتمعا قاسيا لا تعرف الشفقة ولا الحنون، ومع الأسف أن كل ذلك جاءت باسم الدين والشعائر الإلهية؛ وشتان بين ذلك وبين الدين الحق.

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ١، ص ٣٦١.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، موجز تاريخ الدين وحيائه (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م)، ص ٢٣-٢٥.

فالنبي ﷺ حينما جاء صحح مسار الإنسانية إلى ماله حاجة، ولم يكن دعوته مجرد نهى، وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قائلا: "والنفوس خلقت لتعمل لا لتترك، وإنما الترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل صالح، وإلا لم يترك العلم السييء، أو الناقص"^(١)، وخير مثال ذلك أن الدين حينما ينهى عن منكر إلا ويؤمر بمعروف وينهى عنه كما يؤمر بعبادة الله سبحانه وينهى عن عبادة ما سواه.

وفي السيرة النبوية المطهرة ﷺ أمثلة حية ونماذج عملية لتزويد النزعات الإنسانية بطرق ثلاث فطرتهم وعلى هذا لم تكن مقصد الدين مجرد النهي فحسب بل أمرهم بالمعروف والقيم التي تسمو منزلتهم. روي الإمام أبي داود عن أنس قال: (قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى، وَيَوْمَ الْفِطْرِ)^(٢).

وبالجملة فإن الرسالة النبوية ﷺ حارب الجاهلية التي واجهت البشرية بأصنافها المختلفة حيث كانت تعطل كل نوع منهما الحياة المادية والمعنوية ويجعل من الإنسان مخلوقا تعبد هواه أو تسلم لرغبات الآخرين، بعيدا عن المنهج الرباني؛ وبهذا قد مسخت النزعات الفطرية على إثرها حتى جاء النبي ﷺ وأزال الصدا عن الفطرة وزودهم بتعليمات سامية تعلو نحو القيم وتناسب مفهوم الخلافة التي لأجلها خلقوا في هذه المعمورة.

المطلب الثالث: معالم الدعوة في هذه المرحلة

اتسمت المرحلة المدنية من الدعوة النبوية ﷺ بالنسبة للعهد المكي بإكمال الدين ونضج ثمار الدعوة التي بدأها النبي ﷺ في وقت عصيب وظروف قاسية وبين أناس عاشوا في ظلام غامس، وبالتالي حينما أتى لهم كانت هذه الدعوة غريبة عليهم؛ وأما في هذه المرحلة فقد ربت أمة على المنهاج النبوية، وقد حان لهم أن يحصدوا مصلحتهم الدعوية بعد دعوة وجهاد مستمر، وقد كان أهم هذه المعالم النصر والتمكين وكذلك قيادة وأستاذية العالم، وفيما يلي بيان لهذين المعلمين بشيء من التفصيل:

١- قيادة وأستاذية العالم: لقد أسس الرسول ﷺ بتعليماته النيرة وإيمانه العميق وتربيته الحكيمة وشخصيته الفائقة، وفوق كل ذلك بفضل الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه، وبعد دعوة استمرت أكثر من عقدين أمة اتسمت بالخيرية والوسطية، أخذت على عاتقها رسالة نبيه ﷺ كميراث نبوي عازمين على إيصاله للعالم كله؛ وذلك بأنها خاتم الرسالات، فكان حريا أن يأخذ هذا الجيل الفذ زمام القيادة البشرية وأستاذيتها على مر العصور، وبهديهم إلى الصراط المستقيم والعدل والخير والسعادة الدنيوية والأخروية وعنهم يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

(١) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل (بيروت، دار عالم الكتب، ط ٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، ج ٢، ص ١٢٦.

(٢) سنن أبي داود، كتاب: الصلاة، باب: صلاة العيدين، رقم الحديث: ١١٣٤. قال الألباني: هذا حديث صحيح.

وعن بيان أهمية هذه المعلم يقول السيد المودودي رحمه الله: تضمنت هذه الآية الكريمة إعلان إمامة أمة نبينا ﷺ، وفيها إشارة واضحة على أن هذه الأمة بناء على اتباع نبينا جعلت أمة وسطا، وقد جاء هذا الإعلان بعد تحويل حكم القبلة حيث تضمنت رسالة واضحة على أن زمام القيادة قد أزيحت عن بني إسرائيل وأعطيت للأمة المحمدية. ومصطلح أمة الوسط تحمل في طياتها معاني عظيمة، وأكبر مفاهيمها أن هذه الأمة ذو مكانة عالية وسامية فهي قائمة على أساس العدل والمساوات وطريقهم وسط وفضيلة، ومكانتهم بين الأمم كالقلب الذي يتوسط الجسم الإنساني.

ويقال في تأويله كذلك أن الأمة أطلقت عليها صفة الوسطية بناء على أخذ مهام الشهادة، فالله تعالى يأخذ من رسوله ﷺ يوم القيامة شهادة تبليغ الدين والرسالة وأنه قدم للناس الفكرة الصحيحة عن العقيدة كما أرشدهم إلى العمل الصالح، ومن ثم قدم رؤية نظام عادل في العمل وبعده سوف يقوم المؤمنون من الأمة المحمدية وتشهد نفس الشهادة على الأمم بحجة تخليفهم ووراثتهم مهام النبوة بعد وفاته ﷺ.

وبناء على ذلك فاختيار هذه الأمة في هذه الدنيا لمهام الشهادة دليل واضح على قيادتهم وإمامتهم، وهي في الحقيقة عبء ثقل لأن هؤلاء ملزمون بأن يقولوا الحق ويتقوا الله في حياتهم، ويطيعوا الحق والعدالة في معيشتهم حتى يروها باقي الأمم بأعينهم وبصيرتهم^(١).

وهذه القيادة والأستاذية التي منحت للمسلمين وللعرب بحجة أنهم المعتنقون الأوائل لهذه الرسالة، بناء على حملهم لهذه الدعوة وتفانيها فيها وتقديم الأعلى في سبيلها، ومهما افتقدوه في غيره فلن يملكوها وسيفقدون السيطرة عليهم، وبالعكس يصبحون هم المحتلون؛ وهذه سنة جارية إلهية في عبادة.

ولقد عبر عن هذه الكلمات الداعية الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله قائلا: هذه القيادة العالمية هيأتها البعثة والرسالة المحمدية، هذه القيادة يجب أن تحرص عليها العرب بحرص شديد ويسعوا إلى نيلها بكل ما أوتوا من مواهب ويتواصي بها الآباء أولادهم، ولا يجوز لهم أن يتخلوا عنها في زمن من الأزمان، وذلك لأن فيها عوض عن كل قيادة سواها مع زيادة وكفاية، وهذه القيادة تشمل جميع القيادات، وتهيمن على القلوب والأرواح أكثر من سيطرتها على الأجسام؛ وسبيل نيلها الطريق التي جربوها آباءهم في عصرهم الأول: الإخلاص في الدعوة الإسلامية والتفاني في سبيله، و تفضيل منهج الحياة الإسلامي ونظامها على سائر مناهج الحياة^(٢).

وعن تأثير هذا المعلم الشامخ بنت الحركات الإسلامية المعاصرة دعوتهم ومنهجهم وبدأوا يهتفون بـ"أن الإسلام هو الحل"، وقولهم "إلى الإسلام من جديد"، وقد أحدث عملهم نهوضا ويقظة في العالم الإسلامي رغم انزلاق بعض هذه الدعوات، فعلى سبيل المثال نادى الشهيد الشيخ حسن البنا رحمه الله بهذا الشعار في دعوته قائلا: "الإسلام مع هذا يعتبر الأمة الإسلامية أمينة على رسالة الله في أرضه ولها في العالم مرتبة الأستاذية بحكم هذه الأمانة، فلا

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٤٦٠، وكذلك تفهيم القرآن، ج ١، ص ١٥٠.

(٢) انظر: الندوي، أبو الحسن علي الحسني، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (الكويت، دار القلم، ط ١٣، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م)، ص ٣١٣.

يسمح لها أن تذلل لأحد أو تلين قناتها لغامر أو تخضع لغاصب ... وهذه الإنسانية لم تأت من فراغ وإنما أسندت إلى الإسلام العظيم من يجعل معتنقيه بالضرورة حملة العقل الجديد الذي يريد الله أن يفرق به الإنسانية بين الحق والباطل^(١).

٢- النصر والتمكين: إن الفترة المدنية بالنسبة للدعوة الإسلامية هي مرحلة الحصاد والقطاف، فقد من الله على المؤمنين الصادقين وبينهم رسوله الكريم ﷺ النصر والفتح والتمكين، وقد جاء هذا الفرج بعد ما ضحى المسلمون في سبيله النفيس والغالي، وساروا أشواطاً في طريق تحصيل التمكين وأخذ الأسباب الضرورية لها من الإيمان والصبر والاتحاد والطاعة ومتابعة الرسول ﷺ وغيرهما من الأصول المعينة لها.

ولم يكن النصر والفرج لهم نهاية المطاف كما تفعله البشرية بتمجيده باللهو والمجون، بل أخذوه بالشكر والغفران؛ وعلى هذا فالتمكين عندهم بداية مرحلة جديدة، وقد زُوِّدَتْ بتشريعات وأخلاق حميدة حيث سارت فيما بعد أساساً وبنية للمجتمع الإسلامي، وقد تحقق قول الله عز وجل فيهم: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١)

وقد ذهب العلامة المودودي رحمه الله في بيان مظاهر التمكين قائلاً: لقد توسع شمل وسطوة الدولة الإسلامية في أعوام عديدة في أنحاء الجزيرة العربية فوصلت إلى حدود النجد والشام وحدود بحر الأحمر، ولم تفتّر عزائم المسلمين بالنكبة الأليمة التي نالوها في يوم أحد بل صاروا كالأسود الجريحة منتحزين الفرص جياشين لمقاصدهم، فبعد مضي ثلاث سنوات فقط استطاعوا أن يغيروا خارطة الجزيرة العربية، وتمكنوا بادي الأمر باجتثاث جذور اليهود في المدينة المنورة ومن بعدهم صاروا في كل أنحاء الجزيرة مستسلمين لسلطان الدولة الإسلامية؛ وبها أصبح الأعداء متيقنين على أن الإسلام دولة قاهرة وقوة لا يستهان به، كما لا يمكن القضاء على دعوته ولم يكن الإسلام بعدها ظاهرة عقدية تحكم على العقول والأوراح فحسب بل صار دولة عملاقة تحكم في حدوده، والمسلمون أصحاب قوة في أرضهم تطبق دستورهم وقوانينهم، والرسول ﷺ أسس في وقت قصير هذه الدولة الدستورية لها فلسفة الوجود، والمسلمين أصحاب حضارة عظيمة متميزين في الخلق والاجتماع وباقي شؤون الحياة.

وقد أصبحت هذه الأمة دولة متميزة الأقاليم فبعد دخول المناطق الجديدة كانوا يبنون فيها مساجد وقيمون فيها صلوات الجماعة ويختارون لأنفسهم أمراء، وكانت دولتهم مدنية لها جيوش، وفي شؤونهم دساتير وإدارتهم تحكم فيها النظم والنظام، وأصبحت نظام المعاملات من البيع والشراء على وفق الشريعة الإسلامية منهيها المعاملات الجاهلية القديمة ووضع للإرث نظاماً، كما حدد معالم النظام الأسرى من النكاح، والطلاق، والحجاب، وأداب الاستيذان وعينت إلى جنبها على نظام العقوبات من جريمة الزنا والسرقة والقذف ... وبالجملية فإن جميع الحركات والسكنات

(١) الغزالي، عبد الحميد، حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة (بورشيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط ١٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ص ٢٦٥.

للمسلمين كانت على وفق دستور ونظام إسلامي خاص لهم وأصبح المجتمع الإسلامي مجتمعا متميزا دستورا و حضارة أيسست القوات المادية عن مواجهتها ومحاربتها^(١).

وبالجملة فإن النصر والتمكين الذان كانا حليفة المجتمع المدني كان بابا متميزا في تاريخ الحضارات البشرية، فلم تعرف الإنسانية بمثلها رعاية القيم الإنسانية النبيلة من السماحة والعدل وإنفاذ الدستور القائم على الحق والخير والعدالة. وبهذا لم يكن الأمر ختاماً لدعوتهم بل كانت بداية مرحلة جديدة أثقل من سابقتها، وقد ربي الرسول ﷺ عليها أصول جديدة من إطاعة أولى الأمر، السمع والطاعة ونصح الولاة، وإيجاد قيمة الشورى والحرية وفوق كل ذلك حكم الشريعة الإسلامية.

المبحث الثاني: فقه موضوعات الدعوة عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المدني

عرف المجتمع المدني في السيرة النبوية ﷺ بتحديد منطلقات ومعاليم الدعوة الإسلامية، وقد كان بمثابة طور جديد بالنسبة للرسول ﷺ وأصحابه، وذلك بأنهم وجدوا موطناً آمناً لأداء العبادات، ووضع الشرائع المميزة للمجتمع الإسلامي، وعلى فورها تمكن المسلمون بتأسيس دولة قوامها الشريعة والمصلحة الإنسانية. وقد عانت لتلك الدولة منذ لحظتها الأولى تحديات داخلية وخارجية إلا إن النصر كانت حليفها كل حين، وبمضي أعوام عديدة تمكنوا بالسطوة على الجزيرة العربية كلها، ولقد كان للداعية الحكيم الشيخ محمد الغزالي آراء وبيان في محطاتها الطويلة تظهر في المطالب التالية:

المطلب الأول: منطلقات الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة

انطلقت الدعوة الإسلامية في الفترة المدنية قفزات ملموسة في عرض موضوعات الدعوة تجديداً و تأصيلاً وترسيخاً، وكما جاءت بموضوعات جديدة لم تكن معهودة في الفترة المكية لضيق أحوالها وعدم تمكن تأسيس دولة ومجتمع إسلامي خالص، وبناء على هذا كانت لهذه المرحلة منطلقات دعوية جديدة نبرزها كالآتي:

أ- الدعوة إلى صلة الأمم بالله والاعتراف بجميل الله: لقد بعث الله الأنبياء والرسل بمهام ووظائف أساسية، ومن ذلك المهام توصيل الأمم بخالقهم وبارئهم وتذكيرهم بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى، وذلك لكي يعترفوا بهذا الجميل كل حين ويعبدوا الله على إثرها بحب ومعرفة تكون لهم سنداً في الآخرة وعونا على المشاق الدنيوية والأخروية، ومع أن العبادة نزعة فطرية في البشرية إلا أنها كانت بمسار ونزعة خاطئة؛ فجاء النبي ﷺ بتصحيحها، وقد كان من أول الأعمال التي قام به في المدينة الطيبة بناء المسجد النبوي حتى يكون أساس المجتمع الجديد قائم على أساس صلة العبد بخالقه ومنعمه، وعن أهمية هذه الصلة يقول محمد الغزالي: "هناك طبيعتان في الإنسان غير منكورتين: الإعجاب بالعظمة والعرفان للجميل... ونبي الإسلام جاء يشير هاتين الطبعيتين نحو أحق شيء بهما، ألاست تعجب بالعظمة بصاحبها؟، ألاست تقدر النعمة وتشكر مسديها، فإذا عرفت عظمة من عظمة الوجود الذي

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٣، ص ٣٠٣-٣٠٤.

يحيط بك خجلت من التهجم عليه ونسبة ما لا يليق إليه وقلت مع العارفين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقَنَا عَذَابُ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١).

إن محمدا ﷺ وصل الناس بربهم على ومضات لطاف من تقدير العظمة ورعاية النعمة، فهم إذا انبعثوا لطاعته كانوا مدفوعين لأداء هذه الطاعات بأشواق من نفوسهم، ورغبات كامنة تجيش بتوفير العظيم وحمد النعم، والعبادة ليست طاعة القهر والسخط ولكنها طاعة الرضا والحب، والعبادة ليست طاعة الجهل والغفلة ولكنها طاعة المعرفة والحصافة^(١).

والعبادة بهذا المعنى صلة العبد بربه واعتراف بجميل الله وشكر على نعمائه ولكن على أساس من الحب والتدافع القلبي والتي لا بد في أدائه صاحبها عنة ولا مشقة وهو المقصود في الإسلام، وبناء على هذا ليست العبادة مجرد أقوال وأفعال مجردة لا روح فيها بل هي عمل لكل من الجسم والقلب والعقل فيها تمثيلة؛ فعلى سبيل المثال الصلاة والتي احتلت في الدين من المكانة فيها نصيب كل هذه الأدوات تمثيلا عادلا حكيما، فللجسم فيها قيام، وركوع وسجود وجلوس وانحناء، وللسان تسبيح وتلاوة ودعاء، وللعقل تدبر وتفكر وتفقه، وللقلب رقة وخشوع والتذاذ. وقد صدق الله في محكم كتابه عن نصيب هذه الأدوات: مثلاً عن عمل الجسم يقول: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

وعن عمل العقل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣). وأخرها عمل القلب الخشوع حيث يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ أَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢﴾ (المؤمنون: ١-٢)^(٢).

والناظر لهذه النداءات العذبة الإلهية ليجد أساليب صلة الإنسان ككونه مخلوقاً مميزاً بين الخلائق بربه، وما عليه إلا أن يختار هذه الطرق مدركاً الغاية في حياته، ولقد أدرك الرسول ﷺ هذا المغزى وحث عليه جماعة المسلمين بتوجيه من الله؛ فكانت هذه الصلة الاعتراف بجميل الله للأتصار، حيث هيأ لهم خير دار وفيها عز وإيمان، وبينهم رسوله وقد نجاهم حديثاً من الإنهيار والفرق، وعلى المهاجرين شكرنا على الإيمان والهداية وتهيئة دار أمن وسلام بين أهله الذين أثروهم على أنفسهم، ونجاهم من الاضطهاد والفتن في الدين والحياة.

وعن ثمار هذه الصلة بهذا الأسلوب والإيمان المنبثق حيث تأتي بنتائج عجيبة مزهلة يقول الشيخ الغزالي: والإيمان بهذا الأسلوب هو المثمر والمنتج، فصنع العجائب وبنى الدول، وأقام الحضارات العملاقة. وهو الذي يجعل المسلم يستلذ بالتكاليف المتعلقة بعنقه فيقبل على أدائها طوعاً، وكأنها رغبات نفس لا فرائض دين... فحذيفة بن اليمان

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) انظر: الندوي، أبو الحسن علي الحسني، الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة (دمشق، دار ابن كثير، ط ٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، ص ٣٤.

عند ما انطلق بأمر النبي ﷺ يتعرف على أحوال المشركين في غزوة الخندق في ليلة باردة قارس الجو لقد انطلق وهو يقول من نفسه: "كأنما أسير في حمام"؛ وهذا الإيمان المرتكز على العواطف هو الذي أضرم المعارك الطاحنة، وقاد هؤلاء إلى النصر المظفر، وهو الذي هدم سلطان الظلم والبغي بعد ما ظن أصحابها أنه لن يطيح أبداً^(١).
والرسول ﷺ قد عبر بنفسه عن هذه الثمرة اليانعة والطيبة لهذه الصلة، فحلاوة الإيمان أو طعمه في حديث مشهور على الألسنة، وهكذا كلما أخلص المرء العبودية لله وجد حقيقة نفسه واهتدى إلى سر وجوده ووجد مع ذلك سعادة لا تعادلها سعادة، وهذا تتمثل فيما سماه النبي ﷺ حلاوة الإيمان، وإن لهذه الحلاوة لطمعا لا يتذوق إلا من عرف الله وأثره على كل ما سواه^(٢).

وبالجملة فإن الرسول ﷺ في هذه الفترة الثرية من تاريخ الأمة الإسلامية مرحلة البناء سعي إلى غرس وترسيخ مفهوم الصلة بين العبد وربّه، وقدم في حياته الطيبة وسيرته العطرة درساً حياً في الإقبال على الله عزوجل بطريقة تنعم الفؤاد بإجلال الله وعظمته، مذكراً نعمه وآلائه ومسرّعاً إلى طاعته منفراً عن عصيانه، وبالتالي جاءت هذه القيمة عندهم بصورة رائعة حتى أنهم تفتانوا في حبه ونسوا أنفسهم، ولكن كل هذا كان على أساس الحب والاندفاع لا التكليف والعنت والرهبنة، كما رأوا ثمارهم اليانعة في حياتهم.

٢- الدعوة إلى ترسيخ معاني السماحة والعدل والمساوات في المجتمع الإسلامي: لقد أتى النبي ﷺ في دعوته المدنية بالمعاني والقيم النبيلة التي تسمو المجتمع الإسلامي إلى قمة رقية حيث تجعلها أمة حضارية عظيمة، أخرى أن تكون سيدة بين الحضارات الإنسانية، وذلك أنه وضع في غضون أوائل مقدمه للمدينة المنورة بأصول التعايش بين المجتمعات وكانت مبنية على أساس السماحة والعدل والمساوات وحب الخير ومنع الظلم والعدوان وغيرها من القيم الإنسانية النبيلة.

وفي هذا رد صريح على من يرى الإسلام بنظرة التضيق، وأنه لا يقبل جوار دين آخر، وأن المسلمين أمة لا يستريحون البال إلا إذا انفردوا بالبقاء والتسلط، ولم تكن هذا الأمر مجرد نظرية تقال؛ بل زودت في صفحات الميثاق والصحيفة والدستور الأول للدولة الإسلامية، وقد بقي لها وفيها طوال حياته وظل دستوراً للأمة الإسلامية فيما بعد، ومن هذه القيمة يقول الشيخ الغزالي: وأما أمر ترابط الأمة الإسلامية بالأجانب عنها، وهم الذين لا يدينون بدينها، فإن الرسول ﷺ قد سن في تلك الصحيفة السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مشحون بالتغالي والتعصب... وبالتالي فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة التنحي والعداء والمصادرة، بل تحمل عن طيب خاطر وجود اليهود الوثنيين ومن ثم عرض على الفريقين أن يعاھدھم معاھدة الند للند على أن لهم دينهم وعقيدة وله دين^(٣).

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) انظر: القرضاوي، يوسف، العبادة في الإسلام (القاهرة، مكتبة وهبة، ط ٢٤، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م)، ص ٩٨.

(٣) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٩٥-١٩٦.

وقد جاء في نص هذه الوثيقة هذه العبارات بصراحة نذكر بعض مقتطفاتها المعينة ببحثنا كالاتي: "هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس ... وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم، أو إثما، أو عدوانا، أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم فإنه من تبعنا من يهود فإن له النصره والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ... وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما هذه الصحيفة آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا (مجرما) أو يؤويه، وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ... وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وآثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ" ^(١).

والناظر في هذه البنود ليرى سعة صدر حكم الإسلام وسماحته وإيمانه بالحياة الإنسانية، وحبه للخير للإنسانية جمعاء، بغض النظر عن التوجه إلى أهل الدين والفكر أو إلى لغة ووطن الخاص، والذي اعتاد البشرية أن يسلكوها في حياتهم، وبهذا هو لم يضق زرعاً باليهود رغم طبيعتهم اللئيمة وسجيتهم الشريرة. فالنبي ﷺ وضع لأمته في هذا الدستور العظيم منطلقات للدعوة إلى التعايش السلمي وإحياء معاني العدل والمساوات والتي تعطش المجتمعات المعاصرة له، وتمس أشد الحاجة إليه حيث انقلبت فيها الموازين وصار الظلم واتلاف الحقيقة سجية الإنسانية ودستور تحكم حياتهم.

إن هذا الدستور صفحات مشرقة في تاريخ الإسلام وسيظل البشرية بحاجة إليها إلى قيام الساعة، ولا يمكن الاستغناء عنها، وعلى هذا فهي تحمل معاني عظيمة وتجعلها حيز التنفيذ في كل الأحيان، وعن أهميته يقول الأستاذ الدكتور محمد سليم العوا ^(٢): "ولا تزال الأسس التي تضمنها هذه الصحيفة، في جملتها معمول بها والأغلب إنها ستظل كذلك - في نظم الحكم المعروفة إلى اليوم، وصل إليها بعد قرون من تقريرها في أول وثيقة سياسية دونها - وبالأحرى أملاًها النبي ﷺ" ^(٣).

ومن بين هذه المعاني القيمة هي أن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس وتفسح المجال والسبل أمام كل إنسان يطلب حقه بأيسر السبل وأسرعها دون أن يكلفه ذلك جهداً ومالاً، والوثيقة تلزم كذلك الدولة بأن يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق، ولا يهمه أن يكون المحكوم بحقه مؤمنين أو كافرين، أغنياء أو فقراء، وأما عن ثمار هذه الوثيقة في تلك الفترة كدستور سياسي للمسلمين فقد قامت على عدة أصول كما يقول الشيخ محمد الغزالي: وهذه الوثيقة أبرمت برغبة المؤمنين في التعاون الخالص مع يهود المقيمين بالمدينة وذلك:

(١) حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، (بيروت: دار النفائس، ط ٦، ١٤٠٧هـ)، ص ٥٩-٦٢.

(٢) محمد سليم العوا: مفكر وكاتب مصري إسلامي معتدل، عمل كمحام وأستاذ جامعي لفترات طويلة، وكان عضواً بارزاً في جماعة الإخوان المسلمين، كتاباته تدور حول القضايا الأساسية من قبل النظام السياسي الإسلامي، وحقوق الإنسان. انظر: الموصلي، موسوعة الحركات الإسلامية، ص ٣٥٠.

(٣) العوا، محمد سليم، في النظام السياسي للدولة الإسلامية (القاهرة: دار الشروق، ط ٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، ص ٦٠.

ألف- تثبت السكينة في ربوعها.

ب- ضرب أيدي الظالمين العادين ومدبري الفتن مهما كانوا.

ج- حرية الدين مكفولة.

وبالتالي فليس هناك فيها أدنى ريبة طائفية أو إكراه مستضعف، بل زودت المعاهدة بمعاني عظيمة أخرى أهمها نصرة المظلوم، رعاية الحقوق العامة والخاصة، حماية الجار، و... وقد ضمنت أخيراً بعبارة دقيقة جذلة حيث تقول: "إن الله جار لمن بر واتقى وستنزل غضبه على من يخون ويغش"، وبالجملته فبالعدل والمساواة، والتعاون رسمت سياسة التعامل مع الأجانب^(١).

وقد تجلت مظاهر هذا الدستور السامي في الشريعة الإسلامية في حقبات تاريخية مختلفة، فكلما حكم الإسلام وفتح الديار وجدت له مصاديق عملية تشار إليه بالبنان، أما بالمقابل فتعامل غير المسلمين أثناء التاريخ فهي صفحات مظلمة ومؤلمة، ومن يقرأها لا يجد إلا دموع العينين أو دماء القلوب وخير مثل على ذلك تعامل أولئك مع المسلمين أثناء الحروب الصليبية والمغلية وكذلك عند سيطرة المسيحيين على بلاد الأندلس وغيرها بكثير. ومن التنويه أن هذا التسامح لم تكن أحكام مؤقتة تتجلى أثناء الفتوح فحسب بل نجد عنها مصاديق دائمة في أبواب الفقه الإسلامي تحت عقد الذمة، وعنهما يقول العلماء: والذمة مصطلح تعني الضمان والعهد؛ وسميت لأن لهؤلاء عهد الله ورسوله وكذلك جماعة المسلمين بغية أن يعيشوا هؤلاء في حماية المؤمنين وكنف المجتمع الإسلامي مطمئنين آمنين... وقد تشابه هذه في عصرنا بالجنسية السياسية والتي تعطيها الدول لرعاياها فيكتسبون بناء على ذلك حق المواطنة، أما هذه فهي عقد مؤبد، يتضمن بإقرار غير المسلمين على دينهم، وكذلك تمتعهم بحماية الجماعة المسلمة ورعايتها، بشرط إعطاءهم الجزية، والتزامهم أحكام القانون الإسلامي المتبع في غير الشؤون الدينية^(٢).

٣- تقديس معنى الرسالة وغرس محبة الرسول ﷺ: لقد ربي النبي ﷺ الناشئة الأولى من المسلمين في الفترة المكية، وقد دعا إلى الإيمان برسالته وختمه، وقد لاقى أولئك من المحن والأذى في سبيله حتى هاجروا إلى المدينة الطيبة فوجدوا فيها فرصة الحياة الرغدة معه وتعلموا منه شؤون الدين والدنيا، وقد بلغ بهم الحال أثناءها أنهم أحبوه إلى درجة التفاني، كما أدركوا بعين اليقين معنى الرسالة وذلك بعد ما أعز الله دينه ونصر جنده وتحقيق وعده.

وقد كان هذا الحب والود تجاه الرسول ﷺ ثمرة طبيعية لشخصية الكريمة وأخلاقه الرفيعة إلا أنها بجانبها زودت من ينبوع الوحي الإلهي كذلك حيث جعلت محبة الرسول ﷺ من تمام الإيمان وسبيلاً لمحبة الله عز وجل.

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٩٧-١٩٩.

(٢) انظر: قريشي، عمر بن عبد العزيز، سماحة الإسلام (الرياض، مكتبة الأديب، ط ٣، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م)، ص ٧٦.

وقد وردت نصوص قرآنية وحديثية تدل على أن حب النبي ﷺ من مقتضيات الإيمان، وأنه يجب على العبد أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه وأعز من نفسه ووالديه وأولاده وماله والناس أجمعين، وأن من لم يكن فيه ذلك فقد يعرض نفسه لعقوبة الله العاجلة والآجلة.

وبناء على ذلك فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين صادقين في حبه، فكان النظر إلى وجهه الكريم وكذلك مرافقته أحب إليهم من كل شيء في هذه المعمورة، وكانوا يرون معها السعادة في تضحية وإيثار أنفسهم وأموالهم في الزود عن النبي ﷺ؛ وبالتالي كانوا يسارعون إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه^(١).

وقد كان هذا الحب والإيثار لمحبه ﷺ لدى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين منبعاً إيمانياً وأعجوبة تاريخية لم تشهد التاريخ مثله، بل فاقت كل المحبات التي اختارها الإنسانية في حالة الهيام، أو ما كانت على هوس وغريزة؛ وبهذا كانوا يحبونه ﷺ حبا جما أكثر من أنفسهم وذلك انطلاقاً من الوحي الإلهي الذي يلزم الإنسانية بأن يكون محبة الله وسوله فوق ما سواه وحتى على نفسه ورغباته؛ ومتى يظفر الإنسان في محبة رسوله على نفسه فقد يستكمل الإيمان.

وفي الحديث الشريف خير شاهد على ذلك؛ فهذا عمر الفاروق رضي الله عنه يقول: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ)^(٢).

وقد فسر المحدثون قوله ﷺ: "(الآن يا عمر)" فإن المراد منه أي كمل إيمانك، وأن هذه المحبة من كمال الإيمان^(٣). ويقول الشيخ محمد الغزالي عن الدرس المستفاد عن هذا الهدى النبوي: ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يطلب من الناس تقديس صورة اللحم والدم فيه كما تفعله المسيحية في إحياء ذكرى العشاء الرباني^(٤)، ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم ويموتوا هم ليحيا، أو ليفتدوا أمجاده وعظمته الخاصة بأموالهم وأرواحهم أو ليتأله عليهم كتأليه فرعون وأمثاله من الجبارين. كلا، كلا، فمحمد ﷺ يريد من المؤمنين تقديس معنى الرسالة وأن يقتدوا فيه مثلها العالية، وأن يبتغوا في شخصيته معالم الحق المنزل ومآثر الرحمة... وقد كان النبي ﷺ أهلاً لأن يحب ويعظم وما تعرف الدنيا رجلاً فاضت القلوب عظمتها، وتفانى البشر في حبه وإعظامه مثل ما يعرف لصاحب هذه الرسالة العظيمة محمد ﷺ^(٥).

(١) انظر: ظهير، فضل إلهي، حب النبي ﷺ وعلاماته (الرياض، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط ١٢، ١٤٣٥هـ)، ص ٧٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف يمين النبي ﷺ، رقم الحديث: ٦٦٣٢.

(٣) بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ب ت ط)، ج ٢٣، ص ١٦٩.

(٤) العشاء الرباني أو القربان المقدس: هو قطع من الخبز مع كأس من الخمر، يتناوله النصارى في الكنيسة رمزا وتذكارا لصلب المسيح عندهم. انظر:

الخلف، سعود بن عبد العزيز، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (الرياض، مكتبة أضواء السلف، ط ٤، ٢٠٠٥م)، ص ٣٤٣.

(٥) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢١٢.

ومرد هذه الأقوال كلها توحى إلى أن محبة المؤمنين والصحابة لرسول الله ﷺ في ذلك العصر قد قامت قبل كل شيء على أساس التدين والتقديس لمعنى الرسالة، وقد زاد هذا المعنى بشخصيته الفذة الكريمة حتى وصلت إلى درجة التفاني والفداء، ولو كانت مجرد شخصيته لما قامت قريش تجاهه ولم يصيروا أعداءه رغم تيقنهم بقوة شخصيته وكرامته ونبله وتعارف بينهم بالصدق والأمانة، أو لو كانت لتراجعت بعد وفاته ﷺ عن تعاليمه كما تفعله أصحاب الود المزيفة، ولكن هذه المحبة قد كانت مجمعة بين شخصيته من جانب وإعظاما لما يحمله صاحب الرسالة من جانب آخر.

وعلى هذا فالحب المنعش من الإيمان تثبت في القلوب ثبوت الجبال ويتعلق به مستقبل الإنسان ومصيره، ولا تفارقه مدى الحياة، ولهذه المودة حقيقته ومدلوله وميزانه وهو يتطلب بذلك دليلا وبرهانا صحيحا والتزاما معينا. وحقيقة المحبة لدى الإنسانية فمعناه الميل والنزوع إلى ما يوافق الإنسان لحسن أو خلق أو إحسان؛ ويؤدي ذلك أحيانا إلى التعصب والتشيع أو مجاوزة الحدود، وقد يكون إنعام المحبوب على حبيبه دافعا قويا ومؤثرا لبقاء هذا الحب بعدها، فالنفوس فطرت على حب من أحسن إليها وكرهه من أساء إليها.

والناظر في سيرة النبي ﷺ ليدرك أنه كان جامعا لهذه المؤثرات الثلاثة: حسن الصورة، وكمال الأخلاق والإحسان التام على الإنسانية. فأما جمال الصورة وحسن الأخلاق فجلى وبدهي لا يحتاج إلى تتبع، وأما الإحسان والإنعام فهو واضح على هذه الأمة بنص قرآني منذ أن بعثه الله رسوله واتصفه برحمته للمؤمنين ورأفته لهم بالهداية واستنقاذهم به من جهنم، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين يآثرهم، ومبشر للطائعين المؤمنين بالجنة ومنذر العصاة من النار، وفوق كله داعيا إلى الله، متليا على الناس آيات الله آخذا مهمة التزكية والتطهير، وكذلك تعليمهم الكتاب (القرآن) والحكمة (السنة) وهدايتهم إلى طريق مستقيم لا عوج فيه^(١).

وأما مدلول هذا الحب فكما يقول الغزالي: فالمطلوب منه حب التأسى لا حب الهوس، فإن الرجل إذا أحب كفه أو أعلى منه؛ فمبدأ هذا الحب أنه تفتح قلبه لخصال النبل التي خصوا بها، وكذلك تعظيم المواهب التي ميزهم بها القدر... ومن نعمة الله أن ينضم بالعظماء من يعشق فيهم خصلة جمال العظمة، ولذلك عد الله عز وجل إطاعة نفسه ورسوله نعمة وفضلا منه على عباده الذين يدركونه حيث يقول: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ٦٩ ذَلِكِ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ٧٠ (النساء ٦٩-٧٠)؛ وعلى هذا فعشاق المباديء والأسس المجردة، فما أن يعثروا رجلها المنشود حتى يلتفوا به، وتلمع عيونهم حبا له؛ أي حبا للأسس التي حييت فيه وانتصرت به^(٢).

(١) انظر: الزحيلي، وهبة، شمائل المصطفى ﷺ (دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ص ٣٩٥-٣٩٦.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢١٤.

والحب الذي ينبثق على المباديء والأسس الإيمانية فإنه تثبت وتعلوا على كافة الأواصر والرغبات حتى الفطرية، وتفدي في سبلها كل الموادت والصلات المعهودة، وقد قدم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في ذلك خير نماذج فهذه أم حبيبة زوجة النبي ﷺ حينما زاره أباه أبو سفيان قبيل فتح مكة على إثر نقض صلح الحديبية مقدما اعتذاره للمسلمين و كان مشركا فدخل بيت النبي ﷺ وقد أراد أن يجلس على فراشه، فطوته عنه فقال: "يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفرش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شرا"^(١).

وبالجملة فمحنة النبي ﷺ وتقديس رسالته مطلب عقدي وإيماني قد عرفت بها المرحلة المدنية بتمام المعنى من قبل أطراف المجتمع الإسلامي مهاجرين وأنصارا على السواء، وعلى هذا فقد كان قدومه ﷺ للمدينة فرحا وعيدا حيث استقبلوه بهفاوة بالغة، ويوم وفاته كآبة وغما لم يلاقوه الصحابة مثله، وقد تمثل هذا الحب في فعالهم وحياتهم فأحبوه وتأسوا بأقواله وأفعاله وتقاريره وأخلاقه وصفاته الجميلة حتى لم يفت منهم حركة ولا سكونة.

المطلب الثاني: خصائص العمل الدعوي في الفترة المدنية

اتسم العمل الدعوي في هذه الفترة من تاريخ الرسالة بعدد من الخصائص، وذلك في ظل ظروف مجتمع جديد ونضج فكري إثر تربية الأفراد في المدرسة النبوية ﷺ؛ وعلى هذا فقد كان هذا العمل بحاجة إلى تجديد التخطيط والتنظيم والعرض والمؤاتمة إلى ما يفرضه الأحوال وما تقتضيه طبيعة الدين بمسايرة أصل التدرج والإكمال التي تضيف إليه يوما بعد يوم. ولم تكن هذه المرحلة ملاذا آمنا لا تحيطه الأخطار؛ بل أصبحت محل أطماع وأنظار الأعداء والحاسدين منذ لحظتها الأولى، ولذلك زيدت فيها تدابير احترازية وأسس متينة... نجملها في فكر الشيخ محمد الغزالي تحت العناوين فيما يلي:

أ- التنبيه لتشوية وإثارة ريب الأعداء: لقد هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة بعد أعوام من المحن والمصاعب الفادحة في النفس والمال والأهل، وقد لاقوا في سبيل الدين أشد أنواع العذاب حتى اضطروا بعضهم مكرهين لتلقي كلمة الكفر وقلوبهم مطمئنين بالإيمان. وقد كانت المدينة الطيبة بالفعل اندمالا لجروحهم وراحة لأبدانهم وشعورا بالأمن والطمأنينة وموطنا فريدا تسودها شرعة الإسلام، كما وجدوا صدورا رحبة من أهلها تحكمها الإيثار والمحبة، وفوق كل ذلك قيادة حكيمة لسيد الأنام ﷺ وبالتالي التفوا حوله... ولكن الاستيطان فيها لم تكن عندهم نهاية الخطر ونسيان الأيام الأليمة، وهكذا كانت بداية صعوبات وإنذار لتحمل المشاق الجديدة، وقد كانت التهديد ظل قائما من قبل مشركي قريش والذين رأوا في إيواء الأنصار للمسلمين خطرا على كياناتهم وتشويها لكرامتهم.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٣٩٦.

ومن الملاحظ أن التربية في بداية هذا العهد أسوة بسلفها وتطلبت جهدا كبيرا في التأكيد على التحلى بالصبر من جانب، وتوعية وحيلة لما يحدثه الأعداء من مكر ودسائس من جانب آخر، واحتاجت النفوس حينها لتمرين ورياضة الصفع والعفو؛ وذلك لتفويت الفرص على الأعداء الجدد الذين يتأمرّون في الخفاء للنيل من قوة المسلمين النامية.

وفوق كل ذلك كان لزاما على المسلمين بأن يكونوا على استعداد وتأهب تام لمواجهة العدو الظاهر الغاشم وهم قريش؛ لأنهم كانوا صدا وعقبة رئيسية في وجه الدعوة، وإذا ما لم يحد سلطانهم وتقضي على قوتهم وشوكتهم، فلن تستطيع الدعوة أن تنمو وتجد أرضية واقعية^(١).

وليس التأهب، والتنبيه والحذر التي سلكها المسلمون في ذلك الأوان دليل على محبة الثأر عندهم، أو مودة للهمجية التي طالما يرمي بهم؛ بل هي سنة وقانون دعوي يجب على المسلمين سلوكها كل حين؛ وبالتالي ما عليهم إلا أن ينبهوا ويكونوا على أتم الاستعداد؛ فقد كان النبي ﷺ في مقدمه إلى المدينة الطيبة يحسب إلى أن هذا الأمر حسابه، فكان لا يبيت إلا في سلاح ولا يصبح إلا ومعه، وقد روى البيهقي حديث أبي بن كعب أنه قال: (لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ وَأَوْتَهُمُ الْآنصَارُ، رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَكَانُوا لَا يَبْتَئُونَ إِلَّا بِالسَّلَاحِ، وَلَا يُصْبِحُونَ إِلَّا فِيهِ، فَقَالُوا: تَرَوْنَ أَنَا نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ مُطَمَنِّينَ لَا نَخَافُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ)^(٢).

وعن هذا يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: لقد أوى المؤمنون إلى مهجرهم كما تعود الجندي إلى ثكنته وقلعته الشامخة، وأخذوا حيثتهم حتى لا يقتحم عليهم من أطرافها وأقطارها، وهم تعلموا من أعوام مكة الماضية أن الضعف مقبلة إلى الهوان والفتنة، وهكذا المرء لا يعرف الشفاء حق قدرها إلا بعد التشفي من المرض. وهكذا قد هاجر المسلمون إلى المدينة، وكان بينهم وبين قريش عداوة، ومن ثم ثرت هذه العداوة إلى غيرهم من مشركي الجزيرة من عبدة الأوثان، وعلى رأسهم عبدة الأصنام من أهل المدينة حيث كانوا يكونون عداوتهم تجاههم، وكانوا متحالفين مع اليهود من جهة أخرى حيث كانوا خائفين من انتشار وظفر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية كلها... ولهذا فلا بد إذا من التأهب والاستعداد لكل هاجم طارئ والتربص للكائد، وتجهيز القوة لتأديب المجرمين يوم يطاولون^(٣).

ولم تكن هذا التأهب والاستعداد لدفع الهجوم وحده والتي جرت عادة القوات الطاغية أن يسلكوها على الدعاة كل حين، بل كان إلى دفع وتفنيد إثارات الريب في صفوف المسلمين كذلك، حيث تفشي بينهم كالسموم، ويريد أن يضربوا المسلمين من داخلهم وذلك حينما تفشل جهودهم في الحرب العلانية.

(١) انظر: أمحزون، محمد، منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة (القاهرة، دار السلام، ٥ ط، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م)، ص ٢٠٦

(٢) أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (بيروت، دار الكتب العلمية، ١ ط، ١٤٠٥ هـ)، ج ٣، ص ٦

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٢٢.

وكانت لحركة النفاق في تاريخ النبوة آثار سلبية في رفع تلك الضججات حيث نبينها في بحث فقه المدعويين ، وقد بين الله عزوجل الخطة اللئيمة لهؤلاء الكفار ونبه المسلمين إلى تنفيذها ومواجهتها ، وأن هدفهم في الجملة هي سحق المسلمين حتى لا تقوم لدينهم قائمة ، ومن هنا يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقْلِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١٧).

والناظر في سيرة الرسول ﷺ ليرى التأكيد على هذا الأصل في الحياة المدنية قولاً وفعلاً وسيرة ، وندرك منها أهمية هذه القاعدة في حياة الدعاة ، ومدى تأثيره في دعوتهم إلى الإسلام ، وعلى هذا لم يغفل هو يوماً عن خطورة هؤلاء بل صرف نظره أشد التركيز في كل الأحيان حتى في وقت الظفر والنصر على هؤلاء ، وظل مستيقظاً كل الحين منبها لخطواتهم اللئيمة ، وخير نموذج على ذلك ارساله لجيش أسامة بن زيد في آخر حياته لتأديب الروم ، وعنه يقول الغزالي : فلما أدى النبي ﷺ مناسك الحج حث الركاب للتوجه إلى المدينة لا لأخذ حظ الراحة بل لاستئناف حياة الكدح والكفاح في سبيل الله .

-وحجة ذلك - أن المبطلين لا يتركون لأهل الحق مهلة يستجمعون فيها ، وهكذا أصحاب الرسالات أنفسهم لا يكسبون قوتهم ونشاطهم في القعود عن العمل ، بل يستمدون القوة في العمل والشعور بالواجب ، وراحتهم التامة يوم يرون بواكير نجاحه قريبة القطاف! ^(١).

٢- الاهتمام بالسياسة: امتازت الفترة المدنية في تاريخ الإسلام بوضع أصول ودساتير المجتمع الإسلامي الخالص ، فجعلها أمة حضاريه عظيمة ، تحكمها المبادئ وأصول التعايش السلمي بين المجتمعات البشرية وتطبيق السياسة العادلة والتي وضعها النبي ﷺ ؛ وعلى هذا لم يكن مغفلاً ومنسيا نصيبه من الدنيا ، بل مزج بين ابتغاء مطالب الآخرة وسياسة أمور الدنيا القائمة على الحق والعدل والمصالح ، فجاءت ثمارها المرجوة في مجتمع مثالي فريد تشار إليه بالبنان ، وقد عد هذا النسيج القائم بين هذه المطالب على حد تعبير الباحثين معجزة تاريخية للنبي ﷺ فيقول: ولئن كانت معجزة النبي ﷺ الأساسية هي القرآن الكريم ، فإن المعجزة التاريخية لواقع عصر الرسالة تحمل دلالة متينة على أنه رسول من الله ، وذلك أن ما سنه من نظم ، الآداب والأخلاق وعمارة الأرض ، وكذلك أحكام المعاملات والفصل في الخصومات بلغت الدقة والاحكام ، ويقطع كله بأنه ﷺ مع نشأته بين الأمة الأمية ما كان له أن يأتي بهذه الحضارة الباهرة في إصلاح أحوال البشر ، وعمارة ديارهم وطهارة نفوسهم لولا أنه رسول ونبي رب العالمين ^(٢).

(١) انظر : الغزالي ، محمد ، فقه السيرة ، ص ٤٩١ .

(٢) انظر : القطان ، مناع الخليل ، القضاء في عهد الرسول ﷺ (الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ط ١ ، وقائع ندوة النظم الإسلامية المنعقدة في أبوظبي صفر ١٤٠٥هـ - نوفمبر ١٩٨٤م) ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .

وعلى هذا المنطلق بنى الرسول ﷺ سياسة الرحبة في موطنه الجديد كأنه بيته وموطنه، ولم يضق زرعاً بوطن الغربه وبين أهلها رغم ما عانى أصحابه من قسوة أحواله التي سرعان ما تذكروا الديار والأهل، إلا أنه انتهج بغرس سياسة الأمل بينهم وتحبيب موطن الهجرة، وبدأ بينها وبين أهله كأنه منهم وفيهم، وكان يدعو لها بالخير والبركة.

فقد روى الإمام المسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدُنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ) ^(١).

وأساس هذا المنهج القويم والسياسة المحكمة والتي أُنعت بالمدينة العظمى تعود إلى مدى إخلاص صاحب الرسالة بمهمته، وقد يقول عنها الشيخ الغزالي رحمه الله: "وصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله ضرب من نفسه المثل الفذ للمكافحين، فمنذ أخذ على عاتقه تمزيق الاصداف التي التقت في العالم ليلاً كثيفاً من الشرك والخرافة لم يفلح أحد في ثنيه عن عزمه أو تعويق مسيره، أو ترضيه برغبة أوردعه برهبة، وفنيت أمام عينيه فوارق الزمان والمكان، فالغريب عنه إذا عرف الحق قريب، ووطنه إذا تنكر للهدى فهو منه برئ، والمؤمنون به آخر الدهر هم إخوته وإن لم يشاهدوه" ^(٢).

ولم تكن سياسة المسلمين التي انتهجها النبي ﷺ في بداية العصر المدني قائمة على العواطف المجردة ولا بالتسليم للاتكال تفعل بها الأحداث كما تشاء، بل كانت قائمة على أسس وأصول دينية، بدايتها تحديد صلتهم بالله عز وجل كنقطة إنطلاق، وكذلك امتلاك نظرة واضحة عن الحياة تنظم شؤونها الداخلية والخارجية بدقة مبتغاها إصلاح الحياة الدنيا والفوز بنعيم الآخرة. ومن هنا فقد وضع النبي ﷺ في بداية قدومه إلى هذه الأرض الطاهرة الدعائم التي لا بد لقيام رسالته، وقد قامت على المحاور الآتية:

ألف- صلة الأمة بربهم تعالى.

ب- ترابط الجماعة المسلمة مع بعضها الآخر.

ج- صلة الأمة الإسلامية بالأجانب عنها ممن لا يدينون عقيدتها ودينها ^(٣).

وقد برزت الشخصية السياسية المحنكة لرسول ﷺ في وضع هذه الدعائم من خلال كتابة الدستور أو وثيقة المدينة المعروفة، وقد كانت حافلة في تلك الفترة على أسس ومحاور النظام السياسي القائم على الأنظمة والدستور على مصطلح المعاصرين، وأهم معالم هذه الوثيقة اشتملت عند الباحثين على النقاط التالية:

١- قيام وتأسيس الدولة الإسلامية.

(١) صحيح مسلم، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ، رقم الحديث: ١٣٧٣.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٨٢.

(٣) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ١٨٨.

- ٢- رئيس الدولة هو رسول الله ﷺ ويعقد أمورها وتبرم المعاهدات باسمه .
 - ٣- نظام الدولة هو الإسلام .
 - ٤- أعطت الوثيقة للجماعة المسلمة أهمية وقيمة ، وحسبها أمة واحدة على من سواهم .
 - ٥- أساس الانتماء لهذه الدولة العقيدة الدينية وفيها قضيت على عصبية الجاهلية والقومية .
 - ٦- احترمت الوثيقة الاتفاقات المبرمة السابقة إلا إذا عارضت مغزى ودعائم الاتفاقية الجديدة .
 - ٧- اعترفت الوثيقة الانتماء القبلي الاجتماعي في حدود حالة إنسانية بغية التعارف .
 - ٨- الأولوية في الانتماء الديني للإسلام ، وعلى أساسها يسالم ويعادي المعادي .
 - ٩- التأكيد على الحريات الدينية بأوسع معانيها؛ وذلك لأن الإنسان حر فيما يعتقده وهو الميزان العادل في الحياة الإنسانية .
 - ١٠- التأكيد على التعاون بين أتباع الأديان في ردع العدوان الخارجي على المدينة وحذر يد العون للكائدين .
 - ١١- تحميل كل فئة المسؤولية عن الدولة ، فهم مسؤولون عن تصرفاتهم التي تصدر من قبلهم .
 - ١٢- التعريف بالخيانة العظمى ، وقد تتمثل في التعاون مع العدو الخارجي .
 - ١٣- فتح آفاق الحياة الآمنة لأتباع الديانة الأخرى وقد كتبت في الوثيقة أنهم إذا التزموا بالمشايق فإنهم مكفولين بالحياة الكريمة ، ويصيرون مواطنين شرفاء ، يحمون من كل شر متوقع ، كما أن المسلمين ملزمين بالتعامل الصادق والمستقيم معهم .
 - ١٤- إعلان المساواة المطلقة بين أفراد المجتمع الإسلامي قاطبة وبشكل دائم .
 - ١٥- وقد حددت الوثيقة في آخرها أسس المواطنة بالتزامهم بالواجب وامتلاكهم للحقوق الإنسانية^(١) .
- وبالجملة فسياسة النبي ﷺ كانت متميزة وقائمة على أساس الحق ومنضبطة بالوحي الإلهي ، تتحقق للإنسانية السعادة الدنيوية والأخروية ، وكانت أهم مظاهرها ارتفاع معنويات المسلمين ، وبذلك اتجهت القوى الفتية إلى البناء الفعال تحمل للإنسانية الخير والفلاح .
- ٣- الاهتمام بالجihad وقاتل العدو:** لقد دخلت الدعوة الإسلامية في الفترة المدنية من الحياة النبوية ﷺ في مرحلة جديدة وأصبح المسلمون أصحاب قوة ومنعة ، فبعد أن كانت مستلزمات حالهم الصبر والمصابرة ، بدأوا ينتقلون إلى مرحلة الدفاع يزودون عن أنفسهم وأصبحوا يحملون السلاح ليلاً ونهاراً ، ويتأهبون إلى منع كل خطر مقبل عليهم ، ومن ثم وجدوا مناعة الدفاع ، فردوا هجوماً الطغاة وكسرت شوكتهم ، ومن بعدها تمكنوا إلى حمل رسالة الإسلام للعالمين وأزاحوا كل العقبات التي تعيقهم ، وأصبح بالفعل قوة محاربة تقضي على الفتن ، وقد كانت مبتغى ذلك كما يقول الباحثون تعود إلى طبيعة الدعوة الإسلامية .

(١) انظر: رضا ، صالح أحمد ، إنها النبوة - بصائر وعبر من سيرة خير البشر - ، ص ٢٦٥-٢٦٦ .

فبعد أن تعلم المسلمون التأهب بدأت الآيات تنزل وتدعوهم إلى تمكين كلمة الإسلام؛ فأخذوا أولئك هذا الهدى بالأعياد والبشرى، وقد علمهم الرسول ﷺ أن هناك فداء، وتضحية وهدف والوصول إلى هذا المبتغى لا يأتي لمتردد جبان أو خائف، فالمحنة تنتظر كالسباع والوحش فوق رؤوس الجبال على حزن ومعقل الإسلام الجديد، ولا بد من التحرك، والعمل يحمي المدينة ويعيد المظالم إلى أصحابها وأهلها، وفوق كل ذلك لا بد من إزاحة الركام الهائل من الأوثان عن قلوب وعقول البشرية وأجيالها.

ولن يكون ذلك بمجرد الدعاء والصلاة والمعجزات وحدها بل بحاجة إلى نشاط عسكري حتى تأتي لهم التمكين ويحولوا كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) إلى حركة وتحكيم في الكون^(١).

وبناء على هذا لم يكن الجهاد في الإسلام مجرد وسيلة تخدم الدعوة فحسب بل هو أعظم باب في الدين، وذروة سنام الإسلام، وكما تعد وجهاً ثانياً للدعوة الإسلامية، فما لم تثمر الوجه الأول، أو حدثت عراقيل في وجهها فيلجأ إلى وجهها الثاني. وعلى هذا المعنى لم يكن الجهاد مجرد قتال فحسب وإن كان هذا الأمر من أعلى أنماطها؛ بل المقصود منه إفراغ كامل الجهد والوسع لتحقيق وإعلاء كلمة الله، والقضاء على الفتن التي تسد الناس عن الحق والخير؛ وهو بذلك موضوع دعوى كبير لجأ إليه النبي ﷺ بكل أنماطه في هذه المرحلة من عز الإسلام وشوخته.

وعلى هذا يقول الشيخ محمد الغزالي عن أهداف الجهاد والقتال الذي شرعه الله الإسلام وخاض معاركه الرسول ﷺ وصحابته هو أشرف أنواع الجهاد، وقد كانت فريضة لحماية الحق ورد المظالم وقمع العدوان وكسر الجبابة، وعن حكمه وضرورته فيقول: وما من أيام القتال فيهن ألزم على المؤمنين حيث يهدد دينهم وآله بالفناء، وتتألب وتجمع عليه مختلف القوي، بل يصطلح أعدائه الألداء، محاولين سحقه إلى الأبد، وقد وقع ذلك في بداية عهد الإسلام قبل الهجرة ومن بعدها، ووقع في هذه الأيام أيضاً فسقطت بلاد الإسلام في أيدي لصوص الزمان ثم رسمت أشنع السياسات للذهاب به ومن ثرواتهم رويدا رويدا^(٢).

والفقرة السابقة دالة على مدى تفكير الشيخ الغزالي عن الجهاد والقتال في سبيل الله، وبدايته أن الجهاد في الإسلام غاية شريفة لتحقيق الأهداف السامية؛ وهذه الأهداف ببرمتها تعود إلى محورين أساسيين، قسم منها تدرج في مفهوم الدفاع عن المسلمين والذين يستهدفون في أراضيهم على عقيدتهم وفكرهم وديارهم وأموالهم، وقسم يعود إلى القضاء على الفتن لنصر الحق وإعلاء كلمة الله وذلك في مقابل الذين يعرقلون مسيرة الدعوة الإسلامية؛ وما الجهاد في هذه الحالة إلا نمط القضاء على المنكر والفساد، وقد يشكل الجناح القرين للأمر بالمعروف؛ ويشكل هذين الجناحين جوهر الدعوة ولبها؛ وبالتالي هي فريضة مستمرة إلى قيام الساعة، ولكن يختلف أساليبها فمتى دعت الحاجة إلى القتال والدفاع يتوصل إليها.

(١) انظر: الصوياني، محمد، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (الرياض، مكتبة العبيكان، ط ١، ١٤٢٤هـ)، ج ٢، ص ١٧-١٨.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٢٣.

وقد دافع الغزالي في مستهل حديثه عن هذه الفريضة وأفند الشبهات المثارة عن الجهاد والتي يثيرها المستشرقون بحجة أن الإسلام يجنح إلى القوة في مجال الدعوة إلى العقيدة، وعد ذلك لغوا طائشا وحملة مدبرة لمحو الإسلام، وقد قارن في أكثر من تأليفاته بين حروب الأديان والجهاد ويذكر في ثانيا حديثه الآتي: لقد جاء رسالة الإسلام بحضارة عظيمة، وجعل هدي الإيمان قرين الأمان والإسلام صنو السلام، وقضى على وساوس الشيطان ومطامع النفس والعدوان على حقوق أي إنسان، ومن ثم جعل قتل الإنسان بالظلم ومصادرة أمواله غصبا من أشنع الجرائم، وعد أفعالا عرضة لسخط الله عزوجل كما عين لمقترفها عقوبات مشددة.

وعلى هذا النهج سادت جحافل من جيوش الإسلام تسير لنشر الدعوة، وما هي عملهم إلا مضرب المثل في اقتحامهم للصعوبات وابتغاء وجه الله، وأملا في رضوان الله والتطلع إلى الجوار الكريم في ديار النعيم، وكان هذا التغير الجذري الذي أحدثه الإسلام كان بين قوم جهلة تدير الحرب للسلب والنهب فقط ولكنهم سرعان ما أفيقوا، وحاربوا أعداءهم في ظل المباديء التي وضع لهم الدين لأغراض متعددة^(١).

والمطلع لسيرة الرسول ﷺ ليجد خير نماذج فيه، فقد روي الإمام أبي داود في سننه حديث ابن المصفى حيث قال: - (بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَلَمَّا بَلَّغْنَا الْمُغَارَ اسْتَحْثَّتْ فَرَسِي فَسَبَقْتُ أَصْحَابِي وَتَلَقَّانِي الْحَيُّ بِالرَّيِّينِ، فَقُلْتُ لَهُمْ: قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ تَحَرَّزُوا، فَقَالُوا: فَلَا مَنِي أَصْحَابِي، وَقَالُوا: حَرَمَتْنَا الْغَنِيمَةَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرُوهُ بِالَّذِي صَنَعْتُ، فَدَعَانِي، فَحَسَنَ لِي مَا صَنَعْتُ، وَقَالَ: أَمَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَكَ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَأَنَا نَسِيتُ الثَّوَابَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا إِنِّي سَأَكْتُبُ لَكَ بِالْوَصَاةِ بَعْدِي)^(٢).

فالحديث السابق دال على فرح الرسول ﷺ في حقن الدماء وسوق النفع المجرد إلى الناس ابتغاء ما عند الله، وقد أشاد بصنيع الصحابي بالوعد له بالأجر الحسن عند الله، وكتب وصاية للخلفاء والأمراء بأن ينتفعوا من سياسهت في الحروب لأنها مبنية على تقوى الله وصدق الإيمان.

المطلب الثالث: معالم هذه المرحلة من الدعوة

لقد كان النبي ﷺ إمام الدعوة للثقلين وهو رسول دعوة إلهية، أخذ على عاتقه هداية العالمين وإرشادهم إلى ما فيه خير وصلاح، وبالتالي لم يغفل عن دعوته أية حين، وعلى هذا كان موضوع رسالته في كل الفترات الدعوة إلى الله على بصيرة، وقد حث أمته الخيرة على الدوام والاستمرار فيها، وما دامت فيهم هذه فسيكونون بخير وفلاح، ومما يميز هذه الرسالة أن هدف رسوله بخلاف الدعوات الأخرى في كل الحين سواء الضعف أو الشوكة دوام الدعوة، والفترة المدنية مع عزها وسطوتها اتسمت كل محاطاتها سواء الحكم، أو الجهاد وباقي التشريعات بموضوع دعوة

(١) انظر: الغزالي، محمد، الإسلام والإستبداد السياسي (القاهرة: نهضة مصر، ط ٦، ٢٠٠٥م)، ص ١١٦-١١٧.

(٢) سنن أبي داود، كتاب: الأداب، باب: ما يقول إذا أصبح، رقم الحديث: ٥٠٨٠. حكم الألباني على الحديث على أنه ضعيف.

وتعد مرحلة من مراحلها. ومعالم هذه المرحلة بالجملة هي الاستمرار في هذه المهمة وتوسع نطاقها، وفيما يلي إشارة إلى أهم معالم هذه المرحلة في فكر الشيخ الغزالي:

١- الاهتمام والتركيز على استمرار الدعوة وبيان فضلها: إن أهم ما تميزت بها الرسالة المحمدية في كل مراحلها هي استمرار الدعوة الإلهية، فقد أخذها صاحبه عليه أفضل الصلوات والتسليمات بكامل الصدق والأمانة وبلغه على أتم وجه، وبهذا لم تتغير في أية حين بالإغراءات المادية والمعنوية المتاحة له في الفترة المكية حينما عرض عليه قومه السيادة، والمال والنكاح وما إلى ذلك، كما لم تغفل عنها وقت شوكة الإسلام وعزه وسطوته في الفترة المدنية، وكان حريصا عليه حتى في أشد المواقع والتي حينها ينسى كثير من البشرية مهمته؛ وتعد هذا دليل على صدق رسالته ودعوته وقد حث ﷺ في سيرته القولية والفعلية على الدوام بالاستمرار فيها وذلك لأنها مهمة مطلوبة على الأمة، وفي السيرة النبوية ﷺ نماذج عملية حية توحى هذا المعنى، فقد أخرج الإمام البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول يوم خيبر: (لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّأْيَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: قَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُنَّ لَيْتَهُمْ أَكَيْفَ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ. فَأَتَى بِهِ فَبَصَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّأْيَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)^(١).

وقد ذهب الغزالي في الدرس المستفاد من هذا الحديث أن رسول الله ﷺ ربي أمته على الدعوة والاستمرار فيها حتى في أشد الأحوال كما ساق لهم توجيهها نبويا قوامه الأخذ بأولى الأمور وهو الحرص على هداية الناس، وأن يكون عزم المقاتلين المسلمين قبل القتال دعوتهم إلى الإسلام، وقد ساق النبي ﷺ هذا التوجيه الغالي حتى تقضى على تطلع النفوس إلى المغانم المعجلة رغم ثروة يهود خيبر الضخمة ولكن ثواب داعيهم ومقاتليهم إذا اهتموا أضخم^(٢).

ومن هنا فقد نشأ الخلاف بين المذاهب الإسلامية في تقديم الدعوة على قتال الكفار؛ فذهب مالك بتقديم الدعوة إلى الكفار شرط لقتالهم سواء بلغت الدعوة قبلها أو لم تبلغهم وهو شرط مطلق، ونقل عن الشافعي أنه لا يقاتل من لم تبلغهم حتى يدعواهم، وأما من بلغته فتجوز الإغارة عليهم وأما الحنفية فيرون أنه تجوز الإغارة والمباغة عليهم مطلقا ولكن تستحب الدعوة^(٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، رقم الحديث: ٤٢١٠.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٣٧١.

(٣) انظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٧، ص ٤٨٧.

فالحديث السابق دال على أهمية استمرار الدعوة لما فيه من خير لصاحبه ومدعويهم، وأن أجر الهداية أعظم بكثير من متاع الدنيا والتي عبر عنها النبي ﷺ بحمر النعم، وهو معلم المال الكثير في ذلك الوقت، وفي ذلك رد أيضا على من يرمون الإسلام بالعنف والهمجية، فقد أمر النبي ﷺ عليا بمراعاة هذا الأصل رغم ما عرف من اليهود عداءهم وخيانتهم إلا أنه قدم توجيهها لأمتة وهو مراعاة الأوليات في أمور الدعوة والجهاد.

وأخيرا فإن الحديث دال على أنه لا يأس مع الدعوة إلى الله، ولو كنت تخاطب خائنا حاقدا متطويا داخل حصون خبير؛ فالهدف من الدعوة ليست تطهير قلاع وحصون خبير وأرضها بل تطهير قلوب ساكنيها من الرجز والكفر الذي حول سلوكهم إلى عقد من المؤامرات السوداء والتي تخنق الأمن والسلام، وعلى هذا لم يعرض النبي ﷺ على هؤلاء دفع الجزية كباقي الكفار بل خيرهم بين الإسلام وعقوبة الخيانة، وأنهم رغم شناعة فعلهم يحتفظون بأموالهم ودمائهم وديارهم^(١).

٢- توسيع نطاق الدعوة الإسلامية وتحقيق عالميتها: اتسمت الرسالة المحمدية بين سائر الرسالات الإلهية بصفة العالمية وشمولها إلى أطراف البشرية كلها، فلم تحد مثل باقي الرسالات بمنطقة معينة أو بين قبيلة بذاتها؛ وذلك لأنه خاتم الأنبياء ختم الله به رسالته وأتم عليه نعمته وكمل به دينه، وقد وصلت البشرية إلى المستوى العقلي في زمنه يستوعب رسالة واحدة أغناهم عن إرسال الرسل، وعلى هذا فقد بدأ النبي ﷺ دعوته العالمية بين الأفراد الذي تربط بهم صلة القرابة أو المودة منتقلا إلى إنذار العشرة الأقربين ثم إلى جميع الناس في مكة، وقرأها المجاورة ثم في طور جديد أرض الهجرة المدينة الطيبة حيث استقر به المقام، وبعد بضع سنين بدأ يرسل ويدعوا ملوك الدنيا قاطبة.

ومن هنا يرى الباحثون: أن هذا المنهج نهج طبيعي سار به ﷺ في دعوته، ولا تعنى تحديد رسالته بطابع إقليمي أو قبلي بادي الأمر، بل صفة العالمية كانت ملصقة برسالتها منذ لحظتها الأولى حيث كان المسلمون مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس^(٢).

والآيات القرآنية التي توحى بعالمية الرسالة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم: ٥٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبا: ٢٨). وقد توحى هذه الآيات بأن عالمية الرسالة تقرر منذ بدأ الوحي ولم تنزل بالمدينة آية تتحدث عن هذه الظاهرة إلا آية واحدة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠)؛ والملفت أن هذه الآيات المكية حين نزولها قررت عالمية الرسالة، وقد كان فيه أهل مكة

(١) انظر: الصوياني، محمد، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ج ٣، ص ٢٤٠.

(٢) انظر: العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط ٦، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م)، ج ٢، ص ٤٥٥.

مستطلعين في ذاك الوقت يستكثرون أن يكون محمد ﷺ رسولا لهم وحدهم، وكذلك فإن آية ختم النبوة صدقتها الأيام وما نزل من السماء وحي.

وعن هذا يقول الغزالي: ومن روائع وجوه الإعجاز القرآني كذلك أن هذه الآيات مكية النزول فقررت منذ لحظتها الأولى عالمية الرسالة، وردت على شبهات المستشرقين سلفا، والذين زعموا بفرية أن محمدا ﷺ بدأ رسالته العربية بقومه وحدهم، ولما نجح في إخضاعهم أغره النجاح بتوسيع دائر الدعوة وزعم أنه للخلق كلهم؛ وقد تجلت سفاهة هؤلاء من لحظتها الأولى.

وليست بدأ الرسالة في مكة مخالفة لعالمية الرسالة فإنها من الطبيعي أن تبدأ الرسالة عملها في بقعة من الأراضي وبين قوم معينين مراعي الظروف حتى يتسنى له العمل بتوسيعها، وهذا ما فعله بعد استقراره في المدينة المنورة فبدأ بتوسيع نطاق دعوته وخاصة في ظاهرة إرسال السفراء والرسالات إلى حكام الدنيا^(١).

وليست عالمية الرسالة المحمدية مطلب عاطفي أو نظرة مجردة لا طائل تحته، بل أحكام الإسلام بالجملة وتعليماته شملت وجاءت إلى العالم كله، وعلى هذا فمعالم ومظاهر الأمة عرفت في شريعتها وسماتها بالعالمية، وقد سعى النبي ﷺ توصيل دعوته لهم بكل وسيلة ميسرة في ذاك الأوان، ففي السنة السادسة من الهجرة النبوية لما تم الصلح بين مشركي قريش والمسلمين وهدأت الأحوال، وجدت الدعوة الإسلامية متنفسا ومجالا للتقدم، فكتب رسول الله ﷺ رسائل إلى ملوك الدنيا وأمراء العرب قاطبة يدعوهم إلى الإسلام وشريعته، وقد كان مضمون هذه الرسائل بالجملة كما يرى المؤرخون لم تكن لتوسيع السطوة والحكم، بل كان تدور حول الدعوة الإسلامية وإلزام طاعة الله ورسوله، وأضاف الآخرون ألفاظ الإسلام وطاعة الله ورسوله، وفي بعضها روايات الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفي بعضها ألفاظ "مفارقة المشركين" وآخرها جاءت "أقبل في حزب الله"؛ وبالجملة فهي توحى بطاعة الله ورسوله والتي هي رسالة الإسلام^(٢).

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي عن هذه الرسائل والكتب: إنها دلت على أن الإسلام ليس دين العرب ومنطقة الجزيرة العربية وحده كما هو الحال في الديانات الأخرى؛ بل هو دين البشر قاطبة ودين الإنسانية كلها، وكانت الرسائل في نفس الوقت حاملة الإنذار للسلطات الحاكمة في البقاع المختلفة في نفس الوقت بأنهم وملكهم مهددة بالزوال والإنقراض إذا لم تستجب أو تسمح على الأقل للدعوة من تمكين رعاياها للاطلاع على الدعوة والإصغاء إليها^(٣).

ولقد أرسل الرسول ﷺ الكتابات والرسائل إلى ملوك الدنيا وزعمائهم مع أن الدولة الإسلامية الفتية لم تكن على أتم التأهب والاستعداد الكامل لمواجهتهم؛ فلو كان الأمر للغلبة والسيطرة لأكتفى بزعماء العرب وحده، ولكنه كان مؤمنا

(١) انظر: الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (دمشق: دار القلم، ط ٢، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ص ١٦٥-١٦٩.

(٢) انظر: كرمي، أحمد عجاج، الإدارة في عصر الرسول ﷺ (القاهرة: دار السلام، ط ١، ١٤٢٧هـ)، ص ١٣٩.

(٣) انظر: الندوي، أبو الحسن علي الحسني، السيرة النبوية، ص ٣٩٢.

بتوسيع رسالته، وهو مبعوث إلى العالمين وكتابه ذكرى للعالمين؛ ومن هنا فقد يجب على الدعاة أن يهتموا بتوسيع نطاق دعوتهم، وكلما وجدوا متسعا في ظروفهم فعليهم بالتوسيع، فالبقاء في نطاق ضيق يحدددهم ويحول بينهم وبين تطلعاتهم.

وعن هذا يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تعم المعروف المعمورة من أرض الله يومئذ يثير النظر والتأمل، بيد أن أصحاب الرسالات العظيمة لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق، فإن ثقتهم العميقة في سيادة فكرهم وامتداد نطاقها، تقضى وتصغر العقبات المفروضة في الطريق، وتجعلها هباء منثورا ولو كانت الشم الرواسي"^(١).

المبحث الثالث: فقه الدعوة عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في الفترة المدنية

لقد كان العصر المدني في تاريخ الدعوة الإسلامية عصرا ذهبيا، عرف بتوسعة نطاق الدعوة وإبدالها إلى صبغة عالمية تطبيقية إلى جانب نضج مفاهيمها وقيمها، كما أرسيت مبادئها التي قامت عليها تلك الدعوة الربانية، وقد أينعت ثمار تلك الحرية والتي بدأها الرسول الداعي والقائد والأسوة، وقد ميزت تلك الفترة بغزارة موضوعاتها ومفاهيمها حيث تعد كل فقرة وموضوعها ركيزة دعوية مستقلة، وفي جملتها موسوعة دعوية وزادا للسائرين عليها، وللدكتور رمضان البوطي رحمه الله في ضوء تلك الأحداث استنباطات دعوية متميزة نبرزها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: منطلقات الدعوة الإسلامية

لقد أصبح حريا بالدعاة أن يحدد في دعوتهم المفاهيم وتكون لهم منطلقات تسير عليها؛ وذلك لأن الدعوة هي بحر عريض والخوض فيها بدون الدليل تضل صاحبها كما تأتي بنتائج معكوسة، وعلى هذا فكل مرحلة من تاريخ الدعوة ترتبط بمنطلقات معينة، وقد تنبثق من تغير الزمان المكان والظروف، ويحسن بنا أن نتطرق إلى أهم تلك المنطلقات عند البوطي فيما يلي:

أ- ترسيخ معنى الأمة الإسلامية القائمة على أساس الدستور والنظم: لقد من الله على المؤمنين بهجرتهم إلى المدينة المنورة ترسيخ معنى الأمة الإسلامية وتوسعة المجتمع الإسلامي الخالص حيث يسموا أفرادهم بترية الرسول الأعظم ﷺ، وما أن وصل قائده حتى وضع لفئات المجتمع الإسلامي دستورا عادلا تحكم حياتهم، وتربطهم بوثاق الإخاء؛ وبالتالي أصبح مجتمعهم رغبة وفي حياتهم سعة وبركة، وقد أضحي تلك المجتمع بمرور أيام عديدة مضربا للمثال مقضيا على حل تلك العقد التي كانت قائمة في حياتهم قبل ذلك.

وقد كانت الهجرة النبوية عاملا في نشأة أول دار إسلامي للأمة الإسلامية على وجه الأرض وإيدانا بظهور الدولة، ومعقلا للدعوة الإسلامية تنتشر في ربوع وأرجاء الأرض رسالتها، وقد كانت من أوائل الأعمال التي قام به حين مقدمة ثلاثة أعمال تعد في جملتها أسسا ودعائم للمجتمع الإسلامي هي:

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٣٩١.

١- بناء المسجد .

٢- المؤاخاة بين فئات المسلمين عامة وبين المهاجرين والأنصار خاصة .

٣- كتابة وثيقة وهو الدستور الذي يحدد نظام حياة المسلمين فيما بينهم، كما حددت العلاقة بينهم وبين الأمم المجاورة اليهود وغيرهم .

وقد حظيت هذه الوثيقة في تاريخ الإسلام بأهمية كبيرة، حيث قامت عليها الأمة ونظمت بها شؤون وأحوال الحياة الدنيوية للمسلمين، كما ربطت بمفهوم العبادة والطاعة الدينية التي توثق إنفاذها، وتوعد المغفل والمتخلف عنها بعقوبة ولوم دنيوي وأخروي؛ وهذا هو الفارق الأساسي الذي تميز هذا الدستور عن سائر دساتير الدنيا أو الموضوعات من قبل البشرية، وعنها يقول ابن هشام: "فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ إِذْ قَدِمَهَا شَهْرَ رَجَبِ الْأَوَّلِ، إِلَى صَفَرٍ مِنَ السَّنَةِ الدَّاخِلَةِ، حَتَّى بُنِيَ لَهُ فِيهَا مَسْجِدُهُ وَمَسَاكِنُهُ، وَاسْتَجْمَعَ لَهُ إِسْلَامَ هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا أَسْلَمَ أَهْلُهَا، ثم كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط" (١).

وأما من أهمية هذه الوثيقة أو الكتاب، والدستور حسب المصطلح المعاصر فإنها دالة على معاني عظيمة وأساس متين ذكرها الدكتور البوطي قائلا: إن كلمة الدستور هي أقرب مصطلح مناسب في العصر الحديث لهذه الوثيقة، وهي بمثابة إعلان قانون دستور تشمل كافة محتويات الدستور المعاصر حيث وضع فيها الخطوط الكلية لنظام الدولة الداخلية والخارجية وعلاقة الأمة بعضهم البعض وكذلك صلتهم بالأمم الأخرى. وميزة هذا الدستور أن واضعه هو الرسول ﷺ مستلهما بوحى من الله وأملاه للصحابة فجعلوا منه مبدأ متفقا عليه فيما بينهم وجيرانهم اليهود. وهذا الدستور بما حظي من المكانة والأهمية، دال كذلك على مدى اهتمام الأمة الإسلامية بالدستور، وأن شؤون حياتهم منذ أول نشأته اتسمت بها؛ ولهذا جاءت الدولة الإسلامية الأولى على أساس هذا الدستور والنظام مراعيًا بكل ما تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية الإدارية، ولكن الخوض لتعليماته لم يكن مجرد الإلزام القانوني والأخلاقي فحسب بل ربطت بوثائق العقيدة والمسؤولية الدينية حيث يؤمن أصحابها بغية الحصول على رضا الله عزوجل والنيل من مثوبته (٢).

وأما عن البعد الاجتماعي لهذه الوثيقة والتي اندرجت تحت لفظ "الأمة ومن تبعهم" فهي دالة على مفاهيم عظيمة وأسس بديعة لم تعرفها المجتمعات البشرية قبل ذلك، وعرفه الباحثون: إن الأمة خلال بنود هذه الوثيقة تعرف تعريفا جديدا فهي كيان اجتماعي سياسي تؤسس على أساس العقيدة والفكر لا على أساس الدم ولا تحدها وطن،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٥٠١.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٦٧.

وجنس ولا لغة، كما لا تصادر هذه عقائد وأفكار أخرى بل اتسمت برحابة تستوعب كل العناصر دون صهر أو تذويب، وهي قابلة للتقلص والتوسع تبعاً لعدد من ينضم إليها أو يتركها باختياره^(١).

وعلى هذا فالصحيفة والوثيقة دعوة للتحرر من روااسب الماضي وفي مقدمتها النزعة القبلية والتعصب لها، كما امتصت بفضها كل الصراعات الدامية بين الأوس والخزرج، وزيادة عليها شكلت مجتمعاً سميتها الوحدة التي جاءت على أساس الانتماء إلى العقيدة الجديدة والتي هي رسالة الأمة بناء على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

وقد بينت الوثيقة النظام الاجتماعي الجديد للمؤمنين والمسلمين بعد تجمعهم على أساس العقيدة مفسحاً المجال للأمم الأخرى، وزيدت عليها "والمؤمنون والمسلمون من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة". وبهذه الكلمات البديعة استطاع صاحبه ﷺ أن تستقطب وتقود كل الشتات جمع توليف لا تعسف، وذلك على وفق تصور ومفهوم جديد قائم أساسه على مفهوم الأمة ذي الطابع السياسي والمدني لا العقيدة الدينية فحسب؛ وعلى هذا الأساس يعتبر هذا الدستور أول وثيقة تاريخية تقرر مبدأ جواز الانضمام إلى المعاهدات بعد التوقع عليها كما تنادي بها المعاهدات الدولية في العصر الحديث.

وتتميز هذه الوثيقة في هذا الصدد بغاية الوضوح وعدم الغموض في أي جزء منها، فبعد ما جمع شمل المسلمين المهاجرين والأنصار على عقيدة وتسمية واحدة فتح كذلك باب التعاقد التنوعي مع الأمم الأخرى والذين يريدون التحالف مع المؤمنين، وذلك بلفظة (أمة مع المؤمنين) وهكذا سماهم أمة سياسية وليست جماعة سياسية منفصلة وقد شملهم في الأمة بالمعنى السياسي دون المفهوم العقدي، كما تصرح في أحد بنودها "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم".

ومن مميزات هذه الوثيقة كذلك بناء على الأصل الكلي للأمة إنها فتحت المجال لكل من يريد الانضمام لهذه الأمة ولو من خارج حدود المدينة، فدخلت فيها الطوائف والأعراق المتنوعة؛ فقد أراح الرسول ﷺ كل الحواجز والعقبات التي تحول حياة المشاركة في الأمة الإسلامية وذلك لأن حدود القبلية أصبحت ملغية وغير معترفة بها رسمياً في الدولة الإسلامية النبوية.

وأساس كل ذلك تعود إلى أن الإسلام دعوة شاملة، ومجال تحقيقه هي العالم بأثرة وليست المدينة فحسب، وعلى هذا فقد بادر الرسول ﷺ بأمر يادخال اليهود باعتبارهم جزءاً من أمة الدعوة ضمن الكيان السياسي الاجتماعي للأمة... ولا شك أن هذا العيش في إطار سياسي واحد يمكن أن تكون مقدمة إلى الانضمام إلى أمة الإجابة وقد تحقق الأمل في خصوص بعض الأفراد في حياته ﷺ^(٢).

(١) انظر: الشعيبي، أحمد قائد، وثيقة المدينة - المضمون والدلالة (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، ١٤٢٦ هـ)، ص ٨٤.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه، ص ٨٤.

وأخيرا فإن هذه الوثيقة رد وتفنيد للشبهة القائمة لعلمنة الأمة الإسلامية، وعلى الذين يصرحون القول بأن الإسلام مجرد دين قوامه العلاقة بين الإنسان وربه، وليس له من مقومات الدولة والتنظيم والدستور من شيء... وهذه الهراءات المزيفة كما يقول البوطي رحمه الله على حسب قوله أحبولة قديمة وعتيقة يبتغي بها أصحاب ومحترفوا الغزو الفكري ودعاة الإستعمار أن يقيدوا بها من عمل الإسلام كي لا ينطلق في المجتمعات الإسلامية^(١).

٢- إصلاح المسلمين من أهم دعائم الدعوة الإسلامية: من أهم الدعائم التي سارت عليها الدعوة الإسلامية هي التهيئة الذاتية للمجتمع الإسلامي وتعميم الإصلاح في الفئات المسلمة، فقد كانوا روادهم أسوة عملية للمدعوين، وقبل أن ينطقوا بأقوالهم كانوا يدعون بأخلاقهم وسلوكهم وفعالهم؛ وسرعان ما كان يجذبون إليهم ويلمسون في دعوتهم الحب والإخلاص.

ومن هذا المنطلق لم يوسع النبي ﷺ دعوته إلى باقي الأمم إلا بعد أن قطع أشواطاً في دعوته ورسخ الإصلاح في حياة المسلمين، فقد روي ابن سعد: أن رسول الله ﷺ لما عاد من الحديبية سنة ستة أرسل رسله إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام وكتب إليهم رسائل: فقل يا رسول الله إن الملوك والأمراء لا يقرأون إلا كتاباً ورسائل مختومة، فأخذ من يومها خاتماً فضياً وطر عليه "محمد رسول الله"، ثم ختم الكتب، وقد خرج في يوم واحد ستة نفر منهم، وذلك في شهر المحرم من السنة السابعة^(٢).

وقد ذكر الإمام البخاري بعث كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر في كتاب المغازي بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، وذكر في هذا الصدد حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: بَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى، مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ)^(٣).

وقد جمع العلامة ابن حجر في كتابه فتح الباري التعارض بين رواية أكثر المؤرخين والرواية المنفردة لحديث البخاري في السنة التاسعة: الجمع بين القولين أنه ﷺ كتب إلى ملك الفرس مرتين، مرة في سنة سبع زمن الهدنة بعد صلح الحديبية، ورواية البخاري يقتضي أنه كان في سنة تسع بعد ذكره لغزوة تبوك، وقد ذكر أهل المغازي أنه ﷺ لما كان بتبوك كتب إلى قيصر وغيره^(٤).

وأما بخصوص الفقه المستفادة من إرسال هذه الكتابات وخاصة في مجال الفقه الدعوي، فقد ذكر الشيخ البوطي: إن تخصيص الوقت لهذه المهمة الصعبة والمهمة لدالة أن على المسلمين أن يقوموا بمسؤولية الدعوة فيما بينهم،

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٦٧.

(٢) انظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٩٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، رقم الحديث: ٤٤٢٤.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٢٧.

وأن يصلحوا من أنفسهم، ومتى اجتازوا في هذه المهمة أشواطا وفرغوا من تطبيق نظام الإسلام على حياتهم وسلوكهم، فإنها حينئذ يتسنى لهم أن يقوموا بالواجب الثاني.

وقد كان ﷺ قادرا أن يرأس الملوك قبل ذلك؛ غير أنه أراد أن يعلم أمته أن هذا العمل إخلال بهذا الأصل، وقد ربي الرسول ﷺ أمته كذلك أن إصلاح المسلمين أنفسهم جزء عظيم من دعوة غيرهم إلى الإسلام بحجة أن الناس كانوا ولا زالوا يبحثون عن المثل الصالح والأسوة في السلوك والخلق^(١).

والناظر في سيرة الدعاة المخلصين وخاصة الرسول ﷺ ليرى أثر هذا التطبيق فكثير ما كان فعالة وسلوكه داعية إلى الإسلام العملي المطلوب بالنسبة لأقواله، وهكذا النصوص الدينية ناطقة بالتأكيد على هذا الأصل حيث وبخ الله الذين تفصل أفعالهم عن أقوالهم.

ومن اللازم التنويه كذلك بأن أعداد الدعاة تحتاج إلى عناية ومشقة كبيرة، وقد كان النبي ﷺ لما كان يرأس السفراء إلى الملوك والأمراء لدعوة الإسلام كان يعدهم عمليا ونظريا فيبين لهم بماذا يبدأون؟ وماذا يقولون؟ وكيف يجب عليهم أن يروا... وكل هذا بلا شك يحتاج إلى تفقه وبذل ومصابرة ووقت حتى يأتي بالتأثير المرجوة.

٣- ضرورة الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في كل الأمور: إن مسيرة الحياة في كل الأزمنة والأحيان بحاجة إلى دليل وإرشاد، وموجه يقي الناس عن الاعوجاج والضلال كما يرشدهم إلى الصراط المستقيم؛ وعلى هذا فقد أرسل الله عز وجل إلى كل الأمم رسلا وكتبا، إلا أن الرسالات نظرا لتشتت شعوبها وسوء أحوالهم كانت بحاجة إلى تجديد وإكمال، وقد ظل الأمر كذلك حتى اكتمل الدين ببعثة خاتم الأنبياء ﷺ.

وبعد أعوام من الجهد المتواصل والإخلاص كملت هذه الرسالة الخاتمة متركا لهم كتابا إلهيا، وسنة تشريعية مباركة تمنحهم السعادة الدنيوية والأخروية ويغنيهم عما سواهم إلى يوم الدين، وهذين المصدرين تعدان بمثابة دليل حي قائم؛ كأن يكون الرسول بينهم حي يرزق، وحث النبي ﷺ أمته بالاعتصام بهما في حياته الطيبة وكذلك في أخريات توجيهاته لأمرته قبل وفاته.

ونرى جليا هذا الأمر في حياته ﷺ؛ ففي البنود الأخيرة من صحيفة المدينة جاءت عبارات واضحة المعنى حيث تقول: (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ)^(٢).

فهذا البند الاحترازي للوثيقة والتي تعد كضابط في الحياة المدنية توحى بأن الحكم العادل وحده هو الأساس، ولا يجوز للمسلمين أن يلجأوا إلى غيرهم، وقد تتمثل العدل في مراجعة شريعة الله وحكمه فحسب، وهو ما تضمنه

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٧٣.

(٢) حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٦٢

كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ومهما بحثوا هؤلاء الحلول في غير هذين المصدرين فهم مذنبون ومعرضون أنفسهم لشقاء الدنيا وعذاب الله الأليم في الآخرة^(١).

ومرد مراجعة المسلمين لهذين المصدرين وحده تعود إلى كمال ما جاء به صاحب الرسالة ﷺ حيث تغنيهم عما سواهم، وقد أحسن العلامة ابن القيم هذا البحث قائلاً: توفي النبي ﷺ وما من طائر يطير ويقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه خبراً، وعلمهم كافة الأشياء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والقيام والقعود والنوم... وجميع أحكام المعاش والممات، ووصف لهم كذلك من أخبار العرش والكرسي والملائكة والجن والجنة والنار في القيامة وما فيه، وعرف لهم معبودهم وخالقهم وإلههم بأنهم تعريف كأنهم يشاهدونه بأوصاف الكمال ونعوت جلاله، وعرفهم من الأنبياء والرسل وأممهم وما جرى لهم كأنهم بينهم، ومن ثم فهمهم طرق الخير والشر دقيقها وجليلها مالم يعرف نبي ورسول لأمته قبله، وكذلك عرفهم من مكاييد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها من بين أيديهم ومن خلفهم، وكذلك علمهم من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معهم إلى سواه، وكذلك بين لهم من أمور معاشهم في دنياهم ما لو علموه وعملوها لاستقامت دنياهم أعظم استقامة؛ وبالجملة فجاءهم بخيري الدنيا والآخرة برمته، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه^(٢).

وقد اعتنى الصحابة في حياته ﷺ بالوحي الإلهي بالغ العناية وحاولوا أن يتبعوا أقواله وأفعاله وتقاريره، وفي السنة الأخيرة من حياته ﷺ حينما ذهب إلى الحج واجتمع بالحشد الكبير بالمؤمنين خطبهم بالخطبة العظيمة، وبين لهم فيها أحكام الدين وأسسها ووقف فيهم مودعا، ومن ضمن وصاياه لأمته قوله: "فَاعْقِلُوا أَيُّهَا النَّاسُ قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَغْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، أَمْرًا بَيْنًا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ"^(٣).

وفي هذا التوجيه النبوي رسالة ذات دلالة عظيمة تركه ﷺ للأجيال القادمة وأهم مغزاه كما يقول العلامة البوطي: أنه وضح للناس أن صلاحية التمسك والاعتماد بهذين المصدرين ليس وقفا على زمن دون آخر، وأنه لا ينبغي أن يكون لأي عرف زمني أو تطور حضاري سلطان أو تغلب عليهما، وهكذا فقد وصف النبي ﷺ الداء والدواء الدائم عبر الأجيال مهما كانت ظروفهم وأحوالهم، وأنها منوطة بهدي القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن الملفت أنه ﷺ وصف هذه النسخة بالدائمة فلم يخصص مخاطبيهم بالحجيج أو المؤمنين بل كان بلفظ أيها الناس دالة على أن هذه النسخة مستمرة إلى يوم الدين^(٤).

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٦٩.

(٢) انظر: ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م)، ج ٤، ص ٢٨٥.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٦٠٤.

(٤) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٥٠.

المطلب الثاني: ضوابط هذه المرحلة من الدعوة

الدعوة الإسلامية دعوة ربانية تنبثق من مصدر إلهي وتتحدد أهدافها ووسائلها ونزعاتها من الشريعة الإسلامية، وهي مع مخاطبتها للإنسانية ومسايرة أحوالها اتسمت بالانضباط الكامل مع روح الشريعة الإسلامية وتقدم للإنسانية ما يحتاجهم في دنياهم وآخرهم. وهذه الضوابط يقي الإنسان عن الإعوجاج والتخبط في الضلال وليست إلا إعتصاما للإنسانية، وعلى هذا فالفترة المدينة مع ثراء مجالاتها انضبطت بها؛ وقد نستعرض لبعض منها في فكر الدكتور سعيد رمضان البوطي:

١- ضرورة الأخذ بالسياسة الشرعية: إن الدعوة الإسلامية مع اتسامها بروح الشريعة الإسلامية وانضباطها الكامل بها، ليست دعوة جامدة أو جافة تغفل عن متطلبات الإنسان وتغير أحوالها، بل يعطي للإنسان قدره وقيمه ويرى في رأي الإنسان وفكره وتدييره أهمية بالغة، وذلك لأن الإنسان هو محل الخطاب وتكمن قيمته بالاهتمام لفكره وتدييره... ولكن تنيط هذه القيمة بأن لا يكون مخالفا مع أسس الشريعة الإسلامية؛ وبهذا لا نستطيع أن نجد دينا أو حضارة يهتم بالإنسان وقيمه مثل ما تمنحه الإسلام؛ ومن أهم هذه القيم الأخذ بالتدبير والسياسة الشرعية. وقد عرف لفيف من العلماء السياسة الشرعية بمدلولات مختلفة ومن ضمنها أنها: ما صدر عن أولى الأمر المسلمين من إجراءات وأحكام فيما لم يرد بشأنه دليل متعين على أساس المصلحة، دون مخالفة الشرع فهي سياسة شرعية^(١). وعلى هذا فالسياسة الشرعية بهذا المعنى هي: المسائل التي تتغير فيها الأحكام تبعا لتغير مناهج الحكم، ومن طبيعته أن الإمام فيه مخير تبعا للأصلح وقد لا يتعين على مسيرتها بالدوام. والسياسة بهذا المعنى هو جزء من الدين وغايته، ولهذا يقول الإمام القيم رحمه الله: "ومن له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالاتها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنه من المصالح تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها"^(٢).

والناظر في سيرة النبي ﷺ ليجد نماذج عملية وأمثلة حية توحى بهذا المعنى، فقد أمره الله مع رفعة مكانه وتأثيره بالوحي الإلهي أن يلتزم بأصل المشورة في الأمور وأن لا يستقل برأي، وكذلك كان أموره مبنية على التدبير والمصلحة، وغالبا ما يترك ظواهر الأمور ويذهب إلى مآله.

وقد ذهب الدكتور البوطي رحمه الله في الدرس المستفاد من مقدمات غزوة بدر الكبرى أنه ﷺ التزم بمبدأ التشاور مع أصحابه، وكان كل حياته مظهر الإلتزام بهذا المبدأ وذلك في الأمور التي له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية والتي لم يثبت بنص ملزم من كتاب أو سنة.

(١) انظر: العتيبي، سعد بن مطر المرشدي، التعليق على السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (عنيزة: مدار الوطن للنشر، ط ٢، ١٤٣٤هـ)، ص ٨.

(٢) ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: أبي محمد حمود بن محمد (دمشق: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م)، ص ٣٥.

وعلى هذا فحالات الغزو والصلح والمعاهدات بين المسلمين وغيرهم من الأمم من أمور السياسة الشرعية، وقد يسمى بحكم الإمامة، وتفصيل ذلك أن فريضة الجهاد حكم تبليغي ثابت لا يخضع لنسخ أو تبديل، وكذلك الصلح والمعاهدات قضايا وأحكام ثابتة لا يجوز نسخه واجتثاثه من الشريعة الإسلامية؛ غير أن جزئيات وصورها التطبيقية تختلف حكمها نظرا لاختلاف ظروف الزمان والمكان وكذا حالة المسلمين واعدائهم، والميزان الذي يحكم في هذه الأمور إنما هو بصيرة الإمام العادل المتدين والسياسة الشرعية القائمة بالإخلاص والاعتماد الدائم على مشاورة المسلمين والاستفادة من تجاربهم وأرائهم المختلفة.

فإذا رأى الإمام أن من خير المسلمين أن لا يواجهوا أعداءهم بالقوة والحرب، وقد تثبت عنده من صلاحية رأيه بالمشاورة والمذاكرة جنح إلى السلم، وإذا وجد الظروف المناسبة للقتال والجهاد فعليه أن يحمل رعيته على القتال والدفع^(١).

وكذلك من وجوه الأخذ بالسياسة الشرعية النظر إلى المآل والمسيرة على البصيرة وعدم الاقتحام بظواهر الأمور، فكثير ما يفعل الدعاة المعاصرين برؤية المكروه ويقتحم بردة فعل تجاه أمر لا يرضيهم، ويكون آثاره مع الأسف سلبية، لكن التقصير تكون عائد من اللحظة الأولى.

فهذا ﷺ تقضي على فتنة المنافقين في غزوة بني المصطلق السنة السادسة من الهجرة وذلك حينما نازع مسلمين من المهاجرين والأنصار عند تجمع ماء، فنادى المسلم المهاجر جهجاه بن مسعود، بـ "يا معشر المهاجرين!"، والأنصاري المسلم سنان بن وبربـ "يامعشر الأنصار!"، فحينما سمع قوله عبد الله بن أبي رأس النفاق قال: قد نافرنا وكاثرونا في دارنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأول.

وكان مما سمع كلامه زيد بن أرقم، فمشى إلى النبي ﷺ يخبره وكان عنده عمر فقال: يا رسول الله مر عباد بن بشر فليقتله، فقال له: "فكيف ياعمري إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟" لا، ولكن إذن بالرحيل، وذلك في وقت لم يكن عليه الصلاة والسلام يرتحل فيها، فارتحل الناس من يومهم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح من اليوم الثاني حتى أذتهم الشمس ثم نزل بالناس فوقعوا نياما؛ وإنما فعل النبي ﷺ ذلك ليشغل الناس عن أحاديث الذي كان قبل الأمس من حديث رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول^(٢).

وقد تدل هذه القصة على بصيرة النبي ﷺ ومدى ما آتاه الله من براعة فائفة في سياسة الأمور والتغلب على المشاكل، فقد كان قول ابن أبي كافيا ومسوغا لقتله وخاصة إن الآية الكريمة شهدت لزيد بن أرقم على صدقه، إلا أنه استقبل الأمر بصدر رحب وقال: "فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ!" وحتى حينما جاءه ابن عبد الله

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٧٥.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٢٩١.

رضي الله عنه وقد يعرض عليه قتل أبيه إذا كان يريد أن يحكم بذلك ، ولكنه فوجئ بالجواب البليغ ما لم يكن يتوقعه : "بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا"^(١).

وقد كان من نتيجة هذه الحكمة الفائقة أن قوم وعشيرة أولئك المنافق انحسر عنه وتباعد عنه بتلك الفضيحة التي واجهتها. والحادثة دالة كذلك على مدى معالجة النبي ﷺ بأحسن تدبير فقد تحرك الجيش في وقت غير معتاد ، وقد شغلهم بالسير عقب السير حتى أتعبهم ولم يدع لهم ذلك فرصة الحديث عن شيء ... وكان كل ذلك الصفات نابعة من وراء صفة النبوة فيه ^(٢).

وبالجملة فالسياسة والتدبير هي من الضوابط الأساسية التي يجب الأخذ بها في أمر الدعوة ، وهما بذلك سلم النجاح ويتقي الدعاة عن كثيرا من المزالق التي يرتكبونها أثناء مسيرتهم ، وبذلك تفسد على أنفسهم وغيرهم الأحوال وتعود بالشر على الدعوة نفسها.

٢- حرمة الولاء مع غير المسلمين مهما اشتركت المصالح: لقد أنشأ النبي ﷺ لأمر الدعوة الإسلامية أمة عظيمة قوامها العقيدة والإيمان حيث قصت على كل الفروق التي تفصل بينهم ، وعلى هذا فقد ربط بين المؤمنين بوثائق الأخوة الدينية التي تفوق على كل القربات بين الناس ، وعلى عكس ذلك فإن كل الصلات في مقابل أمر الدين تفتت وتذوب وتصبح كأنها لا شيء ، ولهذا ضربت الفئة الأولى من المسلمين في الفترة المدينة أمثلة رائعة سطرها التاريخ ... وقد كان الباعث على كل هذه الفعال مدى اعتقاد أولئك المؤمنين بعقيدة الولاء والبراء ، ومكانتها في العقيدة الإسلامية علما وعقدا وإقرارا وانقيادا ، وعملا بمقتضاه وكماله في الحب في الله والبغض في الله . وبناء على ذلك فالولاء والبراء هي : صورة عملية وتطبيقية لعقيدة التوحيد وهو مفهوم جسيم في حس المؤمنين ، وكلمة التوحيد لن تتحقق مرده إلا بتحقيق ولاء من يستحق والبراء لمن يستحق البراء ^(٣).

وفي الفترة المدنية من السيرة النبوية ﷺ لما فصل معسكر الإسلام والشرك لنماذج حية توحى لهذا المعنى ، فقد أثبت المؤمنون بإسلامهم وضبطهم للوحي الإلهي الذي بلغه الرسول الأعظم ﷺ أن الولاء يكون لله والرسول ، وأن ما كان بينهم وبين المشركين من المصالح والتحالفات فإنها لا تساوي في أمر الدين من شيء ، وقد تميز الله بهذه المهمة صف المؤمنين والمنافقين .

فقد روي ابن هشام في سيرته أنه لما وقع الغدر من بني قينقاع اليهودية ؛ فقد حاصرهم الرسول ﷺ حتى نزولوا على حكمه حينها ذهب رأس النفاق عبدالله بن أبي إليه وقال له : "يا محمد ! أحسن في موالي ؛ فأبطأ عليه النبي ﷺ ، فقال يا محمد أحسن في موالي ، فأعرض عنه ، ولكن ابن أبي أدخل يده في جيب درع النبي ﷺ فقال له : ويحك أرسلني قال : لا والله . لا أرسلك حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال : ويحك أرسلني ، قال : لا والله ، لا أرسلك حتى

(١) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(٢) انظر: البوطي ، فقه السيرة ، ص ٢٢٥ .

(٣) انظر: القحطاني ، محمد بن سعيد ، الولاء والبراء في الإسلام (مكة المكرمة: دار طيبة ، ط ٦ ، ١٤١٣هـ) ، ص ٨ .

تحسن في موالي، ثلاث مائة دارع وأربع مائة حاسر منعوني وزودني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة، إني والله أمرؤ أخشى دوائر الحرب، فقال رسول الله ﷺ: هم لك ومشى على رسله عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان بينه وبينهم حلف مثل عبد الله بن أبي، فخلعهم إلى النبي ﷺ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم، وقال يا رسول الله! أتولى الله وسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. وعن موقف ابن سلول نزلت آيات من سورة المائدة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٥١)، وأما عن موقف عبادة بن الصامت فنزلت: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٦) ^(١).

والنتيجة التشريعية المستفادة منها توحى بحرمة ولاية غير المسلمين؛ فلا يجوز للمسلمين أن يتخذوا من الكافرين أصحابا تشيع بينهما الولاية والتعاون، وليست هذه آية واحدة أو حادثة معينة أسست هذا الأصل؛ بل هناك آيات وأحكام متكررة أكدت على هذا الحكم وذلك لأن المسلمين دون غيرهم أمة واحدة، وإذا كان كذلك فيجب أن يكون ولاءهم وتآخيهم محصورة ومحددة فيما بينهم، بيد أن هذا لا يحرم التعامل مع الغير كما مر بنا، ولا يحرم التعاون والبر والعدل بين المسلمين وغيرهم لأن رسالة الإسلام يرغب الخير للجميع ويدعو الناس للصالح والرشاد ^(٢).

وليس هذا الحكم الذي يحرم الولاء بين المسلمين وغيرهم ضابط تفضل أو من محسنات الأمور فحسب، بل هو من مستلزمات الإيمان حيث تعبر عن صدقه وقوته وهو من مستلزمات الاستعلاء على القيم الأخرى، فإذا وجد فإنه يولد الأثر والقوة الفعالة في بناء الحق الذي أراده الله. إن الإيمان بهذا الأصل يصيب السلوك ويشع من خلاله الجهد والحركة... وعلى هذا لم يقبل عذر أولئك المؤمنين الذين كانوا في صف المشركين رغم سعة الأرض الله حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧)، وعلى هذا فإيمانهم لم يؤتي ثمرة لأنهم لم يعملوا بمستلزماته ^(٣).

وقد صرحت هذه الآية وغيرها من الوقائع أن اللجوء لمثل هذه الأعمال جريمة ينبغي أن يبتعد عنها أفراد المجتمع الإسلامي مهما يكون أمرهم ومردهم، لأن هذا العمل يوهن أساس المجتمع الإسلامي... وبناء على ذلك لم يقبل الرسول ﷺ في مقدمة فتح مكة صنيع حاطب بن أبي بلتعة حينما راسل أهل مكة بمقدم النبي ﷺ مع إيمانه وعزمه

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام (بتصرف يسير)، ج ٢، ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٨٧-١٨٨.

(٣) انظر: الشامي، صالح أحمد، من معين السيرة (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٤، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ص ٢٣٨.

الخير لمنع سفك الدماء؛ بل وبخه، وقد نزلت الآيات مرة أخرى تحرم الولاء بين المسلمين وغيرهم، وأن على المسلمين أن يضحي بأموالهم وأنفسهم وشهواتهم وأهواءهم في سبيل الله وأن يضحوا مصالحهم إن اقتضى ذلك.

٣- معايير النصر ليست بالعدد والعدة وحده: الدعوة الإسلامية هي دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبطبيعتها تقتضي الجدل والكفاح والعداء، ومن ثم يجب على الدعاة أن يتأهبوا لدفع الشرور التي تواجههم، أو يهاجم على أعدائهم حتى يزيحوا العراقيل الملقاة في أمر الدعوة، وفوق كل ذلك يجب أن يكون حاملهم على يقين وإيمان بنصر الله عاجلاً أو آجلاً، وأن يؤمنوا بأن الحق سينتصر وسيزهق الباطل رغم سواده وغثائه؛ ولكن هذه الغاية والمني التي يحملونها بعد الإيمان بحاجة إلى تأهب واستعداد واختيار وسائل مادية ومعنوية نظراً لسنة الله العادلة بين عباده، وهذه الوسائل وإن كانت مشتركة بين العباد مؤمنه وكافره إلا أن المؤمنين متميزون بأسباب معنوية تخصهم دون غيرهم نظراً لامتلاك العقيدة والإيمان الراسخ بالله عزوجل .

والفترة المدنية من حياته ﷺ هي الميدان العملي للفوز والنصر والتي تحقق للمسلمين بعد أعوام وجهود متواصلة من الجهاد والصبر المتواصل، وبالتالي سيجدون الدعاة فيها مفاتيح النصر لهذه المسيرة المباركة.

لقد واجه المسلمون في الفترة المدنية لأول مرة بمعارك دامية وعنيفة، ولم يكن على التأهب الكامل ولا بحسبانهم أنهم سيواجهون الأعداء بهذه الأعداد الهائلة، كما لم يكن عندهم من العدة الكافية لمواجهة أولئك، وقد تزلت أقدام بعض المؤمنين بادي الأمر إلا أن الرسول ﷺ كداعي مربى علمهم بالسيرة القولية والفعلية ما يمكنهم أن يواجهوا تلك الجحافل ومن ثم يكون النصر حليفهم وحظهم.

فهذا في غزوة بدر أول معركة إسلامية لما رتب النبي ﷺ الصفوف، دخل إلى عريشه الخاص به ومعه أبوبكر الصديق، وبدأ يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول في تضرع وتهلف: (اللَّهُمَّ إِنْ تَهَلَّكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدُ، وَأَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ: بَعْضَ مُنَاشِدَتِكَ رَبِّكَ، فَإِنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ. وَقَدْ خَفَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَفَقَةً وَهُوَ فِي الْعَرِيشِ، ثُمَّ انْتَبَهَ فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ. هَذَا جَبْرِيلُ آخِذٌ بِعَنَانٍ فَرَسٍ يَقُودُهُ، عَلَى ثَنَائِيهِ النَّفْعُ)^(١).

وقد ثبت أن هذا الدعاء والتضرع كان بعد ما اطمأن النبي ﷺ أصحابه بالنصر، فبالأمس كان يرى أصحابه مصارع القوم وفي ذلك كما يقول عمر: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ يُرِيْنَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ، بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)^(٢).

وفي هذا اليوم وقف طويلاً يناشد الله عزوجل أن يؤتية النصر وقد كان يعلم إيمانا أن الله سيحقق وعده، وقد ذكر البوطي: أن في هذا الفعل دلالة عظيمة وهي أن النصر والظفر مهما توافرت له الأسباب والوسائل فهو من عند الله وحده؛ وعلى هذا فالله تعالى يطلب منا أن نكون عباداً بالإختيار والطبع، ولا يتقرب العبد إلى الله عزوجل إلا بصفة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام ج ٢، ص ١٢٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، رقم الحديث: ٢٨٧٣.

العبودية؛ وما استأهل العبد بواسطة استجابة دعاءه من ربه تعالى كما استأهل بطريق ذل العبودية يقف بين يديه يتضرع ويدعو له.

وهكذا المصائب والمحن المهددة للبشرية في حياتهم ما هي إلا أسباب وعوامل منبهة لعبوديته تعالى حيث يصرف أفكار وآمال الإنسان إلى عظمته وباهر قدرته، ومنها يجب أن يفر إليه سبحانه، ويبسط أمامه ضعفه وهوانه وعبوديته ويستجير كذلك من الفتن والبلايا، ومتى استيقظ الإنسان في حياته لهذه الحقيقة إلا وقد وصل إلى الحد الذي أمر الله عباده جميعاً أن يقفوا عنده وينتهوا إليه، وقد أدرك النبي ﷺ قيمة هذه العبودية فاتخذها وسيلة، وظل يدعو بدعاء الطويل وشده تضرعه ومناشدته، وقد كان هذا هو الثمن الذي استحق به ذلك التأيد الإلهي المنبهر والعظيم، وعنه يقول تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبَذَّلُ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفٍ﴾ (الأنفال: ٩). وهكذا نفس المشهد يتكرر في مواقع أخرى، ففي غزوة الخندق حينما واجه المسلمون أحزاب الكفر بأعداد هائلة، جاء الكفار من كل الأطراف حتى زاع الأبصار برؤيتهم وبلغ الخوف عند البعض حناجرهم، التجأ النبي ﷺ إلى نفس الوسيلة وهي التضرع والإكثار من الإقبال على الدعاء والاستغاثة منه تعالى، وهكذا كان دأبه في كل لقاء عدو أوجهاد، وقد كان بالجملة هي الوسيلة التي تعلق تأثيرها على كل الوسائل والأسباب المادية الأخرى، وهي بذلك وسيلة فريدة لا تصلح حال المؤمنين إلا إذا قامت على أسبابها بعناية كاملة^(١).

ومن اللازم التنويه أن هذا المعنى الذي يكرر في غزوات الرسول ﷺ لا يعني إغراء المسلمين بالمغامرة والجهاد؛ فيكونوا دون استعداد ولا تأهب بل هو لإيضاح أن هذه الوسيلة تأتي في مقدمة أسباب النصر والمختلفة، وبهذا لاتجدي وسائل القوة إلا إذا توفرت هذه الوسيلة بعينها، وهو كما قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه القائد الثالث في سرية مؤتة: إن المسلمين لا يقاتلون بعدد ولا قوة ولا كثرة، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله بهم؛ وهكذا قد انزل في غزوة حنين بعض المسلمين بادي الأمر حينما اغتروا بكثرة عددهم في مقابل المشركين، وما كانت نتيجتها أن إنهزم المسلمون في أول المعركة وحينما صححوا عزمهم سرعان ما انتصروا. ولقد تتبع اللواء الركن محمود شيت خطاب^(٢) في كتابه القيم "الرسول القائد" غزوات الرسول ﷺ، وعبقريته قيادته ومدى نتائج تلك الغزوات فوجد أن في كلها كان النصر حليفاً رغم قلة عددهم وضعف اعتدادهم، إلا أن النصر تعود لأربعة أسباب هي:

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٧٧ و ٢٣٨.

(٢) محمود شيت خطاب (١٩١٩ - ١٩٩٨ م): كاتب ومفكر إسلامي وعسكري عراقي سابق، نشأ نشأة إسلامية ملتزمة، هو رجل عسكري، درس العسكرية في العراق وبريطانيا، وشارك في حرب عام ١٩٤٨ م، وتقلد مناصب وزارية عدة، وشارك في عضوية لجان عربية وإسلامية عديدة، وله العديد من المؤلفات العسكرية واللغوية والفكرية.

١- عبقرية القيادة: فالنبي ﷺ جمع فيه أروع صفات القيادة المثالية؛ وهي منوطة بالصفات الآتية: إعطاء القرار السريع، الشجاعة الشخصية، تحمل المسؤولية بلا تردد، معرفة مبادئ الحرب، النفسية التي لا تتبدل في حالتي النصر والهزيمة.

ومعرفة نفسية لمؤسسيه وقابليتهم، المحبة المتبادلة بينه وبين وقواته، وشخصية قوية نافذة

٢- جنود ممتازون: فالرسول ﷺ ربي أمة عظيمة وتتخلص مزايا جنوده في امتلاك العقيدة الراسخة، المعنوية العالية، التدريب الجيد، والتنظيم الصحيح عن التسليح الممتاز.

٣- خوض الحرب العادلة: فكل الحروب التي خاضوها المسلمون كانت ضد شعب ارتكب الظلم نحو شعب آخر، وكذلك مطابقة القواعد الإنسانية والغرض منها تحقيق سلم دائم، ووجوب احترام حياة وأملاك الأبرياء وحسن معاملة الأسارى والرهائن.

٤- ضعف الأعداء: وكان أعداء المؤمنين في جملتها ضعفاء بالرغم من كثرتهم وقوة اعتداءهم؛ وذلك لأن العدو الضخم لا قيمة له إذا لم يتحصن الجنود بالمعنويات العالية^(١).

وبالجملة فالرسول ﷺ وضع لأئمة الداعية قواعد امتلاك النصر ووسائلها، وقد وضح لهم أن ذلك منوط مع التأهب الكامل بامتلاك المعنويات والإيمان العميق والتضرع إلى الله عز وجل، فضلا عن الاعتداد العسكري المادي، كما بين لهم أن المسلمين دوما ما ينتصرون بإخلاصهم واعتقادهم بالله والتضرع إليه، وأن العدد والعدة ليست وحدهما معيار النصر والذي يفوق فيها القوة الطاغية أكثر الأحيان.

المطلب الثالث: معالم هذه المرحلة

إن كل الفترات الدعوية كما تعرف بمنطلقاتها وضوابطها، تفهم كذلك بالمعالم والمظاهر؛ وذلك لأنها تعد علامات واضحة لمعرفة معالمها، والفترة المدنية من سيرة النبي ﷺ مرحلة ثرية عرفت بغزارة موضوعاتها ونضج أصولها والتي كملت فيه الدين وأينعت تلك الجحود التي بدأها صاحب الرسالة ﷺ. ولقد تنبه الدكتور بوطي رحمه الله من خلال اطلاعه على السيرة الطيبة ﷺ وأخرج من خلالها بعض هذه المعالم نظهرها كالآتي:

١- الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها: لقد بعث خاتم النبيين ﷺ بمهام عالية تهدي الإنسانية في دنياهم وأخراهم، ولم يكن هدفه مقصورا لإصلاح الآخرة فحسب، بل جعل من إصلاح الدنيا سلما وطريقا للآخرة، وكما أن فطرة الإنسان ذو نزعتين، جزء يتعلق بروحه والأخر بجسمه؛ فهكذا الدين يحمل في طياته هداية لإصلاح كل النزعات الروحية والجسمية، وعلى هذا فقد كانت مهمة النبي ﷺ إلى جانب تعليم الكتاب والوحي تفهيم وترسيخ معنى الحكمة وإرشاد الناس إلى الطريق الأمثل كي يفيدهم في دنياهم.

(١) انظر: خطاب، محمود شيت، الرسول القائد (بغداد: مكتبة الحياة ط ٢، ١٩٦٠م)، ص ٢٩٨.

ولقد أحسن العلامة السيد سليمان الندوي في كتابه القيم السيرة النبوية بإيضاح معنى الحكمة، وذلك بعد سرد الآيات الناطقة بهذا اللفظ وكذلك تعبيرات اللغويين والمفسرين حول هذا المصطلح، وقد رجح إلى ما ذهب إليه الإمام راغب الأصفهاني في كتابه "مفردات القرآن" حيث يقول: "الحكمة إصابة الحق بالعلم أو العقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخير"^(١). ويضيف إلى ما سبق كذلك أن الحكمة هي تلك الحقيقة الكاملة التي تنتج عن الفهم والعقل وتدرك بواسطتها التميز والحكم بين الخير والشر والحق والباطل؛ ولكن هذه المهمة لا تكون على أساس التفحص والفكر والدليل ولا على أساس التجربة والاستقراء بل يكون نوعاً من المكاشفة يتيسر لأصحابها كهبة من الله عزوجل. وعلى هذا الفهم والإدراك الذي يتسر لأصحابه الفنون والمهارات تتحصل بطريقتين: طريقة الكسب التقليدي، وتقوى بالممارسة إلى أن يصل صاحبها إلى درجة الكمال ولكن هناك طريقة تيسر إلى القلائل، حيث يدركون صعاب الأمور ودقائقها وذلك دون أي جهد أو تفحص، ولا يمكن أن تحصل ذلك بالممارسة والقراءة وما هي في الحقيقة إلا معرفة ونور إلهي يهبه الله عزوجل إلى من يشاء من عباده، وتكون بذلك بنسب متفاوتة وأمثلة درجة منها يكون للأنبياء عليهم السلام، وبهذا من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً، وما على المسلم إلا أن يأخذها أينما كان؛ إذ هو ضالة المؤمن وهو أحق بها^(٢).

ولقد ربي النبي ﷺ الطليعة الأولى من الصحابة في أمر الدعوة وغيرها على أن يلتمسوا الحكمة، وأن يكون أمورهم مبنية عليها، وبناء على ذلك فكلما حدث أمر عظيم اجتمع بالصحابة وشاورهم في الأمر، ثم يصغي إلى كل رأي ويعجبه الرأي المبني على الحكمة ويقدر صاحبه.

ففي السنة الخامسة من الهجرة لما اجتمع أحزاب الشرك للقضاء على المسلمين، اجتمع النبي ﷺ بالصحابة على ما يفعل المسلمون تجاه هؤلاء، فهناك أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق على المدينة، وقد كانت هذه خطة حربية متبعة عند الفرس في حروبهم، فقد قال سلمان الفارسي: "يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا فأعجبهم ذلك"^(٣).

والعمل بهذه المشورة، ونهج المسلمين بطرق غيرهم في الأمور الدنيوية لدلالة عظيمة دلالة وهي أن الحكمة ضالة المؤمن وغايتها المفقودة وهو أحق بالأخذ بها، ومن هنا يقول الدكتور بوطي رحمه الله: فإن الشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمؤمنين اتباع وتقليد غيرهم دون بصيرة، فإنها على عكس ذلك تحب لهم أن يجمعوا أسس الخير

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي (بيروت: دار القلم، ط ١، ١٤١٢ هـ)، ص ٢٤٩.

(٢) انظر: ندوي، سيد سليمان، سيرة النبي ﷺ (بشاور: مكتبة نفيس، ط ١، ١٤٢٨ هـ)، ج ٤، ص ٢٤٩.

(٣) الشامي، محمد بن يوسف الصالح، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض (بيروت: دار دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م)، ج ٤، ص ٣٦٤.

والمبادئ المفيدة، وكلما وجد ذلك فهو مبتغى الإسلام وشرعه؛ وسبب ذلك أن الإسلام لا يمكن أن يتجاهل أي مبدأ أو نظام يقبل به العقل النير والفكر، ولا يخالف روح الشريعة الإسلامية^(١).

٢- المسلمون كلهم مشتركون في مسؤولية الدعوة: لقد باشر الرسول ﷺ بأمر الدعوة إلى الله بنفسه خلال فترة الرسالة؛ وبهذا بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده؛ وقد كمل برسالته الدين الذي أرسل لأجله، رسولا خاتما ومبعوثا إلى الناس كافة، وقد كان ﷺ يعلم مع كل هذه الميزات أنه رجل مقبوض إلا أنه ربي أمة تحمل إرثها مدى الزمان، مشكاته مضيئة وينبوع نبوته فياضاً؛ ولم يكن الأمر ميسوراً إلا أن يقوم بالدعوة أجيالا في كل زمن يحمل رسالة الإسلام إلى العالمين يأملون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وقد ربي النبي ﷺ بادي الأمر صحابته البررة على أمر الدعوة حتى يقوموا بواجبه حق القيام، مبينا لهم أصولها وأدائها ووسائلها؛ وقد قام الرعيل الأول من الأمة (الصحابة) بواجبهم بأحسن طريقه كما علمهم رسولهم ﷺ، وأثنى في حياته على منهجهم وطريقتهم؛ وهكذا كان من دأبه ﷺ في تعليماته وأوامره ونواهيته أن يقوم بهذه الكلمة كل من وصل إليه هذه الرسالة، وقد أردف بعض وصايه بقوله: "فليبلغ الشاهد الغائب"، وفي هذا دلالة عظيمة وهو دوام الأمر وتعد دينا على عاتق كل من وصلت إليه هذه الرسالة بإيصالها للآخرين.

وفي السنة التاسعة من الهجرة بعد ما أتم الله على المسلمين النصر والفتح وأصبحت دولتهم عظيمة ذو سلطان تهابه الناس، سارع النبي ﷺ إلى أمر الدعوة، وقد كثرت كذلك الطلبات والوفود حيث يدخلون في دين الله أفواجا، و بدأ يرسل الرسول ﷺ أصحابه دعاة ومعلمين لتبليغ دعوة الله، ممارسين لهذه المهمة العظيمة كي يشرحوا للناس حقائق الإسلام ويستقر في قلوبهم بعد ما انتشرت في ربوعهم.

وكان من ضمن المبعوثين خالد بن وليد رضي الله عنه إلى نجران، وعلى ابن أبي طالب، ومعاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهم إلى اليمن، وكذلك إلى جنوب الجزيرة العربية وذلك لكثافة سكانها وتجمع القبائل فيها ومكانتها الجغرافية.

وفي هذا البعوث والإرسال درس عظيم للأمة؛ وهي أن المسلم يجب أن يكون داعيا حيثما حل، وأنى انتقل في الأرض، ويحيل على أهل الذكر والعلم إن كان لا يستطيع أن يخوض في مسائل علمية، وهكذا فالدعوة بهذا المعنى مهمة فردية إلا مع ذلك مهمة جماعية تسأل عنه الأمة جمعاء، وكما يجب على الدولة الإسلامية أن يهيئ دعاة يبلغوا للناس دين الله ويكونوا لذلك رجال أكفاء في العلم والخلق، مهرة بقواعد الدعوة الإسلامية وأصولها وفقهها. وسنة رسول الله ﷺ في هذا المجال كما يقول الدكتور البوطي: دليل على مدى إرجاع مسؤولية الإسلام لأعناق المسلمين في كل عصر وزمان، فليس الإسلام كلمة على الألسنة فحسب أو أعمال يسيرة أو عادات أو تقاليد في حياتهم؛ بل هي مسؤولية عظيمة يجب على معتقيه أن يحمله إلى الآخرين بأسلوب يسر وتبشير، وأن يسافر في

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٣٤.

سبيل ذلك إلى شتى الجهات والبلدان، وعلى هذا فقد أجمع علماء المسلمين بأن القيام بحق الدعوة في داخل البلدة التي يقيم بها المسلمون وخارجها فرض كفاية، ولا يتحللون من مسؤوليته إلا بقيام طائفة منهم ينتشرون في البلدان، ويقومون بواجب الدعوة إلى الله، تعرض للناس حجج الإيمان وبراهين الإسلام كما تزيل عن عقول الناس الشبهات والوسوس التي تعرض عليهم^(١).

وقد فصل الفقيه الماوردي^(٢) في مؤلفه المشهور الأحكام السلطانية في حكم هذه المهمة: فذهب أنها مهمة عظيمة في الدولة الإسلامية، ويجب على الدولة أفراداً ومسؤولين إجراءها، وقد أسمى المهمة بالحسبة حيث يقول في تعريفه: "الحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، وأما في حكمه فيراه أنه فرض متعين على المحتسب بحكم الولاية المعينة وفرض على غيره بالكفاية"^(٣).

وبالجملة فالدعوة الإسلامية فريضة مشتركة بين المسلمين يجب القيام بها، دولة وأفراداً، ومادامت لم تقم بهذه المهمة طائفة من المسلمين فإن الذنب يعود على المسلمين جمعاء، كما أن أهمية هذه المهمة عائدة إلى المسلمين بناء على طبيعة الرسالة الخاتمة، فكل من وصل إليه هذه الدعوة تكون ديناً على عاتقه بأن يوصلها إلى الآخرين؛ وذلك لأن معنى الإسلام لن يتحقق إلا بتمسك معتنقيه فحسب مادام لم يعودوا عليه غيره.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٤٢.

(٢) الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ): من وجوه فقهاء الشافعية وإمام في الفقه والأصول والتفسير، كان من رجال السياسة البارزين في الدولة العباسية وخصوصاً في مرحلتها المتأخرة حيث اشتغل أقضى قضاة عصره. ومن أشهر كتبه في مجال السياسة قوانين الوزارة وسياسة الملك؛ نصيحة الملوك؛ الأحكام السلطانية. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ٣٢٧.

(٣) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية (القاهرة: دار الحديث، ب ت ط)، ص ٢٤٠.

الباب الثاني

فقه الداعي والمدعو في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي

تشتمل هذا الباب على أربعة فصول

- ١- الفصل الأول: فقه الداعي في العصر المكي
- ٢- الفصل الثاني: فقه الداعي في العصر المدني
- ٣- الفصل الثالث: فقه المدعو في العصر المكي
- ٤- فقه المدعو في العصر المدني

الباب الثاني

فقه الداعي والمدعو في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي

الداعي والمدعو هما الركنان الأساسيين للدعوة؛ فكما أن موضوع الدعوة هو الأساس الذي يحمله الداعي إلى المدعويين فهكذا هما الركنان الذان يقوم بهما الدعوة ولن يقوم أمرها إلا بهما. وبناء على ذلك الإهتمام بهما وبمواصفاتهما ومهامهما يسهل الطريق، فكما أن نجاح الدعوة تتعلق بموضوعها ومضمونها، فهكذا تناط الأمر بشخصية الداعي ومعرفة المدعويين، وبالمقابل فشلها في أكثر الأحيان رغم قوة مضمونها ونصاعة أهدافها نتيجة إهمال أولئك بفقه الداعي والمدعويين. وسوف نتعرض لفقه هذين الركنين من خلال السيرة النبوية في الفترتين المكية والمدنية في ضوء أفكار الأعلام الثلاثة في فصول تالية:

الفصل الأول

فقه الدعي في العصر المكي

قبل الخوض والبحث عن فقه الداعي في العصر المكي من السيرة النبوية يحسن بنا أن نتطرق إلى التعريف بمصطلح الداعي وذلك لأنه هو حامل الدعوة ومبلغها، ووارث الرسول ﷺ، والذي كان إمام الدعاة ورأئدهم، وأسوة لهم على الزمن كله.

فالداعية كلمة مفردة تجمع بالدعاة، وهم الذين يقومون بأمر الدعوة، وتأتي الهاء في آخر كلمة الداعي للمبالغة، فيقال عمن عرف واشتهر بالدعوة بالداعية^(١).

ويقول ابن منظور في لسان العرب حول كلمة الدعاة: "قَوْمٌ يَدْعُونَ إِلَى بَيْعَةٍ هُدًى أَوْ ضَلَالَةً، وَرَجُلٌ دَاعِيَةٌ إِذَا كَانَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى بَدْعَةٍ أَوْ دِينٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ دَاعِي لِّلَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦)"^(٢).

وبناء على اطلاق اللغة فإن الدعوة لفظة شاملة لكل من الحق والضلالة، وتحدد معناها باقتران اللفظ بها، فإن اقترن

بها الإسلام كانت دعوة إسلامية، أو غير ذلك كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ

بِإِذْنِهِ وَيَبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٢١).

(١) المعجم الوسيط، ج ١، ص ٢٨٧.

(٢) ابن منظور الإفریقی، لسان العرب، ج ١٤، ص ٢٥٩.

وأما الداعي اصطلاحاً بناء على الدعوة المتعارفة المشهورة للإسلام فهو: "المبلغ للإسلام والمعلم له، والساعي إلى تطبيقه"^(١).

والناظر في هذا التعريف ليرى المهام الأساسية للداعية كونه تبليغاً، تعليمياً وكذلك سعيها إلى تطبيقه، ولكن القيام بوحدة منها لا يمنع الدعوة، ومن قام بالأعمال الدعوية كلها فهو الداعية الكامل.

وأما فقه الداعي فهو الفهم والعلم الشامل حول المهام الأساسية للداعية والمعرفة بصفاتهما وسماتهما التي يجب أن يتحلى بها.

وقد ألزم الله على الأمة الإسلامية أن تكون من بينها طائفة تقوم بأمر الدعوة إلى الله، ولا بد أن يكون مهيتين لهذه المهمة، وهذه التهيئة ليست أمراً هيناً، كما أنها ليست سريعة الإيجاد؛ بل تحتاج إلى الامكانيات المكثفة والمتنوعة، وذلك أن صناعة الإنسان هو أصعب الصناعات في الوجود^(٢).

المبحث الأول: فقه الداعي في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى مودودي

لقد كانت مكة هي المعقل الأول للدعوة الإسلامية، وبدأ منها فجر الإسلام يبرز ويشع نورها رويداً رويداً، وكان هذا في الزمن الذي كان ظلام الشرك والجاهلية الغامسة مسدداً على العالم، وأهلها كالمرضى يحسبون مذاق الحلاوة مرارة والنور ظلاماً، وهكذا فكان دعوة النبي ﷺ غريباً عليهم، حيث عد أهلها دعوته نوعاً من الأعجوبة؛ فمثلاً عقيدة الإله الواحد التي تنبع من الفطرة الصافية كانت غريبة عليهم. وقد حكى القرآن الكريم عنهم قولهم: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (ص: ٥). وبالتالي فقد كانت دعوة ﷺ متجهة إلى الفئة الناشئة، وظل يدعوهم إلى الخير والصالح بطريقة ترفعهم عن الانحطاط، وقد اختار لهذه الفترة أسلوباً ووسائلاً فريدة يدعوهم بالكلمة والفعل والخلق؛ ويحسن بنا أن نستعرض بادي الأمر المهام الأساسية التي أخذ على عاتقه في دعوته كداعٍ إلى الله في هذه الفترة.

المطلب الأول : مقام الداعي ومهامه

إن أهم الركيزة التي تجب على الدعاة إلى الله أن يتبهاوا إليها في دعوتهم، ومهامهم هي معرفة أنفسهم ورسالتهم الدعوية، وكذلك وعي المسالك التي يسلكونها في طريقهم؛ وذلك لأن الدعاة إذا لم يدركوا ما يقولون ولم يعوا ما يدعون إليه فإنهم سيضلون الطريق وتأتي عملهم بالنتائج العكسية.

والدعاة كما مر بنا ورثة الأنبياء تخلفوا أولئك في مهامهم ورسالتهم، فيجب عليهم أن يكونوا على بصيرة من الأمر، ويكون مهامهم مبنية بعيدة عن الغموض وأن يأخذوا الأمور على نور وهدى الداعي الأول ﷺ، وعن هذا يقول

(١) البنانوني، محمد أبو الفتوح، المدخل إلى علم الدعوة (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، ص ٤٠.

(٢) انظر: محمود، عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله، ج ٢، ص ٨٦٦.

السيد المودودي رحمه الله: "لقد بعث الله محمدا ﷺ في مدينة مشهورة من العرب مكة، وكلفه أن يبلغ قومه قريش بدعوة إلهية، ومن ثم وجهه بأسس في مقدمتها ثلاثة أمور:

١- لقد علمه كنبي أن يدرك مهامه وأن يعي كيف يمارس عمله.

٢- المعلومات المتعلقة حول الحقيقة وإزالة الأوهام التي سيثيرها الناس حول الدعوة.

٣- تعليمه الطريقة المثلى في الدعوة، وبيان أصول الأخلاق التي يجب التحلي بها للفلاح والسعادة"^(١).

وبناء على هذا فهمام الداعي ورسالته في تلك الفترة تنحصر في نطاقين المهام التعليمية والعملية، ونبينها كالاتي:

١- المهام التعليمية للداعي: لقد بين القرآن الكريم المهام والمقاصد التي بعث لأجله الأنبياء والرسل، وخاصة صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ، واحتلت هذه المهام روح الدين ومغزاه، وعلى رأس تلك كلها المهام التعليمية، أو بعبارة أخرى مهام التبليغ ولتي كلف بها النبي ﷺ بأن يبلغه إلى الناس، وقد بينت النصوص الدينية هذه المهام. وقد لخصها الإمام المودودي في مجالات أربعة نذكرها فيمايلي:

١- مهمة تلاوة الآيات، تزكية النفس وتعليم الكتاب والحكمة، وقد بين الله هذه المهام في آية كريمة واحدة كما

يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

فهذه الآية الكريمة اشتملت على مهام رئيسة عظيمة:

الف- تلاوة آيات الله عزوجل، والمقصود به اسماع دستاير الله عزوجل وتوجيهاته للناس.

ب- التزكية والمراد بها تخلي الأخلاق المذمومة في الناس واستبدال سلوك حياتهم بالأخلاق الطاهرة والسلوك الجميل.

ج- وأما تعليم الكتاب والحكمة فالمراد منه "تفهم الناس مقصد الشرع وغايته، وكذلك ايجاد نوع من البصيرة تمكنهم إلى الوصول إلى روح ومقصد الشريعة السامية والسير عليها"^(٢).

وقد يرى غيره من الباحثين بأن الداعية إلى الله يزكي نفوس مدعويهم بوحي من الله عزوجل، ويسمي أرواحهم وعقولهم وأبدانهم إلى المستوى الرفيع الأليق لكرامة الإنسان، والذي كرمه الله عزوجل وفضله على كثير من الخلق تفضيلاً. وهذه التزكية تربية ذات منهج ووسائل تنقل الإنسان من واقعة إلى ما هو أحسن له في أمر دينه ودنياه^(٣).

٢- تبليغ واتمام الدين: لقد كان مهمة النبي ﷺ متميزة عن الأنبياء والرسل السابقين، فقد كانوا أولئك مشتركين معه في المهام السابقة، ولكن هذه المهمة هي الفريدة من نوعها أعطاها الله لهذا العبد، وبذلك أعطى صاحبه الكلمة

(١) المودودي، سيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ١٦٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص ٤١.

(٣) انظر: محمود، عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله، ج ١، ص ٣١٣.

الخاتمة فيزيل بتبليغه الرجس والفساد، وبربي أمة تكون أسوة لما بعدها، وتكون الحكمة والكتاب هو الدستور السائد مدى الأزمان إلى قيام الساعة.

٣- فصل الخلاقات القائمة بين البشرية في حياتهم والتي ورثوها منذ رسالات الأنبياء السابقين، وبالتالي القضاء عليها، وتبين الطريقة الصافية التي لا عوج فيها، ومن ثم هدايتهم إلى النور الرباني التي تمنحهم السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، وعنها يقول تعالى: ﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَئَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنَ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ ﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٤ ﴾ (النحل: ٦٣-٦٤).

٤- التبشير برحمة الله للمؤمنين والتنذير للكفار والعاصين، وذلك حتى يدركوا كل منهما مصيره وما يؤول إليهما بعد هذه الحياة، وهكذا سمى الله نبيه بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله، وعنه يقول تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥ ﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّبِينًا ٤٦ ﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦).^(١)

وبالجملة فإن النبي ﷺ أخذ في مهام دعوته التعليمية الإبلاغ وتعليم أمته بهدي من الدين وتزكية نفوسهم وأرواحهم وأبدانهم بالشريعة السامية الخالدة، كما علمهم الكتاب والسنة والحكمة، و أوجد في نفوسهم بصيرة تنير طريقهم من النور الإلهي.

وقد ميزت دعوته بتلخيص الدين الكامل والخاتم والذي كمل فيه سائر ما يحتاجه الإنسانية من الأمور المادية والمعنوية يستغنيهم عما سواهم، وقد فصل لهم الخلاقات القائمة بين البشرية منذ القدم والتي ورثوها جيلا بعد جيل، وقد أسند هذه التعليمات بذكر حوافز وزجر حتى تقوى نفوس معتنقيه محبة الدعوة وينزجر المتكاسلون والمغفلين عما بدر منهم.

٢- **المهام العملية للداعي:** لقد كانت مهمة الدعوة وموضوعها كما مر بنا هي الدين والالتزام بالذات والآخر والنواهي التي جاء به الرسول ﷺ، وقد كان صاحب الرسالة الداعي الأول نموذجا عمليا وأسوة مطاعة في كل الأمور، ولم يكن نطاق دعوته تناصحا وموعظة يحث الناس إلى الفضائل فحسب، بل أنيطت بالالتزام واتباع الأوامر وتجنب النواهي. وهكذا كان الرسول ﷺ في كل الأحوال الكلمة والسلطة العليا في حياة المسلمين، واتبعه المؤمنون كاتباع الجنود القائد، وظهرت هذه الملامح في كل الفترات الدعوية وخاصة في الوقت العصيب من تاريخ الأمة الإسلامية من المرحلة المكية!

وبناء على هذا فالمهام الدعوية للداعي لم تنحصر في مجال التعليم والبلاغ فحسب بل تعلقت بالجانب العملي كذلك، وقد ذكر الإمام المودودي المهام العملية للداعية في السيرة النبوية كالاتي:

(١) المودودي، سيد أبو الأعلى، سيرة سرور عالم، ج ٢، ص ١٦٥.

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوضيح معالم الحلال والحرام، ومنح الحرية للإنسانية عن عبودية غير الله وإزاحة الأصر والأغلال التي تعوق مسيرة حياتهم العملية؛ وقد جمع الله تعالى هذه المهام في آية واحدة حيث يقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وقد ذهب المودودي أن كل هذه الأصر والأغلال المعنوية جاءت نتيجة بعد البشرية على دين الله عز وجل، وخاصة في مجتمعات بني اسرائيل؛ فقد عمد فقهاؤهم بالزيادات وبحوثهم القانونية، والرهبان بالتدين والرهبة المبتدعة على غير ما أنزله الله عز وجل، وعامة الناس نتيجة أوهامهم حيث وضعوا كل منهم حدودا وأصولا كسر ظهورهم وقيد أيديهم وأرجلهم، فجاء الرسول ﷺ وفك تلك الأغلال ممنحا لهم الحرية والطلاقة^(١). وبناء على هذا فقد كان ﷺ بصفته داعيا ربانيا كان سهلا لنا، محببا للناس، واتسمت دعوته باليسر كارها للتعسف والمشقة ومحرا للبدعات التي أحدثها الناس باسم الدين، فيشقون حياتهم الدينية؛ وما على الدعاة إلا أن يعالجوها ويطهر الدين من غبار البدعات والتقاليد المزيفة ويظهر للناس صفاء الدين ونوره. وما هي تكاسل الناس وغفلتهم عن الطقوس الدينية في العصر الحاضر إلا انخراط العبادات بالبدع وجلب التعاليم المزيفة باسم الدين حتى أصبح عباء ثقيل عليهم.

٢- الحكم بين عباد الله بالحق والعدل: وهذه هي المهمة العملية للدعوة النبوية، فقد كان ﷺ عرف بين أهل مكة بالصدق والأمانة، واكتسب المرجعية وظل يمارس هذا المقام بعد نبوته بصفة أولى؛ وكان يفصل بين العباد الخلافات التي ورثوها جيلا بعد جيل، ويحكم للناس على أساس من الحق والعدل، وعنه يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٥)^(٢).

وفي هذا رسالة واضحة للدعاة وهو أن يكتسبوا بين الناس مرجعية الحكم والفصل، وما عليهم أنذاك إلا أن يحكموا بالعدل والحق؛ وذلك لأنه مقصد الإسلام وغايته، فدعوة الدعاة اتسمت بالإصلاح بين العباد وفصل الخلافات القائمة، وكذلك اظهر قيمة الحق والعدل والإعلاء من شأنهم.

٣- قيام الدين على وجه المعمورة وإخضاع حياة الناس لأنظمة شريعته السامية: وهذه هي المهمة العملية لرسالة النبي ﷺ، وقد تحققت في الفترة المدنية، إلا أن الدعوة إليها بدأت في الفترة المكية، وبالتالي ما كان مقصد الدعوة

(١) انظر: المودودي، سيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ٢، ص ١٣٠.

(٢) المودودي، سيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٤٢.

النبوية إلا أن تكون حاكمة في مجال السياسة، والعدالة والنظام الخلقي ومن ثم باعثا على الحضارة الصالحة الإنسانية تفوح منها رائحة الشريعة الإسلامية^(١).

وعلى هذا يجب اتباع الدين الإسلامي دون ما سواه لأنه هو الدين الناسخ، وذلك لأسباب عديدة:
ألف- إنه الدين الذي بقي معجزة خالدة على مر الزمان وهي القرآن الكريم على حين فنيت معجزات الأنبياء السابقين.

ب- إنه الدين الكامل الذي استكمل للبشرية سائر ما تحتاج إليه في معاشها ومعادها.

ج- إنه الدين الصالح بمبادئه ومنهجه ونظامه لكل زمان ومكان.

د- إنه الدين الخاتم الذي صرح به صاحبه واستبشر به الأنبياء السابقين.

هـ- إنه الدين الذي تكفل الله بحفظ كتابه إلى يوم الدين.

و- إنه الدين الكامل التام وذلك لاشتماله على نظام جامع للحياتين الدينا والآخرة، واتسامه بأنه من صنع الله ومن وحيه^(٢).

وصفة القول: إن النبي ﷺ هو الممارس للمهام العملية إلى جانب ابلاغ الوظائف التعليمية، وذلك لكي يتسنى للناس معنى الدين على الوجه المطلوب، بعيدا عن التعسف والمشقة، وأن يدركوا رحمة الدين ولطفه، ومن ثم أن يكون الدين حيز التنفيذ وتصبح دستوراً كاملاً يستغنيهم عما سواه.

المطلب الثاني: أوصاف وشمائل الداعية المستفادة من تلك المرحلة

لما كانت الدعاة ورثة الأنبياء في مهمتهم فيجب عليهم أن يتحلى حاملوهم ببعض الأوصاف والشمائل بناء على الطبيعة الدعوية، وذلك لأن سلوكهم المرآة العملية لما يدعون إليها، وكذلك اختيار مكارم الأخلاق وسيلة ناجحة لتحقيق منالهم.

وقد احتاجت كل فترة وظروف التحلي بالأوصاف والشمائل المميزة، وذلك لأن تكون لدعوتهم وقعة على القلوب تظهر صدق ما يدعوا إليه؛ وقد كان ﷺ نموذجا كاملاً للخلق والشمائل، وقد تجلت على شخصيته الكريمة وفاضت في حياته؛ والفترة المكينة رغم صعوباتها ووعرتها كانت تجلياً لأكثر هذه الصفات والتي لا بد منها للداعي، ونذكر أهمها فيما يلي؛

أ- **الزهد عما في أيدي الناس والبعد عن المظالم:** الدعوة الإسلامية دعوة حق تتميز عن الأغراض الدنيوية، ويشيب الله صاحبها المثوبة والأجر، وعلى هذا فيجب على حاملها أن يكون زاهدا عما في أيدي الناس، بعيدا عن الأطماع، ولا يزل بالإغراءات المادية والمعنوية؛ وذلك لأن ما أعده الله له خير بكثير عما سواه، وبالعكس الوقوع في الأطماع يفشل صاحبها وتثير الشبهات حول دعوته.

(١) انظر: المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص ٤٣.

(٢) انظر: محمود، عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله، ج ٢، ص ٧٨٣.

وقد ثبتت بالأدلة القرآنية أن دعوة الحق لا بد أن تكون خالصة عن الأغراض الشخصية و أن يتوخى صاحبها فيها صلاح الناس فحسب، وعن هذا يقول الله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠)، ويقول أيضا: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف: ١٠٤).

يقول المودودي: فإن الآية الأخيرة وإن كانت في الظاهرة متجهة نحو الرسول ﷺ، ولكن أصل المخاطبين فيها مجموعة الكفار الذين يعاندون دعوة الرسول ﷺ، وفيها نوع من التوبيخ نحوهم وهي: يا عباد الله! ما لكم وهذا العناد؟ إن الرسول الذي بدأ مسيرة الدعوة والتبليغ لو كان طالبا شيئا أو مصلحة لنفسه لصح ادعاؤكم وعنادكم، ولكنكم ترون بأم أعينكم أنه لا يطلب شيئا لنفسه، بل يطلب نصح وخير العالمين جمعاء، وبالتالي فاصغوا إليه بقلوب واعية^(١).

وجملة هذه الآيات وغيرها توحى بأن الدعوة الإسلامية دعوة خالصة عن الأغراض والمصالح الشخصية، وعلى الداعية أن يكون مثل قائده وأسوته بعيدا عن الأطماع، بل يطلب أجره ومصلحته من رب العالمين وصاحبه سبحانه وتعالى، لأن ما عنده خير وأبقى وبعيد عن الإثارات والشكوك، وهكذا سرعان ما يجد حامله ثماره وتأثيره على المدعوين.

وفي السيرة النبوية ﷺ نماذج عملية حية توحى هذا المعنى، فقد روى ابن هشام في سيرته أنه بعد اسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ذهب عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول ﷺ، وكان سيدا لقومه يتكلم نيابة عنهم، وقد جاء إليه يعرض عليه أمورا ومصالح لعله يقبل بعضها ويعطيه أيها شاء حتى يكف عن القوم وعقيدتهم، وكان منه هذا الحوار:

يا ابن أخي! إنك فينا حيث تعلم من السلطة والمكانة العالية في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم حيث سفهت به أحلامهم، وفرقت به جماعتهم، وعبت من آبائهم من مضى، فاسمع مني أعرض عليك أمورا؛ لعلك تقبل منها بعضا... يا ابن أخي! إن كنت تريد من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا ثراء، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كنت تريد منه شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كان هذا الذي تواجهه رثيا (مايتراءي للإنسان من الجن) لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب؛ فلما فرغ من كلامه قال له رسول الله ﷺ: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، وبدأ يتلوا عليه آيات من سورة فصلت؛ حتى وصلت إلى السجدة، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فرجع أبو الوليد إلى قومه، وكان متأثرا من الآيات وأقوال النبي ﷺ حتى قال لقومه: "فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به"^(٢).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ٢، ص ٦٢٠

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام (بتصرف يسير)، ج ١، ص ٤٩-٥٠ و ص ٢٩٤.

وذهب أهل السير أن هذه المطالب والتفاوض مع رسول الله ﷺ: لم يكن في جلسة واحدة، فقد وفد إليه أشخاصا مرارا وفي مواقع مختلفة، حيث رد رسوالله عليهم واضحا جليلا منها: أنا لا أملك فيما أَدعوا إليه اختيارا حتى أقول لكم، وما جئت في دعوتي مما تطلبونه مني، فلا أطلب منكم مالا ولا شرفا ولا ملكا، بل بعثني الله إليكم رسولا وأعطاني كتابه، وأمرني أن أكون بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكفار، وقد جئت لكم ما أمرني به ربي حتى أنصح لكم، فلو قبلتم لكان خيرا لكم في دنياكم وأخراكم، وإلا لصبرت حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وتوحي هذه التفاوضات أنها كانت غالبا من قبل المشركين والمعاندين ولكن ليست على درجة أولئك الحاقدين وألد الأعداء بل كانت أغلبهم زعماء محنكين مضميرين للكفر ومتظاهرين للخير والصلاح، وفي حقيقة الأمر هم عون مع أولئك، واستحق أولئك بالوصف القرآني حيث قال عنهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ (هود: ٥) (١).

وجملة هذه الاحداث كما يقول الدكتور سباعي رحمه الله دالة على صدق دعوى رسالته ﷺ وحرصه ومحبه على هداية الناس وترشيدهم، وأما الدرس المستفاد منه فهو أن الداعي ينبغي أن يكون مصمما في دعوته رغم تالب الداحضين المبطلين عليه وأن يكون معرضا عن إغراء المبطلين بالمال والمنصب؛ فالمتاعب في سبيل الحق لدى المؤمنين راحة لضمايرهم وقلوبهم، ورضا الله أعلى وأعز عندهم من كل مناصب الدنيا وأموالها وجاهها (٢).

والفقه المستفاد منها كذلك أن على الداعية أن يحذر من العروض المغرية في سبيل الدعوة والتي تعترئها بأسلوب لين من المال والجاه والمنصب؛ وخطرها أكثر بكثير من العداء المباشر، فكثير من الدعاة سقطوا في مرصاد أولئك. فأحيانا يلينون مع الطواغيت حتى لا تخسر لقمة الخبز أو مصدر الربح، وربما تقبل عرض الجاه بدليل أنه من خلال المنصب والوظيفة والرياسة سوف يحكم بالإسلام أو يدفع الغائلة عن إخوانه؛ وإذا بالداعية بعد شغله المنصب يصير عبدا لوظيفته ويقر بكل ما فيها من فساد وزور وانحراف، وأما النساء فخطرها إن لم تستقم على منهج الله فهي أشد من خطر السيف المصلت على الرقاب، والداعية الرباني هو الذي يتأسي بإمام الدعاة ﷺ في حركته وأقواله وأفعاله ولا ينسى الهدف الذي عاش له ويموت من أجله (٣).

ويستنتج مما سبق أن على الداعية أن يتحلى بصفة الزهد عما في أيدي الناس ويبعد عن المطامع المادية والمعنوية ويحذره أن لا يقع في مصائد الأعداء والاغراءات بالمال والمنصب والجاه والشهرة وغيرها، ويواجه ذلك بقلب وعزيمة راسخة، فالنصر عليها مفتاح الفرج.

(١) مودودي، سيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٥١٥.

(٢) انظر: السباعي، مصطفى بن حسني، السيرة النبوية - دروس وعبر، ص ٥٠.

(٣) انظر: غضبان، منير محمد، فقه السيرة النبوية (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط ٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م)، ص ١٦٧ - ١٦٨.

وهكذا عليه أن يعلم أن الأعداء يرصدونهم بالمرصاد، ومتى تفشل المواجهة المباشرة فيلجأون إلى أسلوب اللين والإغراءات، ولا شك أن خطرهما أكثر بكثير من المواجهات المستقيمة وخسارتها ليست على حساب الداعية فحسب بل تعود إلى الدعوة كذلك.

٢- عدم اليأس والثقة بنصر الله: الدعوة إلى الله مع شرفها وفضيلتها مهمة صعبة، ومسيرتها مليئة بالأخطار يعرض صاحبها خطر الحياة والأهل والمال؛ وقد يكون هذا إما نوعاً من ابتلاء الله عزوجل أو مواجهات من قبل الأعداء الذين يعوقون هذه المسيرة المباركة... ومن هذا المنطلق نجد متساقلين على الطريق عجزوا عن المواصلة وأناساً أبطأوا المسيرة، ومنهم من اجتازوها شامخي الرأس حتى وصلوا إلى غايتهم.

وهكذا فعلى الداعية أن يقتحم تلك المخاطر بصدور رحبة وأن يتحلى بصفة الرجاء وأن لا يأخذ اليأس في تأجيل النصر ويكون على ثقة بنصر الله عاجلاً وآجلاً، وأن يعي أن هذه تجارة رابحة لا خسارة فيها، وأن النصر حليف المتفائلين والواثقين، وأن الإيمان والوثوق سلم النجاح والنصرة.

والناظر في المرحلة المكية من السيرة النبوية ليجد أنه ﷺ كان يطمأن أصحابه بنصر الله ويزرع في قلوبهم نوعاً من الأمل والثقة بنصر الله، وكما يعلمهم أن يلحوا في تضرعهم ويدعوا الله بالنصر والتمكين.

وقد روى أصحاب السنن عن خباب بن الارت رضي الله عنه قال: (شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيَمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ^(١)).

والناظر في الحديث النبوي السابق ليجد مدى طموح النبي ﷺ بدعوته ومهمته في زرع الأمل والثقة في قلوب أصحابه، وبالتالي يجب على الدعاة أن يكونوا متفائلين بعملهم، مبعدين عن التشاؤم وأن لا يهزموا نفسياً بالمخاطر؛ فإن ذلك تنبيه عن اقتراب النصر، وعن هذا يقول السيد مودودي رحمه الله: إن مشركي مكة رغم زعمهم بتعذيب المسلمين وسدهم للدعوة خابوا فيما حسبوه، وقد جاءت المحصلة خلافاً على ما عدوه.

١- إنما جاء الإسلام به من تعليمات وخلق وسلوك لم يتمكن أولئك مواجهتها بالمنطق السليم، وبالتالي لجأوا إلى شر فعلة تقبح أصحابها.

٢- لقد رأى أصحاب الفطرة السليمة وأصحاب العقول الواعية صحة ما يعتقدونه أولئك المؤمنون وقبح الماردين في أقوالهم وأفعالهم؛ وبالتالي أبغضهم ونفروا عنهم.

٣- لقد تربى المحن نفوس المضطهدين المعذبين وخرج منهم جيلاً فريداً تشهد التاريخ على خيرتهم.

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: ٣٦١٢.

٤- لقد أُنِيعَ صبر أولئك المضطهدين وخرج من المجتمعات أناس يتسابقون على الإسلام متلهفين بنصره^(١). وقد كان من إحدى وسائل تحمل الأذى عند المسلمين الأوائل الدعاء والتلقين بالنصر رغم شدة الأهوال، فقد علمهم نبيهم ﷺ أن يلجأوا إليها حيث أمره الله بذلك أن يعلم أُمته هذه الدعاء القرآني المشهور: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

فقد ذهب المودودي رحمه الله إلى أن هذه الآية الكريمة نزلت أوان وقعة المعراج قبيل الهجرة بأعوام حيث كان المسلمون في أشد أيام محنتهم، مكة وما حولها شبيهة بالجمر لهم ولدعوتهم، ونزول هذه الآيات من قبل مالك الملك في تلك الفترة تعليم وجنة لما يلاقونه. وبالتالي كان تنبأ للنصرة والتسلي لقلوبهم.

ويرى المطلاع لتلك الأحوال عذوبة هذا التعليم السامي حيث أمر المسلمين بأن يضبطوا عواطفهم ويسيروا طبق دستور هذا الدعاء، ويرى الناظر كذلك شدة وطأة الظلمة من جهة حيث يعذبون المؤمنين بجرم اتباعهم الحق والخير، ولكن في طرف آخر لا يوقظهم لأدنى مواجهة خلافهم، لقد ظلم المسلمون في حياتهم وأموالهم، وفي مقابلها الدعاء مستندة على التضرع، ولا توجد في طياتها أدنى مصالح الدنيا وحطامها... وهكذا كانت التربية الربانية العالية في تلك الفترة ومن ثم ثمارها اليانية^(٢).

والدرس المستفاد من هذه كله أن على الداعية إلى الله يجب أن يملأ نفسه بالتفاءل والأمل في الله، وفي تأييده ونصره وهكذا اظهار دينهواعلاء الحق، وأن الله سوف ينصر المؤمنين ويعزهم بالإسلام، ويعز الدين بهم، وقد نطق أكثر النصوص بذلك، وهي على ذلك تبعث الأمل في نفس الداعية إلى الله وفي مستقبل عمله الإسلامي ليقبل على مهمته وعنده هذا الأمل العظيم^(٣).

٣- الحرص على هداية الناس إلى الإسلام: من أهم الصفات التي يجب على الداعية أن يتحلى به في دعوته الحرص على هداية الناس جميعا، وإنقاذهم من الضلال وإسعادهم بالدين الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة؛ وهذا الحرص منوط بسمة الدعوة العالمية واتجاهها لجميع الخلق بغض النظر عن القرابة والقومية والإقليم وما إلى ذلك. وهكذا فقد كان الداعية الأول للأمة الإسلامية الرسول ﷺ كان شديد الحرص على إسلام الناس، وكان أعظم مناه أن يرى الناس مؤمنين، تابعين لله عزوجل مبعدين عن النار، وغاية ما يتباهى به يوم القيامة كثرة أُمته بالنسبة على سائر الأنبياء والمرسلين عليه اسلام.

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ٥٥١.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ١، ص ٢٩٧.

(٣) انظر: محمود، عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله، ج ٢، ص ٨٦٨.

والقاريء للسيرة النبوية ليجد بغزارة هذه الصفة السامية في دعوته، فقد أثر ﷺ هذه المهمة على سائر المهام وأوقف جل حياته له، وخرج لتحقيقه في ربوع مكة وما حولها يطلب إسلام الناس وهدايتهم، وكلما وجد فرصة تجمع ولقاء الناس انتهزها لتحقيقه.

وفي المرحلة المكية من رسالته لما تفرغ الرسول ﷺ من دعوة أقربائه وقبيلته بدأ يعلن دعوته لأهل مكة والعرب جمعاء، وهكذا كانت كل السنوات العشرة عبارة عن إشعاع الدعوة؛ فكلما اجتمع النفر أو وفد الناس إلى مكة جلس وياشر معهم بمهمة الدعوة يدعوهم إلى الدين. وكان ينتهز كل الفرص؛ الذين جاءوا للتجارة أو العمرة أو الحج وما إلى ذلك، ومن عادته كذلك أنه كان يرد على أسواق العرب الشهيرة عكاظ، مجنة، وذي المجاز وكان يسير إليهم رغم بعدها مشيا بالأقدام ويجتمع مع أناسها متحدثا عن حقيقة التوحيد والإسلام.

وكان أعجب الفرص له وفود الحجيج عند مقدمه مكة المكرمة، وعلى أثره كان يجتمع مع عامة أناسها وخاصة أفرادها ثم يحدثهم عن هذا الدين العظيم، وميزته في كل هذه المحاولات أنه كان سعيدا بمهمته سواء قبل الناس كلامه أو رفضه، وغالبا ما شياطين مشركي قريش كان يزاحم عمله إلا أنه كان ممارسا لعمله بجهد ونشاط لا يعرف الكسل ولا السآمة، واستمر فيها حتى في أشد مراحلها زمن المقاطعة والتي استمرت ثلاثة سنوات حيث انقطع التواصل مع قريش إلى غاية ثلاث سنوات، وكانت هذه الدعوة متجهة إلى الفقراء والأثرياء والسادة والرقيق والأقوياء والضعفاء على السواء^(١).

روى ابن سعد أن دعوة الرسول ﷺ في مكة استمرت ثلاثة عشر سنة، وكانت كلها قائمة على أساس الحث والتبشير واللين، حيث كان موضوع دعوته أن يسمعه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، وأحيانا يسألهم قبيلة قبيلة ويقول لهم: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبُ وَتَذِلَّ لَكُمْ الْعَجَمُ وَإِذَا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ"^(٢).

ويظهر مما قاله ابن سعد أن رسول الله ﷺ انتهج في تلك الفترة (مرحلة النشأة والبناء، دعوة مختلف الأطياف) منهج الرفق واللين داعيا إياهم للفلاح الدنيوي والأخروي. وقد كان يعدهم طبعا على أخبار الله تعالى النعيم المقيم في الجنة وسيادتها، بحجة أن جزاء مرحلة البناء أكثر بكثير ممن يتبع بعدهم، وإلى جنب ذلك يرفع معنوياتهم وطموحاتهم بالسطوة على ملوك العرب والعجم وذلك كان حلما وتخिला لم يخطر ببالهم.

وقد ذهب الإمام ابن كثير في تفسيره: "أن الله تعالى جعل محمدا ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدتها خسر في الدنيا والآخرة"^(٣).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٥٥٥.

(٢) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢١٦.

(٣) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، ج ٥، ص ٣٣٨.

ومن مظاهر تلك الرحمة الفائقة أنها في يوم خروجه ﷺ إلى الطائف لدعوة أهلها، وقد لاقى منهم ما لاقى حتى أنه كان أصعب يوم في حياته حيث تقول عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: (هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا^(١).

ويتبين من هذا كله مدى رحمته للعالمين حيث فاقت على الأنبياء إخوانه بحيث أنهم دعوا أن يفتح الله بينهم وبين قومهم بالحق، وقد انتصر ربهم لهم حيث يقول تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

ولكن النبي ﷺ لم يرد أن ينتهي تاريخ الدعوة بإطباق الأخشبين على قريش وثقيف، بل قال رافع الرأس: "بل أرجوا أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا"، وهكذا ضرب رسول الله أعظم مثل في الدعوة، وقد ذاق ثمرة دعوته وجهاده، وقد كان ذاك أشهى على قلبه من نشوة النصر على عدوه، وهداية الناس عنده ألد من إهلاكهم وابتادتهم^(٢).

وهكذا يجب على الدعاة أن يحرصوا على هداية الناس ورشدهم، وأن يعانون أذى مدعويهم بقلوب راجية وداعين لهم بالإيمان والهداية، ومن ثم انتصار الدعوة هدفهم الأول والأخير، ولن يجد ذلك إلا من ذاقها وجربها؛ وقد كان ﷺ المثل والرحمة الربانية الفياضة يجب التأسى والإتباع به.

المبحث الثاني: فقه الداعي عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المكي

احتلت الدعوة إلى الله عز وجل في الرسالة المحمدية مكانة عالية حيث أنيطت فلاح المؤمنين بها، وقد أخذ الله عز وجل من علماء هذه الأمة ودعاتها عهداً أن يبينوا للناس دينهم، ولا يكتفون به، وهكذا دوام الأمة وعزها ارتبطت بأن يكون منهم أمة دعاة إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وإلا سيصبحون مدعويين في مكاييد الأعداء.

(١) صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى، رقم الحديث: ٣٢٣١.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٦٣٥، وغضبان، محمد منير، فقه السيرة النبوية، ص ٢٦١.

ونظرا لأهمية هذه المهمة ورفعة مكانتها حري بالدعاة أن يفقهوا موقفها، وأن يتحلوا بمعالي الأخلاق وبسيرة إمام الدعاة ﷺ، فإنها سند لهم وهداية في هذه الطريق النير. ولقد كان للشيخ محمد الغزالي وقفات تربوية حكيمة في فقه الداعي من خلال فقه السيرة للرسول ﷺ، ونقف على أبرز محاطاتها:

المطلب الأول: شخصية الداعية ومهامه في الرسالة الخاتمة

لقد قامت الدعوة الإسلامية بعقيدة ختم النبوة حيث أن النبي ﷺ جاء بالرسالة الخاتمة، وبلغها بأحسن صورة وأكمل وجه حتى أتاه اليقين، وخلف بذلك الدعاة كورثة له يتناقلونها عبر الأجيال بالمنهج الرباني الذي رسمه الله له ووضحه لأمته.

وجاء هذا الإستخلاف في أمر الدعوة لهذه الأمة بناء على الخيرية التي منحت لهم، تميزا وشرفا على سائر الأمم، وهكذا قضى نبي الله نجه وارتحل إلى الرفيق الأعلى إلا أن ينبوع دعوته معين تنبع منه الهدى الرباني والنبوي لرشد الناس وكأنه حي يرزق.

وهكذا فالرسالة الخاتمة كانت تبعا لقضية ارسال النبي الأعظم ﷺ لكافة الناس بشيرا ونذيرا، وهذا الإيدان كان في زمن مبكر من تاريخ الدعوة الإسلامية أي الفترة المكية، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨).

وبناء على هذه العقيدة فالدعاة هم ورثة الأنبياء ومهمتهم هو ابلاغ الدين وايصال الهدى إلى العالمين، وعن أهميته يقول الشيخ محمد الغزالي: لم يكن محمد ﷺ إماما لطائفة اهتموا في حياته فلما انتهى ذهبوا معه كباقي الرسل، وأصبح حديثه خبر كان، بل كان قوة من قوى الخير، وكان وجوده شبيها أو أكثر بما في عالم المعاني ما لاكتشاف البخار والكهرباء في عالم المحسوسات والمادة. وبعثته كان حقا تطورا في الوجود الإنساني؛ حيث كان وجودهم قبله وصاية رعاتهم كالأطفال المحجورين، ورويدا رويدا شب هؤلاء الأطفال ورشحوا لاحتمال الأعباء وحده، وهنا جاء الخطاب الإلهي عن طريق الرسالة المحمدية وبدأ يشرح لهم طرق الحياة ومناهجها؛ وهكذا بقى الناس في هداية من أمرهم حتى بعد ذهابه ﷺ، ولن ينقص ذلك من جوهر رسالته شيئا، فرسالته تفتح العين والآذان، وتجلية للبصائر والأذهان، وكل ذلك مودع في تراثه الضخم من كتاب وسنة^(١).

وعقيدة ختم النبوة كما مر بنا ضمان لاستمرار الرسالة المحمدية إلى يوم الدين، ومن ثم تكفل الله عزوجل بحفظ كلمته الجامعة والأخيرة لعباده التي أرسلها إلى خير البشرية، وبين ذلك الرسول الأعظم ﷺ في طيات الكتاب الإلهي كوحى جلي وفي السنة النبوية كوحى خفي، وفسره بقوله وفعله وتقريره وصفته.

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢١.

وهكذا بقي هذه الرسالة محفوظة تفتح على البشرية جليل الأمور ودقائقها؛ ولكن لم يكن هذه الأسس حجرا على العقول البشرية وتطورها بل أنزلت على هيئة أسس وقواعد كلية، تمنح للعلماء والدعاة أن يستوعبوا القضايا الجديدة ويفتتحوا نحو المتغيرات المتجددة في إطار تلك الثوابت.

وبهذا أعطيت الرسالة خاصيتين: ميزة الإستمرار والدوام، وفي المقابل خاصية المرونة والانفتاح، ومن هنا فيجب على العلماء والدعاة أن يتأهبوا لحمل الدعوة وأن يكونوا منفتحين على المدعوين، وأن يواجهوا العصر بعقول وقلوب منفتحة مراعيًا في عرضهم مقصد ومغزى الرسالة الخاتمة.

وأما عن ضرورة وجود الدعاة الحق بعد النبي ﷺ وعدم الاكتفاء بترائه الطاهر فيعود إلى تربية الناس وقيادة حياتهم وتمريضهم عليهم، وعن هذا يقول الغزالي: وليست مهمة الرسل والأنبياء الإرشاد العقلي إلى حقائق الحياة فحسب بل إن تربية ورياضة الأصحاب على هذه الأسس من أهم ما بعثوا له، والتربية شيء كالذوق ليست في الكتب، وليست حشو العقول والأذهان بالمعلومات ولا قيادة والزمام الحياة بالأوامر العسكرية بل إنها التي تولاهم الأنبياء وكتبوا بها صحائف في التاريخ تقوم على إحداث تغير نفساني عميق ودقيق يشبه تغير الطين بعد نفخ الروح فيه... وهكذا وظيفة ومهمة الرسول تقوم على اسداء النصيحة والعون للفرد والجماعة في كل جانب فهو يسكب من نقاء قلبه على أوساخ القلوب فيغسلها وهو يشعل من شغل عقله بالأفكار الخائية فيضيئها، ثم يبعثها هي الأخرى لتضيء وتهتدي^(١).

فالفقرة السابقة تبين أن الناس في كل الأحيان بحاجة إلى المرابين والموجهين، وبأن يأخذوا بأيديهم إلى الهدى الرباني ويسدي إليهم النصيحة إلى الحق والخير والدعوة إلى الصبر والثبات والمثابرة، وقد كانت هذه المهمة منوطة بارسال الأنبياء والرسل في الفترة الماضية إلا أن ذلك أسندت إلى الأمة المحمدية، خير الملل منذ بعثة النبي ﷺ وحتى في بداية دعوته، فقد كلف الرسول ﷺ خيرة أصحابه والأكفاء منهم بتليغ وتعليم غيرهم مما حصلوا وعلموا. وفي السيرة النبوية نماذج وأمثلة توحى بهذا المعنى، ففي السنة الثانية عشرة من البعثة "بعث رسول الله ﷺ مع أهل اليثرب مصعب بن عمير على إثر بيعة العقبة الأولى وأمره أن يعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، ويقرأهم القرآن، فكان يسمى المقريء بالمدينة وكان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض"^(٢).

وأما عن أهمية إرسال هذا المعلم الأمين إلى يثرب في تلك الفترة من المرحلة المكية وبدايات العصر المدني من رسول الله ﷺ فإنها تدل دلالة عظيمة مع ما أكسبه من النتائج الباهرة حيث نقل الناس من موروثات الضلالة إلى نظام جديد يشمل الحاضر والمستقبل ويعم الإيمان والعمل والخلق والسلوك. وعن مهمته وشخصيته يقول الشيخ محمد الغزالي: ولا تحسبن مصعبا كالمرتزقة من المبشرين والمنصرين الذين أرسلهم الإستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق. ومن ثم يقارن عملهم وعمله- فالمبشر المسيحي يقف تحت سرير مريض ليقول له: هذه القارورة

(١) انظر: الغزالي، محمد، عقيدة المسلم، ص ١٨٦

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام (بتصرف يسير)، ج ١، ص ٨٧.

تهديها لك العذراء! وهذا الرغيف يقدمه إليك المسيح. وقد تفتتح مدرسة أو مخيماً لللاجئين باسم البر الخالص ولكن ينقلون أفكار الناشئة من حيث لا يدرون ويميلون بهم إلى ما يريدون!.

والعجب كل العجب أن التلصص الروحي يخفى باسم الدعوة إلى الدين وخلف كل الممثلين العون والسند من الدول التي تبعث بهم ويساندون ظهورهم برا وبحرا وجوا، وشتان ما يعملونه وبين ما كان فيه مصعب بن عمير؛ فقد كان وراءه نبي مضطهد ورسالة ثائرة معتبرة ضد القانون السائد، وكان في حياته زاهدا لا يملك من وسائل الإغراء ما يطمع طلاب الدنيا ومنتهمزي الفرص؛ بل كل ما لديه من الثروة الكياسة والفطنة حيث اقتبسه من محمد عليه الصلاة والسلام وإخلاصه للدعوة في سبيل الله، وقبله ضحى بماله الموروث وجاهه في سبيل عقيدته، وأما في الثمرة فهذا القرآن الذي يتأنق في تلاوته، ويتخير من روائعه، فإذا القلوب قد ترق له وتفتتح للدين الجديد؛ وبمضي أقل من عام يخبر مرسله ﷺ بقبول دعوته قبولاً حسناً ويبشره بأن جموعاً غفيرة من أهله دخلوا في الدين عن اقتناع من شغفهم وبصر أفكارهم^(١).

وبالجملة فإن إرسال النبي ﷺ لمصعب بن عمير رضي الله عنه كأول سفير له في مهمته لدلالة عظيمة وهي أنه ﷺ قد علم أمته أنه وريثه في هذا الأمر، وأن هذه المهمة لا تنحصر بشخصيته في حياته ولا بعد وفاته؛ وبالتالي دربهم على هذه المهمة في الرسالة السامية. وتدل هذه الحادثة كذلك على فطانة أولئك البررة وحسن تدبيرهم وتلمذتهم للرسول ﷺ، وأخذهم من ذلك النبع الصافي حيث جاءت باكورة أعمالهم بالنتائج المثمرة؛ إذ لولاه لما كان بإمكانه أن يحصل عليها في هذه الفترة الوجيزة، وقد كان ﷺ يثني على أصحاب الكفاءات فيها ويصحح ما قد يفوت عنهم.

وأخيراً لم يكن هذا التوكيل بمجرد شغف اكتساب المهارة كما هي المعتاد في الحرف البشرية بل كانت بحجة مساهمة المسلمين في أمر الدعوة وتعلقها بمهامهم، ومن ثم تعودوا عليها في الفترة البدائية من تاريخ الدعوة الإسلامية.

المطلب الثاني: صفات الداعية المستفادة من هذه المرحلة

الوقوف على صفات الداعية من أهم القضايا في الدعوة، وكثيراً ما تتوقف نجاح الدعوة وإخفاؤها بالمواصفات التي يملكها صاحب الرسالة إلى المدعويين؛ وذلك لأنها دلالات وعلامات، وهذه الصفات هي مرآة السلوك للداعية، وبعبارة أخرى هي الدعوة الصامته التي يدعوا الناس من خلالها قبل أن ينطق ألسنتهم؛ ومن هذا المنطلق نجد أن لكل مرحلة وطور دعوي صفات متميزة اقتضاها الموضوع، وكذلك الظروف التي تسيطر على الداعي والمدعويين.

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٥٥-١٥٦.

وقد تطلع الشيخ محمد الغزالي في تاريخ الدعوة منذ القدم فوجدها أنها هي القضية الأساسية في دعوات الأنبياء والمرسلين فيقول: "فعندما دعى قوم نوح إلى الإيمان بالله وحده كانت اجابتهم لنوح لاتهتم بموضوع الدعوة قدر إهتمامها بشخص الداعي ، وما سحرزه من فضل بهذه الرسالة: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٤) ^(١).

والفترة المكية من دعوة النبي ﷺ هي المرحلة الثرية والبناءة في الدعوة اقتضت صفات وسلوكا عملية ، وسوف أقف على أهمها لتلك الفترة فيما يلي :

١- الصمود أمام المؤتمرات: جرت سنة الله في عباده أن تكون دعوة الحق دوما ما مصحبة بالعداء والإضطهاد والإثمار من قبل مخالفه ، وما من نبي إلا وقد عودي من قبل قومه وبني عشيرته ، وفي ذلك حكمة ربانية بالغة حتى يحص الله صف المؤمنين المخلصين عن المتساقطين على الطريق ؛ وحينها ما على الدعاة إلا أن يتحلوا بصفة الصبر والصمود وأن يستقيموا تجاه كل ذلك بعزيمة راسخة ؛ فإن ذلك تثمر بنتائج باهرة ويكون طريق النصر منوط باليقين والصبر .

والمطلع على سيرة الرسول الكريم ﷺ يدرك أن كلا المرحلتين الدعوية المكية والمدنية كانتا درسا للصمود والعزيمة تجاه التحديات والتي واجهها ذلك القائد وصحبه الطاهرون ، فقد رباهم على الثبات والصبر والتضحية في الفترة العصيبة من الحياة المكية وذلك لكي لا تجرح أولئك أمام أحداث الزمان وقلوبهم صامدة لا ترتعد لنوازل الأيام .

وللشيخ محمد الغزالي رحمه الله وقفات حكيمة أمام هذه الإضطهادات في السيرة النبوية وأخرج منها دروسا نقف على بعضها ؛ وفي بداية ذلك يصور تلك الأيام كالآتي :

لقد جاء قرار المشركين بمحاربة الإسلام وايداء معتنقيه والتعرض لأصحابه بألوان الإيلام والنكال منذ أن أعلن الرسول ﷺ دعوته جهرا ، وعلى هذا لم يألوا جهدا في محاربتهم ، وظلت عشرة أعوام يحسبون المسلمين عصاة بغاة ثائرين ، يزلزلون الأرض تحت أقدامهم ، واستباحوا في حرم الله الأمن دماءهم وأعراضهم وأموالهم ، وفوق كل ذلك رموا الرسول ﷺ وصحابته بتهم مزيفة ، وشائم سخيفة ، وهكذا تألب تلك الجماعة بالإسلام ورجاله على نحو ما تفعله الصحافة الماكرة حينما ينشرون عن خصومهم نكتا لازعة وصورا مضحكة للحط من ثقتهم ومكانتهم عند الجمهور .

(١) الغزالي ، محمد ، فقه السيرة ، ص ٢٥ .

وكان من بين ما يذيعون عن النبي ﷺ أنه مجنون، او مصاب بالسكر والكذب ... وكان هذا شان المؤمنين وخاصة أولئك الذين ليست لهم عصبة تدفع عنهم، فقد كانوا يحبسون على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط أعياء، وضرب في ذلك الإضطهاد بياسر وآله خير نموذج تذكر على مر العصور والأزمان^(١).

وقد روى ابن هشام في سيرته صور عدوان المشركين على المستضعفين فيقول: "ثُمَّ إِنَّهُمْ عَدَوْا عَلَى مَنْ أَسْلَمَ، وَاتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَوَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ وَيَعْدُبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَبَرْمَضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ، مَنْ أُسْتُضِعِفُوا مِنْهُمْ، يَفْتِنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتُلُ مَنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ الَّذِي يُصِيبُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْلُبُ لَهُمْ، وَيَعْصِمُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ"^(٢).

ولقد ذهب الغزالي إلى ربط أساليب الإضطهاد التي لاقاه الرسول ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين مع ما يواجهه الدعاة المعاصرون، فيرى أن الأعداء قاموا بأعنف المواجهة تجاه الإسلام وبدؤوا بالحملة الشرسة الشبيهة بالحرب الإعلامية في زمننا هذا بغية أن ينالوا من النبي ﷺ وأصحابه، وقد كانت كل هذه الدعايات قائمة على الزور والزيغ، يقبلون الحقائق، وعرفوهم أناسا منبذوين يبتغون الفتنة.

وأما موقف النبي ﷺ وأصحابه فقد كانوا مأمورين بأن يمشوا في سبيل البلاغ وأن يجتازوا ما يلقون أمامهم من صعاب وعقاب، وعلى المؤمنين برسالته أن يثبتوا في سبيل الدين، وفائدة ذلك:

١- إن الثبات والصمود يتسبب بنضج فكرهم ودعوتهم، ويشبه الغزالي ثبات وصمود المؤمنين في دعوته كالبنيان الشامخ الذي لا يستقر ويرتكز على سطح الأرض فحسب بل يحتاج إلى دعائم غائرة في الثرى، وبمقدار غوره تكون محملة الأثقال ومتحملة الأعمدة، وهكذا كان أصحاب النبي ﷺ وخاصة الرعيل الأول بصلابة إيمانهم وروعة استمسакهم، كانوا دعائم رسالته وأصول امتدادها من بعد في مشارق الأرض ومغاربها^(٣).

٢- ومن فوائد الصمود والثبات والمصابرة في الدعوة كذلك أنها تورث اليقين الذي يعد الأساس الأول للدين والمنطلق الأساسي الذي ينبع منه الأعمال، وقد قرن الله عز وجل الصبر واليقين فجعل الأول مقدمة للثانية، وعدم المصابرة دليل على ضعف اليقين وفقدانها، وهكذا في كثير من الأحوال انخلع أناس عن دينهم ومنهجهم لوجود عدم صمودهم، وعن هؤلاء يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوفُونَ﴾ (الروم: ٦٠)،

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٠٦، وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٠.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٥٥-٥٧.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٠٦.

وأما في الناحية الإيجابية فالصبر واليقين هما من أسباب حصول الإمامة حيث يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤) ^(١).

٣- إن الصمود والمثابرة أمام المؤتمرات يحفظان الدعاة عن المزالق أثناء النصر، فكثير ما يعوجون وقت النصر وينسون واجبههم ودعوتهم التي كانوا يدعون إليه، وبالتالي يضررون أنفسهم والتجربة التي خاضوها. وعن هذا يقول الغزالي أن الدرس المستفاد من المقاطعة العامة في حصار شعب أبي طالب كان درسا لصحابة الرسول ﷺ، فيقول: "وقد استفاد الصحابة من ذلك اخلاصا ونقاء وعفة لا يعرف لها مثيل، فلما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم، واستسلمت الأقطار البعيدة والملئنة بالخير لجيوشهم كانت دوافع العقيدة وأهدافها هي التي تشغل بالهم قبل الفتح وبعده، فلم يشغلوا بالذهب والفضة، إنما اهتمهم أولا وآخرا إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ^(٢).

وفصل القول: إن الصمود والصبر من أهم الصفات والخلق التي يجب على الداعية أن يتحلى بها في مهمة الدعوة وهو باعث على إيتان الفرج والنصر، ويسهل بها الصعاب، وسبب للأجر والمثوبة، وفوق كلها تمنح اليقين، وكما توهب من أجلها الإمامة والقيادة البشرية في أمري الدين والدنيا.

٢- **المداومة على العمل وعدم اليأس:** تميزت طريق الدعوة إلى الله بالمحن وتحمل المشاق والمكاره، وإن الصعود إلى قمتهما والنيل من شرفها يحتاج من الداعية مداومة العمل والاستمرار والغوص في أعماقه، وذلك لأن الثمين والغالي يحاطه الأستار وتكون صعب المنال على العوام، وتحصيله بالتالي لا يتيسر لكل واحد إلا أن ذلك لا تعني استحالة سلوك هذا الطريق وخلوها من السالكين.

وعلى هذا المنطلق فمن أهم الصفات المختصة بالدعوة والتي تجب على الداعية أن يتحلى بها هي المداومة والمثابرة على العمل وعدم اليأس بتأجيل وتأخير النصر أحيانا.

وقد ربي الحبيب المصطفى ﷺ أمته الداعية بالحث على الانتهاز من هذه الشمائل الرفيعة حتى تكون دعوتهم ذات الأفاق والأصداء وتكون ناجحة تحصل منها المطلوب. لقد روى أصحاب السنن حديثا تدل على مدى شدة ما لقيه النبي ﷺ في أمر الدعوة، ومنها ذلك الحصار الجماعي والموسوم بحصار شعب أبي طالب، حيث يقول ﷺ: (لَقَدْ أُودِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَكَلِيلَةٍ، وَمَا لِي وَبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبَدٍ، إِلَّا مَا يُؤْكِرِي إِبْطُ بِلَالٍ) ^(٣).

(١) انظر: العودة، سلمان بن فهد، من أخلاق الداعية (موقع طريق الإسلام، ب ت ط)، ص ١٦.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٢٦.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم الحديث: ١٢٢١٢. المسند بتحقيق شعيب الأرنؤوط، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وفي مثل هذه الحالة العصبية كان النبي ﷺ يدعو قومه ليلا ونهارا، وخفاء وجهها مجاهرا بأمر الله وكلمته لا يتقي فيه أحد من الناس، كما أنهم يلقون غيرهم في موسم الحج ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على الوفود^(١).

والفقه المستفاد من هذه الوقائع أن على الدعاة أن يداوموا في مهمتهم ولا تفتت عزيمتهم، ويمضوا إلى ما أمروا به شامخين رؤسهم وأن لا يتسقط همهم ولا يألوا جهدهم في تحصيل المطلوب، وذلك لأن المداومة والإخلاص سرعان ما سيتعود الكرة إليهم وسيصبحون بعد العسر ميسرين في حالتهم، وأن ألد الثمرة هي التي تحصل بعد العسر، هكذا ترفع أهمية العمل والمهمة التي يسيرون إليها ويصبحون ومن يواجهونهم أن دعوتهم على الحق. وعن هذا يقول الغزالي: "وهكذا علم النبي ﷺ أصحابه أن يحتسبوا فيما أودوا به، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليزموهم ما عرفوا، والحرب القائمة بين الكفر والإيمان سينجلي غبارها يوما ما، ثم تنكشف عن هلكى وعن شهداء، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين يأذن الله"^(٢).

وأما عن تأثير حصار الشعب يقول الغزالي: (وفي أيام محنة الشعب كان المؤمنون يلقون غيرهم من القبائل التي يوفدون على موسم الحج إلى مكة، حيث كانوا مستغنيين عما لا قوه، وبالتالي لم تشغلهم آلامهم عن مهمة الدعوة وعرضها على الناس، وحجة ذلك أن تربية النبي ﷺ لأصحابه علمهم أن الاضطهاد والمحن لا يقتل الدعوات بل يزيد فروعها امتدادا وجذورها عمقا، وقد نال الإسلام أتباعا وأنصارا كثيرا في تلك المرحلة، وفي الجهة المقابلة المشركون صاروا ينقسمون فيما بينهم، ويتسائلون عن صواب ما فعلوه حتى نتجت أخيرا على إبطال المقاطعة ونقض تلك الصحيفة الظالمة^(٣)).

ومن الصفات الأساسية التي يجب على الدعاة أيضا أن يتحلوا بها وخاصة القائد الدعوي هي أن يبث عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على قلبه من أمل رحيب في انتصار الإسلام وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في مشارق الأرض ومغاربها.

وقد نقل أصحاب السير بعض ما كان يتغامز عليه أعداء دين الله مقتبسين عن زرع ثقة رسول الله ﷺ في قلوب أصحابه حيث يقولون: (قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقیصر، ثم يحكون، ويصفرون)^(٤). فالمقولة السابقة وإن كانت خارجة على سبيل التغامز من قبل الأسود بن المطلب من أشهر المتغامزين للنبي ﷺ، إلا أنها تدل على مدى ثقة رسول الله ﷺ بمهمته ومن ثم زرعها في قلوب أصحابه بغية أن يثبتوا على دينهم ويدوموا عليه حتى يلقوا ربهم؛ وهكذا كان النصر والظفر غالبا حليف أولئك في ميدان المعركة إلا أنها ليس بالشرط الأساسي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٣٥٤.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٢٦.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١١٠.

(٤) المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م)، ج ١٤، ص ٣٣٢.

لسلوك هذا الطريق، فالنبي ﷺ لم يجمع أصحابه على مغنم العاجل والآجل بل كانت المهمة هي أن يزيع الغشاوة عن لأعين والران عن القلوب ويبصر للناس الحق ويعرفهم اليقين الذي فطر عليه.

وقد يقع كثير من الدعاة في خطأ التشاؤم ويسيطر عليهم نوع من الخوف حين يتأخر النصر أحيانا، أو لا يكون في حظ الطليعة الأولى، فبدؤوا يشككون في تحقيق الإسلام، ومن ثم يعيدون النظر في فهمه لهذه المهمة، فيضر نفسه ودعوته، ومن هذا المنطلق فعليه أن يعرف أنه ليس مطالب بتحقيق النصر لواقع الإسلام، فهذا أمره إلى الله عزوجل ويكون متى شاء أن يحدث حدث، لكنه مطالب ببذل كل جهده في السبيل، وهكذا الرسل والأنبياء كانوا يخاطبون كذلك كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ ﴾ (الشورى: ٤٨) ^(١).

وبالجملة فالمداوة والمثابرة على العمل والبعد عن اليأس من أهم الصفات والشمائل الدعوية المختصة بالداعية، وهاتان الصفتان الإيجابية والسلبية تعودان عليه بالخير الكثير، فيحفظانه عن المزلق والاعوجاج والتساقط، وبالتالي يجعلن أمره مستقيما بعيدا عن المخاوف ويمنحانه كذلك اليقين، أن أصل الظفر والنصر هو الدوام على المهمة وعدم التراجع عنها فذلك هو المطلوب، وقد ينعم الله أحيانا بالنصر المبين، فيكون قرة عينه وشفاء لقلبه يتلذذ بثمرته؛ وإن تأخر فليعلم أن ما عند الله باق ولن يخلف الله وعده.

٣- حيازة العاطفة الجياشة تجاه الدعوة الإسلامية: لقد تباينت الصفات والشمائل التي يجب على الداعي والمبلغ التحلي بها، فمنها صفات تتعلق بشخصية الداعية، ومنها صفات التعامل مع المدعوين، ومنها خصائل ترتبط بمهمة الدعوة والقيام بها، وهذه الصفات بمجموعها تندرج تحت فقه الداعي، وتشكل مجموعة متكاملة لنجاح الدعوة، ومن هذه الصفات والتي يلزم على القائمين بهذا الأمر وجود عاطفة جياشة نحو الدعوة؛ فليست الدعوة مهمة كره أو جبر، وليس المقصود منها إسقاط المسؤولية عن العاتق بل هي بحاجة ماسة إلى قوانين الإحسان والإجادة اللازمة حتى تأتي الأمر على وفق شرع الله عزوجل.

وقد عبر عنها الشيخ الغزالي رحمه الله في الجانب العاطفي من الإسلام باسم الإحسان حيث يقول: "ومجموعة الأعمال التي يتحرك بها جهاز الأمة، تختار لها المواهب الصالحة، ويعد لها الأكفاء من كل بيئته، وذلك لضمان الإحسان المكتوب على كل شيء، وقد يتطلب مرحلتين التعليم العام ثم الاعداد الخاص" ^(٢).

وبناء على هذا فوجود العاطفة المتحركة والحب القلبي والإخلاص والشعور بالمسؤولية على دافع الحب والجد مع مراعات الأصول من أهم متطلبات الدعوة والتي يقوم عليها، وهكذا الناظر في تاريخ الدعوة ليجد أهمية هذا الأمر، ومهما ابتعد الداعية عنها فسيكون الأمر منها الخسران وعرضة لغضب الله عزوجل.

(١) انظر: العودة، سلمان بن فهد، من أخلاق الداعية، ص ١٩.

(٢) الغزالي، محمد، الجانب العاطفي من الإسلام (القاهرة: نهضة مصر، ط ٣، ٢٠٠٥م)، ص ٦٥.

ففي سيرة يونس عليه السلام دليل واضح على هذا؛ وذلك لأنه سئم من سلوك قومه وذهب مغاضبا عنهم حتى التقمه الحوت، ويقول الله عزوجل عنه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

أما الرسول ﷺ فلم يضق زرعاً ليوم وتحمل كل المشاق، وهو راض عن ربه ويلتمس في كل حالاته التوفيق من الله عزوجل وأن يكون مهمته على الوجه المطلوب.

ففي سفره الدعوية إلى أرض الطائف حينما لاقى أشد المعاناة من أهله، وفي ظل الغمرة من الأسى والحزن وآلام النفسية والجسمانية توجه الرسول ﷺ إلى ربه بالدعاء والابتهال، والتي تعكس فيها افاضة إيمانه وبقينه، ورضاه بما ناله في سبيل الله استرضاءً لله فيقول بالدعاء التي سبق أن ذكرناه: (اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ،)^(١).

ففي هذا الدعاء رغم إظهار بيان الضعف البشري نلمح عمق توحيد الرسول ﷺ ونهاية تجرده لله عزوجل، وعاطفته القوية تجاه الدعوة؛ حيث يطلب من الله التوفيق والقوة والغلبة على العوائق بدل الدعاء على المعاندين، ويقدم عمله للقبول الإلهي، وكما رجع إلى مكة واثقا من المستقبل رغم ما اكتنفه الحاضر من الآلام وبدأ يستأنف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله إلى العالمين^(٢).

ونجد كذلك عمق هذه العاطفة في أوائل إظهار دعوته بالمرحلة المكية، فقد قام قريش على إثرها بطريق العناد ومجانبة الصواب، ولكن محمد عليه الصلاة والسلام سار في طريقه يدعوا إلى الله، ويتطلف في عرض الإسلام ويكشف الأسدال عن مخازي الوثنية، وقد كان يسمع عنهم ويحجب ويهاجم ويدافع غير أن حرصه على هداية آله الأقربين جعله يجد مسعا محاولا عرض الإسلام عليهم مرة أخرى، وكان قبله في قومه كبير المنزل مرموقا بالثقة والمحبة لكنه ضحاه في سبيل الدعوة وتعرض بدله لخصم السفهاء والكبراء^(٣).

وبناء على ذلك فالدعوة إلى الله بحاجة إلى امتلاك عاطفة قوية تجاه موضوعها وأن يحظى حاملها بالمنهج العاطفي الجياش يرتكز على العاطفة والقلب، فيكون دعوته منبثقا من القلب وموصلا إلى القلب، ويحرك الشعور والوجدان في المدعويين. ومن أهم مظاهرها أن لا يضيق صاحبها بما يدعوا إليه ويظهر نحوها المودة والمسؤولية، ولمدعويه الشفقة والمودة، ويكون غايته بعد رضى الله عزوجل هداية الناس ورشدهم، وثمرة هذا أن كل ما يلايقه في سبيله من الأذى والاضطهاد يحمله على روح المصابرة ولايجزع كما لا تفتر عزيمته، وتحسب فوق كل ذلك العنت والمشقة في طريق الدعوة نوعا من المباهاة ويحسب أجره عند الله محتسبا.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٤٢٠.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٣٤، وكذلك انظر: الصلابي، محمد علي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل، ج ١، ص ٢٣٣.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٠١.

وأخيرا فإن هذه العاطفة الجياشة تجاه الدعوة الإسلامية تجب أن تكون مبنية على الأسس التالية:

١- أن يكون موضوع الدعوة محددا، واضحة ومقدمة في اطار المشروع الإسلامي.

٢- أن يلتزم صاحبها بشرف الوسيلة و الأسلوب الحسن وجمال الطلب.

٣- أن يراعي في عرض الدعوة حق المخاطب ويمنح له حرية اتخاذ ما يرى^(١).

المبحث الثالث: فقه الداعي في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الدعاة إلى الله هم المبلغون والساعون لتوصيل وتطبيق الإسلام على وجه المعمورة، وقد أُلزموا على تكليف الله عزوجل لتوصيل رسالته بناء على عقيدة الاستخلاف في الأرض.

وهم على ذلك حملة رسالة الأنبياء خير البشرية من بعدهم، وما دامت مهمتهم جارية فتنعم الأرض بالبركة، والخير وتسعد أولئك بخيرى الدنيا والآخرة؛ ونظرا لأهمية هذا المقام يجب على الدعاة أن يدركوا منزلتهم، وأن يتحلوا بصفات من ينوب عنهم حتى يكون أمرهم على بصيرة ونور من الله عزوجل. ولقد وقف الدكتور بوطي رحمه الله على فقه الداعي في بيان فقه السيرة؛ وسوف نبرز أهم مجالاته في المرحلة المكية كالآتي:

المطلب الأول: مكانة الدعاة في الرسالة الخاتمة ومهمتهم

لقد بعث الله محمدا ﷺ بالرسالة الخاتمة، وأتم ببعثته نعمته على البشرية فانقطعت بها صلة السماء بالأرض من جانب ارسال رسله وإنزال كتبه، وقد كانت هذه المهمة الخاتمة مبشرة في رسالات الأنبياء والمرسلين السابقين، وكانت متضمنة خلاصة التعاليم الإلهية على مدار تاريخ البشرية.

وأهم ميزة هذه الرسالة الخاتمة أن الله عزوجل تكفل بحفظها إلى يوم الدين ومن ثم أُلزم دعاة الأمة المحمدية بأن يقوموا بواجب الدعوة خلفا لنبيهم الخاتم إلى الناس. وهذه المهمة بعد تمام الدين سهلة ولم تكن صعبة بحجة أن ما يحتاجون إليه موجود في كل ما جاء عن الله كتابا وسنة.

وقد صرح النبي ﷺ بهذا في قوله: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ)^(٢).

وعن هذا يقول البوطي رحمه الله: "ويتبين أنه لا توجد أديان سماوية متعددة، وإنما توجد شرائع سماوية متعددة نسخ اللاحق منها السابق إلى أن استقرت الشريعة السماوية الأخيرة التي قضت حكمة الله أن يكون مبلغها هو خاتم الأنبياء والرسل أجمعين"^(٣).

(١) انظر: غلوش، أحمد، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص ٦٠٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ، رقم الحديث: ٣٥٣٥.

(٣) البوطي، فقه السيرة، ص ٥٠.

وتوحي هذه الفقرة أن النبي ﷺ هو خاتم الرسل في رسالات الله وأن خاتمته من جهة شرائعها وليس في الدين ، وذلك لأن أصل الدين كما تصرح الآيات والنصوص واحد وهو الإسلام ، والشرائع ظلت تتغير وتتطور حتى استقرت في رسالة الرسول الأعظم ﷺ خاتم النبيين وسيظل محفوظا إلى يوم الدين جامعة بكل ما أعطاه الله إلى النبيين . وقد سمى العلماء بناء لما سبق الدعوة الإسلامية بالدعوة الخاتمة وتعليل ذلك أن رسالة الإسلام جمعت في طياتها دعوة الأنبياء والرسل جميعا وزادت عليها شمولية التشريع الواقعي المتجدد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وأما عن مدى خاتميتها إلى جنب جمعها للرسالات السابقة وشموليتها فهناك عامل بشري تاريخي ؛ كذلك تنبه إليه علماء هذا الفن وهو أن الإنسانية منذ زمن النبي ﷺ وما بعده قد بلغت من النضج العقلي والرشد الإنساني ما لم يصل إليها في الفترة الماضية .

والناظر ليرى في أحوالها أنهم بعد بعثة النبي ﷺ وصلوا إلى قمة النضج حيث اكتسبوا اسمى آيات الفهم والوعي الاستيعاب والادراك ؛ وبذلك صاروا يفهمون طبيعة الدين ، وصار بعد الإيمان يدعون له ويجاهدون في سبيله ، وأشكلوا إلى جانب الدعوة النظرية التجسيد العملي للدين كهيئة عجلة المدنية والحضارة تدفع إلى الأمام وأصبحوا دعائهم تطبع في ضمير الزمان مبادئ التوحيد والمساواة والعدالة والحرية... ومن هذا المنطلق يرى علماء حكمة التشريع أن الفارق الأساسي بين الشرائع السابقة والشرعية الخاتمة تتمثل ضمن الفروق ومن ضمنها كيفية النزول والتشريع ، فقد كانت الشريعة الخاتمة متلائما مع حاجاتهم ومصالح الناس ، وكانت متوافقة مع أحوالهم وواقع حياتهم ، وكانت تلبي إلى جنب ذلك التطورات وتقدم الزمان والمكان ، أما التشريعات السابقة قبلها فكانت مرحلية ومؤقتة ، وأصبحت بالجملة بعد بعثته ﷺ ثابتة وخالدة ، وكانت قبلها محدودة وجزئية وبعدها شاملة وكلية ، والخطاب قبلها كان خاصا ومحليا وبعد بعثته أصبح عامة وعالمية^(١) .

ومن ميزات هذه الرسالة الخاتمة كذلك أن دعائها تقوم بواجب نبيها معه في حياته وبعد وفاته ، وهكذا ألزم الله على المؤمنين بأن يكون طائفة منهم يقوم بهذا الواجب على سبيل الإلزام الكفائي ومتى يتكاسل عنها كلهم فالإثم والعقاب موجه إلى كل واحد منهم .

وأما الأدلة والنصوص التي تنبيء بهذا الحكم فكثيرة ومتوافرة :

١- بعضها يستفاد من النصوص الذي توجه إلى الرسول ﷺ ، وهكذا يرى علماء أصول الفقه أن الأصل في خطاب الله لرسوله ﷺ يدخل فيها المسلمون جميعا إلا ما استثنى ؛ وليس من المستثنى أمر الله تبارك وتعالى بالدعوة إليه . وهذه الآيات بمجموعها توحي أن الله تعالى أكرم الأمة المحمدية وفضلها على غيرها حيث أشركها في مهمة الدعوة إلى الله مع نبيه ﷺ .

(١) انظر: علوان، عبد الله ناصح، سلسلة مدرسة الدعوة (القاهرة، دار السلام، ط ٢، ١٤١٤هـ-٢٠٠٤م)، ج ١، ص ٢١.

٢- وأما في الجانب الآخر فهناك نصوص مستقلة وصريحة تلزم على الأمة الإسلامية عليحدة القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي تشكل ذروة سنام الدعوة، وفيها يقول تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فهذه الآيات أفادت معنيين:

الف- خيرية الأمة المحمدية على ما سواها.

ب- إن هذه الأمة حازت هذه الخيرية لقيامها بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي في الأصل وظيفة رسول الله ورسلك الله جميعا.

٣- لقد بين الله عزوجل سمات المجتمع الإسلامي التي بها يتميزون، وأهم هذه الميزة التناصح بينهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وبخلافهم المجتمع المنافقة يصد باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعنهم يقول تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (التوبة: ٦٧)^(١).

وعن هذا يقول الإمام القرطبي: "فَجَعَلَ تَعَالَى الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَحَصَّ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَرَأْسُهَا الدُّعَاءُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْقِتَالُ عَلَيْهِ"^(٢). والمنع لهذه الأدلة ليرى بوضاحة أن النصوص كلها ناطقة على مشروعية والزام الدعوة الإسلامية على الأمة المحمدية؛ فتارة تكون بالحث على الفضيلة، وتارة تكون بالروع والانزجار لهم لكي يتعدوا عن صفات وخصائص المعاندين المنافقين؛ وهكذا الأدلة بمجموعها ناطقة على أن الخيرية والتفاضل التي حظيت لهذه الأمة لم تنل إلا بهذه المهمة الشريفة، وأنهم بذلك ورثة الأنبياء الحقيقيين حيث يحيون رسالتهم إلى يوم الدين، وما دامت فيهم هذه المهمة فسيكونون بالخير والبركة.

ومن اللازم التنويه أن الآيات الناطقة عن هذه القضية وإن كانت مدنية النزول وذلك في خلال سورة التوبة، حيث يفضح الله في آياتها خصائص الفئة المنافقة أخطر أعداء الله حيث برزوا في المجتمع المدني إلا أن السيرة العملية للنبي ﷺ لخير دليل على مساهمة المسلمين الأوائل مع نبيهم ﷺ في تلك المرحلة.

ويقول الدكتور البوطي رحمه الله عن إعلان الدعوة جهرا في الفترة المكية إلى عامة الناس إنها تحمل معاني ودروسا عظيمة وهي: فأدنى مرتبة المسؤولية هي مسؤولية الرجل عن نفسه. ومن أجل إعطاء هذه المهمة حقها استمرت

(١) انظر: زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٩، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م)، ص ٢٠.

(٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ٤٧.

فترة ابتداء الوحي زمنًا غير يسير... أي ريثما يطمئن محمد عليه الصلاة والسلام إلى أنه نبي مرسل ، وأن ما ينزل عليه من ربه إنما هو وحي منزل من الله عزوجل فيؤمن هو بنفسه أولاً ، ويوطن ويستقر في ذاته قبول كل ما سيتلقاه من مبادئ ، وأحكام ونظم .

أما الدرجة الثانية والتي تليها فهي مسؤولية المؤمن عن أهله ومن يلتف حوله من أقربائه ، وللقيام بحق هذه المسؤولية خصص الله بضرورة الإنذار والتبليغ للأهل والأقارب وذلك بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به ، وفي هذه المرتبة من المسؤولية يشترك كل مسلم صاحب أسرة أو بيت . وليس من اختلاف أو فارق بين دعوة الرسل في قومه ودعوة المسلم المؤمن في بيته وأسرته ، إلا أن الأول (النبي) يدعوا إلى شرع منزل عليه من الله تعالى ، وهذا يدعوا بدعوة الرسول والنبي الذي بعث إليه ^(١) .

ولقد ضرب بجعفر بن أبي طالب الطيار خير نموذج في إبراز هذه المساهمة من تلك المرحلة ؛ فقد نقل أصحاب السير وقوفه رضي الله عنه أمام النجاشي ملك الحبشة حينما جاء إليه وفد قريش يطلب منه استرداد المهاجرين ، وقال عن رسالة الإسلام أمامه قائلاً : (أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْ الضَّعِيفِ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ) ^(٢) .

فالقول السابق دال على مدى رجاحة ونصاعة عقل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن ثم مثوله خير تمثيل أمام ملك الحبشة ، وكذا براعة كلامه وممارسته في الدعوة إلى الله ، فقد كان رضي الله عنه ممثلاً لنبي الإسلام ودعوته في تلك الديار ، حيث لم يمر من رسالته ﷺ إلا أعواماً عديدة ، ولم تنضج ثمار دعوته آنذاك ، إلا أن جعفرًا تقدم إليها بناء على المسؤولية الملقاة على عاتقه ، وهكذا كان موقفه سبباً في اطمئنان المسلمين ونجاتهم من وطأة مشركي قريش .

وخلاصة القول : فالدعوة الإسلامية مهمة منبثقة من الرسالة الخاتمة للنبي ﷺ ؛ وقد تقدم المسلمون إليها أمراً وشرفاً ، بدء من المرحلة المكية ، وجاءت جهودهم بالخير والبركة في تاريخ الدعوة الإسلامية .

المطلب الثاني: أهم الصفات التي يجب على الداعية التحلي بها والمستفادة من هذه المرحلة

الصفات والشمائل التي يجب للداعية التحلي بها هي العدة والزاد التي يستعين بهما المبلغون والدعاة في مواصلة مسيرهم ، ولا يمكن الإستغناء عنهما ؛ وطبقاً لمقتضيات موضوع الدعوة وحالة المدعويين تتفاوت أخذها وقوتها

(١) البوطي ، فقه السيرة ، ص ٨٩ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

من مرحلة إلى مرحلة. وقد كانت المرحلة المكية في الدعوة النبوية مرحلة عسيرة حيث كانت على الناس جديدة باديء الأمر، والمواجهة من قبل الأعداء عنيفة، وقد اختار الداعي الأول ﷺ سلوكا توائم هذه الفترة، وكان منبعها لدعاة الأجيال القادمة.

وبناء على ذلك فقد استفاد الدكتور بوطي رحمه الله من خلال وقوفه على فقه السيرة العطرة ﷺ، وسوف نبين أهم هذه الصفات فيما يلي:

١- تحمل أنواع الأذى وحكمها: الدعوة الإسلامية تكليف وفريضة إلهية كتبها الله عزوجل على دعاة الأمة المحمدية وهي مهمة شاقة يعترى لسالكها في طريقه الصعاب والمكاره، وعلى ذلك يجب على حامل الرسالة الصبر والتحمل، وبدونه لا يستطيع صاحبه بلوغ المرام، وتعليل ذلك أن هذا الطريق مليئة بالعقبات النفسية والاجتماعية، كما يعترى صاحبها ومدعوها اغراءات الشيطان وهفواته من حمأة الشهوات والأهواء، والعادات الموروثة من الأبناء والأجداد، وهكذا التقاليد المألوفة بين الناس والتي أصبحت جزء من حياتهم، وبالتالي يصعب عليهم الكف عنها والعكس الإتيان عما طلب الله منهم.

وهكذا فسنة الابتلاء وتحمل الأذى مكتوب على الدعوة إلى الله ولا يمكن غالبا خلو الطريق منه، والمتتبع سير الأنبياء السابقين صلوات الله عليهم أجمعين يعلم أنهم تعرضوا لشتى أنواع الابتلاء وصنوف الأذى، وقد كان حياتهم كلها جهاد وصراع مع الباطل، وهنا ما عليهم إلا أن يصبروا ويرابطوا أو يتحملوا، حتى يأتيهم النصر والتمكين، وذلك لأنها ارتبطت ارتباطا وثيقا.

ومن أكبر حكمه كما ترد في النصوص القرآنية والحديثية أن ذلك يمحس صف الدعاة المخلصين ويميز الله الخبيث من الطيب، ومتى ينصهر معدن أولئك في شدة الأحداث فهنا يأتي النصر والتمكين.

وقد أورد ابن القيم الجوزية في كتابه الفوائد: "سَأَلَ رَجُلَ الشَّافِعِيِّ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَيُّمَا أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَمَكَّنَ أَوْ يَبْتَلِيَ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ لَا يَمَكَّنُ حَتَّى يَبْتَلِيَ فَإِنَّ اللَّهَ ابْتَلَى نُوْحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمَحْمَدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ"^(١).

والقاريء للسيرة النبوة المطهرة ليدرك مدى ما تحمله الرسول ﷺ وأصحابه الطاهرين، ولسوف يلمس أن تلك الرسالة مكنت على سبيل المحن والابتلاءات، وبالتالي لم يخلو فترة منها إلا وقد ابتلوا في أنفسهم، وأهلهم وأموالهم، وهكذا جاء النصر والتمكين بعد ما قدموا في سبيله الثمين والغالي. فقد روى أصحاب السير ضروبا من الإيذاء والمحن القولية من الهزء واللمز والشتائم، وكذلك الإيذاءات الفعلية، ومنها ما رواه الطبري حيث يقول: "لقد نثر بعض السفهاء التراب على رأس النبي ﷺ، فلما دخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى بناته تغسل عنه التراب، وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: يا بنية! لا تبكي فإن الله مانع أباك"^(٢).

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، الفوائد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م)، ص ٢٠٨.

(٢) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (تاريخ الطبري)، ج ٢، ص ٣٤٤.

وهكذا روى البخاري حديث عروة بن الزبير حيث يقول: (سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٨) ^(١).

ويستفاد من هذه الوقائع كلها مدى ما تحمله النبي ﷺ من أنواع الأذى في سبيل الدين، وهو أكرم خلق الله وحيبيه، وهو القادر على أن ينصره دون الأذى، ولكن جرت سنة الله أن يبتلي عباده الداعين بالسراء والضراء، وقد أخذه ﷺ بادئ الأمر حينما ذهب إلى ورقة بن نوفل يخبره عما لقيه في غار حراء فقال له: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكَ لَنَبِيٌّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي جَاءَ مُوسَى وَلِتَكْذِبْنَهُ وَلِتُؤْذِنَهُ وَلِتُخْرِجَنَّهُ وَلِتَقَاتِلَنَّهُ، وَلَكِنَّ أَنَا أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَأَنْصُرَنَّ اللَّهَ نَصْرًا يَعْلَمُهُ" ^(٢).

وكما أن النبي ﷺ لم يضق زرعاً بما رآه من قومه ولم يشكو من شدة ما لاقاه، بل كان متيقناً على تحمله بلوغ هدفه وهو الدين إلى الله، وأن الله سينصر عبده ويمنع كيد الكائدين عنه.

وقد ذهب البوطي رحمه الله إلى أن تحمل الأذى في سبيل الله نوع من التكليف، وأن الإنسان مطالب من قبل الله عزوجل بحمل ما فيه مشقة وكلفة. وهكذا أمر الدعوة والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله من اسمى أنواع التكليف، ثم يرى كذلك أن التكليف من أهم مستلزمات العبودية، وبهذا لا يتحقق معنى وقيمة العبودية إن لم يكن ثمة تكليف، ومن جهة أخرى فإن عبودية الإنسان لله عزوجل من ضروريات ألوهيته عزوجل، وإذا لم يتحقق هذا الأمر فلا معنى للإيمان بها. وبعبارة أخرى فإن من مستلزمات التكليف، ومن متطلبات التكليف تحمل المشاق في سبيل الله ومجاهدة النفس والأهواء ^(٣).

وبناء على هذا الترابط اقترن مفهوم الإيمان بصفتي التواصي بالحق (الدعوة) والتحلي بالصبر؛ ومهما فقدت أحدهما فسيكون مآل الإنسان الفشل والخسران، وفي المقابل سعادته منوط بالإيمان والعمل الصالح الذي ينبع منه، ومن ثم الدعوة إلى الحق والصبر على ما يصيبهم في هذا السبيل، وهكذا آيات سورة العصر ناطقة بها حيث قال تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ٣﴾

(العصر: ١-٣).

ومن ثمرات الصبر وتحمل الأذى في سبيل الدين كذلك إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح والذي طلب الله بناءه من المؤمنين على إثر الإيمان، ومن هنا يقول البوطي: (ولو أراد الله لجعل طريق إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح

(١) صحيح البخاري، كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً، رقم الحديث: ٣٦٧٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٣٩.

(٣) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٩٣.

بعد الإيمان به لينا وسهلا، ولكن السير في هذا الطريق لا يدل وقتها على شيء من عبودية السالك لله تعالى وعلى أنه قد باع حياته وماله له يوم أن أعلن الإيمان به، وعلى أن جميع أهوائه خاضعة ومنقادة لما جاء به النبي ﷺ، ولأمكن حينئذ أن يلاقي على هذه الجادة المؤمن والمنافق وهكذا الصادق والكاذب، فلا يتمحص ويتميز واحد منهم عن الآخر^(١).

ومن ثمرات تحمل الأذى والصبر كذلك في جانب الدعوة أن ذلك تفتح مجالات الدعوة وتكون القاعدة الصلبة للدعاة، وتعليل ذلك أن العقبات التي تصيب الدعاة في طريقهم يجعلهم يفكرون في نقل الدعوة إلى بيئة أخرى أحيانا إلى غير التي بدؤوا منها والتي تعثرت فيها ولم يستجب لها الناس، وستكون ياذن الله البيئة الجديدة ملائمة لنشر الدعوة، وتكون مجالها أوسع وأرحب، وخير دليل على ذلك أن المسلمين استطاعوا في أعسر الأحوال توصيل دعوتهم بفضل هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة بعد ما كانوا في أضيق الأحوال في مكة المكرمة، وكان من نتائجه اسلام النجاشي رضي الله عنه^(٢).

وعن هذا يقول المفكر الإسلامي سيد قطب رحمه الله: "إن الابتلاءات والمحن تعلم وتدريب الدعاة كيف يسيرون بدعوتهم بين الصخور والأشواك، والذي يحدث غالبا أن كثير من الناس يقفون متفرجين على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات حتى إذا تضخم رصيد الآلام والتضحيات في مجموعة الدعوات وهم ثابتون على صفهم ماضون في سبيلهم قالت هذه الكثرة المتفرجة أو أحست أنه لا يمسك أصحاب الدعوة عن مهمتهم على الرغم من تحمل الآلام والتضحيات، إلا أن هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن، وعندئذ تتقدم هذه الكثرة لترى ما هو هذا العنصر الغالي الذي يرجح كل أعراض الحياة ويرجح الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة وعندئذ يدخل هؤلاء أفواجا في هذه العقيدة"^(٣).

وبالجملة فإن تحمل الأذى والمحن رغم مرارتها صفة يجب للدعاة التحلي بها، وهي سنة إلهية جرت على الدعوات منذ طلعتها في تاريخ الأنبياء والمرسلين حتى في عصورها المتأخرة. ومن ثمارها في الدعوة إلى جنب جزيل الأجر والمثوبة أنه سبب لتمحيص صفوف الدعاة، وكذلك تنبيه بالتمكين والنصر المرتقب كما أنه تفتح أفقا وأساليب جديدة رحة في ميدان الدعوة ما لم يحسبه الداعي.

٢- اشتراك ومساهمة المسلمين في عبء الدعوة الإسلامية: الدعوة الإسلامية أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة على عاتق المسلمين، وقد وكلوا من الله عزوجل مع نبينهم بحجة إسهامهم في مهمة الشهادة على الناس وإشهادهم عليهم، وذلك أن بعد بعثته ﷺ اكتمل نعمة الله وهديه على العالمين؛ وقد نالت الأمة بهذه السمة

(١) انظر: السابق نفسه، ص ٩٣.

(٢) انظر: الفالح، عبد الله بن سعد بن إبراهيم، الابتلاء وأثره في الدعوة في العهد النبوي (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤ هـ)، ص ١٥٨.

(٣) فائز، أحمد، طريق الدعوة في ظلال القرآن (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م)، ج ١، ص ٢٣٥.

فضيلة الخيرية والفضل على سائر الأمم، وصار تراث نبهم فياضا تنبع وتشع نورا على مدار الزمان، ولا يهلك إلا من يزيغ عنه، وتعد هؤلاء كلهم حجة الله على العالمين حيث سد تقولهم على الله، كما يقول تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

ونظرا لأهمية هذا الجانب ربى النبي ﷺ الطليعة الأولى من الصحابة بأن يكونوا دعاة للخير، سائرين في موكب نبهم، فقد كان كل هؤلاء شهداء النبوة على الأمم والملل، وظهرت براعتهم وإخلاصهم فيما يدعون إليه. ومن هذا المنطلق تعد مساهمة المسلمين ومشاركتهم في عبء الدعوة الإسلامية صفة أساسية لدعاة الحق حيث تثمر الدعوة بنتائج باهرة وتعود خيرها للعالمين بأسرها.

ففي أواخر السنة الثانية عشرة من البعثة على أثر بيعة العقبة الأولى بعث رسول الله ﷺ مع القوم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرءهم القرآن ويعملهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى مصعب بالمدينة المقريء، فكان منزله على أسعد بن زرارة^(١).

وهذه الواقعة كما يصرح بها فقهاء السيرة النبوية لدالة على مشروعية بعث الدعاة وارسالهم إلى الناس لتعليمهم ودعوتهم إلى الله عزوجل، وذلك أسوة بفعل النبي ﷺ حينما أرسل مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة المنورة لدعوة الناس وتعليمهم^(٢).

ونظرا لأهمية هذه البعثة الدعوية اكتسب مصعب بن عمير في بعض الكتابات مصطلح السفير، أو سفير الدعوة في الإسلام، وهو كان بحق أول سفير مرسل من الرسول ﷺ، وقد كانت مهمة هذه السفارة وغيرها من السفراء الذين أرسلهم النبي عليه الصلاة والسلام ومن بعده الخلفاء الراشدون إلى بيان ودعوة الإسلام وتعليم الدين للناس وهو المنهج المتبع في مجال العلاقات للأمة الإسلامية مع غيرها من الأمم.

وبعث مصعب بن عمير رضي الله عنه في تلك الفترة المبكرة دال كذلك على اشتراك ومساهمة المسلمين في عبء الدعوة الإسلامية، وذلك لأن هذه المهمة ليست منحصرة بالرسول الكريم ﷺ، فقد تخلفه الأمة وربى صحابته على تقديمها وذلك من خلال أساليب عديدة من المناقشات وإرسال البعث وتعليم الناس وغيرهم، وسوف أتحدث عن بعضه في فقه الأساليب إن شاء الله.

وعن مدى أهمية هذه الصفة يقول الدكتور البوطي رحمه الله في جواب سؤال طرحه حول بعث مصعب بن عمير حيث يقول: وما ذا عن أولئك الذين يدخلون في الإسلام وعن علاقتهم بعبء هذه الدعوة؟

(١) انظر: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (تاريخ الطبري)، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٢) انظر: الزيد، زيد عبد الكريم، فقه السيرة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٢٨هـ)، ص ٢٨٣.

فليست مهمة الدعوة الإسلامية منحصرة على الرسل والأنبياء وحدهم ولا على عاتق الخلفاء والعلماء الذين يعدون ورثة أولئك الدعاة؛ بل الحقيقة أن الدعوة جزء من حقيقة الإسلام الكامل نفسها، وبهذا فلا مناص للمسلم القيام بعينها مهما كان من شأنه أو إختصاصه أو عمله.

وحقيقة الدعوة هي القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو جماع معنى الجهاد كله في الإسلام، وهكذا الجهاد واجب من واجبات الإسلام تستقر تبعته على كل مسلم. ومن هنا فإنه لا معنى لمصطلح رجال الدين في المجتمع الإسلامي، حينما تطلق على طائفة معينة من المسلمين؛ وذلك أن كل من أعتنق الإسلام وبايع الله ورسوله على الجهاد، ذكرًا كان أم أنثى، عالماً أو أمياً، ومهما كان شأنه ومجاله فكلهم رجال هذا الدين، وقد أخذ الله منهم عهداً بأن يقدموا الأرواح والأموال في سبيله وأن لهم الجنة وعليهم إقامة دين الله ونصر شريعته^(١). وصفوة القول إن المسلمين كلهم مشتركون في مهمة الدعوة الإسلامية، وأن كل واحد بقدر فقهه وفهمه هو المسؤول عن تبليغ الدين والدعوة إليه، وبهذا كل أفراد الأمة تعد دعاة للهدى والخير والحق، وهذه المهمة ألقيت على عواتقهم منذ أول لحظة يعتنق ويؤمن بهذا الدين، فالكل رجال الدين وأهله، وأما المسائل الدقيقة وغيرها فذلك مسؤولية العلماء والداعين المختصين حيث يرجعون إليهم في دقائق الأمور.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٣٧.

الفصل الثاني

فقه الداعي في العصر المدني

تتميز المجتمع المدني في السيرة النبوية بتوسيع نطاق الدعوة الإسلامية ونضج موضوعاتها وتغير أساليبها ووسائلها وطرقها، وكل ذلك بطبيعة الحال يؤثر على شخصية الداعي ومجالاته؛ وعلى هذا فقد كان الداعي الأول ﷺ زيد على شخصيته ومهمته مجالات جديدة لم تكن معهودة في الفترة المكية، وقد اختار لدعوته أوصافاً من أدب الله عز وجل توائم هذه الفترة، وهكذا ربي أمته على التدريب والتخلق بها، وللأعلام الثلاثة الموقرين أضواء على هذا الفقه نبينها في المباحث الآتية:

المبحث الأول: فقه الداعي في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى مودودي

كانت الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة تغييراً في حياة المسلمين ومرحلة جديدة في الدعوة، حيث انتقل مركز الدعوة وقيادتها من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وتبدلت المدعوين المعاندين إلى مخلصين طائعين، ومن ثم التزمت على المدربين في حقول الدعوة ترشيد أفكارهم وتجديد شخصياتهم ومهامهم. وبالتالي فالحياة الجديدة مع سعتها اقتضت تكاليف زائدة ومهاماً جديدة إلى جنب التربية والتعليم. ومن ثم فقد نمت شخصياتهم وتزينوا بصفات وشمائل رزينة، وفيما يلي توضيح لكلا المطلبين عند المودودي رحمه الله.

المطلب الأول: جوانب شخصية الداعي المستفادة من هذه المرحلة

الشخصية هي الأساس والجذر التي تقوم عليها الداعي في مهمته، وهي كذلك الجوهر التي تحمل الصفات والشمائل، وهكذا كلما كانت شخصية الداعية قوية فإن ثمار حركته تكون وفيرة ويكون عمله مؤثراً بين المدعوين. والناظر في تاريخ الدعوة الإسلامية الحديثة ليلمس أن فشل وخيبة بعض تجارب الحركات الإسلامية نتجت عن أن المنتسبين لهذه المهمة في أغلب الأحيان لم يكونوا على أهب الاستعداد، كما كانت شخصياتهم منحصرة في جوانب عديدة، وكلما قدموا إلى مهام عالية أفسدوا على أنفسهم وغيرهم، وأصبحوا يفلتون الفرص. لقد كانت الفترة المدنية من الحياة النبوية الطاهرة تجربة ثرية للدعاة حيث أكسبوا جوانب الشخصية المتعددة، ومن أهمها الشخصية القيادية وغيرها، وسوف نركز على أهم جوانبها كالآتي:

١- الداعي المعلم: لقد كان الأنبياء والمرسلون بمثابة البعثة والسفارة الإلهية إلى البشرية وكانت مهمتهم إرشاد الناس وهدايتهم إلى الخير والصلاح حتى يفوز في الحياة الدنيوية والأخروية؛ وهذه المهمة بمجموعها منوطة بالعلم

والمعرفة؛ ومن هذا المنطلق فالأنبياء والمرسلون من جملة مهامهم الأساسية التعليم والتربية، وقد صرح بذلك القرآن الكريم في أكثر آياتها.

يقول الله تعالى في سورة الجمعة وهي مدنية النزول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

وعن هذا يقول المودودي: "هذه هي المرة الرابعة والتي يذكر الله فيه صفة نبيه، وهي في مجموعها تأكيد على المهمة التعليمية للرسول ﷺ، ففي الموضع الأول والثاني بيان للعرب الأميين حيث بعث الرسول ليعلّمهم وهي من تمام نعمة الله عليهم، وفي ذلك استجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اللذان دعوا الله ببعث نبي يعلمهم، وفي المرة الثالثة تنبيه للمنافقين وضعفة الإيمان أن بعث هذا النبي منة إلهية حيث قام بمهمة جليلة بالغة الأهمية وهم جهلاء لا يدركون هذه المنزلة، وأما في الأخيرة وبالضبط في سورة الجمعة ففيها رد لاذع على اليهود وإثبات للرسالة المحمدية وأنه يقوم بمهمة الأنبياء السابقين والتي منها تعليم الأمة وهم يدركون ذلك من خلال كتبهم المقدسة" (١).

وقد يستفاد من جملة هذه الآيات الكريمة أن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بعثوا لأهداف عديدة ومنها المهمة التعليمية، فقد أودع الله في البشرية أزلما في فطرتهم مزية اكتساب العلم، وأن الأنبياء جاءوا حتى يزيحوا عن مواهبهم العوائق التي يحول بينهم وبين العلم، وهم بعملهم يشحذون تلك المواهب حتى يعملوا بنشاط وتذكر الهداية والسعادة اللازمة ويعلم ما عليه من المسؤوليات والواجبات.

وقد ذهب المودودي: "أن هذه الآيات بمجموعها رد على من يدّعي أن مهمة الأنبياء والرسول ﷺ خاصة هو تبليغ الدعوة فحسب، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة: ٩٢)،

ولكنهم يجهلون الآيات الكريّات التي تنطق بالمهمة التعليمية للرسول عليه الصلاة والسلام؛ وأصل الكلام أن هذا الخطاب الذي يقول بمهمة التبليغ يكون موجها للرسول ﷺ حينما يكون الناس على الكفر ولم يقبلوا دعوة الإسلام، وأما بعد إيمانهم وللأمة الإسلامية فليس هو المبلغ فحسب، بل هو صاحب حكم وقضاء وقيادة ومقنن وفوق كله معلم ومربي الذي يجب اتباعه" (٢).

ونسبة التعليم إلى رسول الله ﷺ فكما يقول الإمام القرطبي فهو على حساب أنه صاحب مرجعية بين المسلمين، وكلما عرض عليه الأقضية فيكون نظره دستورا للناس، ومبنيًا على القاء الوحي الإلهي له (٣).

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ٢١٩-٢٢٢.

(٣) انظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، ج ٢، ص ١٣١.

وبناء على ما تقدم نرى أن الرسول ﷺ هو الداعي المعلم، وأخذ على عاتقه مهمة تعليم الأمة بعد إيمانهم واعتناقهم للإسلام، وجدير بالذكر أن هذا العلم والمعرفة مأخوذ من مصدر إلهي حيث لا يمكن للناس أن يحصلوها من تلقاء أنفسهم، وذلك نتيجة استعمال العقل ولا فحوص التجربة الحسية؛ بل كل ذلك مرتبطة بالوحي الإلهي، ولا يمكن اكتسابه وتحصيله إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين؛ وهم بذلك أمناء الله على وحيه ودينه.

ولو فرضنا أنها كانت متاحة للناس جميعا لما كانت حاجة إلى ارسال الرسل على مر الزمان حيث اختتم بالرسالة الخاتمة ﷺ؛ ونتيجة لذلك فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يخصصون من أوقاتهم وحياتهم لمجلس الرسول الأعظم ﷺ، وكانوا يتعلمون أمور الدين المرتبطة بالدنيا والآخرة، وهكذا كلما يعيهم المشاكل أو تحدث قضية يلجأون إليه، فتارة يجيبهم على الفور أو ينتظرون جواب الوحي الإلهي.

والناظر في سيرة الرسول ﷺ ليرى أن هذه المهمة دعت الحاجة إليها في الفترة المدنية أكثر من المرحلة المكية بناء لكثرة الأمة الإجابة، وهكذا كان المسلمون يزدادون يوما بعد يوم، أما المرحلة المكية فقد كان التركيز على الدعوة والبلاغ، وسوف نجد نماذج واضحة نقف على واحد منها:

ذكر أصحاب السير أن الرسول ﷺ بعد تحويل القبلة في المدينة المنورة بنى الجهة القبليّة للمسجد النبوي الشريف ببناء الصفة، وكانت عليها عريش لظل أولئك العاكفين القادمين من المسلمين من أنحاء الجزيرة العربية وذلك لتعليم الدين والدعوة الإلهية، وهم بالفعل أوقفوا حياتهم لخدمة الدين الحنيف، وكانوا مرتجلين لهذه المهمة الشريفة، فقد تركوا ديارهم وأهلهم وجاءوا لحصول شرف الصحبة من الرسول ﷺ والأخذ من الفيض الرباني، آخذين منه العلم ومن ثم كانوا يعلمون غيرهم بعد أخذه منه... ولما كان أولئك غرباء من ديارهم وأسرهم، كما كانت جل وقتهم في العلم والعبادة، كان النبي ﷺ يبحث أثرياء المسلمين بالإنفاق عليهم، وقد نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٧٣) (١).

وعلى هذا لم تكن الصفة مجرد سكن أو مأوى لأولئك الغرباء عن الديار فحسب، بل كانت مدرسة ودارا للتربية، وقد نقل أكثر الدين منهم، فقد كانت دارا ومركزا للدعوة، روى الإمام مسلم عن عقبة بن عامر قال: (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يقرأ

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٧٢.

آتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ (مِنْ الْإِبِلِ) ^(١).

"وأما عن قول الرسول ﷺ لأولئك بهذه المهمة فдал على عظمة حكمة النبي ﷺ ومدى اجتذاب أصحابه البررة، فقد أراد أن يزيل عن فكر أولئك غربة الديار والأهل والأموال، وكذلك أن يبعد وساوس الشيطان التي تعتري للبشرية أكثر الأوقات، وكما أراد أن يزرع في قلوبهم محبة الدين والعلم وابتغاء الأجر والمثوبة من الله عز وجل" ^(٢). وبالجملة فالرسول ﷺ هو المعلم الداعي يعلم الناس من وحي الله ما يهتمهم في دنياهم وأخراهم، وهذا العلم منوط بإرسال وبعثة الأنبياء والمرسلين الذين هم أمناء الله على دينه، ولولاه لاستحال حصول هذا العلم الإلهي، ولما اكتسبوا ذاك الهدى، وقد حث الرسول الأعظم ﷺ الأمة من الاغتراف منه، وأنه خير لهم عن كل ما يعرفونهم من متاع الدنيا وزينتها.

٢- الداعي المربي: لقد كان الأنبياء والرسل هم أمناء الله على وحيه ودينه، وأوكل إليهم تبليغ الدين وإيصال رسالة الله، وبعد أن اعتنقت البشرية ذلك الهدى وخطت أشواطاً فيه، يعلمهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم وينبهم على المسؤوليات والواجبات، ولكن البشرية طبقاً للفطرة الطاغية تنحى نحو الوسواس والهفوات الشيطانية فتغفل عن فرائضها وتنسى ما عليها... وهنا يحتاجون إلى تربية وتركيز حتى يفقهوا ويدركوا مقصودهم؛ ولذلك اقترن التربية والتزكية بعد مهمة التعليم، وعلى ذلك فالرسول ﷺ هو الداعي المعلم والمربي على السواء، وقد قال الله حاكياً عن إبراهيم عليه السلام بالدعاء: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّ الْحَكِيمِ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

ومن هنا يقول المودودي رحمه الله: "إن المراد بالتزكية تطهير حياة المسلمين في نواحي الحياة جميعاً من الأفكار والخلق والعادات والإجتماع والحضارة والسياسة وما إلى ذلك" ^(٣).

والمراد بأن النبي هو المربي فكما يقول الباحثون: فإن المربي هو الإنسان الذي يقوم عن عمد برعاية وكفالة فرد لينمو بين يديه في حياة ناجحة، وهكذا الأب والأم يقومان بهذه المهمة نحو صغارهما؛ فهما مربيان بكل معنى الكلمة والأبعاد.

ويطلق مفهوم المربي كذلك على من يرعى جماعة بشرية كبيرة فيقوم بتوجيهها لتضمين الحياة النامية، وكلما كان المجتمع كبيراً كان المربي أكبر جهداً وأعظم قدراً وأبقى أثراً. وعلى هذا فالرسول ﷺ هو المربي العظيم للأمة الإسلامية وبقى حتى بعد وفاته للذين يسرون على نهجه وتتأثر بقوله وعمله وإرشاده في السلوك والفكر والعاطفة.

(١) صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، رقم الحديث: ٨٠٣.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، فضائل قرآن، جمع وتدوين: حفيظ الرحمن أحسن (لاهور، البدر پبلي كيشنر، ط ١، ١٩٩٩م)، ص ٢٠.

(٣) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ١، ص ١٤٠.

بل فوق كل ذلك إن المربي الأول للإنسانية إنما هو الله تبارك وتعالى حيث وصف نفسه برب العالمين، ومن ثم فالأنبياء أفراد اختارهم الله ليقوموا بوحى منه بعملية الإرشاد والتربية الفردية والجماعية لأمتهم^(١).

ويستفاد من هذه الفقرة أن الأنبياء والرسل هم المربين الحقيقيين جاءوا ليصلحوا للبشرية ما فاتهم من الصلاح وما غفلوا عنها، وبالتالي هم المتكافلون لرعاية الإنسانية ولشخصيتهم المعنوية، ويطلبون الكمال المطلوب والتي تأتي تدريجيا على أساس التدريب والممارسة والتوجيه المستمر.

وقد كان ﷺ هو المربي الكامل لهذه الطليعة المباركة فرباهم على تربية نبوية والتي أخذها من أدب الله عز وجل له، وهكذا انتجت نعم الجماعة ونعم المربي، والمطلع على السيرة النبوية ﷺ ليلمس مدى هذا الجانب بوضاحة وخاصة في المرحلة المدنية حيث شكلت مجتمعا سليما قوامها التعليم الإلهي والتربية النبوية، وسوف أعرض نموذجا عمليا منها كالآتي:

لقد ذكر المفسرون وأصحاب السنن والسير أن المسلمين بعد انتصارهم على مشركي قريش في غزوة بدر تنازعوا فيما بينهم على الأنفال والغنائم، فالفریق الذین جمعوهم قالوا: نحن حویناهم وجمعناهم، فليس لأحد فیها نصیب، وقال الذین خرجوا فی طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفینا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذین حموا رسول الله والتفوا حوله: نحن أهدقنا برسول الله وخفنا أن یصیب العدو منه غرة واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١)^(٢). إن هذه الواقعة لیبان عن مدى الخلاف بین المسلمین على الأموال والغنائم والتي اكتسبوها على إثر الحرب بینهم و بین المشركین، وفيها دلیل على أن نفوسهم تتطلع إلى الدنيا مع وجود رسول الله ﷺ بینهم، وحثم لللیل من ثواب الآخرة والنزوح عن المیول والطمع والحرص المسقطة للإنسانية، وهذا یعنی أن أوثار الجاهلیة مازالت فیهم وبحاجة إلى تربية وتركیة.

وعن هذا یقول المودودي رحمه الله: لقد كانت غنائم بدر هی الصفقة المالیة الأولى من نوعها یکسبها المسلمون بعد إسلامهم، ولم یکن عندهم ضوابط وقواعد تحکم فیهم، وكانت ثقافة الحرب الموروثة من الجاهلیة قائمة بینهم، حیث کان یتطلعون إلى الحروب بفکر حیازة الغنائم، وأن الحروب بدونها لاتعنی بشيء، وعلى هذا ظهرت فی سلوكهم هذا الأمر بطبیعة الحال، وبدر منهم ما بینا حتی أنزل الله آیه على لسان نبیه تربی حالتهم وتركیهم من الجاهلیة الموروثة.

ومن لطائف هذه الآية الکریمة أنها استعملت لفظة الأنفال بدل الغنائم، وتحمل فی طياتها نوعا من الحکم؛ فالأنفال جمع كلمة نفل، وتعنی فی اللغة الزیادة على الواجب، وهذا وإن كانت من قبل التابع والخاضع ویعنی أن المكلف

(١) انظر: الهاشمي، عبد الحميد، النبي العربي المربي (الرياض: دار الهدى للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٧هـ)، ص ٥٣.

(٢) انظر: مسند أحمد، تمة مسند الأنصار، رقم الحديث: ٢٢٧٦٢. (المسند بتحقيق شعيب الأرنؤوط)، وقال: حسن لغيره.

يقوم بأمر تطوعي وارتجالي تجاه سيده، وأما إن كانت من جهة المتبوع فمعناه أن ذلك عطية وجائزة تمنحها السيد لعبيده على وفق رضاه كمنة وإحسان له وهو صاحب إختيار في كميته وكيفيته، والأمر موكول له.

ونزول هذا الحكم درس عظيم في مجال الحرب، فالمسلمون لا يقومون بالحرب لأجل المغنم المادي، وأن مقصد هذه الفريضة النيل من رضا الله عزوجل، وما عليهم إلا أن يؤدوها على طبق الأخلاق والثقافة الحضارية للإسلام وأن يكون مسبقا عليها الدعوة والتبليغ للقوة المعاندة للإسلام^(١).

ويقول المودودي كذلك: "إن حيازة الغنائم فطرة إنسانية وغريزة جبلت عليها أنفس الإنسان منذ القرون، ولم يكن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين الجيل الذي أثروا الحياة الأخروية وما عند الله على متاع الدنيا ببعيدين عنها، وقد جاء الإسلام بأسلوب تربوي راقى تنظم فطرتهم، فلم تحارب تلك النزعة بل ربتهم ونظمها بأسلوب تقلل من شأنها في نفوسهم مع بيان أنها جائزة عليهم ولكن أوضح لهم أن هدف الحرب ليست الحصول على الغنيمة، وأن ما يخرج لأجلها فلن يحصل أجر الجهاد في سبيل الله"^(٢).

وعلى هذا فقد كان الصحابة بعد نزول الحكم لم يكن على درجة حب المغنم كما كان، وقد وضع لهم الرسول ﷺ على أن الغنائم إن لم تنظم على وفق الدستور الإلهي فسيكون مآله العذاب والنار، وقد أينعت ثمرة هذه التربية فيهم؛ فقد روى الإمام أحمد من حديث طويل عن عمرو بن شعيب عن جده قول النبي ﷺ يوم مغنم حنين قائلا: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَيْسَ لِي مِنْ هَذَا الْفَيْءِ هَوْلَاءُ هَذِهِ، إِلَّا الْخُمْسُ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَرُدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَارًا وَنَارًا وَشَنَارًا، فَقَامَ رَجُلٌ مَعَهُ كُبَّةٌ مِنْ شَعَرٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَذْتُ هَذِهِ أَصْلَحَ بِهَا بَرْدَعَةٌ بَعِيرٍ لِي دَبَرٍ، قَالَ: أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِئَنِّي عَبْدُ الْمُطَّلَبِ، فَهُوَ لَكَ " فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّا إِذْ بَلَغْتَ مَا أَرَى فَلَا أَرَبَ لِي بِهَا، وَبَدَّهَا)^(٣).

وفي الجواب عن قضية الغنائم كذلك توجيه وحكمة ربانية وهي أن الأحكام الشرعية وتعاليمها ينبغي أن تهيأ له الجو الروحي والنفسي المناسب لتحتل مكانها الأنسب في الضمير والعقل حتى تثبت وتؤتى بأطيب النتائج، وهكذا صرف الله عباده المؤمنين بادي الأمر عن التعلق بالغير وبالغنائم ثانيا ليكونوا مخلصين جديرين بالنصر، وهكذا لما تفرغوا للخالق وأخلصوا في الجهاد أكرمهم الهل بالنصر^(٤).

وختاما فالرسول ﷺ هو الداعي المربي، وقد كانت دعوته تزكية لتطهير المسلمين في المجالات المختلفة، وكان يسعى أن تظهر تعاليم الإسلام على أنصع وجه ويدخل الناس في الدين طوعا ومختارين على روح من الحب؛ ومن

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٧٢.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، الجهاد في الإسلام، ص ٢٦٣.

(٣) مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، رقم الحديث: ٦٧٢٩. (المسند بتحقيق شعيب الأرنؤوط)، وقال: حديث حسن.

(٤) فوزي، محمد فيض الله، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، (دمشق: الدار الشامية، ط ١، ١٤١٦هـ)، ص ٦١.

هنا فقد يجب على الدعاة أن يكونوا مربين في مهمتهم ويكون هدفهم إصلاح مدعويهم على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة.

٣- الداعي القائد والأمير: إن من أسمى مقاصد الدعوة الإسلامية وأقصاه سعي دعاة الحق هو إعلاء كلمة الله وإقامة مجتمع وحكومة يقودهما الداعي فينفذ ما دعا إليه مدعويهم، وذلك حتى يكون دعوته حيز التنفيذ ونموذجا لما دعا إليه، فيرى الناس فيه الخير والحق والعدالة، وأما إذا لم يسعوا لذلك فسيكون كل أمورهم ودعوتهم أقوالا وكلمات خارجة من الأفواه لا طائل ورائه؛ وقد كان أنبياء بني إسرائيل بمجموعهم أرباب السياسة والحكم، وقادوا في أغلب الأحوال أممهم ونفذوا أوامر الله، وهكذا فإظهار وبيان الدعوة تقتضي في أكثر مجالاتها وجود مجتمع وحكومة سليمة يقودها أولئك الدعاة لإجراء شعائر وطقوس، وقد يرتبط بشخصية الأمير وقائده، وبناء على ذلك فقد كان ﷺ هو القائد والأمير الذي يقتدي في فعاله، وكانت المرحلة المدنية تمثيلا عمليا لهذه المهمة، فقد أسس منذ قدومه بدولة مدنية وطبق شرع الله من خلالها وبلغ رسالته فيها.

وعن هذا يقول السيد مودودي عن مهام الرسول ﷺ: إنه كان إلى جنب غيرها من المهام كان قائدا وأميرا للمسلمين مختارا من الله عز وجل، وكان أمارته ملحقة بنبوته ورسالته... ولكن الله تعالى مع ذلك أمره بالتشاور مع المسلمين، وهذا العمل مظهر لأصول دولة جمهورية تهتم برأي الناس ومشورتهم، وفيه تدريب وممارسة للذين يأتون بعده من الدعاة إلى هذه المنصة وإن كان هو في غني عن ذلك بحجة قوله تعالى حيث يأمر المؤمنين: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٩)، وقيادة الرسول ﷺ يمتاز عن قيادة غيرهم، وفيها رد على من يرون أن أمارته كانت محدودة إلى زمن حياته ﷺ، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢٠)، وهؤلاء في الحقيقة يغفلون عن خطاب الله للمؤمنين في بداية نفس السورة حيث يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١)، وبناء على هذا الدستور الإلهي فإمارة الرسول ﷺ يستمر حتى بعد وفاته، وأن من يخالفه فله عذاب مهين^(١).

ومن هنا فالأوامر التي صدرها النبي ﷺ للمؤمنين في مواقع مختلفة من حياتهم لم تكن منحصرة بتلك الوقائع بل امتدت إلى عصرنا هذا، وسيكون باقية إلى يوم القيامة؛ فعلى سبيل المثال الضوابط والوصايا التي أمرها النبي ﷺ حين الحرب أو بإرسال طليعة منهم لم تكن منحصرة على أولئك بل هي دستور محكم للمسلمين، وقد نتج عن هذه قاعدة أصولية مشهورة بين الفقهاء حيث يقولون: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد مارس النبي ﷺ حين مقدمه إلى المدينة المنورة السياسة وكان أميرا للمجتمع المدني المتشكل من المسلمين واليهود على السواء بلا منازع، ولم تكن تلك القيادة والأمرة بمعنى النبوة والرسالة، بل كانت اقتضاء لشخصيته،

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٢٤٤.

وإن كانت للنبوة دور متميز في هذه القيادة ومجالاتها حيث جمعت في شخصيته السلطات الثلاثة من التقنين والحكم والتنفيذ، وبعد وفاته ﷺ انتقلت هذه المهام للخلفاء إلا التقنين، فإن مرده إلى الله والرسول؛ ولو كانت هذه الأمور منحصرة بشخصيته لما كان قابلة للتناقل.

وجملة ما قلنا من الأمور واضحة في أول دستور إسلامي، والمتتبع في حياة المسلمين آنذاك، وكما كانت نافذة أيضا على اليهود المستوطنين في المدينة، وقد جاءت في إحدى بنودها الأخيرة: "وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول ﷺ وأن الله على أتقى ما في الصحيفة وأبره"^(١).

وهذه المادة كما هي واضحة تتأكد على السلطة الدينية المسيطرة على المدينة، وتفصل في الخلافات منعا لقيام اضطرابات في داخلها، وفي الوقت نفسه تأكيداً على رئاسة الرسول ﷺ على الدولة، وحددت مصدر السلطات الثلاثة التشريعية، والقضائية والتنفيذية.

وقد أصبح النبي ﷺ رئيس الدولة، وفي الوقت نفسه كان جامعاً لهذه السلطات الثلاثة القضائية والتنفيذية والتشريعية، فقد تولى النبي ﷺ هذه السلطات بصفة كونه الرسول المكلف بتبليغ شرع الله، والمفسر لكلامه جلا وعلا، وأما السلطة التنفيذية فكان بصفته الرسول الحاكم، ورئيس الدولة قد تولى رئاستها على وفق نصوص الصحيفة المتفقة عليها من قبل الطوائف الموجودة المختلفة في المدينة، وممن شملهم نصوص هذه الصحيفة^(٢).

وأهم ميزة هذه القيادة أنها كانت دعوة تطبيقية، ولم تكن مجرد تخيل فلسفي في عالم المثل، بل كان أمراً واقعياً يشار إليه بالبنان، وكانت تلك القيادة بعيدة عن إشباع الغريزة وحكر السلطة كما هو المعروف في المجتمعات الإنسانية، وكانت في كل أحوالها دعوة وجهادا وتطبيقا للإسلام وحضارة القرآن، وقد صورها الإمام المودودي في أروع صورها فيقول: "لقد قامت الدولة النبوية بعد ثلاث عشر سنة من الجهد المتواصل وكانت جل جنودها وعاملها تصل إلى قرابة ثلاث مائة شخص، ولكنهم كانوا يانعين متفنين تربوا في المدرسة النبوية تحت قيادته ﷺ، وكانوا على أهب المواهب في الأمور وهكذا رويدا رويدا أصبحوا مهرة في قيادة المجالات المختلفة من الدولة.

وقد تطورت هذه القيادة من فكرة تخيلية Abstract Idea إلى نظام حضاري راقى ملموس فيها النظام والتربية والعدالة، والقيم الاجتماعية والتفنن في كسب الأموال والدفاع والعلاقات الدولية... وهذه القيادة استطاعت أن تتبدل في غضون ثمان سنوات فقط من دولة صغيرة محلية إلى سلطنة عربية عملاقة تحكم الجزيرة العربية، ومن ثم كان العالم تشهد ثمارها الياقة ويحسبون لها الاسم الثاني للإنسانية. وقد اعترف بفضلها ألد وأشد أعدائه، فهكذا صار خالد بن وليد من أشجع قوادها، وعكرمة بن أبي جهل و وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب و أبوسفیان و هند بنت

(١) حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٦٢.

(٢) انظر: الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية- عرض وقائع وتحليل أحداث، ص ٣٦١.

رببعة من أشهر جنوده، ومولعين بها يستغفرون الله عما بدر منهم في الأيام الماضية وتعمل لتدرك ما فاتهم من الخير والفضل^(١).

وفصل القول أن الرسول ﷺ احتوت شخصيته الداعية القيادة والأمانة، وكانت خادمة لتحقيق الأهداف الدعوية، وبها استطاع أن ترفع رؤية الدعوة وتعلي بها كلمة الله، كما أسس من خلالها دولة قوامها الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر وأصبحت في أقل الزمن حضارة إنسانية تباهى بها الإنسانية.

٤- الداعي الأسوة: لقد جبلت الفطرة الإنسانية على أن يتبعوا ويقلدوا من هو أعظم منهم منزلة ومقاما، وأن يحاكيوا عنهم في حياتهم وأقوالهم وفعالهم ويتأسوا بطريقتهم، وذلك على سبيل الإعجاب والحب تجاههم وحب العظمة التي احتوتهم أولئك الرجال، وقد يستمر الإعجاب بهم أحيانا حتى بعد مماتهم ويصل أحيانا إلى مرحلة الغلو فيفسدون على أنفسهم تلك النزعة.

ونظرا لأهمية هذه الجبل أرسل الله رسلهم مبشرين ومنذرين وجعل شخصيتهم عظيمة حتى يتأسى بهم في أقوالهم وأفعالهم ويتأسوا في حياتهم وبعد مماتهم ويمارسوا طريقتهم ويفوز بسعادة الدارين. وقد كان ﷺ هو المثل الأعلى في الأسوة الحسنة للسائرين إلى الله ومن يطلب حسن الآخرة، وبها أمر عباده أن يتأسوا به وقد كانت الطليعة الأولى متحلين بأخلاق الرسول وسنته وصاروا كأنهم صورة لنبيهم في القول والعمل.

وعن هذا يقول المودودي: وحكمة جعله ﷺ أسوة حسنة للناس حتى يرى الناس التطبيق العملي للقرآن المنزل ويفهموا من خلال أقواله وأفعاله مقصد الدين، وكيف يمارسوا الحياة، وماذا عليهم أن يفعلوا وكيف يستعملوا القوة الموهوبة من الله عز وجل، وعن هذا يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٢١).

وفي هذا رد على من يرى أن حياته ﷺ داخل بيته وخارجته مع أصحابه لا تعد وحيا ولا ديناً ولا يعد رداً على الكفار، ولكن حقيقة الأمر أن جل حياته ﷺ وما يفعله من الأفعال والأعمال تعد جزءاً من نبوته، فهو بعيد عن الضلالة والغواية وهوى النفس، وهكذا نجد فيه آثار تلك الفطرة السليمة التي وهبها الله له، وأن ما يعمل به يقع في حدود التقوى، ونتيجة الأمر تعد هو الأسوة العملية الحسنة للمؤمنين. وهنا فشخصيته الشريفة بدل أن يأمرنا وينهاينا عن الأمور الدالة على ما هو الحلال والحرم؟ وماذا يجب على المؤمن فعله وتركه؟ وبأي أمر يتحصل رضا الله عز وجل وفي أية أعمال يعطى للإنسان الاختيار؟ وما مدى حرية الإنسان في اجتهاد الأمور والالتزام بها^(٢).

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٤٥٥.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٣.

ويتضح مما سبق أن النبي ﷺ هو الداعي الأسوة، وحياته للمسلمين واجب الاتباع وفي شخصيته وأعماله مظهر لمقاصد الدين، وهو نوع أمثل من الشريعة بدل أن ينطق به، وذلك لأنه يأتي على دافع من الحب والولوع تجاه الداعي؛ وقد حث الله المؤمنين أن يتأسوا برسوله لأن في طريقته النجاة في الدنيا والكسب من الآخرة.

وتأسي النبي ﷺ ليس مطلباً تفضلياً وتنفعلاً زائداً في أحكام الدين بل هو مطلب أساسي أمر الله به المؤمنين، وعنه يقول المودودي: لقد ذكر الله عز وجل مطلب التأسي في عديد من آياته، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) (آل عمران: ٣١-٣٢)، وهكذا في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب: ٢١).

ففي كلا الآيتين اختار الله رسوله ﷺ إماماً للناس وأوجب على الناس والمؤمنين اتباعه ثم جعل حياته أسوة للاتباع، وأوضح في الجزء الأخير من آيته بصراحة أن من يتجنب عن هذا الأمر ويتركها فلا يرجي مني الخير والجزاء، وهكذا ربطت حصول محبة الله عز وجل التي هي من تمام الإيمان باتباع رسوله ﷺ، وأن من يتخطى عن هذه الحدود فإنه يرتكب كفراً. وعلى هذا فإن عبارة القرآن بهذا الصدد ترد بصراحة على الجماعة الموسومة بالقرآنيين^(١) والذين يحصرون الاتباع بالقرآن فحسب، وهم لا يرون في نفس القرآن دستور الله عز وجل باتباع نبيه مباشرة حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾، ولم يقل الله فاتبعوا القرآن، وهي بالجملة أن رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة في حياته للمسلمين^(٢).

وقد كانت الفترة المدنية من حياته ﷺ مرحلة ثرية حيث تيسر للمؤمنين أن يتعايشوا مع حياته الشريفة ويلمسوا في كل الأوقات التأسي بدافع من الحب والحرية التامة. فقد ذكر الإمام البخاري في كتاب الشروط قصة صلح الحديبية، أنه ﷺ بعد الفراغ من قضية الصلح قال لأصحابه: (قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتَجِبُ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تَكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَانْحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا)^(٣).

(١) القرآنيون: طائفة منتسبة إلى الإسلام، يزعمون أنهم أهل القرآن، ويرون أن القرآن هو مصدرهم الوحيد للإيمان والتشريع في الإسلام، وأن السنة لا يحتج بها؛ لأنها إنما كتبت بعد النبي ﷺ بمدة طويلة. وهذه الفكرة ظهرت في الهند في فترة الاحتلال الإنجليزي ومن ثم في مصر، وقد تنبأه في المدعو أحمد صبحي منصور، والذي كانت بداية عمله التدريس بالأزهر. انظر: المودودي، السنة ومكانتها التشريعية، ص ٧٠. وكذلك الموسوعة الحرة.

(٢) انظر: مودودي، السنة ومكانتها التشريعية (سنت كي ايبي حيثيت)، (لاهور، اسلامك بيلي كيشنر، ط ٣٢، ١٩٩٩م)، ص ٧٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم الحديث: ٢٧٣١.

وعن هذا يقول الباحثون: إن هذه الواقعة لدرس هام للدعاة يجب أن يأخذوها كنصب العين، وقاعدة في دعوتهم وذلك لأهمية القدوة والتأسي العملي، فالرسول ﷺ حينما دعا الناس إلى الأمر ثلاث مرات وفيهم أولئك الصحابة الذين أثروا حبه على أنفسهم، ومع ذلك لم يجب أحدا لدعوته، وقد كان أغلب الظن أن فهمهم السطحي للمعاهدة في أمر الصلح أذهلهم ولم يفهموا ما وراءها من الفوائد ما كان يدركها النبي ﷺ، ولذلك لم يسمعوا ولا ينتظر من الكلام فائدة، ولهذا أشارت أم المؤمنين أم سلمة بموقف أجدى وأنفع وهو الفعل نفسه من قبل الرسول ﷺ بدل الأمر فجاءت ثمارها والمطلوب، وهذا هو الموقع الأول والآخر في حياته ﷺ أن أمره يتأجل^(١).

ومن هنا فالأسوة والقدوة العملية هي الوسيلة الناجحة في الدعوة، وقد يجب على الدعاة الأخذ بها قدوة وتيمنا بالداعي الأسوة ﷺ وذلك لأنه مطلب شرعي أمر الله به، وتثمر في أغلب الأحوال بثمار يانعة وتدخر ذلك الجهد الذي يحتاج إليه في مواقع أخرى، وكذلك هي أوقع في النفس وخاصة على أولئك الذين ينفرون طابعهم من الأوامر والنواهي.

المطلب الثاني: صفات الداعي المستفادة من هذه المرحلة

لقد كان الرسول ﷺ صاحب أخلاق وشمائل جمّة، وكانت رسالتها في كل أطوارها حافلة بالصفات العظيمة حيث جعل منها منطلقا في دعوته، وكانت شخصيته كطبيب نفسي يأتي المرضى على الوجه الذي يداويهم ويقدم لهم الشفاء، وهذه الصفات بالنسبة للداعي كالدواء المعين للمرضى أو الزاد المخصص للمسيرة المعينة، وكان دوما يحث أصحابه أن يتحلى بها، ومن هنا فالمرحلة المدنية كانت حافلة بهذه الصفات الدعوية وسنقف على أهم منها في فقه السيرة عند المودودي كالآتي:

١- حيازة مؤهلات القيادة: الرسول ﷺ هو الداعي القائد، وكان يؤم المسلمين في أمور دينهم ودنياهم، وكانت قيادته حكيمة تطمئن إليه النفس، وتخضع له من يؤمن له طوعية دون إكراه، وهكذا فقد كان أتباعه يحبونه ويؤثرونهم على أنفسهم، وليس ذلك عن منطلق الإيمان والعقيدة فحسب ولا بالولوع والمحبة العمياء كما تفعله أصحاب الديانات الأخرى دون أن يعوا ما يفعلون، وذلك نتيجة للغلو الحاكمة على أفكارهم وعقولهم... بل ارتبطت هذا الخضوع لقيادة ذات مؤهلات والتي قامت عليه أمارته.

وقد حظيت هذه القيادة بمؤهلات وصفات عالية وقف عليه الإمام المودودي رحمه الله وسنذكر أهم منها: مما لا شك فيه أن بداية هذه الرسالة وما لها من المقاصد العظيمة حدث عظيم في التاريخ الإنساني، ولكن ما أضاف إليه هذا الداعي القائد لتعد معجزة لا ترى لها مثيل في التاريخ الإنساني، وقد أبرمت كل هذا بعد توفيق الله بفضل أوصاف وشمائل عالية التي اتخذها هذا الرسول في دعوته وهي عبارة عن: الإيثار والتضحية المالية، العزم القاطع، الشجاعة الفائقة، الشخصية العظيمة، تطابق القول والعمل والدعوة العارية من النزعات العصبية.

(١) انظر: وكيل، محمد السيد، تأملات في سيرة الرسول ﷺ، (جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م)، ص ٢١١.

ألف- التضحية المالية: إن أول وصف هذه القيادة العملاقة في كلا المرحلتين هي التضحية المالية، فقد كان ﷺ قبل نبوته تاجرا بارعا وذلك بمشاركة مال خديجة بنت خويلد المرأة الثرية في مكة المكرمة، وأضاف هو معها حسن التدبير فصار في أقل وقت صاحب مال و ثراء وخاصة بعد زواجه بها، ولكنه ترك تلك التجارة بعد بعثته ﷺ، وبذل كل ذلك المال في خدمة الدعوة والإنفاق في سبيل الله، واستمرت هذه الخصلة بعد هجرته ﷺ، فكان في كل الأحوال متنجيا عن حب المال والتعلق به؛ حتى أن ألد أعدائه يعترف بهذه الخصلة، وأنه لا يطلب في دعوته أدنى وأبخر ثمن منه؛ فصارت قيادته نموذجا للحب والإخلاص.

ب- العزم والإرادة القوية: الخصلة الرئيسة الثانية للقيادة المثالية هي الإرادة القوية كالجبال الراسخة تجاه تلك العوائق التي أحدثها أولئك الكفرة، وبات كل التحديات التي عرضوها في دعوته من الظلم، والإغراء، والإفتراء والتهم وغيرها باءت بالفش وأصبحوا كل واحد منهم يعترف بعزمته؛ وعلى هذا لا يمكن أن يتحصل ذلك إلا من أصحاب أولي العزيمة صاحب الإيمان القوي البعيد عن الأغراض الدنيوية والمؤمن برسالته.

ج- الشجاعة الفائقة: الصفة الثالثة للقيادة المثالية هي الشجاعة الفائقة في كل الأحوال؛ فقد كان ﷺ شجاعا لم يهب من أي طاقة بشرية مهما تفوق قوتها ولم يخف من الأخطار المحيطة به، بل كان مثالا للشجاعة والبسالة، وواجه كل الأخطار بعزيمة راسخة؛ وهذه الشجاعة في القيادة يربي الأتباع الشجعانين ويعودهم على اقتحام الصعوبات حتى تصل الدعوة مقصودها^(١).

وبناء على ما تقدم فالشجاعة والإرادة القوية هما الصفتان الأساسيتان والتي تقوم عليها القيادة البشرية، وأنه من يتمسك بزمام الأمور فعليه التحلي بهما؛ وعلى هذا فالشجاعة والإرادة ليستا صفتان تخصان بالحروب والمعارك فحسب، بل مسaire كل الأمور بحاجة إليهما ولا سيما أمر الدعوة حيث أن كل صفحة منها مرتبطة بالهفوات والمكاره. وينبغي أن نبين كذلك أن الشجاعة التي يتأكد عليها في القيادة لا يعني التهور واقتحام المخاطر بغض النظر عن خطورتها بل معناها أن ينظر الإنسان للأسباب المتاحة ويقدم بعدها بالتوكل ويؤول النتيجة إلى الله.

والشجاعة والعزم كما مر بنا تربى الأفراد والأتباع وبها يولد فيهم الحماسة والطموح للنيل من المعالي؛ وقد كان النبي ﷺ دوما في الحروب يحتل المقدمة والخط الأمامي للمعركة؛ فقد أخرج القاضي عياض قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه أشجع الصحابة حين المعركة وهو يقول: "إِنَّا كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ، وَأَحْمَرَّتِ الْحَدَقُ، اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ. وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا"^(٢).

د- الشخصية المرموقة العالية: هذه الخصلة من أهم مؤهلات القيادة حيث تبعث في الإنسان الصبر والثبات، وضبط النفس ويجعله مطمئنا لايبالي بما يقال عنه، فالنبي ﷺ تحمل كل أنواع الأذى والشتائم وبذي الكلام من مخالفه،

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ٧٥٥-٧٥٧.

(٢) عياض، بن موسى بن، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، ج ١، ص ٢٣٧.

ولم يرد تجاه أولئك بأدنى كلام بل دفع أذاهم بالقول الجميل والدفع الحسن، وبالتالي لا يوجد في سيرته أدنى إشارة تعكر صفو خلقه وثقافته، وكان عالي الحشمة والهيبة؛ وهكذا انهزم أعدائه قبل المعركة بخلق شخصيته، ففي مكة بعد مغادرتها تسلم ودائع أهلها لعلي بن أبي طالب ولأولئك الذين اجتمعوا وتألّبوا لقتله^(١).

والدرس المستفاد من هذا أن الشخصية المرموقة للقائد لها أكبر تأثير على الأتباع من الساعات الطويلة للوعظ والنصح، وبالتالي هم يرون في شخصيته هدياً ونوراً، ويقلدهم تلقائياً دون أن يأمرهم، وهكذا يتبدل ذلك إلى سجية راسخة في النفس ويصلحون ويرشدون.

هـ- تطابق القول بالعمل: هذه هي السمة الأساسية للقيادة وتحزوا من الأهمية في حياة القواد ودعوتهم، فيجب عليهم أن يكون بين قول الداعي وعمله تطابقاً تاماً، فما يقوله يطبقه في حياته أولاً، وميزة هذه الخصلة أنها تجسم الدعوة القولية عملياً في شخصية الداعي فيطمئنون إليه أتباعه، ومن ثم تجعل الحركة الإسلامية ضامنة أن تسير راسخة القدمين وتكون بعيدة عن الشبهات المثارة.

و- البعد عن النزعات العصبية: وفوق كل هذه الصفات هناك صفة عظيمة يجب على القائد الدعوي التخلق بها وهو البعد عن النزعات العصبية من القبلية والبلد، واللغة والعرق أن ينظر إلى الناس عاليهم ونازلهم، ثريهم وفقيرهم بنظرة واحدة ومتساوية، وأن يكون الأساس عنده جنس الإنسانية.

وعلى هذا فقد كان ﷺ مثلاً في دعوته حيث كانت دعوته إنسانية النزعة وساوى بين الناس قريشي وعرب، وحبيشي ورومي، وفقير وأمير؛ وجعل أساس التفوق بخلاف النزعة الجاهلية الدين والتقوى؛ وقد كان كل هذا أيداناً بالدين العالمي الخاتم، وكل يتفوق بسعيه وعمله^(٢).

وكان هذا دأب النبي ﷺ طيلة حياته حيث كان بعيداً عن العصبية، ويذم أصحابها ويعده نوعاً من الجاهلية، وفي خطبته الأخيرة بحجة الوداع أوصى أمته على الإيمان وتقوى الله والبعد عن كل النزعات العصبية وكان من ضمن خطبته: (أيها الناس، إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر، إن أكرمكم عند الله أتقاكم)^(٣).

وبدل هذا الأمر والمبدأ على الميزة التي تميزت بها دعوة الإسلام، وكان من ثماره أن جذبت أكثر الشعوب إلى الإسلام، وكان مبدأ لقوة المسلمين الأولين، فقطعت كل الصلات التي تربط أفراد الجاهلية من أوثانها وثاراتها ورباها، وذلك لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلمون بعد إسلامهم وإيمانهم حياة لا ربط لها برجس الماضي وأدرانته^(٤).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٧٥٨.

(٢) انظر: السابق نفسه، ج ١، ص ٧٥٩.

(٣) انظر: وكيل، محمد السيد، شرف المصطفى، (مكة المكرمة: دار البشائر الإسلامية، ط ١، ١٤٢٤ هـ)، ج ٣، ص ١٠٨.

(٤) انظر: قلعه جي، محمد رواس، قراءة سياسية للسيرة النبوية، (بيروت: دار الفرائس، ط ١، ١٤١٦ هـ)، ص ٣٠٣.

وبالجملة فالدعوة إلى الله نوع من القيادة البشرية التي منحها الله عز وجل لعباده المخلصين لكي ينقذ الناس من الضلالة إلى الهدى، وهكذا يجب على حاملهم التأهل بالصفات القيادية علي خط نبيهم ﷺ وذلك لكي يكون دعوتهم مؤثرة تجذب إليه الأنفس طوعية، ويؤتي ثمارها بإذن ربه، وتكون بعيدة عن الشبهات التي تثار حولها، وأخيرا حتى ينالوا التمكين ويلمس الناس نعمة الدين ورحمته.

٢- الاهتمام التام بمقاصد الدين والدعوة: إن من أهم الصفات التي يجب على الداعي التحلي بها في دعوته، وبعبارة أخرى في عمله ورسالته هو التحلي بالاهتمام بمقاصد الدين وغاياته، ويصير في مهمته على وفق خطة مرسومة، وعلى هذا فليست الدعوة أمرا عشوائيا لاطائل وراءه، أو أمرا تفضليا تطوعيا يختاره الإنسان حسب رضاه ما يعجبه أو يحبه بل هي فريضة منضبطة يبتغي من وراءها روح الدين ومغزاه.

والناظر في سيرة الرسول ﷺ ليرى الفارق بين الدعوة المكية والمدنية من ناحية الهدف والمنهج والأسلوب، ففي المرحلة المدنية كما يقول الباحثون: أهمية اعتماد الدعاة في حركتهم مبنية على قاعدة قوية صلبة ويقظة وقوة، وتمثل ذلك بتأسيس دولة إسلامية مثالية بقيادة الرسول ﷺ، أما في المرحلة المكية فكانت الأمر موقوفا على جهود فردية وتضحيات عدد قليل من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام وسط عدوات وعناد أهل مكة ومباشرتهم للأذى والاضطهاد على كل من أسلم، وكانت ثمرة هذه الدعوة بعد مضي سنوات طوال عدد قليل من المسلمين^(١). ومن هنا فقد عرفت المرحلة المدنية بجملتها بالحركة والنشاط، وكان المسلمون متجهون إلى أولويات الأمور وإيصال رسالة الإسلام، وكانت خططهم بتوجيه الرسول ﷺ البلاغ والدعوة للناشئين حيث كانت تقدم عن طريق السفراء والوفود، وأما في الناحية الثانية فكانت مهمتهم التعلم والتوجه وذلك لأولئك المعتنقين الذين دخلوا في الإسلام حديثا حتى يرسخ الإسلام في قلوبهم.

وهكذا فقد كان الجهاد ودفع العدوان هو المعلم الأساسي لهذه المرحلة وذلك تجاه أولئك من يسد الدعوة أو يقفون أمامها، وكانوا يسعون في جملتها اظهار الدين وإعلانه بين الشعوب أنه كلمة الله الخاتمة والأخيرة لعباده وأن سعادتهم منوطة به، وأما في المرحلة المكية فقد كانت مبنية على الاضطهاد وكانت التستر والخفاء معلما لها خوفا من أن يفتن الناس في دينهم وأنفسهم، وقد أمر المسلمون بمجموعها أن يصبروا ويثبتوا حتى يأتيهم النصر والفرج. وعن هذه المرحلة ومعالمها يقول السيد مودودي رحمه الله: لقد دخلت الدعوة الإسلامية بعد هجرة الرسول ﷺ إلى مرحلة وطور جديد، فقد كان التركيز في المرحلة السابقة المكية مبنيا على أسس الدين والقيم الأخلاقية، لكن في هذه الفترة صرفت الاهتمام إلى تأسيس دولة الإسلام والتي أنشئت بعد إيمان بعض القبائل العربية الحديثة حيث اتجهوا إلى دعوة الإسلام وكذلك نصرة الأنصار في المدينة المنورة

(١) انظر: غلوش، أحمد أحمد، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، ص ٦٩٠.

وقد كان التركيز في الدعوة على الأحكام المختصة بالمدينة والحضارة والأمور الاجتماعية والاقتصادية والدستورية والسياسية، وكل ذلك لتوضيح هذه الفكرة أن الإسلام هو منهج الحياة وطريق رسم لأجل السعادة الإنسانية في الدنيا والآخرة، وبهذا الصدد ركزت ٢٣ ركوعاً من الآيات الأخيرة في سورة البقرة على هذا الموضوع إضافة إلى الآيات الأخرى.

والقضية الأساسية الثانية فقد كانت مركزة على المواجهة بين الإسلام والكفر، وبناء عليه دخلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة حديثة، حيث كانت قبلها في المرحلة المكية محتضنة دار الكفر، وأن من يؤمن من أهل القبائل فكانوا يبقون في مساكنهم، وغاية ما يفعله أولئك هو الدعوة إلى أهل الديار فحسب، كما كانوا ملزمين بالصبر والثبات في كل ما يلاقونهم؛ وأما بعد الهجرة النبوية المباركة فتيسر لهؤلاء يائرها أن يجمعوا شتاتهم في حضن دولة قيمة إسلامية يقودها الرسول ﷺ، ولكن هذه الدولة الفتية كانت متحدية من القوات المعادية العربية وغيرها من الفئات فصارت بطبيعة الحال التركيز على الدفاع وحمايتها^(١).

وبعد توضيح هذه المعالم الأساسية للدعوة المدنية والتي حددت في تأسيس دولة مدنية إسلامية، وكذلك المواجهة ودفع القوة المعادية، يرى الإمام المودودي رحمه الله أن الداعي الأول ﷺ وضع لهذه المقاصد خطة وخارطة كي تظهر بها أولئك الجماعة المسلمة والتي تظهر في فقرات:

١- الحركة الدائبة والنشطة في مجال الدعوة لأجل تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس حتى تظهر بهذه العقيدة السامية وتدخل الكمية الوفيرة في الدين.

٢- تفنيد ودحض أهل الباطل في طريقهم ومناهجهم، وإظهار زيف ما يعتقدونهم حتى لا يبقى للآخرين أدنى شك في بطلان ما يدينونهم.

٣- إيجاد روح العزيمة والمثابرة في قلوب المؤمنين والذين يلاقون الاضطهاد والتشريد من القوة المعادية، وأن ما يصيبهم في سبيل الدعوة من غربة الديار والتشريد والجوع والخصومة وفقدان الأمن مباهاة لهم، وعليهم أن لا يضيق زرعاً بها، وما عليهم إلا أن يصبروا أو أن يدفعوها بالمثابرة.

٤- الإعداد والتأهب للمواجهة المسلحة بالعزم والشجاعة تجاه من يسد أو يقف أمام دعوتهم الحق، وأن لا يخافوا منها مهما عظمت عددهم أو عدتهم.

٥- إيجاد عزيمة قوية وترسيخ فكرة لتأسيس نظام إسلامي راشد قويم بين العرب، وإن لم يظهر هؤلاء بها، فليتيقنوا أن إزاحة النظام الجاهلي الكاسد والبالى متيسر عن طريق القهر والغلبة^(٢).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ١، ص ٤٣-٤٤.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٧٥٨.

ويستنتج مما سبق أن الداعي إلى الحق لابد أن يهتم في دعوته بالدين وبمقاصده السامية، وهكذا لكل طور لها أسسها وأصولها؛ ومن هذا المنطلق يطرح قضية فقه الأولويات والذي يلزم عليه أن يأخذ به ويسلكه؛ فما كان في مرحلة ضرورية ربما لا تكون لها حاجة ملحة في فترات لاحقة، والتركيز عليها يضع الجهد والفرص.

وقد كان إمام الدعاة رحمه الله نموذجاً عملياً حيث وضع لكل مرحلة دعوية مقاصده ومعالم جديدة، ومن ثم خط خطة دقيقة للوصول إلى هذه الأهداف والتي تجلت في المرحلة المدنية من الدعوة والتبليغ، والتركيز على الوعي والبرهان لإثبات الحق ودحض الباطل، وإيجاد روح الصبر والمثابرة بين المؤمنين في كل ما يلاقونهم، وكذلك الإعداد التام لمواجهة الأعداء مهما كانوا، وأخيراً الحصول على الثمرة المرجوة من هذه الأسس هي إقامة نظام إسلامي عادل حتى تعلوا كلمة الله ويكون الدين كله له.

المبحث الثاني: فقه الداعي في العصر المدني عند الشيخ محمد الغزالي

الدعاة إلى الله هم حملة الرسالة الإلهية للناس، وهم مصابيح الحق تنير للناس طريقهم ومسالكهم ومهمتهم عظيمة إذ يتوارثون الأنبياء ويخلفونهم، وعلى هذا حري بهم إلى جانب وراثة المهمة بتحلية معالم شخصيتهم العملاقة والشمائل التي ارتضوها في دعوتهم من السلوك والأدب المستقاة من مآدبة الله عز وجل، وعلى هذا فقد اقتبس الشيخ محمد الغزالي من خلال دراسته للسيرة النبوية على أهم هذه الموارد نبينها كالاتي:

المطلب الأول: معالم في شخصية الداعية المستفادة من المرحلة المدنية:

الدعاة هم المتأمنون على دين الله حيث وكل إليهم مهمة دعوة الرسالة الخاتمة بعد نبينهم ﷺ، ويجب أن يكون شخصيتهم متميزة عن الآخرين علماً وخلقاً وسلوكاً، وحياتهم معلماً للدعوة ومظهراً عملياً لما يدعون إليها، وفي حياتهم المعلم الدعوية الموروثة من حياته ﷺ، وما أن يتصل بالناس إلا ويروا ويلمسوا هذه المعالم والعلامات الواضحة؛ وقد كان الداعي الأول ﷺ ذات معالم قوية وعظيمة تجذب القلوب، وسوف نقف على نماذج هذه في خلال المرحلة المدنية من دعوته ﷺ.

١- القيادة التي تبوي إليها الأئمة: لقد جمع الله في شخصية الرسول ﷺ مجالات وجوانب عديدة، فقد كان نبياً وحاكماً للمسلمين، وقائداً في كل شؤونهم الدينية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، وما إلى ذلك؛ وقد تمتع في كل مجالاتها بصفات قيادية متميزة، جعلت من المسلمين أمة موهوبة، وأصبحوا قادة وسادة تهابها أهل الباطل وأعدائهم... وما كان ذلك إلا بفضل الله عز وجل ورسوله؛ ذلك القائد الحكيم والعظيم والإنسان الحنون اللطيف، حيث تجذب كل من لاقاه أو رآه، وتفقدته كلما غاب عنهم، وتطمئن إليه الأنفس لمجالسته ومعاشرته، وقد كان مثل حامل المسك والعطر ما إن تمس به أو تجلسه إلا وتفوح منه رائحته الزكية والظاهرة منه، وهذا هو من العوامل الأساسية لنجاح دعوته ﷺ، فظل يكثر أتباعه يوماً بعد يوم، وكان هذا من الأسئلة التي طرحها هرقل عظيم الروم من

أبي سفيان بن حرب زمن شركه أوان الهدنة بين المشركين والمسلمين في السنة السادسة من الهجرة، فيقول هرقل سائلا عنه: (أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ... فَذَكَرْتُ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ)^(١). وقد يصور هذا الحب أنس بن مالك رضي الله عنه حيث لازم شخصيته الشريفة قرابة عشرة سنوات فيقول: - (لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَيْدِي وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا)^(٢).

ومعنى (حتى أنكرنا قلوبنا) كما يقول شراح الحديث: إنهم لم يجدوا في حياتهم ذاك الصفاء والألفة وذلك بانقطاع مادة الوحي وما كان يمدهم النبي ﷺ والذي كان يؤيدهم ويعلمهم، وليس المراد أنهم فقدوا التصديق، أو بمعنى أنهم لم يجدوا النورانية والصفاء الذي كانت حاصلة لديهم من مشاهدة وحضوره^(٣).

وقد ظهرت آثار هذه المحبة الفائقة في حياة الصحابة بوجوده ﷺ، ولأمسوا فقدان هذه البركة بعد وفاته ﷺ، وعنهما يقول الشيخ محمد الغزالي: "فانظر إلى بشاشة هذه العاطفة الغامرة، كيف صبغت الآفاق الواسعة بألونها الزاهية، وانظر على أثرها حسرة الفقد، ومن ثم كيف تخلف سوادها المحزن على كل شيء!!، وهكذا كانت أهل دار الهجرة حيث أحبوا الله ورسوله الكريم ﷺ، وقد كان هذا الحب الغمر والمكين في القلوب سر النصر الرائع لأولئك وكان مبعثا للتضحيات عن طيب النفس ازاء كل غالي ورخيص. ومتى يكون القوم يربطهم بقائدهم هذا الإعزاز الهائل فستدك أمام عزائمهم الجبال الراسية"^(٤).

وسوف يدرك المتفحص مدى أهمية القيادة السليمة في أمر الدعوة، وأن وجوده بين أتباعه ومدعويه كمثابة روح في الجسد، فليست القيادة في هذا مجرد اسم أو علم يوضع على شخص بل هي ضمان لتحقيق الدعوة وأساس لحصول النصر المرتقب الذي يتطلع إليه أصحاب الدعوات وباعث لإقتحام عظام الأمور وتقديم التضحيات الغالية في سبيلها.

وهكذا فليست في أمر الدعوة خبرا أكثر خسرانا أو مرارة من فقدان الموجه العظيم، وعلى هذا فقد كان وفاة الرسول ﷺ من أشد الأيام وأكربها في حياة الصحابة، وصرح أكثرهم بأن كل مصيبة بعده ﷺ جلل.

ومن اللازم التنويه كذلك كما أن أمر الدعوة منوطة بالقيادة السليمة فإنها تتطلب كذلك من الشخصية الدعوية أن يتأهل ويتأهب بالاستعداد اللازم، ويكون إلى جنب المواهب اللدنية متحليا بالصفات القيادية اللازمة نفسية، وقدرة عملية وفوق كلها فن التعامل مع مدعويهم وأن يحجب لهم الخير، ومتى تحقق ذلك فإن الثمرة اليانعة ستأتي محلها

(١) صحيح البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، باب: رقم الحديث: ٧.

(٢) سنن الترمذي، أبواب المناقب، رقم الحديث: ٣٦١٨. قال الألباني: هذا حديث صحيح.

(٣) انظر: المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن، تحفة الأحمدي بشرح جامع الترمذي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ب ت ط)، ج ١٠، ص ٦٣.

(٤) الغزالي، محمد، فقه السيرة (بتصرف يسير)، ص ٢١٤.

فيحب هذا القائد في قلوب مدعويهم من سويداء القلب ويكون الأسماع لأوامره طواعية، وهنا سيتحقق المبتغى والمراد.

وليست هذه الأوصاف والمواهب أمورا معنوية فحسب لانظهر آثاره، أو لوجود لها في الخارج بل أضواء سرعان ما يضيء للسائرين وتكشف حقيقته، وتظهر مواهبه لأتباعه بعلم اليقين، وقد لاحظ عبد الله بن سلام الصحابي الجليل والذي كان عالما بعلم أهل الكتاب هذه الملامح على النبي ﷺ حين مقدمه المدينة وبدأ يقول: (لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَنْجَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبْتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: -يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ) (١).

وعلى هذا فالغزالي يقول عن قول عبد الله بن سلام: إن أضواء الباطن تظهر على الوجه فتقرأ في أساريه آيات النقاء، وقد ذهب ابن سلام يستطلع أخبار هذا الرائد بالرؤية له حتى يكشف حقيقته، وقد أطمأن قلبه بعد التثبت من أحواله فأدرك أنه صادق وليس بالكذب. وعلى هذا فالملامح الخلقية والعقلية لاتدرك إلا بنظرة فاحصة خاطفة ولكن تلزم أن تظهر هذه الصفة بطابع سلوكي حيث يضيف على الروح، وكثيرا ما يكون هذا عنوانا صادقا لما وراء شخصيته (٢).

ويتضح مما سبق أن القيادة التي تكسب القلوب وتحويها يجب أن تكون ذات مواهب عالية، وقد تظهر على هيئة سلوك في شخصية ذلك القائد، ويلتمس مدعويه العبقريه، ويكون عنوانا واضحا لشخصيته، وهكذا سوف يطلع على بعض ملامحه المكنونة بعض أصحاب المواهب اللدنية والتي وهب الله لهم نتيجة تقربهم وسعيهم الحثيث في سبيل طلب الحقيقة وإخلاصهم لله عز وجل كالصحابه رضوان الله عليهم أجمعين حيث كانوا يدركون الحقيقة بنظرة واحدة.

ومن علامات هذه القيادة الفائقة التي احتوت القلوب أنها باقية الأثر في قلوب محبيه ويستمر أجيالا بعد جيل على الأزمان، وما زالت محبتها طرية لاتبلى، وعلى هذا فقد قارن المفكر الأمريكي مايكل هارت (٣) في كتابه المائة الأوائل بين قيادة النبي ﷺ وغيره؛ وقد وصلت أن تأثير النبي محمد ﷺ باقية على مدار التاريخ وأن ذلك مدت لشتى مجالات الحياة الإنسانية، وهو بذلك أجدر أن تسمى شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ الإنسانية حيث يقول: ومن هنا نرى أن الفتوحات العربية التي تمت في القرن السابع، استمرت لتلعب دورا هاما في تاريخ البشرية حتى

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: ٢٤٨٥.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢١٣.

(٣) مايكل هارت: باحث وعالم فيزياء ومؤرخ أمريكي، ولد سنة ١٩٣٢م بمدينة نيويورك. له أبحاث في عديد من الموضوعات وحظي بالقبول في الأوساط العلمية، من أهمها: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، حيث أمضى فيه ١٤ سنة. انظر: أنيس منصور، الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ رسول الله، ص ٣.

يومنا هذا، وأن الإتحاد الفريد الذي لانظير له للتأثير الديني والديني معا مما يخول محمدا ﷺ أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية^(١).

٢- إيجاد روح الأمل والبشارة رغم شدة الأحوال: من أهم المعالم الأساسية في شخصية الداعية أن تكون متفءلا يملك اليقين بنصر الله عزوجل عاجلا أو آجلا، وأن يعلم أن تبشير النصر تبدأ عند أشد الأحوال وأعسرهما، ومن ثم يجب عليه أن يكون لأتباعه سندا يطرد عنهم الخوف والهزيمة النفسية، ويحثهم على أن الله عزوجل لن يتركهم، وأن النصر دائما حليف أولئك الذين يجاهدون في سبيله ويستمرون في مهمته. وهذا الأمل من قبل القائد الدعوي لتعد مفتاح الفرج وبشارة للتمكين الذي ينتظرونهم تلك الفئة وتطرد كذلك الهزيمة والتشاؤم التي تبادر لقلوب الأتباع بناء على الطبيعة البشري، ومن هذا المنطلق فقد يجب على الداعي أن يثبت هذا الروح وأمل النصر المادية والنجاح المعنوية في أرواح أولئك إلى جنت إيقاظ الهمم والعزائم تجاه المعالي والطموحات والتي تبدوا في أول الأمر مستحيلة على حساب العدد والعدة.

وهكذا الناظر في سيرة الرسول ﷺ ليجد هذه الظاهرة جلية، فقد كان يبعث الأمل في أصعب الأحوال ويرفع بهذه البشائر الحقبة معنوياتهم وعزائمهم فيظفرون.

روى أصحاب السنن والسير حالة المسلمين الصعبة أثناء غزوة الأحزاب حيث جاءت حشود الأعداء من كل حذب نحو المدينة فاستشار النبي ﷺ مع أصحابه، ووصلوا إلى قرار حفر الخندق حولها كلها، وكانت الأحوال صعبة عندهم بنسبة برودة الجو، والرياح الشديدة وكذلك ضنك المعيشة وضيقها، وفوق كلها حفاوة الخوف والفرع من الحشود الهائلة والعمل الشاق العاجل، وعلى هذا فقد كانوا يحفرون الخندق ومن ثم ينقلون ترابها على الظهر... وفي مثل هذه الحالة كان النبي ﷺ لمبعث الأمل عند أولئك المؤمنين المخلصين يقلل من تعبهم وأنصابهم، ويولد فيهم الحزم والجهد ومداومة العمل، ومن ثم يبعث في نفوسهم الراحة والسرور على إثر التعب الذي كان يصيبهم بناء على الفطرة البشري.

فقد روى البراء بن عازب أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، حَتَّى أَعْمَرَ بَطْنَهُ، أَوْ أَغْبَرَ بَطْنَهُ، يَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزَلَنُ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِينَا، إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: أَيْنَا أَيْنَا)^(٢).

ويستفاد من هذا الحديث مدى شخصية النبي ﷺ وبساطته مع أصحابه، فقد كان يشارك معهم حتى في المرح وذلك لتخفيف ما يعانونهم للظروف الصعبة، ومجرد وجوده له أثر في إيقاظ العزائم والنشاط ومداومة العمل الذين كلفوا بإنجازه. وعن هذا يقول الغزالي: إن تكرار النبي ﷺ لأشعار غناء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في ذلك الزمان

(١) انظر: منصور، أنيس، الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ رسول الله، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط٦، ١٩٨٥م)، ص ١٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب، رقم الحديث: ٤١٠٤.

(لاقينا- لاقينا) كان خير راحة لإزاحة النصب والتعب الملقاة على الأعصاب ويشبه غالبا النغمات التي يتردها البناءون أو أهل الريف أثناء الحفر أو بناء القصور في المدن.

وقد توحى هذا العمل كذلك أن الرسول ﷺ كان يعالج النفوس ويزرع فيهم الثقة والغبطة على ما يلقون فيه من العناء والصعوبة، وبالتالي لم يكن عمله من قبيل التمثيل الذي يفعله أو يتفنه زعماء العصر الحديث؛ بل إنه استغرق في العمل معهم جنبا إلى جنب، فالرجولة لا تعرف التمثيل، وعلى هذا اشتراكه مع أصحابه في تلك الوقت العصيب تطرد اليأس المسيطر في قلوب البشرية؛ وهو أقتل لروح المقاومة وبالتالي يجر التسليم الذليل لهذه الفئة؛ فاجتهد النبي ﷺ في تدعيم القوة المعنوية لرجاله حتى يوقنوا بأن الضائقة سحابة صيف وعن قليل تقشع. وبعد هذا سوف يستأنف الإسلام مسيرته ويعتقه الأفواج الداخلين في الإسلام وتندك معاقل الظلم حتى لا يصدر عنها كيد ولا تخشى منها فتنة^(١).

وقد يرى الخبراء أن قيادة الرسول ﷺ أثناء الحروب تميزت بالتعبئة المعنوية لجنوده حيث كان يربي أصحابه أن يكون أصحاب عزائم قوية ثابتة مثل ثبات الجبال الراسية، وكان يملأ قلوبهم شجاعة وجرأة وأملا في النصر على الأعداء.

وأما وسائله فإنه كان يستعمل غالبا ما أسلوب الترغيب والترهيب، فكان يوعد المجاهدين الصابرين بالجزاء الأوفى، والفارين يوم الزحف بالترهيب، وكان يعلمهم أثناءها عوامل النصر وأسبابه، ومن ثم يتيسر له كل ذلك، وكان في أكثر الأحوال محذرا عن أسباب الهزيمة حتى يقلعوا عنها ولا يقترب منها البتة^(٢).

ويستنتج مما سبق أن الرسول ﷺ كان لأتمه قائدا حقيقيا، ولم يكن ترغيبه لهم على أساس التفاءل المزيف كما يفعله زعماء المجتمعات في العصر الحديث إثر شعارات الانتخابات حيث يعدونهم لأجل حصول الأصوات، وما أن ينقضي تلك الأيام إلا ويكونون منعزلين عنهم، وبالعكس ما كان يفعله النبي ﷺ فكانت مبنية على الأسس الحقة، فقد دعاهم وحثهم للعمل وأوصاهم بالصبر في كل ما يلاقونه وأمرهم بالانصراف والفرج وقطف ثمار حركتهم وعملهم، ومع ذلك يحزرهم من المزالق والأخطاء التي سيرتكبونها أولئك نتيجة تغافلهم عن المنهج الصحيح فيبدلون النصر بالهزيمة والخذلان.

وعلى هذا فشخصيته الدعوية كان توجيهها عمليا مرغبا للفضائل ومنكرا للخطايا التي يقترفونها ومن ثم يأخذهم بأيديهم ويرسم لهم معالم النجاح والظفر بمنهج تكميلي كامل. ومن أمثلة هذا النسق من التوجيه نراه جليا في نفس الغزوة السابقة الأحزاب حيث كان ﷺ يرفع همم المسلمين ويعدهم بالنصر مع الصبر والطموحات العالية في الأيام المقبلة، وعن هذا يروي أهل السير أن في أثناء حفر الخندق كلف عمرو بن عوف ومعه سلمان، وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار بحفر في أربعين زراعا، فخرجت صخرة بيضاء كسرت حديدتهم وشقت

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٣٢٠.

(٢) انظر: أبو فارس، محمد عبد القادر، المدرسة النبوية العسكرية، (عمان: دار الفرقان، ط ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م)، ص ١٤٠.

عليهم ، فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ يشتكي صعوبة الأهوال ، فهبط رسول الله ﷺ في الخندق وأخذ المعول منه فضرب الصخرة حتى صدعها ، وبرقت منها برقاً أضاء ما بين لابتيتها- يعني لابتى المدينة- وكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وحينها كبر النبي ﷺ تكبير فتح ، وكبر المؤمنون ثم ضربها الثانية ، فصدعها وبرق منها برق وكبر رسول الله والمسلمون خلفه ، وهكذا في الثالثة... ثم أخذ بيد سلمان فصعد ، ثم قال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط! (فالتفت النبي ﷺ إلى القوم ، فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم ، يا رسول الله ، بأبينا أنت وأمنّا ، قد رأيته تكبر فيخرج برق كال موج ، فرأيته تكبر فنكبر ، ولا نرى شيئاً غير ذلك . قال: صدقتم ، ضربت ضربتي الأولى ، فبرق الذي رأيتم ، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى ، فأخبرني جبريل أن أمتي مظهرة عليها ، ثم ضربت ضربتي الثانية ، فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم ، وفي الثالثة قصور صنعاء... فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر! فاستبشر المسلمون ، وقالوا: الحمد لله موعد صدق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر فطلعت الأحزاب بعدها ، فقال المؤمنون: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢) (١).

وقد عبر الشيخ الغزالي عن هذه الحالة بتعبير جزيل حيث يقول: تفتت تلك الصخرة الصلدة تحت ضربات الرجل الأيد الجلد ، الموصول بالسماء الشامخ والراسخ قدمه على الأرض ، وقد نظر النبي ﷺ إلى أصحابه بعد أن أشرق على نفسه العظيمة تلك البشارة السابقة فتح قصور مدائن والروم وصنعاء ؛ وكانت ثمرة هذه البشارة أن الأحزاب لما انسابت نحو المدينة ، وضيقوا الخناق على أهلها لم تطر قلوب المسلمين شعاعاً بل واجهوا الحاضر المر بالأمل في الغد الكريم . وظل المرتابون ومرضى القلوب يأخذون تلك البشارة بالأمانى المغرورة التي لا طائل تحته ، وقد كانوا أثناء الحرب مترزلين (٢).

ومن هنا نستنبط أن إيجاد روح الأمل والبشارة في أبشع الأهوال من قائد وموجه كريم في نفوس المدعوين والأتباع لتعد خير سند ، ويجعلهم مطمئنين لايهابون ، وهكذا يولد في قلوبهم الطموحات العالية التي طالما تتطلع لها أرباب الدعوة ويجعلهم في حركة ونشاط مستمر ، ويبعدهم كذلك عن ترزّل الأقدام ، فيأخذون المصاعب والمشقات بنظرة هينة وبالتالي يقاومهم حتى يظفروا بالنصر والفرج .

٣- توثيق الصلوات بأفراد المجتمع: الدعوة الإسلامية مهمة متعددة تحتاج تحقيقها إلى أناس فاعلين ومدعوين مخلصين ؛ وذلك لأن هذه المهمة منوطة بالتفاعل مع الآخرين ، ولا يمكن أداؤها إلا بالتواصل والترابط ، ومهما تكون هذه الصلوات قوية ومشددة فتكون ثمارها ونتائجها ناضجة ، وبالعكس الخذلان وعدم التوفيق في أكثر الأحيان تنتج عن الإهمال لهذا الأصل .

(١) انظر الطبري ، محمد بن جرير بن يزيد ، تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ، ج ٢ ، ص ٥٦٩ .

(٢) انظر: الغزالي ، محمد ، فقه السيرة ، ص ٣٢١ .

ونظرا لأهمية هذا الجانب فقد شدد فقهاء الدعوة التركيز على هذه القضية باعتبارها إحدى المعالم الأساسية، والقارئ المتفحص للسيرة النبوية ليلمس مراعاة هذا المعلم في دعوته ﷺ، ويدرك أن التوفيق الذي حظي به تعود الفضل في جزء منها إلى مراعاة هذا الجانب، وعليه فقد حث أمته قولاً وفعلًا أن يسلك هذا المنهج؛ وقد كان مبدأ التأخي بين المهاجرين والأنصار في المرحلة المدنية من إحدى الدعائم الأساسية لهذا السلوك.

فقد روى ابن هشام عن ابن اسحاق أن رسول الله ﷺ أخى حين مقدمه المدينة المنورة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: "تَأَخَوْا فِي اللَّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ يَدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: هَذَا أَخِي. وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخَوَيْنِ، وَكَانَ حَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَسَدُ اللَّهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ ﷺ، وَعَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَخَوَيْنِ" (١).

ولم تكن هذه المؤاخاة في المجتمع المدني مجرد عقد أو شعار أراد به صاحبه أن يتظاهر بمشروع جديد اسمياً في الدولة الفتية، أو أمراً مندوباً فحسب يبتغي من وراءه أجراً تطوعياً، بل كانت أساساً لبناء مجتمع جديد ومرتكزاً في الدعوة الإسلامية تختفي من وراءه سر مكنون لم تظهر إلا بعد وقت قليل من الزمن، وعن مدى أهميته يقول الغزالي: أما الأخوة فهي ترابط الأمة بعضها بالآخر، وقد أقامها الرسول ﷺ على المعنى الحقيقي والذي تمحي فيه شعار "أنا"، ويتحرك الفرد فيها بروح الجماعة آمالها ومصالحها، وبالتالي لا يرى النفس فيها كياناً غيره ولا امتداداً إلا فيها.

وبهذا الإخاء ذابت كل عصابات والنزعات الجاهلية، وسقطت فوارق الوطن والنسب واللون، وعلى أساسها لا يتأخر أحد أو يسبق إلا بمرؤته وتقواه. وكان الرسول ﷺ هو الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة، ولم يتميز عن غيره بإعظام خاص ولقب فخامة، وفي الحديث: (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي) (٢) (٣). ويعترف بهذا المعلم المستشرقين المنصفين، ويعد هذا الحادث التاريخي من المباهات التاريخية، وتعد هذا العمل نموذج أو تجربة إنسانية غنية، وعن هذا يقول الكاتبة كارين أرمسترونج (٤): "إن هذا الرجل الذي يرتعد الأعداء خوفاً منه يحظي في نفس الوقت بحب عميق بين أتباعه، فقد كان الرسول الأعظم ﷺ في معيشته كواحد منهم، ويرفض أن يقيم بينه وبين المسلمين فجوة من الاعتبارات الشكلية والرسمية، وكان ينفر إلى جنب ذلك أن يخاطبه الناس باللقاب التشريف والفخامة، وكان يرى في أكثر الأحوال جالسا على الأرض في المسجد علي سجيته" (٥).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً، رقم الحديث: ٣٦٥٦.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٩٣.

(٤) كارين أرمسترونج كاتبة وباحثة في مجال الأديان، ولدت سنة ١٩٤٤ م في بريطانيا، وقد عملت فترة كسفيرة لإتحاد الحضارات العالمية من قبل الأمم المتحدة، وصلت كتبها إلى أكثر من ثلاثين مؤلف؛ وتدور معظمها حول الأديان العالمية وذلك لتجربتها ومعاشتها بين أهل الأديان المختلفة، ومن أهم كتبها حول بوذا، وصراع الحضارات. انظر: ويكيديا الموسوعة الحرة.

(٥) كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد عناني، (القاهرة: شركة سطور، ط ٢، ١٩٩٨م)، ج ٢، ص ٥٦٩.

ويستفاد من هذه الفقرة السابقة عن مدى الثقة التي حظيت بها المجتمع الدعوي المثالي والذي أسسه النبي ﷺ حيث كان الأفراد والأتباع والقائد والسادة متصلين ببعضهم ، لا يفصل بينهم المقام ولا الحسب ، وقد يعمهم الإحترام والتوقير المتبادل ؛ فالداعي يقوم بين مدعويه على أساس الشفقة والحنون ، والمقابل تجاه داعيهم بالأدب والتبجيل ، وكان هذا دأبهم ومنهجهم في كل الأمور ، وبالتالي أينعت دعوتهم ثمرة ، ومجتمعهم سعادة وأنعم أهلها الخير والبركة .

وقد يتأسف الغزالي عن تفشي الجاهلية القديمة في المجتمعات الإسلامية حيث قطعت الترابط بين قيادة الهرم وقاعدته فيقول : إن تأليه الملوك ضلال قديم ، وبعد بث رسالة الإسلام ذهبت تلك الحقيقة ، ولكنها تعود بعد جديد تظهر أثاره وخصائصه ، فيسمى الملك بـ "جلالة الملك" أو بـ "صاحب الجلالة" ، وينص دستورهم أنهم لا يسألون عما يفعلون ، وهكذا ييطلون شريعة الله ويحلون محله شرائع الهوى ، وبهذا تمتد سلطته ولأتباعه وتنكمش أمامه أُمته^(١) .

وتأثير معلم الأخوة كما مر بنا ليست منحصرة على المجال الاجتماعي ، بل امتدت جذوره إلى كل الجوانب للحياة الإنسانية ، وما يهمنا في أمر الدعوة فإنها ظهرت ثماره إلى أبعد جانب ، ومنها تأسيس دعوة إسلامية عالمية ، وعنها يقول المفكر والداعية الإسلامية العملاق الشيخ أبو الحسن على حسني الندوي رحمه الله حيث يقول : وكان هذا الإخاء مقدمة للأخوة الإسلامية العالمية ونموذجاً فريداً من نوعها ، وبالتالي قامت على أثرها نهضة أمة التي اتسمت بالرسالة والدعوة منها صياغة عالم جديد الذي قام على العقائد الصحيحة والأهداف الصالح ، وقد أخذت على عاتقها انقاذ العالم من الشر والشقاء والانحيار ، وبدلت محلها علاقات جديدة على أساس الإيمان والأخوة الدينية والعمل المشترك ، وقد كان أخوة المهاجرين والأنصار طليعة لحياة في العالم الجديد^(٢) .

وبالجملة فإن توثيق الصلات بأفراد المجتمع هو الظاهرة الأساسية في دعوة النبي ﷺ ، وقد ارتبط دعاته بفئات المجتمع كعضو في أسرة واحدة ، تشترك معهم السعادة وتزيح عنهم الشقاوة والضلالة ، وذلك على روح التعاون والنشاط ، وبذلك أصبحت دعوتهم عالمية تريد للإنسانية الخير والحق .

المطلب الثاني: الصفات اللازمة في الدعاة والمستفادة من المرحلة المدنية

الدعاة إلى الله هم المكرمون والمتحلون بصفات وريثهم إمام الدعاة والمرسلين ﷺ ، حيث كان عنوان حياته السلوك والأخلاق ، وقد كان يخرج للناس من ذاك البحر اللجي الحق والسماحة ، ويفيض للمدعوين وأتباعه الخير والبركة ، وما أن ينزل النزول في مجلسه إلا يأخذ إلهاما من دعوته . وبناء على ذلك حري بالدعاة أن يأخذوا من السيرة النبوية زادهم في فقه الداعي كي تنير وتكمل طريقهم النيرة ، وقد كان لفقيه الدعوة محمد الغزالي رحمه الله قبسات من هذا النور نعرضها فيما يلي :

(١) انظر : الغزالي ، محمد ، فقه السيرة ، ص ٣٨٩ .

(٢) انظر : الندوي ، أبو الحسن علي حسني ، السيرة النبوية ، ص ٢٨٢ .

١- الوفاء، والاعتراف بالجميل: الوفاء والاعتراف بالجميل من أنبل الصفات الكريمة التي يتحلى بها المؤمن والداعي إلى الحق؛ وبذلك يرفع قدره ومكانته بين الناس فيقبلون عليه، ويورث إلى جنبها الثناء الحسن ويعطي لشخصيته مكانة مرموقة طالما لا تستطيع أن تكسبها بالمال الوفير ولا بالجهد الحثيث؛ وعلى هذا يجب على الدعاة أن يكونوا ملتزمين بها في عملهم ودعوتهم، وفوق كله بربه الكريم.

وعن أهميتها وماهيتها يقول الغزالي: "إذا أكرم المسلم عقداً فيلزم احترامها، وإذا أعطي عهداً فيجب التزامها، وكذلك من مقتضيات الإيمان أن يكون المسلم عند كلمته التي قالها، وينتهي إليها عند المقدرة كما ينتهي الماء عند شطآنه؛ ومن فوائده أن الرجل يعرف بين الناس بأن كلامه موثق ولاخوف من نقدها ولا مطمع في اصطياها"^(١).

ويتضح مما سبق أن الدعاة إلى الله وهم أمثل المؤمنين إيماناً يجب أن يكونوا نموذجاً للعهد والوفاء، وأن يكونوا مؤمنين بكل أنواع العهد والالتزام، ومن أعلى مظاهره الوفاء بالعهد الذي تعاهده العبد تجاه ربه جلا وعلا، وهكذا إبرام العقد الذي عقده مع الناس، وأن يوفي كذلك بكل ما قاله الإنسان عن نفسه وغيره، ويكون تعهده إذا أتاحت له الفرص في نفس الزمان والهيئة التي ألزم نفسه به، ومن مظاهره كذلك أن يكون الإنسان وفياً لدعوته وأتباعه وأن يحزى كل هذه المجالات بالإخلاص وذكر الفضل والإعتراف بجميله وحسنه.

والدارس للسيرة النبوية المطهرة ليلمس المدى الأكبر لهذه الصفة والخصلة العظيمة، وقد ارتوي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من نبع وفائه وحسن خلقه فحاولوا أن يتشبهوا مثله، وكل هذه النماذج في حقيقتها درساً للدعاة أن يسلكوها. فقد روى أصحاب السنن والسير مجرى أحداث بيعة العقبة الثانية حيث أن الأنصار لما اطمأنوا النبي ﷺ بالنصرة والمنعة، قام من بينهم أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل وقال: "إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرَّجَالِ حَبَالًا، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا- يَعْنِي الْيَهُودَ- فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدْعَنَا؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: بَلْ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ"^(٢).

وهكذا مرت الأيام وتغيرت الأحوال وأظفر الله نبيه والمؤمنين على أعدائهم، وفي تلك اللحظة التي كان المسلمون يفرحون بفتح مكة، تذكروا أولئك عهد النبي ﷺ معهم، فوقف بينهم وأعلن وعده الذي قال سابقاً، وبها اندمل قلوبهم.

(١) انظر: الغزالي، محمد، خلق المسلم، ص ٥٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٤٤٢.

روى أهل السنن والسير: "أن النبي ﷺ لما فتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو، وقد أهدت به الأنصار فتهامسوا فيما بينهم، أترون رسول الله إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه، قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال: معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم" (١).

وهكذا في نفس السياق حينما شغلوا أولئك بأمور غنائم طائف والذي حرموا منها لحكمة، وإعلان بقاءه معهم عمت الفرح والبهجة في قلوبهم كأنه كل شيء عنده. فقد روى ابن هشام أن سعد بن عباد أجمع الأنصار بأمر النبي ﷺ بعد حنين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال لهم: "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَوْجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا، وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ" (٢).

وتدل هاتين الواقعتين عن مدى وفاء النبي ﷺ بالأنصار وبنادهم، وأصبح صلته بالمدينة عن العمق والقوة، ووصل هذا الحب إلى درجة أنه ضحى في سبيلها الوطن القديم وذكرياته العزيزة، وهكذا ظل يذكر فضله ومعالمه ومنه جبل أحد حيث قال عنه: (أُحِدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ) (٣)، وقد كان يزوره دوما ما، ولما حانت وفاته جعل آخر عهده بذكرات البطولة لأولئك الأفاضل؛ وكان يدعو الله لهم، وأوصى أن يعظ الناس بهم (٤).

ومن هذا كله نستنبط أن الوفاء خصلة أساسية في الدعاة ويجب عليهم أن يتحلوا بها، فقد ﷺ إمام الدعاة ملتزما بكل ما قاله أو عهد به، وكان يحرص أن يكون وفاؤه بأمثل صورة وفوق ما يعمله، وهكذا ظل يذكر أهل المدينة وفضلهم، وكان يهتم بزيارة معالمه محبة لهم، ومن صور وفائه في الدعوة كذلك وإن كانت غير مذكورة في أقواله وعهوده ذكره الجميل لتضحيات أصحابه والثناء الحسن عليهم، وقد كان شهداء أحد خير نموذج له، فكان دائما ذكراهم حاضر في قلبه وطالما يذكرهم حتى أنه ذهب إليهم في آخر حياته كمودع لهم... وبمثل هذه الخصائل لا يصدر إلا عن رجل كريم الطبع وصاحب الخصال الحميدة.

ويحسن بنا أن نذكر أخيرا عن أهمية هذه القيمة بين الخصائل، فقد قال عنها الفقيه الموهوب ابن حزم الأندلسي (٥) رحمه الله عنها قائلا: "الْوَفَاءُ مَرْكَبٌ مِنَ الْعَدْلِ وَالْجُودِ وَالنَّجْدَةِ لِأَنَّ الْوَفِيَّ رَأَى مِنَ الْجُورِ أَنَّ لَا يَقَارِضُ مِنْ وَثْقٍ بِهِ

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، المحقق: علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، ج ٤، ص ٣٥

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٤٩٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: خرص الثمر، رقم الحديث: ١٤٨٢.

(٤) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٩١.

(٥) ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ): علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام. كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه، ولد بقرطبة. وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين فقيها حافظا يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، بعيدا عن المصانعة. وانتقد كثيرا من العلماء والفقهاء، فتمالوا على بغضه، وأجمعوا على تضليله

أو من أحسن إليه فَعَدَل في ذلك ورأي أن يسمح بعاجل يَتَقَضِيهِ لَهُ عدم الوفاء من الحَظ فجاد في ذلك ورأي أن يتجلد لما يتَوَقَّع من عاقبة الوفاء فشجع في ذلك^(١).

٢- التضحية والاهتمام بالأفراد: الدعوة الإسلامية فريضة جماعية تقام على أساس تنظيم الفئة المؤمنة الداعية في اطار وترتيب منظم معين، يجمعهم أهداف ومقاصد عالية، وبطبيعة الحال يتولى أمر قيادتها صاحب كفاءة وقدرة عالية تختارها المجموعة على أساس الرضا والإختيار، ويوكلون له أمورهم المنوطة ومن ثم يطيعونه بالمعروف والطاعة... وعلى هذا يكون القائد هو المسؤول عن مجموعته والأمين الذي وسد أمر جماعته إليه، فيوجههم ويرشدهم إلى الخير وإلى ما فيه صلاح أمرهم بعيدا عن الغلو والتفريط، ويختار كذلك من الوسائل ما هو أنسب لحال الدعوة ويبيئهم؛ وهو بالجملة المسؤول عن كل أموره المرتبطة، فيلزم عليه أن يهتم بحياتهم واصلحهم وتنمية شخصيتهم وصيانتهم عن المزلق والاضمحلال.

والدارس المتفحص ليجد في سيرة إمام الدعاة والمرسلين بوضوح تام التحلي بهذه الصفة الأساسية، فقد كان ﷺ لأتباعه ومدعويه كأب حنون شفيق عليهم، ويهتم بأمورهم أشد الاهتمام، ويقدمهم إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يلمسون هذا في أموره، حتى أنه دوما ما كان يشق على نفسه ويعترض نفسه للمخاطر دونهم، وقد استوصى القواد والأمرء إلى من دونهم بالخير ويطلب منهم أن يدعوا الله عزوجل لنفسه التوفيق والسداد ويحذر التغافل فيه.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه حديث معقل بن يسار رضي الله عنه حيث يقول ﷺ: (مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ، وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ)^(٢)، وهكذا في صفحات السيرة النبوية مادة ضخمة وثرية عن هذا.

وقد يصور الشيخ الغزالي مدى حالة المسلمين ومشقتهم في غزوة الأحزاب بالأمثلة الحية ومدى اهتمام النبي ﷺ بأتباعه وشفقته عليهم فيقول: إن غزوة الأحزاب من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام حيث أن مصير رسالته العظيمة كانت على مفترق الطرق، وأصبح حالها كرجل يمشي على حافة قمة مرتفعة أو كجبل ممدود، وبالتالي لو اختل موازينه للحظة واحدة لفقد السيطرة على موقفه بالكلية، ولهوى من قمة مرتفعة إلى واد سحيق ويكون ماله ممزق الأعضاء ومنتشر الأشلاء، وهكذا أصبح المسلمون كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يتهدها الماء بالغرق ليلا ونهارا^(٣).

وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو منه، فأقصته الملوك وطاردته، فرحل إلى بادية ليلة (من بلاد الأندلس) فتوفي فيها. أشهر مصنفاته: الفصل في الملل والأهواء والنحل، المحلي. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ٢٥٤.

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، الأخلاق والسير في مداواة النفوس (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط ١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ص ٦٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم الحديث: ١٤٢.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٣٢٢.

ويتضح مما سبق الحالة النفسية للمسلمين حيث كانوا في أشد الأهوال وأصعبها، وفي هذا الصدد التعبير القرآني هو الأدق كمعجزة إلهية حيث يخبر عن حالهم (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)، وبهذا كان الخطر أكبر مما يتصور، وعلى أساسها فقد كان النبي ﷺ هو المثل الأعلى بالإهتمام بأفراده، وكان مواجهها دون غيرهم من وجهتين: وجهة مصير الرسالة النبوية، ومن جهة أخرى الإهتمام بالأصحاب والمدعوين من أمتة؛ وعلى هذا فقد سعى واهتم بأقواله وأفعاله أن يطمئن عليهم ويكون بينهم.

وفي ظل هذه الحالة العسيرة بدأ النبي ﷺ يطمئن ويهتم بأفراده، ويضحي معهم يتحمل أصعب الشدائد، وكان في مقدمة مع أصحابه، ولم يغفل عنهم وللحظة واحدة، وهكذا كما يقول الغزالي: كان مثلاً ونموذجاً للرجولة الجادة والكادحة في أنبل صورها، حيث تقتبس من مسالك النبي ﷺ في هذه المعركة؛ ولهذا قدم في العمل مع أصحابه؛ وهكذا فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل ولذلك اجتهد في تدعيم القوى المعنوية لرجاله^(١).

وتعد مشاركة الرسول ﷺ ومساهمته في حفر الخندق ووجوده مع المسلمين من أهم عوامل تماسك الجبهة الداخلية، حيث تبعث الأمل في قلوب الجنود، ويدركون أهمية الأمر، فقد كان القائد كواحد من المسلمين يعمل ويتحمل المشاق أكثر من غيره. وعن هذا يحدث أبي إسحاق عن البراء أنه قال: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ، وَخَنَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تَرَابِ الْخَنْدَقِ، حَتَّى وَارَى عَنِّي الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ)^(٢).

وأما عن تحمل المشاق أكثر من غيره فيقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدَيْيَةٌ شَدِيدَةً، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدَيْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَكِنَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوْاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضْرَبَ، فَعَادَ كَثِيرًا أَهْيَلًا، أَوْ أَهْيَمًا)^(٣).

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في شرح الحديث السابق رواية أحمد: أنهم أصابهم مشقة وجهه شديد حتى ربط الرسول ﷺ الحجر على بطنه، وقد كانت هذه الفعل من شدة الجوع ويخشى من انحناء الصلب، وكلما وضع الحجر وشد عليها العصابة استقام الظهر. وقد ذكر المحدث الكرمانى: لعل ذلك الفعل لتسكين حرارة الجوع ببرد الحجر، والأحجار كانت رفاقاً قدر البطن تشد به الأمعاء، فلا يتركها يتحلل شيء مما في البطن وبالتالي لا يحصل ضعف زائد^(٤).

وبناء على ما تقدم ندرك أهمية مشاركة ومساهمة القائد والمسؤول الدعوي مع أتباعه آلامهم وآمالهم، وهكذا يجب على الداعي أن يستأثر بالمصاعب الجمّة دونهم؛ وسوف يكون ذلك بلا ريب تخفيفاً لما يعانونهم أولئك الفئة

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٣١٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم الحديث: ٤١٠٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم الحديث: ٤١٠١.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٧، ص ٣٩٦.

ودافعة إياهم لأن يقتحموا الشدائد أكثر؛ فإن الفطرة البشرية جبلت أن يتبعوا قائدهم أيا كان المخاطر، ويكون ذلك سبيلا ممهدا للنصر والفرج.

المبحث الثالث: فقه الداعي في العصر المدني عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الدعوة إلى الله مسؤولية وأمانة وشرف منحها الله عز وجل للأمة الإسلامية بناء على وصف الخاتمية التي حزيت بها الرسالة المحمدية، ودعاتها بذلك ورثة الأنبياء، بيد أن الوحي الإلهي قد انقطع عنهم بعد ما اكتمل الدين؛ وقد كانت هذه الرسالة هي المنهاج الكامل التي يلبي جميع حاجات الإنسانية المادية والمعنوية، وبجملتها كانت أسسا سليمة معقولة المعنى ثابتة وقائمة إلى يوم الدين، وقابلة للتنفيذ بحجة أن تطبيقاتها وجزئياتها مرنة وموائمة للتغير بناء على اختلاف الأزمنة والبيئات.

ونظرا لهذا فدعاة الدين وحملتها يجب أن تكون فيهم صلاحية الاستنباط واستيعاب القضايا حتى يكون في مهمتهم على بصيرة وهدى رباني ملتزمين بشرع الله؛ ولقد كان للفقيه الداعي رمضان البوطي رحمه الله وقفات فقهية نيرة مستنبطة من خلال عكوفها على السيرة النبوية، نبينها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: المعالم الأساسية لدعاة الحق المستفادة من المرحلة المدنية

الدعاة إلى الحق هم الكوكبة البشرية المميزة عن باقي الناس، وتتجلى في دعوتهم وحياتهم وسلوكهم معالم الحق، وبها يعرفون كأنهم سجية لهم، وهذه المعالم تعد بدورها علامات فارقة دعوية وذاتية والتي تتباين بهم عن باقي الدعوات، ولقد كانت السيرة النبوية النيرة بالنسبة لهم المشكاة والمصباح المنير التي تستضاء لهم الطريق وتلهم منها هذه المعالم، وسوف نقف على نماذج منها كالآتي:

١- اشتراك المرأة مع الرجل في جميع مسؤوليات الإسلام العامة: الدعوة الإلهية دعوة ربانية جاءت لهداية البشرية القاطبة بغض النظر عن النزعات السائدة بينهم وتمايز النوعية، وجعلهم مكرمين برسالة الإسلام دعوة إلى الحق وحملة للخير رجالا ونساء، وهكذا في أغلب الخطابات الدينية المسؤولية متجهة نحو الذكور والأنثى على السواء، وطلب منهما أن يقوموا بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفعل العمل الصالح لحياء الحياة الطيبة، وأساس ذلك أن الإسلام جعلت النساء شقائق الرجال ومنحت لهن مع الرجال حق متساويا في الحياة والكرامة الإنسانية ومن ثم حملهن على نفس الوجائب الذي كان على الرجال، وقد جاءت كل هذه بعد أن كانت منحلة تعامل كمتاع الدنيا ووسيلة لاشباع الغرائز فحسب.

وقد كان من المعالم الأساسية لدعاة الحق في الفترة المدنية من السيرة النبوية ﷺ اشتراك المسلمين كلهم في عبء الدعوة الإسلامية والجهاد، وخاصة اشتراك النساء والمرأة مع الرجال في جميع مسؤوليات الإسلام، وبالتالي ضرب هن أروع نماذج للتضحية والدعوة والعلم وما إلى ذلك.

وأما عن مصدر واجبات المرأة وحقوقها في الإسلام كما يقول الدكتور البوطي رحمه الله: أما الواجبات والمسؤوليات التي علق الشريعة الإسلامية بالمرأة، فمرجعها أمر واحد، وهو عبودية المرأة لله تعالى.

وهكذا فعبودية الإنسان لله تعالى من أهم وأولى حقائق الإسلام وأشدها بداهة، وتستلزم هذا اليقين بوجود الله تعالى، ومن هنا فلا فرق في هذه الحقيقة بين الرجل والمرأة، وهكذا فالعبودية فرع عن المملوكية، ولا شك أن كلا من المرأة والرجل و مملوكين لله تعالى الذي هو فاطر وخالق كل شيء، ومن ثم فإن عبوديتهما لله عز وجل واحدة في قدرها وحقيقتها، ولا مجال لفهم أي تباين ما بين المرأة والرجل فيها؛ والنتيجة التي تتحصل عن ذلك تتمثل في أن الواجبات والمسؤوليات التي ألزم الله بها عباده الرجال هي بعينها التي كلف بها إماءه النساء.

ومن هذا المنطلق نجد أن النسوة كانت لهن النصيب الأكبر والأوفر في حمل الدعوة الإسلامية، وكانت تتنافس الرجال في مهامهم، وكانت تبايعن النبي ﷺ وتجاهدن معه في الغزوات، وكانت هن إلى جنبهم نعم النصير للرجال في بيوتهن تشد أولئك في سبيل الدعوة، ولحثن واراتهن المتميزة نتائج ملموسة على شخصية أولئك؛ وبالتالي قدمن للمجتمع الإسلامي أبطالا بفضل تربيتهن تشار إليه بالبنان^(١).

ونظرا لأهمية وجودهن فقد بايع الرسول ﷺ يوم فتح مكة بعد بيعة الرجال مع النساء، وقد كانت فيهن هند بنت عتبة، فجاءت منقبة متكرة لحديثها وصنيعها بحمزة بن عبد المطلب، وخائفة من رسول الله ﷺ حيث كانت من إحدى الآتي ابحت دمه أنى وجدت.

فقد نقل الطبري في تاريخه الحادثة كالآتي: "فَلَمَّا دَنَوْنَ مِنْهُ لِيُبَايَعَهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَبَايَعَنِي عَلَى أَلَا تُشْرِكُنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا! فَقَالَتْ هِنْدُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَأْخُذُ عَلَيْنَا أَمْرًا مَا تَأْخُذُهُ عَلَى الرَّجَالِ وَسَوْتِيكَهَ قَالَ: وَلَا تَسْرِقْنَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لِأُصِيبُ مِنْ مَالِ أَبِي سُفْيَانَ الْهَنَةَ وَالْهَنَةَ وَمَا أَدْرَى أَكَانَ ذَلِكَ حَلَالٍ لِي أَمْ لَا! فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَمَّا مَا أَصَبْتَ فِيمَا مَضَى فَأَنْتِ مِنْهُ فِي حِلٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَإِنَّكَ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ! فَقَالَتْ: أَنَا هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، فَأَعْفُ عَمَّا سَلَفَ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ! قَالَ: وَلَا تَزْنِينَ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ! قَالَ: وَلَا تَقْتُلْنَ أَوْلَادَكُمْ، قَالَتْ: قَدْ رَبَّيْنَاهُمْ صِغَارًا، وَقَتَلْتَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ كِبَارًا، فَأَنْتَ وَهُمْ أَعْلَمُ! فَضَحِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ قَوْلِهَا حَتَّى اسْتَغْرَبَ، قَالَ: وَلَا تَأْتِينَ بِيَهْتَانٍ تَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ، قَالَتْ: وَاللَّهِ إِنْ إِيْتَانِ الْبُهْتَانِ لَقَبِيحٌ، قَالَ: وَلَا تَعْصِيْنِي فِي مَعْرُوفٍ، قَالَتْ: مَا جَلَسْنَا هَذَا الْمَجْلِسَ وَنَحْنُ نُزِيدُ أَنْ نَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ: بَايَعْنَهُ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ" ^(٢).

ويستفاد من هذه الواقعة التاريخية والتي اشتهرت في كتب السيرة النبوية بـ"بيعة النساء" على أهمية موقع المرأة في المجتمعات الإنسانية، ومدى تكريمها في الإسلام حيث تقدم لهن النبي ﷺ مستقلا عن الرجال، وأخذت منهن عهدا مما يؤخذ من الرجال، وبدت احداهن تحاور وتناقش الرسول عليه الصلاة والسلام على بنودها، وفيهن دلالة على منح الإسلام لهن حق الحرية والمساهمة في هذا العمل الجليل، وهكذا اعترفت أشجعهن وأحنكهن في التاريخ هند بنت ربيعة على سماحة الإسلام وتكريمهن لهن، حيث قالت: "وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَطْلُبُ مِنَّا أَمْرًا مَا تَلْزِمُهُ عَلَى الرَّجَالِ وَسَوْتِيكَهَ".

(١) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، (دمشق: دار الفكر، ط ٢، ب ت ط)، ص ٢٠.

(٢) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (تاريخ الطبري)، ج ٣، ص ٦٢.

وأما عن الدرس الدعوي المستفاد منها فكما يقول البوطي رحمه الله: فإنها دالة على أن المرأة مشتركة مع الرجال في جميع الوجائب التي ينبغي فعله أو أن ينهض به الرجال المسلمون، ومن هنا فقد يلزم على إمام المسلمين أن يأخذ منهم العهد بالعمل في إقامة المجتمع الإسلامي، وذلك بكل الوسائل الممكنة المشروعة، وإنهن لتملك من المسؤولية كما يملكها الرجال - على أساس من المساواة التامة-.

ومن هذا المنطلق تجب على المرأة المسلمة تعلم أمور دينها، وكذلك أن تسلك كل السبل الممكنة لتسلح العلوم والمعرفة والتنبه لمكايد وأساليب أعداء الإسلام، والذين يكيدون للإسلام وأهله وذلك حتى تستطيع أن تنهض بالعهد الذي أخذها على نفسه، وبالتالي لا يمكن أن تقوم بدورها وأن تنهض بشيء من هذا إذا كانت جاهلة بحقائق دينها وما تحيطه من الأخطار^(١).

وانطلاقاً لما سبق فقد خرجت من النساء في سبيل الدعوة من يضربن أمثلة رائعة في الدعوة والجهاد، ويتحملن المشاق؛ حتى أن بعضهن نالت من بشارة الرسول ﷺ والثناء الحسن، فقد نقل أهل السير أن غزوة أحد كانت أول معركة في الإسلام تشارك فيها النساء المؤمنات المسلمات، وكانت مهمتهن فيها سقي المقاتلين ومداداة الجرحى، وظهرت بينهن من يدافع عن النبي ﷺ ويرد ضربات المشركين الموجهة له، واشتهرت من بينها أم عمارة نسيبة بنت كعب حيث خرجت مع زوجها وأبناءها، وكانت تريد سقي الجرحى، ولكنها اضطرت أن تقاتل وأبليت بلاءاً حسناً في الدفاع عن رسول الله ﷺ حتى جرحت بين ضربات سيف وطعنات رمح، وكانت بها ثلاثة عشرة جرحاً^(٢).

وأما في الغزوات الباقية فيرى الباحثون أن النساء لم تخرجن للقتال مع الرجال غير نسيبة في القصة المشهورة بأحد، ومع ذلك فإن قتالها كانت حالة اضطرار بعد ما رأى الرسول ﷺ في الخطر، حيث انقضض عنه الناس وكانت لزاماً على أم عمارة نسيبة أن تدافع عن النبي ﷺ، وفي مثل هذه الحالة تلزم الواجب على الرجال والنساء على السواء^(٣). وقد يستنبط من هذه المرويات الآتية أن النساء كانت لهن الحظ الأكبر في سبيل الدفاع عن دين الله سواء كان من جهة القتال المباشر أو المهام المساعدة للقتال؛ فقد ثبتت بناء عليهن خروجهن للجهاد مع الرجال المؤمنين، وأبلى منهن بلاءاً حسناً؛ وذلك لأن الجهاد مهمة دعوية أو نمط من أنماطها، ويستوي فيها الذكور والإناث كما بينا على السواء، وهكذا طبيعة هذه الفريضة أنها تلزم لتبليغ الإسلام على كل فرد من أفراد والمؤهلين له، وإذا لم يقم بها جماعة أو طائفة فالمسؤولية والإثم تلقى على الجميع دون استثناء.

وقد وفق الدكتور البوطي رحمه الله بعد سرد الروايات والأراء الفقهية حول خروج النساء للجهاد ومساهمتهن في القتال برأي وسط توائم الواقع والشرع، ونذكرها كالآتي: وهكذا فخرجهن لسقي العطاش ومداداة الجرحى وغيرها من المهام المشابهة ثابتة بالنصوص الصحيحة، ودلت خروجهن في عدة غزوات، وأما ذهابهن لأجل القتال فلم

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٠١.

(٢) انظر: الواقدي، محمد بن عمر بن واقد، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس (بيروت: دار الأعلمي، ط ٣، ١٤٠٩هـ)، ج ١، ص ٢٦٨.

(٣) انظر: الباكري، حسين أحمد، مرويات غزوة أحد (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٣٩٩هـ)، ص ٢٥٤.

تثبت بالسنة النبوية. وقد ذهب الإمام البخاري رحمه الله بذكر باب خاص في كتاب الجهاد بجامع الصحيح تحت عنوان "باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال"، ولكن الناظر سوف يدرك أن الأحاديث التي ساقها وذكرها بهذا الصدد لا يدل على اشتراك النساء في القتال مع الرجال، ومن ثم على إثرها ذهب العلامة ابن حجر العسقلاني قائلا: "وَلَمْ أَرِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ التَّصْرِيحَ بِأَنَّهُنَّ قَاتِلْنَ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ بَوَّبَ عَلَى قِتَالِهِنَّ وَكَيْسَ هُوَ فِي الْحَدِيثِ فَإِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنْ إِعَانَتَهُنَّ لِلْغَزَاةِ غَزَوْ وَإِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُنَّ مَا ثَبَتَ لِسَقْيِ الْجَرْحَى وَنَحْوِ ذَلِكَ إِلَّا وَهْنٌ بِصَدَدِ أَنْ يُدَافِعَنَّ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ وَهُوَ الْغَالِبُ"^(١).

وقد ذهب الفقهاء أن خطاب الوجوب تلزم على النساء كذلك إذا دخل العدو بلدة من بلاد المسلمين فحينها تلزم على جميع أهلها الخروج لمقاتلتهم ومنهم الفقهاء والأولاد والمدينين والعبيد بدون الإذن، وتدخل في زمرتها النساء إن كان فيهن الدفاع وإلا فلا يحضرن^(٢).

وعلى هذا فإن خروج النساء مع الرجال ومشاركتهم في الجهاد القتالية أو العون والمساعدة منوطة بأن تكون في حالة من الصيانة والستر التام، وتكون كذلك حاجة ملحة لخروجها، إذ لولاه لحدثت مشاكل في صفوف المسلمين، أما إذا لم تكن هناك حاجة أو كانت خروجهن سبب لوقوع المحرمات فلا يجوز الحكم بها بتاتا^(٣).

وبالجملة فإن مشاركة النساء ومساهمتهن في موكب الدعوة لمظهر سامي من التكريم التي منحها الله عز وجل للنساء ضمن حقوقها، وبها أصبحت جزءا فعالا في المجتمع الإسلامي؛ فهن مثل الرجال في تحمل المسؤولية، وقد ظهرت صدى هذا المعلم في حياتهن منذ الرسالة النبوية ﷺ، فكانت منهن معلمات الخير والداعيات المخلصات والمجاهدات الصابرات في سبيل اعلاء كلمة الله.

ومن اللازم التنويه أن تحديد نطاق عمل المرأة في بعض المجالات ليست حكرا عليهم بل هي نوع من الرحمة واللفظ التشريعي بحالهن، وهكذا سنة الله جارية بين خلائقه حيث يجعل البعض مختصين لمهمة دون غيرها، وهذا لا ينقص من درجاتهن بشيء.

٢- التحلي بالأصول والتبني لمهام الدعوية: الدعاة هم حملة دين الله ورسالته العظيمة والتي أبت السموات والأرض مع كبرها أن يحملنها بثقلها، وقد كان الأنبياء والمرسلون أصحاب قوة وعزيمة خلقهم الله تعالى لأداء هذه الأمانة حتى وصلت سلسلتها إلى سيد المرسلين ﷺ فبلغها على أتم وجه، وأدى ما عليه وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين. ومن هذا المنطلق فالدعوة أمانة ومسؤولية يحتاج من صاحبها التهيؤ الكامل من التهيئة النفسية والخلقية والعملية والجسمية، وهكذا يجب عليهم حيازة الزاد المناسب من الوسائل والأساليب الرفيعة والتي تعين

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٧٨.

(٢) انظر: الخطيب الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ).

(٣) -١٩٩٤م)، ج ٦، ص ٣.

(٣) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٠٩.

الدعاة في مواصلة مسيرتهم، وكذلك التحلي بأداب الدعوة والتي تمنح الطريق جمالا، وتظهر لمدعوها سلامة الطريق واستقامتها؛ ومن هنا فقد كانت السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات والتسليمات نموذجاً لتهيئة دعاة الإسلام، والمدينة مهذا ومدرسة لتربية أولئك، وعملهم معلماً أساسياً في فقه الداعي.

فقد روى ابن سعد في طبقاته: أن رسول الله ﷺ لما عاد من صلح بدأ يرسل الملوك وحكام الدنيا يدعوهم فيها إلى الإسلام، وقد كتب إليهم خطاباً، "فقل: يا رسول الله: إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مَخْتُوماً. فَاتَّخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمَئِذٍ خَاتماً مِنْ فِضَّةٍ. فَضَّهْ مِنْهُ. نَقَشَهُ ثَلَاثَةَ أَصْطُرٍ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. وَخَتَمَ بِهِ الْكُتُبَ. فَخَرَجَ سِتَّةَ نَفَرٍ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. وَذَلِكَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةِ سَعٍ. وَأَصْبَحَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْقَوْمِ الَّذِينَ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ"^(١).

ويستفاد من هذه الرواية كما يقول البوطي رحمه الله: إنه يجب على المسلمين أن يكون على أهب الاستعداد لأمر الدعوة، وأن يهيئوا أنفسهم لحملها في أرجاء الأرض ويتزودوا بالزاد الدعوي من الوسائل والأساليب المتاحة. ومن أهم هذه الأسباب المعرفة بلغة القوم والمدعوين الذين يتوجه إليهم دعوة الإسلام والتعريف بمبادئه وأصوله، وهكذا فقد بعث الرسول ﷺ من بين أصحابه الذين كان لهم المام بلغات الأقوام الذين كانت يرسلهم^(٢).

وهكذا فتعلم لغة المدعوين تساعد الداعي إلى الله في مهمته ويقصر عليه المسافة بينه وبين المخاطبين ويجعلهم مترابطين به، كما تبعد التنافر والوحشة التي طالما توجد في أكثر الأحيان، وكذلك يفتح بينهم باب الحوار والمناقشة والتي تؤدي في أكثر الأحيان اليسر والتأليف، ومن هذا المنطلق يجب على الداعية أن يجيد لغة المخاطبين مع لغة الدعوة بأساليبها ووسائلها حتى تأتي المحصلة بأتم وجه منها.

وليست التهيئة لأمر الدعوة منحصرة في تعليم لغة المخاطبين فحسب بل هي نموذج من تلك الحزمة الضخمة التي تمس إليها الحاجة في وقتها وحينها. وقد تتبع الباحثون من خلال السنة النبوية الشريفة على بعض أهم المعالم والأصول والأداب الدعوية التي يحتاجها الداعية في مهمته، ومنها على سبيل المثال مجال البعوث والمراسلات أو ما يعرف بأعراف الدبلوماسية الإسلامية، فقد يرون: أن النبي ﷺ ميز نهجه في اختيار الرسل والسفراء وغالبا ما يشبه في أكثر الأحيان بالأعراف المألوفة الجارية في الدبلوماسية الحديثة، وكانت أهم مظاهرها: أنه كان يراعي الأناقة وجمال الخلقة، ويختار الأكفاء الممتازين بصفاتهم ممثلين لأمتهم. ولذلك أرسل النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل الروم، وكان أجمل أهل زمانه وأحسنهم صورة، وهكذا في باقي الرسل والسفراء فكان معاذ بن جبل، وعبد الله بن حذافة السهمي وأبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا من أعقل الصحابة وأطلقهم لسانا وقوة حجة وأحسنهم حديثا وأجملهم صورة وقد كان جملة هؤلاء الرسل من الصحابة من المعروفين بين مجتمعهم بالعلم والكتابة والإدارة^(٣).

(١) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٩٨.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٧٣.

(٣) انظر: كرمي، أحمد عجاج، الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص ١٣٠.

وقد كان من دأب النبي ﷺ أنه كان يستعين بأصحاب الكفاءات العالية والفهم الدقيق في الأمانة وأصحاب العلم الغزير، وذلك لأن الأمانة من أكبر مقاصدها دعوة الناس، وأحق الناس بها أعلمهم بكتاب الله عز وجل. فقد نقل ابن هشام في سيرته أن وفد ثقيف لما أسلموا، كتب لهم الرسول ﷺ كتابهم وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص مع حداثة سنه، وذلك أنه كان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الإسلام^(١).

وعلى هذا فقد استنبط الدكتور البوطي رحمه الله حكما من هذه الواقعة أن الإمامة والحكم في أصلها مسؤولية دينية ومن أهم مهامها إقامة الحكم وتأسيس المجتمع الإسلامي على طبق الدين، ولا يتيسر ذلك إلا بتوافر هذا الشرط فيهما^(٢).

وبعد سرد هذه النماذج العملية من سيرة الرسول ﷺ نستدرك أن الدعوة الإسلامية مهمة ومسؤولية عظيمة، وضعت على عاتق الدعاة، فيجب عليهم أن يقدموها بروح من المسؤولية ويكونوا مؤهلين لها نفسيا وخلقا وجسميا وأدبا وأصولا، وذلك حتى تكون دعوتها صحيحة ومطلوبة.

ومن هنا فقد يلزم على أولي الأمر في المجتمعات الإسلامية أن يختاروا لهذه المهمة الأكفاء والمؤهلين وأن ينشؤوا إلى جانبها صروحا علمية تعد الدعاة والمحتسبين في مهامهم ويدربهم على أحسن وجه، وهكذا فليست الدعوة تكليفا عاديا بل يناط معها إقامة الدين والمجتمع الإسلامي، ومن حسن الحظ أن في الأمانة الأخيرة تنبئت لهذه المهمة الجامعات الإسلامية فأسسوا كليات ومعاهد تخصصية لتدريب الدعاة وتأهيلهم وأينعت جهودهم في ترشيد الناس وإصلاحهم.

المطلب الثاني: أهم صفات الداعية المستنبطة من الفترة المدنية

كانت الفترة المدنية هي المرحلة الخصبة للدعاة من جميع المجالات في أعدادهم وتثقيفهم، وقد قدمت لهم في كل الأنحاء زادا وخلقا علمية، وعلى رأسها الفقه المرتبط بشخصيتهم وصفاتهم التي يجب أن يتحلوها في دعوتهم مقتبسين من شخصية إمام الدعاة والمرسلين ﷺ، وذلك لأن حياته الطيبة كان نموذجا كاملا وأسوة تامة، وقد اكتملت في تلك الفترة ما كان عليه أداؤه. ولقد استنبط الدكتور بوطي رحمه الله ببصيرته الشحذة الصفات الأساسية التي يجب على الدعاة أن يتخلقوها، وسنقف على أهمها كالآتي:

١- الحزم في مواطن القيادة: من أهم الصفات التي يجب على الدعاة التخلق بها الحزم والقطع في الأمور، فطالما حياة أولئك مواجهة بإثارة الشكوك والإغراءات والتراجعات نتيجة التردد النفسي عند البشرية، أو فقدان الأمل أو الخذلان من قبل المجموع.... وكل هذه الأمور تؤخر الدعوة عن مواصلة مسيرها، وتورثها التخلف والهزيمة؛ وللظفر والانتصار عليها حري لهم أن يتحلوا أولئك بصفة الحزم والقطع في الأمور، بيد أن ذلك لا تعني التهور وترك الأسباب وعدم النظر إلى المآلات، بل هذه الصفة تحمل في طياتها الالتزام بمبدأ التشاور والنظر إلى المآل والأخذ

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٥٤٠.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٣٦.

بالأسباب، وهي بذلك نوع من التوكل على الله عزوجل والتسليم لقضائه وقدره بعد الحث والعمل المطلوب، وتنتج منها الأمل والرجاء من الله عزوجل والاعتقاد أن الأمور بيده أولاً وأخيراً.

ولسوف يدرك الدارس للسيرة النبوية المطهرة مدى امتلاك النبي ﷺ لهذه الخصلة بحد أكبر، ونلمح كذلك في أكثر الأحيان النتيجة المرجوة لهذه الصفة التي كانت يملكها ذاك القائد الرباني الفذ.

فقد نقل أصحاب السير قصة غزوة أحد أنه لما سمع النبي ﷺ بمقدم جيش قريش لحرب المدينة اجتمع بأصحابه وشاورهم بين الخروج لملاقاة العدو أو البقاء في المدينة، وقد كان رأي النبي ﷺ وبعض الشيوخ من الصحابة وكذلك عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين البقاء في المدينة، إلا أن رأي كثير من الصحابة وبما فيهم الشباب وخاصة الذين لم يكن لهم شرف المشاركة في بدر لصغر سنهم كانوا ملحين للخروج، وبعد التحاور في القضية نزل الرسول ﷺ إلى رأيهم، وعلى أثرها دخل بيته للبس درعه وأخذ سلاحه، وفي الأثناء ظنوا الملحين للخروج أنهم استكروها النبي عليه الصلاة والسلام إلى ما أرادوا، فندموا على فعلتهم، ولما خرج قالوا له: "يَا رَسُولَ اللَّهِ: اسْتَكَرْهُنَاكَ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لَأْمَتُهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ"^(١).

وقد يستفاد من هدي النبي ﷺ في هذه القصة مدى عزمه الراسخ وحزمه تجاه القضايا، وأنه كان يتوكل على الله ويوكل إليه النتيجة بعد التشاور، وتلك حكم إلهي في الأمور الدنيوية كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وعن ثمرة الحزم في الأمور الدعوية والقيادية يقول البوطي رحمه الله مستفيداً عن هذه القصة قائلاً: ولعل الحكمة الجليلة في هذه القضية توحى أن البحث في الأمور القتالية بعد التأهب على إثر قرار المشورة يحتاج إلى حزم وعزم شامخ، ولو نزل الرسول ﷺ إلى طلبهم مرة أخرى لكانت الأمر دال على الضعف والإضطراب في الإدارة، وبالتالي تكون ذلك نبعا من الخوف والحذر الذين لا معنى لهما في شخصية الرسول ﷺ، ولذلك أجابهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله البالغ معبرا عن كل الحزم والعزم "مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لَأْمَتُهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ"^(٢).

وبناء عليه فإن العزم في القيادة تطرد الوهن والخوف بين الأتباع والتي تطرأ إلى نفوسهم نتيجة العوامل المختلفة وبالتالي هو دليل على الإرادة القوية والتي تكسب المعارك والمواقف. وخير دليل على ذلك حزم النبي ﷺ وجرأته في غزوة حنين حين لاذ المسلمون في أول وهلة بالفرار، وكان عزمه الشامخ وثباته سببا لتحويل الهزيمة إلى النصر، فقد روى الإمام مسلم حديث عباس رضي الله عنه حيث يقول عن مشهد تلك المعركة قائلاً: (شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حَنْيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَعْلَةٍ لَهُ يَبِضُّاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فِرْوَةٌ بَنُ نُفَاتَةَ الْجُدَامِيِّ، فَلَمَّا التَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكَفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٦٣.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٩٣.

فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قَبْلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْفُهَا إِرَادَةً أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ عَبَّاسٍ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا، فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيُّ أَصْحَابِ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللَّهِ، لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَيْتَكَ، يَا لَيْتَكَ، قَالَ: فَاقْتُلُوا وَالْكَفَّارَ، وَالِدَعْوَةَ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَظَنَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوُطَيْسُ، قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصِيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: أَنْهَزْمُوا وَرَبُّ مُحَمَّدٍ (١).

وقد صور الحافظ ابن كثير في تفسيره عن آيات غزوة حنين عن الواقعة وتأثيره بألفاظ رائعة مجملها كالآتي: ويدل هذا على غاية ما يلزم من الشجاعة التامة في تلك اليوم العصيب وبالتحديد في وسط الوغى والمعركة حيث إنكشف عنه جيشه وهو على بغلة غير سريعة الجري والتي لا تقوى للكر والفر، وهو مع ذلك يركضها نحو الأعداء ويعلم اسمه بينهم... وما هذا إلا ثقة بالله وتوكلا عليه ويقين بأنه سينصره ويتم كلمته ويجعله فوق سائر الأديان (٢).

ويتضح عن هذه النماذج النبوية الطاهرة أهمية الحزم والعزم الراسخ في المعارك والمواقف، فإن ذلك تطرد التزلزل والتردد التي طالما تحتل في قلوب المدعويين، وقد يكسب بفضلها المعارك ويبدل الخوف إلى الأمن والطمأنينة والهزيمة إلى النصر.

ولكن ينبغي الإشارة أن تلك الخصلة لا يصدر إلا عن مؤمن متوكل بالله العظيم، والذي يوكل أموره إلى الله ويوثق بنصره، ويدخل فيها نوع من المسؤولية التي يستشعر بها التربية الإسلامية التي تنشأ عليها، وهكذا كلما كان الداعية له من النصيب والحظ لهذه السجية تكون موفقا في عمله ومهمته ويحصد النتائج الفائقة والتي ندهش له الآخرين، وذلك لأن الله يمنح لعباده على قدر ظنه ورجاءه منه؛ فإن كانت قويا يحصد ثمرة يانعة وكثيرة.

٢- الفراسة في توقع الأخطار المحيطة: الدعوة الإسلامية هي ذاك التوجيه الرباني التي تعم المعروف وتزيل المنكر عن الحياة البشرية في شتى المجالات الحياة الإنسانية، وبطبيعة الحال تحمل لصاحبها المشاق والمعاسر، وتورث العداء والشحناء من قبل المدعويين أحيانا، ونادرا ماتواجه بالرد الجميل، وذلك لأن طبيعة البشرية جبلت على الطغيان والتمرد، وجانب الفجور كذلك في النفوس تتطلع إلى التغلب على جانب التقى والصلاح.

وعلى هذا المنطلق نرى أصحاب الباطل يحسبون دعاة الحق أعداء لشخصيتهم وقيادتهم وأموالهم، وبالتالي ينتهزون الفرص لتشويه سمعة أولئك، ومن ثم القضاء والنيل منهم، وهكذا لسوف يدرك الناظر في تاريخ الدعوة

(١) صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين، رقم الحديث: ١٧٧٥.

(٢) انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، ج ٤، ص ١١٣.

أن أغلب المواجهات والردود تجاه المرسلين والدعاة كانت قائمة على الهوى الباطل والخطر على المصالح الشخصية.

ونظرا لأهمية هذا الأصل يجب على دعاة الحق أن يكونوا بعد عقيدتهم بالتوكل على الله عزوجل أن يكونوا متخلفين بصفة الفراسة والفتانة والتي توقع الأخطار المحيطة حولها قبل وقوعها، ويكونوا على أهب الإستعداد لتحملها والرد عليهم حتى يكون الأمر يسيرا عليهم.

وقد تطرق لتعريف هذه الخصيصة الإمام فخر الدين الرازي قائلا: "الفراسة هي الإستدلال بالأحوال الظاهرة على الأحوال الباطنة. وعن تعليل ثمرته وفوائده يقول: الإنسان موجود مدني الطبع، ولا ينفك عن مخالطة الناس، والشر فاش في الخلق، وإذا كانت هذه الصناعة تفيدنا معرفة أخلاق الناس في الخير والشر كانت المنفعة جلية" (١).

ويقول الإمام ابن القيم الجوزية: "إن الفراسة هي أن يدرك الإنسان باطنه بالظن الصائب، ويكون أعلى صورته خاصة بالصادقين والعارفين بالله، والذي ترتبط هممتهم بمحبة الله وعبوديته ومعرفته، وعلى هذا يكون فراستهم متصلة بالله تعالى وتكون مرتبطين بنور الوحي مع نور الإيمان، ونتيجة الأمر يميزون بين ما يحبه الله وما يبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال..." (٢).

ويتضح مما سبق أن الفراسة والبصيرة هي النظرة الحاذقة في الأمور وارتباط نتائجها الخفية المتوقعة على المقدمات والطباع الظاهرة العاجلة والموجودة بين المدعويين؛ وهي بذلك خصلة متفوقة يمنحها الله لأصحاب المواهب العالية وذات الصبغة القيادية والتي طالما لا ينتبه لها إلا الأكفاء، فنظرتهم لا يكون للقريب العاجل بل تكون مداها إلى أبعد حد وما خفى من الأمور.

ومصدر هذه الفراسة والبصيرة ليست قائمة على التجربة ولا تنال بالكسب بل تكون مرتبطة بالنور الإلهي والذينزل على قلوب وعقول أصحابها تفضلا منه، وعنه يقول ﷺ: (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ) (٣).
ولسوف يدرك الدارس المتفحص للسيرة النبوية مدى هذه الخصلة في حياة ﷺ كان يتخذ قراره ومواقفه في بعض الأحيان عليها، حتى أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يتعجبون لتصرفه ولكنهم سرعان ما يدركون صحة ما كان يفعله.

نقل أصحاب السير: أن الرسول ﷺ عقب غزوة أحد أمر جمع المسلمين والذين لاقوا من القرح والمصائب بالأمس أن يخرجوا لطلب العدو، وقد أذن مؤذن منهم بأمر النبي ﷺ أن لا يخرجن معنا إلا من حضر بالأمس، ولقد انضم إلى المجموعة بعض الذين حبسهم العذر أمثال جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، حيث قال للنبي عليه الصلاة

(١) الرازي، فخر الدين، الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح، تحقيق: مصطفى عاشور (القاهرة: مكتبة القرآن، ب ت ط)، ص ٢٩

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م)، ج ١، ص ١٥٠.

(٣) سنن الترمذي، باب: ومن سورة الحجر، رقم الحديث: ٣١٢٧. حكم الألباني على الحديث: أنه ضعيف.

والسلام: يارسول الله! إن والدي خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني! لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع النبي ﷺ على نفسي، فتخلفت عليهن، وهكذا أذن له النبي ﷺ بالإنضمام للمجموعة وخرج معه؛ وقد كان خروج هؤلاء لترهيب العدو، وتبليغهم أن بهم قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن مهاجمة عدوهم، وهكذا وصلت بهم المسيرة إلى حمراء الأسد فأقام بها أربعة أيام حتى رجع إلى المدينة.

وقد كان هذا الخروج سدا منيعا أمام أطماع الأعداء والذين كانوا على قصد الهجوم على المدينة بعد ظهور النصر والظفر الذي نالوه بالأمس؛ فقد لقي بعد خروج النبي ﷺ معبد الخزاعي أبا سفيان بن حرب زعيم قريش، وكان جمعهم يأترون الرجوع إلى المدينة للقضاء على المسلمين وصفوان بن أمية ينهاتهم، فقال له معبد: إن محمدا خرج في أصحابه يطلبكم في جمع غفير لم أر مثله قط، يتحرقون قلوبهم عليكم تحرقا، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في الأمس، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحق والغيط عليكم شيء لم أر مثله قط؛ فأدخل الله بذلك القول رعبا عظيما ولاذوا هؤلاء المشركين مسرعين نحو مكة^(١).

والدرس المستفاد من هذه الواقعة كما يقول البوطي رحمه الله: إن خروج النبي ﷺ مع أصحابه في هذه المرة لم يكن في طمع الغنيمة أو لأي غرض دنيوي، بل كان تطلعا للنصر والشهادة في سبيله، وقد قدم بين يديها بالأمس الجراحات الدامية والقروح المؤلمة، وقد حال هذا الفعل أمام تطلعات المشركين ومطامعهم والذين كانوا مصممين على غزو المدينة بعد لذة الانتصار ونشوة الظفر التي ربطت على قلوبهم على إثر الحرب، ولقد كان السبيل إلى ذلك آية إلهية خارقة لتكميل الموعظة والدرس الذي قدم لهم بالأمس وذلك أنما النصر يكون مع الصبر، وطاعة أولي الأمر والقائد الصالح وابتغاء القصد الديني، وفجأة ألقى الله في قلوب المشركين الرعب الغريب من المسلمين؛ فارتدوا على أعقابهم منطلقين نحو مكة، فجمع بذلك مظهرين من الدرس الإيجابي والسلبي في آن واحد^(٢).

ويتضح مما سبق مدى فراسة النبي ﷺ كقائد رباني، وأهميتها في قيادة الأمور؛ فقد أشار على المسلمين بالخروج لملاقاة المشركين رغم ما أصابهم القرح والمصائب الكادحة في الأرواح، ولم يتبرأ جروحهم، وقد كان هذا الخروج حاملا في طياتها نتائج عظيمة منها: الإعداد للدفاع عن الخطر المحتمل والتي طالما الأعداء يتطلعون لغزو المدينة على إثر نشوة النصر بالأمس القريب، وقد أحيل الخروج مطامعهم، وثانيا النهوض بجماعة المسلمين وإزاحة الهم والغم على ما أصابهم بغية أن يعلم المسلمين أن جماعتكم لا ينبغي لها التقاعس على أثر هزيمة أو هزائم، وكذلك اظهار قوة المسلمين للأعداء وأن فيهم مازالت قوة يتحملون الدفاع، ولن يصرفهم هذه وغيرها من المعارك عن حمل رسالتهم، وأخيرا فقد كان الخروج اندمالا وتشفيا لصدور المسلمين بعد الهزيمة وابدالها بالنصر.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ١٥٠، و تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٥٣٤.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٠٠.

ومما ينبغي الإشارة إليها كذلك أن التحلي بصفة الفراسة ليست متوقفة على جانب الأخطار والحروب فحسب بل يتعدى إلى كل جوانب الحياة، ويكسب متخلقها السياسة والأمر، ومفقدوها يخسر الميدان، ولسوف يلمح القاريء للسيرة النبوية مدى أهمية هذا الجانب في كل الأمور.

ولقد أحسن الدكتور بوطي رحمه الله بكلماته كذلك أثار صلح الحديبية وأظهر بوضوح مدى هذه الخصلة في كسب القضية من قبل الرسول ﷺ فيقول: ومن الحكم الباهرة أن صلح الحديبية كانت مقدمة للنصر العظيم وهو فتح مكة، وبابا ومفتاحا له، وعلى هذا لم يكن المسلمين منتبهين له في حينه، وذلك لأن المستقبل غائب عنهم وأنى لهم أن يفهموا علاقة الواقع برؤية الغيب الذي لم يتخيله ويتصوره بعد. ولم يمض منها فترة وجيزة إلا وهم يدركون ويستشفون من أهمية هذه الهدنة، وما يتحمل في طياتها من الخير والبركة حيث أمن الناس بعضهم بعضا، واختلط المسلمون بغيرهم فدعاهم إلى الإسلام وأسمعهم القرآن، وجادلهم جهادا، وظهر منهم من كان متخفيا بالإسلام. والسر في تعجب المسلمين بأدي الأمر عن شروط الصلح وقوفهم على أرضية من البشرية العادية، وبالتالي هم كانوا لا يدركون إلا بمقدار ما تفهمه عقولهم العادية، ولا ينظرون إلا ببصيرتهم والقائمة على الخبرات المحسوسة، وفي المقابل فقد كان ﷺ واقفا من تصرفاته الفائقة والمميزة على مستويات البشرية حيث كان يمد بالنبوة المطلقة والتي توجهه وتلهمه، وكان إلى جنبه متحظيا بالفراسة النيرة المستقية من نور الله عز وجل^(١).

ونتيجة لما سبق يتضح أن الفراسة والذكاء والبصيرة هن ذاك الخصال المميزة والتي يتحري للدعاة أن يتحلوا بها حتى يتقي أنفسهم من الأخطار المتوقعة، ويستدرك الجوانب الخفية، وتمنحهم الفرص لعمل الخير، وكذلك يسهل عليهم أن يتغلبوا على الصعاب، ويختاروا من الوسائل ما هو أنسب وأجدر استعمالها في دعوتهم.

٣- المساهمة والوقوف مع الأفراد جنبا إلى جنب: اتسمت أمر الدعوة في الإسلام بوجود جماعة وطائفة من المسلمين يقومون بهذه المهمة الجليلة، يسودها النظم والنسق؛ وذلك لأنها فريضة متعدية يحتاج اجراءها إلى فئة متعددة ورائد يتأمر عليهم فيرشدهم إلى ما فيها خير وصلاح، ويرسم لهم معالم النجاح بحكمة حسنة وخطة رشيدة، وليس هذا الرائد الذي يرأس هؤلاء متميزا عن الباقين، ومنحصر مهمته في الأمر والنهي، وحياسة الحقوق دون الوجائب، بل تكون على خلاف الأنظمة الوضعية واضعا على كاحله مسؤوليات نفسه وغيره، وهو بذلك كبير الأسرة لن يميزه إلا تحمل المشاق والمسؤولية.

والمطلع على السيرة النبوية الشريفة ليلمس مدى هذا الأصل في شخصية النبي ﷺ، فقد كان دوما بين أصحابه، وما أن كان يأمر بأمر إلا وهو أول الفاعلين له، وكان يساهم مع أتباعه في جل أمور الدعوة ويقف مع أصحابه كأنه واحد منهم، وما على الدعاة إلا أن يستلهموا من هذا القبس ويصير في دعوتهم عليها.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٥١-٢٥٢..

فقد روى الإمام البخاري حديث البراء رضي الله عنه حيث قال: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ) ^(١).

وعن الدرس المستفاد عن هذا الحديث المبارك يقول الدكتور البوطي رحمه الله: إن هذا المشهد دال على العبرة البالغة وتجسيد لحقيقة المساواة في المجتمع الإسلامي المثالي، فليست هذه القيمة مجرد شعار التزين بل كانت منبعاً للقيم والمبادئ الإسلامية العامة الظاهرة والباطنة.

ومن هنا فقد نجد أن الرسول ﷺ مثلاً للمساهمة والوحدة، ولم يكن كغيرها من القواد يندب لأوامر ويراقب ذلك من قصر منيف، مستريحاً هادئاً، ولا كعمل يتبغي من ورائه رؤيا الناس في المحافل ويمسك معولاً بأطراف أصابعه؛ ولكن الرسول ﷺ كان كأبي واحد من أصحابه حتى أن الأتربة والغبار كان علي جسمه على هيئة الثوب، ويشاركهم في الجوع والتعب؛ بل أولهم منهم. وتلك هي حقيقة أقامها الدين الإسلامي من مساواة بين الحاكم والمحكوم والصلعوك والأمير، وهكذا كل فروع وتطبيقات الشريعة قائما على هذا المبدأ وضامنا لهذا الأساس والحق.

ومما ينبغي الإنتباه إليها أن مصدر هذه القيم أي العدالة والمساواة في الدين نتجت عن أصل العبودية لله عز وجل وهي بذلك صفة شاملة للخلق كلهم، وتضعهم في صف واحد من الإعتبار والمكانة ^(٢).

وبناء على ما تقدم يتضح أهمية مشاركة القائد الدعوي مع أتباعه في الأعمال وخاصة فيما يتعلق بالدعوة، فإنه تورث فيهم الجد والنشاط ويجعلهم واثقين من مهمتهم، فيخطون خطوات متينة لا يترددون فيها، ومن ثم يتنافسون فيما بينهم حتى يتسابقوا إلى الخير وينالوا أجر السباق، وأما في الجانب الآخر فإن عمل الرائد سبب لتحبيه بين المدعويين وكذلك بين مجموعته، وسوف يطمثون على قيادته وأعماله، وأخيراً فإن المشاركة والتقديم إلى الأعمال والمهام من قبل القائد مطلب شرعي يلزم على الدعاة أن يتأسوا بإمام الدعاة والمرسلين ﷺ، ويقوم بالأوامر قبل غيرهم، وذلك لأن مهمة الدعوة تلزم على دعائها التحلي والإلتزام بها أولاً.

ومما سبق ذكره فإنها كانت مرتبطة بمشاركة القائد مع مجموعته، وهناك مطلب يجب أيضاً الإلتزام بها وهي أن مجموعة الدعوة تلزم عليهم المساهمة والتقديم لأمر الدعوة، فما دام وصلت إليهم رسالة الإسلام فيصبحون كل منهم دعاة، فبعد ما كانوا مدعويين يصبحون دعاة حملة للخير والحق، وعن هذا يقول البوطي رحمه الله: إن مسؤولية الإسلام ملقاة على أعناق المسلمين في كل عصر ومكان وبيئة، ولا يكفي مجرد الانتساب إلى هذا الدين والإدعاء بالألسنة ولا أداء الأعمال اليسيرة، ولا أن يتمسك المجموعة التي وصلت لهم رسالة الإسلام ثم يغلقوا الباب أمام الآخرين؛ بل إن المسؤولية واضحة علي أعناق المسلمين قاطبة، وما عليهم إلا أن يقوموا بواجب الدعوة والحث والتبشير له والسفر والجهاد في سبيله حتى يرفع كلمة الله في العالمين قاطبة.

(١) صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: حفر الخندق، رقم الحديث: ٢٨٣٧.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٣٥.

ومن هنا ذهب الفقهاء أن هذا الواجب لا يتعلق بذكور المسلمين فحسب بل يتعدى إلى جميع المسلمين رجالاً ونساءً، أحراراً وعبيداً، وبمجرد قبول الدين يتحول التكليف إلى رقتهم، إن كانوا قادرين على حمل عبء الدعوة والتوجيه في إطار إمكاناته ووسائله المتاحة^(١).

ومما سبق نستخلص أن المشاركة بالقيام في أمر الدعوة ذمة على عاتق المسلمين قاطبة، ويتحملونها أولئك بمجرد وصول رسالة الإسلام إليهم، وبالتالي يجب عليهم أن لا يتكفوا بالإسلام بمجرد الانضمام إلى المدعوين، بل يصبحوا دعاة للخير وحملات للهدى الرباني؛ تلك ميزة وفضيلة منحها الله عز وجل لهذه الأمة، وسر وصول الإسلام إلى ربوع الأرض وأقطارها بالسرعة الفائقة.

وأخيراً ينبغي الانتباه أن القيام بكل هذه المهام تكون رهينة الاستطاعة وبتوفير الإمكانيات المتاحة وذلك لأن أساس التكليف هي الاستطاعة.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٤٢.

الفصل الثالث

فقه المدعو في العصر المكي

الركن الثالث لأركان الدعوة والذي يقوم عليه مهمة الدعوة هم المدعوون وهم الذين توجه لهم الدعوة، وهم بذلك الركن الفعال إذ لولاهم لما قامت هذه المهمة، وهكذا الداعي وموضوعه هم الفاعلون والفعل الذي يقدم به إلى المدعويين، وأما المدعوون فهم المخاطبون بالدعوة والذين يقع عليهم تلك الرسالة على عاتقهم، وبالتالي لو لم يكن هؤلاء لما مست الحاجة إلى الدعوة وما قامت جماعة أو طائفة باسم الدعوة.

ونظراً لأهمية هؤلاء يحسن بنا قبل أن نتطرق إلى فقه المدعويين أن نعرض إلى تعريف هؤلاء:

المدعو اسم مفعول من فعل دعا، يدعوه فهو "مدعو"، و أما معناه الإصطلاحي فهو من توجه إليه الدعوة، وبعبارة أخرى المدعويين: هم جنس البشرية مطلقاً، سواء أكان قريباً أم بعيداً، مسلماً أو غير مسلم ذكراً أو أنثى... وهكذا كل الأوصاف التي التحق بهم^(١).

والناظر في هذا التعريف ليدرك مدى تميز واشتمال التعريف بالنسبة لسائر المدعويين في دعوات الديانات الأخرى وذلك لأن الرسالة الخاتمة اتسمت بشموليتها وعالميتها، فمدعويتها لا يحد بالزمن دون زمن، ولا مكان دون مكان بل يتسع إلى كل الأطياف والجماعات أياً كان صفتهم وشمائلهم، وهكذا يتسع دائرته على كل واحد على حد سواء كان مؤمناً أو غيره، وذلك لأن الدعوة لا توجه إلى الخارجين فحسب؛ بل الأولى أن يكون للمعتنقين والمؤمنين قبل غيرهم، وبهذا الدعوة موجه إلى أمة الإجابة والدعوة على السواء.

ويضيف عليه الدكتور زيدان على التعريف السابق كلمة البالغ والعاقل فيقول المدعو "هو الإنسان المخاطب بالإسلام ومكلف بقبوله، والإذعان له وهو البالغ العاقل مهما يكون جنسه ونوعه ولونه ومهنته وإقليمه ذكراً أو أنثى، و..."^(٢).

ويمكن أن نصوغ بناء على ما تقدم تعريفاً لفقه المدعويين فهو: الفهم المتعلق بالمخاطبين والذين توجه لهم الدعوة، ومعرفة ما لهم وما عليهم، وذلك بالتعامل الأنسب بما يوائم واقعهم وحالهم، وكذلك معرفة الوسائل المناسبة التي تؤدي إلى إقنائهم.

ومن هنا ففقه المدعو في الحقيقة هي معرفة الأحوال والوقائع المساعدة لجلب المدعويين وكذلك اقتنائهم باختيار الوسائل المناسبة لحالهم؛ فإنهم بذلك غاية الدعوة، ولهم حقوق في مهمة الدعوة، وأما في الجانب الآخر فإنهم بعد قبولهم للدعوة يصبحون أمة إجابة مطالبين ببعض الوجائب تجاه الدعوة ودعاتها.

(١) انظر: البينانوني، محمد أبو الفتح، المدخل إلى علم الدعوة، ص ٤٢.

(٢) زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، ص ٣٧٣.

ومعرفة هذا الفقه من الدعوة يعين دعاة الحق في مسيرتهم بحيث تسرع دعوتهم ويجنبهم عن الوقوع في المزالق التي تعترى في طريقهم. ولقد كانت السيرة النبوية ﷺ هي الزاد المناسب في هذا الجانب، ولا يمكن لحاملي الدعوة الإستغناء عنها، وسوف نقف بناء على ذلك على الدروس المستفادة منها في ضوء أفكار أعلامنا الثلاثة:

المبحث الأول: فقه المدعو في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى مودودي

لقد كانت الفترة المكية من دعوته ﷺ هي المرحلة الأساسية لدعوة الحق حيث بزغت شمس الدعوة في جو مظلم وغامس بعد طول الزمن حيث نسيت البشرية عهدهم الأزلي تجاه خالقهم وإلههم، وانخرطوا في سبيل الشيطان والطواغيت، وهكذا كانت مهمة النبي ﷺ صعبة إلا أنه مارسها بتوجيه وحكمة إلهية إلى أن اجتازها، وقد كانت دعوته للمدعوين قائمة على أساس فقه وتدبر. ومن أهم مجالاتها معرفة واختيار العوامل التي تجلب المدعوين، وكذلك معرفة الخصوم وخطتهم اللثيمة؛ وعلى هذا المنطلق سوف نقف على أهم معالم هذا الجانب في ضوء تعليقات إمام الفكر والدعوة في عصره أبو الأعلى المودودي كالآتي:

المطلب الأول: العوامل المؤثرة في جلب المدعوين

لمّا كان المدعوون هم المخاطبون والمقصودون في الدعوة، فلأجلها لزم على الدعاة أن يعتنوا في طريقهم بالعوامل المؤثرة التي تجلب المدعوين، وتكون سببا لنجاح دعوتهم. وعلى هذا فالوصول إلى هذه الغاية ليست ميسورة الحال بل يحتاج من صاحبه الإتقان والتفنن حتى تأتي ثمرة دعوته يانعة ويكسب الظفر عليهم. ولقد كان الرسول ﷺ هو الأسوة المتأسية في الدعوة، فقد سلك في دعوته بخطوات متينة، واختار لنجاح مهمته التركيز على الفئات الخاصة من بين سائر المدعوين، واتخذ كذلك أساليب ملائمة لتجاذب وربط هؤلاء، ولسوف نقف على أهم هذه المجالات كالآتي:

١- البدء بالأقرباء والعشيرة أولاً: تتسم الدعوة الإسلامية بسمات منفردة تميزها عن باقي الدعوات أهدافا وموضوعا وكذلك وسائل وأساليبها؛ وعلى هذا فهي دعوة للخير وتحمل الصبر والمشاق، وما يميز هذه المهمة عن الدعوات الوضعية أنها قائمة على جلب المصالح المادية البحتة، وذلك لأن البشرية بطبيعتها ميالة إلى حب الخير للأقرباء والعشيرة كغريزة موضوعية فيها؛ إلا أن الدعوة الإسلامية تفارق عنهن فيها؛ فأصحاب هذه الدعوة مكلفون بعد اعتناق الرسالة أن يوجه هذا الخير إلى ذويه وأهله بحكم المسؤولية التي تؤول إليه، وهي أن يقي الإنسان بعد نفسه أهله من عذاب الله عز وجل، ولكن هذا الحب للخير ليست قائمة على دافع جلب المصالح المادية بل هي تشريك ومساهمة أولئك في حمل عبء هذه الرسالة وكذلك الاستفادة من قوة أولئك في تيسير الأمور.

وقد نهج النبي ﷺ في الفترة المكية بدعوته للمدعوين على هذا الدرب، ومن ثم كان بادي بدوه في مهمته هو الاهتمام بالعشيرة والأقرباء. روى أصحاب السنن والأثر أنه ﷺ بدأ دعوته بعد ما اطمأن عن مهمته وكانت متجهة نحو العشيرة والأقرباء، وبذلك دعاهم مجتمعين ومنفردين وفي مواقع مختلفة إلى دين الله عز وجل، فقد أخرج

الإمام البخاري في صحيحه عن حديث أبي هريرة حيث قال: (قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْزِيلَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) ^(١).

وهناك رواية أخرى ذكرها ابن الأثير في أثره "الكامل" بواقعة غير هذه فيقول: لما نزلت الآية المتقدمة على النبي ﷺ، ثقل عليه الأمر حتى أصبح مريضاً في بيته فعاده عمتاه فقال لهما: (مَا اشْتَكَيْتُ شَيْئًا وَلَكِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ، فَقُلْنَا لَهُ: فَادْعُهُمْ وَلَا تَدْعُ أَبَا لَهُمْ فِيهِمْ فَإِنَّهُ غَيْرُ مُجِيبِكَ. فَدَعَاهُمْ - ﷺ - فَحَضَرُوا وَمَعَهُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي الْمُطَّلِبِ، فَكَانُوا خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ رَجُلًا، فَبَادَرَهُ أَبُو لَهُمْ لَهَبٌ وَقَالَ: هَؤُلَاءِ هُمْ عُمُومَتُكَ وَبَنُو عَمِّكَ، فَتَكَلَّمْ وَدَعِ الصُّبَاةَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لِقَوْمِكَ فِي الْعَرَبِ قَاطِبَةٌ طَاقَةٌ، وَأَنْ أَحَقَّ مِنْ أَخَذِكَ فَحَبَسَكَ بَنُو أَبِيكَ، وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ فَهُوَ أَيْسَرُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَثْبُكَ بِطُونُ قُرَيْشٍ وَتَمُدَّهُمُ الْعَرَبُ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا جَاءَ عَلَى بَنِي أَبِيهِ بِشَرٍّ مِمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَلَمْ يَتَكَلَّمْ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ.

ثُمَّ دَعَاهُمْ ثَانِيَةً وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ"، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلُهُ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَاللَّهُ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَتَأَمُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَإِنَّهَا الْجَنَّةُ أَبَدًا وَالنَّارُ أَبَدًا) ^(٢).

ولسوف يدرك الباحث في تلك الروايتين مدى اهتمام النبي ﷺ على عشيرته وأقربائه، وذلك بانذارهم عن عذاب الله وتوجيههم إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم، ولم يكن ذلك التجمع بغرض المغنم والمكسب كما هو المعمول أحيانا في دعوة باقي الناس، أو حين مراسلتهم لدعوة الإسلام وتنبيههم أنه يبتغي ملككم بالإسلام، أو كما قال للعرب عامة أن بالإسلام ستملكون ملوك الأعاجم أو نحوه، بل كان كل ذلك اتقاء وحماية أولئك من الفرع الأكبر، وعن هذا يقول المودودي رحمه الله: "إن هذه الآية الكريمة الأنفة لتدل على مدلول عظيم وهي أن على الناس أن يعوا كما أن الرسول لم يميز برسائلته على الناس في المسؤولية فكذلك أهله وعشيرته لا تفصل عن باقي الناس في أمر الدين، وإذا ما لم يؤمنوا فإن صلتهم بالنبي ﷺ لم تنفعهم، وأنهم موجهون مع باقي الناس بنفس المرتبة لعذاب الله، وبهذا نبه الله عز وجل أن يبدأ دعوته بهم حتى يكون على بصيرة من أمرهم، وكان أول الناس في زمرتهم أولاد جده عبد المطلب ذكورا وإناثا على السواء.

(١) صحيح البخاري، كتاب: الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟، رقم الحديث: ٢٧٥٣.

(٢) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري (بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، ج ١، ص ٦٥٩.

وخير دليل على ذلك ذكره ﷺ لإبنته فاطمة رغم أن عمرها في تلك الفترة لم تتجاوز عن سنتين ونصف، وهي بذلك غير موجه للخطاب، ومسألة الأجر والعذاب لا يقدم أمامها، إلا أن ذلك كان تأكيداً لهم ولباقي الناس أن الخير والصالح الداعية لهم مطالبون بهم على السواء، وأن البعد عن أسباب التهلكة والعذاب مقصود ومرد الشرع بنفس الدرجة عنده على السواء^(١).

ومن جهة ثانية فإن النبي ﷺ كان ملزماً على تطبيق الدين على نفسه قبل أن يدعو به غيرهم، وكان يسعى أن يكون عشيرته سنداً وعوناً في تطبيق الدين قبل غيرهم. ومن هنا دعا في خطبة حجة الوداع حينما أعلن بطلان التعامل بالربا وكذلك الثأر بدم الجاهلية؛ فأزاح أولاً عن أقاربه حيث يقول: (قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لَا رِبَاً وَإِنَّ رَبَّ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضْعُ دَمِ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - وَكَانَ مُسْتَرْصَعاً فِي بَنِي لَيْثٍ، فَقَتَلَتْهُ بَنُو هَذِيلٍ)^(٢)، وبهذا طبق الدين وبرز النموذج العملي للناس فأقبلوا عليه طائعين^(٣).

ومما سبق يتضح أن دعوة النبي ﷺ المتجهة نحو العشيرة والأقرباء تنبئ على سماحة الإسلام، وكذلك بعد دعوته عن النزعات القبلية التي طالما ابتليت بها المجتمعات الإنسانية حيث ينسون غاياتهم ويتجهون نحو المادية، ومن جهة أخرى فإن دعوة أولئك سبب لتجاذب الكمية الكبيرة من الناس، وقد يرون بأعينهم التجسيد العملي للدين وثمارها الياقة فيطمئنون ما يقاله الدعاة إلى الله.

وقد تنبه لهذه الظاهرة من الناحية الاجتماعية والسياسية بعض كتاب السيرة النبوية النبوية، ويرون في هذا الصدد أن عمل النبي ﷺ ببدء دعوته عن العشيرة والأقرباء كان عملاً طبعياً ومقتضياً للحكمة حيث أن مكة بلد عرف بالروح القبلية، وبالتالي أولئك الأقرباء كان سبباً للنصرة والتأييد و حمايته، وهكذا يستفيد من منعه، ويمنع الأشرار من العدوان على حياته أو مسه بالأذى^(٤).

ونستنتج من كل هذا أن التركيز في مهمة الدعوة على العشيرة والأقرباء من إحدى العوامل المؤثرة في جلب المدعويين، وهي مع ذلك من الدوائر الأساسية التي يجب على الدعاة التنبيه لها في مهمتهم، وذلك بحكم ما يؤول المسؤولية بالدرجة الأولى للإنسان عن نفسه وأهله، حيث أمرنا الله بتطبيق كلمة الدين على أنفسنا وأهلينا، ولا شك أن استجابة هؤلاء سبب لنصرة الدين، وهي مع ذلك يمنح الدعاة مناعة فيتقدمون هؤلاء للدفاع والزود عنه بحكم الجبلية الموضوعية فيها والتي طالما الدعوة مواجه بالأخطار المحيطة حولها.

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ٤٦٩.

(٢) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (تاريخ الطبري)، ج ٣، ص ١٥٠.

(٣) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ٣، ص ٧٣٢.

(٤) انظر: خليل، عماد الدين، دراسة في السيرة النبوية (بيروت، دار النفائس، ط ١٣، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م)، ص ٦٦.

٢- الإهتمام على المدعويين المخلصين: لقد أنيط أمر الدعوة في الإسلام على وجود فئة مخلصة وهبوا أنفسهم لدين الله ، وأقبلوا على الإسلام طواعية بناء على صوت فطرتهم والنابعة من القلب الزكية ، وهم بذلك أنشأوا النواة الأولية للدعوة فأصبحوا أصحاب فضل وخير ، ونالوا عند الله مكانة مرموقة بناء على التسابق والتقدم نحو الخير... وهكذا دوما نشأة الدعوة واستقامتها مبني على وجود هؤلاء المذكورين وتضحياتهم وإخلاصهم العميق تجاه دينهم ورسالتهم ؛ وسوف يؤدي وجود هؤلاء سببا في دوام الدعوة والوصول إلى سلم النجاح .

وهكذا بداية كل دعوة إسلامية تكون غريبة الحال تبدأ عن لا شيء ، ولا يرافقتها أول الأوان إلا المخلصين والمحبين للحق وتستمر في مواصلتها حتى تكبر شملها ، وفي أوان نصرها ينضم إليها أفواج الناس فيرون نصرة هذه الرسالة على عين اليقين .

ولسوف يلمس الدارس لتاريخ الدعوة الإسلامية في تاريخها العريض اتكاء هذه الرسالة بوجود هؤلاء الأفاضل ، وقد أمر النبي ﷺ بناء على التوجيه الإلهي بأن يصبر نفسه مع هؤلاء في مسيرة الدعوة ، ويلتزم مع ذلك بجانب الحيلة والسرية والانضباط التام ؛ وذلك لأن بناء الجماعة المؤمنة يتم بهدوء وتدرج وسرية ، وكان شعار هذه المرحلة هي الالتزام مع هؤلاء ، وعنهما يقول تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

وعن هذه الآية يقول السيد مودودي رحمه الله : "إن هذه الآية كانت ردا لازعا على مطالبات كبراء المشركين حيث عرضوا على رسول الله ﷺ مجالسته بدل طرد الطليعة المخلصة الفقيرة أمثال بلال ، صهيب ، خباب وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهم ، وبناء على ذلك رد الله مطالبتهم وأمر نبيه بأن يلزم مع هؤلاء الذين يذكرون ربهم ليلا ونهارا ولا تعد عينيك عنهم واطمئن بهم حتى تصل لمقصودك . ونفس المطالبة كانت من قبل كبراء قوم نوح عليه السلام حيث قالوا له: ﴿فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَلْنَاكَ إِلَّا آيَاتٍ لِلَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِنَا بَادِي الرأْي وَمَا نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧).

ومن ثم كان رد نوح عليه السلام كان صريحا لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ (هود: ٢٩) ^(١). ويتضح مما سبق وجود وحدة الأساليب والمواقف من قبل المعاندين تجاه رسلهم وأنبياءهم في كل الأحيان ، ومرد ذلك أنها قائمة على هوى النفس واعوجاجهم عن الطريق المستقيم ؛ وبالتالي فالمبدأ والأساس هو مدى الإخلاص واستسلام أولئك لله رب العالمين مهما يكون شأنهم ووضعهم ، وعلى الداعية للحق أن يذكر فضلهم ولا يضيق زرها عن بعض ما يبدر منهم من التساؤلات والاستفسارات في سبيل الدعوة .

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ٣، ص ٢٩.

وعن هذا يقول الباحثون: إن أهم شعار ومعلم تلك المرحلة كانت قائمة على لزوم النبي ﷺ مع الفئة الخالصة، وكان عليه أن يصبر على أخطاء وتقصير المستجيبين لدعوته، وعليه أن يصبر على كثرة تساؤلهم وإن كانت خاطئة أو في غير محلها وفي ترددهم في قبول التوجيهات، وكذلك عليه أن يعلمهم فن الصبر تجاه فتنة أعداء الدعوة ويبين لهم مع جوهر الدعوة طبيعتها وطريقتها، وأخيرا أن يلزم مع هؤلاء حتى لا يغتر كائد ليبعده عنهم أو يسمع فيهم منتقضا^(١).

ومن هنا يرى المودودي رحمه الله: أن هذه الظاهرة كادت جلية في كل الفترة المكية، فليست الآية القبلية هو المظهر الوحيد لهذا الأساس، بل هناك أية غير هذا يبين وتؤكد على هذا المبدأ، حتى أن الله عز وجل عاتب رسوله ﷺ مرة، ولم يكن لومه لعصيان ولا في أي كبيرة وصغيرة بل كان في أمر دعوته ومنهجه، ففي سورة عبس وجه اللوم له على إثّر تقطيب وجهه عن ابن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه حينما دخل على رسول الله ﷺ متساءلا عن بعض أحكام الإسلام، وقد كان هو مع كبراء القوم يدعوهم إلى الإسلام، فأنزل الله قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)﴾ (عبس: ١-٢)، وبهذا لم يكن موقف النبي ﷺ على منطق بغضه للفقراء والمساكين بل كان بغية أن يدخل أولئك في الدين، ويكسب الدعوة باعترافهم للإيمان قوة ودفعاً للأمام.

ففي هذه الآية الكريمة وإن كان ظاهر العتاب متجه إلى الرسول ﷺ لكن موضوع السورة ومحتواها توحى أن ذلك مقدم إلى كفار قريش والذين تولوا وأعرضوا عن الدعوة واختاروا البطر وغمطوا الناس، كما عدوا هذه الرسالة حقيرة باتباعها الفقراء والمنبوذين حسب رأيهم، ولكن الحق تبارك وتعالى بين لهم أن المهتمين عند الله هم طالبي الحق مهما يكون منزلتهم، والمرموقين عند الله من يسلم إلى الله طوعا دون أي غرض، وبالتالي أولئك أحق الناس بأن تجالسهم وتهتم بهم، وهكذا جاءت الآيات البعدية للسورة مبينا هذه الحقيقة، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ (٢) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَنُّ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ (١٢)﴾ (عبس: ٣-١٢)^(٢).

وجملة هذه الوقائع تؤكد على أهمية ومكانة المخلصين الطائعين في أمر الدعوة وخاصة في بدايات مراحلها حيث تكون أمر التنشئة منوط بوجودهم ومهمتهم، وما على الدعاة إلا أن يهتموا بها ولا يغفل عن دورهم. ومن آفة الدعاة المعاصرين أنهم غالبا ما ينسون دور هؤلاء المخلصين وتضحياتهم وخاصة آوان الظفر والنصر ويتجهون نحو غيرهم؛ وقد نبه الله عز وجل إمام الدعاة والمرسلين على الإهتمام بهم وقدم في ذلك درسا بليغا

(١) انظر: محسن، حسين، الطريق إلى جماعة المسلمين (المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط ٤، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م)، ص ١٦٩.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ١٧٣.

للدعاة من بعدهم ووضح لهم أن مدار القبول عند الله عزوجل هو مدى الإخلاص والإستسلام وليست وضع المدعو ومكانتهم بين الناس .

٣- المعرفة الشاملة لحال المدعويين: من أهم أسباب النجاح في إيصال الدعوة وجلب المدعويين هي المعرفة الشاملة للمدعويين وكذلك الإحاطة بالواقع النفسي والفكري والإجتماعي عندهم ، وهكذا الدخول إلى عقولهم من الجوانب التي تدفعهم وتثير فيهم الفكر والنظر .

وأساس ذلك أن الإنسان مخلوق أو كائن له خصائص نفسية واتجاهات عقلية ، ويميل بطبيعة الحال إلى الأفكار التي تعارف عليها ومن ثم يتألف معها ، وبالمقابل ينكر الأشياء التي تختلف معه تفكيره ونظره ، ويراه بعين الشك والخلاف وإن كانت صحيحة أو بديهية يحكم بها العقل .

ومن هذا المنطلق نجد النبي ﷺ يحث أمته على اكتساب هذا المبدأ فيقول: (الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُّجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) ^(١).

وبناء على هذا نجد مراعاة هذا المبدأ جليا في السيرة المكية من دعوته ﷺ ، فكان يبدأ بأصحاب العقول والفطرة السليمة ، وبالذين تربط معهم علاقة الود والصداقة ، وكان يدرك ذلك بمدى تعارفهم ومعايشتهم معهم في المجتمع ذاك . وعن هذا يقول المودودي رحمه الله: "لقد علم الله تعالى لنبهه إلى جنب رسالته الحكمة البالغة للدعوة ، وذلك أنه بدأ دعوته تدريجا ولم يظهره مرة للناس ، وكان طيلة ثلاثة سنوات يدعو قومه سرا ويختص من بينهم سعداء الأرواح والذين تؤثر عليهم الدليل والبرهان وكذلك أصحاب عقول فاهمة ، وكان معه يريهم أن يراعوا جانب السرية حتى يأذن الله لهم بالصدع والجهر .

ومن بين الذين دعاهم الرسول ﷺ في هذا الوقت المبكر صاحبه الوفي أبوبكر الصديق حيث كان يربطه به الصداقة والعلاقة القديمة ، وكان بين قومه صاحب خلق عظيم ومكانة مرموقة ، وأعلمهم بأمور النسب ، كما كان حامل العلم والتجارة ، وعلى هذا استفاد النبي ﷺ من صداقته ومعرفته ، وخصه من بين أصحابه لمهمة الدعوة ومن ثم أسلم على يديه جمع كثير من الناس ، حتى عده المودودي - بعد تتبع الروايات - جملة المسلمين والذين أسلموا على هذا النحو ١٣٣ رجلا وامرأة ، وبصحبته استطاع أن يعلن الدعوة بعده جهرا ^(٢).

ويستنبط من منهج النبي ﷺ أهمية جانب التعارف على المدعويين في مجال الدعوة ، وأنه بذلك خير معين لايصال رسالة الخير والحق . ويستدرك منه أيضا أنه ليس من الحكمة الصدع بالدعوة للجمهور على الفور حتى إذا لم يهيأ له الأجواء والفرص المناسبة ، فيجد حينها أذانا وقلوبا سامعة ومن ثم يقبلون عليها طواعية دون الردع والمقاومة ، وفي هذا رد وتفنيد على من يرون التدرج وهذا النهج نوعا من الجبن والخوف ، بل هي من تمام الحكمة وامتنال

(١) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجندة، رقم الحديث: ٣٣٣٦.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ١٥٤ - ١٦١.

لأمر الله عز وجل ، ولو كان ذلك الأمر مطلوباً لقدم إليه من هو خير في الأرض حيث وعده الله له بالحفظ والعصمة من الناس .

وعن أهمية التهيؤ النفسي ومدى تعارف المدعويين وتأثيرها على الدعوة يقول الباحثون: إن القرآن الكريم مع احتفالها بالأدلة والإقناع المنطقي اللازم لا يكتفي بتوجيه الفكر وحده بل يعتمد إلى طرق ووسائل أخرى غيرها، وذلك لأن فاطر السماوات والأرض سبحانه وتعالى يعلم أن المعرفة والأدلة العقلية لا يستغني الدعاة بها عن غيرها من الوسائل ، وإذا لا بد معها من غزو مناطق الشعور ، وإحياء كوامن العواطف حتى يتهيأ السامع والقارئ إلى انجذاب نفسي يدفعه إلى اليقين بأشرف المبادئ والأمثال .

وعلى هذا لو كان هذا النوع من المعرفة كافية للهداية لكانت كتب علوم الرياضيات والعلوم حين القراءة والعكوف عليها كافية لدرك الهداية ، ولكننا نرى أن أصحابها يقرؤونهم مقنعين ثم سرعان ما يحدون عنها ، وبهذا فالعلم والسلوك الإنساني شيان متفاوتان ، والقرآن الكريم يوجه كليهما بالحجة والبرهان المنطقي وغزو مناطق الشعور معها جنباً إلى جنب وصارت تركيباً رائعاً من الروعة والإعجاز^(١).

وبالجملة فالمعرفة الشاملة عن المدعويين ومعايشتهم من أهم الأسباب المساعدة لجلب أولئك ، وبها تقرب الفجوات الموجودة بين هاتين الفئتين والتي طالما تورث البعد بينهما التنافر والغربة ، وعلى إثرها يلجأون طبقة المدعويين إلى الصدع والمقاومة ... وشتان بين تأثير من يخطط بالناس عن طريق الكلمة والكتابة ومن يعاشر الجماهير فيأتي إليهم وتستجيب العقول لدعوتهم .

المطلب الثاني: معرفة معاندي الدعوة وخطبهم اللثيمة والمستفادة من هذه المرحلة

يقوم فقه المدعو في علم الدعوة على دراسة أصناف المدعويين والذين تتوجه لهم هذه الرسالة ، ومن ضمن أولئك المعاندين المارقين عن الحق حيث يقفون أمام هذه الرسالة السامية ويعرقلون مسيرتها ، ويشنون على حاملها هجوماً لازعاً من الأعمال القولية والفعلية ، وكما يثبون الشكوك والإثارات تجاه أولئك ومهمتهم العالية ... وكل هذا ناتجة عن اتباع الهوى والسير وراء الوسواس الشيطانية ، وبالتالي تختلف أصنافهم ومعتقدهم وكذلك خطبهم اللثيمة تجاه دعوة الحق .

ومن أهم الصنوف والذين وقفوا منذ القديم تجاه دعوات الأنبياء والمرسلين هم أصحاب النفوذ في المدن والقرى والذين يسمونهم القرآن الكريم باسم الملاء ، حيث يقول تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ أَعْبُدُوا

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ (الأعراف: ٥٩-٦٠) ، وقد عرفهم المفسرون أنهم: "الْجُمُهورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ وَالْكُبَرَاءُ مِنْهُمْ"^(٢).

(١) انظر: البيومي، محمد رجب، البيان القرآني (القاهرة مجمع البحوث الإسلامية لجامعة الأزهر ، ١٩٧١ م)، ص ٧٨.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، ج ٣، ص ٤٣٢.

وسبب تسميتهم بالملأ باعتبار الواقع لا من حيث استحقاقهم للسيادة والشرف والقيادة، وهكذا الوصف الغالب في أكثرهم أنهم معاندين للدعوة الإلهية حيث قاموا تجاه دعوات الرسل الكرام، وأغلبهم يتولون كبر المقاومة الأثيمة خلاف الدعوة الإسلامية ويقومون بحملة الكذب البشعة من الكذب والإفراء والتضليل ضد هؤلاء^(١).

وسوف يلتمس الدارس للسيرة النبوية المطهرة وجود هؤلاء بكثافة عالية في المرحلة المكية من دعوته، وذلك أن هذه الرسالة جاءت بعد أمد طويل بين العرب، وهم والبشرية كانوا على وجه العموم في غواية وضلال بين، وكانوا بأمس حاجة إلى منجي ينقذهم من الانهيار، وبطبيعة الحال كانت هذه الدعوة غريبة عليهم بحجة أنه سفه أحلامهم، وأبطل تاريخهم المعوج ومعتقداتهم وطقوسهم القائمة على عبادة الطواغيت، وبالتالي كان ردود فعلهم قاسية، ونفس المشهد يتكرر كما كانت في رسالات الأنبياء حتى أنه ﷺ عد بعض هؤلاء فراعنة هذه الأمة. ونظرا لأهمية هذا البحث نبرز أهم معاندي الدعوة الإسلامية ونماذج من كيدهم اللئيم تجاه هذه المهمة في ضوء أفكار السيد مودودي رحمه الله كالآتي:

١- أصناف الخصوم في المرحلة المكية: لقد كانت المرحلة المكية من دعوته ﷺ مرحلة جديدة حيث تطبع بصبغة إقليمية حيث لم يكن منتشرًا ربوعها خارج إقليم مكة إلا اليسير، وبالتالي أكثر معانديه كانوا أصحاب مكة وكبراءها. وقد صنف المودودي رحمه الله هؤلاء إلى مجموعات عديدة، وذلك بعد تتبع فعالهم ومواقفهم من الإسلام فيقول: لم يكن موقف قريش تجاه الرسول ﷺ ودعوته على وتيرة واحدة بل كانوا على أصناف:

ألف- صنف وقفوا في ألد العداء والخصومة وكانوا يطالبون الخصومة والجدل، وقد ذكر ابن سعد بعض أسماءهم مثل أبي جهل بن هشام، أبو لهب، الوليد بن مغيرة، الحارث بن قيس، الحارث بن عبد يغوث، زهير بن أبي أمية، أبو قيس بن الفاكه، العاص بن وائل، نضر بن حارث، أمية وأبي إبن خلف، أسود بن عبد الأسد، منبه بن الحجاج، السائب بن صيفي، ابن الأصدى، عقبة بن أبي معيط، العاص بن سعيد بن العاص، العاص بن هاشم، الحكم بن أبي العاص، وعدي بن الحمراء - ولم يسلم منهم أحد إلا الحكم^(٢).

ب- صنف من السادة الكبراء والذين اختاروا العداوة تجاه النبي ﷺ ولكنهم لم يكونوا على مستوى السابقين، وقد أخبر القرآن الكريم عن وصفهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ (هود: ٥)،

وفي مقدمة هؤلاء آنذاك عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبو سفيان بن حرب وكانوا يكتمون عداوتهم للدعوة الإسلامية ومع ذلك يلوون وجوههم عن رسول الله ﷺ حتى لا يلاقيه ولا يخاطبهم.

ج- وأما عامة أهل مكة فقد اختاروا الحياد؛ حتى أن بعضهم أمنوا بالإسلام لكنهم أخفوه، والبعض الآخر كانوا مولعين بحب زعماءهم وقادتهم، وبالتالي اتبعوه مقلدين دون أن يعوا^(٣).

(١) انظر: زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، ص ٣٨١.

(٢) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢١٦.

(٣) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٥١٦.

ويتضح مما سبق أن معرفة هذا التصنيف يدلنا على أن الدعاة يجب عليهم أن يميزوا بين خصومهم، وذلك لأن الفصل بينهم يسهل عليهم اقتحام المخاطر، وسوف يتأهبون لكل حسب خطورته وموقفه، وهكذا سوف يمكنهم أن يطمع في دعوة أولئك الذين ليس لهم موقف حاكم في المجتمع، وسوف يدخرون الجهد والسعي الحثيث فلا يبذلهم دفعة واحدة لأنهم ليسوا على وتيرة واحدة.

٢- معرفة أساليب المعاندين في محاربة الدعوة: إن معرفة أساليب المعاندين منوط بمعرفة أصناف الخصوم وكذلك الوقوف على العوامل التي لجأها أولئك لسد أمر الدعوة والوقوف أمامها، وهي بالجملة أساليب قديمة وموحدة في سلسلة تاريخ دعوة الأنبياء والمرسلين ومن سار بنهجهم ودربهم إلى يوم الدين، إلا أن بعضها أخذ طابعا معاصرا طبعاً لتقدم الزمان وتطور المكان والبيئة، وبالتالي ما على الدعاة إلا أن ينتبهوا لها ويدفعوها بقدر الإمكان.

وبمعرفة هذه الأساليب ندرك أنها ليست بدعا أو شيئا جديدا بل هي ذاك السلسلة الممتدة والذي لجأوا إليها المعاندون على مر الأزمان، ولقد جمع تلك الأساليب في صورها العديدة المفكر العملاق السيد المودودي رحمه الله، وذلك من خلال دراسته للسيرة النبوية ثم رتبها في مجموعات، فبعضها ترجع إلى أذي جسمي وبعضها إلى حرب نفسية وروحية، وبعضها تعود إلى الخناق السياسي والاجتماعي وأخرها ثقافية وإعلامية، وسوف نقف على نماذج منها على وجه الاختصار:

ألف- أسلوب المفاوضات وعرض الصلح والإغراءات: لقد كان المشركون يدركون الشخصية الفائقة للرسول ﷺ وكذلك جلال روعة القرآن ودعوته السامية، فلذلك بدأوا أول الأمر بأسلوب التفاوض والمصالحة معه بتقديم الإغراءات المالية وعرض الزواج والمنصب وما إلى ذلك، وقد كانت هذه التعريضات بعد المشورة بينهم، وقد سبق في الفصول الماضية نموذج لقاءه ﷺ مع عتبة بن ربيعة، وهكذا استمرت هذه المفاوضات مرات عديدة وكان آخرها تعريض عجيب حيث عرضوا عليه جماعة أن يعبد هو سنة ألهمتهم من اللات والعزى ويعبدون سنة إلهه، وقد كان جوابه ﷺ لهم: اصبروا حتى يأتياني أمر الله .

وعن هذا يقول المودودي: "إن قول النبي ﷺ لهم بالترث وعدم الإسراع في إجابتهم ليست على بناء الطمع في قبول طلبهم، بل كان على منطلق أنه كان رسول رب العالمين، ولا يمكنه أن ينطق شيئا من تلقاء نفسه، وبالتالي يضع أدنى المطالبة كموظف عادي أمام رئيسه، وبهذا رده من قبل الله تعالى مع شناعة مطالبتهم أبلغ جواب من بادي التنكر؛ إذ لولاه لطمع أولئك على إصرارهم في طلبهم حتى أنزل الله جل وعلا: ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ (الكافرون: ١-٦)" (١).

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٥٢٠.

ب- أسلوب الضغوط الأسرية: الأسلوب الثاني والذي اتخذه مشركو قريش هو أسلوب الضغوط الأسرية ولجوءهم لعمه ﷺ أبو طالب لمنع ابن أخيه من دعوته ورسالته، فقد روي الطبراني قصة أول وفد مهم حيث اشتكوا من الرسول ﷺ فيقول: (يَا أَبَا طَالِبٍ، إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَأْتِينَا فِي كَعْبَتِنَا وَنَادِينَا فَيُسَمِعُنَا مَا يُؤْذِينَا بِهِ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكْفَهُ عَنَّا فَافْعَلْ، فَقَالَ لِي: يَا عَقِيلُ، التَّمَسْ لِي ابْنَ عَمِّكَ، فَأَخْرَجْتُهُ مِنْ كِبْسٍ مِنْ أَكْبَاسِ شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ،... فَأَقْبَلَ يَمْشِي مَعِيَ يَطْلُبُ الْفِيءَ بِطَاقَتِهِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي!، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنْ كُنْتُ لِي لَمْطِيعًا، وَقَدْ جَاءَ قَوْمُكَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَأْتِيهِمْ فِي كَعْبَتِهِمْ وَنَادِيهِمْ تُسَمِعُهُمْ مَا تُؤْذِيهِمْ بِهِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ تَكْفَ عَنْهُمْ، فَحَلَقَ بَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدْعَ مَا يُعْثُ بِهِ مِنْ أَنْ يَشْتَعَلَ أَحَدُكُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ شُعْلَةً مِنْ نَارٍ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللَّهِ مَا كَذَبَ قَطُّ، ارْجِعُوا رَاشِدِينَ^(١)).

وأعجب من هذا أنهم مرة جاءوا إلى أبي طالب بعد ما علموا تصميمه على مناصرته وعدم خذلانه، يساومه بعمارة بن الوليد بن المغيرة بدل أن يسلموا له النبي ﷺ حتى يقتلوه، وقالوا: "يَا أَبَا طَالِبٍ، هَذَا عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ أَنَهَدُ فِتْنِي فِي قُرَيْشٍ وَأَجْمَلُهُ، فَخُذْهُ فَلَكَ عَقْلُهُ وَنَصْرُهُ، وَاتَّخِذْهُ وَلَدًا فَهُوَ لَكَ؟ وَأَسْلَمَ إِلَيْنَا ابْنُ أَخِيكَ هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ، وَفَرَّقَ جَمَاعَةَ قَوْمِكَ، وَسَفَهُ أَحْلَامَنَا فَنَقَلْتَهُ فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ! قَالَ: وَاللَّهِ لَيْسَ مَا تَسْؤُمُونَنِي؟ أَتَعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَغْدُوهُ لَكُمْ، وَأَعْطِيَكُمْ ابْنِي فَتَقْتُلُونَهُ! هَذَا وَاللَّهِ مَا لَا يَكُونُ أَبَدًا"^(٢).

ويستنبط من تلك الواقعة سخافة أولئك ومطالبتهم الأثيمة حيث تأبى الفطرة السليمة من سماعها، ويدرك كذلك عناد وخصوم أولئك تجاه الداعي ﷺ، وبالمقابل وقوف ومروءة أبي طالب مع رسول الله عليه الصلاة والسلام حيث ربط مصيره بمصير ابن أخيه، مع أنه لم يكن على دينه؛ وبالتالي ما على الداعي إلا أن يستعين في بعض الأحيان من صلة القرابة وترابط الدم؛ فيدفع بذلك شرور الأعداء ومكائدهم.

ج- ممارسة الأعمال السخيفة والشنيعية تجاه النبي ﷺ ودعوته: لقد لجأ الكفار بعد يأسهم من أسلوب الضغوط الأسرية إلى بعض وسائل وطرق سخيفة يخجل منه التاريخ أن يذكره، وتلك وسمة العار على جبين أولئك المعاندين، ولا يصدر إلا عن أناس خسيسي الفطرة لا تعرف قيمة الإنسانية، فبعضها تتعلق بشخصية النبي ﷺ، والبعض حول دعوته، وسوف نذكر نماذج عن كلا الجانبين:

١- الجانب الشخصي للنبي ﷺ - يروى أهل السير بعض الأمثلة في ذلك:

الف- ذهب وجوه مشركي قريش بعد إعلان الدعوة الجهرية إلى أبي العاص بن ربيع زوج بنت رسول الله ﷺ زينب إلى أن يرد على محمد إبنته على أن يزوجه بأية امرأة أحببت من قريش، ولكنه رد طلبهم قائلاً: "لا، ها الله، إذا لا

(١) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الأوسط، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (القاهرة، دار الحرمين، ب ت ط)، ج ٨، ص ٢٥٣.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج ٣، ص ٦٣.

أفارق صاحبتني، فإنها خير صاحبة" (١)، وقد مشوا بعده إلى عتبة بن أبي لهب حيث زوجته النبي ﷺ إحدى ابنتيه رقية أو أم كلثوم وقالوا له: طلق بنت ابن عمك ونزوجهك بأي نسوة شئت من قريش، فقال: إِنْ زَوَّجْتُمُونِي ابْنَةَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ أَوْ ابْنَةَ أَبَانَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، فَارْقَتَهَا فَرَزَّوْجُهُ بِنْتُ الْأَوَّلِ وَفَارَقَهَا، وَلَمْ يَكُنْ عَدُوًّا لِلَّهِ عَتَبَةَ دَخَلَ بِابْنَةِ النَّبِيِّ ﷺ (٢).

ب- ذكر أهل السير أغرب حركة سخيصة من هؤلاء أنه لما مات القاسم بن محمد ﷺ حيث كان بلغ ركوب الدابة؛ فاستبشروا بعضهم البعض فرحا، وقد كان العاص بن وائل السهمي منهم إذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول: "دعوة فإنما هو رجل أوتر لا عقب له، لو قد هلك قد انقطع ذكره، فاسترحتم منه، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا

أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۚ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۚ﴾ (الكوثر: ١-٣) (٣).

ويقول المودودي رحمه الله عن هذه الواقعة: نزلت سورة الكوثر في أشد حالات الأسى والكآبة التي كانت يواجهها النبي ﷺ، فقد واجهه قريش بأبشع حالة إنسانية حيث بشروا فراق ابنه وفلذة كبده بالفرح والسرور، وسموه مع ذلك بالأبتر، ولم يكن ذلك عن مبعث عداء قتال ولا نهب أموال بل كان في مقابل ازاء دعوتهم إلى الإسلام والأخلاق الفاضلة. إنهم اختاروا منهجا سخيضا تشمئز منه الفطرة الإنسانية، ولم يكن ذلك إلا أن يفتر عزيمته وطمأنيته، ولا يصدر ذلك إلا عن خسيصي وعديم الفطرة، ولكن في أثناءها نزلت آيات من سورة الكوثر كمنحة إلهية في الآخرة حيث يبشره بامتلاك حوض الكوثر، وينبئه كذلك بأن أعدائه سيكون أبتر وعديم الجذور؛ ولم يكن تلك البشري كلاما فارغا بل تحقق بمضي سنوات عديدة حيث فتح الله على رسوله في سنة ٨ من الهجرة مكة ومن بعدها ربوع الجزيرة العربية بكاملها، وأصبح رواد الشرك عديم الذكر بعد ما كانوا سادة لهم نفوذ وتجارة وصاحب شرف بحيازتهم مناسك الحج... أما الآن فلا يذكر أبا جهل ولا أبا لهب ولا عاص بن وائل ولا عقبة بن أبي معيط؛ بل إن أولادهم إن بقوا يخلجون من ذكراهم ولا يحبون أن يسموا بهم، أما في المقابل فالمسلمون يصلون على النبي ﷺ وعلى آل الطاهرين، وأصبح الانتساب عندهم مباهاة ومنزلة، وهكذا يزدون تلك الألقاب الفخمة مع أسماءهم باسم السيد، العلوي، عباسي، الهاشمي، صديقي، فاروقي، عثماني، زبيري، وأنصاري، ولا أحد يدعي نفسه أباجهلي ولا أبا لهبي (٤).

٢- وأما في جانب الدعوة فلم تكن حركاتهم وأفعالهم أقل من ممارستهم السابقة بل أشبه بأفعال السفهاء وعديم الحلم. وقد ذكر المودودي رحمه الله بعض أساليبهم من خلال آيات القرآن الكريم كالآتي:

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، جمل من أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٩٧.

(٢) انظر: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (تاريخ الطبري)، ج ٢، ص ٤٦٧.

(٣) ابن اسحاق، محمد، سيرة ابن إسحاق، تحقيق: سهيل زكار (بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م)، ج ١، ص ٢٧٢.

(٤) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٥٢٩. وكذلك: تفهيم القرآن، ج ٦، ص ٦٥٧.

ألف- إنهم كانوا يحشون سفهاؤهم لأن يلغوا ويزاحموا مجلس قراءة القرآن، حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (السجدة: ٢٦)، وقد كان فعلهم ذاك بعد ما أطمأنوا أن القرآن له تأثير بالغ على سامعيه.

ب- انحراف معاني القرآن، إنهم سلكوا هذا النهج لكي يسدوا على الناس الطريق المستقيم، وبالتالي القرآن ردعهم وزجرهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: ٤٠)، فالله تعالى سمى فعال الذين يحرفون كلام الله بالالحاد، وذلك أناس عكفوا إلى التأويل الباطل أو يأخذون بالمعاني الباطلة^(١).

ج- تشغيل المسلمين بالمناقشات والكلام الفارغ، وعن هذا يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ مَجْهُومٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى: ١٦)، وفي هذه الآية اشارة إلى الذين يلجأون إلى النقاش والجدال مع المسلمين في قضايا لا طائل وراءه.

د- الضحك والغمز على المسلمين، وقد حكى الله أيضا عن فعالهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۚ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۚ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۚ﴾ (المطففين: ٢٩-٣٢).

هـ- تضليل أناس عديمي العلم، هذا هو الأسلوب البشع والخطير، وخاصة تجاه الوافدين إلى مكة حيث كانوا يسألون عن النبي ﷺ ودعوته، فيجيبون عنه بأجوبة معوجة حتى لا يهتدي إليه، وعنه قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤)^(٢).

وجملة هذه الأساليب توحى مدى عناد أولئك وبغضهم للحق واتباعهم لهوى النفس والشيطان، وبالتالي لم يكن في مواجهتهم أية توجيه ومنطق سليم يدعوا لفعلها، وقد بدر منهم في هذا الصدد ردودا وأفعالا تأباه العقل ويخجل من ذكرها التاريخ، وهكذا نجد في كل الأحيان ادعاء المعاندين تجاه أهل الحق بأباطيل، وما عليهم إلا أن يصبروا عليهم ويحتسبوا أجرهم عند الله.

د- **شن الحرب الثقافية تجاه الدعوة الإسلامية:** هذا كان أبشع صورة من الحملة تجاه رسول الله ودعوته، وذلك أنهم حينما فشلوا من النيل بشخصيته ودعوته لجأوا إلى أسلوب كانوا يرجون فيه تحديا لدعوته بغية أن يصرفوا بعض الناس عنها.

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ٤، ص ٧٠٧.
(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٥٢٩-٥٣٢.

فقد روى ابن هشام أن النضر بن الحارث وكان من كبراء المعاندين عمد إلى أسلوب جديد تجاه الرسول ﷺ حيث قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفارس وأبطالها أمثال رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله مجلساً، وذكر فيه الله وعن أهوال يوم القيامة، كان يخلفه فيه ويقوم قائلاً: "أَنَا وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ، فَهَلُمَّ إِلَيَّ، فَأَنَا أَحَدُكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مُلُوكِ فَارِسَ وَرُسْتَمَ وَاسْبِنْدِيَارَ، ثُمَّ يَقُولُ: بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنِّي؟" (١).

ويتضح مما سبق أن المعاندين شنوا حملة نفسية مضادة لخلاف الرسول ﷺ ودعوته، وأخذوا في سبيل ذلك بكل الوسائل المتاحة، وذلك بإحكام ودقة وحسب قواعد معينة، وتلك حملة تشبه بحد كبير ما تفعله رواد الحرب النفسية في العصر الحديث عبر القنوات الفضائية ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها، ويعدون لكل مرحلة عدة عبر تخطيط مرحلي منظم.

هـ- بث الدعايات الإعلامية والأكاذيب تجاه النبي ﷺ: تعد هذا من أظلم وأشنع الأساليب في تلك المواجهة الباطلة، حيث عمدوا أولئك في خصومتهم إلى أسلوب بشع، فشاعوا عن النبي ﷺ أراجيف وأباطيل، واتهموه بتهم كان هو بريئ منه كبعد المشرق والمغرب، وذلك لأنهم أدركوا وأحسوا بأعينهم مدى صدق شخصيته ونصاعة حقيقة دعوته، وكانوا يرون أن النبي ﷺ عظيم النجاح في مهمته وبالغ التأثير على مدعويه ومخاطبيه، وكل من اقترب منه يتأثر من هيئته وسماته حتى قبل أن ينطق، وإذا خاطبهم انجذب إليهم قلوب وأذان صاغية، وكل كلامه مبني على العقل السليم والمنطق البليغ، والعاطفة المغمورة بالصفاء والمودة حاملاً مع النية الخالصة هدي الأمة وتوجيههم (٢). ومن تلك الأكاذيب التي ألصقوها به تهمة اتصافه بالشاعر، والساحر والمجنون، والكاذب المتقول عن الله وغيره من الألقاب المزورة، وقد بلغوا في عدائهم أنهم خصصوا لكل أفنية وقرى أناس مخصصين، "وكانوا يراقبون مع ذلك كل وافد إلى مكة سواء في زيارة تجارية أو نسكية للحج والعمرة، إلا وحذروه من النبي محمد ﷺ، وقد كان هذا النشاط مكثفاً أثناء موسم الحج وغيرها من الأزمنة، وكان جل سعيهم سد الوافدين عن الالتحاق بالإسلام" (٣).

و- ممارسة الظلم والتعذيب للمسلمين: وبعد كل هذه الأساليب السالفة ذكرها عمد زعماء قريش آخر الأمر إلى ممارسة الأفعال العملية، فقدموا بوجه غير سابق من نوعها بتعذيب المسلمين والمؤمنين، وكان أفعالهم تجاه المؤمنين لم يكن على وتيرة واحدة؛ فإن كانوا من أسر مرموقة فآخذهم باللوم والعتاب ويجبرهم على أن يترك الدعوة، وإلا يضغطون على أسرها حتى يطردهم ويذلهم، وإن كانوا من أصحاب الثروة والتجارة والمحن فكان

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٢٩٩.

(٢) انظر: الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (بيروت، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، ج ١، ص ١٢٧.

(٣) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٥٥١.

يهددهم على ترك الإسلام وإلا سيخسر محنتهم ومالهم في سبيل الدعوة، وأما الطائفة الثالثة وجمهور الناس فيذيقونهم أشد العذاب وأقساها.

وعلى هذا ففي كل صنف من هؤلاء المذكورين قصصا وسيرا، ونكتفي خشية التطويل على نموذج النوع الأخير، وفيهم أولئك العبيد والضعفاء الذين أسلموا طواعية حيث كانوا بغير الأهل والعشيرة، ومن ضمنهم بلال بن رباح، وعنه يقول ابن هشام في سيرته: كان بلال من موالى بني جمح، وكان صادق الإسلام، وحينما علم أمية بن خلف بإسلامه يخرج به وقت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تهلك أو تكفر بمحمد، وتبعد العزى واللات، ولكنه يقول: وهو في ذلك المحنة والبلاء: أحد، أحد^(١). ومن اللازم التنويه كذلك أن التعذيب الذي لاقاه الصحابة وتلك الطليعة لم يكن مختصا بصحابة رسول الله ﷺ وهو كان بعيدا عنه، بل لقد واجه شخصيته الشريفة من الفتن والأذى والمحن أكثر من غيره، حيث لا يمكن أن يخطر على بال أحد، وكان ذلك في أزمنة مختلفة وكبرها بطبيعة الحال على قدر رسالتها. ولأجل ذلك استحق مقاما محمودا ومرتبة عزيمة بين رسل الله.

وأخيرا فإن تحمله وصبره لهدفين عظيمين: منح فرصة الإشفاق لأمة الدعوة حتى لا يصيب مثل ما أصاب الأمم الغابرة، وثانيا حتى يكون قدوة للدعاة والمصلحين القادمين من بعدهم^(٢).

ومن هذه المباحث كله نستنتج أن الدعوة إلى الله صفقة رابحة بين الله وعباده المخلصين، وهي مع فضلها وشرفها محاطة بالأخطار والمحن والفتن، والتي طالما ينشئها في أغلب الأحوال المدعوين المعاندين، وبالتالي تتنوع أقسامها إلى قولية وعملية وما إلى ذلك، وحينها ما على الدعاة إلا أن يصبروا ويحتسبوا أجرهم عند الله، فقد أودى في سبيلها من هو خير الخلق عند الله وهم الأنبياء والمرسلين، ونالوا بها عن دالله رفعة وشرفا.

وهكذا يجب أن نعلم أن في التعريض للمحن سبب لنضج الدعوة والحركة الإسلامية، وسوف يوصل أصحابها عاجلا أو آجلا للنجاح والفوز، وكما يمحس الله بها المؤمنين عن غيرهم، وليعلموا أيضا أن الأساليب والخطط اللئيمة للتعريض على الدعوة نهج ومادة قديمة وصورة لما سبقها وإن كان مصبغة في بعض الأحوال بطابع المعاصرة، وعليهم أن ينتبهوا لهم ويتأهبوا لدفعهم قدر الإمكان.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٥٦.

(٢) انظر: السويكت، سليمان بن عبد الله بن مديد، محنة المسلمين في العهد المكي (الرياض، مكتبة التوبة، ط ١، ب ت ط)، ص ١٩٧.

المبحث الثاني: فقه المدعو عند الشيخ محمد غزالي في العصر المكي

لقد كانت مكة هي البيئة والمعقل الجديد للدعوة الإسلامية حيث وضعت النواة الأولى لها على يد رسول الله ﷺ، وعلى أثرها قام المجتمع الإسلامي على أسس الإيمان والعمل الصالح، وذلك على بقايا أنقاض الجاهلية والفساد، والتي كانت قائمة في حياة البشرية منذ أزمنة عديدة، وقد انهارت ببعثته ﷺ. وعلى هذا فالمرحلة المكية هي الفترة الفاصلة في حياة البشرية حيث تغيرت حالة المدعويين فأفيقت من ثباتها ونومها العميق إلى بعث وإحياء جديد، وأصبح بفضل رسالتها أولئك المنبذون قادة وسادة ترعى الأمم والدنيا؛ ولم يكن هذا التحول أمر مفاجئ أخذتهم بالبعثة بل أنيطت بالحكمة والتدبير اللازم، كما دفعت صعابها وتحدياتها بالموعظة الحسنة، ونظرا لأهمية هذا المجال نبرز هذا القسم في فقه المدعويين في ضوء المفكر العلامة محمد الغزالي في مطالب آتية:

المطلب الأول: العوامل المساعدة في دعوة المدعويين

المدعوون هم الغاية المقصودة في الدعوة ولأجلهم قامت هذه الرسالة والمهمة الإلهية، وهم المخاطبون لشرع الله، ولأجلهم أرسل الله رسله وأنبياءه، وعلى هذا تحتاج مخاطبتهم إلى فقه ووعي بحالهم، وكذلك اختيار سلوك وسبل حتى تجذب أولئك على أساس الرضا والإختيار، وتبدل فيهم موضوع الدعوة إلى سلوك تحكم في الحياة، ومن ثم انضمامهم في سلك الدعوة؛ وبذلك تحتاج هذه المهمة اختيار أسباب وعوامل مؤثرة، منها اختيار طليعة ورعيل المخلصين وكذلك الإهتمام بدور المرأة المسلمة الفعالة وغيرها، وسوف نبرز هذين الموضوعين كالآتي:

١- الإهتمام بالرعيل الأول وطلبة المخلصين: لقد تحركت عجلة الدعوة الإسلامية بادي الأمر بقوة ومدافعة المرتجلين المخلصين، والذين قدموا إلى مهمة دعوة الله تعالى، ووهبوا حياتهم وأموالهم لخدمة الدين؛ وبالتالي أصبحوا أولئك باكورة ثمرة هذه الرسالة، وقامت المهمة بوجودهم وعرفوا هم بسمات هذه الرسالة الربانية السامية. وبناء عليه فهذه الطليعة هم السابقون الأولون لدين الله، وقد وصفهم سبحانه بتسمية الأولين كفئة متميزة بين الأصناف الثلاثة، وقد نالوا بتضحيتهم وإخلاصهم قرب الله عز وجل، وكذلك قرب المقام في العليين، ومن ثم تعد وجودهم جلالة وجمالا لحركة الدعوة الإسلامية، وقد أدرك فقيه الدعوة المحنك محمد الغزالي مكانتهم وتأثيرهم في حركة الدعوة الإسلامية وذلك من خلال عكوفه على دراسة السيرة النبوية المطهرة، فيقول عنهم: أخذت دعوة للإسلام تبث في مكة وتؤثر عملها في أصحاب الأفتدة الكبيرة؛ فسرعان ما ينبذون جاهليتهم الأولى ويخفون إلى اعتناق هذا الدين الجديد، وكانت آيات الكتاب تنزل على القلوب التي استودعت فيها بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الصالحة والخصبة، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ

زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿ (الحج: ٥)^(١).

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٩٨.

والفقرة السابقة دالة على أصل عظيم في جانب دعوة المدعوين، وهو أن الناس ومجتمع المدعوين ليست على وتيرة واحد، فالبعض قد يكون أكثر استجابة وتأثيراً عن غيرهم، وذلك لوجود امتلاك نفسية مرنة قابلة للتعامل والاستجابة على خلاف غيرها، ومن ثم يشبه الغزالي وجودهم بخير تشبيه كأرض خصبة قابلة للنبت بمجرد نزول الوابل عليها، وهناك أراضي صلبة جامدة غير قابلة للنبت ولا تجاذب الماء؛ وهي في أصلها تشبيه قرآني بليغ محسوس يدرك الإنسان ما يطلبه القرآن من تفاوت بين الناس، ومن ثم ما على الدعاة إلا أن ينتبه لهم في مهمة الدعوة.

وقد تنبه الرسول الأعظم ﷺ في دعوته إلى هذا المبدأ ونهج على هذا المنهج، فعرض دعوته الغالية على ألقى الناس من عشيرته وآل بيته وكذلك أصدقائه الأوفياء، والذين كانوا يدركون عظمة النبي ﷺ وجلال نفسه وصدق خبره، ولا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه.

وعلى هذا فالمسارعون والمستجابون للدعوة كانوا خيرة مجتمعهم، وأطيبهم نفساً، وأنيرهم عقلاً وأزكاهم قلباً، وقد أراد الله عز وجل أن يهيأ لهذه المهمة هؤلاء دون غيرهم، وفي طليعة هؤلاء خديجة، أبو بكر، علي، عثمان، عبد الرحمن بن عوف، زبير، طلحة بن عبيد الله، الأرقم بن أبي الأرقم، أبو سلمة، سعيد بن زيد، عثمان بن مظعون، عبد الله بن جحش، سعد بن أبي وقاص، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم وهم في أكثرهم سادة القوم وأشرفهم^(١).

وقد انزلت بعض كتاب السيرة النبوية في بيان حالة الطليعة الأولى من الدعوة النبوية حيث عد أكثر أو أغلب أولئك من الضعفاء أو الأرقاء والفقراء الذين أعتيهم العيش، وكانوا في طلب الحرية والانقاذ، ومنهم العلامة ابن الدبيع الشيباني^(٢) رحمه الله حيث يقول: "ولما بعث النبي ﷺ أخفى أمره، وجعل يدعو أهل مكة ومن أتى إليها سرا، فآمن به ناس من ضعفاء الرجال والنساء والموالي، وهم أتباع الرسل، كما في حديث أبي سفيان عن هرقل..."^(٣).

فالقول السابق وإن كان متكتناً على الحديث النبوي الشريف وقائله كذلك ركز على أساس بداية غربة دعوة الإسلام، ومن ثم نصرتها وظفرتها وانتشارها في ربوع الأرض إلا أنه حائد عن بيان الحقيقة، ومن ثم يفسح المجال لأصحاب الزيف والضلال حيث يرمون دعوة الإسلام بأنها ثورة على أصحاب الثروات والمناصب، وهكذا يجعل هذه الدعوة في دائرة ضيقة، ولكن حقيقة الأمر كما يذكر الباحثون ليست كذلك، فمتتبع الإحصاء الدقيق يرى أن عدد الفقراء والمساكين والأرقاء لم يكن في حد أن نسميهم بـ "معظمهم" ولا في "أكثرهم"، ولا بعامتهم؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثة

(١) انظر: الشامي، صالح أحمد، من معين السيرة، ص ٤٠.

(٢) ابن الدبيع الشيباني (٨٦٦ - ٩٤٤ هـ): عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني الزبيدي الشافعي، وجه الدين، المعروف بابن الدبيع: مؤرخ محدث من أهل زيد (في اليمن) مولده ووفاته فيها. مات أبوه في الهند، ولم يره. ورأه جده لأمه. له (بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد، والفضل المزيدي في تاريخ زيد، وتيسير الوصول، إلى جامع الأصول من حديث الرسول ﷺ. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٣١٨.

(٣) ابن الدبيع الشيباني، وجه الدين عبد الرحمن بن علي، حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ﷺ، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري (مكة المكرمة، المكتبة المكية، ط ٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م)، ص ٣٠٢.

عشر رجلا من مجموع قرابة أربعين شخصا، والأمر الثاني أن الدافع الذي أسلم أولئك لم يكن دافعا دنيويا قط، بل كان بدافع الإيمان ومحبة الحق الذي شرح الله صدورهم له، وهكذا نصرة النبي ﷺ، وتلك ميزة أو خصيصة يشترك فيه السادة والأرقاء وكذلك أصحاب الثروات والفقر، وبهذا لم يميز أبوبكر عن بلال وعثمان عن صهيب الرومي، وآخر الأمر إن الإسلام لهذه الدعوة تجعل هذه الدعوة رسالة طبقية حيث تحت أفرادها ضد الأخرى، ولكننا نرى أن الإسلام يمارس دعوة الوحدة بين الطبقات وتقلص الفروق بينها، وبالتالي تربط بينهم بالوثاق المشدد؛ وبالجمله كل من التحق بهذه الدعوة كانوا أناسا كراما حيث أثروا العقيدة على الحياة^(١).

وأما عن مدى تأثير الإخلاص والمحبة عند هذه الطليعة الأولى وتميزها عن باقي المدعوين فإنها دليل على صدق الدعوة، وكذلك سبيل لتسهيل الصعاب وباعث على الحركة والنشاط والتي توصل الدعوة إلى المقصود والنجاح، وعن هذا يقول الشيخ الغزالي: "كان أصحاب العقائد يتجمعون- في تودة- حول عقائدهم، ويلتقون- في حب وإعجاب- حول إمامهم، ويشرحون- في حذر- أصول فكرتهم. والإيمان قوة ساحرة، إذا استمكنت من شعاب القلب، وتغلغلت في أعماقه، تكاد تجعل المستحيل ممكنا"^(٢).

ولقد ارتبط الغزالي في سياق حديثه عن هذه الخصلة في المدعوين أنها ليست خاصة بالدعوة الإسلامية فحسب، بل هي سنة إلهية ثابتة تطبق على كل الدعوات حقة كانت أو باطلة، وبهذا يلقي نظرة على أهل عصره فيقول عنهم: وقد نرى في عصرنا شيوخا وشبابا تلتقي مع فكرة ما حتى تصبح عقيدة راسخة في أنفسهم، وبالتالي يضحون لأجلهم حياتهم وكل الغالي، وتبلغ بهم الحال أنهم يصبحون وقودا لحركتهم ويتحملون أقبح الأذى في سبيلها، والعجب أنها ربما تكون فكرة مادية زائفة، وبهذا نرى بعض أصحاب السجون أنهم رغم اكتساب علمهم وامتلاكهم للدرجات المرفوعة من جامعات الغرب يكونون في خدمة القتل ومتعاطي المخدرات ونحوه... ومن هنا يركز على أن يقدم للدعوة الإسلامية أناسا مخلصين طائعين حتى تسير في ركب الدعوة ويظفر بها الرسالة، ومن جانب وأصحابها بجوار الله والنعيم المقيم في الآخرة^(٣).

ونستنج مما سبق أن إخلاص الطليعة والرعي الأول في موكب الدعوة تكسب المسيرة نشاطا وحركة، وبها تنال للدعوة القوة والمناعة فتجعلها تواصل سيرها دون تعب وملل، وهي كذلك دافعة لأن تدعوا المدعوين الجدد فيقبل عليها، وهي مع كلها علامة لحقيقة الرسالة ومظهر على سير هذه المهمة على الطريق المستقيم، وبالتالي يجب على الدعاة أن تنشئ هذه الطليعة ويركز عليها في سيرتهم حتى تصل إلى مقصودهم وغايتهم.

٢- الإهتمام بمكانة المرأة في أمور الدعوة: لقد عرفت الدعوة الإسلامية بخصائص مميزة تفصلها عن باقي الدعوات الإنسانية ومن أهم تلك السمات اتصافها بالعمومية، ونعني بذلك أن الخطاب الإلهي المتعلق بقيام أمر

(١) انظر: الشامي، صالح أحمد، من معين السيرة، ص ٤٠.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٩٩.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٩٩.

الدعوة تتجه نحو الذكور والإناث على السواء، وأساس ذلك أن الإسلام جعل من النساء بشرا مكرّمت، رافعات مكانتهن بإتجاه الخطاب نحوهن مثل الذكور على السواء، وبالتالي لم ينفرد الخطاب بدونهن إلا في المسائل القليلة تيسيرا لحالهن ودفعاً للمشقة، وكلما جاء الخطاب مطلقاً فإنه تشملها مع الذكور بطبيعة الحال وتتساوى معهم كذلك في الأجر والمثوبة، حيث قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

ولم يكن تأهل تعلق الخطاب بهن في مجال المدعوين بل رفعت إلى جانب الدعاة كذلك، فصارت منهن داعيات للحق والخير تحمل رسالة الإسلام، وهي بالتالي مظهر حضاري فريد في تاريخ الإنسانية حيث كان لهن بناء على ذلك مشاركة ومساهمة فعالة، ومن ثم انتبه لهن الداعي الأول ﷺ في بدايات الدعوة الإسلامية لمكانتهن، وكانت دورهن في هذا الأمر واضحاً، وسجل في تاريخ الدعوة كذلك أن أول المؤمنين إيماناً بالرسالة المحمدية هي السيدة خديجة رضي الله عنها باعتبارها أول سيدة في الإسلام، ونظراً لأهمية مكانتهن نبرز هذا الموضوع في نقاط تالية: وعن هذا يقول ابن هشام في سيرته: وأمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه به وساندته على أمره، وصارت أول من آمن وصدق برسول الله، فخفف الله بذلك عنه لا يسمع شيئاً من مكروهه وتكذيب فيحزنه ذلك... وقد قال رسول الله ﷺ عنها: "أُمِرْتُ أَنْ أَبْشُرَ خَدِيجَةَ بَبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبُ فِيهِ وَلَا نَصَبٌ"^(١).

وأما عن مساندة ودور السيدة خديجة بالنسبة لأمر الدعوة الإسلامية فيقول الشيخ محمد الغزالي: وكان موقف خديجة بنت خويلد منه من أنبل المواقف التي تحمد لامرأة في السابقين والآخرين، طمأنته في قلقي، وأراحته حين نصب وجهه، وذكرته بما فيه من شمائل وفضائل مؤكدة له: وهكذا الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً، وأن الله إذا طبع رجلاً على المناقب السمحة والمكارم الجزلة؛ فيجعله أهل إعزازه وإحسانه، وبهذا القلب الصالح والرأي الراجح؛ استحققت السيدة خديجة رضي الله عنها أن يحييها رب العالمين، فيرسل إليها بالسّلام مع جبريل الروح الأمين^(٢). ونستنتج من الفقرة السابقة دور المرأة المسلمة المساندة في أمر الدعوة من جهة المدعوين، وذلك أنها إذا اشتركت في الأمر فستتحمل المسؤولية مع صاحبها في البيت وبالتالي تكون مواساته سبب لتخفيف الآلام وراحة عن المتاعب، ووجودهن كذلك سبب لبث روح النشاط والحركة، وهن في هذا الموقف أكبر تأثيراً من الرجال وذلك لأنهن يسد باب اليأس والهزيمة النفسية والتي تعرقل وجه الطموحات والتطلع إلى الأفاق البعيدة، وهكذا أكثر الخذلان والتساقط في المجتمعات الدعوية ناتجة عن عدم التنبه إلى هؤلاء وكذلك عدم اشتراكهن في الأمر.

وعلى هذا فقد كانت السيدة خديجة رضي الله عنها مثلاً ونموذجاً كاملاً في ترسيخ مفهوم المساندة وطمأنته لشريك الحياة وحثه على مواصلة مسيرتها واعطاءها القوة الذاتية والمناعة لتحمل المشاق وكذلك إثارة الهمم العالية وإيجاد

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٤٠.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٩٩.

روح الجد والنشاط، وقد أخذ النبي ﷺ فعالها بالذكر الجميل إلى آخر حياته، وكان يذكر فضلها طول حياته حتى أن بعض أمهات المؤمنين أغرت من ذكرها رغم موتها وعدم رؤيتها لها.

ويمكن أن تجمع موقف السيدة خديجة رضي الله عنها في بدايات الدعوة النبوية في ثلاثة أمور:

التصديق والتثبيت وكذلك التبشير، وعلى هذا يقول الباحثون: فقد كانت خديجة نعم الزوجة، وبرزت مساندتها في هذا الموقف الحرج وغاية التزلزل حيث كانت قولها سببا لايجاد منتهى الثبات فتقول: كلا "أبشر"، والله لا يخزيك الله أبدا، وما أروعها هذه الكلمة في هذه المواقف الحرجة وهي تؤيدها وتثبتها وتبشرها، وتختلف هذه البشارة في ذلك الموقف لأنها تخرج عند الخوف والحزن، ولم تكن هذه البشارة مجرد كلام فارغ لا طائل تحته بل كانت منبععا من خلال علمها بخلقه وسابق حياته، وهي تؤمن مع ذلك بشخصيته ولديها الفطنة والذكاء بأن الجزاء من جنس العمل، وهكذا جرت سنة الله بإكرام الكرماء ومساندة من ينصر الضعفاء فقالت "فوالله لا يخزيك الله أبدا" إنك وإنك... وبهذا "أمنت به قبل أي إنسان وهي التي بشرته بالنبوة"^(١).

ويستنبط من هذا أيضا أن عملية الدعوة بمثل تلك الحالة ليست بحاجة إلى مجرد قوة تدفعها بل هي بأمس حاجة إلى تثبيت وتأييد نفسي، وكذلك بث البشارة بالمال والطموح إلى المستقبل؛ وبالتالي لن يتيسر تلك الحالة إلا من نساء مؤمنات مخلصات تقف مع الرجال، فهن شقائق الرجال، وهكذا المسيرة في الدعوة تحتاج منهن المساعدة والعون وكذلك بذل الصعاب والطمأنينة على المواصلة بروح الثبات والبشارة.

ولم تكن السيدة خديجة رضي الله عنها هي النموذج الأول والآخر في هذا المجال بل ضربت في تاريخ النبوة آخريات فاضلات أروع أمثلة للتضحية والدور الفعال في جلب المدعوين إلى حقل الدعوة.

فهذه فاطمة بنت خطاب كانت سببا في إسلام أخيها عمر بن الخطاب حيث خرج يوما متوحشا سيفه للليل من رسول الله ﷺ وأصحابه، فلقبه نعيم بن عبد الله فقال: أين يا عمر؟ فقال: أريد هذا الصابئ محمدا، والذي فرق بين قريش وعاب دينها وسفه أحلامهم، وسب آلهتها فأقتله، فقال له: لقد غرتك نفسك، أو بني عبد المناف تاركك؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم، وقد أسلم ابن عمه سعيد بن زيد وأخته فاطمة؛ فذهب مسرعا إلى بيتها وعندهما خباب بن الأرت ومعهما صحيفة يقرئهما إياهما، فلما علم أختها أخفى الصحيفة تحت فخذها، وحينها قال عمر: ما هذه الهيمنة التي سمعت وقد علمت أنكما تابعتما محمد على دينه؟ وبطش بسعيد بن زيد ومن ثم على أختها حتى ضربها فشجها... ولكن لما رأى على وجهها من الدم ندم على صنيعه وطلبت منها الصحيفة، وقد أعطاها بعد اغتساله، فقرأ منها آيات ورق إليه قلبه حتى آمن^(٢).

(١) انظر: عيسى، محمد حسين، دور المرأة في حمل الدعوة (جيزة، قطر الندى للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، ص ١٣.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٦٤.

وعن الدرس المستفاد عن هذه القصة يقول الغزالي رحمه الله: "ولكن قلب المرأة كانت أصدق من رأي الرجل، فإن غلظة عمر كانت قشرة خفيفة، تكمن وراءها ينابيع من الرقة والعطف والسماحة... وقد أعاده منظر الدم المراق إلى صوابه، فرجحت نواحي البر والخير والخير في نفسه"^(١).

وبعد سرد هذه الأحداث والوقائع نستنتج أن النساء نظرا لامتلاك العاطفة الجياشة القوية هن أسرع استجابة من الرجال، وهن بذلك إذا وجدن الطرق فإن مشاعرهن وعاطفتها وحنانها تجرهن إلى الاستمساك بالدين؛ بحجة أن الشماثل تجعلها مقربة إلى الفطرة الدينية بالنسبة للرجال، وقد شدد النبي ﷺ بدعوتهم، وذلك لأن إيمانهم ليست مهمة لازمة تنحصر على أنفسهم بل تتعدى إلى الأسر والقرى فتجذب بخصالها المدعويين وكذلك وجودهن في اطار الدعوة خير معين مع الدعاة لتخفيف الآلام والمتاعب، وبالتالي توهن وطأة المصائب ويدب بدلها النشاط والحركة وذلك عن خلال التصديق والبشارة والتطلع إلى المستقبل النير.

المطلب الثاني: معرفة أصناف الخصوم والأساليب التي يواجهون بها الدعاة

يناط أمر الدعوة إلى الله على معرفة أصناف المدعويين وكذلك فهم الأدوات المساعدة لجلبهم إلى الدين وفي مقابلها الأساليب التي اختارها الخصوم لسد هذه الإشاعات الكاذبة، وبالتالي ما عليهم إلا أن يكونوا محذرين آخذين الحيلة حتى لا يصيبهم أذى وضرر في حياتهم ودعوتهم، وعلى جانب آخر معرفة هذه الأساليب تسهل عليهم بأن يأثروا كل مدعو بما يناسب حالهم، وبهذا ليس كل المدعويين يستدعي أساليب معينة أو موحدة بل لكل صنف وحتى الخصم له ما يؤاثر حاله، وربما بتغير الأسلوب والبيئة سيصبح ألد الأعداء إلى أولياء حميمين. ولقد راعى النبي ﷺ في دعوته هذا الأصل وسار في مستهل رسالته على هذا النهج واكتسب انتصارات رائعة، حتى أصبح ألد أعدائه بالأمس والذين يترصدون له بالمرصاد كانوا في اليوم أصحاب أوفياء يدافعون عن رسالته وشخصيته، وهكذا يبذلون كل الجهد لدينه، ولقد استدرك فقيه الدعوة محمد الغزالي من خلال اطلاعه على السيرة النبوية على هؤلاء وأساليبهم في الفترة المكية وكذلك بواعث ما دفع هؤلاء إلى هذه الخصومة.

١- أصناف الخصوم: لقد أحسن الغزالي رحمه الله في كتابه عن أصناف الخصوم ودافعهم إلى الخصومة، فيقول: (ومن أولئك الخصوم؟ إنهم:

الف- متعصبون متحجري العقول، فقد زين لهم الشيطان سطوة البطش بكل من يخالفهم، وعن هذا يقول تعالى:

﴿وَإِذَا نُنَادِيَهُمْ أَيْنَ مَبْنِيَّتُكَ بَيِّنَتْ لَكَ مَبْنِيُّهُمْ فِي جُحُومِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ نَكْرِمْكَ كَادُوتَ يَسْطُوتَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ

عَلَيْهِمْ أَيْنَ مَبْنِيَّتُكَ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ (الحج: ٧٢).

(١) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٢٤.

ب- مترفي الحياة والذين سرتهم متاع الدنيا وثروتهم لمحبة الباطل وكرههم للحق لأنهم يرون أنه ربما سيعطلهم عن الحلي والمتاع، وعنهم يقول جلا وعلا: ﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مريم: (٧٣).

ج- أناس متعنتون عابثون، فهم بزعمهم يجعلون هداية الرحمن عبثاً أو أزياء غانية، ولقد حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ (يونس: ١٥).

د- مهرجون يتواصون بينهم بايجاد صياح وضجات عند قراءة القرآن حتى لاتسمع ولا يفهمها السامعون ولا يؤثر عليهم، وهؤلاء هم السفهاء والمنبذون، وعنهم يقول أعز من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)^(١).

والفقرة السابقة دالة على بيان أصناف الخصوم ودافعهم إلى الخصومة في تلك المرحلة، وقد وفق الشيخ محمد الغزالي على معرفة ما جرهم إلى ذلك مستشهدين بآيات القرآن الكريم، وإنها بالجملة لم يكن عندهم منطلق عقلي ولا استدلال يستند إلى الحق ولا العدالة؛ بل الكل يتبعون سفاهة وبطشا جراء الخوف على ثروتهم ومناصبهم، وقد كان البعض مقلدي أولئك سفهاء لا يدركون ما يفعلون وأن ارادتهم كانت تابعة لسادتهم وكبراءهم، وهكذا جاء شكل هذه الخصومة على دافع شخصي بعيد عن القيم، يعون ويدركون مدى اجرامهم تجاه هذه الرسالة السامية.

وعن هذا يقول الغزالي: "لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق الرسول محمد ﷺ حتى يبحثوا أمره ويمحصوا رسالته، ويزنوا- على مهل ما لديهم وما جاء به، لما عابهم على هذا عاقل، ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعد ما انكشف جريمته وثبتت ادانته. وقد حزن النبي ﷺ لهذا الإعراض المقرون بالتكذيب والتحدي، ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألقى نفسه مكذبا مهجورا"^(٢).

٢- أساليب الخصوم تجاه الداعي ودعوته: وبعد عرض أصناف الخصوم والدوافع التي جرهم إلى هذه الخصومة يحسن بنا في هذا المقام معرفة أهم الأساليب التي لجأوا إليه تجاه النبي ﷺ ودعوته الطاهرة، وإن القرآن الكريم ألمح إلى ذكر بعضها كما مر بنا.

لم يكتف مشركو قريش والخصوم في عداؤهم تجاه النبي ﷺ ودعوته بأسلوب قولي فحسب حتى تبرأ عداؤهم خلاف الدعوة الإسلامية بل لجأوا إلى كل أساليب عرفها أولئك وتيسرت لهم، وقد كان ذلك بغية أن تحط من مقام النبي ﷺ وتنال دعوته النقية والتي يرون فيها خطرا عليهم، فلجأوا إلى أشنع أساليب تأباه أصحاب العقول والفطرة

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة (بتصرف يسير)، ص ١٠٥.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٠٥.

السليمة، واستباحوا كذلك في حرم الله الآمن دماء، وأموال وأعراض أهلها والداخلين للإسلام رغم ما كانوا يعتقدون بقداسة هذه البقعة وما كانوا يتباهون على خدمة ورعايته بين العرب كله.

وعن هذا يقول الغزالي رحمه الله: لقد بدأت هذه الحملة العنيفة تجاه محاربة الإسلام بعد مجاهرة النبي ﷺ لدعوته، وبالفعل انفجرت براكين غضب هؤلاء، وعدوا كل الداخلين إلى الإسلام حتى آخر المرحلة المكية عصاة ثائرين فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في تلك البقاع المقدسة أرواحهم وثرواتهم وأعراضهم وجعلت مقامهم تحملاً للظلم والضميم وتوقعا للويل^(١).

ونستدرك من العبارة السابقة مدى محن المسلمين العظيمة في دينهم من قبل أولئك ألد الخصوم حيث بالغوا في عدائهم منذ مجاهرة الدعوة، فجعل أولئك بغاة ثائرين ولا يكون هذا اللقب إلا في إجرام كبير حسب الأعراف المتداولة، وما هي جزاؤهم إلا الضرب المميت وسد نفوذهم بكل وسيلة متاحة.

ومن اللازم التنويه أن هذا التنكيل قبال أولئك جاء في زمن كان المسلمون ضعفاء ولم يرفعوا أدنى صوت ولا مقاومة تجاه ظلمهم وضييمهم، بل كانت سياسة أولئك مبنية على (وكفوا أيديكم)، وقد نهجوا في اتباع دينهم وأوامرهم بالسلمية الكاملة.

وأما أساس فعال أعدائهم فإنهم أدركوا أن العمل الإسلامي النشط يمتد بين الناس بسرعة هائلة كما تفعل النار في الهشيم، وبالتالي كانوا خائفين أن كفرهم سيحرق وسيزرع في رماذه ورود الإيمان، فعملوا جاهدين لإيقاف المد الإسلامي. ومن هنا يقول الباحثون: كلما أزهق حجج وبراهين أصحاب الدعوات المزيفة والباطلة وتزلزل أقدام أولئك بالبراهين الساطعة والمنطق السليم يلجأون إلى الإرهاب والبطش لكي يسكتوا الألسنة الناطقة بالخير والحق، وقد حسبوا أولئك بزعمهم أنه يستطيعون اطفاء نور الحق، وما علموا أن ذلك يزيد الحق نورا واشعاعا.

وقد جاء هذا النهج بعد أن رأت القوة الطاغية أن مساعيهم من الرجاء والتهديد والوعود باتت بالفشل فلجأوا إلى أسلوب التعذيب البدني، ومن صوره أن يقوم كل طائفة بامساك من يسلم من عشيرته ويأخذوا عليه بالضرب والتعذيب والتنكيل، وقد بلغ فعالهم تجاه أولئك إلى المرحلة الهمجية^(٢).

وقد مر في المباحث السالفة نماذج كثيرة من التعذيب البدني بما ناله الرسول ﷺ وأصحابه البررة، ونصرف عنها خشية التطويل.

وأما الصنف الثاني من أساليب الإضطهاد والأذى تجاه النبي ﷺ وأصحابه فكانت بمثابة الخطوة الثانية بعد فشل الأذى الجسمي والبدني وهي الأذى الروحي والنفسي، وكذلك النيل من القوة المعنوية إضافة إلى بذي الكلام والشتائم، وقد جاء هذا الأسلوب بعد تخبيل الأسلوب السابق، وصار بها المسلمون أقوياء من قبل، وبالتالي نضج إيمانهم ويقينهم تجاه رسالتهم السامية، وعن هذا يقول الغزالي: وصحبت هذه الشتائم المسعرة حرب من التحقير

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٠٦.

(٢) انظر: قلعه جى، محمد رواس، قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص ٤٦.

والسخرية قصد بها خذلان المسلمين وتوهين قواهم وأرواحهم المعنوية، وبهذا رمى الرسول ﷺ وصحابته بتهم وشتائم سفيهية، وتآلفت طائفة للإستهزاء ورجاله على مثل ما تفعله الصحافة المعارضة والمخالفة عندما تبث عن الخصوم نكتا وصور مضحكة للحط من مكانتهم لدى الناس والجمهور^(١).

ويستنبط من الفقرة السابقة أن خصومة أولئك الأعداء كانت مسيرة على وفق خطة وبرنامج مرتب، فلم يكتفوا هم على الأذى البدني والجسمي فحسب، بل تقدموا إلى أساليب غير معها حتى يسد على الناس دعوة هذا الدين، وقد أدركوا بعد فشل القسم الأول أن يلجأوا إلى طرق أخرى حتى ينالوا من شخصية النبي ﷺ ودعوته الناصعة بالتهم والإعتراضات، وقد وصل بهم الحال إلى درجة أنهم مروا عن مراعاة المبادئ والقيم الإنسانية من الأدب والعفة، ولجأوا إلى حملة السخرية والشتائم، وبالتالي لا يصدر هذا عن أصحاب عقول سليمة ولا أناس مكرمين ذو شخصية عالية.

ونستدرك أيضا أن ادعاء وشبهات أولئك لم يكن على منطلق فكري واستدلال بل كانت غاية ما يفعله أن يصيب النبي الداعي ﷺ ودعوته أذى، وهم بذلك متشبهين بالزواحف الملدغة حيث لا تنال بلدغ الغير أية مكسب، غير أن ذلك أصبح سجية وطبيعة لهم، وما هي فعالهم إلا تشبعا كما يسدون رمق الجوع بالبطون.

ومن نماذج أولئك أنهم نادوا الرسول ﷺ بالمجنون حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّخِذُ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: ٦)، وتارة يسميه بالسحر والكاذب حيث قال أعز من قائل: ﴿وَيَجْعَلُونَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ (ص: ٤)، وأدنى فعل من كل ذلك أنهم ينظرون إلى النبي ﷺ بنظرات ناقمة وملتهبة بالثأر حيث قال الله عنهم: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم: ٥١).

وكل هذه الأساليب تعد بدورها حربا نفسية خلاف النبي ﷺ ودعوته، وكانت قائمة على خطة مرسومة، وخير مثال لذلك أنهم كانوا يختارون الوقت المناسب لها، وكان في أيام الحج يَمرون على الناس حتى يسد وجه الدعوة عنهم، وعن هذا يقول الباحثون: إن الحرب النفسية التي شنوها أولئك تجاه النبي ﷺ لم تكن حملة عشوائية بل أعدت بإحكام ودقة بين سناديد الكفار، وبالتالي وضعوا لها قواعد محددة، وهي بجملتها نفس القواعد المعمولة في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث كاختيار الوقت المناسب والإتقان وعدم التناقض وغير ذلك^(٢).

والملفت أن تلك الحملة لم تستطع أن تحاصر رسول الله ﷺ ولا دعوته بل إرادة الله فاقت عن كل هؤلاء، وأصبح تجمع النبي ﷺ في نفس المكان مع أهل يثرب سببا لنصرة الإسلام وعزمه وتقدمه.

ومما يلفت الإنتباه إليه كذلك حسن ربط تلك الأساليب في ذاك الزمن بالعصر الحديث عند المفكر الغزالي رحمه الله فشبّه ذاك الحملة المزيفة بالحرب الإعلامية الجديدة والتي يدفعها أصحاب الإعلام تجاه دعاة الحق في البلدان

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٠٦.

(٢) انظر: كحيل، عبد الوهاب، الحرب النفسية ضد الإسلام (بيروت، عالم الكتب، ط ١٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م)، ص ١٠٣.

الإسلامية حيث يرمونهم بالتهمة والتناقضات وما إلى ذلك، وما هي إلا النيل من شخصية الدعاة ودعوته القائمة على الحق والخير، وإنهم بذلك يشنون لتشويه صورة الإسلام وخاصة في الزمن الذي ينتشر بين المجتمعات ويقبلون عليه الناس.

وبالجملة فإن معرفة أصناف الخصوم والوسائل والأساليب المعادية والذين يواجهون بها أهل الحق من أهم الموضوعات المتعلقة بفقهاء المدعويين، وما على الدعاة إلا أن يتأهبوا لذلك، ويكون عندهم الاستعداد اللازم لردعهم ودفعهم، وكما أن أولئك يرسمون لإضطهاد المؤمنين خطة مرسومة؛ فعليهم أن يفعلوا بمثلها ويضعوا نهجا مفوقا ويتسلحوا إلى جنبها بوسائل مناسبة تفيدهم في الدفاع، وهكذا لا يرد الحروب النفسية والإعلامية إلا المواجهة المثلية ويكون آخر الأمر بتوفيق الله النصر والظفر حظهم.

المبحث الثالث: فقه المدعو في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الدعوة الإسلامية مهمة ورسالة عظيمة كتبها الله على الأمة المحمدية بحكم الاستخلاف على مهمة النبوة، ومنح لهم بناء عليها الفضل والشرف، وذلك لأنهم اختاروا مهمة الرحلة والسير إلى الله، ومن ثم دعوا غيرهم لأن يسلكوها ويتركوا السبل المفضية إلى الزيغ والضلال.

وقد يحتاج سلوك هذه المسيرة إلى أخذ زاد دعوي حتى يوصل أصحابه إلى غايته، ومنها أن يعرفوا الأصول والهدى الذي عين لهم صاحب المسيرة ورسوله الكريم ﷺ، وقد يلزم عليهم أن يكونوا عالمين بصعوبتها وأخطارها ويدركوا التحديات التي يعترضهم في طريقهم من هوى النفس ووسواس الشيطان الذي أحدثها عبدة الطواغيت؛ وبالتالي ما عليهم إلا أن يكونوا بارعين ومتفنيين مع العلم بالمسيرة حتى يجتازوها بأنفسهم وغيرهم، وينالوا السعادة والنجاة الدنيوية والآخروية، ومن هذا المنطلق وقف الدكتور بوطي رحمه الله من خلال دراسته على هدي السيرة النبوية واستنبط منها القواعد والضوابط المتعلقة بالدعوة، ومنها في مجال فقه المدعويين حيث نبينه كالاتي:

المطلب الأول: أسباب نجاح الدعوة في جانب المدعويين

الدعوة الإسلامية هي الصفقة والتجارة الرباحة التي تديرها الدعاة مع الله عزوجل، وسلعتهم فيها هي الجهود والتضحيات وتقديم الحياة والوقت والمال في سبيله، وبطبيعة الحال فإن الفكرة والمبدأ الأساسي في المتاجر هي المكاسب واستحصال المرباح، ولما تكون الخسارة من نصيبها، وهي حالة استثنائية، وحتى تحملها تكون بغية المكاسب المستقبلية؛ وبالتالي الوصول إلى هذا المبتغى بحاجة إلى دعاية وحث حثيث، وكذلك اختيار العوامل التي تجلب الزبائن، إذ لولاه لما كانت للتجارة جدوى، وقياسا على ذلك فإن المدعويين هم الجانب المهم والركن الأساسي في عملية الدعوة، وقد وضع الله عزوجل دعوته أمانة على أعناق أولئك، وتأثير ونجاح الدعوة منوط بمدى جلب المدعويين والتأثر عليهم... ومن هذا المنطلق يجب على الدعاة أن يختاروا من الأسباب المؤثرة التي تجلب وتجذب المدعويين، وأن يكونوا إلى جنبها متفائلين بمهمتهم وممتلكين لنظرة الطموح والمعالي والتي

طالما تعين الإنسان إلى الوصول إلى الهدف، ونظرا لأهمية هذا الجانب حري بنا أن نعرض إلى أهم هذه المبادئ من خلال سيرة النبي المختار ﷺ والمستفادة من المرحلة المكية؛ وقد تنبه الدكتور البوطي رحمه الله عليها وسوف نبينها كالآتي:

١- الإهتمام بالشباب: الفتوة والشباب هي المرحلة الأساسية من حياة البشرية حيث تتميز عن المرحلة السابقة واللاحقة بمميزات وسمات أساسية، ومن أهمها النشاط والقوة، وصفاء الذهن والذكاء، ووجود العاطفة والقرب إلى الفطرة الإنسانية، وهكذا امتلاك النفسية القوية التي تجعل الإنسان جريئا في مواقفه وأفعاله، وبعيدا عن الخوف والتردد، ونظرا لهذه الشوائب هم حملة الأعباء الثقيلة، ويناط تنفيذ الأمور ومسايرته بوجودهم، وبعبارة أخرى امرار الحياة وتذليل الصعاب في كل الأمم مرتبط بخلقتهم، وهم على ذلك يمثلون العمود الفقري في الجسم الإنساني... وبناء على ما تقدم فعجلة الحركة والسير في الحضارات القديمة والحديثة ترتبط بهم، وهم على ذلك الممثلين الذين يحملون القيم الإنسانية، وبالجملة اصلاح الناس وفسادهم متعلق بوجودهم وفعالهم.

وعن مدى أهمية الشباب ودورهم في الأمة يقول علماء ومفكري الأمة: إنهم مستقبل الأمة وقوامها، وذاك العمود الذي يقوم بها وجودها، وحينما نعتن بالشباب فإننا نهتم في الحقيقة على أمتنا وحضارتنا العظيمة، ولأجلها لهم حيز كبير في الدين القويم، وهكذا وجودهم كالمحرك في السيارة، والشيخ كالمقود، وأما المنهج فهو الطريق الذي يوصلنا إلى الغاية، وبالتالي مواصلة المسيرة بحاجة إلى محرك وفيها مقود، وكذلك السير على الطريق المستقيم العاري عن المعوجات ومن ثم التنسيق والتنظيم بينهم^(١).

والمتتبع في تاريخ الدعوة ليلمس أهمية ودور الشباب المسلم في حمل أعباء هذه المهمة ومدى تقديم تضحياتهم الغالية، وخاصة في آوان الأوقات العصيبة حيث لم تفتقر همهم وكانت عالية تبعث الأمل والطموح للمدعوين، ولكن شريطة أن توجهها القائد الدعوي على مسارها الصحيح وتجنبها على الخرافات وتوقظهم عن الغفلة والتكاسل التي طالما تواجههم هؤلاء.

وقد كان النبي ﷺ في دعوته ومسيرته مهتما بهم، وكان يريهم ويوجههم إلى النهج المستقيم حتى يكونوا حاملين لكلمة الله ويقتدي بفعالهم وآثارهم. وكانت الفترة المكية خير مظهر لهذه الظاهرة بحجة أنها الفترة العسيرة في تاريخ الدعوة واحتاجت حمل هذا العبء الثقيل لهم، والنبي ﷺ بصفته القائد الدعوي أيضا كان في بداية الدعوة شابا يانعا والتف حوله هذه الطليعة المخلصة.

وبناء على ذلك فقد ظهرت في تاريخ النبوة أمثلة رائعة لهؤلاء وخير نموذج لها الهجرة النبوية ﷺ، وقد كان في مقدمة هذه المسيرة الشباب والفتيات المسلمين والمسلمات، فقد روى ابن هشام في سيرته عن مهمتهم قائلا: "وَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ أَنْ يَتَسَمَعَ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهِمَا نَهَارَهُ، ثُمَّ يَأْتِيَهُمَا إِذَا أَمْسَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْخَبَرِ، وكذلك أَمَرَ

(١) انظر: النابلسي، محمد راتب، الشباب في الإسلام (كتاب منشور على موقع كتوباتي. kotobati.com/book)، ص ١١١.

عَامِرَ بْنَ فَهْرَةَ مَوْلَاهُ أَنْ يَرَعَى غَنَمَهُ نَهَارَهُ، ثُمَّ يُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا، يَأْتِيهِمَا مَسَاءً فِي الْغَارِ. وَكَانَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ تَيْمٍ تَأْتِيهِمَا مِنَ الطَّعَامِ بِمَا يُصْلِحُهُمَا" (١).

وقد كان قبله علي بن أبي طالب قام بموقف مغامر شجاع حيث نام في عتمة الليل على فراش النبي ﷺ ومجموعة الكائدين يرصدون له على بابه، وقد أمره النبي ﷺ أن يفعل ذلك قائلا له: "تَمَّ عَلَى فِرَاشِي وَتَسَجَّ بِرُذِي هَذَا الْحَضْرَمِيِّ الْأَخْضَرِ، فَنَمَ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ" (٢).

وقد يرى البوطي رحمه الله: أن جملة هؤلاء كانوا من الشباب المخلصين الطائعين لدعوة الإسلام، وقدموا نشاطهم وشبابهم لحمل هذه الكلمة الطيبة، وأما عن الدرس المستفاد عن فعالهم فيقول: وهذه هي صورة مما يلزم أن يكون عليه الشباب والفتيات المسلمات في سبيل الله، ومن أجل تحقيق مبادئ الإسلام وإقامة مجتمعه، فلا يكفي أن يكون الإنسان مهتما على نفسه مقتصرًا على عباداته، بل عليه أن يبذل كافة طاقاته، وأوجه نشاطه سعيًا في سبيل الدين، وتلك هي سمة الشباب في حياة الإسلام في كل عصر وزمان (٣).

ونستنج من الفقرة السابقة أن مهمة الشباب في الإسلام لا تقتصر على مدى إصلاحهم فحسب بل يجب أن يعوا أنهم بعد ادراك الهدى والحق سيصبحون حملة الإسلام، وبالتالي يلزمهم أن لا يألوا جهودهم عن مناصرة الحق وتأييده، وذلك لأن الدعوة تكليف والزام تختلف طبيعتها بناء على تفاوت المدعوين، فمنها من يأخذها عن الاعتناق واعمال الأوامر، ومنهم من يقتضي منه تأييده ونصرته، وأما أصحاب الهمم والطائعين المخلصين فما عليهم إلا أن يكونوا حملة للدين وساعين لتطبيقه، وسمتهم أن يعيشوا للإسلام ودعوته السامية وينتظر من الشباب أن يكون من الفئة الثالثة.

وعلى هذا يرى مفكرو الأمة مستنبطًا عن سيرة الرسول الأعظم ﷺ أن من أكبر واجبات الإسلام على شباب المسلمين أن يكونوا حملة لإصلاح الغير، ويستدلون على ذلك بسورة العصر حيث وضعت فيها ملامح النجاح للحياة الإنسانية، فيبدأ الله بالإيمان والعمل الصالح، ولكن تقام هذان المبدآن على أسس أخرى معها وهما التواصي بالحق ومن ثم على إثرها الصبر والثبات فيما يلاقونهم في سبيل الدين.

ولذلك يجب على الشباب أن يجندوا أنفسهم للحق وأن يوطنوا قلوبهم على الصبر، وعليهم أن يدركوا أيضا أن الدعوة مهمة شاقة وهي قول ثقيل وعبء كبير، وهؤلاء هم ورثة وأهل هذا العبء والقول الثقيل، وهكذا من طبيعة الدعوة أنها تقاوم وأن كل دعوة لها مخاصمون ومقاومون، وحرى بالشباب أن يكونوا مدافعين له فيزود عنه بالكلمة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٩٨.

(٢) السابق نفسه، ج ١، ص ٩٦.

(٣) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٥٤.

والفعل ، وهذا العمل بطبيعة الحال يدفعهم بأن يختاروا صورة طيبة لما يدعون إليه ويجعلهم يستمسكون بالعالَم الإسلامي^(١).

ولسوف يدرك الدارس لتاريخ الدعوة الأولى أنها كانت مبنية على هذا الأساس ، وبالتالي جاءت نتيجتها ملموسة في كلا الطرفين ، فقد استفادت الدعوة من قوة وعزيمة أولئك ، وهم أكسبوا بذلك شخصية وهوية فجعل منهم قوادا وموجهين للخير ، وعن هذا يقول البوطي : "وإذا تأملت فيمن حول النبي ﷺ أوان دعوته وجهاده لوجدت أن أغليتهم العظمى كانوا شبابا لم يتجاوز المرحلة الأولى من عمر شبابهم ، ولم يألوا جهدا في تجنيد طاقاتهم وقوتهم من أجل نصرة الإسلام وإقامة مجتمعه"^(٢).

وبالجملة فدعوة الشباب والاعتماد عليهم هي من العوامل المؤثرة في نجاح أمر الدعوة ، وهذا ما يجب أن ينتبه لهم الدعاة ، وبذلك يضمن دوام الدعوة ويكسب بها النشاط والحركة ، كما يصون عن الأخطار المحيطة ، وأخيرا سيصبح أولئك قادة للخير وحملات للحق والذين لا يألون من جهودهم في نصرة الحق وتأييده.

٢- التهيؤ النفسي لدى المدعوين: الدعوة إلى الله عز وجل هي ذاك الفعل والأثر الطيب الذي يجذب في القلوب الطيبة والصالحة وهم الذين يصغون لتعليمات الدين وتوجيهاته ، وهم بذلك تشبه النباتات الطيبة التي تنبت على الأراضي الخصبة القابلة للزراع ، أما الأراضي الصلبة الجامدة والتي لا تجذب الماء ولا تنبت النبتة فهي بحاجة إلى ممارسة لتصلحها . وبالتالي فليس كل النفوس صائغة ولا مهينة لتلقي الدعوات أول الأمر ؛ ومن هذا المنطلق يجب على الدعاة أن يبدأوا مهمتهم على أناس لهم تهيؤ نفسي لقبول الدعوة حيث يستسلمون لها طواعية دون الإكراه ، وبالتالي إذا استقر بهم الأمر فإنهم سيوسعون شملها إلى غيرهم ، وسيؤثرون عليهم طبقا لسنة التأثير .

وقد نهج النبي ﷺ في بداية دعوته على هذا المنطلق ، فلم يجهر دعوته على الملأ العام بل ظل يمارس ثلاث سنوات سرا بين من تربطه به قرابة أو كان بينه صداقة ، وكذلك يلمس في شخصيته تهيؤ نفسي لقبول الحق وذلك حذرا من وقع المفاجأة على جماعة قريش والذين كانوا يتعصبون لشركهم ووثنياتهم .

وقد ذكر ابن هشام في سيرته بعبارة جريئة فائقة حيث يقول : "فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْعِبَادِ بِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ سِرًّا إِلَى مَنْ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ"^(٣).

وعن الدرس والحكم المستفاد عن هذا يقول البوطي : لقد أوحى الله إلى نبيه ﷺ إلى جانب التعليم والهدي الرباني طريقة ونهج البلاغ إلى الناس ، وقد أمره أن يبدأ الدعوة في أوانها الأول سرية وخفاء ، وأن لا يعرضها إلا من يسغي إليها ويؤمن بها ، وفي هذا تعليم للدعاة اللاحقين من بعده حتى يأخذوا الحيلة في الأمور وأن يكون حاذرين من مكائد الأعداء والذين يتوقع منهم القضاء على الدعوة في أوانها الأول .

(١) انظر: القرضاوي، يوسف ، واجب الشباب المسلم اليوم (القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، ب ت ط) ، ص ١٩ - ٢٢.

(٢) البوطي ، فقه السيرة ، ص ١٥٤.

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ٤٠.

ولكن ينبغي إلى جنب ذلك أن لا يرفع هذه الحيلة والحذر على عقيدة الاعتماد والإتكال على الله عزوجل ، وفي هذا تميز الدعوة الإسلامية على الدعوات الآخرين الوضعية ، وهي في مجموعها مزيج من الأخذ بالأسباب باعتبارها وسائل مشروعة وكذلك الاعتماد والتوكل على الله عزوجل ، والله تعالى طلب من دعاة دينه أن يأخذوا بكلام المصدرين حتى تصل إلى الغاية المطلوبة^(١).

ونظرا لما سبق نجد في الدعوات الإسلامية المعاصرة نوعا من التقصير ، فبعضهم يلجأون إلى التفریط ويتقاعصون عن أداء الواجبات بحجة أن الأجواء غير صالحة للعمل ، وهكذا يمر عليهم سنين والساحة تكون خالية عن أداء مهمة الدعوة ، وأما البعض الآخر فيغالون في مهمتهم وتكون عملهم بدون الأخذ بالأسباب والوسائل اللازمة ، وبالتالي يضيعون العمل والجهود الإسلامية في نواتها ، وما هي عملهم إلا نوعا من التهور المذموم الذي لا طائل تحتها ؛ وبالجملّة كلا المنهجين منحاز عن جادة الصواب ، والمنهج الصحيح هو ما وضعه إمام الدعاة والمرسلين ﷺ فكان يأخذ بالمنهج الوسط حيث كان يعتمد على الأسباب والوسائل وينظر إلى مآل الأمور ومن ثم يفوض نتيجة عمله إلى الله عزوجل متكلا عليه .

وأما عن أهمية التهيؤ النفسي ومدى ضرورته في الدعوة فيقول الباحثون : إن العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والإرادة والوجدان ، و احتاجت نشرها أيضا إلى الاعتماد بهذه القوى ، ومن ثم كلها بحاجة إلى تربية وتوجيه ، وبالتالي لا يمكن أن تختلف تلك الأعضاء عن وسائل نشر المبادئ والأفكار ، بل لا بد أن يكون تناسقا بينهما ، وهكذا ليست مهمة الدعوة متجهة إلى ما يكون بل إلى ما بعد التكوين ، وكذلك بحاجة إلى التعهد والرقابة ، واحاطة منيعة تحميها عن البليات والفناء حتى يضمن لها البقاء والقوة في نفوس معتنقيها ، ومن ثم تجد فرصة ذيوعتها وانتشارها من لا يؤمن بها^(٢).

وبناء على ما تقدم يصل البوطي منها إلى نتيجة مهمة أخرى وهي أن مراعاة هذا الأصل أي الإتيان على الناس من باب التهيؤ النفسي في الحقيقة تحقيق لمراعاة المصلحة والتي يدعوا الإسلام إليها في كل حين ، وفي هذا رد على من يرى أن الجهر بالدعوة أمر مطلوب لحفظ الدين ، وهي بطبيعة الحال مقدم على حفظ النفس والتي تأتي في الدرجة التالية بعد حفظ هذا المقصد .

ولكن البوطي يميل إلى رأي جمهور الفقهاء والذين يرون أن مصلحة النفس هنا متينة ومقابلها حفظ الدين موهومة أو منتفية الوقوع ، ومن جهة أخرى فإن مصلحة النفس كما يرى هي مظهر ظاهري ، ولكن في حقيقة الأمر هي بنفسها سبب لمصلحة الدين ، وذلك لأن هذه المصلحة منوطة بأن تبقى أرواح المسلمين سليمة ، وفي مقابلها اهلاكهم سبب إلى نتيجة متينة فأشبه بأضرار الدين ، وفسح المجال للمعاندين الكافرين . وهكذا الضابط في

(١) انظر : البوطي ، فقه السيرة ، ص ٨٤ .

(٢) انظر : حب الله ، محمود ، الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية (القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م) ، ص ٢٧١ .

المصالح هي أنه يجب تقديم المصلحة على أخرى، وذلك إذا كان في مقابلها مصلحة موهومة الوقوع، وإن كانت متفوقة عليها من مدى أهميتها الذاتية^(١).

وصفوة القول إن التهيؤ النفسي لدى المدعوين هي من الأسباب الجلية لنجاح الدعوة الإسلامية، وقد تحمي هذه المهمة من أن تنهار في أول محطتها أو نواتها، وبالمقابل فهؤلاء سينضمون بطبيعة الحال مع قائدهم الدعوي، ومن ثم سيزداد تأثيرهم على الآخرين يوما بعد يوم؛ وهذا ما سلكه النبي ﷺ في رسالته بأمر وتوجيه من الله وحث ورثته الدعاة على سلوكها بعدها لأنها سلم النجاح وضمان لبقاء المسيرة السامية.

٣- صلة القائد بالمدعوين واهتمام أولئك به: الدعوة إلى الله هي تلك الصلة والقربة التي تربط الدعاة بالمدعوين، وتكون هذه الصلة متناسقة مترابطة فيما بينهم كترابط الأعضاء في الجسد الواحد، ويفوق عن أوصار الدم والنسب والانتساب القبلية؛ وحتى عن المشاركات البشرية في القضايا التجارية والمصالح المادية؛ وبالتالي يكون القائد بين مدعويهم المؤمنين كأنه واحد منهم يشارك معهم في آلامهم وآلامهم، وهكذا قائد المجموعة بين المدعوين ككبير الأسرة يهتم بأفراده، ويرعاهم ويوجههم بالتربية الحسنة، ومن أهم سماته أنه يقدم إلى الأمور العسيرة والمشقات الدعوية قبل غيرهم، ويكون مبتدئا لاقتحام المخاطر التي طالما يواجهونها أولئك في هذه المسيرة العريضة.

ومتى سارت الدعوة على هذا المنهج فيكون أمرها ومآلها النصر والنجاح، وسيقدمون على إثرها مجموعة المدعوين إلى كل عسير وصعب طوعية، ومن سيزودون عن كبيرهم وقائدهم ويفدونهم بالروح والدم والمال، وتكون حياته لهم مهما قبل حياتهم، وأنهم بعد التربية أدركوا أن القائد بالنسبة للجماعة كالروح في الجسد، أو الدم في الشرايين؛ ولذلك يجب الإهتمام به، فيلتفون حوله وكأن حياتهم بحياته ونشاطهم بنشاطه.

وما أكثر الفشل الذي اعترى لبعض التجارب الإسلامية في الأزمنة الأخيرة إلا ناتجا عن الإهمال والتكاسل في هذا الجانب؛ فترى أن الدعاة منفصلون عن المدعوين، فيعيش هو وأسرته في رخاء من الأمر حيث تحيط بهم السراء والدعوة والمدعوين كالسنة المعتادة تثن تحت ضربات الضراء؛ وشتان بين حالهم وحاله، وبالتالي حينما يواجه القائد لبعض المصائب فإنهم غير مهتمين به ولا يألون به بالا، وتستمر الحالة إلى أن تفشل تلك التجربة رغم تفوق شعارها وأصولها الجميلة.

والدارس لتاريخ الدعوة الإسلامية في المرحلة الأولى ليدرك المظهر الجميل لهذه السمة في حياة النبي ﷺ وكذلك مدى اجتذاب المدعوين إلى دعوته بهذه الخصلة، فكانوا ينضمون إليه عن محبة القلب، وأصبحت محبته لديهم فائقة عن محبة سائر الموجودات حتى من أنفسهم، وكلما اعترى المخاطر التف حوله يحرسهم وتكون أعينهم حارسة عليهم حتى لا يصيب بأذي وضر، وكانوا يرون أن كل مصيبة بعد رسول الله ﷺ جلل وهين.

(١) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ب ت ط)، ص ٢٦١.

فقد روى أصحاب السنن والسير حوادث ليست بواحدة تدل على ذلك، منها ما رواه ابن سعد في طبقاته حيث يقول: "خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة. وذلك في ليالٍ بَقِينَ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةِ عَشْرِ مِنْ حِينَ نُبِّئَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَأَقَامَ بِالطَّائِفِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ لَا يَدْعُ أَحَدًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ إِلَّا جَاءَهُ وَكَلَّمَهُ. فَلَمْ يُجِيبُوهُ وَخَافُوا عَلَى أَحَدَانِهِمْ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ مِنْ بَلَدِنَا وَالْحَقُّ بِمُجَابِكَ مِنَ الْأَرْضِ. وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ. فَجَعَلُوا يَرْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى إِنْ رَجَلِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَتَدْمِيَانِ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَقِيهِ بِنَفْسِهِ حَتَّى لَقَدْ شُجَّ فِي رَأْسِهِ شِجَاجٌ"^(١).

وعن الدرس المستفاد عن هذا يقول الدكتور البوطي رحمه الله: وهذا نموذج لما ينبغي عليه المدعويين تجاه قائدهم الدعوي، من أن يحموه بأنفسهم ويزودوا عنه حتى وإن طلب الأمر التضحية في سبيل حياته. والحادثة تدل كذلك على أنه يجب على أصحاب الدعوات أن يتحملوا المحن والعذاب في سبيل الدعوة إلى الله وأن يضمن منها أنفسهم، وليكن النبي ﷺ أسوة مطاعة لهم، وذلك لأنهم ورثته بعده في هذا الأمر، ومن ثم يجب على المسلمين أن يكونوا حوله جنوداً مخلصين يزودون عنه بالروح والدم^(٢).

وهكذا التمس المهتمين بالسيرة النبوية هذه الظاهرة في الأحداث المثيلة واستنبطوا نفس الأصل منه، فيقول الدكتور السباعي رحمه الله من حادثة نوم علي رضي الله عنه في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة: إن الجندي المخلص والصادق لمهمته ودعوته يفدي بقيمة حياته عن قائده، وذلك لأنه يدرك أن مدى سلامة القائد سلامة وأمان للدعوة وفي هلاكه وإصابته وهن وخذلان للدعوة، وبالتالي كان إيواء علي رضي الله عنه لفراشه ﷺ تضحية بحياته في سبيل إبقاء حياة الرسول ﷺ، ولكنه لم يبال بذلك واجتاز هذا الصعاب أن يسلم الرسول الأعظم ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة^(٣). وبالجملة فإن صلة القائد بمدعويه وكذلك تربية المدعويين بالاهتمام بالقائد الدعوي هي من الأسس الثابتة في أمر الدعوة إلى الله حيث تعود تطبيقها المكسب للدعوة، فيجعل المدعويين طائعين ومهتمين بأمرها، وكذلك تعود على القائد بأن يكون محبوباً بين مجموعته وسوف يقوم أولئك بالدفاع عنه. ومرد ذلك لأنهم يرون أن سلامة الطريق وضمانها مرهون بحياة القائد، وأنهم بعد التربية أدركوا أن حياة الدعوة مرتبط بوجود القائد وحياته مقدم على حياتهم.

المطلب الثاني: تأمر الخصوم على الدعاة

الخصوم هم الصنف الرئيسي في المدعويين، وهم الذين يقفون في وجه الدعوة الإسلامية وتعيق مسيرتهم النيرة، وتسد على أنفسهم وغيرهم بناء على عوامل مختلفة هذا الطريق المستقيم، ومن ثم يتآمرون على الدعاة بأساليب ووسائل مختلفة بعضها النيل من شخصية الدعاة، والبعض الآخر على حساب الدعوة نفسها، وبالتالي ما على الدعاة

(١) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٦٥.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١١٩.

(٣) انظر: السباعي، مصطفى بن حسني، السيرة النبوية - دروس وعبر، ص ٦٧.

إلا أن يطلعوا عليها ويعرفوا مدى كيدهم، ومن ثم أن يصبروا على أذيتهم وضرهم، وأخيراً أن يردوا على كيدهم قدر الإمكان.

ومعرفة هذه التأمّرات ضروري لهم بغية الإتياء من شر أولئك والحذر منهم، وقد وقف الفقيه المفكر رمضان البوطي رحمه الله من خلال اطلاعه الواسع على السيرة النبوية على أهم هذه التأمّرات، وسوف نبرز نماذج منها كالآتي:

١- التعريض على الدعاة: من أهم التأمّرات التي عرفت منذ القدم أسلوب التعريض على الدعاة، وهو أسلوب قديم موحد عند الخصوم حيث يعرضون على الدعاة بعض متاع الدنيا وزينتها حتى يصرفوا عنها وتقع في مصيدتهم، وها هو الفارق الأساسي الذي يميز به الدعاة الحق من غيرها، وبالتالي هو أسلوب لين يشبه السموم التي تعرض في محلول عذب وبعيد عن التوتر والضغط القاسية، وهو أسلوب سلك به الشيطان الرجيم في اغراء الإنسان وغوايته منذ القدم حيث يحجب له المعاصي ويغريه بالآمال الكاذبة حتى يقع في فخ الهلاك ويصرفه عن الحق.

ومن اللازم التنويه أن هذا الأسلوب للتأمّر على دعاة الحق لا يكون إلا في بداية الخصومة بين الحق والباطل، وخاصة تجاه أولئك الذين يحسبونهم من أهل الوجاهة والسيادة، وكذلك الذين يلتفون حوله أصحابه وأقرباءه حيث يزودون عنه، أما أولئك الذين ليس لهم ذكر ولا محتف بالعشيرة والأقرباء فيقصون عليه في بداية النواة وحين خروج شطئه، وهكذا حكى الله عن نبيه شعيب عليه السلام حينما قال له قومه: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (١١) قَالَ يَقَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْهُمْ وَرَاءَ كُمِ ظَهْرًا إِنَّكَ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ (هود: ٩١-٩٢).

وقد روى أصحاب السير سلسلة من تعريضات المشركين على رسول الله ﷺ في دعوته المكية، وقد مر في الفصول السابقة بعضها، ويحسن بنا أن نذكرها على سبيل الاختصار وما كان فيه جديداً. فقد روى أن نفرا من المشركين وبما فيهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل جاءوا إلى النبي ﷺ معرضا عليه المال حتى يكون أثراهم أو أن يزوجهم أجمل أبكارهم شريطة أن يمنع عن سب ألتهم وتسفيه أحلامهم، ولما علموا رفض ذلك الطلب عرضوا عليه أن يعبد إلهه سنة وإلههم سنة؛ وهكذا ذهبوا إليه بعد ذلك أشراف القوم مجتمعين معرضين عليه ما سبق وزادوا عليه عرضه على أمهر طبيب العرب؛ ولكن رسول الله ﷺ رد عليه ردا لازعا وقال إن هو إلا بشير ونذير للعالمين.

ولكن في هذه المرة الجديدة طلبوا منه على العكس حيث قالوا له: "يَا مُحَمَّدُ فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا مَا عَرَضْنَا عَلَيْكَ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَضْيَقَ بِلَادًا، وَلَا أَقْلَ مَالًا، وَلَا أَشَدَّ عَيْشًا مِنَّا، فَسَلْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي بَعَثَكَ بِمَا بَعَثَكَ بِهِ فُلَيْسِيرٌ عَنَّا هَذِهِ الْجِبَالِ الَّتِي قَدْ ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا، وَلَيْسُ لَنَا بِلَادَنَّا، وَلَيَجْرُ فِيهَا أَنْهَارٌ كَأَنْهَارِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَلَيُعْثُ لَنَا مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، وَلَيَكُنْ فِيمَا يُبْعَثُ لَنَا مِنْهُمْ قُصِيٌّ بَنُ كِلَابٍ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخًا صَدُوقًا فَسَأَلَهُمْ عَمَّا تَقُولُ: أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ؟ فَإِنْ فَعَلْتَ مَا سَأَلْنَاكَ وَصَدَّقُوكَ، صَدَقْنَاكَ وَعَرَفْنَا بِهِ مَنَزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ. فَقَالَ

لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا بِهِذَا بُعِثْتُ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، فَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^(١).

ويتضح من النص السابق مدى تعلق الخصوم والأعداء على الادعاءات الباطلة وكذلك تأمرهم على الدعاة حيث يلجأون إلى اصطيادهم بمتاع الدنيا وزينتها المزيفة وبمقامها الفاني، وحينما علموا من خيبة أملهم عكسوا طلبهم من النبي ﷺ بأن يزودهم على الأمور السابقة وذلك كتعجيزا لأمره.

وقد تجلت من ادعاءهم كذلك أن أولئك لا يهتمهم من أمر الدين والمعنويات من شيء، وقد كان كل خصومتهم لأجل الدنيا ومقامها الزائل، وعلى العكس فقد كان النبي ﷺ بريئا من مبتغاهم، وهكذا جاء رده عليهم صريحا وقاطعا حيث أحرصهم بأنه ليس بفاعل كما يبتغون، ولا يسأل ربه مع إيمانه العميق وتيقنه الثابت بأن الله قادر عليه وأنه سيحييه لا محالة كما فعل لسيدنا عيسى عليه السلام حينما أجاب متطلبات قومه بانزال المائدة السماوية عليهم. وعن هذا يقول الدكتور البوطي رحمه الله: إن عدم استجابة الله عزوجل لمتطلبات الأعداء لنبه ﷺ لم يكن على دافع أن الرسول ﷺ لم يمنح إلا معجزة القرآن، بل كانت الحكمة المكملة في ذلك أن الله عزوجل علم بأن أولئك المتطلبات لم يكن على أساس الفقر والاحتياج بل طلب لأجل الكفر والعناد والإستهزاء بالنبي الكريم ﷺ، وذلك لوضوحه من سياق ونوع الطلب: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجَرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ۖ﴾ (١٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ﴾ (بنو اسرائيل: ٩٠-٩١)، ولو علم الله فيهم حسن النية والطلب لحقق لهم وأبدى لهم صدق النبي ﷺ، وقد علم الله عزوجل بعلمه الأزلي أن مطالبة أولئك والسابقين كانتا بغية العناد وأنهم مع التحقيق سيكثرون فيها عنادا ولا يقصرون كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۚ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۖ﴾ (الحجر: ١٤-١٥)^(٢).

ويستفاد من الحادثة السابقة أيضا كدرس للدعاة أن المال فتنة على النفوس الضعيفة، وبالتالي إذا لم تكن محصنة بعقيدة وإيمان فإنها يصطاد بفتنة مؤتمريها وسيخرج لا محالة عن استقامتها، وقد نرى انزلاق كثير من الدعاة رغم سمو مبادئهم لهذه الفتنة، فإذا ابتلوا بالمال والمناصب فقد اهتزت عقائدهم ومبادئهم، وتركوا دعوتهم ورسالتهم، ولكن النفوس القوية المطمئنة تكون راسخة بإيمانهم لا يرتعش لمظاهرها وزينتها وأنهم يرون أن ما عند الله خير لهم وأبقى، وقد نالوا بهذا النجاح والتمكين الأزلي والأبدي عند الله^(٣).

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (بيروت، دار المعرفة، ط ١، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م)، ص ٤٧٩.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٠١.

(٣) انظر: جمجون، سميرة محمد عمر، المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منهم (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م)، ص ١٥٧.

ويستنتج مما سبق أن مؤتمري الدعوة الإسلامية يعرضون على أصحاب الدعوات تعريضات من زينة الدنيا وزخرفتها، وذلك بغية اصطيادها والنيل من دعوتهم، وهو في الحقيقة أسلوب قديم نرى مظاهرها في مختلف الرسالات الإلهية، وقد انزلت أصحاب النفوس الضعيفة ومزعزي الإيمان؛ أما أهل الحق فيثبتون بالقول الثابت ويفضلون الحرمان والاضطهاد على متاع الدنيا الزائلة... وهكذا من أثر هذا الزائل فقد خسر الدنيا والآخرة وحرّم من ذاك الشرف والفضل وحط مكانته بين الناس كما لعلماء اليهود والنصارى.

٢- ما يلاقيه أرباب الدعوة الإسلامية من المصائب لا يعني الفشل ولا الخيبة: لقد ارتبطت مواصلة المسيرة في طريق الدعوة الإسلامية بتحمل المشاق والمصائب والتي طالما يواجهها أرباب الدعوة الإسلامية في هذا الطريق بغية نضج حركتها وتميز المؤمنين الصادقين الثابتين على الحق عن المتساقطين والفاشلين عن المواصلة في هذا المسير العريض والممتد والمحتف بالمكاه، وتشابه هذه الفتن في أثرها كالنار التي تحصل به الطهارة والنقاء للحديد من الصدأ والكبر والتي تمتاز بها، وهكذا النار رغم احراقها ولهيبها سبب لتزكية الحديد؛ وبالتالي فعلى الدعاة أن يعوا أن كل الإبتلاءات والمصائب التي تصيب أولئك من قبل المخاضمين والمعاندين والمتأمرين لأجل افشال هذه الطليعة ما هي إلا سبب للبشارة واقترب النصر وانتهاء الزمن العصيب من الاضطهادات، وهي من سنن الله الثابتة في هذا الطريق وبينه في كلامه حيث يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف: ١١٠).

وقد اعتاد الخصوم المعاندون في مواجهتهم الباطل أن يذيقوا أصحاب الدعوة الحقبة بأنواع من العذاب والمحن والذي يخجل التاريخ من ذكره، وقد عمدوا أولئك لهذه الأفعال حسبنا منهم بأنهم سيشلل الحركة الإسلامية وتوقفها من مواصلة المسيرة، أو أن ينقلب رجالها إلى عقب وخاصة فيمن يثقون به من ضعاف الإيمان أو على الأقل أن تصيبهم الفتور والانكسار، وآخر أمرها أن يعتريهم اليأس والخذلان من النيل بالنصر والظفر. ولكن هذا الجانب من التأمر يأتي بالنتائج العكسية، وهكذا كلما واجهت الدعوة الإسلامية بالضربات أصبحت قوية وناضجة بالنسبة لما سبق؛ وكما يقال: كلما انكسر الزجاج أصبح أحد من قبل، وهذه هي النقطة الفاصلة في تميز الدعوة الحقبة عن الباطلة، ولسوف يدرك المطلع على تاريخ وتجربة الحركات الإسلامية بأن أعظم مواقع الاكتساب كانت في الوقت العسير، وبالمقابل فإن أكبر مصيبة على الدعاة هي الفتور والخذلان عن مواصلة العمل الإسلامي. ومن هنا يعرف الباحثون الفتور: هو داء يمكن أن يصيب العاملين والسالكين في المسيرة، أدناه الكسل أو التراخي وأعلاه الانقطاع والسكون بعد النشاط الدائب والحركة المستمرة... وبالتالي تؤثر هذا على الداعي نتيجة عوامل مختلفة من: طول الطريق، كثرة التكاليف والتضحيات وما إلى ذلك^(١).

(١) انظر: نوح، سيد محمد، أفات على الطريق (المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م)، ص ٩.

ولسوف يلمس الدارس في الفترة المكية من دعوته ﷺ صدق ما أشرنا إليه من هذا الأصل في الدعوة، وقد كانت تلك الفترة متممة ومشحونة بالمحن والابتلاءات الشديدة حيث تقدم إليها أولئك المعاندون على حب ونشاط مرتجلين على أمل أنهم سيقضون على هذه الدعوة الغريبة، وسيبقى محمداً ﷺ آخر الأمر فرداً وحيداً لا يتبعه أحد، وأن ثقل هذا العبء سيجبرهم أن يتحدوا عن هذا النبي وبها ستفشل تلك الدعوة والتي أرادت أن تغير مجرى الزمان؛ ولكن جرت سنة الله تعالى في أمر دعوته أنها دائماً يبشر عباده الدعاة في تلك الحالة ببعض الإرهاصات والتنبؤات القولية والفعلية حيث تثبت أقدام أولئك وحينئذ تصون دعوة الحق من الاضمحلال والفناء الزائل.

وعن هذه السنة يقول تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ١٤٧﴾ فَانْتَبَهُمُ اللَّهُ تَوَابٌ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٨).

وقد ذكر أصحاب السنن والسير نماذج عملية وحية من تلك القضايا، منها ما رواه ابن اسحاق في كتابه حيث يقول: "أنه في غمرة ما كان الرسول ﷺ وأصحابه يلاقون من الضر والعذاب، قدم في تلك الفترة العصية وفد من نصارى الحبشة وكانوا قرابة عشرين رجلاً، وحين اتيانهم كان ﷺ في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه في أمر الإسلام، ومن ثم دعاهم وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، وما أن سمعوا تلك النداءات العذبة الإلهية إلا وفاضت أعينهم دموعاً ومن ثم استجابوا لله والرسول، وصدقوه، وهكذا وجدوه على طبق ما كان يوصف لهم كتبهم... وقد كان في مجلسهم رجال من قريش يتجسسون عليهم، وما أن قاموا حتى وقف عليهم أباجهل واعترض عليهم قائلاً: خبيكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمأن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم، فصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركباً أحق منكم"، وقالوا في جوابه: "سلام عليكم لانجاهلكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألو أنفسنا خيراً"^(١).

وعن الدلالة المكنونة في هذه الحادثة يقول العلامة البوطي رحمه الله قائلاً: إن مقدم هذه المجموعة إلى مكة ومن ثم مجالستهم لرسول الله ﷺ في تلك الأجواء المتخافة حيث كان المسلمون يثنون تحت الضربات القاسية لأولئك لدلالة عظيمة وهي أن ما يلاقيه أرباب الدعوة الإسلامية في مسيرتهم من الضر والأذى وباقي المحن لا يعني بحال الخيبة والخذلان والإخفاق، ولا يستلزم من كل أولئك الضعف والتخاذل ولا اليأس، بل تحمل هذه في طياتها دائماً رسالة الوصول إلى النجاح والنصر.

وفي الحقيقة إن مقدم أولئك المجموعة بهذا العدد الغفير في مهمة الاستبيان حيث عبروا البحر لم يكن لشيء آخر إلا أن يعلنوا ولاءهم وحبهم للدعوة الجديدة، وكذلك ليبين بلسان حالهم للمعاندین والخصوم أنكم لا تستطيعون

(١) ابن اسحاق، محمد، سيرة ابن إسحاق (بتصرف)، ج ١، ص ٢١٨.

رغم مضايقتكم لأولئك المسلمين ولا بتعذيبكم وايداعكم ولا بمقاطعتكم ولا أي ائتماركم أن تنالوا من الدعوة الإسلامية، ولا تستطيعون أن تحول بين ثمره هذه الرسالة وأنها حتما ستنتشر وتذيع في مشارق الأرض ومغاربها^(١). ويستنبط من الفقرة السابقة أن الدعوة الإسلامية هي مسيرة شاقة وصعبة ولا يمكن اجتيازها إلا بتحمل الزاد المناسب لها، وهي التحمل والثبات والصبر، وهكذا سيظل حاملها مستمسكا بهم حتى يأتي الفرج والنصر الذي يتطلع إليه المؤمنون في كل الوقت، وعلى هذا يجب على الدعاة أن يزيحوا عن أنفسهم الفتور والكسل الذي يعتريهم بناء على الفطرة الإنسانية؛ وهي بلا شك تعيق على الدعاة مهمتهم ومسيرتهم وإن لم يزيلوها فسيبقون في هاوية الخسران والذل.

وسوف يظهر جليا أن من يؤمن بالدعوة وأهميته فإنه سيتولد في قلبه نوع من السكينة والطمأنينة، وبتحمل الأذى والضر سوف يتحول الضعيف إلى القوى، والخوف اقداما وجرأة، وبالتالي ما عليهم إلا أن يصبروا حتى يأتي إليهم النصر والتمكين والعزة، وليعلموا أن كل الغالي والنفيس محتف بالصعاب والأخطار، ولا ينالها إلا من سعى إليها وتحمل صعابها ومشاقها.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١١١.

الفصل الرابع

فقه المدعو في العصر المدني

المرحلة المدنية من السيرة النبوية هي المرحلة الفاصلة في الدعوة الإسلامية، فقد قويت أساسها وأخرجت من شطئها مستوية على ساقها تنتشر في ربوع الأرض رسالتها السامية، وبالتالي أصبحت للدعوة وجودا ثابتا لا يستهان بها، وهكذا خرجت من معقلها الأول مكة إلى أرض جديدة حيث إتسمت بالمظهر التطبيقي بعد ما كانت محددة في الجانب النظري، ومن ثم أصبحت لها دولة قوية البنيان ترعى أهدافها ورسالتها، وبطبيعة الحال وجد كذلك لها مدعوين جدد خارج أرضية تأسيسها، وبين أناس بعيدين عن النظام القبلي السائد حيث قدموا لها طوعا دون إكراه وعلى أساس الحب والإخلاص المنبثق من الفطرة السليمة، وعلى هذا اقتضى الإنتماء إلى الدعوة الإسلامية تحمل واجبات ومسؤوليات تجاه الدعوة وقائدها، وأما في المقابل فقد اشتدت الخصومة والعناد تجاهها طبعاً لقوتها ومناعتها وبرزت وسائل وأساليب جديدة خلافها وذلك في صعيدي الجبهة الداخلية والخارجية.

ونظراً لغزارة هذه المادة حري بالدعاة أن يستلهموا مادة فقه المدعوين من هذا القسم، وللأعلام الثلاثة باع طويل في هذا الجانب نبرزها في المباحث الآتية:

المبحث الأول: فقه المدعو في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى مودودي

لقد ارتبطت مهمة الدعوة في كل مراحلها بالمدعوين ومدى استسلامهم واعتقادهم للرسالة، وذلك لأنهم البناء والركن الفعال الذي تقام عليه الدعوة؛ ونظراً لأهميتهم اعتنى الرسول ﷺ عليهم ودعاهم إلى ما فيهم صلاح دنياهم وآخرهم، واهتموا بتربيتهم وترشيدهم المحتف بالحقوق والواجبات.

ولقد كانت الفترة المدنية من حياته ﷺ مظهر ملموس في رعايتهم، وعلى أثرها برزت مواهب أولئك في أمر الدعوة وخدمتها؛ ولقد وقف الإمام المودودي رحمه الله على دراسة هذا القسم وخصص جوانبها بدراسة وافية نبرزها في مطالب آتية.

المطلب الأول : نماذج من خصال متبعي الحق

لقد سعى النبي ﷺ في المرحلة المكية أن يختار من الأجواء والوسائل المناسبة لجلب المدعوين بحجة أنها كانت مرحلة بدائية، أما في هذه المرحلة فقد عمت الدعوة وانتشرت بين أقطار الجزيرة العربية، وأصبح المدعوون هم يحملون رسالة الإسلام ويزود عنهم، وبالتالي تحملوا تكاليف الدعوة بعد ما استقرت الرسالة والمهمة في قلوبهم و أيقنوا تحمل العبء كشرع عظيم عليهم، ولذلك أنعتهم الله بهذه الخصال ووصفهم رسوله الكريم ﷺ؛ ونظراً لأهمية ذلك وقف السيد المودودي رحمه الله على أهم هذه السمائل في فقه المدعوين، وسوف نأخذ نماذج منها:

١- خصال أهل التضحية والنصرة: لقد اتسم أهل دعوة المرحلة المدنية بمتابعة الحق وتقديم التضحية وبيعة النصرة مهما يكون ثمنها باهظا، ولأجلها قدموا الغالي في مناصرة الحق ومتابعته، وقد كانوا أولئك متميزين عن المرحلة السابقة؛ فقدّموا هؤلاء لهذه الرسالة على أساس الحب والإخلاص مجتمعين دفعة واحدة، فأمنوا بها وأووا أهلها وأدوا ما عليهم من المنعة والإيواء والدفاع وذلك دون أن يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا ولو كان بهم خصاصة، وقد نالوا بذلك محبة الله ورسوله حتى أنهم فاقوا عن جميع الناس، وحبب الرسول ﷺ موطنهم ووفاءهم حتى عد نفسه منهم، وبالتالي حث المدعوين على أن يحذوا بمناهجهم في طريق الدعوة.

وقد تجلت في هؤلاء السمات والخصائص الأساسية لأهل الاستجابة، وهي على قول الباحثين: سلامة الفطرة، سرعة الاستجابة للحق غالبا، والاستعداد للبذل والتضحية وكذلك الترحيب بالانتماء إلى الإسلام.

وهكذا سلامة الفطرة هي الحالة الأصلية في البشرية، وإذا كانت الإنسانية مبعدة عن الشر ووساوسه فإنه سيسلك حتما الطريق القويم الذي تمليه عليه الفطرة السليمة، وسيكون أسرع استجابة لداعي الله عز وجل، ومن ثم سيمثل برصيد أكبر من الخير من أنفسهم في سبيلها وسيبذلون أقصى حد للتضحية في مقابل تحدياتها التي تعوق مسيرتها، وأهم ما يميزهم أيضا أنهم يباهون بانتماءهم للإسلام، وبالتالي ينقلون من الضياع إلى العزة، وسينضمون في سلك فئتها التي تجاهد لاعلاء كلمة الله في الأرض^(١).

وقد طبق كل هذه السمات العالية في مجتمع الأنصار، وضربوا بذلك أروع أمثلة للتضحية والنصرة في سبيل الحق، وعنهم يقول السيد مودودي رحمه الله: إن أهم الثروة والثمرة التي نالها الرسول الأعظم ﷺ في أواخر الدعوة المكية هي النيل من خلوص إيمان الأنصار، وهؤلاء مع أنهم لم ينل صحبة النبي ﷺ بمثل ما نالوها السابقون الأولون وحتى لم يستسقوا من ينبوع القرآن وفيضهم، ولكنهم كانوا أصحاب فطرة وعقول سليمة، وقد أزاحوا دفعة واحدة عن قلوبهم وعقولهم غبار الشرك والوثنية الملقاة عليهم منذ مئات السنين واهتدوا إلى الطريق المستقيم.

وقد تجلت في أولئك هذه النزعة قبل الهجرة بسنة واحدة، فأقبلوا على الإسلام رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا، حتى أن عدتهم فاق عن عدد كل المسلمين في أحضان ديارهم رغم معرفتهم بأن ذلك سيجر إليهم عداوة كل العرب، ولذلك تقدموا إليها مرتجلين على اثر بيعة العقبة الثانية.

إنهم عرضوا بلدهم كدار لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه، وفوق كل ذلك استسلموا سيادته وحاكمية هذا القائد، ومن بعدها أصبحوا جنودا خاضعين حيث زودهم بالنفس والمال والأهل، وقد قسموا لقمة العيش معهم^(٢).

وأما عن ثمره هذه الخصال والتضحية فيقول: "إن هذا الحب والإخلاص جعلت من الدعوة والحركة مجتمعا ونظاما فائقا لها أرضية حيث سميت بدار الإسلام، وقد تجلت فيها مظاهر الإسلام العملية، وأصبحت إلى الأبد نموذجا

(١) انظر: الرحيلي، حمود بن أحمد، أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط ٣، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م)، ص ٦٣-

٦٤.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٧٦٢.

ومثالا للدين تؤمن بعقيدة التوحيد، وتفوح منها رائحة الخلق والسلوك، ويسودها العدل والقيم، وتتميز بالعلم والدستور حتى أنهم يراعونها أكثر من السلم في الحرب، وقدموا بالجملة نظاما أدهش العالم على مر العصور والأزمان^(١).

ويستنبط من الفقرة السابقة أن طليعة الأنصار كانوا متحلين بصفات وشمائل عالية دعوية حيث تجمع فيهم صفتا التضحية والنصرة، وقد نالوا بذلك الإخلاص محبة الله واعجاب الرسول ﷺ، وسرعان ما استجاب الله لهم ومنحهم القبول، وأصبحت ديارهم معقلا ودارا للإسلام، وحظيت بالاهتمام، فبعد ما كانت أرضا بعيدة لا تطمن إلى الأنفس في العيش بها جعلت منها محل أنظار العالمين، وتنتشر منها رسالة الإسلام، وتنظر البشرية عما سيصدر منها من الأوامر والنواهي، وقد أصبحت بذلك من الأماكن التي تشد إليها الرحال، ومهوى أفئدة الناس مع الثناء الحسن والجميل طيلة الوقت؛ واللافت إلى ما سبق أيضا أن كل هذه الآثار الطيبة لا ينال بالعمل والحث الكبير بل منوط بمدى الإخلاص والمحبة عند الله عزوجل.

وقد ظل النبي ﷺ وفيأ لهم يذكرهم بالخير ويدعوا لهم بالبركة والرحمة على هذا الصنيع طول حياتهم وحتى بعد مماتهم، وعلى إثرها أفرد أصحاب السنن في آثارهم بجمع المرويات الدالة على فضلهم، وسوف نذكر بعضها: لقد كان الأنصار بمجموعهم أحب الناس إلى الرسول ﷺ، ويؤكد أنه لو لم يكن قريشيا مهاجرا لفضل أن يكون أنصاريًا، وأما عمليا فقد أثر الرجوع من مكة إلى بلدهم للإقامة الدائمة في حياته ومماته. فعن أنس بن مالك جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَخَلَا بِهَا، وَقَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ)^(٢). ويقول أيضا عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال: (لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي وَادٍ أَوْ شَعْبٍ وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ وَادِيًا أَوْ شَعْبًا، لَسَلَكَتُ فِي وَادِي الْأَنْصَارِ وَشَعْبِهِمْ)^(٣).

وأما الأحاديث المتعلقة باختيار ديارهم وعودتهم معهم ذكرناها في الفصول السابقة ولا نعيد هنا خشية التحويل، وهكذا فقد كان النبي ﷺ يذكرهم ويمدح صنيعهم ونصرتهم الفائقة، وصرح بأنهم أدوا واجبهم، وأن ما على المسلمين إلا أن يكونوا أوفياء لهم، وأن يقابل حسنهم بالأحسن والتجاوز عن سيئهم، وهنا يقول أنس رضي الله عنه: ((خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَعْصُوبُ الرَّأْسِ، فَتَلَقَّاهُ الْأَنْصَارُ، وَنَسَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ، فَإِذَا هُوَ بَوَّجُوهُ الْأَنْصَارُ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأُحِبُّكُمْ، وَقَالَ: إِنَّ الْأَنْصَارَ قَدْ قَضَوْا مَا عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ مَا عَلَيْكُمْ فَأَحْسِنُوا إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ)^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص ٧٦٣.

(٢) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، فضائل الصحابة، المحقق: د. وصي الله محمد عباس (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م)، ج ٢، ص ٨٠٨.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٠١.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٩٩.

ومن هنا فقد يرى الباحثون: أن دعاء النبي ﷺ للأنصار يشمل جيلهم، والجيل الثاني والثالث منهم، ولكن لم يبق هذه الحقيقة ذات تأثير خارجي بل امتدت حتى دخلت في جذور إيمان المسلمين حتى قيام الساعة، وذلك لأن الاعتقاد ليست منحصرة بفضلهم فحسب بل انضم إليها الحب كذلك، والذي تتصل بحب رسول الله ﷺ، وأنه من تمام إيمان المسلم، ومن ثم يقول عليه الصلاة والسلام: (لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَأَبْغَضَهُ اللَّهُ) ^(١)، وبالتالي أصبح في هذا الحديث حب الله تعالى مقترنا بمحبة الأنصار وبغضه لمن يبغض الأنصار ^(٢).

ومن فضائلهم أيضا: أن الله أكرمهم بهذا الاسم وصار علما عليهم، حيث روى البخاري عن غيلان بن جرير رضي الله عنه حيث يقول: قُلْتُ لِأَنْسٍ: (أَرَأَيْتَ اسْمَ الْأَنْصَارِ، كُنْتُمْ تُسَمُّونَ بِهِ، أَمْ سَمَّاكُمُ اللَّهُ؟ قَالَ: بَلْ سَمَّاَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) ^(٣).

وبهذا أسماه بهم الرسول ﷺ إلى مصاف الملائكة حيث يقول عنهم: (أَسْلَمَتِ الْمَلَائِكَةُ طَوْعًا، وَأَسْلَمَتِ الْأَنْصَارُ طَوْعًا، وَأَسْلَمَتِ عَبْدُ الْقَيْسِ طَوْعًا) ^(٤).

ويمكن أن نستلخص مما سبق أن أهم مدعويين تلك المرحلة كانوا هم الأنصار، وهم الذين سماهم الله بهذا الاسم الجليل نتيجة اخلاصهم وتضحيتهم الفائقة تجاه الدعوة الإسلامية ونبهه الكريم، وتلك وصف استحقوا بهم، فكانوا خير عون للرسول ﷺ حيث أووه ونصروه واتبعوا رسالته طوعا على أساس سلامة الفطرة، وبذلك نالوا محبة الله ورسوله والمؤمنين طوال العصر، وحتى أصبح محبتهم جزءا من متطلبات العقيدة والإيمان، وما هي إلا ثمرة طبيعية للإخلاص الذي ينتظر من الدعاة، وهكذا لو صدر منهم فإن الله سيدهشهم بالثمرة والعطاء الفائق كما كان عند الأنصار رضوان الله عليهم أجمعين.

٢- الأدب الرفيع الذي يراعيه الأفراد مع قائدهم الدعوي: لقد كانت الفترة المدنية من حياته ﷺ هي مرحلة النضج بالنسبة للمدعويين، فقد ترعروا أولئك في جو إيماني ورحب في حضن المدرسة النبوية، وبالتالي تربوا على أيدي ذلك الداعي الكامل، واكتسبوا من مائدته ومأدبته الإلهية أدبا رفيعا عاليا تندش له الإنسانية.

وقد كان ذلك منبعثا على أساس المحبة والود القلبي تجاه ذلك النبي الرحيم والقائد الفذ والذي بعثه الله امتنانا على الإنسانية، فأرشدهم إلى ما فيهم صلاح دنياهم وفلاح آخرتهم، ولذلك حري بهم أن يحبوه ويؤثروا وده على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وقد كان ذلك من مستلزمات الإيمان وكماله المطلوب والذي لا يحصل إلا به، وهكذا هي حب قلبي طوعا يتحصل عن الإيمان والتعلق التام بالقائد المحبوب والمؤثر حبه من كل ما سواهم.

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٠٧.

(٢) انظر: الغضبان، منير، التربية القيادية (السابقون الأولون من الأنصار) (المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م)، ج ٢، ص ٣٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب الأنصار، رقم الحديث: ٣٧٧٦.

(٤) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الأوسط، ج ٤، ص ٢٠٠.

وقد عرف الباحثون كلمة الأدب مع الرسول ﷺ بأنه عبارة عن كل: ما ينبغي أن يفعله المسلم تجاه النبي ﷺ سلباً وإيجاباً، مما يدخل في حقوق على الأمة من احترام وتقدير وطاعة واتباع وكذلك الاحتراز مما يخالف ذلك كرفع الصوت والتقدم على أمره وغير ذلك^(١).

ومن هنا نرى أن الأدب هو مجموعة من الأعمال وعلى رأسها الإستسلام والطاعة تجاه القائد، ولكن على أساس من الحب والإخلاص والتقدير طوعاً ودون كره، والبعد عن كل ما يختل بالأمور السابقة. وقد تجلت هذه الظاهرة لدى الرعيل الأول للمدعوين في الفترة المدنية من حياته ﷺ، وبالتالي قدموا نماذج رفيعة تعد درساً للدعاة فيما بعدهم حتى يراعوها مع قائدهم الدعوي.

ومن ذلك يستدل المودودي على مدى استقبال النبي ﷺ من الأنصار وكذلك حفاوة نزوله في بيت الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري فيقول ناقلاً عن أصحاب السير كالاتي: لما أراد الرسول ﷺ أن ينتقل من قباء نحو المدينة اعترضوا عليه بني سالم، فقالوا: يا رسول الله! وأخذ بخطام راحلته - هلم - إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فقال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، ومن ثم اعترض له بنو الحارث، فقال لهم مثل ما قال للسابقين، وهكذا بنو عدي حتى بركت الناقة عند مقدم دار أبي أيوب الأنصاري، وحينها قال: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: يا نبي الله! هذه داري، وهذا بابي، فقال له: اذهب فهيئ لنا مقيلاً، فذهب فهيأ له ثم قال: يا نبي الله! قد هيأت لكما مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلاً^(٢).

ومن هنا يقول المودودي رحمه الله: "وقد تجلت في قول النبي ﷺ السابق (دعوها فإنها مأمورة) حكمة الله حيث وكل أمر الناقة في البروك بدل اختيار نفسه، وذلك لكي لا يجد الأنصار في أنفسهم بأن الرسول ﷺ آثر بنو النجار على غيرهم، وكانت في تلك الفكرة أي التميز القبلي مسيطراً على أهل المدينة، ولذلك حلت بالطريق العجب"^(٣). وأما عن حفاوة وتكريم أبي أيوب الأنصاري في خدمة الرسول ﷺ فهو نموذج من أدب رفيع نقلها المودودي بروايتين، رواية الإمام أبي يوسف في قول أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه حيث يقول: لقد نزل رسول الله ﷺ في بيتنا واختار الطابق السفلي منها وكنا في العلو منها، وفي إحدى الليالي قالت أم أيوب له: إنها لا تناسب أن نبني فوق منزل رسول الله ﷺ وقد تنزل عليه الملائكة، ولم ينأ عن تلك الليلة وبقي ساهرين حتى تكلم النبي ﷺ صباحاً وكان يحب السفلى منها، ولكنهما ألحا عليه باسم الذي بعثه بالحق أنهما لا يبيتان بتاتا على منزله، وحينها نزل إلى رأيهما.

ولكن رواية ابن هشام في سيرته عن الحادثة تذكر علة أخرى عن أبي أيوب حيث يقول: (لما نزل على رسول الله ﷺ في بيتي، نزل في السفلى وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي، إنني لأكره وأعظم أن

(١) انظر: حسن، نور حسن، التأدب مع الرسول ﷺ (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، ص ٨.

(٢) انظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٨٢.

(٣) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٢، ص ٧٤٠.

أكون فوقك، وتكون تحتي، فأظهر أنت فكن في العلو، ونزل نحن فنكون في السفلى، فقال: يا أبا أيوب! إنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا، أَنْ نَكُونَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ. قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سُفْلِهِ، وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ، فَلَقَدْ انْكَسَرَ حُبُّ لَنَا فِيهِ مَاءٌ فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا، مَا لَنَا لِحَافٍ غَيْرَهَا، نُنَشِّفُ بِهَا الْمَاءَ، تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيهِ^(١).

وقد تدل هذه الواقعة على مدى المحبة والإخلاص والأدب الرفيع الذي كان يقدمهم تجاه النبي ﷺ، وتلك حفاوة وإكرام لم ير له مثل في التاريخ البشري قبله وبعده^(٢).

والحادثة السابقة تدل على وجود الأدب الرفيع لدى الأنصار تجاه قائدهم وكذلك محبته لهم، وقد بلغ بهم الحال حتى أنهم كانوا يحسون الأمور المسرية في بعض الأحيان ببصيرتهم نوعاً من سوء الأدب، وبالتالي تقدموا إليه معتردين حتى تطمئن قلوبهم.

وقد يستفاد من جملة كل ذلك أن الأدب مفهوم شامل يتعلق بجميع الأعمال الإنسانية، ولها مظاهر عديدة من أعمال قلبية بحيث تتمثل في الحب والألفة والسرور، وتارة تكون في نطاق الألفاظ والأقوال، وقد ركز الله على بعضها في سورة الحجرات كترية للمؤمنين، وأحياناً تتجلى في الجوارح بالحركات والسكنات... ومن يجب على المسلمين أن يلتزموا بكل أنواعه ويراعيه مع قائدهم حتى ينالوا بذلك الأجر والمثوبة من الله، وتكسب مفهوم الإطاعة للرسول ﷺ، والذي ارتبطت بطاعة أولي الأمر من المسلمين من بعده.

المطلب الثاني: نماذج من أساليب معاندي الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة

لقد كانت الفترة المدنية في السيرة المطهرة مرحلة التطور والتقدم على حساب الدعوة، وذلك لأن شملها وسعت بحد كبير كدلالة على صدق الرسول ﷺ، ولكن كل ذلك في إطار الأسباب والطرق المعتادة التي يسلكها الدعاة، وكانت بطبيعة الحال هذه الانجازات الباهرة مقرونة بالتحديات الضخمة بالنسبة لما قبلها.

واللافت للنظر أن جميع هذه التحديات لم تكن على نمط واحد كما كانت في المرحلة المكية بل جاءت بأنماط جديدة، وأكثرها بأساليب متباينة عن سابقتها، وهكذا لم يكن العداء بشكله السابق أي معسكر الإسلام في مقابل معسكر الكفرة المعاندين والقائمين على الجهل، بل انضمت هذه العدو مع أنواع أخرى بأساليب يتصدى لها أصحاب الرسالات السماوية التي اعترتها الانحراف وهم اليهود والنصارى، وكذلك أولئك الذين أخفوا كفرهم وعداوتهم بلباس الإيمان حيث سموا بالمنافقين، وذلك كطليعة جديدة للخصومة.

وقد وقف العلامة المودودي رحمه الله على طبيعة كل هؤلاء وبأساليبهم تجاه الدعوة الإسلامية، وسوف نبرزها في عناوين تالية:

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٤٩٨.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٧٤٣.

١- اليهود وموقفهم اللئيم تجاه الدعوة الإسلامية: لقد حافظ اليهود من بين المجتمعات البشرية على سماتهم الخلقية وطبيعتهم الإجرامية الجبلية، وثقافتهم وعقائدهم المزعومة طوال العصور والزمن، فاعتقدوا أنهم شعب الله المختار، وصمدوا أمام كل المحاولات التي وقفت تجاههم، وعانوا باثرها ما عانوا، وبالتالي لم تحسن علاقة الشعوب بهم تاريخيا، فنظروا إليها نظرة النفور والكرهية إلا ما كان في ذمة المسلمين طوال الحضارة الإسلامية. وهكذا توالى الأجيال وانقرضت منهم وعاشت منهم من عاش، وقد تغيرت المجتمعات إلا أن اليهود كانوا متكفئون على أنفسهم مستوطنين في حاراتهم الخاصة، واختار معها التفاخر بعصاميتهن الصمودية وفكرتهن القائمة على العنصرية والسياسة الإجرامية، والإرهاب وكرهية الخير تجاه الآخرين وكذلك اثارة وبث الفتن... وهكذا ظل دأبهم في كل العصور والأزمان وتوارثوها جيلا بعد جيل.

وقد جاءت قبائل منها قبيل بعثة النبي ﷺ واستوطنوا في أنحاء الجزيرة العربية ومنها في ديار يثرب، وكانوا متحلين بصفاتهم المذمومة بين أهل الديار ويتفاخرون عليهم بأنهم أصحاب النبوات وسيكون نبي آخر الزمان منهم، ولكن لما جاءهم كفروا به وظل يمارس العداوات والخلاف تجاهه ودعوته، وبدأ يسد الناس عن رسالته وتارة يتحالفون مع أعداء الدين.

ولقد تطرق السيد المودودي رحمه الله إلى مواقفهم اللئيمة تجاه الدعوة والرسول ﷺ فيقول عنهم: لقد اختار اليهود بمقدم النبي ﷺ إلى المدينة منهج وأسلوب العدا، وصار غايتهم الوحيدة أن ينال من الرسول ﷺ وصحابته ودعوته، واستعملوا لذلك أسلوب الزيف والكذب والعناد تجاه دعوته، وذلك باثارة الظنون والشبهات لإخراج المدعويين الناشئة عن الدين بعد اعتناقهم، وهكذا ظل يمارس الود والتحالف مع أعداء الإسلام بغية الفتنة من الداخل، ومع ذلك كانوا يسعون بحكم الجوار والصلات القديمة بين أهلها أن تضرم نار الحرب والشقاق مرة أخرى بعدما ارتبط بإخاء الإسلام، وكان مخاطبيهم في ذلك الأوس والخزرج، وظل يذكرهم بمأساة يوم حرب بعاث وعداءهم القديمة. وأما من الناحية المالية فكانوا يضغطون على الذين اعتنقوا الإسلام، وكانوا يعسرهم في ديونهم المعطاة لديهم، وما كان من أولئك عليهم فيغضون أعينهم على مستحقاتهم بحجة أن ذلك في زمن مضى وهم على دين غير الدين الذي يدينون به حاضرا.

ومن المعلوم أن ذلك الأسلوب المعادي لم يكن ملجئا عليها في الحياة المدنية فحسب بل امتدت إلى المرحلة المكية حيث كانوا متحالفين وموجهين لمشركي مكة، وذلك بعدما قويت رسالة الإسلام، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج منها، ولكن هؤلاء انضم حين مقدمه ﷺ في الحلف والمعاهدة على إثر انعقاد الصحيفة المدنية، ولكن منذ اللحظة الأولى كانوا يضمرون العدا وطالما ينقضون العهود، واشتد عداءهم وعزائمهم الخبيثة بعد انتصار غزوة

بدر في السنة الثانية من الهجرة، وحينها عزمت القبائل المستوطنة منهم بني قينقاع، بني نضير وبني قريظة على مجاهرة فعالهم تجاه الدعوة الإسلامية؛ ونتيجة لذلك أجلاهم النبي ﷺ من تلك الديار الطيبة^(١).

ولسوف يلمس القارئ في الفقرة السابقة الحقيقة التاريخية لليهود ومدى اجرامهم تجاه الدعوة الإسلامية بدءاً من بزوع شمس الدعوة الإسلامية واستقرارها بالمرحلة المدنية رغم تعهدهم وميثاقهم بالوفاء، إلا أنهم تجرأوا بنقضهم وعادوا إلى فطرتهم المشحونة بالنقض وبث الفتن، فلاقوا على إثرها مصرعهم؛ ولكن القرآن الكريم والسنة النبوية قد نبه الدعاة باستمرار على خطورة مؤامراتهم المكنونة، ووقف على صفاتهم طوال العصور حتى أصبحوا الأمة الأولى بالاهتمام في الكلام الإلهي، وعنهم يقول الباحثون: لقد اهتم القرآن الكريم ببيان الأوصاف الدنيئة لليهود حتى تصل إلى ١٧٠ مرة مفردة، و ٨٢ مرة بعنوان أهل الكتاب والتي تشمل معهم المسيحية كذلك، ولم يكتف القرآن الكريم بما كانوا عليه بل ما سيكون كذلك، حتى ليقع الناظر في دهشة من أمرهم، ولكن الناظر العادل ليحكم في الآخر باعجاز القرآن وتعمق معرفته بهم^(٢).

ومع أن ذكر أوصاف اليهود كما مر بنا حقيقة جلية قرآنية حيث شملت وصفهم إلى مجالات عديدة من الحياة الإنسانية من العقيدة والخلق وأمور المجتمع والإقتصاد، وسوء الأدب مع الرسالات والأنبياء، ولكن ما يهمنا في هذا المقام وقوف أولئك أمام الدعوة الإسلامية وصدهم عن دين الله، فإنها كذلك حظيت بالاهتمام الفعال، وقد أفرد مفكر الدعوة الإسلامية السيد مودودي في كتاباته هذا البحث تفصيلاً شاملاً تعد في الحقيقة درساً للأجيال القادمة كمدعويين، وعنهم يقول: لقد أسفر القرآن الكريم باعتباره كلاماً ومعجزة إلهية عن عدة أوصاف لثيمة لليهود، وقد لجأوا أولئك لهم باعتبارها أساليب في مواجهة الدعوة الإسلامية، وهي بالجملة منبثقة من خبثهم وطبيعتهم المعوجة، وهي عبارة عن:

١- الوقوف مع أعداء المسلمين من المشركين والتحالف معهم: فقد لجأ اليهود إلى هذا الصنيع الشنيع رغم تيقنهم ومعرفتهم بأنه رسول مكلف من الله، وبهذا وجدوا صفاته كاملة في كتبهم، وعن هذه الحقيقة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٦).

وقد ظهرت هذه النزعة جلية بعد انتصار المسلمين في معركة الفرقان (البدر) من اليهود، وأولاهها من قبيلة بني قينقاع ومن بعدها بني نضير.

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٣، ص ٨٣-٨٤.

(٢) انظر: أشرفي، السيد أحمد، بحوث في معرفة الأديان (جستارهاي در دين شناسي تطبيقي)، (كابل، الطباعة الفنية الأفغانية، ١٣٨٩ هـ ش)، ص ١٣٤.

٢- الإستعمال السيئ للتأثير الديني على الناس: لقد عرف أهل يثرب بمقدم وظهور النبي الجديد من خلال تنبؤات وبشارات مجاوريهم اليهود، وكانوا يحدثونهم عن النبوة والكتاب، والآخرة والشرعية؛ ولهذا سرعان ما تقدم أهل المدينة إلى الإيمان بالرسالة المحمدية ﷺ، ولكن اليهود تخلفوا عن تلك الحقيقة، وبهذا وجد المنافقون والمشركون فرصة أن يثيروا ويعرضوا عن الإسلام بحجة أن اليهود لم يؤمنوا بالرسول ﷺ، فلو كان حقا لتبعه في المقدمة أهل الكتاب وأرباب الرسالة السماوية.

٣- تلبيس الحق وكتمانه: لقد عرفت اليهودية بهذه الخصلة منذ القدم، وبالتالي كانوا يعكسون الحقائق، وتارة يخفونها حتى يجد أتباعا مطيعين، وعن هذا يقول جل وعلا: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَقُونَ﴾ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٢﴾ (البقرة: ٤١-٤٢).

وقد استفاد أولئك بحيازتهم للعلم والمعرفة بين العرب الأميين، وكان أهل يثرب يراجعونها مستفتين في الأمور ولكنهم كانوا يخفون الحقائق، وقد سبق أن أهل مكة استعان بهم بغية تعجيز النبي ﷺ في الأمور الغيبية.

٤- التمرکز على المفاهيم المتشابهة وابتغاء الشر منها: لقد اعتاد اليهود أن يتوافدوا إلى مجلس النبي ﷺ وأن يعرضوا عليه الأمور المشبهة، ولكن كانوا يقصدون منها لشر، وعنهم قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِيَا أَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْدِينِ﴾ (النساء: ٤٦).

٥- الارتداد والتراجع اليومي عن الإسلام: لقد اختار بعض اليهود أسلوبا غريبا، فكانوا يدخلون الإسلام نهارا ويخرجون عنها مساء، وذلك بغية الفتنة، وعنهم قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران: ٧٢).

٦- اختيار سلوك النفاق مع المسلمين: فقد كانوا أولئك يظهرون الود تجاه المسلمين، وفي الحقيقة تكمن الغيظ في صدورهم، وعنهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨) هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامِنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١١٨-١١٩).

٧- اثاره وبث الشبهات: وقد كان هذا من أكبر أساليبهم البشعة، وقد كانوا يقولون للناس: لو كان دينه حقا فلما أبدلت الشريعة المنزلة عبر العصور والتي نحضنه، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٠٦) ^(١).

وبالجملة فاليهود هم من أشد الخصوم بين المعاندين حيث لجأوا إلى محاربة الإسلام واثارة الشبهات بين أهله، وقد تقدموا إلى ذلك على أساس البغض والعداوة المضمرة تجاه الإسلام، وقد ورثوا هؤلاء هذه الطباع الخبيثة جيلا بعد جيل عن آبائهم وأجدادهم؛ وبذلك حظي باهتمام الوحي الإلهي لترشيدهم والحذر منهم للباقيين. ومن اللازم التنويه أن أهم الفارق بين هؤلاء وغيرهم من المعاندين في مكة أنهم تقدموا لمخافة الدعوة الإسلامية على أساس العلم والمعرفة وكذلك تيقن ثبوت الرسالة المحمدية، والسبب في ذلك أن زمام القيادة وبساطها قد أزيح عن أقدام أولئك نتيجة الغفلة ومقابلة الإحسان بالإساءة؛ فأذاقهم الله الذل والخسران.

٢- النصرى وموقفهم تجاه الدعوة الإسلامية: النصرى هم سلالة بني اسرائيل، وهم الذين أوتوا الكتاب ومن ضمن الذين سماهم القرآن بأهل الكتاب، وعلى هذا كان فيهم بعض الصفات من السابقين، إلا أن في دياتهم كان نوعا من الإصلاح على تقصيرات اليهود، حيث أرسل المسيح عليه السلام لارشادهم وتوجيههم، وبالتالي نرى فيهم اللين والرخوة والعطوفة، والميل إلى الروحانية وترك الدنيا بخلاف اليهود الذين يتسمون بالقسوة والغلظة.

وأما على الصعيد الجغرافي فلم يكن هؤلاء مثل اليهود مقرين لمعقل الإسلام الأول، بل كانوا متوطنين في أراضي واسعة من ديار نجران وغيرها، وجل ما كانوا يفعلون أنهم كانوا مهتمين بحياتهم، وكانت لهم صلة وطيدة أو كانوا مطبعين مع الدولة الرومانية... ولهذا قل ما نجد عندهم المخالفة تجاه المسلمين، وأن مواجهتهم بدأت بعد أن شد عضد الدولة الإسلامية وشاع أنوارها في ربوع الجزيرة العربية، والتقى جيش الإسلام بالرومان.

وهكذا استفاد النبي ﷺ من خصائصهم وطبائعهم في دعوتهم، فهؤلاء كما يقول المودودي رحمه الله مستنبط من آيات القرآن الكريم أنهم بسبب العلماء العاكفين على العبادة والرهبة التاركين للعالمين عن التكبر وغرور النفس، ولهذا سهلت أن تثري فيهم الدعوة والقبول.

وعلى هذا فقد أرسل النبي ﷺ الطليعة الأولى من المؤمنين لأرض الحبشة كمهاجرين، وقد وصف لهم الرسول ﷺ ملكه بأنه لا يظلم عنده أحد، وهكذا لما اعترض المشركون على عقائد المسلمين ومن ضمنها إيمانهم غير إيمان المسيحيين، فدعاهم واستمع منهم، وبالتالي أيد ما قاله، قد سبق بيانه في الفصول الماضية.

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، اليهودية في أضواء القرآن (يهوديت قرآن كي روشني مين)، ترتيب: نعيم صديقي وعبد الوكيل علوي (لاهور، ادارہ ترجمان القرآن، ط ٤، ٢٠٠٠م)، ص ٢٣٤-٢٤١.

وقد راسلهم النبي ﷺ في السنة السادسة من الهجرة ضمن رسائل الملوك، وهكذا تذكر جميل أولئك نحو المسلمين فأوصى لأصحابه كما روي أبو داود من حديث أبي سكينه حيث يقول عن النبي ﷺ قوله: (دَعُوا الْحَبْشَةَ مَا وَدَّعُوكُمْ، وَاتْرَكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ)^(١).

وقد نفذ الخلفاء الراشدون هذه الوصية، وبالتالي لم يهاجموا على هذه الأرض مرّة لأصحابها، وكذلك الإهتمام بحسن الجوار وعدم التعرض معقل الدولة الإسلامية بالخطر من قرب المسافة بين الحجاز والحبشة^(٢).

وأما عن المواجهة واللقاء المباشر بين رسول الله ﷺ ومجتمع النصارى فقد كانت بعد فتح مكة، ومن خلال عام الوفود حيث قدم أفواج الناس إلى المدينة معلنا إسلامهم، وكان من بينهم الوفد الكبير لنصارى نجران، وقد دار بينهم وبين رسول الله ﷺ بحرية تامة حوار ومناقشات حول الدين، ووجه إليهم نقدا لازعا؛ حتى أن النبي ﷺ استعد للمباهلة معهم. وقد نقل أصحاب السير الواقعة ومجملها كالآتي:

كتب رسول الله ﷺ إلى نصارى نجران كتابا يدعوهم إلى الإسلام وترك عبادة الناس وولايتهم، وأقل الشيء قبول اعطاء الجزية؛ وإلا فالحرب سيفصل بينهم. وحينما وصل كتاب النبي ﷺ إلى كبير أساقفتهم، جمع الناس وقرروا على إثره بارسال وفد الأشراف، وفيهم خبرهم وأسقفهم، فجاءوا المدينة ودخلوا مسجد النبي ﷺ، فقابلهم بسعة الصدر حتى أنهم صلوا فيها على طريقتهم، ثم دعاهم الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام فأبوا، وقالو: كنا مسلمين من قبلكم، فقال لهم: يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدا. وقد بلغ حرية الرأي أنهم جادلوا في عقائدهم والنبي ﷺ يقرع دليلهم بالحجة؛ حتى وصل الأمر أنهم قالوا: مالكم تشتم صاحبنا وتقول: إنه عبد الله، فقال النبي ﷺ: أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانا من غير أب، فإن كنت صادقا فأرنا مثله؟، فأنزل الله بالرد عليهم:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

ولكن ذلك لم يفدهم حتى نزل الرسول ﷺ إلى مباہلتهم، امتثالا لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

وبالفعل خرج النبي ﷺ ومعه علي، وابناه الحسن والحسين وابنته فاطمة رضي الله عنهم؛ ولكنهم خافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حق، وأخيرا تنازلوا بالصلح باعطاء الجزية^(٣).

(١) سنن أبي داود، كتاب: الملاحم، باب: النهي عن تهيج الترك والحبشة، رقم الحديث: ٤٣٠٢. قال الألباني: هذا حديث حسن.
(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، نصرانيات قرآن كي روشني مين (النصرانية في ضوء القرآن)، ترتيب: نعيم صديقي وعبد الوكيل علوي (لاهور، ادارة ترجمان القرآن، ط ٤، ٢٠٠٠م)، ص ٢٣٤-٢٤١.
(٣) انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج ٥، ص ٦٤.

وقد علق السيد مودودي رحمه الله عن لقاء هذا الوفد فيقول: "لقد ارتكزت دعوة النبي ﷺ إلى هؤلاء في أمور ثلاثة:

١- إن عقيدة ألوهية المسيح عليه السلام التي طالما ارتكزت في عقولهم بناء على حججكم لا تصح، فهو إنسان وقد خلقه الله بناء على مصلحته الخاصة بصورة غير عادية، وهي بالتالي معجزة لصدق رسالته، وهكذا رفعه الله إليه وقد كان ملكه، والمالك له حق التصرف في ملكيته أنى وكيف شاء.

٢- إن ما دعا إليه المسيح عليه السلام نفس الأمور التي يدعوا إليها النبي ﷺ، ولا تتباين في جوهرها بمقدار شجرة.

٣- لقد استمر مسار هذا الدين على المنهاج الذي رسمه المسيح عليه السلام، وكان الحواريون هم ممثلي هذه الطريقة، وكان دينهم الإسلام الذي بينه القرآن الكريم... ولم يكن لدى هؤلاء أية إجابة ترد على النبي ﷺ. هكذا فإن الأفقة العظيمة التي واجهها المسيحية طوال التاريخ أن العقائد التي يعتقدها أولئك لم يبتن على أساس سند ولا رواية موثقة نعتد عليها، وطالما تواجه التناقض والزيف^(١).

ونستنتج من الفقرة السابقة أن النصارى هم معاندوا أهل الكتاب، والذين وقفوا على ضلالهم ولم يستسلموا في حياة النبي ﷺ مع بداهة تعليمه؛ والسبب في ذلك اعتمادهم على العقيدة والديانة المزيفة والتي اعتقدوها طوال العصور رغم أنها لم تبين على رواية وسند موثق، وقد جرى هذا الانحراف بعد مضي فترة الحواريين الذين كانوا على المسار الصحيح من رسالة عيسى عليه السلام، وهي في أصلها رسالة الإسلام ويؤكد القرآن عليه، وقد طرأ هذا التحريف بواسطة اليهودي المسمى ببولس الشاول^(٢)، فجرهم إلى الضلال.

ومن اللازم أن ننوه أن النصارى مع أنهم لم يؤمنوا إلا أن عداوتهم لم تكن على مستوى اليهود أصحاب الطباع الخبيثة والعناد وأهل الشمائل السيئة، وبالتالي نرى فيهم نوعاً من السماحة واللين واستسقاء السمع، والذي لجأ النبي ﷺ إلى محاورتهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣- المنافقون وخطورتهم تجاه الدعوة الإسلامية: المنافقون هم أخطر وألد أعداء الدعوة الإسلامية، والذين يضمرون في صدورهم الكراهية والعناد للإسلام رغم تظاهر الإتيان والود، وبالتالي يكيدون للإسلام من داخل أرضيته، ويكشفون للأعداء عورات المسلمين، وكلما وجدوا فرصة طعنوا المسلمين من الداخل، وهكذا خطر أولئك أشد وطأة من الأعداء الذين يهاجمون على الإسلام من خارجه، حيث يتأهب المؤمنون لهم ويصدون هجماتهم؛ أما هؤلاء فهي القوة المتخاذلة الذين يتخاذلون جماعتهم ويأتون على المسلمين من حيث لم يحتسبوا.

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٣٦٣.

(٢) شاول الطرسوسي: اليهودي الفريسي، صاحب الثقافات الواسعة بالمدارس الفلسفية والحضارات في عصره، وتلميذ أشهر علماء اليهود في زمانه عملائيل، أعلن شاول الذي كان يُذيق أتباع المسيح سوء العذاب، إيمانه بالمسيح بعد زعمه رؤيته عند عودته من دمشق، مؤنباً له على اضطهاده لأتباعه، أمراً له بنشر تعاليمه بين الأمم. وبهذا أصبح أحد قادة الجيل المسيحي الأول، كما يعتبره البعض ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية. وهو يعرف عندهم برسول الأمم، وقد بشر هو بهذه الديانة في آسيا الصغرى وأوروبا، وقد مات حوالي سنة ٦٤م. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ج ٢، ص ٥٦٦.

وقد تظهر هذه الظاهرة وقت النضج وقوة المسلمين، وما أكثر العقبات التي واجهها المسلمون نتيجة ظهور هذه الطبقة وتقاصهم عن مناصرة الإسلام، وهكذا كلما ابتلي المسلمون بالبأساء والضراء إلا وتجلت هذه الظاهرة وتمحصت صفوف المسلمين من وجودهم.

وعن مدى خطورتهم وشرهم يقول الباحثون: المنافقون هم خلطاء الشياطين في شرورهم وعمل الاغواء والدس والتخريب، وقد تظهر في كل مكان وزمان، وقفوا أمام وجه الدعاة فعرقلوا مسيرتهم نتيجة طبيعتهم الخبيثة وتلبي للحقد في نفوسهم تجاه الإسلام والمسلمين، وأساس ذلك أنهم يكرهون الخير والحق، وبالتالي يعملون بكل وسيلة لتفريق جماعة المسلمين وشق وحدتهم، ويستعملون للوصول إلى ذلك أبشع الطرق وأرخصها للوصول إلى منافعهم الخاصة مهملين عن كل القيم والمثل الإنسانية النبيلة، وهكذا خطورتهم بالنسبة للدين والمجتمع الإسلامي أكبر من باقي الخصوم، وذلك لاتاحة الوصول إلى كل مكان فاستعان القوة المعادية الخارجية بهم لضرب المسلمين^(١).

وقد ظهرت هذه الطائفة الدساسة في جماعة المسلمين رسمياً أوأان الفترة المدنية حيث قويت شوكة الإسلام وبزغ نجمه في الجزيرة العربية، وكانوا مستوطنين في المدينة الطيبة ضمن المسلمين، ولكن أعمالهم وصفاتهم كانت تعرقل مسيرة الدعوة الإسلامية، ولم يكن هؤلاء على وتيرة واحدة بل لجأوا إلى ذلك العمل بناء على أغراض متباينة، فيقول عنهم المودودي رحمه الله: "لقد ظهرت في هذه المرحلة الجديدة من الدعوة الإسلامية عناصر الخصوم الحديث، وكان المنافقون أبرزهم، وقد ظهر أصلاً في أواخر المرحلة المكية بعض معالمها، ولكن كان ذاك النفاق من قبل أولئك الذين كانوا يعترفون ويشبّتون حقيقة الإسلام ومع ذلك لم يستعدوا لقبولها ولم يضحوا لأجله مصالحهم الخاصة، ولم يتحملوا الشدائد التي طالما تواجه أصحاب الدعوات الحقّة، وأما حين مقدم النبي ﷺ فقد ظهرت آنذاك مظاهر عديدة من هؤلاء وهم على أنواع:

- ١- صنف منهم أنكروا الإسلام بتاتا ولكنهم انضموا للمسلمين ابتغاء الفتنة.
- ٢- طائفة منهم يمشون وراء مصالحهم؛ فإن رأوا مصالحهم في الجماعة المسلمة عدوا أنفسهم منهم وخاصة الاستيطان في تلك الديار يسهل عملهم، وفي جانب آخر يتواصلون مع القوة المعادية لحفظ مصالحهم.
- ٣- وجماعة منهم يترددون بين الإسلام والجاهلية، ولم تثبت عندهم حقيقة الإسلام، ولما كان أكثر عشرتهم مع المسلمين انضموا إليهم.
- ٤- وقسم منهم آمنوا بالحق واعترفوا به، لكنهم لم يتركوا أعراف وعادات الجاهلية، ولم يلتزموا بالقيم الأخلاقية ولا تكاليفه. ولما كانت بداية مرحلة المدنية هي كانت نشأة تلك الناشئة؛ لهذا جاءت في ثانيا سورة البقرة اشارات لهؤلاء^(٢).

(١) انظر: الدوسري، عبد الرحمن، النفاق، أثاره ومفاهيمه (الرياض، مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤٠٤هـ)، ص ٥.

(٢) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٦٨-٦٩.

ويتضح من الفقرة السابقة أن أصناف المنافقين ليست على صنف واحد، بل تتفاوت مجموعاتهم نظرا إلى ما جرهم إلى اختيار هذا المسلك؛ وبالتالي يجب على الدعاة أن يميز هؤلاء وأن يتعامل مع كل منهم حسب صفه، وهكذا ليسوا كل منهم منافقي الاعتقاد، بل حتى أن ضعاف الإيمان اختاروا منهم نفس الأساليب، وبالتالي ما عليهم إلا أن يأخذوا بالرعاية والتربية حتى يستقيم إيمانهم ويكونوا حاذرين من أشدهم عداوة وخصوصا تجاه الإسلام والمسلمين.

ونظرا لخطورة هؤلاء لقد ركز القرآن الكريم على بيان مواصفاتهم وأساليبهم البشعة، وخصص سورة المنافقون لذكرهم وحظي من بعد ذكر اليهود بهم وبأساليبهم للخصومة، وكل ذلك حتى يكون المؤمنون محتاطين تجاههم ومحذرين من فعالهم.

وفي هذا يقول السيد المودودي رحمه الله: "لقد بين القرآن بداية أن النفاق في جوهره مرض قلبي معنوي يواجهه أولئك، فيقول عنهم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١٠)، ومراد هذه الآية الكريمة أن الله لا يعاقب أولئك على الفور بل يمهلهم في غيهم، ونتيجة الأمر هم يرون أنهم موفقين في أمرهم حتى يصلوا إلى النفاق الخالص"^(١).

وعلى هذا بين القرآن الكريم في عديد من مواضعه خصال أولئك ومعاندتهم للحق، وأهم هذه الصفات كالآتي:

١- الحيلة والخداع من أولى صفاتهم، وعندهم يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ (البقرة: ٨-٩).

٢- ادعاء الإصلاح ولكن في أصلها الفساد: وعندهم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ (البقرة: ١١-١٢). وعلى هذا فقد كانت أفعال وأقوال أولئك اتسمت دوما بالفساد، وكانوا يسعون أن يبشوا الفتن والعداء خلاف المسلمين.

٣- يعدون الإسلام نوعا من الحمق والسفاهة، وعندهم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣). وكان المنافقون حسب اخبار القرآن الكريم يستهزئون بالمسلمين ويعدون تضحياتهم وجهادهم نوعا من العبث وضياعا للجهود، والتي لا يقدمها إلا السفهاء.

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ١، ص ٥٢.

٤- اختيار النفاق والوجهين: فكانوا إذا لقوا المؤمنين يتظاهرون بإيمانهم ولكن حينما يتخلون بأوليائهم تفسح كفرهم لهم، وعنهم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ (البقرة: ١٤).

٥- الضلالة والتمرد: لقد اعتادت طائفة من المنافقين أنهم رغم تظاهر الإسلام يختارون التمرد والضلالة، وبالتالي يستهزئون بالدين وأحكامه^(١).

وبالجملة فالنفاق هي ظاهرة جلية في العناد والخصومة المستمرة، وقد وجدت في المجتمعات الإسلامية منذ القديم، وأصحابه هم الذين يخفون كفرهم مع تظاهر الإسلام والإيمان بالأفواه، وهؤلاء هم يتربصون للإسلام ويكيدون لأهله دوماً ويتحالفون مع أعداء المسلمين بغية النيل منهم، ويتسبب خذلانهم ضعفاً لبنية المجتمع الإسلامي كما يثبون الوهن والضعف ويشيرون معها الفتن والحروب بين أهل الديار الإسلامية، ومهمتهم الكبيرة أن يصرفوا أهل الحق عن مواصلة مسيرتهم، ويعدون عملهم مواجهة للفقر والخوف... ولهذا ركز القرآن الكريم عليهم وبين صفاتهم النفسية والجبلية وأفضح خططهم اللئيمة كي يكون درساً للدعاة من بعده وعلمهم كذلك منهج التعامل معهم، وقد سبق أن أشرنا في الفصول الماضية على نماذج منها.

المبحث الثاني: فقه المدعو عند الشيخ محمد غزالي في العصر المدني

لقد كانت المرحلة المدنية هي الحد الفاصل في الدعوة الإسلامية حيث أينعت ثمار تلك الجهود المباركة التي بذلها النبي ﷺ، وميزت كل جوانب الدعوة من مرحلتها السابق وخاصة في مجال المدعويين، وذلك بزيادة شمل المدعويين ونضج تربيتهم وتقوية مهامهم وواجباتهم، وبالمقابل وجد خصوم جدد على اعتبارات جديدة لم يكن مألوفاً في المرحلة المكية؛ وهكذا يعد هذا الجانب في مجموعها مجالا خصبا في فقه المدعويين والتي طالما تنيط أمر الدعوة الإسلامية بها.

ولقد وقف الشيخ محمد الغزالي يخرج الدروس المستفادة من هذه المرحلة، واستخرج فقها بليغا منها، ومن حسن براعته أنه ارتبط هذا الجانب بمظاهر العصر الحديث؛ وسوف نبرزه في مطالب آتية:

المطلب الأول: نماذج من خصال وحقوق المدعويين الحق الاستفادة من المرحلة المدنية

الدعوة الإسلامية هي الصفة والتعاقد على كلمة الإسلام بين الدعاة ومدعويها، ومن هذا المنطلق يجب على كلا الجانبين الالتزام ببعض الوجائب والمسؤوليات تجاه الآخر، وتحقيق نتيجة ذلك منح الحقوق إلى كلا الجانبين، وبها تعود الخير الكثير لكل منهما، وبالجملة لحساب الدعوة ورسالتها السامية؛ وما أكثر التخاذل والفشل اللذين يعتريان الحركات الإسلامية ناتجة عن إهمال هذا الجانب. وعلي هذا فالدعوة الإسلامية في جانب المدعويين تلزم

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٩٤-٩١.

الوقوف على معرفة الحقوق والالتزامات والتي تناط عليها هذه المهمة، وخاصة عند أمة الإجابة، وقد تنبه الشيخ محمد الغزالي لها من خلال قرائته للمرحلة المدنية، وسوف نبرز نماذج منها كالآتي:

١- محبة وتضحية المدعوين تجاه قائدهم الدعوي: لقد أخذ المسلمون المدعوين في الفترة المدنية أشواطاً من التربية والنضج، وأنزلت حقيقة الرسالة في قلوبهم؛ حيث أخذوها كمهمة ملزمة عليهم، وقد تقدم لها الأنصار بادي الأمر قبل هجرة الرسول ﷺ بالبيعة والعهد، وتواعدوا بتضحية النفس والأهل والمال لها؛ وقد صدقوا فيما عاهدوا الله عليه، فأحبوا النبي ﷺ ودعوته من سويداء القلب وأدوا ما عليهم من النصرة والتضحية بعد الإيواء.

وهي بذلك مهمة عظيمة تجب عليهم أن يأخذوها أولئك تجاه قائدهم وتجاه الدعوة الإسلامية والتي احتفت بالمكاره وعرفت بها، وهكذا مسيرة النجاة والوصول إلى المبتغى تمر من سهول المشاق والصعاب حتى ينجلي غبارها وتظهر حقيقة الرسالة صافية، وتلك هي سنة الله الجارية في خلقه.

وقد كانت هذه التضحية والإيثار عن القائد الدعوي الرسول ﷺ صادراً عن المحبة الفائقة تجاه النبي ﷺ والتي أوجبت عليهم إيماناً واعتقاداً، ولم يكن الآخيرة مجرد ادعاء وتقول بل ارتبطت باعتقاد القلب وادعاء الألسنة وأجراً بالأعمال الظاهرة المحسوسة والمتمثلة في الزود والدفاع عنه ودرع مخالفته والتضحية بالنفس والأهل والمال.

وقد عاب الله عز وجل على بعض ساكني حول المدينة من الأعراب في تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وبالزود والدفاع وتقاعصهم عن النصرة؛ وهكذا لم يصح إيمان أولئك إلا بعد تسليمهم التام إلى الدين والتعريض للدفاع عن رسول الله ﷺ، وعنه قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٢٠) (١).

ولسوف يدرك الناظر في الفقرة السابقة توجيه الزجر والردع لمتخلفي النصرة والتضحية على أعراب المدينة المنورة، ولم يكن هذا الأمر موجهاً لأهل مكة ومؤمنها في تلك الأوان مع الضرورة الملحة للنصرة والتضحية، وذلك لأن المدعوين لم يكونوا على المستوى المطلوب حتى يؤخذ منهم هذا العهد، بل طلب منهم النبي ﷺ مع وجود قوة التريث والتستر والكتمان حتى يأتي أوانها، وقد تحققت بالفعل في المرحلة المدنية من سيرته ﷺ.

وبهذا الصدد ذكر أصحاب السير أمثلة رائعة من هذا في كتبهم، منها ما رواه ابن هشام في سيرته تحت عنوان "استماتة الأنصار في الدفاع عن الرسول حين موقع غزوة أحد" فيقول: لما تراجعت الكرة على المسلمين بعد نصرهم وفزعت الأحوال حين غشي القوم، قال رسول الله ﷺ: من رجل يشري لنا نفسه؟، فوقف زياد بن السكن ومعه

(١) انظر: التميمي، محمد بن خليفة، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة (الرياض، مكتبة أضواء السلف، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، ج ١، ص ٢٩٤.

خمسة من الأنصار، فقاتلوا أشد القتال، رجلا رجلا حتى قتلوا جميعا، وكان آخرهم زياد أو عُمارة بن يزيد، وكان قتال الأخير إلى أن أثبتته الجراحة، وفي حينها وفدت جماعة أخرى من الأنصار للقيام بهذه المهمة، فقال لهم رسول الله ﷺ: ادنوه مني (عمارة بن يزيد) فأدنوه، فوسده النبي ﷺ قدمه وخده عليه حتى مات.

وفي اليوم نفسه ترس أبو دجانة ظهره على رسول الله ﷺ وهو منحني عليه حتى ملأ ظهره منه، وأما سعد بن أبي وقاص فكان واقفا يرمي عن رسول الله ﷺ وهو يقول له: "ارم فداك أبي وأمي، حتى إنه ليناولني السهم ماله نصل، فيقول: ارم به" (١).

وهكذا روي أصحاب السنن أمثلة رائعة من التضحية، منها ما رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق عن موقعة يوم أحد: (لَمَّا صُرِفَ النَّاسُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَجُلٍ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَاتِلُ عَنْهُ وَيَحْمِيهِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: كُنْ طَلْحَةَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي - مَرَّتَيْنِ -، قَالَ: ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ خَلْفِي كَأَنَّهُ طَائِرٌ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ أَدْرِكَنِي، فَإِذَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَدَفَعْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَإِذَا طَلْحَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَرِيحٌ، فَقَالَ ﷺ: دُونَكُمْ أَخَوَكُمْ، فَقَدْ أَوْجَبَ. قَالَ: وَقَدْ رُمِيَ فِي جَبْهَتِهِ وَوَجَنَتِهِ، فَأَهْوَيْتُ إِلَى السَّهْمِ الَّذِي فِي جَبْهَتِهِ لِأَنْزَعَهُ، فَقَالَ لِي أَبُو عُبَيْدَةَ: نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَّا تَرَكْتَنِي، قَالَ: فَتَرَكْتُهُ، فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ السَّهْمَ بِفِيهِ، فَجَعَلَ يُنْضِضُهُ، وَيَكْرَهُ أَنْ يُؤْذِيَ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ اسْتَلَّهُ بِفِيهِ، ثُمَّ أَهْوَيْتُ إِلَى السَّهْمِ الَّذِي فِي وَجَنَتِهِ لِأَنْزَعَهُ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَّا تَرَكْتَنِي، فَأَخَذَ السَّهْمَ بِفِيهِ، وَجَعَلَ يُنْضِضُهُ وَيَكْرَهُ أَنْ يُؤْذِيَ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ اسْتَلَّهُ) (٢).

وهكذا لسوف يجد القارئ للسيرة النبوية أمثلة رائعة في البطولة والتضحية في كل موقع منها، وقد أفردت غزوة أحد منها، لما ناله الرسول ﷺ وأصحابه من المصيبة والهول، وأما عن الدرس المستفاد منها فيقول الشيخ محمد الغزالي: لقد تركت هذه المواقف والبطوليات، والإستماتة أثارا طيبة فانصب المسلمون مرة أخرى نحو الرسول ﷺ وأخذوا يجمعون شملهم حوله، وبها فترت حدة قريش لقتل النبي عليه الصلاة والسلام، ورجع النصر إلى كفتهم آخر الأمر بعد أن ارتدت للمشركين.

وهكذا فالرجال هم الذين يسطرون بدمائهم التاريخ الإنساني ويقودون زمامه بعزائمهم، ويحفظون مصير الإسلام والرسالة في المعمورة... ولا شك أن هذا النوع من التضحية والبطولة مدفون تحت أسوار التاريخ الإسلامي ولكن قائم إلى اليوم؛ ولن يقوم للإسلام صرح ولا ينكشف ظلم الطغيان عنه إلا بهذه القوى المذخورة في أفئدة الصديقين والشهداء (٣).

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ١٤٣.

(٢) ابن حبان البستي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، ج ١٥، ص ٤٣٨. (الصحيح بتحقيق شعيب الأرنؤوط)، وقال: إسناده ضعيف.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٨١-٢٨٣.

ويتبين من الفقرة السابقة أن التضحية والبطولة والدفاع والزود عن القائد الدعوي من المهام الأساسية التي وضعت على طائفة المدعوين في هذه المهمة، ولن يتيسر ذلك الفخر إلا لأصحاب الهمم والمعالى من العزائم، وهؤلاء هم الذين يسطرون التاريخ ويحفظون أسمائهم في الخالدين، ويحفظون رسالة الإسلام السامية.

وهكذا هي سنة الله الجارية في رسالته لا تختلف عن فئة دون فئة، وقد تنبه الشيخ محمد الغزالي لها بألفاظ جريئة كدرس دعوي وقاعدة دعوية ثابتة في نصره الإسلام، واستمد منها نتيجة كذلك أن التضحيات والزود عن القيادة والدين لن يمضي عبثاً وهدرًا، بل إنها دائماً تصد هجوماً الأعداء وحملاتهم الشرسة ويفوت عن المشركين هدفهم في استئصال شافة المسلمين واستباحة بيضتهم.

٢- الذكر والثناء على جميل المدعوين: الذكر والثناء على جميل المدعوين من أحب الأخلاق والحقوق الثابتة في فقه المدعوين، ولذلك يجب على الدعاة أن يكون متذكراً لجميلهم ومشاهدهم البطولية، ويحفظ تجاههم التبجيل والتقدير على ما بذلوه من الخير والتضحية؛ فإن كانوا أحياء فليكرمهم ويعظمهم بالحفاوة والتبجيل وأن يغضوا عن هفواتهم وعثراتهم المستقبلية بناء على جميل ما فعلوه وليذكر دائماً حسناتهم، وأما إن كانوا أمواتاً فليستغفر لهم ويرحمهم من الله عز وجل، وبذلك تكون ذكراهم درساً للأجيال القادمة وللسائر على دربهم. وفي السيرة النبوية مشاهد جليلة لهذا الدأب النبوي الثابت، وتعد في مجموعها زاداً دعوياً تجاه المدعوين، وسأركز على مشهدين منها والدروس المستفادة منها:

فقد ذكر الإمام البخاري صنيع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه أوان فتح مكة حين خروج النبي ﷺ حيث كان عازماً على كتم أمره، ولكنه كتب إليهم سرا يخبرهم بمقدم الرسول ﷺ، وقد وقع ذلك الخطاب بأمر الوحي إلى رسول الله ﷺ فاستدعى حاطباً للتحقيق قائلاً: (يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، يَقُولُ: كُنْتُ حَلِيفًا، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبَ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَيَّ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ^(١)).

وعن الدرس المستفاد منها يقول الغزالي رحمه الله: لا شك إن عمل وصنيع حاطب خروج من جادة الصواب في هذه المرحلة، وقد أخبر عن عزم الرسول ﷺ وخطته، وابتغى كذلك كسب مودة الكفار الذين اختاروا الكفران وتظاهروا على عدوان المسلمين، وقد نزل قول الحق سبحانه فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ

(١) صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس، رقم الحديث: ٣٠٠٧.

وَأَبْنَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾
(المتحنة: ١).

وهذا الحادث فيه دلالة على أن الإنسان العظيم قد يتعرض أحيانا لعمل الصغير والدنيئ الذي لا يجب فعله وتصوره من العاقل، ولكن الله سبحانه هو أبر عبادة المخلصين فيعفوا عنهم ولا يؤاخذهم بهذا الضعف الذي تعرفون نورهم فيخبو، وسعيهم فيكفوا، وقد تجلى للنبي ﷺ ببصيرته الشحاذة خبيثة حاطب فعلم أنه لم يكذبه رغم خطئه، وهكذا سرعان ما أبرد اضرام نار الثائرين عليها، وذكرهم أن ماضيهم الكريم سيشفع له، وأمر كذلك معشر المسلمين أن يذكروا في الرجل محاسنه وفضله، وهكذا علمنا الدين أن لا نمحوا فضائل وجميل من يخطئ بعد ما أصابوا طويلا^(١).

وأما في الجانب الآخر فقد كان الرسول ﷺ طالما يذكر بطولات أصحابه الأوفياء ويخصهم بالثناء والدعاء الجميل، ولم يغب ذكراهم عن حياته، وقد أوصى لأمته أن يكون متعظين على دربهم، ويخصهم بخير أدعية الرحمة والغفران على ما قدموا لنصرة الإسلام.

فقد ذكر البخاري عن حب النبي ﷺ لأحد وشهداءه الأوفياء في وصف حبها فيقول: (أَحَدُ جَبَلٍ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)^(٢)، وهكذا طالما يذكروهم ولم يغب عنهم، وكان دائم الوفود إلى زيارتهم حتى أنه قدم إليهم في آخر مطاف حياته كالمستودع للأحياء، فقد روى البخاري حديث عقبة بن عامر قال: (صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أَحَدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُودَعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ الْمَنِيرَ فَقَالَ: «إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا»)^(٣).

وعن الدرس المستفاد يقول الغزالي: إن هذا الجبل الشامخ حول المدينة ودعت فيه الرسول محمد ﷺ أحب الناس وأعزه إليه، هؤلاء الصفوة الذين رفعوا عبء الدعوة، وعادوا في سبيلها الأقربين والأبعدين، وأنفقوا سبيلها في حياتهم قبل الهجرة وبعدها، وقد صبروا وصابروا إلى أن لقوا ربهم في هذا الجبل الضخم، ولذا لم ينسى النبي ذكرهم الجميل، وجعل في آخر حياته بذكريات بطولاتهم ودعا الله لهم وأوصى الناس باتعاظهم^(٤).

وعن الدرس المستفاد من شهداء أحد يقول الباحثون: لقد عبر الرسول ﷺ في وصفه لجبل أحد وبما فيه من تحصن ومنعة أصحابه الأوفياء بأرقى ألفاظ المحبة والصلة، وكلها دال على وجود تخلق الوفاء والمحبة. وهكذا الذي يعترف بالحجارة والصخور ويضفي عليها من الأخلاق النبيلة لجدير أن يعترف ويذكر أدنى جميل أحبابه

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: خرص الثمر، رقم الحديث: ١٤٨٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة أحد، رقم الحديث: ٤٠٤٢.

(٤) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤٠٧-٤٠٨.

وأصدقائه، وبالتالي فإن وفاء ومحبة الرسول ﷺ حينما علا عن الجماد بأرقى العبارات، فقد علا تبجيله لأصحابه بأعظم من ذلك، وقد تجمعهم بهم الأخوة في الله عز وجل^(١).

وصفوة القول: إن الإعراف لأصحاب الفضل والجميل سنة ودأب نبوي مبارك لأهل الدعوة لكي يستعين بهم في دعوتهم تجاه المدعويين، وهو بذلك باعث في حثهم وتشجيعهم فيقدمون لها طوعية.

وقد ظهرت في المجتمعات الإنسانية هذا المظهر بأشكال عديدة من اتخاذ منار الجندي المجهول، وإحياء ذكرى الأبطال ونحوها، وهي بذلك نزعة إنسانية ثابتة قائمة على العدل والفضل لمن أحسن إليهم. ولكن ينبغي التنبيه أن تكون هذه الأعمال بجملتها بعيدة عن البدع والخرافات والتي طالما يحيونها أصحاب الزيغ والضلال من أهل النحل والملل، وللأسف الشديد قد انتشرت هذه في المجتمعات الإسلامية منذ القدم حيث يعزون وفاة أولئك العظام بالتعازي والنياح والطقوس الباطلة التي ليس لها من الشرع من سبيل.

٣- التركيز على إحسان الجندية لإحسان القيادة: لقد كتب الله الإحسان والإتقان في كل شيء، وهو المطلوب من المسلمين أيا كانوا قوادا كانوا أو جنودا، وهي صفة أساسية في المهام والأعمال التي يقومون بها، وما لم تتسم أفعالهم بهذه السمة فلن يكون لفعالهم تأثير أو فعالية في أفعالها، ولن تسقط الإلزام عن عاتقهم، وبالمقابل سوف ينالون ممتلكيها محبة الله ورسوله ولا سيما إذا كان الأمر متعلقا بالدعوة الإلهية والتي تنير الطريق للسائرين لله عز وجل.

وهذه الصفة كما أشرت ليست منحصرة على القيادة فحسب بل هي عائدة على أطراف وأصناف المجتمع وكذلك على كل الأفراد الذين يشغلون حيز المقام في الأمور بحجة أن عملية الدعوة مهمة متكاملة يشد ويربط البعض ببعض، وهكذا إذا لم يقدم الأفراد إلى قائده طوعية مخلصين محسنين فلن يكون لقيادته تأثير رغم سموه وتفوق وعبقريته قيادته وسوف تفشل آخر الأمر.

وسوف يدرك الناظر في تاريخ الدعوة النبوية ﷺ التركيز على هذه المهمة الجليلة في فقه المدعويين، وظل يمارس الإحسان وحسن اختيار المهام في الأمور مع التركيز على القيادة السليمة، ودوما كان يحث أصحابه عليه وكان يعتذر عن الذين لا يصلحون للأعمال؛ وبهذا تناط نجاح هذا الأمر على حسن ودقة اختيار الرجال للمهام الخاصة حتى تستوفي الأمر المطلوب.

ومن هنا يقول الباحثون: إن حسن قيادة النبي ﷺ قد أقيمت بجانب رفعة شخصيته على حسن اختيار الأفراد وتعين الأكفاء والمحسنين من الجنود في المهام فيقول: لقد كان الرسول محمد بن عبد الله ﷺ عائشا بين أفرادهم، وعرف نفسياتهم وامكانياتهم، وكان يؤلف المؤهلين للمهام المناسبة، ولهذا لم يؤلف حسان بن ثابت لأمر الحرب وقيادته، ولم يعط سيفه يوم أحد إلا لمن يقوم بحقه، بل أعطاه لأبي دجاجة... وهكذا لم يول أبا ذر مع سمو مكانته

(١) انظر: الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله، التاريخ الإسلامي - مواقف وعبر (الإسكندرية، دار الدعوة، ط ٣، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م)، ج ٥، ص ١٩٨

عنده بل إعتذر عن طلبه لأنه وجده ضعيفا لمن يجدر لهذا الأمر، ووسد الأمر في قيادة الحروب لخالد بن وليد رضي الله عنه مع حادثة إسلامه وغض عن بعض أخطائه في الحروب^(١).

ولقد ذكر أصحاب السنن والسير أمثلة ونماذج وافية تعد بابا في هذا المجال، ومنها ما رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ سَيْفًا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟ فَسَطُّوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا، أَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟ قَالَ فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ. فَقَالَ سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ أَبُو دُجَانَةَ: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ. قَالَ: فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ)^(٢).

وقد روي ابن هشام في سيرته عن عبد الله بن زبير أن أبا دجانة حينما أخذ السيف أخرج عصابة حمراء وربط به رأسه، وقد قال الأنصار: لقد أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانوا يقولون إذا كان يفعل ومن ثم أنشد أبياتا: ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

ودلت لفظة الكيول: أنه لا يبقى محاربا في آخر الصفوف بل سيظل مقاتلا في المقدمة، وهكذا ظل يمارس عمله لا يلقي أحد إلا قتله، ومن أعجب مواقفه أنه رفع سيفه على إنسان يحمس الناس للقتال لكنه سرعان ما ولى ولم يضربه، فإذا بها هند بنت عتبة، ويقول: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة^(٣).

وأما عن الدروس المستفادة عن الواقعة فيقول الغزالي: إن إحسان الفروسية والجنديّة كإحسان القيادة، فكما أن إصدار القرار والأوامر يحتاج إلى حنكة وحكمة، فإن نفاذها يحتاج إلى تحمل وكبح وكبت ولكن نهاية الطاعة في هذه الشؤون ترجع على الجماعة والعمل بالخير الكثير... فالجماعة التي لا يحكمها أمر وقرار واحد أو التي تحكم على أفرادها الميول والنزعات الفردية لا تنصر في صدام، بل لا تشرف في حرب أو سلام، ولهذه قامت الجنديّة على الطاعة الكاملة، وحينما تدخل إحدى الأمم في الحروب والسلم فتعجل احزابها وجماعاتها جبهة وميولها رغبة واحدة^(٤).

والفقرة السابقة دلت على أن الإحسان وإتقان القيام بالمهمة هو سلم النجاح في الأعمال الدعوية، وأن ذلك يناط أن يقوم للأعمال المعينة أشخاص أكفاء فيهم الرغبة والإخلاص والوفاء نحو العمل، وبهذا ليس التوظيف في الدعوة امتياز يمنح للأفراد بل هو القيام للعمل واعطاء ما يستحقه من الجهد والحث مع ما يضيف إليه صاحبه الطاعة والانقياد لقائده، ومن ثم يجب على القائد أن يكون بين مجموعته، ويختار في مهامه رجالا أقوياء فيهم الموهبة والإستعداد النفسي نحو العمل والقيام به مع الحماسة والتفنن اللازم حتى يعود الخير لنفسه ولجماعته.

(١) انظر: عرموش، احمد راتب، قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية (بيروت، دار النفائس، ط ٧، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م)، ص ١٦٧

(٢) صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي دجانة سمالك بن خرشة، رقم الحديث: ٢٤٧٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٦٨.

(٤) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٨٨.

ولقد أدرك الباحثون أن إحسان الجندية في فقه المدعوين مرتبط على تربية عديد من المحاور الأساسية، وعلى رأسها الانضباط والأدب والإحترام والطاعة، والتأييد والمناصرة، بناء الشخصية المتكاملة، النقد الذاتي البناء، وآخرها احلال روح الدعوة... وبذلك سيكون أولئك بحق أعضاء في جماعة مسلمة وجنود أوفياء لموكب الدعوة وأناس مخلصين^(١).

وصفوة القول: إن التركيز على الإحسان في فقه المدعوين من أهم الوجائب التي يجب أن يتحراها المدعوون، وبهذا فليست مهمة الدعوة كغيرها من الأعمال قائمة على أساس كثرة الأعداد والكم، ولذلك حري بهم أن يوطنوا في أنفسهم هذه المزية ويبدلوا في غرس المعاني التي تؤدي إلى الإحسان بعد العقيدة الراسخة وهي امتلاك المعنويات العالية، الضبط القوي والتنظيم الصحيح؛ وحينها ستصبح أولئك قوة لا تقهر، ويكون النصر والظفر حظهم كما كان لأصحاب الرسول ﷺ.

٤- تربية المصطفين الأخيار: من أهم الموارد التي يجب أن ينتبه إليها الدعاة في جانب فقه المدعوين أن يركزوا على تربية الفئة المخلصة الطائفة لدين الله عزوجل، وأن يصطفي من الناس الأخيار، وأولئك هم الذين يقدمون لمهام هذه الرسالة على أساس الإرتجال والمحبة والإخلاص، وما أن يمسه قبس من ذاك النور الساطع إلا ويكونوا مصبغين بهذا اللون، وتكون روحهم وحركاتهم وسكناتهم على طبق ذلك المسار الذي عين لهم ذلك القائد والأسوة، ودعا إليه بالقول والفعل والسلوك، وهكذا قد يصل هذا التأثير فيهم إلى أن تلك الأعمال قد تصدر عن أولئك دون فكر ولا روية، وتكون بذلك سجية ثابتة لهم، ويصبحون آخر الأمر صورة لطبق الأصل فيخلفون قائدهم بعدهم.

ومن هذا المنطلق تلمس المرحوم الشيخ محمد الغزالي هذه النزعة في طليعة أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذين اتيح لهم فرص التربية والنضج وخاصة في المرحلة المدنية منها، وعن خصائصهم يقول: إن طليعة المؤمنين الذين اتيح لهم فرصة الصحبة مع الرسل والأنبياء، واقتربوا لحياتهم فإنهم بلا شك قد نال من صفاء أولئك الصفوة ووسائل ارتقاءهم، وهكذا هي طبيعة البشرية يرق لأعذب النغم والمشاعر والعواطف الجياشة، ويسموا حتى بالتمثيل والرواية والتخيل، وشتان بين ذاك وبين من يقترب بالرجل الذي تكلمه السماء وتنبع من جوانبه السمو والكمال ويسكب على من حوله الطهر والنقاء، فإذا ما ثقلت نفوس أصحابه عن الحق والخير إلا ودفعهم بالنشاط الزائد لها ونقاها بالسناء الطاهر فأزيل عنهم مسالك الشهوة.

ولقد كان أصحاب محمد ﷺ هم بذلك الفريق الرباني والتلامذة المخلصين الذين زكوا بصحبة النفس الشريف واندملت طبائعهم وأشرق عليها من أنوار الإلهام الرباني فتنتطق بالحكمة وفصل الخطاب.

(١) انظر: علوان، عبد الله ناصح، سلسلة مدرسة الدعاة، ج ٢، ص ٧١٢.

وقد يرى محمد الغزالي بعد وصفهم للصحابة مقارنا بأصحاب موسى وعيسى عليهما السلام أن الأولين كانوا يرجحون على حوارى هذين النبيين، وبالتالي تاريخهم في الإيمان والجهاد وبلاغ الدعوة كامل مضبوط ولا يشوبه أدنى شك وتحريف^(١).

وقد برع المفكر الشهيد سيد قطب رحمه الله عن هؤلاء وسماهم بالجيل القرآني الفريد فيقول عنهم: لقد خرج في تاريخ الدعوة الإسلامية وحتى في تاريخ البشرية جيل وطراز فريد من نوعه... نعم وجد هذا الطراز على مستوى الأفراد ولكن لم يحدث أن يجمع هذا التجمع بهذه الأعداد الهائلة في بقعة واحدة، وبالتالي كانوا أولئك حملة للدين ورسالته السامية وظلوا يمارسون مهمة الدعوة في الرسالة الخاتمة بعد وفاة قائدهم، وقد تكفل الله بحفظ ذكره، وقد كان أولئك هم الذين استستقوا من هذا النبع الصافي، وصار خلقهم وفعالهم به^(٢).

ويستنبط من الفقرتين السابقتين أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يكن مجرد أتباع ومعتقي رسالة الرسول ﷺ بل كانوا بحق هم المصطفين الأخيار، عكفوا على رسالة الإسلام على أساس من المحبة الفائقة وجزيل الشكران فممنحهم الله الخيرية والصفاء والنقاء، وجعلهم إلى يوم الدين هداة مرشدين في أمر الدين والدعوة، وكانوا بحق نجوما لماعة تقتدى بفعالهم وآثارهم ويذكر بالذكر والثناء الجميل الدائم، إضافة إلى إنهم أصبحوا علامة للهدى الرباني مصبغين بدين الله وأن من اهتدى بهم اقتدى، ووجد صراطا سويا مستقيما.

وقد بلغ تصبغ أولئك بالدين أن الوحي الإلهي كان يأتي أحيانا تأييدا لآرائهم، ويستشرفون لنزول الوحي فينزل ما يراهم، ولقد ذكر أهل السير نماذج لهذا، منها ما رواه ابن إسحاق في المغازي وخلاصته: أن رسول الله ﷺ بعد تحويل حكم القبلة كان يستشرف لأعلام وقت الصلاة بشعيرة خاصة مختلفة عما كان في الديانات الأخرى، وفي تلك الأثناء جاء عبد الله بن زيد الأنصاري فقال: (يا رسول الله! لو أخبرتك إنني لم أكن نائما، صدقتك إن شاء الله، إنني كنت بين النائم واليقظان رأيت شخصا عليه ثياب خضر، فأستقبل القبلة فقال: الله أكبر، الله أكبر (مثنى)، وذكر الأذان إلى آخره، فقال رسول الله ﷺ: علمها بلالا، فأمر بلال فأذن بها، وجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله! رأيت مثل الذي رأي الأنصاري، ولكنه سبقني إليك^(٣).

وبناء على الإعتبارات السابقة لقد نقل العلماء والمحققون أن التأسى وتتبع مسالك الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين سبب للنجاة ووصول الهداية، وعلى هذا نقل أبو نعيم الأصفهاني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (مَنْ كَانَ مُسْتَتًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبْرَهَا قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٨٨.

(٢) انظر: قطب، السيد، معالم في الطريق (المنصورة)، الحدود للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م، ص ٣٣-٣٤.

(٣) ابن إسحاق، محمد، سيرة ابن إسحاق (بتصرف)، ج ١، ص ٢٩٧.

عِلْمًا، وَأَقْلَهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَنَقَلَ دِينَهُ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ فَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ^(١).

وختاما فإن التركيز على الصفوة المختارين بين المدعويين هو مطلب دعوي يجب أن يتنبه له الدعاة في مهمتهم وأن يكسب تلك الفرص من النيل بأولئك فيريهم على الرسالة السامية ويصبغهم بالدين والدعوة حتى تصدر منهم ذلك دون فكر ولا جدوى، وبالتالي قد تنال هذا المكسب على الإقتراب من أصحاب الفطرة السليمة وحينها سيشغلون أولئك حيز المهام في الأمور الدعوية ويصبحون خلفا لهم في المستقبل.

المطلب الثاني: نماذج من أصناف وخصومة معاندي الدعوة الإسلامية

لقد ارتبطت فقه المدعويين في جانب منها على الحذر والتنبه على ما يثيرها أعداء الدعوة الإسلامية تجاه هذه الرسالة وحاملها الدعوة، وبالتالي يجب عليهم أن يكون يقيظين لأفعالهم، وليعلموا أن الأعداء والخصوم وكذلك أساليبهم ليست على وتيرة واحدة، وهكذا تختلف أصنافهم وبواعثهم بطبيعة الحال، وقد تتباين لإختلاف البيئات والمرحل؛ ونظرا لهذا فقد كانت الفترة المدنية من حياته ﷺ مع فسيح مجالها ومكتسباتها كانت بداية لفتح باب العداء مع الدين، وبالتالي ظهرت أنماطا وأساليب جديدة للقضاء على هذه المهمة والخط من شخصية الداعي ورسالته.

ولقد وقف العلامة محمد الغزالي على هذا الجانب واستوفى مباحثه بدروس بليغة، وسوف نبرز نماذج منها كالآتي:

١- اليهود ومؤامرتهم التاريخية: اليهود من أقدم الأمم استقطنوا على وجه المعمورة، ولهم تاريخ طويل في مصير الحضارات الإنسانية، واشتهروا بشخصيتهم وأوصافهم الذميمة بين الأمم، وبالتالي ركز الله بحالهم فأرسل الله إليهم أنبياء ورسلا يرشدهم ويحذرهم عما كانوا فيهم، وقلما نجد آيات من ذكر الحكيم تخلوا من ذكراهم وفعالهم، ونظرا لما ذكر فإنهم كانوا من الأمم الموجودة في أوان الرسالة المحمدية الخاتمة، وعرف عنهم محافظتهم على شخصيتهم العدائية تجاه الرسالة الإلهية، فعارضوها بوسائل وأساليب قديمة وجديدة، وبالتالي صار سجلا ومثالا للخصومة والسد أمام الدعوة، وقد تنبه لها الدعاة من خلال أحداث السيرة النبوية فوضعوا معالمهم وأخطارهم أمام الدعوة الإسلامية.

وعن هذا يقول الشيخ محمد الغزالي عن هذه المرحلة قائلا: لقد أبرم النبي ﷺ مع اليهود حين مقدمه إلى المدينة عهدا على الدفاع من المدينة حين يهجمها العدو، وأقروا حرية الخروج من تلك الديار لمن يطلب تركها والقعود لمن يحفظ حرمتها، ولكن اليهود لم يكن جادين بهذا العهد رغم ما ارتضوه وقبلوا انفاذه.

وهكذا آفة العهود دوما هي الوفاء بها وترتبط بمدى المنفعة المرجوة منها، فإذا أزيحت عنها تحقيق المطامع قل التمسك بها وانتهزت الفرص لفكها وتخلصها، وأساس ذلك أن اليهود في ذاك العصر كانوا ينظرون إلى أنفسهم

(١) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (مصر، السعادة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، ج ١، ص ٣٠٥.

بالتفوق المادي والسياسي على المجتمع العربي المتناحرة بحجة امتلاكهم للدين، ولكن شتان بين الدين الحقيقي والتدين المصنوع الذي يظهره أولئك، وكذلك الإحتراف بمبادئ السماء، وقد نتج عن ذلك بطبيعة الحال الحقد والنفاق والقشور ولهفة الجدل وما وراءه نفوس معوجة قلوب خربة.

وقد كان الحبيب المصطفى ﷺ يحلم أن يجد عندهم صدورا رحبة للدعوة الإلهية أو أقل شيء أن يكون خصومتهم أبدا من الوثنيين، وذلك لأن أسس دعوته تتواءم بما دعا إليه موسى عليه السلام من توحيد الله وإصلاح العمل والاستعداد للحياة الأبدية في الآخرة؛ ولكن أولئك صمتوا بادي الأمر كالمستريب والمتربص ثم بدأوا الجحود والنفور تجاه ذلك، ولم يكن ذلك بعيدا من قوم تجرأوا على الله ونفروا من أحكامه ووصفوه بأبشع وصف، ونسبوا له ولدا وقتلوا أنبياءه، وعنهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُمِبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُفُوعُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (آل عمران: ١٨١)^(١).

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله أوصاف أولئك بألفاظ جزلة وخاصة في معارضتهم للحق فيقول عنهم: "فَالْأُمَّةُ الْغَضَبِيَّةُ هُمُ الْيَهُودُ: أَهْلُ الْكُذْبِ وَالْبُهْتِ وَالْغَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْحِيلِ، قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَكَلَةُ السُّحْتِ وَالرِّبَا وَالرِّشَاءِ، أَخْبَثُ الْأُمَمِ طَوِيَّةً، وَأَرْدَاهُمْ سَجِيَّةً، وَأَبْعَدَهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنَ النَّقْمَةِ، عَادَتُهُمُ الْبُغْضَاءُ، وَدِينُهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالشَّحْنَاءُ، بَيَّتَ السَّحْرَ وَالْكَذِبَ وَالْحِيلَ، لَا يَرَوْنَ لِمَنْ خَالَفَهُمْ فِي كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَلَوْ نَبِيًّا حُرْمَةً، وَلَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، وَلَا لِمَنْ وَافَقَهُمْ عَنْدَهُمْ حَقٌّ وَلَا شَفَقَةً، وَلَا لِمَنْ شَارَكَهُمْ عَنْدَهُمْ عَدْلٌ وَلَا نَصَفَةً"^(٢).

وقد يتضح من الفقرتين السابقتين مدى اجرام وخصوم طائفة اليهود تجاه الدعوة الإسلامية في ذلك العصر، ولم يكن ذاك المواجهة والرد بعيدا عنهم بحجة أن أولئك ورثوا تلك الصفات الدنيئة والشنيعة جيلا بعد جيل، وقد فضح القرآن الكريم أوصافهم في أكثر من موضعه بغية أن يتعظ الناس وأن يتقي من شرورهم، وهكذا فتدينهم المزيف جعلهم ينظرون إلى الرسالة الخاتمة سحقا لمكانتهم والتي طالما يؤثرون أنفسهم على غيرهم، وينظرون لهم بنظرة الحقارة والدناءة فلجأوا نتيجة لذلك البغض والتنافر عن كلمة الحق، ومن ثم هاجموا على الإسلام وتحالفوا ضد خصمه.

وأما في المقابل فالمسلمون لم يفكروا يوما بنقض العهد ولا اخراج هؤلاء بل بقوا إلى آخر حين موفين بما عاهدوا عليهم، وكانوا يرجون منهم صدق الرسالة ﷺ وكذلك مساعدة المسلمين في اقناع العرب الأميين، وهكذا قد ظهر بوادر من تصدق أهل الكتاب المسيحية في الفترة المكية حينما وفدوا من الحبشة - حيث مرت قصتهم في الفصول الماضية-، أما هؤلاء فكانوا عند سوء الظن وبدأوا يظهرهم بغضهم تجاه النبي ﷺ ودولته ومن ثم يقفون تجاهه.

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة (بتصرف)، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، المحقق: محمد أحمد الحاج (جدة، دار الشامية، ط ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م)، ص ٢٢٧.

ولقد كان بوادر ظهور عدائهم بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر، وياتوا ينادون رسول الله ﷺ بألفاظ بذيئة وعديمة الحياء حيث قالوا: "لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، وقد أنزل الله فيهم قوله يوبخهم على ما بدر منهم، لعلهم يتعظوا حيث قال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُمْسَرُ الْإِمَّهَادُ﴾ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فُتُتَيْنِ الَّتِي قَاتَا فِيئَةُ تَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٢-١٣) (١).

وهكذا فالفتنة المجرمة لم يملكو أنفسهم بها بل بدأوا ينقلبون على المسلمين، وكانت أول اجرام لهم من بني قينقاع في السنة الثانية من الهجرة حيث ذهبت امرأة من المسلمين إلى سوقهم تبتاع منهم، وجلست إلى صائغ منها؛ ولكن ذلك اليهودي جلس على ثوبها حتى انكشفت سوءتها، فضحك القوم وصاحت المرأة، وحينها أقدم رجل من المسلمين على قتل الصائغ غيرة عليها، فوثب اليهود على المسلم وقتلوه؛ وقد غضب المسلمون على فعلهم وحسبوا ذلك نقضا للعهد حتى حاصرهم النبي ﷺ فنزلوا على حكمه وأجلهم؛ وطهر المدينة من رجسهم (٢).

وعن الدرس المستفاد من الواقعة يقول الغزالي: إن اليهود مارسوا في تعاملهم مع المسلمين خصالهم وسجيتهم وياتوا يتربصون خلافتهم، فلو أنهم بقوا على مجرد تكذيبهم كما فعلوا مع المسيح عليه السلام، واعتقدوا أن ماسوى معتقدهم باطل، ومن ثم عكفوا على عبادتهم في صومعهم وبيعهم، وحسبوا أفواههم عن مطاعن المسلمين ونيبه الكريم لبقوا إلى الأبد سالمين دون حرب وضرب، ولكن أولئك كانوا ينقضون ويمارسون الأباطيل ويجتهدون بكل وسع بعواطفهم ودعاياتهم وألسنتهم وفعالهم خلاف الرسول ﷺ وأصحابه ومجتمعه؛ فأضطروا أولئك أن يطردهم ويقوم تجاههم.

وفي مستهل هذا يرد الغزالي على من يرون أن نزاع الإسلام في تلك الديار نزعة سياسية لا دين وراءها، وبالتالي يريد أن يمد سيطرتها على الجزيرة العربية حتى يحكمها وحدها، ولكن سخافة هذا الإدعاء واضحة، وبالتالي الوقوف على فهم العواطف الإنسانية يفسرها هذه، فقد كان المسلمون يتحمسون ويفرحون لنصر الرومان على الفرس في الفترة المكية، مع أن القوة الإسلامية لم تتصل بهم اتصالا عميقا، ولكن كل ما يبرر هذا الحماس أنهم كانوا أصحاب كتاب يدعو في أصلها إلى التوحيد، وإن اضطرب فهمهم فيه، وبالتالي يعتبرونهم أعلى مرتبة من عبدة النار والمجوس، وبهذا قد ضرب الإسلام في هذا النوع الوفاء واشترك الحقيقة، لكن اليهود بالمقابل قد كتبوا وتحسروا من نصرة الإسلام على المشركين وسعوا لتغليب كفة الوثنية على الدين الإسلامي.

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٥٤٩.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ص ١٣٣..

وبالجملة فإن التفسير الوحيد لموقف اليهود يفسر بأن اليهود ترتبط صلتهم بالدين وأن سلوكهم لا يرتبط بالتراث السماوي من عقيدة التوحيد وأحكام التوارة، وتحكم عليهم شهواتهم والنزعة للمطامع الاقتصادية باسم الدين، وبالتالي لم يعرف أولئك شرفا في الحرب ولا عهد بالكيد، بل لجأوا للكفران والغدر، وبهذا لم يكن أمام المسلمين بد إلا بإجلاءهم وتنظيف الأرض من رجسهم^(١).

وبالجملة فاليهود طائفة وجماعة متعصبة تحكمهم الهوى وسجيتهم النفور عن الحق والسد أمامه، وهم بفعالهم هذا قد انسلخوا عن الدين وصارت فعالهم وخصائصهم السخافة والعنصرية واثارة الفتن والتعريض للبشرية، ولم يعرف التاريخ عنهم إلا الإجرام، وهكذا شنوا خلاف أقدس البشرية الأنبياء والمرسلين القتل والإرهاب، وتجسسوا على الناس في عقائدهم وأموالهم وأنفسهم.

٢- خطر النفاق والمنافقين على المجتمع الإسلامي: النفاق ظاهرة الخصومة الخطيرة والتي تظهر أوان نضج الدعوة والحركة الإسلامية، فينقلب أناس عن دائرة أو صلب المسار إلى الخارج، وتظهر خبثهم وما تكن من خصومتهم فتزل به ثبات أصحاب الدعوة وتتكشف للأعداء عورات المسلمين نتيجة تغلغل أولئك كما تبطئ مسير الدعوة الإسلامية وتوقفها علن النشاط والدأب المستمر.

وخطر هذه الظاهرة في الدعوة أشد وطأ على أصحابها من أعداء الخارج وذلك لأنها لم يكن واقعا في حسابهم ولم يعدوا لهم عدة، وبالتالي تواجه المسيرة مع التحديات والعقبات وأحيانا إلى السقوط والزوال، وهكذا عد الله هذا الصنف من ألد خصم الرسالة الخاتمة وحذر المسلمين من خصائص وأوصافهم، ومن ثم عين لهم في الآخرة أشد العذاب وهو الدخول في الدرك الأسفل من النار.

وقد ظهر هذا الصنف من الناس وفعالهم أوان المرحلة المدنية، وذلك بعد ما استقرت كلمة الإسلام تحت قيادة الرسول ﷺ وانكشف للناس حقيقة الدين الإسلامي بصلافة وقوة، وعن هذا يقول الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله: لم يكن في المرحلة المكية نفاق لأن المسلمين كانوا مغلوبين، ولا يملكون حولا ولا قوة، ولا يملك لأحد ضرا ولا نفعا، وكل من يعتنق الإسلام يواجه الضر والخطر، ويشير له الأعداء... وهكذا لم تكن أجواء مكة بين قوتين مماثلتين؛ بل كان المشركون أقوىاء قاهرون والمؤمنون ضعفاء مضطهدون؛ ولكن بانتقال المسلمين إلى دار الهجرة بدأ نجم الإسلام يرفع ويلمع، ويزحف نحو ربوع الجزيرة العربية، فإذا بادرة النفاق تظهر وتحول بين قوتين متنافستين، وترد على كلا المعسكرين، ولكن ينحاز إلى دعوة فيعطيهما ولاءه وحبه العاطفي إلا أن المصالح المادية لها في المعسكر الآخر وانتصار ذاك لا يسمح بإعلان موقفه والوقوف العلني مع المشركين... ولكن مواقفهم أحيانا تظهر فكانوا يتخاذلون في صف المسلمين، ويضيق بزحف الإسلا، وهكذا يظهر الجبن والزعة في صفوف أولئك،

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

وقد ظهر على إثر ذلك مواقف سيئة منهم، وحفل القرآن الكريم بذكرهم، وفضح من شأنهم ووضح أن خطر أولئك أشد وقعا عليهم من الأعداء المجاهرين^(١).

وكان أول خذلان أولئك علنا في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة بعد ما استقرت كلمة المسلمين للخروج من المدينة عند سفوح جبل أحد، فقد رجع سيدهم عبدالله بن أبي بن سلون مع ثلاث مائة من فلوله، وكان تعادل أولئك ثلث الناس، وقال: "أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس"^(٢).

وعن الدرس المستفاد منها يقول الشيخ محمد الغزالي: لقد بدأت تلك المعركة بانسحاب جيش أبي بن سلول، وعمله ينطوي على رسائل، أهمها الاستهانة بمستقبل الإسلام والغدر في أشق وأعسر الأجواء، وتلك أظهر معالم النفاق.

وهكذا ينضم للدعوات أوان ظفرها المخلصين والمغرضين والأصيل والدخيل، ولا شك أن هذا المزيج والإختلاط أضر وقعا على الرسائل وانتاجها؛ ومن حكم الله أنها تقع على الجماعات في هذه الأحوال هزات وابتلاءات لتمحيص صفوف أولئك ولتمييز الطيب عن الخبيث.

وقد كان الجبن والنكوص من أهم امارات صفح وتفضيح هذه الظاهرة الخبيثة حيث أعلنوا هؤلاء خستهم أمام أنفسهم وعن مرآي القوم، وذلك قبل أن تفضح رسالة السماء فعالهم، وقد لجأ المنافقون بعدها بأبشع صورة إلى التعريض بالنبي ﷺ ودعوته السامية، ومارسوا في عديد من المواقع اللمز والتعريض، الإفتراء وأشدها شناعة الإفك والبهتان، وأحيانا اظهار الود والتحالف مع اليهود حين اجلاءهم.

وأما خطر أولئك للجماعة المسلمة فهو أشد تأثيرا على المسلمين من الأعداء المجاهرين؛ فلقد كان أبو جهل أشد خصما لكل من يدخل في الإسلام، وكان رجلا عنيدا في منتهى اللجاجة، وأشبه حاله بحالة الضبع المفترس، حمل سيفه في وضح النهار ومارس طغيانه حتى لقي مصرعه، أما هؤلاء فيشبهون العقرب تلدغ المغفلين ويبتون سمومهم خفاء بحيث لا يشعر عليهم، وهكذا فضح الله آخر الأمر خفاياهم وسوء نياتهم بانزال سورة المنافقين وغيرها من السور، فأصبحوا مفضحين منبذين^(٣).

ومنتهى القول إن النفاق ظاهرة الخصومة المخفية أو الوجه الآخر للعداء يبثها أعداء الإسلام أوان استقرار الدعوة الإسلامية وحين توسيع شملها، فيريدون أن يضربوا بها الدعوة والحركة من الداخل، وقد يمحص الله صف أولئك زمن الإبتلاء والمحن، وما على الدعاة إلا أن ينتبهوا لها ويعد لها عدة حتى لا تقع في فخ أولئك، وهكذا تركز الدور المدني من القرآن الكريم على بيان أوصافهم، فيكون المؤمنون حذرين منهم، وعلى الدعاة أن يركزوا على المدعوين وضعاف الإيمان فينموا إيمانهم ويربيهم حتى لا يغتر بهؤلاء فينزلق في صفوفهم.

(١) انظر: الندوي، أبو الحسن علي الحسني، السيرة النبوية، ص ٢٨٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٩٨.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٨٠ و ٣١٠.

٣- النيل من شخصية وبيت الداعي: لقد أنيطت الدعوة إلى الله على تحمل الخصومة والضرر والأذى في النفس والمال والأهل وحتى النيل من شخصية وعرض الدعاة، وأساس ذلك أن الدعة طالما يواجهون أعداء بعيدون عن الالتزام بالشرف والفضيلة، فيلجأون في عداءهم بشن أقوال وأفعال تجاه أولئك، ويكون كل ذلك من النيل والحط من شخصية هؤلاء ودعوتهم السامية.

وهذا النوع من الخصومة التي يلجأ إليها الأعداء هي أشد وطأ وتأثيراً على شخصية الدعاة، وذلك لأنها تعكر صفو الدعوة ويثير حولها الشكوك والشبهات، وهي بطبيعة الحال سبب للفتور والهزيمة النفسية، وفي بعض الأحوال حط لمنزلة الدعاة فيثيرون عليها المدعويين.

ولسوف يدرك المطلع على السيرة النبوية أن هذا النمط من الخصومة لجأ إليها الأعداء في الفترة المدنية من حياته ﷺ حيث كانت مرحلة عز الإسلام، وقد سبق أنهم جرحوا قلب الرسول عليه الصلاة والسلام في الفترة المكية بتطليق ابتناه من قبل ابنا أبي لهب، ولكن في هذه المرة لجأوا إلى حرب كاذب وشنوا أشنع جريمة عرفتها الإنسانية فاتهموا بيته الشريف والذي يعد مثلاً للعفة والطهر بالمنكر، وأثار بين المسلمين اقاويل للحط من بيت النبي الطاهر بغية أن ينالوا من منزلة رسالته الخاتمة.

ولقد ذكر أصحاب السير نموذجاً من هذا النوع من الخصومة تحت مسمى حادثة الإفك المشهورة والتي وقعت في السنة الخامسة من الهجرة النبوية عقب غزوة بني المصطلق، وخلاصتها كما يرويها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج لسفر أقرع بين زوجاته، فصحبت معه، وفي هذه المرة خرج اسمي، وكان ذلك عقب نزول آيات الحجاب، وكانت تحمل الزوجات في هودج على الناقة.

وبعد اتمام الغزوة حينما كنا وافدين بتنا قرب المدينة، وقد تأذن في الليلة على الرحيل غدا في الصباح الباكر، ولكن قبلها خرجت لقضاء حاجتي ونسيت وقتها عقدي من جزع ظفار، وحين تذكرتها خرجت في طلبها، ولكن لما جاء الراكب للرحل لم يتفقدوني ورفع هودجي حسبانا أنا فيه، وحينما جئت لم أجد أحداً حتى غلبني النوم فنمت، وكان وراء الجيش صفوان بن معطل السلمي فرآني، فاستيقظت باسترجاعه وحملني على استحياء على راحلته دون تكلم؛ حتى أدرك الجيش وقد تولى خبر الإفك في المدينة من قبل عبد الله بن أبي بن سلول، ولم يكن وقع الخبر مثقلاً على بل كان النبي ﷺ وصحابته مثقلين عليه؛ حتى أن النبي ﷺ صعد يوماً على المنبر مخاطباً للمسلمين: أيها الناس ما بال رجال يؤذوني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي... وهكذا ظل الأمر بينهم حتى أنزل الله آيات في تبرئتي، وقد كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من أن ينزل الله في قرآنا يقرأ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في الرؤيا، شيئاً يكذب به الله عني، ولكن نزلت آيات شفي به صدور المؤمنين حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١١)^(١).

ويمكن تلخيص هذا الموقف بأنها كانت سلسلة من فنون المحن والايذاء التي لاقه النبي ﷺ في أمر الدين، ولكن الله تعالى كشف زيف وبطلان أولئك الضاهئين، وصان به به تاريخ الأمة الإسلامية إلى قيام الساعة كما شفي صدور المؤمنين من الهم والغم المسيطر عليهم، وفضح لئام من أضرم فتنتها، ووعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وجعل من الواقعة حكما ثابتا يعالجون بهم قضاياهم إلى يوم الدين.

المبحث الثالث: فقه المدعو في العصر المدني عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

إن الدراسة والوقوف على فقه المدعويين قائم على دراسة البيئة والظروف التي يملكها المدعويون؛ بحجة أنهم المخاطبون والملمزمون للدعوة، وكما تختلف طبيعة الموضوع فإن فقه أولئك كذلك يتباين من فترة إلى فترة، ولما كانت المرحلة المدنية هي مرحلة الصدع والمجاهرة بالحق، ووجدت على إثرها دولة فنية إسلامية حيث تنتشر هذه الكلمة السامية وتجاهد قبال من يقاومها؛ فقد تميزت هذه الفئة عما سبقها وألزمت هؤلاء بمهام توائم ظروفهم ومدى قوة إيمانهم على هذا الدين، وهكذا استحققت هذه الطليعة نظرا للتوسع حقوقا لم تكن معهودة فيما سبق. وأما في الصعيد الآخر فقه تشتت الخصومة تجاه كلمة الحق على صعيدي الداخل والخارج، وظهرت أنماط من الأساليب العدائية، تعد مع موضوع سابق فقها للمدعويين، ونظرا لأهميتها وقف الدكتور بوطي رحمه الله على أهم محطاتها من خلال السيرة النبوية، واستخرج منها أحكاما وفقها تعد زادا دعويا للدعاة، حيث أبين نماذج منها في مطالب آتية:

المطلب الأول: نماذج من خصال وحقوق المدعويين المستنبطة من هذه الفترة

إن الإطلاع على الخصال والسجايا التي تملكها طائفة المدعويين لخير دلالة على ما يملكهم أولئك من نضج التربية والتعليم ومدى الالتزام تجاه ما وضع عليهم الدين، وبهذا ضرب الصحابة في الفترة المدنية أروع أمثلة التضحية ونصرة كلمة الحق؛ حيث تعد نموذجا ودليلا دعويا في هذا المجال، والوقوف عليها تعلم المدعويين اللاحقين كيفية التعامل مع الدعوة، بيد أن كل هذا لا يغفلنا عن الحقوق التي يملكها هؤلاء، وكذلك اختيار أمثل وأروع الطرق التي يجب تتبعها في جلب المدعويين والوصول إلى المبتغى.

وبناء على هذا تعد الفترة المدنية هي الحقل الأوسع للدعوة في هذا المجال، وسنقف من خلالها على أهم الخصال والطرق التي يجب اختيارها في هذا المجال عند الدكتور البوطي رحمه الله.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ١٨٨-١٩٣.

١- **محبة ودفاع الأفراد عن قائدهم الدعوي أكثر من أنفسهم:** من أهم الخصال المطلوبة في المدعويين هو الاتصال العميق بالقائد الدعوي، وامتلاك المحبة الفائقة تجاهه وكذلك بذل التضحية والايثار والزود عنه في وقت المشاق، وقد تبنت هذه الخصلة نتيجة الارتباط الوثيق بين فئة المدعويين ورائدهم الذي يوجههم إلى الخير والحق؛ وعلى هذا يحسبون هؤلاء وجود أولئك روحا ومبعثا لوجود الكيان الذي طالما يرشدهم ويغذيهم روحيا ومعنويا.

وبناء على ما ذكر فإن كيان الدعوة الإسلامية يسوده النظم والاتساق المحكم، ويشد بعضه البعض، وقد احتل كل فرد منه المكان اللائق، ومن أهم مزاياه الاهتمام بحياة الرائد والكبير والذي يكون وليا لأموهم، ويتولى الأخير مهامهم بإخلاص وي بذل أقصى الجهد في تربيتهم ورعايتهم، وفي المقابل يحبونهم أولئك على دافع من الإخلاص ويقدمون كذلك النفيس والغالي محافظة عليه ويؤثرون حياته ودفاعه عن أنفسهم.

ولقد ضربت طليعة الأصحاب في مسارهم الدعوي في صفحات السيرة النبوية ﷺ أروع أمثلة في هذا المجال، وبهذا فاقت عن كل اسطورات تاريخ البشرية، وهي بالجملة طراز فريد من نوعه وتعد نموذجا للحب والوفاء والتضحية، وقلما نجد له نظير في التاريخ؛ وما هذا العمل إلا ناتج عن التربية والرعاية العملاقة التي تقدم لها المصطفى ﷺ.

وقد ذكر أصحاب السير أمثلة عن ذلك، منها ما رواه ابن هشام عن شهداء أحد حيث يقول: لما فرغ الناس لقتلهم، فقد قال النبي ﷺ: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن ربيع؟ أفي الأحياء أم في الأموات؟ فقال له رجل من الأنصار: أنا أنظره، فإذا وجده أنه كان جريحا وبه رمق بين القتلى، وعند ذلك قال له الأنصاري: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال هو: بل أنا في الأموات، أبلغ النبي ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك مني: إنه لا عذر لك عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف... وبعده لحظات قد مات (١).

وعن الدرس المستفاد من الواقعة يقول البوطي رحمه الله: إن في تضحية أصحاب رسول الله ﷺ لفائدهم وحمايته بأجسادهم حيث جعلوا أنفسهم تروسا من نبال قريش وضرباتهم الصارمة من السهام، والذي كانت ترمي كالوابل لدلالة على حرص أولئك على حياته ﷺ وتقديم الإيثار عن نفسه.

وأساس ذلك أن تلك الخصلة نبعت عن الإيمان الحقيقي بالله والرسول ﷺ وكذلك مدى المحبة الفائقة حوله. ولا شك أن كلا السببين منبع للتضحية الرائعة، ويحتاج إليه المسلمون في دينهم، وهكذا إيمان المسلمين منوط بامتلاك هذا الحب الفائق والذي يفوق عن محبة كل ما سواه، وعنهما قال ﷺ:

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ١٤٧.

- (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ^(١).

ويتابع البوطي في حديثه عن تأثير هذا الحب ونتائجه فيقول: إن الله تعالى جعل للإنسان قلبا وعقلا، فأما العقل فمهمته أن يفكر لكي يؤمن، وأما الأول فخلق لكي يستعمل في محبة أمر الله وبغض عما نهاه، وبالتالي إذا لم تستعمل هذه الأداة في محبة الله ورسوله، فإنه بطبيعة الحال يشغل بمحبة الأهواء والشهوات، ونتيجة الأمر تكون الإيمان المبعث من العقل خاليا من أعمال التضحية والفداء ^(٢).

وقد قارن الدكتور بوطي رحمه الله تأثير هذه المحبة في الحياة وبين ما تفعله الفلسفات التربوية الوضعية فيقول: كم من جهود قولية تصرف وقيلت بأن تجعل الفضيلة على أساس العقل وحده، ويا له من مبدأ متين!... ولكن أي مبدأ هذا؟ يقولون: إن الفضيلة هي النظام، ولكن هل يمكن أن يتغلب الإيمان بالنظام على الميولات الخاصة؟، وجملة القول: إن هذا المبدأ في محصلتها لا تخرج عن اللعب بالألفاظ، وتكون نهايتها أن الرذيلة هي حب النظام بشكل متابين.

وهكذا نرى أن الإقدام والسير على هذا المبدأ بدأ بالفشل وخير دليل على ذلك أن المقننين في الولايات المتحدة الأمريكية رغم كثرة جهودهم وحثمهم على منع الخمر، في سنة ١٩٣٣م خابوا آخر الأمر، وارتدوا على أعقابهم بجواز تناولها مرة أخرى؛ أما أصحاب الرسول ﷺ فقد كانوا ممثلين منذ اللحظة الأولى لها وارتفعوا أصواتهم بـ(انتهينا يا رب)... وهكذا إذا غمرت القلوب على هذه المحبة فسيجعل من أصحابها رجالا ممثلين لأوامر قائدهم طوعية دون إكراه وسيفقدون للتضحية والإيثار، ويعانقون في سبيل حياته بالموت والمشقات ^(٣).

ويتبين من الفقرة السابقة أن طليعة الأصحاب والذين مثلوا المدعوين الحقيقيين قد أحبو النبي ﷺ إيمانا، وقد أثروا حبه عن كل ما سواه، وكانت هذه الخصلة باعثا على الالتزام التام بكل ما أمره به وما نهى عنه. وقد ظهر آثار هذه المحبة في حياتهم وأعمالهم طوعية كسجية فيهم دون عنت وتكلف، ولما واجه قائدهم الدعوي والمقتدى بالصعاب وقفوا حوله كالسد المنيع يرد عنهم كل سوء؛ حتى أنهم لم يبالوا ما يحدث بهم، وهكذا حسبوا حياته الشريفة غاية ومقصدا، وعلموا أن الحياة الحقيقية تكون بدوام وحياء الدعوة والرسالة التي يعتنقونها وإن لم يكونوا هم موجودين على هذه المعمورة.

وعلى حسب قول الباحثين فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا أوفر حظ من محبة الرسول ﷺ، ونتجت ذلك عن المعرفة والإيمان وكذلك معرفة قدره ومنزلته، وبالتالي كان ولوعهم ومحبتهم به أشد وأكبر ^(٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم الحديث: ١٥.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٩٧-١٩٨.

(٣) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث (دمشق، دار الفكر، ط ١، ٢٠١٨م)، ص ٢٢٧.

(٤) انظر: التميمي، محمد بن خليفة، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٣١٤.

وخلاصة القول إن التعلق والترابط العميق للمدعوين لقائدهم الدعوي من الخصال الأساسية التي عرف بها هذه الزمرة في الدعوة الإسلامية، وقد نتجت هذه السمة عن نضج التربية واتمام المعرفة الشاملة لهؤلاء عن رسالتهم ومدى إخلاصهم وتعلقهم بهدفيهم وغايتهم، فأينعت ثمارها في وقت قصير وأنشأوا مجتمعا مثاليا يشار إليه بالبنان.

٢- التكريم والعطاء لأهل الفضل: المدعوون هم من جنس البشر، ويطبعون بطبيعة الحال جل خصالهم وميزاتهم التي فُطروا عليها، وعلى هذا فليست كل فرد منهم يحظوا من المقام الواحد، بل يختلف من موقف قبلي ونفسي ومنصب وغيرها من المعايير عن بعضهم البعض، وعلى هذا فأصحاب النفوس والمكانة المرموقة جديرون بالفضل والكرم، ولا يستنون بالتعامل الأوحده مع سائر الناس؛ بل يخص كل منهم بأسلوب متميز، وعلى هذا إن استوت هؤلاء أمام المسؤوليات الفردية إلا أن تأثير أولئك على الجماهير ومكانتهم يجعل الدعاة ملزمين بأن تتعامل معهم متباينين ويخصهم بشيء من الفضل والكرم، لكي يحفظ مكانتهم، ومن جانب آخر تكون عوناً وتجاذبا لكل من يتبعهم، وهكذا كما يقال فإن الإنسان عبيد الإحسان، يحسن لمن أحسن إليه وسوف يعود بالخير الكثير على حساب الدعوة.

ولسوف يدرك القارئ للسيرة النبوية المطهرة مدى استعمال هذا الأصل الدعوي في جانب فقه المدعوين، وعلى هذا إن كان التركيز في الفترة المكية على أدني المسلمين، حتى أنه ﷺ واجه اللوم والعتاب لحالة جزئية من الإهمال الدعوي في هؤلاء، ولكن في هذه الفترة اهتم وجعل عنايته لبعض أهل الفضل والكرم بغية أن يدخل هؤلاء في الدين، ويسبب ذلك التعامل تجاذبا للمدعوين، ويدخر هؤلاء في حياتهم الجديدة عملا للإسلام ودعوته التي طالما ينفرون منه.

وقد نقل أصحاب السير بعض النماذج من هذا الأصل وتعد بمجموعها حقا لبعض المدعوين، منها ما نقل ابن هشام في سيرته عن اسلام أبي سفيان على مشارف يوم فتح مكة حيث يقول: لما نزل رسول الله ﷺ بجيشه عند الفتح بمنطقة مر الظهران القريبة من مكة، قال عباس بن عبد المطلب: واصباح قريش! والله لئن دخل النبي ﷺ مكة عنوة قبل مجيئهم فيستأمنوه إنه لهلك قريش إلى آخر الدهر... ولهذا السبب ركب على بغلة النبي ﷺ البيضاء حتى يجد من يسد أهل مكة عن الحرب، فإذا يواجه أبا سفيان مع نفر من قبيلته والذين خرجوا على اثر اضرام النار المضىء للجيش، فيناديه عباس: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش والله! قال: فما الحيلة؟ فذاك أبي وأمي، قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقلك، فأركب عجز هذه البغلة حتى أتني بك النبي ﷺ. فركب ومر على طلائع جيوش المسلمين حتى ادركه عمر، فنادى عليه: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد لا عهد، ولكن العباس استأجره إلى أن وصل الخبر لرسول الله ﷺ، فأمر العباس بأن يحبسه الليلة، وفي الصباح حينما أتى إلى رسول الله ﷺ، ناداه: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن علم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أن وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئا بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ وقال مثل كلامه الأولى ثم أردف: أما هذه والله فإن

في النفس منها حتى الآن شيئا، فقال له العباس: ويحك اسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك.

ثم قال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا، قال نعم: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن^(١).

وأما عن الدرس المستفاد من الواقعة فإنها تحمل في طياتها عددا من الحكم والمواعظ، وقد ذكرها العلامة البوطي رحمه الله قائلا: لقد كان إسلام الرجل واعطاءه شيئا من الفخر والفضل سبب لحقن الدماء وسد الحرب، فهذا أبو سفيان ينادي أهل مكة قائلا: "يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن"^(٢)، ومن العجب أن أبا سفيان كان رائد قومه ويشرف مباشرة أو على نحو ما كل الحروب التي خاضه قومه تجاه المسلمين، وها هو اليوم يدعوا قومه للإستسلام وتنحية دفن حياة الشرك والظلام الغامس للجاهلية وينبئ بيزوغ فجر التوحيد والإسلام.

ومن ناحية ثانية فإن اعطاء الرسول ﷺ للرجل هذا الفضل والفخر لدليل على مدى مشروعية تألف القلوب للإسلام وتشيته عليهم بوسائل مشروعية؛ وهكذا دعا النبي ﷺ بفعله أصحابه وحثهم أن يختار هذا الأصل في دعوتهم ريثما تستقر وتقوى جذور الإيمان في القلوب، ويصبح جذعا صلبا لا يهتز بعده، ولعل هذا ما غاب عن عقول بعض الأنصار حينما تقول بفعله ﷺ قائلا: (أَيَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْنَيْتِهِ؟ قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ، قَالَ: كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ، فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ، مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضَّنَّ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانَكُمْ، وَيَعْدِرَانَكُمْ، قَالَ: فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَغْلَقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ)^(٣). وهكذا تقوى الوحي عمله الشريف وبين أن الإيمان ليربوا بعد الإستسلام والإذعان حتى يستقر في القلب^(٤).

ومن هذا يتبين أن اختصاص أهل الفضل بشيء من الكرم والتوقير أمر مشروع في مجال دعوة المدعوين، وتعود ذلك بالخير الكثير على حساب الدعوة، وبهذا ينقلب أصحاب السلطات والنفوذ الذين يعارضون الدعوة في خدمة هذه الرسالة؛ وحجة ذلك أن من الناس من لا يؤثر عليهم الدعوة ولا يغير ولاؤهم وانتماؤهم إلا بعد أن يحسم ساداتهم وكبراءهم موقفهم من الدين، وهكذا عليهم أن يربيههم حتى يحسن إسلامهم وتكون جنودا للدعوة الإسلامية.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ٢٢٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ٢٢٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: فتح مكة، رقم الحديث: ١٧٨٠.

(٤) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٩١-٢٩٢.

ويدل موقف النبي ﷺ تجاه أبي سفيان كذلك أن الإسلام يحث الدعاة أن يكرموا عزيز قوم ذل ، ويقوه حتى يقوي إيمانه ، وتكون ذلك عاملا في امتصاص الحقد الذي يكمنه ، وأن الرجال إن أخلصوا دينهم لله فإن مكانتهم ستكون محفوظة ، وهذا هو أمر الملاحظ في بعض كتابات الرسول ﷺ ، وتلك بمجموعها تدل على مدى حسن التعامل مع المدعوين^(١).

وصفوة القول: فالدعوة الإسلامية هي دعوة الرسالة الفطرية والتي تؤائم النزعات البشرية، وتجلب لهم الخير والسعادة، وقد يعرف مدى أقدار الرجال في المجتمع وما تحتله من القيمة، وبالتالي يواجه كل منهم بأنسب التعامل، وتلك بمجموعها منهج قرآني يأمر الله عباده بأن يدفعوا السيئات بالحسنى، وسيصير الخصماء أولياء حميمين طائعين، فيدفعون للأعمال مدركين ما فاتهم من الأزمان والفرص.

٣- سمو النفس الإنساني والافتلاع عن الغدر: من أهم الخصال التي يجب أن يتحراها المدعون في حياتهم هو سمو النفس وامتلاك الشخصية القوية، وذلك أن هؤلاء هم المرأة أو التطبيق العملي للدعوة، وبالتالي يجب أن يتجلى في حياتهم روح الدعوة الإسلامية ويكون مميزين عن باقي الناس.

وبهذا فالتربية الروحية هي ذاك الوابل الطيب الذي ينزل على الصعيد الطيب فينمو ويربوا بذلك النبت الطيب، وهكذا فالدعوة في مجموعها تربية روحية سامية هذبت النفوس البشرية، وأقلعت في مقابلها جرثومة الفساد والغدر والخبث الذي طالما تنن منهم المجتمعات الإنسانية، ولن يتجه نحو الفضيلة والخير إلا في حالة السراء أو ابتغاء المصالح المادية؛ وأما في المقابل فهذه دعوة بعيدة عن كل الأغراض الدنيوية، وفي جملتها رسالة سمو ورقي روحي التي أسمت الإنسانية من النزعات الحيوانية إلى عالم الملكوت العلوي؛ فأسعدت الإنسانية بفعالهم ومنحت لهم الأمن والرخاء كلما أتحت لهم الفرص.

ولسوف يلمس القارئ مدى هذه الخصال في طليعة أولئك الذين تربوا في مدرسة الرسول ﷺ وأخذوا من ينبوعه الحكمة والتهديب النفسي، بينما كان الباقون الذين كانوا بعيدين عن أنواره موجّهين بالانحياز والتناحر.

وبهذا كانت الفترة المدنية هي المرحلة الخصبة لاشعاع هذه الفيوضات في تربية أولئك واعدادهم قادة يقتدى بهم، وغالبا ما كان يدرب هؤلاء ويبعثهم للمدن والقرى كسفراء حاملين معهم رسالة الإسلام بالقول من جانب ومظهرها وتطبيقا في سلوكهم وأعمالهم من جهة أخرى فيتأثرون على المدعوين الجدد ويدركون عظمة الدين ومدى سعادتهم في حياتهم.

ولقد تطرق أصحاب السنن والسير بذكر شواهد مثبتة في هذا المجال، منها الذي رواه أهل السير في كتبهم حيث يقول: قدم على رسول الله ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد أناس من قبيلتي عضل والقارة، وطلب منه تظاهرا على الإسلام ببعث معلمين يفقه هم في الدين، وتلبية لذلك بعث معهم مرثد بن أبي المرثد، وعاصم بن

(١) انظر: زيدان، عبد الكريم، الاستفادة من قصص القرآن للدعوة والدعاة (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، ج ٢، ص ٤٠٣.

ثابت، وخالد بن البكير، وخبيب بن عدي رضي الله عنهم وغيرهم... ولكن القوم غدروا بهم فقتلوا منهم بعضهم وابتاع البعض على قريش ومن ضمنهم الصحابي الجليل خبيب بن عدي حيث اشتراه حجير بن أبي اهاب لعقبة بن الحارث ليقتل ثأراً لأبيه، وهكذا مكث في بيته أسيراً إلى أن قرر موعد قتله، ولما حان ذاك الوقت طلب من إحدى جارياتها ماوية وقد أسلمت أن يبعث لها الموسي للإستحداد، فبعثت لها بيد غلام مولاهم غفلة، ولكن خبيب لم يمسك بالصبي وكان متمكناً بقتله أو على الأقل أن يستخدمه في نجاة نفسه، وفجأة تنبه أمه مفزعة؛ فإذا بالطفل على فخذ خبيب، ولما نظرت والدته قال لها: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، وقالت: ما رأيت أسيراً قط خير من خبيب^(١).

وعن الدرس المستفاد من الواقعة يقول البوطي رحمه الله: إن في عمل وصنيع خبيب لدليل على صفاء النفس ذلك الرجل وسمو الروح والالتزام بالدين الإسلامي، فأنظر إلى معجزة التربية الإسلامية كيف أثر بمثل هؤلاء؟، وشتان بينه وبين أولئك الذين يصنعون الظلم والعدوان حيث يلجأون إلى الغدر والخيانة، ولكن خبيب ومجموعته كانوا أناساً من نفس التربية والبيئة، وكانوا أناساً من طراز آخر، ونرى فيهم ما فعله الإسلام بطبيعتهم من تغير وتحويل^(٢). وهكذا يضيف الباحثون أن عمل خبيب مظهر للوفاء يجب أن يتعلمه الناس ممن غدر بهم، وبالتالي يجب على المسلمين أن يكونوا مستقيمين في كل الأحوال في سراءه وضراءه، وأن لا يمس بعمل يضر بالإسلام وكلمته السامية^(٣).

ويستنتج من هذا كله أن السمو والرقى الروحي من أهم الخصال النبيلة والتي عرفت بها مجتمع المدعوين المثاليين، وقد أكسبوا ذلك نتيجة التربية الروحية الإسلامية، فمنحهم بذلك استقامة والتزاماً بالمنهج الإسلامي حيث لم يزعزع مهما يكون الأحوال، وهكذا هي نقطة فاصلة بين التجارب التربوية، ويتميز بها عمق التربية الروحية الإسلامية والتي لا تعرف إلا الخير واسعاد البشرية.

المطلب الثاني: نماذج عن خصوم معاندي الدعوة الإسلامية في الفترة المدنية

إن الدعوة الناجحة لقائمة على مدى التركيز بحال المدعوين موافقين كانوا أو مخالفين، وبالتالي يركز الدعاة على فئة المخلصين منهم فينمي فيهم الخصال والمواهب المساعدة لسير الدعوة، وفي المقابل يتنبه لمكائد الأعداء والتي تعيق وتعرقل هذه المسيرة المباركة، ومن ثم يقفون على الخطط اللئيمة التي يتربصونها أولئك، وتلك ميزة عرفت بالفراصة والتي طالما ينتظر من الدعاة التحلي بها، وهكذا التطلع ومعرفة هذا الجانب تجنب الدعاة من المخاطر قبل وقوعها ويجعلهم حتى يكون على أهب الاستعداد وأن يرد كيدهم على نحورهم.

(١) انظر: العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط٦، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، ص ٣٩٩.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٠٤.

(٣) انظر: الشامي، صالح أحمد، من معين السيرة، ص ٢٨٣.

ونظرا لأهمية هذا الجانب احتفلت السيرة النبوية المطهرة ﷺ بالمواد الخصبة في هذا المجال، وقد عرفت كتب السيرة على بيان أصناف ومدى خصومة المعاندين وكيفية تعامل النبي ﷺ معها، ولقد كان للعلامة الدكتور البوطي رحمه الله آراء وتعليقات مفيدة في هذا الجانب، وسوف نركز على نموذجين منها كالآتي:

١- اليهود وحقدهم على الإسلام: لقد عرف اليهود بين المجتمعات البشرية بامتلاك الصفات والخصائص التي يميزها عن باقي الأمم، وقد توارثوا ذلك جيلا بعد جيل محافظين عليها في أعراقهم ومنتقلين بها إلى أخلاقهم، وجل هذه السمات صفات ارهايية وإجرامية نتجت عن شعور السيادة والأنانية والتفضل على الآخرين، وبالتالي حسبوا أولئك كل دعوة وحضارة إلى جنبهم وإن كانت إلهية المتمثلة في رسالات الأنبياء صيحة وقضاء عليهم؛ فلجأوا بالعداوة والحقد والحسد تجاهها. وهكذا سوف يلمس المطلع على تاريخهم الطويل مدى هذه الظاهرة مستمرة منذ نشأتهم إلى الآن، فاضطروا الأمم بأن يعاملهم بأقصى التعامل من القتل والتشريد والإضطهاد إلا ما عاملهم الحضارة الإسلامية المتمثلة في دولة النبي ﷺ وما بعدها في زمن الخلفاء والسلاطين عبر العصور، والتي قامت على أساس من العدل والسماحة وحب الخير لهم وحسن الجوار؛ بيد أن أولئك لم يقلعوا عن افسادهم واجرامهم فلاقوا التنكيل والتنافر... وقد اكتسبوا هؤلاء كل هذا الخبث واللثام نتيجة بعدهم عن الشريعة السمحة وكذلك سوء الأدب تجاه الرسل وكلمة الله فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف والتشريد إلى جنب تنافر الشعوب عنهم وكذلك نظر الحذر والبعد عنهم أيا كانوا.

وقد تجلت هذه الظواهر مما سبق في قراءة السيرة النبوية وخاصة في المرحلة المدنية منها حيث كانوا هؤلاء مجاورين للدولة الإسلامية الفتية، وقد مد النبي ﷺ بادي قدومه إلى يثرب يد المساهمة معهم وأبدى حسن نيته على التعاون بالبر والتقوى وكذلك مكافحة الظلم والعدوان عنهم، وأبرم في ذلك معاهدة تاريخية فريدة اعترف بوجودهم كجزء أساسي للمجتمع، لهم حقوق وحريات يمارسون فيها شعائرهم وتجارتههم وكذلك شؤون مجتمعهم بكل حرية، وألزم المسلمين بالدفاع عنهم إذ هوجم عليهم، ولكن القوم لجأوا إلى خستهم ولثامهم فواجهوا الخير بالشر والصداقة بالعداوة والفضيلة بالرزيلة، بل تجاوزوا آخر الأمر الحدود النفسية فلجأوا للعداوة والخصومة الفعلية وتحالفوا مع أعداء الدولة الإسلامية حتى أجلاهم النبي ﷺ من المدينة الطيبة وطهر هذه الديار من خبثهم ورجسهم. وخير نموذج من فعالهم ما فعله بنو نضير في السنة الرابعة من الهجرة فيقول عنهم ابن هشام قائلا: لقد خرج الرسول ﷺ إلى جماعة بني نضير في يوم من الأيام يستعين منهم دية قتيلين من بني عامر الذين قتلوا عمرو بن أمية الضمري، وذلك بحكم الجوار والعقد الذي أبرم قبلا، فلما وصل النبي عليه الصلاة والسلام إليهم وكلمهم بالأمر قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه.

ولكن القوم خلا بعضهم بالبعض غدرا وقالوا: لن نستطيعوا أن تملكوا الرجل بمثل هذه الحالة، وهي أفضل الفرص للتخلص منه، وقد كان النبي ﷺ جالسا لأحد جدران مع صفوة أصحابه أبوبكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، فعزموا أن يصعد عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ويلقى صخرة عليهم، وفي تلك الأثناء جاء خبر السماء إلى النبي ﷺ

بإرادة القوم، وبأثرها خرجوا مسرعين إلى المدينة، فاجتمع النبي ﷺ على إثره مع أصحابه، وحاصر القوم بفعلهم جراً ما غدروا حتى أن الرسول ﷺ قطعوا نخيلهم المحاطة بهم حتى ألقى الله الرعب في قلوبهم، وخرجوا آخر الأمر من ديارهم إلى خيبر، وطهر بذلك المدينة من خبثهم بعد ما أجلوا بني قينقاع قبلها بستين، وصارت مثلاً لجزاء الغدر^(١).

وعن الدرس والعظة المستفادة من الواقعة وغيرها يقول البوطي رحمه الله: هذه هي الواقعة الثانية والجلية من طبيعة وغدر ومكر نفوس اليهود في تاريخ المدينة، وليست هذه وقائع أولية وبدائية لجأوا إليها هؤلاء، بل هي استمرار ومسلل لتلك الطبيعة الخبيثة التي لجأوا إليها على مدار التاريخ ولها مصاديق لا تعد ولا تحصى، وبسببها استحقوا أولئك اللعنة الإلهية جراً ما اكتسبوا ولجأوا إليها، وعنهم قال تعالى موصفاً على لسان أنبياءه فيقول: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (المائدة: ٧٨).

وتدل هذه الواقعة وغيرها كذلك على مدى ما يكمنه أولئك عن حقد وغيظ وغدر تجاه المسلمين، وتلك هي صفة أساسية لهم احتفظوها على مدى القرون.

ظهر لهم أول لجوء علني للشر بعد وقعة غزوة بدر الكبرى حيث كان النصر حليف للمسلمين لأول مرة، وبذلك ضاقت صدورهم ولم يتمالكوا أنفسهم غيظاً مما ناله المسلمون، وهكذا لم يكن المسلمين هم المبتدئين عليهم ولكنهم لجأوا إلى الشر وواجهوا آخر الأمر منقلبهم^(٢).

ومن الملاحظ أن شر اليهود لم يقتصر على فترة الرسالة المحمدية بل صار السجية الثابتة لهم في كل العصور والبيئات، وما من شر وسوء يواجه البشرية إلا ولليهود فيه دور، وعن هذا يقول متخصصوا الأديان: عرف عن اليهود أنهم دوماً يثبون روح الثورة على البشرية، ولأجلها ينشئون الجمعيات السرية ويؤسسون حركات هدامة، وفي ذلك يقول الكاتب برنارد لازار^(٣): اليهود بطبيعتهم يضرمون روح الثورة وداعية لهم سواء شعروا بذلك أو لم يشعروا، وبذلك نرى على مدار التاريخ نسبة أكثر الحركات الهدامة السرية باليهودية، وتظهر عليهم بلا شك أثر التعاليم اليهودية الفلسفية... وبالنتيجة: إن عاش اليهود وجدت هناك الإثارات سواء كان في الشرق أم في الغرب^(٤).

ومما سبق يتبين أن اليهود جماعة أو طائفة شريرة على مدار التاريخ وأصبح الخبث ومس الضر للرسالة الإلهية والبشرية سجية ثابتة لا تنفك عنهم، وأساس ذلك أنهم يبعدهم عن الرسائل السماوية وكذلك سوء أدبهم استحقوا

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ١٥٩-١٦٠.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٨٥ و ٢٠٧.

(٣) برنارد لازار (١٨٦٥م - ١٩٠٣م): ناقد أدبي يهودي فرنسي، صحفي سياسي، متشدد وفوضوي. ومن أهم كتبه: "الاسلامية، تاريخها وأسبابها". انظر: ويكيديا الموسوعة الحرة.

(٤) انظر: شلبي، أحمد، اليهودية (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٨، ١٩٨٨م)، ص ٢٨.

لعنة الله والناس أجمعين ، وقد طردوا من رحمة الله فاستحوذ عليهم الشيطان في نفوسهم وبدأوا يمارسون الضر للغير ، وهكذا من أكبر أفاتهم أنهم يلجأون إلى الأنانية والتفضل على الآخرين ، وبذلك أفسدوا على أنفسهم وعلى الغير الحياة السعيدة .

٢- خطر المنافقين في المجتمع الإسلامي وكيفية التعامل معهم: من أشد أنواع الخصومة التي يعترئها الدعوة والحركة الإسلامية في كل العصور هي ذاك الجرثومة التي تختفي أمرها عن الدعاة في أكثر الأحيان ، ومن ثم تظهر فجأة فتثير بين المدعوين الريب ويحض بالفتن واذاعة الخوف والخطر ، فيفسدون بذلك على الناس صفوهم وترابطهم ، وهكذا خطر أولئك على الجماعة المسلمة أكثر بكثير من الأعداء الظاهرين والتي طالما يواجه جحافل الدعاة علنا ، وبالتالي فيعدوه لها بالعدة اللازمة لمواجهةهم وسد هجومهم ... وأما هؤلاء فهم بمثابة الجرثومة الخبيثة التي تختفي في الجسم وما أن وجد وهنا وضعفا إلا وهاجم عليهم فيصيبهم من المس والضر من حيث لا يحتسبون . وخطورة هذه الظاهرة ومنتسبها في تسترها وخفاءها ، ولا يتطلع عليها إلا أصحاب البصيرة والنظرة الشاحذة حيث يدركونها بالفراصة ، ولكن من جانب آخر تحرم الشريعة السامية الأخذ والنيل بهؤلاء سدا للذريعة حتى لا يتيح الفرص لأصحاب الأغراض السيئة للشر والضر على المسلمين في مجتمعاتهم ، وبالتالي تحكم الشريعة الإسلامية بالظواهر ويتولى الله عزوجل السرائر ، وهو علام الغيوب ويعلم ما تخفي صدور الناس ، ولكن مع ذلك بين القرآن الكريم في ثنايا صوره وآياته شمائل هؤلاء بتفصيل كافي حتى يتنبه المسلمون على مدار الأزمان لمخاطرهم ويتقي بقدر المستطاع عن ضرورهم التي تهدف بنيات التحية للمجتمعات الإسلامية .

ونظرا لأهمية هذا الجانب وقف أصحاب السنن والسير في الفترة المدنية من حياته ﷺ على ملامح هؤلاء وهي الفترة التي ظهرت فيها هؤلاء ، وذكروا بالمشاهد والمواقف المتواترة والتي تكشف زيف هؤلاء وخبثهم وعداءهم تجاه المسلمين .

وهكذا أيد القرآن الكريم معه تصريحاً وتلميحا بيان خبثهم ولثامه وأزاح الستار عن هؤلاء كدستور ثابت للمسلمين إلى قيام الساعة حتى يكون حاذرين منهم ويأخذوا الحيطة قبل ترصدتهم .

ومن اظهر تلك المواقف كانت في غزوة تبوك السنة التاسعة من الهجرة حيث أمر النبي ﷺ للتأهب لملاقاة الروم ، وكان في وقت حر وعسر ، وقد كشف الامتثال لهذه الأوامر وعدمه مدى الإيمان الصادق وتمحص صف المنافقين علنا فأفضح الله عزوجل عن معاذريهم وأقاويلهم في آيات من القرآن الكريم .

فقد روى ابن هشام في سيرته أن رسول الله ﷺ قال لأحد زعماء بني سلمة ، وكان يسمى جد بن قيس ، يا جد ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر (وهم الروم) ، فقال الرجل : يا رسول الله ! أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني ، وإنني أخشي أن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض النبي

عليه الصلاة والسلام عنه وأذن له، وفيه نزلت الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِرْنِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٤٩).

وعمد طائفة منهم نحو الآخر قائلين: لا تنفروا في الحر، وكان ذلك نفورا عن الجهاد واشكاكا في كلمة الحق وخذلان النبي ﷺ، فأنزل الله فيهم قوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨١) (١).

وعن الدرس والعظة المستفادة يقول العلامة البوطي رحمه الله: إن الحديث عن غزوة تبوك حظيت بالمقام الأكبر في آيات كتاب الله عزوجل من بين سائر الغزوات، وهكذا يرى القارئ في ثنايا سورة التوبة أهمية الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله عزوجل، وهو بذلك دليل وعلامة على صدق إسلام المؤمن، وقد ميز الله سبحانه صف المؤمنين عن المنافقين بها، وهكذا عرف الآية المسلمين بخصالهم أنهم لا يركنون للدعة والراحة ويتحملون الشدائد والعذاب في سبيل دينه.

وقد فضح الله كذلك أمر النفاق وخطورة هؤلاء على المجتمع الإسلامي في كل عصر، وأوضح للناس إن الإسلام ليس مجرد انتساب قولِي فحسب بل يحتاج من المرء أن يصدق فعله الجهاد ويتحمل الأذى والمحن، وقد جعل المحنة سنة لتمييز صفوف المؤمنين عن المنافقين أيا كان، والآيات الكريمة السابقة ذكرها دليل على هذا الدعوى. وأما عن مدى خطورة وجود ذلك على الدعوة والمجتمع الإسلامي فقد بين في تسلسل هذه الآيات، وهي في جملتها توشي للمسلمين أن يكون محذرين من أولئك، وأن ما يصيبهم من النكبات والمصائب فكلها ينتج عن هؤلاء، وبالتالي يجب على المسلمين أن لا يياسوا بخذلانهم ولا يضع للضعف والوهن مكانا بتفرقهم؛ بل جعل الله انفصالهم راحة وخيرا للمؤمنين، وعنهم قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ٤٧).

وأما عن بيان خطورة هؤلاء على المجتمع الإسلامي فيمكن أنهم لجأوا للحرب على الإسلام باسمه ويتلاعبون بأحكام هذا الدين باسم الإصلاح والمرونة، ومن ثم يجدون لأنفسهم معاذير وسبلا لتحقيق أمنياتهم (٢). ويتضح من الفقرة السابقة أن الله تعالى اطلع المؤمنين في آخر عهد من حياة نبيه ﷺ المنافقين بأوصافهم وشمائلهم ومدى نفورهم عن الدين، وأوضح لهم أن أكبر صفة لهم هي التقاعس والخذلان عن نصره الدين والإسلام، وعلمهم كذلك أن التمحيص سبب لتصفية صف المسلمين عن العكر الذي يعوق المسلمين في مسيرتهم، وبالتالي الخلاص والصفاء عامل من عوامل النجاح.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٢٣.

وأما عن كيفية تعامل الدعاة مع المنافقين فقد بينت السيرة النبوية المسار الصحيح في ذلك، وجملتها كما يقول البوطي: إن هذا التعامل مبني على قاعدة التعامل بالظاهر وتفويض أمر السرائر إلى الله وحده؛ وعلى هذا يعامل المنافقون كما هو الثابت في السنة النبوية على أنهم مسلمون، وبالتالي لن ينهي الدولة ذمتهم، ولا يعامل معاملة المشرك أو المرتد، وأساس ذلك أن أحكام الإسلام في مجموعها ترتبط بجانيين:

الف- جانب يطبق في الدنيا وعلى المسلمين الالتزام بتطبيق الأحكام، ويشرف على سير هذه الأحوال الدولة، وعلى رأسها خليفة المسلمين.

ب- الجانب الآخروي ومرد ذلك يعود إلى الله تعالى في الحياة الآخوية.

وفي الجانب الأول فالحكم بجملتها ترتبط بالأدلة القضائية المحسوسة، وليست للأدلة الوجدانية والقرائن والاستنتاجات، وإن علم دخل بها؛ ودليل ذلك أن هذا الأمر تضمن تطبيق العدالة دائما بين الناس وتجعل الأمور في مأمن من التلاعب وسد ذريعة للأضرار بالآخرين والتي طالما ينتقض من قبل الناس^(١).

ومن هنا يقول الباحثون: إن التتبع في السيرة والسنة النبوية لدالة على قيام أمر الإسلام بالظواهر، وبالتالي لا يمكن للناس أن يحكم بالباطن أو السرائر، والتي لا يطلع عليها إلا الله وحده، وبهذا يعامل المنافق في المجتمع الإسلامي بأنه مسلم لما يظهر من إسلامه وإن كفره.

ولقد انكشف للرسول ﷺ أمر كثير من المنافقين بالوحي الإلهي ولكن الله أمره بالإعراض عن هؤلاء بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ٨١)، ولعل حكمة عدم اسراع النبي ﷺ بقتل هؤلاء ولا ردعهم بالجزاء كما ثبت في الصحيح قول النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه حينما قال للرسول ﷺ بقتل ابن أبي: (دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)^(٢).

وفي جملة هذا دليل على أن على الحاكم أن لا يقضي إلا بظواهر الأدلة، والسرائر والبواطن يتركها لله سبحانه وتعالى^(٣).

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٨٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (المنافقون: ٦)، رقم الحديث: ٤٩٠٥.

(٣) انظر: غازي، محمد جميل، من مفردات القرآن - المنافقون - (جدة، مكتبة المدني ومطبعها، ب ت ط)، ص ٢١.

الباب الثالث

فقه الوسائل والأساليب الدعوية في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي

تتضمن هذا الباب على ثلاثة فصول

١- الفصل الأول: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المكي

٢- الفصل الثاني: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المكي

٣- الفصل الثالث: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي

والبوطي في ميزان الدعوة

الباب الثالث

فقه الوسائل والأساليب الدعوية في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي

توطئة: الدعوة الإسلامية هي هدف وغاية عليا وضعها الله عز وجل على عاتق الأمة المحمدية؛ بناء على التكامل والخيرية التي منحت لهم، وهي بجملتها تعاليم الأنبياء في الرسالات السماوية السابقة حيث بشر بها في تعاليمه، وأيده هذا الرسول في شرائعه، وبالتالي هي تجربة ثرية مترابطة ومنهج كامل للإنسانية فيما يصلح دنياهم وآخرهم، ولها من القابلية لاشتمالها لكل الأزمنة والأمكنة والبيئات... وهذا يستغنيهم بأن يلمسوا غيرها من السبل والمناهج. وعن هذا يقول الباحثون: لقد جعل الله أمر الدعوة وتبليغ الدين هدفا ساميا لتحقيق السعادة ونشر السلام، ومن ثم طلبت هذه المهمة من معتققيها أن يخلصوا فيها ويوائم ظاهريهم مع باطنيهم، حتى تتسم كل منهم بقوة إلهية، وينالوا بها السعادة العاجلة والآجلة ويزدهر في حياتهم على إثرها السلام والأمن المنشود.

ولما كانت الدعوة هي الهدف والغاية على مدار الرسالات فمن حكمة الله أن وضع لتحقيق هذه وسائل محققة، ومن ثم بينه في ثنايا كتابه العزيز وكذلك على لسان وفعل نبيه الكريم ﷺ وسيرة أعمال الصدر الأول^(١). ويتبين من الفقرة السابقة أن الدعوة هي هدف الحياة للمسلمين وغاية قصوى على المعمورة لتحقيق كلمة الله واسعاد الإنسانية، واحتاج الوصول إلى هذا المبتغى اتخاذ وسائل وأساليب مشروعة وممكنة وذلك لأن الشريعة تأمرنا بأن هذا الأمر مثل غايتها مشروعة ومترابطة معها، وهكذا فشل أكثر الدعوات والرسالات تكمن بعدم الموازنة بين هذين الأصلين المترابطين.

ونظرا لأهمية هذا الجانب اهتم فقهاء الدعوة الإسلامية بهذا المجال وعدوه ركنا متكاملا لباقي الأركان الثلاثة، وسموه بفقه الوسائل والأساليب الدعوية، ويحسن بنا أن نتطرق إلى تعريفهما: تكون العنوان كعلم من جزئين: الوسائل والأساليب وهي بجملتها جزءان منفصلان مترابطان حيث تكمل إحداهما الأخرى، وبالتالي قبل أن نتطرق إلى تعريف جامع بينهما نبين هذين الجزئين منفصلين. **ألف- الأساليب:** جمع أسلوب وترد في اللغة بمعنى الطريق والمذهب، فيقال: سلك أسلوب فلان في كذا، أي تتبعته طريقته في الكتاب ونحوه^(٢).

وأما مصطلح أساليب الدعوة فكما يقول البيانوني^(٣): فهي طريق الداعي في دعوته، أو كفاءات تطبيق مناهج الدعوة^(٤).

(١) انظر: غلوش، أحمد أحمد، الدعوة الإسلامية- أصولها ووسائلها، ص ٢٧٣.

(٢) المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٤١.

(٣) محمد أبو الفتح البيانوني: عالم وكاتب سوري كبير، ولد عام ١٩٤٠م في مدينة حلب في أسرة علمية ودعوية وتربوية، تخرج عام ١٩٧١م من كلية الشريعة بجامعة الأزهر. ثم عمل كأستاذ مشارك في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وكذلك في جامعة الكويت. وله إسهامات بالغة في علم الدعوة الإسلامية. انظر: ويكيديا الموسوعة الميسرة.

(٤) انظر: البيانوني، محمد أبو الفتح، المدخل إلى علم الدعوة، ص ٤٧.

وقد عرفه الزرقاني: العلم الذي يتصل بكيفية الدعوة وإزالة العوائق عنه، وهذا يعني أنه طريقة سلوك الداعية في مهمته من تأليف الكلام وحسن اختيار الألفاظ وتأدية المعاني والمقاصد من كلامه^(١).

ويستدرك من التعريفين السابقين أن الأساليب هي غالباً يقصد بها الفنون والطرق والمناهج الكلامية التي يتطرق إليها الداعي في بيان مقصوده لتأدية المعاني والوصول إلى المقاصد التي يبتغي الوصول إليها.

ب- الوسائل: جمع وسيلة، وهو ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به سواء كانت حسية أو معنوية^(٢).

وأما الوسائل الدعوية: "فهي ما يتوصل به الدعاة إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور مادية أو معنوية"^(٣).

وعرفها البعض هي ما يستعين به الدعاة إلى الله على تبليغ الدعوة من أشياء وأمور^(٤).

ويتضح مما سبق أن الوسائل هي الأشياء والأدوات المساعدة لتوصيل المطلوب، وغالباً ما تكون حسية.

ويمكن بعد ايضاح هذين المصطلحين أن نعرف فقه الوسائل والأساليب الدعوية، وهي عبارة عن: اختيار المناهج

والفنون الكلامية الجميلة، وكذلك أخذ الأدوات الحسية والمعنوية المشروعة لتوصيل رسالة الإسلام بأقصر جهد

وامكانية بغية اسعاد الناس واتقاءهم من الشر.

وبهذا سوف نقف على أهم الوسائل والأساليب النبوية في الفترتين المكية والمدنية في فصول آتية:

الفصل الأول: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المكي

الوسائل والأساليب هي الأدوات والفنون المساعدة لتوصيل غاية الدعوة، ويلزم الأخذ بها لتوصيل رسالة الإسلام،

وبالتالي لا يمكن لحاملها الإستغناء عنها، ولكن يناط استعمالها بأن تكون مثل غاياتها مشروعة وتحزوا من الأهمية

مثل الأهداف، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً بحيث يعرف ويكمل البعض بالآخر.

ولقد كانت الفترة المكية من سيرته ﷺ كبدية للرسالة الخاتمة احتاجت اجتيازها إلى الأخذ بالوسائل والأساليب

المناسبة طبقاً لامكانيات المسلمين وكذلك لانجاح هذه المهمة الإلهية، وبهذا تعد بمجموعها زادا دعوياً في كل

العصور حسب ظروفهم وبيئتهم، وللأعلام الثلاثة رحمهم الله إفادات مفيدة حولها وذلك من خلال التطلع على

السيرة النبوية المطهرة، وسوف نبينه في مباحث ثلاثة مستقلة:

المبحث الأول: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى مودودي

الوسائل والأساليب هي الوجه الآخر للغايات والتي توصل من خلالها إلى المطلوب، وتختلف بطبيعة الحال حسب

موضوع الدعوة والمدعوين والبيئة، وهكذا مدى كمال ونجاح الداعية تتعلق باختيار أحسنها وأنسبها، وذلك حتى

يتمكن بأقصر جهد وتكلفة أن يتحقق مكاسب عظيمة.

(١) انظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، ب ت ط)، ج ٢، ص ٣٠٣.

(٢) المعجم الوسيط، ص ١٠٣٢.

(٣) انظر: البنانوني، محمد أبو الفتح، المدخل إلى علم الدعوة، ص ٤٩.

(٤) انظر: القحطاني، سعيد بن علي بن وهف، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى (الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط ٤، ١٤٢٥هـ)، ص ١٢٦.

ولقد كان ﷺ مثلاً وقدوة للدعاة فيها، فكان يأخذ بأبسطها وأبلغها، والفترة المكية خير دليل على ذلك، ونظراً لأهميتها نقف على نماذج هذين المجالين كالآتي:

المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية

الدعوة إلى الله هي تلك المسيرة الروحانية التي يسلكها الدعاة بغية الوصول إلى رضا الله عز وجل، وذلك لمهمة ترشيد الناس وإصلاحهم على طبق المنهج الذي رسمه الله لعباده وبينه رسوله الكريم ﷺ في سنته، ولكن هذه المسيرة تحتاج إلى زاد وأدوات يستعين بها في مواصلته.

وطبيعة هذه الأدوات تختلف عن البعض، فبعضها تكون ملزمة إذ لا يمكن من دونها السير، وجزء منها تكمل الطريق، والآخر يحسن ويساعد السائرين إلى مبتغاهم، ولهذا نجد في الفترة المكية من حياته ﷺ نماذج رفيعة منها، ونبينه في عناوين تالية:

١- أهمية اختيار المركز ومكان الاجتماع في الدعوة الإسلامية: الزمن والمكان هما الظرفان الأساسيان في الحياة الإنسانية، ولولاهما لما كانت للحياة انطلاقة، وبالتالي يحتاج إليهما الإنسان في مسيرة أعماله، ومن الأعمال التي تنوط بهما مهمة الدعوة إلى الله عز وجل.

وهذه المهمة وإن اختلفت أجزائها عن باقي الأعمال الإنسانية إلا أن للمكان واختيار المركز دور بارز في استقراره وقطف ثماره؛ وعلى هذا فالمرکز الدعوي هو المستقر الذي يأوي إليه الدعاة لتخطيط المهام، وخاصة في الهيئة الاجتماعية منها حيث يتيح لهم فرص التشاور واللقاءات وكذلك التدريب والإعداد النفسي تحت إشراف القائد حتى يمارسوا أعمالهم على الوجه المطلوب.

ولقد كانت السيرة الدعوية للنبي ﷺ نموذج بارز في هذا الجانب، فقد اتخذ في كلا مراحل رسالته مركزاً لترشيد أعمال الدعوة، وكان يباشر في كل منهما إشرافه بنفسه؛ وقد ذكر أهل السير في آثارهم أن أول مركز أنشأه النبي ﷺ لمهمة الدعوة كانت في مكة المكرمة أوان بداية رسالته حيث اشتهر في تاريخ الإسلام باسم دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وهذا المركز كما يقول المؤرخون وعلماء الآثار كان ملكاً لصحابي جليل ومن السابقين في الإسلام الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وتقع عند الصفا ويفصلها عن المسجد الحرام آنذاك طريق عرضها مائة وأثنا عشرة ذراعاً ونصف. وأما عن أهميته فقد كان البيت مسجداً للمسلمين يؤدون فيه صلاتهم، ويواري فيه الرسول ﷺ من شر المشركين، ويجتمع هو مع أصحابه لقراءة القرآن وتعليم الدين، وأشهر من أسلم فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١).

وهكذا اشتهر المكان في التاريخ باسم "دار الإسلام" بمثابة أنه أول حصن ومعقل للقواد العظام والمركز السري للمسلمين، وسمي كذلك بالمختبأ، لأن الرسول ﷺ وصحابته كانوا يتوارون عن شر المشركين في المرحلة المكية،

(١) انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد المكي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، المحقق: رشدي الصالح ملحق (بيروت، دار الأندلس للنشر، ب ت ط)، ج ٢، ص ٢٦٠.

وسمي فيما بعد بـ (دار الخيزران) نسبة إلى الخيزران زوجة الخليفة العباسي المهدي حيث اشتراه من آل أبناء الأرقم وأهداها له بناء على أهميتها التاريخية، وسمي أيضا بـ (دار الأربعين) أيضا وذلك لأن عدد من كان يجتمع فيه يبلغون أربعين صحابيا^(١).

وأما عن دور هذا الدار وأهميته التاريخية فينقل المودودي رحمه الله قول أهل السير حول هذا الدار وأهميته: لقد بدأ النبي ﷺ دعوته سرا وأمر المسلمين بأن يعرضوا عن المشركين ويبقى على تسترهم، وقد كان المسلمون امتثالا لأمره يصلون في الشعاب بعيدا عن أعين القوم، ولكن في يوم من الأيام كما يروي ابن اسحاق كان أحد من المشركين يتجسس عليهم، وبالتالي ناکرهم وعابهم في دينهم؛ فلما رأى سعد بن أبي وقاص صنيعه ضربه بعظم من البعير حتى شجبه، وكان أول دم يهرق في سبيل الله^(٢).

وقد كان اسم الرجل المتجسس هو عبد الله بن خطل، وقد اضطر النبي ﷺ من بعده أن يأخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم معقلا للمسلمين، وظل في الفترة السرية ومن بعده في جهاز الدعوة إلى محاصرة شعب أبي طالب مركزا عاما للدعوة الإسلامية حيث كان يجتمع بالمسلمين فيه.

ولقد حظي هذا المقام في تاريخ الدعوة الإسلامية من الأهمية بما لم تكسبها أي مكان غيره، وذلك لأنه كان المأوى للمسلمين يستتر فيه من شر وضر القوم، وإلى جانبه كانوا يعبدون الله فيه، وهكذا ظل النبي ﷺ يمارس فيه عمل التربية والتعليم لأصحابه.

ومن أهم هذه المبادئ تلقين الصبر والاستقامة، وحينما كان ينزل آيات من القرآن الكريم يسارع إليه ويعلمهم؛ وبهذا سار المركز مقرا للوافدين حيث يعلنون الإسلام منه، ومن أشهر من أعلن الإسلام فيه عمر الفاروق رضي الله عنه حيث اعتر الإسلام بإيمانه^(٣).

ويتأسف المودودي أخيرا بهدم هذا المكان التاريخي والذي أزيل لأجل توسعة الحرم المكي الشريف، ويقول: "يأليت تحفظ هذا المكان التاريخي لأجل إحياء ذكرى الدعوة الإسلامية ويبقى تذكارا عن هذه المرحلة الثرية في تاريخ الإسلام"^(٤).

ويتضح مما سبق أن اتخاذ المعقل والمركز وسيلة ناجحة للأعمال الدعوية، فمنه يستطيع الدعاة أن يمارسوا مهماتهم وأعمالهم من المشورة والتخطيط والتقويم، وكما يطيح لهم أن يجتمعوا بمن يثقون بهم سرا بعيدا عن أعين الشرور والضارين، ومن ثم يقنعهم بالأدلة والبراهين، وهكذا اتخذ ذلك سبب لتخفيف وطأة المعاندين الذين يحاربون الدعوة علنا، والأهم من ذلك كله أن الدعاة والممارسين لهذه المهمة الجليلة بحاجة ماسة إلى التربية والترشيد

(١) انظر: الحارثي، ناصر بن علي، دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة المكرمة - دراسة تاريخية حضارية، (الرياض، دار الملك عبد العزيز، مجلة الدارة، رجب ١٤٢٦هـ)، ص ٤١-٤٤.

(٢) انظر: ابن اسحاق، محمد، سيرة ابن إسحاق، ج ١، ص ١٤٤.

(٣) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ١٥٤.

(٤) المودودي، السيد أبو الأعلى، رحلة أرض القرآن (سفرنامه أرض القرآن)، ص ١١٣.

المستمر المباشر من قائدهم الدعوي حتى ينمي فيهم الموهبة والملكة، ويصلح فيهم ما كان بحاجة إلى التعديل والإصلاح.

٢- البيعة ومكانتها في نجاح الدعوة الإسلامية: لقد ارتبطت كلمة الدعوة في الإسلام على الترابط بين الدعاة والمدعويين، ومهما تكون هذه الصلة قوية ومترابطة فتكون نتائجها محققة وتأثيراتها ملموسة في حياة المجتمع الدعوي والذي طالما ينتظره الدعاة من مهمتهم وأعمالهم، وسيصبحون فئة المدعويين جنودا مخلصين مطوعين سائرين في موكب الدعوة رافعين أعلامها، ويزودون دونها بالنفس والمال والأهل.

وعلى هذا تعد البيعة والعهد هي الصورة المثالية لهذا الترابط ووسيلة مؤثرة لنجاح الدعوة، وقد تتبنى هذه الوسيلة على أساس الصفة والتعاقد بين الدعاة والمدعويين؛ فيتعهد الطرف الأول بإرشاد أولئك نحو الخير والنصح والعمل بالكتاب وسنة رسوله ﷺ، والطرف الثاني بالتزام للسمع والطاعة والنصرة؛ وبالتالي مهما يكون هذا العهد موثوقا تكون ثمارها يانعة ومحقة.

ولسوف يلمس المتطلع على السيرة النبوية المطهرة على مدى استعمال هذه الوسيلة من قبل الرسول ﷺ في دعوته، وكانت ذلك في أواخر المرحلة المكية وذلك بعد ما تربت نفوس المسلمين وأخذت أشواطاً في النضج والتقدم من تربية قائدهم الدعوي ﷺ، وهكذا تقدم فئة الأنصار إليها بناء على حساب الفطرة السليمة والتسابق إلى كلمة الإسلام حيثما أدركوا حقيقتها... وبهذا وجد قائد المسيرة الالتزام والوفاء بهذا العهد منهم فهاجر هو وأصحابه نحوهم وأسس دولة ومجتمعاً دعوياً يسودها خصائص الدعوة، وأصبح نموذجاً مثالياً للدعاة على مدار الأزمان وحتى قيام الساعة، ويعد هذا العمل درساً وطريقاً للنجاح في مهمتهم.

ولقد ذهب أهل السير أن أول بيعة للمسلمين كانت في السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية حيث اشتهرت في التاريخ الإسلامي ببيعة العقبة الأولى ومن بعدها بيعة العقبة الثانية، وعنهما يقول ابن هشام: لما أراد الله عز وجل نصرته دينه ونبيه ألقى في قلب نبيه أن يخرج في موسم الحج ليلقى النفر والوافدين، فخرج في السنة الحادية عشرة ليعرض كعادته على قبائل العرب، فبينما هو عند العقبة عند منى لقي أشخاصاً من الخزرجيين، فعرض عليهم الإسلام، وما كلمهم حتى أثر كلام النبي ﷺ فيهم، وشرح الله صدورهم للإسلام، وهكذا انصرفوا إلى بلادهم وقد صدقوا وأمنوا بالرسول ﷺ.

ولما كان العام المقبل وفد إثني عشر رجلاً من الأنصار فإذا النبي عليه الصلاة والسلام يلتقي بهم في نفس المكان ويبين لهم الإسلام حتى آمنوا وبايعوا لأول مرة معه في تاريخ الإسلام على بيعة النساء لتشابه موضوعاتها ببيعة النساء أو انفتح مكة.

وعنها يقول عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب، وكانت البيعة على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بهتاناً نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلکم الجنة... وعلى إثرها بعث النبي ﷺ مصعب بن عمير وأمر أن يقرئهم القرآن كما

يعلمهم أحكام الدين ، وهكذا واصل مصعب مهمته في يثرب يدعو إلى الإسلام حتى أسلم جمع غفير من أهله ، ولما قدم الموسم في السنة الثالثة عشرة وفد أكثرهم للحج في ثلاثة وسبعين رجلا وإمرأتين ومن ثم واعدوا أن يلتقي برسول الله ﷺ في نفس المكان العقبة من أواسط أيام التشريق ، وهكذا خرج النبي ﷺ إليهم فكلّمهم وتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله ، ومن ثم مد لهم اليد للبيعة الثانية قائلا: أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، وعنهم مد البراء بن معرور يده ، ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق نبيا ، لنمنعك مما نمنع به أزرنا (النساء أو النفوس) ، فبايعنا يا رسول الله !^(١) .

وعن أهمية وتأثير تلك البيعة يقول السيد مودودي رحمه الله : لقد كانت هاتين البيعتين بمثابة ثورة عظيمة حيث هياها الله عز وجل لعباده ، وانتهر الرسول ﷺ منها مكاسب عظيمة ، وبالتالي لم يدعو أهل يثرب نبهم ﷺ كلاجئ يأوي إلى بلادهم بل دعاهم كنبى مرسل وقائد وأمير عليهم ، وهكذا دعوتهم للمسلمين لم يكن لمنح اللجوء للوافدين في بلد أجنبي بل كانت بمثابة تأسيس معسكر يجمع فيه شتات المسلمين وعلى إثرها تأسيس مجمع ودولة إسلامية ؛ فأصبح يثرب مدينة الإسلام .

وبناء على ما تقدم لم يكن اقتراح أولئك أمرا عاطفيا فحسب بل أولئك الرجال كانوا يدركون أن هذا العمل الخطير سيجر بلادهم إلى مقاطعة اقتصادية وحضارية وحتى حربية ، وقد تجلت هذه النتيجة في قول مندوبهم أمام رسول الله ﷺ ، وكان من ضمن أولئك قول أسعد بن زرارة حيث يقول : رويدا ! يا أهل يثرب ! إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه نبي ورسول الله ، وإن إخراجهم اليوم مناواة وتحدي للعرب كافة ، تعضكم السيوف وقتل خياركم ، فأما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجره على الله ، وما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله^(٢) .

وأما عن نتائج البيعة على مسيرة الدعوة الإسلامية فينظر الباحثون : إنها كانت بمثابة فتح الفتوح ، وكانت هذه أول حلقة من حلقات النصر ، والتي أتت على إثرها لمعسكر المسلمين ، وقد أنيطت كل هذه الانجازات على البيعة التي اكتملت عقدها بين رسول الله ﷺ وطلّاع الأنصار ، وقد كان يعرف هذا القائد أن هؤلاء أعرف الناس بعودهم ومواثيقهم ، وهم أسمح الناس بالوفاء تجاه ما عاهد عليه الله والرسول من التضحية وتقديم الغالي في سبيله من عرض الأرواح والدماء والأموال .

وقد كانت هذه البيعة عهد على الإيمان والنصرة والدفاع عن الحق ، وتحمل في طياته القوة التي تحارب القوة الزائلة ، وبالتالي برزت دورها في ميادين الحرب والقتال تجاه من يقف أمام الدعوة الإسلامية وتجاه كل عال مستكبر

(١) انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ٨٦-٨٩ .

(٢) انظر: المودودي ، السيد أبو الأعلى ، تفهيم القرآن ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ، وسيرت سرور عالم ، ج ٢ ، ص ٧٠٦ .

في الأرض ، وكانت كفاحا لتكون كلمة الله هي العليا ؛ وفي جملتها كانت صدقا وعدلا ونصرا واستشهادا وتبليغا لرسالة الإسلام^(١).

ويستنتج من خلال هذه التعليقات أن البيعة هي الوسيلة الناجحة والمؤثرة في الدعوة الإسلامية ؛ حيث ترتبط وتلتف المدعوين حول محور الدعاة ويتقدمون على إثرها كجنود مخلصين ومن ثم يضحون في سبيلها ولأجلها الأرواح والأهل والأموال ؛ وبالتالي لا يتقدم إلى بذل هذا الثمن الباهظ إلا من آمن بالدعوة إيمانا موثقا وجعل همه الدعوة ، وكان روحه ودمه على هذه المهمة ، وحينئذ لا يكون على الدعاة والقواد إلا التوجيه والإرشاد الكريم فيستقيمهم على المنهج ويسهل عليهم هذه المهمة ويخلفونه في أكثر الأحيان ويسعد الدعاة في آخرها ؛ فيرون ثمرة جهودهم وسعيهم في حياتهم وحتى بعد الممات .

٣- اختيار النقباء، وسيلة لتسهيل أمور الدعوة: اتسمت الدعوة الإسلامية بين الأعمال والتكاليف الشرعية بهيئتها الاجتماعية ، وذلك من خلال الترابط بين فئة الدعاة والمدعوين ، وبالتالي تحتاج هذه الصلة إلى قيادة وإدارة سليمة ، وكذلك توظيف كل العاملين بمهامهم ، واعتماد الرائد على أفرادهم وحثهم ورياضتهم على رسالتهم... ومن أهم هذه المبادئ والوسائل الناجحة في ذلك اختيار الأكفاء والمستعدين منهم على رؤوس عامة الأفراد وتوكيل كل أولئك بالنيابة عن روادهم ؛ بغية أن يدرب هؤلاء على اجراء الأمور وكذلك الإطلاع على ما يملكهم هؤلاء من التجدد والاكتشاف والتفوق التي طالما يلاحظ في أعمالهم .

وبالجملة استخدام وتوظيف هذه الوسيلة تسهل أمر الدعوة الإلهية ويدخر للرائد جهده ووسعه ، فبدل أن يبذل طاقته في عامة الأمور يصرفها في التوجيه والإرشاد ويصونه من التساؤم في هذه المسيرة الشاقة والطويلة .

ونظرا لأهميتها نجد في التاريخ المبكر للدعوة الإسلامية أي الفترة المكية مدى استعمالها من قبل النبي ﷺ ، وذلك في أثناء البيعة العقبة الثانية من السنة الثالثة عشرة للهجرة ، واستطاع الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام أن يكسب بها مكسبا عظيما ، ومن ثم وضع للناس أن هذه سنة الأنبياء القديمة في دعوتهم ، وبهذا أخرج ابن هشام في سيرته عن ثنانيا بيعة العقبة الثانية : أن رسول الله ﷺ بعد ما سمع من الأنصار عهدهم والتزامهم طلب من الأنصار : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم ، وقد أخرجوا بالفعل ، فكان ثلاثة من الأوس والباقي التسعة من الخزرجيين^(٢).

وعن تأثير هذه الوسيلة وأهميتها يقول المودودي رحمه الله : لقد لجأ النبي ﷺ إلى هذه الوسيلة في آخر البيعة ، وذلك لكي يكون هؤلاء الإثنا عشر مندوبين ومتكفلين عن قبائلهم ، وتلك كما تذكر الروايات سنة قديمة من الأنبياء تأسيسا بالسيد المسيح عليه السلام حيث اتخذ اثني عشرة حواريا من قومه على سائر الناس ، وهكذا اتخذ موسى عليه السلام من بين قومه اثنا عشر رجلا كنقباء منهم .

(١) انظر : عرجون ، محمد الصادق ابراهيم ، محمد رسول الله ﷺ (بيروت ، دار القلم ، ب ت ط) ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ٩٠ .

وقد عين ﷺ الصحابي الجليل أسعد بن زرارة رضي الله عنه نقيب النقباء، وجملة هؤلاء كان وجهاء وأشرافهم، وكانوا هم الموهوبين حيث كانوا يعلمون القراءة والكتابة^(١).

ويضيف الباحثون على ما سبق: إن عمل النبي ﷺ في اختيار النقباء على أهل يثرب دليل على سير الدعوة الإسلامية بواسطة أهلها، وقد لجأ إلى هذه الوسيلة بعد ما قوى شوكة الإسلام، وشعر بمدى صلاحية هؤلاء، وقد أراد بفعله أن يبعد عن كل هؤلاء الغربة في هذه المهمة ويجعلهم يقومون بأعمالهم بأنفسهم ويكون مستغنين عن الغير، ولهذا لم يرسل لهم هذه المرة شخصا جديدا معهم، وبالتالي صار هؤلاء أهل الإسلام وأنصاره وحماته^(٢). وبالجملة فاختيار النقباء والمندوبين بين فئة المدعوين من إحدى الوسائل المساعدة في انجاح عملية الدعوة، وذلك لأنها تبعث الأمل بين هؤلاء، وبالتالي يلجأون بإخلاص ومحبة ويدركون أنهم هم الطليعة الممتازة التي يحسب عليهم، ومن ثم يظهرون موهبتهم وتفوقهم في مسيرتهم، وكذلك تورث الاعتماد في عملية الدعوة والتي تعد مفتاحا للنجاح.

المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية المستفادة من الفترة المكية

الأساليب هي الجانب الآخر أو المتلازم للوسائل، وهما اللتان تقفان بجانب أحدهما الآخر بغية الوصول إلى الأهداف المعينة، وكما أن الدعاة في مهمتهم بحاجة إلى الوسائل والأدوات المادية والمعنوية فكذا عملهم منوط باتخاذ الأساليب والطرق المعينة، وهي على ذلك عبارة عن فن إدارة الوسائل المتاحة بغية الوصول إلى الأهداف المحددة. وبناء على ما تقدم نرى في أكثر الأحيان فشل بعض الدعاة في طريقهم وهو ناتج في مجموعها عن عدم الأخذ بالأساليب المؤثرة وكذلك عدم التوفيق بين الوسائل والأساليب... وهكذا نجاح المهمة تقام على مدى الترابط والتوفيق بين هاتين الجزئتين، وبالتالي قوة الوسائل بحاجة إلى حسن الأسلوب وكذا العكس. ونظرا لمكانة هذه القاعدة فقد اختار النبي ﷺ في دعوته بأحسن الأساليب وأجملها، وهي تعد زادا دعويا للدعاة في رسالتهم، وسوف نركز على نماذج منها كالآتي:

١- التركيز على الحكمة: من أهم الأساليب التي لجأ النبي ﷺ في دعوته ورسالته التركيز على الحكمة، وهي بذلك من إحدى المميزات الأساسية التي عرفت بها الرسالات الإلهية في مهمة الأنبياء عليهم السلام منفصلا عن تعليمات باقي الدعوات والتعليمات التي يأخذ بها الدعاة بعين الاعتبار بعيدا عن التفلسف والتخيل التي لا طائل وراءها. والحكمة في مجموعها وضع لكل من الأقوال والأفعال في موضعها الأنسب على أساس من العلم والمصلحة ومراعاة البيئة والظروف النفسية للدعاة ولحال المدعوين، وكذلك النظر إلى المآل والنتيجة المرجوة في ضوء امتلاك الوسائل المتاحة أمامه.

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٧٠٧.

(٢) انظر: خليل عماد الدين، دراسات في السيرة النبوية، ص ١٣٢.

وقد عرف الحكمة لفيف من العلماء القدامى والمعاصرين على أساس من النظر والتأويل في النصوص الدينية، وأحسن من تطرق إليها في القدامى ابن القيم رحمه الله حيث يقول: "فَالْحِكْمَةُ إِذَا: فِعْلٌ مَا يَنْبَغِي، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي"^(١).

وقد أضاف إليه القحطاني من المعاصرين وذلك بقوله أن الحكمة هي: "الإصابة في القول والعمل والإعتقاد، ووضع الشي في موضعه بإحكام وإتقان"^(٢).

ويستنتج من التعريفين السابقين أن الحكمة عامة هي إصابة المسلم في مهامه القولية والفعلية، واتباع الأوامر على الوجه المطلوب الذي ينتظر منه، ولما كانت الدعوة من إحدى مهامه الأساسية فعليه أن يلتزم بكمال الإتقان والدقة مراعيًا توحى المصلحة والوصول إلى الهدف بالطريقة المثلى التي ينبغي فعلها.

ونظرا لأهمية ما سبق فقد بدأ النبي ﷺ دعوته في الفترة المكية على أساس من الحكمة مخاطبا الناس إلى ما يهمهم بطريقة تجذب إليها القلوب والعقول، واختار لذلك الوسائل المناسبة مراعيًا فيها البيئة وظروف المدعوين وكذلك قوة وصلاحية جماعته حتى أثمرت دعوته ففتح الله عليه أفاق البلاد والأنفس؛ فدخلوا الناس أفواجا لدينه وتحقق نصر الله وفتحته.

ولسوف يرى الناظر أن قيام الدعوة على أساس الحكمة ليس أمرا تطوعيا أو تحسينيا فحسب بل هي من مستلزمات ووجائب هذه المهمة الإلهية، قد أمر به نبيه في الفترة البدائية من رسالته حيث يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)،

والآيات بدورها مكية النزول. وأما عن مفهوم الحكمة ومظاهرها في الدعوة فيقول عنها المفكر الإسلامي أبو الأعلى المودودي رحمه الله قائلا: إن المراد بالحكمة هي إيقاع الدعوة على أساس التعقل وبعيدا عن السفه الذي يلجأ إليه السفهاء، ومظاهر ذلك أن يراعي الدعاة فيها نفسية ومستوى المخاطبين مع الظروف والشرائط التي يملكها أولئك، فضلا عن مراعاة الوقت والمكان اللذان يحتضن كل منهم.

وعلى هذا لا يحرك العصا الواحد لجميع المدعوين بهيئة واحدة، بل يتطلب هذه المهمة أن تفحص في كل إنسان علته وضعفه على حدة فرديا ثم على إثرها يقدم لكل منهم دواء واندملا مناسبا ومزودا بدلائل وبراهين قوية تمكنه أن تقلع من قلوبهم وعقولهم جرثومة الفساد والمنكر الذي تسبب في علته.

ولسوف يدرك القارئ للسيرة النبوية ﷺ أمثلة ونماذج حية لتطبيق هذا الأسلوب في دعوته كل الحين وخاصة في بدايات دعوته من المرحلة المكية حيث كانت الرسالة والدعوة غريبة على الناس، وبالتالي كان ضروريا أن يتحلى بهذه المهمة، وعنهما يقول المودودي رحمه الله: لقد علم الله تعالى لرسوله ﷺ مع تعليم الرسالة حكمة التبليغ أيضا،

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج ٢، ص ٤٤٩

(٢) القحطاني، سعيد بن علي بن وهف، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، ص ٣٤.

وكان من مظاهره أن يبدأ مهمته بهيئة صغيرة ولم يعلنها بادي الأمر، وظل طيلة ثلاث سنوات يمارس دعوته سرا محدودا بين سعداء الأرواح والذين يصغون لكلمته، ويؤثر عليهم الأدلة والتفهيم والمذاكرة فيذعن على إثرها التوحيد ونبد الشرك والكفر، وإضافة إلى ذلك كانوا هم أصحاب سر يمكن الإعتماد عليهم؛ فلا يفشون من أمر الدعوة بين الملأ حتى يأذن الله بصدعها، وخير نموذج في ذلك أبوبكر الصديق رضي الله عنه حيث كان وفيما مخلصا لدعوته يمارس المهمة سرا كأنه منه أو له^(١).

ويستنبط من الفقرتين السابقتين أن الحكمة هي من أمثل الأساليب الدعوية التي يجب مراعاتها في الدعوة، وهي بدورها تفتح العقول المغلقة والأذان الصماء والعيون العمياء، وبالتالي لا يترك الداعي يسرف وقته فيما لا يعنيه، ويأتي للمدعويين بوسائل مناسبة لحالهم، ويخاطبهم بقدر مستويات عقولهم، ويعالجهم بحسب ما تقتضيه الأحوال، فضلا عن أنها تجعل أرباب الدعوة محبين في أعين الناس ومدخلين لقلوبهم من أوسع الأبواب.

٢- الموعظة الحسنة: الدعوة الإسلامية هي مخاطبة العقل والقلب وإثارة العواطف في النفس نحو الحق والخير والنفور عن الشر والرذيلة، وبهذا هي مهمة أساسية وضعت على عاتق الدعاة حتى تثير في الناس دفائن الفطرة والروح، ومن ثم اتجاهاها نحو القيم والمعالي وإزالة الغفلة والتكاسل التي طالما يعتر بهم في حياتهم.

ونظرا لأهميتها فقد احتلت هذا الجانب في دعوات الأنبياء والمرسلين مكانة مرموقة، وكانوا بدورهم يقومون بالوعظ والإرشاد والتوجيه عن طريق الترغيب والبشارة وبالمقابل التهيب والتنذير من عذاب الله الأليم في الدنيا والآخرة... ولكن تحتاج هذه المهمة من أصحابها أن يختاروا الأسلوب الأنسب والموعظة الحسنى حتى تجذب لها القلوب وتطمئن إليها الأنفس، ويدرك بحسن المضمون حسن العرض فينال الثمار والغاية الحسنة منها.

وقد عرف العلماء أسلوب الموعظة الحسنة بألفاظ جزيلة منها: "الوَعْظُ: زجر مقترن بتخويف. قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب"^(٢).

وبناء على ماتقدم فالموعظة عبارة عن التذكر والتنبيه لحث الخير والنهي عن اقتراف الشر بأسلوب تقتزن معها البشارة أو النذارة. ويعد هذا الأسلوب بدورها يخاطب العواطف والروح؛ فيقبل الإنسان على العمل وأن يقلع عنها نفسيا دون أن يكون للعوامل الأخرى تأثيرا فيها.

ولهذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ في الفترة المكية من دعوته أن يركز عليه في مهمته وذكره إلى جنب أسلوب الحكمة المذكورة سابقا، فيقول عنها: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقد كان لهذا الأسلوب تأثير في جلب المدعويين وتخفيف لحدة الخصومة التي يلجأ إليها الأعداء تجاه الرسالة المحمدية ﷺ، وينقلب أشدهم عداوة بعد التمعن إلى أناس طائعين ومحبين للدعوة الإسلامية.

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ١٥٤.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ج ١، ص ٨٧٦.

وقد يدرك الإنسان الغرض من الدعوة في أول وهلة من عرضها، وعنهما يقول العلامة أبو الأعلى المودودي رحمه الله عن الآية: وهكذا يقوم الدعاة بالنصح لهؤلاء بهيئة تكون أساسها الشفقة والرحمة على المدعويين، وبالتالي يحس المخاطب في أول النظرة على أن الداعي بمهمته لا يحقره، ولا يريد التفضل والعلو عليه، بل إن كل جهوده وسعيه لأجل إصلاح أولئك وحب الخير له^(١).

ولسوف يدرك القارئ للسيرة النبوية المطهرة تأثير هذا الأسلوب في حياته ودعوته ﷺ، ومن أهمه أن الإلتزام بهذا الأصل يجعل الداعية موقرا، ويصبح ذات مكانة مرموقة. وقد التمس المودودي أثر هذا المظهر في مدى تعامل ألد الأعداء تجاهه فيقول: لقد كان النبي ﷺ رغم عداوة وخصومة قريش تجاه دعوته كان يصلي في الحرم المكي ويقرأ القرآن جهرا أمامهم؛ وهذان العملان بالنسبة لهم يمثلان الحد الأكبر للخطر والتحدي عليهم، ومع ذلك لم يستطع أحد من المسلمين أن يفعل ذلك إلا بتحمل الخطر أو النادرين منهم؛ وعلى هذا فالسؤال الذي يطرح من هذا، ما هي القوة التي كانت يحمي النبي ﷺ ويدفع عنه هذا الخطر الأكبر؟ والجواب عن هذه الحقيقة تعود إلى عدة عوامل، ولكنه ينفي بادي الأمر أن هذا العمل لم يكن قائما في أصله على حماية العشيرة والأقرباء والممثلين في قبيلة بني هاشم ولا عشيرة بني عبد المطلب، فهم لم يستطيعوا أن يتحملوا هذا الخطر الأكبر ويزود عن الرجل، بل كان الصد الأكبر والذي حال دون أطماع القوم والعداء هي الشخصية العملاقة للنبي ﷺ، وبه لم يفلح أحد أن يقضي على دعوته رغم ما وجه لهم من التهم والشتائم والأذى.

وعلى هذا فقد كان النبي ﷺ ذو شخصية قوية ومرعبة، والقوة التي احتالت أمام القوة تعود في أصلها إلى عوامل ثلاثة:

١- لقد علم القوم منذ عقود وشاهدوا بأم أعينهم أن محمدا ﷺ لم يكن رجلا عاديا، وقد كان قبل نبوته بين الناس محل التقدير والتوقير.

٢- لم يسمع الناس من لسان الرسول ﷺ الكذب بتاتا ولا أي كلام يسوء إليهم، وكان كل كلامه ودعوته مبني على الموعظة الحسنة. وهكذا لقد خاف القوم رغم تنكرهم له أن يدعوا عليهم فيأخذهم بالعذاب الأليم. وهذا يعني أنهم كانوا يوقنون بقلوبهم برسالته وأنه مستجاب الدعوات.

وعلى هذا فقد كان أبو لهب رغم شدة عداوته كان خائفا على ابنه الذي دعا عليه بأن يسلط الله عليه كلبا من كلابه، وكان يأخذ بالحيلة في السفر والحضر؛ وقد أصيب في منتهاه كما دعا عليه النبي عليه الصلاة والسلام.

٣- الشخصية المثالية القوية التي كان يملكها النبي ﷺ، وهكذا قد عرف بين قومه بالصدقة والأمانة، وأذيع في كل بيوت مكة وخارجها بالنقاء والشخصية العالية؛ حتى اعترف بهذا ألد أعدائه^(٢).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ١٦٨، وكذلك: تفهيم القرآن، ج ٢، ص ٨٠٨.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ٥٠٦-٥٠٧.

وبناء على ما تقدم يرى الباحثون والمختصون في حقل الدعوة أن من أعظم الأساليب نجاحا في مهمة الدعوة هو أسلوب الموعظة الحسنة، وذلك لما تضمنه هذا الأسلوب من انجازات وتأثير على المدعوين، فيرون: إن هذا الأسلوب يلين القلوب القاسية والجامدة، وبه تدمع العيون الجافة، وتهز بها النفس كما تحي بها الضمائر المغفلة فيستيقظها لما فاتهم من المسؤوليات، وقد تجعل المخاطبين كأنهم يرون أو يشاهدون ما يسمعون فيقبلون عليها طواعية دون تنكر.

وقد كان أكثر خطب النبي ﷺ مبنيا عليها، فكان يرغب فيها القلوب اللاهية والضمائر المنكسرة والنفوس العاطلة، وبالتالي سرعان ما كان يخرجهم إلى ميدان العمل والنشاط فيصبح الأموات أحياء والعاطلين منشطين فيهم الداب والحركة^(١).

وبالجملة فالموعظة الحسنة من الأساليب الناجحة الدعوية التي يمارسها الدعاة في مهمتهم، وتفوقها تعود إلى تركيزها على مخاطبة العقل والعواطف، و تثير في المدعوين الحركة والنشاط، ويزيل عنهم الغفلة والتكاسل التي تسيطر على جمهور الناس، وهو بذلك أسلوب نبوي مبارك حيث مارسه الرسول الأعظم ﷺ في دعوته فجذبت له القلوب وكسب انجازات باهرة، كما صارت علامة وميزة لأصحاب النفوس القوية على مدار الأزمان.

٣- اختيار الأساليب المثلية: لقد أنيطت مهمة الدعوة إلى الله باختيار الأساليب والطرق التي توصل الدعاة إلى غاياتهم ومقصودهم، وهذه الطرق يجب أن تكون مثل غاياتها عالية ورفيعة، ويختار منها الأمثل، وذلك لأن الدعوة هي عمل الأنبياء والمرسلين وموضوعها الدين والرسالة التي خلق لأجلها الإنسان في هذه المعمورة. وهكذا كلما كانت هذه الأساليب رفيعة فتكون ثمارها ونتائجها يانعة وتعود بالخير والبركة للدعاة والمدعوين، وقد كان النبي ﷺ يأخذ بأمثلها وحث أصحابه بأقواله وأفعاله أن تكون الوسائل مثل غاياتها عالية، وفوق كل ذلك ركز الوحي الإلهي عليها، فصار دستورا ثابتا للأمة الداعية مدى الدهر.

وهذه الأساليب في مجموعها يجب أن تكون مبنية على بعض الأسس والأصول، ولقد تنبه لها الإمام المودودي رحمه الله من خلال وقوفه على السيرة النبوية المطهرة وبينها بأسلوب بديع مجملها كما يقول: لقد علم الله تعالى لنبيه ﷺ الأساليب والطرق المثلية التي يجب أن يتبعها في مهمته، وهي في كلها أساليب رفيعة تخص بطريقة العرض وكذلك التعامل مع المدعوين، وقد كانت هذه الآيات في أكثرها مكية النزول، حيث كانت المواجهة شديدة مع معكسر الإسلام والكفر، ومن جهة ثانية الدعوة غريبة على الناس، وفي مستهل ذلك يقول تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٣١) وَإِنَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ (الأعراف: ١٩٩-٢٠٠).

(١) انظر: شاهين، أحمد عبد الهادي، وسائل الدعوة وأساليبها (القاهرة، دار الكتب المصرية، ط ١، ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م)، ص ٢٥٢.

إن هذه الآيات الكريمة تعد نزولها منهجا للدعوة والتبليغ، وقد وضعت أمام النبي ﷺ ومن بعده الأمة الداعية بأن يكون منهاجا ومعالمها في هذا الطريق، وكانت مبنية على أصول أهمها:

١- أن يتحلى الداعي في مهمته بمجموعة من الصفات وعلى رأسها أن يكون حليما، لين الجانب، متصفا بالرحمة والصبر والأناة، ويكون بذلك لطيفا ورحيما لأصدقائه، ومتحليا بالأناة ولين الجانب أمام خصومه. وهكذا يجب عليه أيضا بأن يتحمل في مهمته نواب أخلائه وضر أعدائه من التهم والشتم وكل الشرور... وما عليه إلا أن يقابل الإساءة بالحسنى والدفع الحسن؛ وإلا سيكون مواجهته ورده حملة قاسية على شخصيته ودعوته.

ومن هذا المنطلق نرى أن النبي ﷺ يحث الدعاة بأن يكونوا مبشرين وميسرين لمخاطبيهم، فيقول: - (يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تَنْفَرُوا)^(١).

٢- إن من أهم معالم دعوة الحق وسر نجاحها أنها قائمة على المعروف المتعارف بين الناس، وبعيد عن التعقيدات الفلسفية التي لا طائل وراءه، ولا يفهمها إلا أصحابها؛ وبالتالي يجب على الدعاة أن يختاروا أسلوبا سهلا، واضح المعنى والمفهوم (Commonsense)، وبهذا سيؤثر نداء الحق على الأذان وسرعان ما تجذب إلى القلوب، ويصبح المخاطبين رغم تنكرهم ونفورهم أولياء طائعين لها.

٣- إن الدعوة مع تأكدها بالإحسان والمعروف نحو المؤمنين يلزم أصحابها أيضا في جهة أخرى بأن لا ينزع الجاهلين بها ويختار الإعراض عنها، ويبين من هذا أن الدعوة في أصلها متجهة إلى الذين يصغون إلى الحق ويفهم ويعي ما يقوله الدعاة، وبالتالي فالنزاع والمراء والمحااجة التي لا طائل وراءه وتضيع قوة الداعي فيما لا يعنيه.

٤- إن على الدعاة أن يدركوا أن كل ردة فعل أو مواجهة التي يلجأ إليها أولئك في مقابل الضرر والتهم واثارة الشبهات في سبيل الحق؛ هي مس أو نزعة من الشيطان والتي طالما يوسوس بها في قلوب عباد الله المؤمنين، وابتغون أن يردوا أولئك الإساءة بالإساءة، وحينها ما عليهم إلا أن يتعودوا إلى الله عنه، ويكف أيديهم عن ضرهم؛ وذلك لأن هذا الفعل يضر بالدعاة والدعوة، وبالتالي يجب عليهم أن يتحلوا أولئك بالحلم والأناة ويختار سلوكا تجعل المثارين في مقابل الدعوة نادمين وأئسن من أفعالهم^(٢).

ويتضح من الفقرة السابقة أن الدعوة إلى الله تحتاج من أصحابها الأساليب السهلة واللينة، وأن يكون بعيدا في جملها وألفاظها عن التعقيدات والتخيلات الفلسفية والتي تعيق أمام الفهم ويضيع الناس عن ادراك حقيقتها ومغزاها. وقد يضرب المودودي في بيان هذه الأساليب أيضا: "يجب على الداعي أن يراعي حين المجادلة أصل التعامل الحسن، وهو أن لا يكون غرضه المبالغة على الخصم أو السباق، وكذلك لا يلجأ حين الخصومة إلى التمسخر والإستهزاء، والصاق التهم بالطرف المقابل، وهكذا لا يغالب خصمه بجهر الصوت أو بسرعة الكلام؛ بل يجب أن

(١) صحيح البخاري، كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَالْعِلْمِ كَيْ لَا يَنْفَرُوا، رقم الحديث: ٦٩.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ٢، ص ١٦٨.

يكون كل أموره بالطمأنينة والهدوء والتعامل الحسن بحيث يقدم دليله أو تعليله حتى تجذب في القلوب، وإذا رأى في خصمه العناد فيتركه على حاله ويرجع منه بالسكينة والوقار^(١).

وصفوة القول إن الدعوة إلى الله تعالى مهمة جليلة يحتاج من أصحابها اختيار الأساليب الحسنة والمثلية، وأن يكون الغرض منها جلب المدعوين ومحبتهم وابتغاء الخير لهم، وبالتالي يجب عليهم أن يلجأوا إلى كل الطرق اللينة والسهلة، والتي تجذب أولئك بعيدا عن التعقيدات والغموض، وأن لا يجعل هدفهم المغالبة على الخصوم أو السباق منهم، بل عليهم أن يصرفوا همهم في ابتغاء الخير وانقاذ الناس من الضلال إلى الحق والخير.

المبحث الثاني: فقه الوسائل والأساليب في العصر المكي عند الشيخ محمد الغزالي

لقد احتفلت السيرة النبوية المباركة بأهم الوسائل والأساليب الدعوية، وتعد بمجموعها زادا وفقها دعويا تواصل مسيرة الدعاة إلى مقصودهم، وبناء عليه فقد كان النبي ﷺ يختار لكل بيئة ومجتمع وسائل وأساليب مناسبة بحيث يستفيد منها في إشعاع نور الدعوة للمدعوين، وتكون سدا لهذه المهمة على مدار الأزمان، ولقد ارتبط فقيه الدعوة محمد الغزالي رحمه الله تلك الوسائل والأساليب بمقتضيات العصر المعاصر واستنبط من خلالها دروسا بليغا نبينها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية

لما كانت الوسائل هي الأدوات المعينة المادية والمعنوية والتي تواصل السائرين إلى مسيرتهم، فكان لزاما على الدعاة بكونهم السائرين إلى الله أن يختاروا لهذه المهمة وسائل مناسبة ومتاحة وسهلة بحيث تناسب نسبة الأهداف والغايات؛ وذلك لكي يعينهم في اجراء مهمتهم وكذلك لتكون عوناً لهم على اجتياز المشاق التي يعترضهم في الطريق؛ ونظرا لأهميتها نقف على نماذج منها كالآتي:

١- رسالة الحج الدعوية: الحج عبادة إلهية فرضت على العباد كرحلة إيمانية لزيارة البقاع المقدسة، وذلك لكي يزيل عن الإنسانية الأدراخ والأوساخ الذنوب والمعاصي التي اقترفتها في الحياة، وتذكر ما فاتهم من الوجائب في مسيرتهم اليومية وذلك عن طريق التعلق الروحاني ببيت الله والذي جعله الله مأمنا للطائفين والركع السجود. وقد جعل الله في تلك الأراضي ذكريات التضحية والإخلاص تجاه أوامر الله عزوجل وكذلك تذكيرا بالعهد الأزلي الذي أبرمهم العباد تجاه خالقهم وربهم وإلههم... وبناء على ذلك فقد أمر الله الأنبياء والمرسلين على مدار التاريخ أن يبني فيه بيتا لعبادة الله وتجديدا للعهد وعلان العبودية في أرقى ألفاظ التلبية والتسليم تجاه رب العالمين، وهكذا بقي هذا البيت على مدار التاريخ وخاصة منذ زمن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام محل تجمع العارفين والمحبين،

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ١٦٨.

وبدوره دعا الله أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليه حبا وإخلاصا وتعظيما لهذا البيت، وبالتالي ظل على مدار الأزمان يفد الناس إليه أفواجا لكي تروي فيه ظمأ ذاك الحب الغامر التي طالما يحلم به .

ونظرا لما ذكر فقد عرف هذا البقاع في مواسم خاصة بمحل تجمع الناس والوافدين ، وكانوا يقدمون إليه من كل فج عميق ، يبيتون فيها أياما وليالي يدعون الله فيه ، ويطلبون بضاعتهم الروحية التي ورثوها جيلا بعد جيل ، رغم ما دب فيهم من البدع والخرافات نتيجة بعدهم عن تعاليم الأنبياء والمرسلين ، وظل تلك الديار على حاله حتى بعث النبي ﷺ كرسول ونبي خاتم للعالمين .

وقد ذكر أهل السير أن رسول الله ﷺ بعد مبعثه وخاصة بمجاهرة دعوته كان يفد إلى أولئك الناس سرا وجهرا ، ويدعوهم إلى كلمة الله ودينه ورسالته ، وبالتالي كان يتطلع إلى تلك المواسم ، وكان يحسب تجمع هؤلاء انتهازا للفرصة الدعوية ، ووسيلة ناجحة لجلب المدعويين ، وفي هذا الصدد ذكر أصحاب السنن والسير عمل النبي ﷺ في تلك المواسم ، ويقولون: إن رسول الله ﷺ يفد دائما على الحجيج في مجامعهم ، وكان يحدثهم عن الدين والإسلام ، وبالتالي يطلب منهم الإذعان للكلمة ونصرة هذه الرسالة .

فقد روي أبو داؤود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حيث يقول: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزُضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ ، فَقَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي) ^(١) .

ويذكر ابن هشام في سيرته: أن رسول الله ﷺ اتجه إلى هذا الأسلوب في السنة العاشرة من البعثة ، وكان يعرض نفسه في موسم الحج على القبائل ، قبيلة قبيلة فيدعوهم إلى الله ويطلب منهم النصرة ، وكان يخبرهم أنه رسول مرسل ، واتخذ المشركين أيضا في مقابله مواجهة عنيفة ، وكان يمشي بعض الكبراء خلفه ، وفي أغلبه كان عمه عبد العزى بن عبد المطلب أي أبو لهب ، وكان يقول للوافدين بعد خطاب النبي ﷺ: يا بني فلان ، إن هذا الرجل يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وهكذا حلفاءكم من الجن... إلى ما جاء به من البدع والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه ^(٢) .

وقد ذهب الشيخ محمد الغزالي في الدرس المستفاد من هذه أن تلك الطريقة كانت وسيلة ناجحة لتبليغ رسالة الإسلام ، وكان الرسول ﷺ يتطلع إلى قدوم الموسم فيقول: لقد أمضى رسول الله ﷺ في دعوته على هذا المنهج ، وكان ينتظر إلى للمواسم ، ويتبع الحجيج في منازلهم ، يذهب كذلك إلى أسواق عكاظ ، ومجنة وذو المجاز من الأسواق المشهورة ، ويسأل فيها عن منازل القبائل ليؤمنوا بالله وحده ومن ثم أن ينصروه ويمنعوه .

ولم يدع الرسول ﷺ هذا المنهج حتى في أشد الأحوال من دعوته ؛ ففي أيام الشعب والمحاصرة كان المسلمون يلقون الوافدين في مواسم الحج ، وبالتالي كسب الإسلام أنصارا كثيرا في هذه المرحلة .

(١) سنن أبي داؤود ، كتاب: السنة ، باب: في القرآن ، رقم الحديث: ٤٧٣٤ . قال الألباني: هذا حديث صحيح .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام (بتصرف) ، ج ١ ، ص ٨٣-٨٤ .

وهكذا تتبع الرسول ﷺ هذا المنهج في الفترة المدنية وخاصة بعد فتح مكة، وقيل وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى، وذلك في آخر حج له حيث اجتمع العدد الأكبر للمسلمين، وقد أراد أن ينتهز هذا التجمع الكريم، ويقول لهم كلمات تبدد وتقضي على آخر بقايا الجاهلية في النفوس والحياة، تأكيد ما يحرص الإسلام على اشاعته من الآداب والعلائق والأحكام^(١).

ويستنبط من الفقرة السابقة أن على الدعاة أن يتطلع للمواسم وينتبهز من التجمعات البشرية وخاصة المناسبات الدينية فيستفيد منها في جلب المدعوين، وإيصال رسالة الإسلام، وبذلك تعد هذه فرص دعوية ممتازة بحيث لا يحتاج من الدعاة الجهد ولا التكلفة الكثيرة، وتكون الفئات البشرية كذلك مستعدة للقبول بالنسبة لأي وقت آخر، وبهذا يضيف الباحثون على الرسالة الدعوية لمواسم الحج فيقول: تعد الحج فرصة ومناسبة عظيمة لتبليغ دين الله في هذا التجمع الأكبر للبشرية والتي يقدمون من كل بقاع الأرض استجابة لنداء الله حيث يقول: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج: ٢٧).

وأما فرص الانتهاز من هذه الوسيلة فهي متعددة الجوانب، فمنها يعود للدعاة وخاصة طلاب العلم حيث يتعلمون من المناسبة الطرق والتدريب الدعوي، وجزء للمدعوين المتمثلين في ضيوف الرحمن فيتعلمون المناسك الصحيحة على وفق سنة رسول الله ﷺ، وكذلك يتمكن للبعض استقامة حالهم على الدين والتمسك، وبالتالي يؤثر على مجتمعاتهم فور العودة إلى ديارهم، والأهم من كل ذلك هي عائدة إلى موضوع الدعوة فيصح فيه كثير من مفاهيم الدين^(٢).

وبالجملة: فالحج هي عبادة ومناسبة عظيمة للأمة الإسلامية، ويحمل في طياته إلى جانب التعبد وكونه الشعيرة الدينية المناسبة والرسالة الدعوية، فيجتمع في تلك البقاع المقدسة التجمعات الكبيرة من الناس، وبالتالي تمنح للدعاة أن يقبلوا على المدعوين في أبسط حالهم ويوصلهم رسالة الإسلام السامية، كما يصحح عندهم المفاهيم الخاطئة والتي طالما ينكرونها، أو كانوا عاجزين عن إصلاحها، وكذلك يمنح للدعاة أن يتبادل التجارب الدعوية فيها، ويعود بالخير الكثير للدعوة وأنفسهم.

٢- الهجرة إلى البلدان وتأثيرها على الدعوة: لقد جرت سنة الله في عباده المخلصين بأن تواجه كلمته ورسالته بالعسر والمشقات، وأن يصيب على إثرها أرباب الدعوة دعاة ومدعوين بالضرر في أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وذلك لكي ينضج ويمحص هذه المهمة وينال بذلك الأجر الجزيل من ربهم تعالى وبما أعد الله لهم من النعيم المقيم في الآخرة. ومن تلك المحن التي تصيب لأولئك في هذا الطريق ترك الديار والأهل وذلك لالتقاء النفس وصيانة الدين والعقيدة من الفتن التي طالما تفتت وتوهن العزائم.

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٢٦ و ٤٨٦.

(٢) انظر: الحصين، سلطان بن عمر بن عبد العزيز، الدعوة إلى الله في الحج (المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ب ت ط)، ص ١١-١٢.

ولأجل تحقيق هذه المهمة فرض الله على المؤمنين في تلك الحالة فريضة الهجرة وترك الديار واختيار الغربية والسكن في الأرض التي تحس فيها الأمن على حياته وعقيدته، وهكذا الهجرة كما تتضح من مسماتها تحمل في ذاتها مشقات ومراغم بطبيعة الحال، ولكنها تتسم معها بنوع من التوسع في مجال الدعوة الإسلامية وفتح آفاق جديدة لها، كما تعد الدعوة في مهمتهم ماديا ومعنويا وترفع عزائمهم عالية.

وبناء على هذا تعد الهجرة في سبيل الله من الوسائل المؤثرة في الدعوة ويمنح لأهلها دعاة ومدعوين إلى جنب الملاذ الآمن فرصة تقديم الدعوة على المجتمع الجديد وتعزيزها بين منتسبيها.

ولقد شهدت الفترة الدعوية الأولى للمسلمين أي الفترة المكية بظهور ومشروعية هذه المهمة بين المسلمين، وذلك حينما اضطر المسلمون إلى لجوءها بأمر النبي ﷺ على أثر المحن والأذى البالغ في النفس والأهل بعد مجاهرة الدعوة النبوية، فأمر أصحابه بأن يتجه نحو الحبشة في السنة الخامسة ومن بعدها في السنة السابعة من البعثة وأخيرا في تمام المرحلة المكية هاجروا مع قائدهم نحو دار جديد حيث استقر بهم الحال في فترة حديثة واتسمت بالعزيز لكلمة الإسلام والمسلمين، ولقد استفاد الدعوة في كل من الهجرات ونالت مكاسب عظيمة سجلت في تاريخ الأمة الإسلامية.

ولقد سجل المؤرخون أن أول هجرة في الأمة الإسلامية كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، وعنهما يقول: "لما رأى الرسول ﷺ أن المحن يزداد يوما بعد يوم على أصحابه، وهو لا يقدر أن يسد تلك البلايا، أمر أصحابه بالجوء إلى الحبشة بقوله: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المؤمنون المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى تلك الأرض (الحبشة) فرارا إلى الله بدينهم ومخافة الفتنة، فكانت بذلك أول هجرة في الإسلام"^(١).

ولقد تطرق الشيخ محمد الغزالي إلى معاني الهجرة العظيمة والتي انضم إلى قافلة المهاجرين سيد المرسلين ﷺ معهم واستنبط الدروس الدعوية منها كذلك فيقول: لم تكن الهجرة تخلصا ونجاة من الإستهزاء والفتنة بل كان تعاوننا على تأسيس مجتمع جديد في بلد طيب آمن، وأصبح لزاما على كل مؤمن قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل كذلك سعيه في تحصينه ورفع شأنه، وبهذا أصبح ترك المدينة وتلك الدار نكوصا عن تكاليف الحق والدين وعن نصر الله ورسوله؛ فالحياة والإقامة بها دين لأن قيام الدين يعتمد على إغرازها.

وأما الرجال الذين التفوا بالرسول ﷺ في مكة، واقتسبوا منه أنوار الهدى، وتواصوا بالحق والصبر، فإنهم نفروا خفافا -ساعة قيل لهم-: هاجروا إلى مكان حيث تؤمنون مستقبله وتعزون الإسلام"^(٢).

ولقد قارن العلامة الغزالي في مستهل دراسته عن وسيلة الهجرة بين ما فعله اليهود على إثر الإستهتان واللجوء إلى الأراضي الفلسطينية في العصر الحديث وبين هجرة الرسول ﷺ فيقول: لقد أعجب اليهود بفعل أنفسهم وبدأوا

(١) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٥٧.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٦٣.

يهنئون الآخر على تمكّنهم بتأسيس وانشاء وطن قومي لهم وذلك بعد القرون المديدة التي عاشوها في حالة التشريد والطرّد، وعلى هذا لا يمكن انكار جهد هؤلاء في بناء هذا الوطن المزعوم -حسب زعمهم- وكذلك السعي الحثيث وحماس مهاجريهم حيث وفدوا من كل فج إلى تلك الديار لإحياء حلمهم وأمنيّتهم؛ ولكن هناك فرق شاسع بين ما صنعه هؤلاء وما فعله النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون على إثر هجرتهم إلى دار الإيمان وما قدمه إلى دعوتهم وبناء دولتهم.

وعلى هذا فقد جاء اليهود إلى تلك البقاع على حين الفرقة والغفلة والوهن من أهلها، وقد أحكموا قبلها مؤامرتهم من قبل القوات الطاغية في ميدان السياسة الغربية الناقمة والحاكمة على الإسلام، فهاجموا جميعا على أهل فلسطين المغصوب بالمال والسلاح والدهاء حتى أحكموا سيطرتهم على تلك البلاد وشرّدوا أهلها، وكان ذلك في زمن لم يحرك المسلمون تجاههم بالا ووقفوا مكفوف في الآيادي معلّنين خذلانهم عن نصرتهم ودفاعهم، وفي تلك الأجواء أعلن هؤلاء دولتهم الغاصبة وذاعوا دعايات لتشجيع اليهود في كافة العالم للهجرة إلى فلسطين، ومدوا لهم أرباب السياسة والمال يدا مفتوحا لا يخشى نفاده.

ولكن ما فعله الرسول ﷺ وأصحابه في هجرتهم فقد كانت مبنية على نية خالصة وهمة عالية، ومزهدا عن أطماع الزائل قاصدا للمثل العليا بحيث ربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة التي اعتنقوها، وعنهم يقول تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨).

وبالجملة فالمسلمون يأذن رائدهم وقائدهم رسول الله ﷺ يادروا إلى الذهاب من مكة إلى المدينة المنورة وكان يحذوهم في سفرهم اليقين وترفع رؤوسهم الثقة بدين الله^(١).

وهكذا لم تكن هذه الهجرة العظيمة فحسب حاملة لهذا المقصد بل كانت الهجرة الأولى كما سبق ذكرها حافلة بالمضمون والمنهج الدعوي، وتعد بنوعها أول تجربة للتبليغ خارج أرضيته في الفترة الأولى للدعوة الإسلامية، وعلى هذا يقول الباحثون: لقد كانت الهجرة إلى أرض الحبشة إلى جنب البحث عن المكان الآمن للممارسة الشعائر الدينية والعبادة، كان ذلك ميدانا جديدا لنشر رسالة الإسلام، وعلى هذا فقد عمد الصحابة والمهاجرون إلى القيام بها بين فئة الأحباش والذين كان يتوقع منهم الخير، وكان أبرز ثمار هذه الهجرة التاريخية إسلام ملكهم النجاشي، وذلك بعد ما سمع أدلة مندوب المسلمين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين مثوله أمامه تفنيدا لشبهات المشركين المثارين عليه، -وقد سبق في الفصول الماضية بيانه-^(٢).

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٦٤.

(٢) انظر: اليزيدي، أروى بنت علي بن محمد، الهجرة إلى الحبشة وأثرها في نشر الدعوة الإسلامية (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١١ م).

ويتبين من هذه الأحداث كلها أن الهجرة هي الوسيلة الدعوية الناجحة والتي يلجأ إليها الدعاة في تسلسل حياتهم والتي طالما يضطرون إليها أحياناً، وهي دالة كذلك على أن مهمة الدعوة لن تسقط عن عاتقهم أية حين بل عليهم أن يستوظفوا كل الوسائل المتاحة بغية أن يكتب الله عزوجل لهم التأثير والقبول.

٢- ارسال السفراء والمعلمين: لقد عرفت المجتمعات البشرية منذ القدم على التواصل والترابط وتوسيع العلاقات بينهم، وذلك لأنهم يحتاجون لبعضهم ويكمل بعضهم الآخر، وهكذا استخدموا لأجل هذه مهمة السفراء والبعثات، وقد عرفوها منذ وقت مبكر في تاريخ الحضارات الإنسانية بغية اللجوء إلى السلم والحرب وما إلى ذلك. وقد كانت هذه المهمة منذ نشأتها تستخدم لأهداف وأغراض معينة، وفي أكثر أحوالها كانت متمركزة على الحياة المادية من التجارة والسياسة و... ومن ضمن الأمم التي عرفت هذه المهمة منذ أمد بعيد العرب المستوطنون بأرض مكة والمتعارفون بالحياة الشعبية؛ فقد استخدموها رغم عدم وجود دولة أو هيكل منظم فيها؛ ومع ذلك كانوا يواصلون الترابط مع الأمم الأخرى ضمن تعيين المهام وتقسيمها على القبائل في مجتمع قريش العريق، وقد كانت لقبيلة بني عدي المشهورة نصيب منها حيث ارتبط اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بها، وظل أحد ممثليها البارزين في عصر النبي ﷺ التي تسبق عصر نبوته^(١).

وقد دخلت هذه المهمة بعد بعثة النبي ﷺ كنبى خاتم والمبعوث رحمة للعالمين في طورها الجديد، وذلك لأنها استخدمت لأول مرة في تاريخها في توصيل رسالة الإسلام، كوسيلة دعوية مميزة لحث الناس إلى الدين ونهيتهم عن الرذائل، وبالتالي استوظفها النبي عليه الصلاة والسلام في المرحلة الأولى من دعوته المكية، فوضعت على إثرها المعالم الرئيسة لها، ونالت بها مكاسب عظيمة، وأصبحت الوسيلة المعروفة على مدار الأزمان للدعوة وتبليغ الدين.

وقد تتبع الباحثون هذه المهمة في سيرة الرسول ﷺ واختلفوا في أول بعثة أو سفارة أرسله إلى الأمم، ولكن اللواء ركن محمود شيث الخطاب^(٢) بكونه المجمع لأثار النبي ﷺ في هذا المجال فيرى أن أول سفارة كانت أوان هجرة المسلمين للحبشة في السنة الخامسة من البعثة النبوية، وكان على رأس هذه المهمة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حيث حمل معه الرسالة من النبوة المباركة.

(١) انظر: ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين، تاريخ عمر بن الخطاب (القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ب ت ط)، ص ٥.

(٢) محمود شيث خطاب (١٩١٩ - ١٩٩٨ م) مفكر وكانت عراقي إسلامي، نشأ نشأة إسلامية ملتزمة، هو رجل عسكري حتى وصل إلى رتبة لواء أركان حرب، درس العسكرية في العراق وبريطانيا، وشارك في حرب عام ١٩٤٨م، وتقلد مناصب وزارية عدة، وشارك في عضوية لجان عربية وإسلامية عديدة، وله العديد من المؤلفات العسكرية واللغوية والفكرية. من أهمها: وضع معجم عسكري موحد، كما ألف كتاب "المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم"، الرسول القائد وغيره. انظر: السيرة الذاتية لخطاب في ملحق كتاب "الرسول القائد".

وقد دار مع حاكمها النجاشي الحوار الذي مر ذكر محتواه في الفصول الماضية، وبهذا اعتنق النجاشي الإسلام على يد هذا الصحابي الجليل، وأرسل على إثره وفدا إلى مكة يحاور النبي ﷺ؛ ومن الأرجح أن النجاشي أسلم على أثر عودة أولئك، وكان داعيا لطمأنينته ووضوح الرؤية أمامه^(١).

ومن الموارد الثابتة والمتفق عليها أيضا والتي تجلت فيها مظاهر هذه المهمة علنا كانت أثناء بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة من البعثة حيث أسلم طليعة الأنصار، وعلى إثرها أرسل الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى يثرب لمهمة توصيل رسالته إلى أهلها وكذلك لتعليم الناس، وعن مدى أهمية تلك المهمة يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: ولقد بادر النبي ﷺ على إثر البيعة أن يرسل إلى المدينة من خيرة رجاله ليتعهد بنماء رسالة الإسلام، وقراءة القرآن وتفقه أهله في الدين فاختار لهذه المهمة المعلم الأمين مصعب بن عمير رضي الله عنه. وأما عن عمله فكان النجاح حليفه؛ وقد استطاع الرجل أن يتغلب على كل الصعاب، وبدأ ينشر رسالة مرسله معلنا للناس أن زمن الموروثات القديمة قد مضت وما عليكم إلا أن تزعمون لنظام يشمل الحاضر والمستقبل، وفيه من الإيمان والخلق والسلوك والعمل.

وعلى هذا لم يكن مهمة مصعب كباقي المرتزقة للمحتلين من المستشرقين والمنصرين الذين يتلصصون روح الناس بمواعيدهم المزيفة والتي تسترت ببضاعة بخس ومزجاجة التي يغري بها الناس، بل كانت مزودة بالكياسة والفتانة التي تعلمها من قائده ﷺ، وكان يحمل في طياتها المحبة والإخلاص وبواريق الكتاب العزيز الذي كان يغزو به العقول ويرق له القلوب وتفتح للدين الجديد^(٢).

وصفوة القول إن السفارة والمرسلين كما يصطلح له بعض الباحثين من الوسائل المؤثرة في خدمة الدعوة الإسلامية، وقد استوظفها النبي الكريم ﷺ في التاريخ البشري لأول مرة، وذلك عن طريق أناس أكفاء ومستعدين عقليا ونفسيا وأناقة وبياناً؛ فحملوا تلك الرسالة إلى ديار متباعدة بأمانة ومسؤولية كاملة، فاشيع النور بسعيهم وإخلاصهم في تلك الديار، وترك بذلك أثرا عظيما تعد منهجا في هذا المجال على مدار العصور لتوصيل هذه الرسالة السامية.

٣- أخذ البيعة والعهد من المدعويين: الدعوة إلى الله مهمة الصلة والترابط والمحبة بين الدعاة والمدعويين، وقد سعى من خلالها أرباب الدعوة أي الدعاة أن تجلب المدعويين إلى صفهم، ويكونوا أناسا طائعين ومخلصين في صفهم، وتجري الأمور والمهام المدعوة على أحسن وجه كأنه فعلهم ومهمتهم الشخصية؛ ولا شك أن الوصول إلى هذا المبتغى تحتاج إلى ممارسة وتربية وتواصل مستمر، وقد يصل هذه في آخر حدها بأن يكونوا أولئك ملتزمين عليها بدون أن يكون للمراقبة والإشراف دور فيها، بل يوكلون أمرهم إلى الإيمان العميق والتعهد، وجعل الله شاهدا وحاضرا عليهم بحيث لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم ما يكن ويخفي صدورهم من الخواطر... وسمي هذا العهد بالبيعة وهي صورة أسمى من الالتزام والتعهد.

(١) انظر: خطاب، محمود شيث، سفراء النبي ﷺ (بيروت، مؤسسة الريان، ط ١، ١٤١٧ هـ-١٩٩٦ م)، ج ١، ص ٣٨-٤٢.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٥٥-١٥٦.

وقد يلمس الواقف على السيرة النبوية المطهرة أن الرسول ﷺ لجأ إلى هذه الوسيلة بعد ما رأى في نفسية الأنصار استعدادا للقبول والإخلاص إلى جنب المحبة الفائقة تجاه الدعوة وقائدها المثالي؛ وبالتالي تجلت ثمار هذه المظاهر في حياتهم ومهامهم فأصبحت مضرباً للأمثلة ونهجاً للصراف السوي المستقيم، وقد شاعت بفضل جهودهم هذه الدعوة النيرة إلى الأفاق البعيدة وحظيت برسالة الإسلام العدل والخير والحق فأنعّم بهم دنيويا وأخرويا.

وقد عرفت البيعة من العلماء قديما وحديثا، وإن كانت أكثرها من علماء فقه السياسة و تدور في جوهرها على مبايعة أهل العقد للخليفة والإمام، إلا أن هناك ثمة تعريفات تفيد المعنى الدعوي، وسنقف على بعض منها:

١- قال الخازن^(١) في تفسيره: "وأصل البيعة المراد منه كل ما يلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد أيضا لأن الوعد من العهد"^(٢).

٢- وقد ذهب ابن خلدون^(٣): "أن البيعة هي العهد على الطاعة، بحيث أن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمور نفسه والمسلمين، بحيث لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه بالمنشط والمكره"^(٤).

٣- ويرى من المعاصرين: أن البيعة هي ذاك الالتزام الذي يقدمهم الأفراد تجاه إمامهم في غير معصية الله تعالى بحيث يوفون كلهم بالالتزام بما تقتضيه ظروف إمامهم عند القيام بمهام أمرهم من التضحية المالية وبذل النفس وكذلك إتخاذ الولاء تجاهه^(٥).

ويتضح من خلال التعريفات السابقة أن البيعة هي الصورة المثلية للعهد والالتزام الذي يقدمهم الأفراد تجاه قائده في أمر المعروف وطاعة الله بعيدا عن المعصية، على أساس من الولاء والحب والتضحية الفائقة من النفس والمال والأهل وهكذا كل الغالي والنفيس الذي يملكه.

(١) الخَازَن (٦٧٨ - ٧٤١ هـ): علي بن محمد بن إبراهيم الشَّيْخِيّ علاء الدين المعروف بالخازن: عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية. بغدادي الأصل، نسبته إلى "شيحة" بالحاء المهملة، من أعمال حلب. ولد ببغداد، وسكن دمشق مدة، وكان خازن الكتب بالمدرسة السمساطية فيها. وتوفي بحلب. له تصانيف، منها "لباب التأويل في معاني التنزيل في التفسير، يعرف بتفسير الخازن. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٥.

(٢) الخازن، علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، المحقق: محمد علي شاهين (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥ هـ)، ج ٣، ص ٩٥.

(٣) ابن خَلْدُون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ): عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، وليّ الدين الحضرميّ الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالا، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق. وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزَيَّ بزيّ القضاة محتفظا بزيّ بلاده. وعزل، وأعيد. وتوفي فجأة في القاهرة. كان فصيحاً، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طامحاً للمراتب العالية. ولما رحل إلى الأندلس اهتزّ له سلطانها، وأرّكب خاصته لتلقيه، وأجلسه في مجلسه. اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر - في سبعة مجلدات، أولها (المقدمة) وهي تعد من أصول علم الاجتماع. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٣٣٠.

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (مقدمة ابن خلدون)، المحقق: خليل شحادة (بيروت، دار الفكر، ط ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، ص ٢٦١.

(٥) آل محمود، أحمد محمود، البيعة في الإسلام (بحرين، دار الرازي، ط ١، ب ت ط)، ص ٢٢.

وقد كانت البوادر الأولى منها في تاريخ الإسلام في أواخر الفترة المكية من حياته ﷺ، وذلك بين الأنصار ورسول الله ﷺ، وقد تجلت ثمار هذه البيعة سرعة هائلة بحيث وجد المؤمنون مأمناً للهجرة، ومن ثم أسسوا دولة مثالية عظيمة.

وعن أهمية ذلك وبواعثها يقول الغزالي رحمه الله: إن تلك البيعة كانت نابعة عن روح اليقين والفداء والبسالة، وقد احتضنهم الجميع، وبالتالي فإن المستقبل النير بدأ مع حساب اليوم، وكانت مغنما معلوما متوقعا بعيدا عن التوهم. وقد كانوا هؤلاء السبعين بفعلهم مثلاً عظيماً لانتشار الإسلام في الأفق على مدار التاريخ الإسلامي، وقد لجأوا إلى ذلك الوسيلة عن طريق الفكر الحر والإقناع الخاص، والذي أكسبوا أولئك على التأثر من فيض القرآن الكريم الذي علمهم سفير رسول الله ﷺ طيلة عام في المدينة، وبالتالي جاءوا في السنة القادمة مؤمنين مع أشد الإيمان وملبين للتضحي المثالية رغم أنها لم تمر من صحبتهم مع الرسول ﷺ إلا زمناً يسيراً.

وقد اكتسب الرسول ﷺ من هذه الوسيلة مكسباً عظيماً، وجعل من هذا الإيمان رباطاً وصلة يعقد عن تلقاء نفسه على أساس الحب والتناصر بين فئات المؤمنين في المشرق والمغرب.

وكان ثمارها على العجلة أن مسلم المدينة يحنو ويرحم على أخيه المكي رغم عدم المعرفة والتعایش معه، ولكن جذوة الإيمان اضطره بأن يزود عنه، ويرد عنه المظالم ويغضب على من ظلمه، وبالتالي تجيش في حناياهم مظاهر الولاء لمن أحببهم بالغيب في ذات الله^(١).

وبالجملة: فالبيعة هي من الوسائل المؤثرة والمستفيدة من الدعوة المكية، وقد علمها الرسول ﷺ لأجيال الدعاة بعدهم لأن يأخذهم كطريق نجاح في مهمتهم، وذلك لأنها تكسب الدعوة نتائج مذهلة، وبحجة قيامها على الحب والولاء والتضحية النفسية والمالية، وهكذا قد أنيطت هذه المهمة على هذه المبادئ، وقد رأى العالم نتائجها الباهرة وأصبحت تجربة ثرية معلومة لا ينكرها العقلاء وأصحاب الألباب.

المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية

الأساليب الدعوية هي الطرق والفنون المؤثرة في نجاح مهة الدعوة والتي يلجأ إليها الدعاة في ضوء الوسائل المتاحة وكذلك الظروف التي يملكها الدعاة والمدعوين، وبالتالي يلزم عليهم أن يهتموا بنصاعتها وتقويتها، وذلك لأنها المفتاح الأساسي الذي يوصل الدعاة في مهمتهم.

ونظراً لمكانتها المرموقة قد استفاد المفكر الإسلامي محمد الغزالي على عكوفه بالسيرة النبوية، واستخرج منها نماذج عالية تعد معلماً للدعاة في هذا الطريق، وسوف نبينه في المطلب الآتي:

١- جبار الدعوة بعد تشكيل النواة الأولى: لما كانت الدعوة الإسلامية هي مهمة مخاطبة العقول وتغيير أحوال النفس؛ فإنها تحتاج من أصحابها القيام بسلوك أصول نفسية توائم الفطرة والغزيرة الإنسانية التي جبلت عليها.

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٥٩-١٦٠.

ومن إحدى تلك الدعائم أن يعرض الدعاة رسالتهم بأسلوب مرن يطمئن إليه الطبايع البشرية، وذلك بأن لا يباغتهم بدعوات تنفر عنها النفوس أول الحين، وقد اعتادت النفوس بأنهم يقبلون على الأمر الذي يكون مألوفاً عندهم، ويقومون تجاه كل جديد وإن كانت حسناً، ومن هذا المنطلق يجب على الدعاة أن يسلك في دعوتهم بأصول تناسب المقصود من جانب، وتصونهم من وقع الضرر التي طالما يلجأون إليها النفوس الشريرة فتفسد الخلية بعد تشكيل النواة الأولى.

وهكذا يجب أن تسير الدعوة على التدرج وتعرضها على مجموعات خاصة، وكذلك في باب الموضوعات شيئاً فشيئاً، ويلزم أن تبدأ سرا؛ فإذا تهيأت له الأجواء فعليه أن يصدع ويجهر بها بعد ذلك. ولسوف يتطلع المتفحص في دعوة النبي ﷺ سلوك هذا الأسلوب المؤثر، وقد سار به في دعوته ولم يتصدع لمهمة الجمهور إلا بعد أن قطع أشوطاً في هذه المسيرة الوعرة وشدت أزر النواة الأولى بعد أن انضم إليها خيرة الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين كجنود طوعية ومخلصين.

وعن أهمية وتأثير هذا الأسلوب في دعوة النبي ﷺ يقول الغزالي: لقد نبتت البذرة الأولى للدعوة الإسلامية في مكة المكرمة على يد رسول الله ﷺ، ومن ثم بدأت تذيب هذا الأنوار في تلك الأجواء تؤثر على قلوب أصحاب الأئمة الكبيرة والتي سرعان ما يجذبون لهذه الدعوة فيطرحون أدران الجاهلية الأولى ويخفون إلى اعتناق الدين الجديد. وقد سلك النبي عليه الصلاة والسلام في هذه المهمة أسلوباً مميزاً بحيث كان الإعلام يقع على التستر والاستخفاء دون تظاهر التحمس المكشوف أو التحدي السافر، وظل فيها ثلاثة أعوام حتى نزل الوحي أمراً رائدها بأن يعلن دعوته ويواجه الباطل من الأوثان والأصنام جهراً.

وقد كان بدء هذا الأسلوب عقب نزول الآية: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (الشعراء: ٢١٤)، وعلى إثرها صعد الرسول ﷺ على الصفا ينادي قبائل العرب وبطونها بأسماءهم خاصة، وينذرهم من عذاب الله الأليم، - والقصة ذكرت على تفصيلها في الفصول السابقة-، وهكذا بدت منذ اللحظة طريق الخصومة ومجانبة الصواب، وفي المقابل سلك النبي عليه الصلاة والسلام سائراً في طريقه يدعوا إلى الله ويلين في عرض الإسلام كاشفا الستار عن بطلان الوثنية، وكان يسمع اعتراض القوم ويحييه، وكان يهاجم ويزود... وكانت أول محطة في الرسالة الحرص على هداية الأقرباء قبل كل شيء، وكان يجدد مسعاه في عرض الإسلام عليهم مرات عديدة، وذلك لأن مكانتهم الكبيرة تجعل كسبهم عميق التأثير وكثرة النتائج^(١).

ويتضح من الفقرة السابقة أن تلك الدعوة لم تبدأ بهيئتها التي سارت عليها مؤخراً بل تطورت من مرحلة إلى مرحلة، وكان يقصد بها صاحبه أن تقع مؤثرة ويجنب الخصومة والتصادم، وكان يحث أصحابه بأن يستر تحمسهم الجياشة

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٠٠-١٠٢.

نحو الحق وزهق الباطل حتى لا يقع في فريسة الأعداء ، ولكن لما اشتد الرسالة على عضد حاملها أعلن على الملأ منها ، مع مراعاة الحكمة والموعظة الحسنة حتى يجذب المدعويين لها طوعا دون الخصومة .

وقد يضيف الباحثون إلى ما سبق أيضا: إن في تباطؤ دعوة الحق على الناس وعدم سرعة اجابته لهذه المهمة دليل على فساد الفطرة وتغلغل التقاليد وسيطرة العادات الجاهيلة منذ أمد غير قريب من حياة الناس ، وقد تواجه لها الدعاة حديثا في أكثر المجتمعات حتى الإسلامية منها ، فقد يجدون الإستنكار والتحدى والإعاقة ؛ وبالتالي ما عليهم إلا أن يسلكوا بأسلوب بطيئ ومرن حتى تهيا الأجواء لرسالتها^(١).

وأخيرا: فإن النتيجة المستفادة من هذه النقول يبين أن قيام الدعوة الناجحة والمؤثرة لهي قائمة على أسلوب التدرج وعدم مباغته المدعويين في أول الأمر ، وهي بذلك من تمام الحكمة التي أمر الله عزوجل مراعاتها في هذه المهمة الجليلة ؛ وبالتالي تكون مؤثرة في جلب المدعويين وكذلك مدى عمق وقوعها في نفوس أولئك فضلا عن صيانة أهلها عن الخصومة العنيفة والتي تفسد مجتمع الدعوة في أكثر الأحيان .

٢- الإدارة والتخطيط في الأمور الدعوية: الدعوة إلى الله هي أساس نهوض الأمة والبشرية جمعاء ، وقد مارسها الأنبياء والمرسلون ، ومن ثم ورثوها الأمة الخاتمة بناء على الخيرية التي منحها الله لهذه الأمة ؛ وبهذا تحتاج هذه المهمة العريقة والمؤثرة والعميقة في شرع الله إلى إدارة وتفنن وعملية مستمرة توفي المقصود منها ، فيجلب المدعويين إلى كلمة الله ورسالته على الوجه المطلوب مستخدما الوسائل والأساليب المناسبة لطبيعة هذا العمل الجليل .

وقد كان سيد المرسلين وإمام الدعاة ﷺ ودعوته كانت تسير على وفق عملية إدارية محكمة ، واتسمت بأعلى درجات التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة والتقويم مع مراعاة الحكمة واستفادة التجارب المؤثرة ؛ حتى أينعت ثمارا ونتائج مزهلة .

وعلى هذا فمهمة الدعوة كغيرها من الأعمال بحاجة إلى نصيب أكبر من الإدارة ، وذلك لأن الأخيرة هي أسلوب الحياة الراقية والتي تجعل الأعمال الإنسانية أكثر انتاجا وموضوعية وألفة ، وهكذا فشل الجهود الفردية والجماعية وحتى المؤسسات الدولية ناتجا عن الإهمال بهذا الأسلوب واللجوء إلى طرق تقليدية قديمة التي لا تجدي نفعا وتضيع الأهداف والجهود وكذلك الوسائل المتاحة . وبناء على ما سبق تحتل التخطيط مكانة عالية في الإدارة وخاصة في الأعمال الدعوية بحجة أنها المحطة الأولى لهذا الفن ، ويحسن بنا أن نتطرق أولا إلى مفهومه ومعالمه الأساسية .

فيقول المتخصصون بأن التخطيط: "هي الوظيفة الإدارية التي تهتم بتوقع المستقبل ، وتحديد أفضل السبل لإنجاز الأهداف التنظيمية"^(٢).

(١) انظر: أحمد، مهدي رزق الله، صفوة السيرة النبوية في سيرة خيرة البرية، ص ١٠٥.

(٢) صقر، شحاتة، إدارة العمل الدعوي (الإسكندرية، دار الخلفاء الراشدين، ط ١، ب ت ط)، ج ١، ص ١٥٤.

وبناء على هذا التعريف يمكن أن نستنبط أن التخطيط هي المهمة الأولية للوظائف الإدارية والتي تقوم العمليات الأخرى عليها، وهي بذلك تحدد الإطار العام للمهمة، بحيث تجيب عن الأسئلة المهمة حول العمل مثل: ماذا يجب أن نفعل؟ وأين ومتى وكيف؟ ومن يقوم به؟.

ويضيف البعض الآخر أن التخطيط الإسلامي هو: أسلوب ومنهج عمل جماعي في منظمة ما يأخذ بالأسباب والوسائل لمواجهة توقعات مستقبلية، ويعتمد على منهج عقدي وفكري يؤمن بالقدر ومن ثم يتوكل على الله ويسعى لتحقيق هدف شرعي هو عبادة الله وعمارته الكون^(١).

ويتضح من مقارنة التعريفين السابقين أن التخطيط في مجموعها تدور حول توقع المستقبل، وعمل بتحديد الأهداف المرسومة، وأما يميز التعريف الثاني منها فإنها متصفة بصيغة إسلامية، ويركز في المهمة على المنهج الفكري، وما هي بالذات هي المحور الأساسي في الأعمال الشرعية والدعوية ونقصة الانفصال عن غيرها، وإلا فالإطار والمحور في كلا الجانبين شيء واحد.

ومن هذا المنطلق يلمس الواقف والدارس على السيرة النبوية كل معالم التخطيط ومظاهره في الدعوة النبوية في كلتا مرحلتيه، وعن مدى أهميتها ونتائجها ونماذجها يقول المفكر الإسلامي محمد الغزالي منها: "ومن الطبيعي أن يقدم النبي عليه الصلاة والسلام دعوته بادي الأمر بأوثق وألصق الناس من آل بيته وأقرباءه وأصدقاءه، وهؤلاء جميعاً لم تربهم أدنى شك في عظمة الرسول ﷺ وصدق ما يدعيه، فلا جرم أنهم كانوا السابقين إلى مؤازرته وأتباعه.

وقد كانت في طليعة أولئك زوجته خديجة بنت خويلد ومولاه زيد بن حارثة وابن عمه علي بن أبي طالب وصديقه الوفي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم"^(٢).

ويستنبط من الفقرة السابقة أن عمل النبي ﷺ في دعوته لم يكن أمر عشوائياً، بل اختار لكل مرحلة ما يوائم ظروفه ووسائله، وهكذا كان مهتماً بمهمته أن يوفق ويختار المنهج الذي يوصله إلى النجاح.

ولقد سار النبي ﷺ على النهج في كل مراحله، وبالتالي لا يقدم إلى العمل إلا ما كان يثق من نتائجه، وعلى هذا فقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه: أن الرسول عاد بعد خذلان أهل الطائف لدعوته في السنة العاشرة من البعثة إلى مسقط رأسه مكة، وقد سبق أخبار مواجهة ثقيف لقريش، وحينها قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟، فرد عليه: إن الله جاعل لما ترى فرجاً، وعلى إثرها بعث لمطعم بن عدي يطلب منه الإيجار حتى يبلغ رسالة ربه، وقد قبله الرجل معلناً عند أركان البيت الحرام إجاره... وقد قال عليه الصلاة والسلام بعد ما سمع سخريات

(١) انظر: الأشعري، أحمد داوود المزجاجي، مقدمة في الإدارة الإسلامية (جدة، جامعة الملك عبد العزيز، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ص ٨٦-٨٧.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة (بتصرف يسير)، ص ٩٩.

وتهكم بعض أولئك: "وَأَمَّا أَنْتُمْ يَا معشر الملا من قريش، فوالله لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ غَيْرُ كَبِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى تَدْخُلُوا فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ"^(١).

ويرى الغزالي عن هذه الواقعة أنها تدل على مدى ثقة الرسول ﷺ بمهمته، وكذلك بمستقبله النير رغم ما كان يصيبه من الآلام والأذى في سبيل الدعوة... وهكذا ليست هذه هي الواقعة الأولى، بل احتفلت السيرة النبوية بنماذج واضحة في كل محطاتها، ومن أحسن ما تطرق إليه الغزالي في هذا الجانب أيضا رؤيته ﷺ لنهري الدجلة والفرات ليلة المعراج، وبالتالي أولها بتفسير دعوي تناسب مهمته وتخطيطه.

فقد نقل البخاري في صحيحه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قال، قال رسول الله ﷺ: (رُفِعَتْ إِلَى السُّدْرَةِ، فَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَانِ: فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ)^(٢).

وقد يرى الغزالي رحمه الله: إن بمثل هذه الروايات لا تحمل معناها على ظاهرها، وهي ليست مقصودة، بل يؤول إلى ما كان يبتغي منه النبي عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا يدل الواقعة أن هذه الأودية سيكونون يوما حملة لرسالة الإسلام جيلا بعد جيل، وليست معناها أن النيل والفرات ينبع من الجنة، وهكذا بالفعل تحقق أمنية النبي ﷺ في أقصر وقت في خلافة الراشدين رضي الله عنهم^(٣).

وخلاصة القول: إن التخطيط والإدارة هي الأسلوب الراقي في العمل، وبالتالي يلزم على الدعاة بكونهم حاملين هذه الرسالة بأن يستخدموها بغية أن تثمر جهودهم، وتكون أعمالهم منتظمة بعيدة عن الخلل والضياع في الجهود والأهداف والوقت، وعلى الداعية أن يهتم بهذا المجال قبل غيرهم رغم ما أنه ينتسب في العصر الحاضر للبيئة الخارجية عن الإسلام، ولكن الأصل أنها من الدين، وهي مطلب شرعي يدرك مظاهره في السنة النبوية القولية والفعلية، وفوق كله هي ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

المبحث الثالث: فقه الوسائل والأساليب في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الدعوة الإسلامية هي علم وفن وشأنها كباقي المعارف والفنون يحتاج إلى فقه وممارسة وتجربة عملية، ومن إحدى هذه الضروريات حيازة الوسائل والأساليب لسير هذه المهمة الجليلة حتى تثمر وتأتي بنتائج مرجوة، ولما كانت مهمة الدعوة أو التبليغ غاية نبيلة فاحتاجت بأن تختار لها الوسائل والأساليب مثلها؛ وقد قيلت: إن شرف الوسائل من شرف الغاية والوجهة والهدف.

(١) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (تاريخ الطبري)، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأشربة، باب: شرب اللبن، رقم الحديث: ٥٦١٠.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١٣٤-١٣٨.

ونظرا لأهمية هذا الجانب لقد وقف الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على أشرف هذا الجانب واستخرج من خلال تطلعه الواسع على السيرة النبوية المباركة في مرحلتيه المكية والمدنية نماذج نيرة، سوف نبينه في المطلبين الآتيين.

المطلب الأول: نماذج من الوسائل المستفادة من المرحلة المكية

لقد اختار النبي ﷺ في أول مراحل دعوته وهي الفترة المكية وسائل وأدوات مناسبة لسير عملية الدعوة الإسلامية، وهي في مجموعها وسائل مناسبة لحال الداعي وموضوع الدعوة والمدعوين، وكذلك البيئة التي من خلالها يمارس هذه المهمة فأفادت كل جوانب منها من نضج فكر الدعوة وتربية دعائها وجلب المدعوين وردع الخصوم الذين يقفون أمام هذه الرسالة؛ واتسمت كذلك بسهولة تناولها وعمق تأثيرها، وسوف نقف عليها عند الدكتور البوطي رحمه الله في عناوين مذيلة كالآتي:

١- العزلة والإختلاء سبب في تربية الداعي: يحتاج الداعي إلى الله في ممارسة مهمة الدعوة إلى الله إلى غزارة مادة علمية وتربية نفسية ونضج فكري والتغذي الروحي الذي تنعكس على مهمته ودعوته من خلال أقوله وأفعاله وسيرته، وتعد الأخيرة بدوره جوهر الدعوة وسمتها الأساسية، والذي يميز تلك عن باقي الدعوات؛ وبناء على هذا الوصول إلى هذا المبتغي يحتاج من الداعية الهادف اتخاذ وسائل وأدوات معينة تعينه في التصبغ والتغذي من المأدبة الإلهية، ومن إحدى وسائله عزلة واختلاء الداعي مع نفسه، والبعد عن أوساخ المعاصي والذنوب التي تعكر صفو الحياة البشرية وتعيق هذه المسيرة المباركة.

ولقد بدأ النبي ﷺ دعوته ومهمته على هذه الوسيلة، فقد حجب الله له الخلاء والبعد عن الناس في غار حراء متعبداً لله ومنقطعاً عن مشاغل الحياة والخلق حتى يستجمع قوته الفكرية ومشاعره الروحية وأحاسيسه النفسية ومدركه العقلي؛ وذلك لكي يكون على أهب الإستعداد لمناجاة رب الأكوان والوجود. ولكن ينبغي أن ننبه أن هذا لم يكن للتطلع على منصب النبوة، وظل يمارسه حتى أتاه الروح الأمين بكلمة ورسالة إلهية خاتمة ليكون رحمة للعالمين.

وقد روى أهل السير هيئة ذلك فيقول ابن هشام: وكان النبي عليه الصلاة والسلام اعتاد أن يمكث في غار حراء شهراً من كل عام متحنثاً أي متعبداً ومعتزلاً عن عبادة الأوثان كما يفعله بعض قريش قبل الإسلام، وكان أجود ما يكون في هذه الحالة بحيث يطعم من جاءه من المساكين، ويظل يمكث فيه شهراً؛ فإذا انقضى المدة كان يرجع إلى بيت الله قبل أن يذهب إلى بيته ويطوف به سبعة أشواط^(١).

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٣٧.

ويتضح من الفقرة السابقة أن هذا العمل كان نابعا من صفا وزكاء النفسي للرسول ﷺ، وهو كان من ضمن بعض قلائل أهل الخير والذين يمارسونه مع استحواذ الضلالات في حياة الناس، وكان هو من أخيرهم نفسا وخلقا حيث يشير إليه بالبنان.

وهذا العمل وإن جرى قبل بعثته ﷺ إلا أن الرسالة السماوية قد أقر بها وجعل فيها من الخير الكثير، ويؤيده الخطاب الإلهي المتمثل في الوحي الإلهي وعمله ﷺ؛ وعن مدى أهمية هذا العمل وثماره في حياة الداعية والمسلم يقول البوطي رحمه الله: إن إيمان المؤمن وإسلامه لن يكمل مهما كان متحليا بالفضائل ومتصبغا بأنواع العبادات حتى يفرغ نفسه أوقاتا للخلوة والعزلة يحاسب فيه نفسه، ويراقب الله عز وجل فيه، ومن ثم يفكر في مظاهر عظمة خلقه. وأما حكمة وثمار هذا العمل فيتجلى في عدة جوانب:

١- إن جذوة داء النفس لن يطفأ إلا بالعزلة والتنحي عن الناس ومن ثم محاسبتها في نجوة مع الله تعالى بعيدا عن ضجيج الدنيا ومظاهرها البراقة. فعلى سبيل المثال: هناك آفات نفسية والتي يتمثلها الكبر، والحسد والعجب، وحب الدنيا والرياء.... وكلها تظهر في النفس وتغلغل في القلب، وبالتالي تتأثر عملها الهدمي في باطن الإنسان رغم سلامة الظاهر بالأعمال الصالحة والعبادات وانشغاله بالدعوة إلى الله؛ وعلى هذا لا يمكن أن يمحي آثار تلك الآفات حتى يتخلى الإنسان بنفسه ويحدد معه أوقات خالية لمحاسبتها، ومن ثم أن يظهر ضعفه ووهنه أمام خالقه وكذلك يتذكر عظمة الله وقدرته الفائلة وكذا يوم الجزاء ومثوله بين يديه... وبذلك سوف يتساقط آثار تلك الآفات وسيحيا القلب بنور العرفان والصفاء ويزيل عكر الأثام والآفات.

٢- إن هذا الفعل يجلب محبة الله في الأفئدة، وبالتالي يبعث على أساسها التضحية والجهد وتقديم الغالي في سبيل دعوته، وعلى هذا لا يكفي للإنسان المسلم القناعة العقلية والعلمية فحسب حتى تسمو روحه وعواطفه، ولو كان ذاك كافية لكان المستشرقون وعلماء التجارب نالوا قبل كل الناس أهلية الإيمان بالله ورسوله وكسبوا محبته، ولكنهم بقوا مع تيقنهم على الضلالة والغواية.

٣- إن هذا الفعل منبع لكسب محبة الله بعد الإيمان به، والوسيلة إلى هذه الأمنية هي كثرة التفكير في آلاء الله وعظمته وادراك مدى جلالاته، ومن ثم كثرة ذكره بالقلب واللسان، ولن يتيسر هذه الأعمال إلا بالتنحي عن الناس والبعد عن مشاغل الدنيا لفترات منقطعة ومتكررة.

وبناء على هذا يجدر للدعاة أن يتزود عن هذا الزاد وينبت في قلبه محبة إلهية فائقة بحيث يستصغر عنده كل العظيم والغالي ما سواه، ولا يغتر كذلك بمغريات الدنيا ويستهن كل الأذى والضر الذي يصيبه في سبيلها^(١).

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٧٥-٧٦.

ولقد أحسن العلامة الشاطبي^(١) رحمه الله بيان المطلب السابق بمقارنة جميلة وعد أن الإيمان المنبعث من العواطف ثمر بنتائج مذهلة وباعث على الالتزام الأمثل لدين الله بالنسبة لإيمان عموم الناس، وبهذا يقول: فالضرب الأول (أي إيمان العوام) قد يعمل بحكم الإسلام وعقد الإيمان من غير باعث زائد، وأما الخواص فإيمانهم منبعث على أساس الخوف والرجاء والمحبة، وهكذا الخوف هو سوط سائق، والمحبة تيار حامل، والرجاء حاد قائد؛ وبالتالي الخائف يعمل لوجود المشقة غير أنه يحملها على الصبر وهو بالنسبة له أهون، وأما الراجي فيعمل مع المشقة وبالتالي يصبر وهو مع الرجاء له راحة، وأما المحب فيبذل جهده لشوق المحب، وقد يسهل له هذا الشوق الصعاب ويقرب له البعيد^(٢).

ويتضح مما سبق أن هذه الخلوة والعزلة المبنية لتحقيق الأهداف السابقة مطلب ومقصد شرعي حث الوحي الإلهي المسلمين بها، ونرى كذلك مظاهره في حياة النبي ﷺ الدعوية، ومن بعده في حياة السلف الصالحين، وقد التمس وأدرك الناس مظاهرها في حياتهم، ولكن ينبغي أن تقوم هذه المهمة على أساس الشرع ولا يفرط الناس في اتيانه بحيث يعزل؛ وشتان بين هذه الخلوة وما فوقها، وعنهما يقول السالكون: ولسنا نريد بالعزلة مفارقة الناس في الجماعات والجمعات، وكذلك ترك حقوقهم في العبادات وافشاء السلام وترك التحيات، وما شابهها من الحقوق الواجبة عليهم، وكذلك وضع السنن والمندوبات والعادات المستحسنة فيما بينهم... وإنما نريد بالعزلة نبذ فضول الصحبة وترك الزيادة منها وحط العلاوة الزائدة التي لا حاجة بك إليها.

وبناء على ذلك إن جرى في الصحبة الإستكثار من المعرفة، وكان يدعو ذلك إلى شغف النفوس وإلف العادات وترك الإقتصاد فيها؛ كان ذلك جدير ألا يحمد ويخشى عاقبته، وحاله مثل الذي يتناول الطعام في غير جوع أو يأخذ فوق حاجته، وبهذا لا يلبث إلا ويمرض ويشق عليه^(٣).

وصفوة القول: إن العزلة والبعد الزائد عن الحاجة وسيلة مؤثرة في تربية الدعاة وحاملي رسالة الإسلام، وقد يتيح لهم هذه فرصة المحاسبة والتقويم مع النفس فيتدارك بها مزالق نفسه وأسلوبه، وكذلك باعث على جلب محبة الله التي طالما أمر الله عباده بأن يكسبوها على صفاء الروح والبعد عن الإستسلام لهوى النفس وشهواته.

٢- الهجرة من أعظم الوسائل الدعوية: لقد ارتبطت الدعوة الناجحة إلى جنب الدعاة المخلصين وقوة المضمون والمدعوين المطوعين إلى أخذ وسائل مناسبة تعين الدعاة في سير هذه المهمة المباركة.

(١) شاطبي (٧٩٠ - ٨٠٠ هـ): إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي: أصولي حافظ. من أهل غرناطة. كان من أئمة المالكية. من كتبه: (الموافقات في أصول الفقه، و (المجالس) شرح به كتاب البيوع من صحيح البخاري. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ٧٥.

(٢) انظر: الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان (الرياض، دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م)، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣) انظر: الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد البستي، العزلة، المحقق: ياسين محمد السواس (دمشق، دار ابن كثير، ط ٢، ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م)، ص ٥٩.

ومن إحدى هذه الوسائل اختيار البيئة السليمة الموائمة والتي يحتضن هؤلاء في مهمتهم، وذلك بأن يعيش فيهم أولئك على أقل تقدير بسلام يمارس فيها العبادات والشعائر الدينية على طمأنينة، ومن ثم يدعوا البرية إلى هذه الكلمة السامية ويرد الناس عن الغواية والضلال، أو بعبارة أخرى أن يجدوا هؤلاء لأنفسهم مكانا يمكنهم من أداء العبادات والشعائر وكذلك مواصلة الدعوة بهيئة فيها قادرين على وصول الكلمة ومبتغاهم إلى المدعوين، وإن كان فيها العسر والمشاق؛ ولكن لما تصل الحالة إلى وضع يعجز فيها هؤلاء أو يقعون في الفتنة والإبتلاء من حياتهم وأهلهم وفوق كلها بدينهم؛ فهنا ما عليهم إلا أن يلجأوا إلى تغير بيئة مناسبة أخرى يكونون فيها قادرين على الإجراء.

وقد سمى الله هذا التكليف باسم الهجرة وشرعها لأن تكون الدعاة في توسع من أمرهم وفسحة لهم للتأهب والإعداد، وريثما يجدون الفرصة أو التمكن فيرجعون إلى ما كانوا فيها، وبالتالي لا يتهم هؤلاء بلجوءها بالجبن ولا التراجع، فالهجرة إلى جنب حفظ مقصد النفس أصبحت وسيلة دعوية ناجحة، وهكذا وطن الدعوة حيثما تكون فيها مصلحة الدعوة.

ولسوف يجد الممارس لتاريخ الدعوة الإسلامية بوضاحة أن الداعي الأول ﷺ مارس بأخذ هذه الوسيلة في دعوته الأولى، وخاصة في غضون سنواته الأولى، ومن ثم ربي الطليعة الأولى من أصحابه عليها، وذلك قبل أن يسلكها في آواخر السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية، وبالتالي نال منها الدعوة الإسلامية مكاسب عظيمة، ولم يكن كما يقال أنها كانت لأجل رسالة حفظ النفس وأمنها فقط.

وعن مدى أهمية الهجرة للدعوة الإسلامية يقول الدكتور بوطي رحمه الله: إن الهجرة نوع عسير من المحنة والعذاب، وقد يتحملها الدعاة المؤمنون في سبيل الدين والدعوة، وليست في جوهرها الهروب من المحنة واللجوء للراحة، بل هي تبديل للمهمة والمحنة حتى يأتي النصر والفرج.

وهكذا قد شرع الله على عباده للحصول على رضاه ومحافظة على عقيدتهم ودينهم إن اقتضى الأمر بأن يضحوا في سبيله المال والأرض والوطن، وهذه التضحية والفداء وإن بدأ في أول الأوان فقدانا لكل ما سبق ولكنها يضمن لهم في آخر الأمر.

ولسوف يدرك المتفحص في هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة هذه الحقيقة جليا، فقد كانت الهجرة في الظاهر تركا للوطن وضياعا له ولكنه لفعله ضمنها وحفظها إلى الأبد، وهكذا كما تقول القاعدة: رب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشيء يبدو في صورة الترك له والإعراض عنه، وقد عاد هذا الداعي بعد بضع سنوات من هجرته إلى وطنه بفضل هذا الدين وبركة الهجرة التي قويت شمل دعوته، وأقام على إثرها دولة عظيمة على هيئة أنه كان عزيز الجانب ومنيع القوة^(١).

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٠٩ و ١٥١.

ويستنتج من الفقرة السابقة أن الهجرة هي وسيلة مؤثرة في حماية الدعوة، وقد يلجأ إليها الدعاة حفاظاً على عقيدتهم وحياتهم والتي تعد الأساس الأول لإجراء المهمة الدعوية، وبالتالي مؤثرية الهجرة تربط بأنها تضمن للدعاة المداومة والإستمرار في عمله، وقد يجعلهم أقوياء عزيزين، ويمنح لهم فرصة التأهب والاستعداد لإعادة الكرة. وقد يضيف إلى ما سبق المفكر الإسلامي سيد قطب رحمه الله إلى رسالة تلك الهجرة قائلاً: إن الدعوة تحتاج إلى قاعدة متينة، وبهذا لما رأى قائدها الرسول ﷺ اضطهاد المؤمنين وضرهم في مكة لجأ بالبحث عن قاعدة أخرى بحيث تحمي عقيدتهم ويتكفل حريتهم ويتيح لهم مع ذلك التخلص من الجمود التي كان واقعا عليهم في أجواء مكة، وقد منحهم الأرضية الأخرى حرية الدعوة وكذلك حماية المضطهدين من الفتنة... وبناء على هذا فرسالة الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة لم يكن سببها الأول مجرد نجاة أنفس أولئك وحمائيتهم مع ضرورتها؛ والدليل على ذلك أن أغلب المهاجرين في تلك الطليعة والموكب كانوا أصحاب وجاهة وقوة ومنعة، وذو عصابات قوية كانوا قادرين على تحمل الأذى بالنسبة لأولئك المضطهدين والفقراء الباقين في مكة^(١).

وبالجملة فالهجرة في السيرة النبوية سواء كانت هجرة الصحابة أو الرسول ﷺ تعد وسيلة مؤثرة دعوية وذلك لحماية العقيدة والدعوة، ويمنح للدعاة فرصة التأهب والاستعداد وكذلك القوة والمنعة التي طالما يحتاجون هؤلاء في دعوتهم، إضافة إلى فتح ميدان جديد وبيئة قد يستفيدون منها على حساب جلب المدعويين الجدد.

٣- لقاء الوفود ومجالستهم من أنجح وسائل توصيل الدعوة: الدعوة إلى الله دعوة عالمية وتناط توصيلها وتبليغها إلى المدعويين بتتبع وتغير الوسائل والأساليب، وقد تجري بشكل فردي وإجتماعي. وهكذا اختيار وسيلة واحدة لكل من البيئات تبطئ عمل الدعوة أو يقل تأثيرها، ومن إحدى هذه الوسائل المؤثرة التي تنال بالجهود القليل نتائج غزيرة هي لقاء الوفود ومجالستهم. وقد يستعين من هذه الوسيلة في البيئات التي تكون بعيدة عن مركزية الدعوة أو تكون المهمة غريبة على الناس، ولكن لقاء هؤلاء يحتاج إلى تركيز وتفنن؛ وذلك لان الوفود غالباً ما يختار من خيرة المجموعة علماً وعقلاً وبياناً، ويوكل إليها أمور المجموعة على النيابة، وسوف يأخذون هؤلاء في مهمتهم التفحص والإمعان، وإذا أتاحت قناعة واجتذاب أولئك فإنهم يمهّدون على طبيعة الحال الطريق إلى اعتناق المجموعة الذين أوكلوهم أو أرسلوهم.

ويحسن بنا بداية أن نعرف هذا المصطلح: "الوفود جمع وفد أو وفد، وهم عادة الذين يردون على زعماء القوم في حاجة أو في مهمة ما، ويجب في حقهم التكريم وعدم الإهانة من طرف آخر"^(٢).

ولقد تنبه الرسول الأعظم ﷺ في باكورة دعوته من المرحلة المكية إلى هذه الوسيلة، واتخذ منها عوناً لجلب المدعويين الذين كانوا خارج بيئة مكة وحتى خارج نطاق الجزيرة العربية، واستطاع بفضلها مع أسلوبه العذب أن يجذب أولئك إيماناً وإسلاماً.

(١) انظر: قطب، السيد، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٩.

(٢) الأسطل، علي رضوان أحمد، الوفود في العهد المكي وأثرها الإعلامي (الأردن، مكتبة المنار، ط ١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م)، ص ٢٢.

وقد ذكر أهل السير أن أول الوفود إلى رسول الله ﷺ وخاصة من خارج مكة كان وفد نصارى الحبشة حيث جاءوا بعد وفادة المهاجرين إلى تلك الديار بغية تبين الحقيقة، وكان الرسول ﷺ وأصحابه في مكة بمحنة شديدة، ويعز كل من يدخل إلى هذا البلد، ولكنهم نالوا مبتغاهم بعد ما سمعوا القرآن الكريم وكلام النبي ﷺ، وبهذا قد أسلموا، وقد مر قصة أولئك في الفصل الأول من الرسالة^(١).

وأما عن مدى أهمية هذا الوفد ومجالسة الرسول ﷺ معهم وتأثيرها على الدعوة الإسلامية فيرى الدكتور البوطي رحمه الله: إن قدوم هذا الوفد الخارجي إلى مكة كانت بغية الوقوف على الحقائق، وقد أرسلهم قومهم ليعلموا خبر هذا الرسول الذي يحدث الناس وينبئ به كتبهم، وبالتالي لما جلسوا هؤلاء إلى صاحب الدعوة وسمعوا منه آيات الله عز وجل أطمأنوا إليه وأعلنوا ولاءه لهذا الدين رغم ما تصدى له أبوجهل وحذرهم منه.

وهكذا كانت الوفادة سببا لنصر الدعوة الإسلامية؛ فقد جاء القوم وعددهم يقارب ما بين ثلاثين إلى أربعين رجلا للوقوف على حقيقة هذه الدعوة، وقد وصلوا إلى المكان بالعبور عبر البحار، ولما عرفوا الحق أطمأنوا به؛ وبالتالي كان إيمانهم نصرا وظفرا لهذه الرسالة وخاصة في أصعب الأحوال التي يمر بها منتسبي هذه الدعوة، وهكذا الوفد ومجالستهم سببا لاذاعة كلمة الإسلام خارج مركزها شرقا وغربا، وأن الأعداء لا يمكنهم أن يحبسوا وجه الدعوة؛ وصار الوافدين بأنفسهم بعدها حملة لرسالة الإسلام، وهي طبيعة الدعوة الإسلامية يستقر جذورها في القلب؛ فإنها تنمو وتثمر ويأتي بالخير الكثير^(٢).

ويضيف الباحثون على ذلك أيضا: كانت للوفود آثار إيجابية عظيمة على الدعوة الإسلامية، وخاصة في مجال زيادة القاعدة الإعلامية للدين الإسلامي، وبالتالي كررت أخباره على مسامع الناس، وصاحبه يدعو على الدوام بخبرة وصدق وإخلاص وحكمة وموعظة حسنة... وهكذا إمتلأت روح أصحابه بالإيمان والإحساس بالثقة والطمأنينة، وقد جاءت في محصلتها أنهم أثروا كلمة التوحيد على متاع الدنيا الزائل، وقدموا لحمل رؤية الإسلام مرتجلين حتى في أصعب أوقاتها، ومن ثم صبروا أو صمدوا حتى انتصروا مكررين وجعلت كلمتهم أكثر اتساعا وذيوغا وانتشارا للحق والخير^(٣).

وختاما فإن مجالسة الوفود واستخدام هذه الوسيلة من أنجح الطرق لا يصال كلمة الحق والخير، وبالتالي يتيح لكلا الطرفين بأن يسمعوا بعضهم الآخر، ويزيل الشبهات المثارة حول الرسالة، وسيغلب في آخرها صوت العقل التي طالما هي خاصة وسمة دعوة الحق، وهكذا توظيف هذه الوسيلة تسهل أمر القائمين للتبليغ أيضا بحيث إذا أقنعت المجموعة فإن الجمهور سيتبعهم على إثرهم، ولكن يناط هذا الأمر بأن يضيف إلى هذه المهمة المحبة والإخلاص وكذلك التفنن والإستعداد اللازم.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٧٤.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١١١.

(٣) الأسطل، علي رضوان أحمد، الوفود في العهد المكي وأثرها الإعلامي، ص ١٧٨.

المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية

إن توفيق الداعية الناجح منوط باستخدام الأساليب المؤثرة والسهلة، وأن يكون بعيدا عن التكلف ومناسبا للبيئة التي يعيش فيه الدعاة، ونظرا لهذا فقد كان الرسول ﷺ يأخذ بأحسنها وأسهلها، والفترة المكية من دعوته هي المجال الخصب لمعرفة هذا الجانب، وذلك لأن الدعوة كانت غريبة على العقول والأسماع، وفي المقابل المواجهة كانت عنيفة وشديدة، ولهذا اختار منها ما كان مقنعا وسهلا حتى تمارس به دعوته ومهمته، ولسوف نقف على نماذج منها في عناوين تالية:

١- بدء الدعوة سرا وعدم المجاهرة بها أول الأوان: إن إتمام الدعوة الإسلامية بصيغتها الربانية تجعلها منذ اللحظة الأولى مواجهة من متبعي الشيطان وهوى النفس، وذلك لأنها جاءت لإصلاح النفوس وقطع تيارات الشيطانية ورغبات النفس المطغية والتي تحث البشرية إلى الغواية والضلالة؛ وبالتالي فهما تياران متناقضان لا يجتمعان معا في بقعة واحدة، وما لم تخلوا واحدة منها فلن تستطيع الأخرى أن تأخذ حيزا ومكانا وكذلك دورها ورسالتها. وعلى هذا المنطلق يجب على أرباب الدعوة الإسلامية أن يتنبه في دعوتهم إلى هذا الأساس ويكون حاذرين منذ اللحظة الأولى من القوة المعادية حتى لا تنفسد خلية الدعوة في بداياتها وتسير على خفاء وتستر ويجتمع الطليعة تقف معها في وقت العسر ويدافع عنها.

ولقد مارس النبي ﷺ في دعوته على هذا المنوال، ووضع لسير مهمة الدعوة أصولا ومبادئ لإنجاز وتوفيق هذه المهمة بحيث أصبحت على مدار الأزمان منهجا ثابتا للدعاة وكل من سار على دربه حزيت بالتوفيق والنجاح. وقد كانت لتستر الدعوة وخفاءها وعدم مجاهرتها في أوانها الأولى مكانة عظيمة لرسالة الإسلام بحيث تكونت التكتل الأولى، وقد نضجت معها أيضا تربية أولئك وصانت عن المخاطر والخصومة التي يلجأون إليها الأعداء، وعن هذا يقول الدكتور البوطي رحمه الله: إن تستر النبي ﷺ في دعوته في السنوات الثلاثة الأولى لم يكن بقصد الحفاظ على النفس والخوف على حياته؛ فقد علم وتيقن فور إبعائه بمهمة الرسالة أن الله سيحفظه ويحميه، ولو كان ذلك لما تأخر الرسول القائد ﷺ عنها لحظة، والحكمة في ذلك أنه فعل كل ذلك بأمر ووحى إلهي بأن يكون مهمة الدعوة بدايتها في تستر وتكتم ولا يكون عرضها إلا لمن يغلب الظن بأنه سيصبح مؤمنا أو مسلما.

وفي هذه الحادثة درس للدعاة للأجيال القادمة بأن يكونوا حذرين من تربص الأعداء وأن يأخذ الحيطة في أمرهم، كما يلجأوا في دعوتهم للوسائل والأساليب المناسبة للغايات التي يريدون ابتغاؤها؛ وبالتالي أن يبعدوا عن المعتقد الخاطئ بما يسمى الاعتماد والاتكال على الله وحده؛ فإن هذا يضر ويخالف أصل الإيمان والعقيدة الصحيحة إضافة إلى طبيعة الدعوة الإسلامية وأصولها الصحيحة^(١).

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٨٤.

ويستنتج من الفقرة السابقة أن التستر والخفاء وعدم مجاهرة الدعوة أول الأوان من الأساليب الناجحة في الدعوة الإسلامية، وقد يلجأ إليها الدعاة في بدايات أمرهم بغية التحفظ واتقاء أمر الدعوة من وقع الشر التي طالما يلجأ إليها الأعداء. وفيها رد كذلك على من يلجأ إلى أسلوب التهور وذلك باسم الشجاعة والإعتماد على الله وحده، وهو في نوعها تصور خاطئ عن العقيدة الإسلامية ومضرة لحساب الدعوة الإسلامية، ولو كان ذلك مقصودا للرجاء إليه خير البرية والرسول المعتمد ﷺ.

وإن من حكمة سرية الدعوة وعدم مجاهرتها أول الأوان: أنها كانت بغية ترسيخ مفهوم التدرج في الدعوة، وأن على الدعاة أن لا يستعجلوا في الأمور، ولا يقدم مرحلة على مرحلة إلا بعد دراستها الوافية مع ضرورة الأخذ بالأسباب.

والأمر المستفيد الثاني منها أيضا أنها كانت مراعاة لأصل التغير الذي كان يطلبه النبي ﷺ من عمله، وهو كان يريد تغييرا شاملا في حياة الإنسانية جمعاء، وعلى هذا كان لا بد أن يسير على أسس التغير، ومنها أن يراعي أحوال تلك المجتمع بأصنافه وفئاته.

وبناء على ذلك فالدعوة الجديدة ستصدم لا محالة في مجتمع يسودها المشركون الذين عكفوا عليها منذ أمد بعيد وورثوها عن الآباء والأجداد.

وخلاصة القول: إن تستر الدعوة وخفاءها من الأساليب المؤثرة الدعوية والتي يلجأ إليها الدعاة في مجتمع غريب دعوي على المدعويين، وخاصة في المجتمع الذي يسودها الضلالة والجهالة، ولهذا يلجأ إليها هؤلاء بغية التغير التدرجي الذي يراد من هؤلاء كمقصد شرعي في هذا الباب، ولكن لا يعني أن يعم هذا الأسلوب لكل البيئات والمجتمعات، فهناك مجتمعات لا يحتاج إليها بسلوك واختيار هذا بل يذعنون بصوت فطرتهم إلى دعوة الحق والخير؛ ومن هنا فقد يقدر على الدعاة الذين يختارون الجبن والخوف ومن ثم يستدلون على سرية الدعوة الإسلامية اللجوء إلى ذلك الأسلوب، وهكذا يضررون أنفسهم والدعوة بها.

٢- مراعاة الحكمة وحدودها: لقد قامت الرسالة الإلهية المرسلة بواسطة الأنبياء والمرسلين على مجموعة من المهام والمقاصد العليا، ومن أهمها التعليم والحكمة والتزكية والتي تنجي البشرية من الضلالة الواضحة البينة، وبالتالي كانت من مقتضاها أن تأتي على أسلوب الحكمة والعدل، ومن ثم يتعامل مع كل شيء في مسيرتها على هذا الأساس؛ ويلزم على أصحابها أن تختار لشرف الغايات والأهداف الوسائل والأساليب التي فرضت لها.

وبناء على ما تقدم فالحكمة هي أساس الدعوة الإسلامية وبها ميزت هذه المهمة العالية، فيضع كل شيء سواء كان من الأقوال والأفعال والسلوك وحتى المجادلة مع الآخرين على قواعدها، وهي بذلك مرد الشرع الحكيم التي طالما يدعوا الله عباده المخلصين بتسلكها، وفي المقابل خلو الدعوة منها تواجهها بالفشل والخذلان وعدم التوفيق.

وقد وبخ الله الدعاة الذين يغفلون عن هذا الأسلوب ويوضح لهم أن شرف الغاية لن يكتفي للوصول إليها ما لم يسلك في سبيلها الوسيلة والأسلوب النبيل، وبعبارة أخرى فالحكمة هي من لوازم الوصول إلى الغاية الشريفة وما لم يسلك في نيلها الوسائل والأساليب المناسبة فإنها تكون بعيدة عن الحكمة والعدل وهي أساس الصحة والاستقامة. وقد سار النبي ﷺ على هذا المنهج في دعوته وعرفت كل فترات تبليغه عليها، ولم يغفل عنها للحظة واحدة، وإذا صدر منه في أي لحظة عملا ما يختل بهذا الأصل بأي مبرر إلا ونبه الله عليه على الفور، وذلك لأن لا يكون الأمور معوجة وتنزل في طريقها، وطلب منهم بالتأكيد والدوام أن يكونوا ملتزمين ومعتصمين بالحكمة والموعظة الحسنة. وأما عن أهميتها ومدى توظيفها في الدعوة إلى الله فيقول الدكتور البوطي رحمه الله: لقد ارتبطت الشريعة الإسلامية الغايات بالوسائل الدعوية، وعلى هذا لا يمكن لأحد أن يسلك لمبتغاها وسائل حرة لا يكون للشريعة دخل أو ضبط فيها، ولو كان ذلك مصوغا لأختل مبادئ الدعوة معها بنفسها.

وهذه هي الذات النقطة الفارقة بين الدعوات التي يمارسه الصادقون والكذابون الدجالون والذين يخدعون الناس على كذبهم للوصول إلى مطامعهم.

ومن هنا فلم يشرع الحكمة في الدعوة لأجل تسهيل مهمة الداعي أو التخفيف من حدة المتاعب أو التوتربل هي في الحقيقة سلوك أقرب الوسائل إلى ترسيخ الأفكار والوصول إلى عقول الناس، وإذا أقيمت الصدود أمام سبيل الدعوة فإن من تمام الحكمة أن يقدم أصحابها للتضحية بالنفس والمال، ويعدوا لمرحلة الجهاد، وبهذا فالحكمة هي أن تضع كل شيء في مكانه^(١).

والحكمة كما مر بنا هو أساس الدعوة النبوية في كل مراحلها، وبالتالي لم يغفل عنه ولا لحظة واحدة، وكلما تنحى عنه في موضوع ابتغاء مصلحة أو حسابا منه أنه حكمة أخرى كان الوحي الإلهي يقومه على الفور، وخير نموذج كما هو المشهور في قصة عبد الله بن مكتوم رضي الله عنه حينما دخل مجلس النبي ﷺ وهي كما يذكره المفسرون: أن النبي ﷺ كان يخطب يوما سناديد قريش ومن ثم طمع في إسلامهم، فإذا بعبد الله بن أم مكتوم يخاطبه في أمر من الدين ويلح بالدخول، ولكن الرسول ﷺ كان يود أن يؤجل طلبه حتى يفسح المجال للزعماء بغية أن يؤمنوا هؤلاء، وفي هذا الصدد قطب وجهه أمام ابن مكتوم لهذا الغرض، وعلى فوره أنزل الله عليه:

: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى (٣)﴾ (عبس: ١-٣)^(٢).

وعن الدرس المستفاد عن الحادثة يقول البوطي رحمه الله: إن هذه الآيات أنكرت اجتهاد النبي ﷺ مع أن غايته وقصده كان شريفا ونبيلًا، ولكنه لجأ إلى وسيلة انطوت على كسر خاطر المسلم المخلص وذلك بالإعراض عنه وعدم الالتفات له، فأنكر الله عليه وأصبحت هذه الوسيلة غير مشروعة ولا مقبولة.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٩٩.

(٢) انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، ج ٤، ص ٧٧٥.

ويستفاد منها كليا أنه لا يجوز لداعي أن يغير من مبادئ وأحكام الإسلام أو يغيره حدوده بحجة اتباع الحكمة أو بغية المصلحة، وبهذا فالحكمة هي مرتبطة بالشرع وحيثما كان ذاك فهي الحكمة والمصلحة^(١). ونتيجة لما سبق يستنبط أن الحكمة هي أسلوب دعوي متميز، وقد أنيطت بها الدعوة الإسلامية وتعد بمثابة شرط هذه المهمة الجليلة، وبالتالي يجب على أصحابها أن يأخذوا بها ولا يغفل عنها، ولكن شريطة أن توائم مع الغاية الشريفة التي يسلكها الدعاة، وعليهم أن يعوا أيضا أن الحكمة هي منضبطة بأصل الشرع؛ ومتى خرجت عن دائرتها فلا يوجد حكمة ولا مصلحة.

٣- وجوب الاعداد والتخطيط في عمل الدعوة: الدعوة إلى الله تعالى عملية متكاملة حيث تقوم على الأركان والشروط، وتناط اجراءها بظرف الزمان، وكذلك احتضان البيئة التي من خلالها تسير هذه العملية، وهي بذلك مهمة مستمرة ومتداومة، وتقوم سيرها على اتخاذ الأسس والمبادئ واجادة الفن والإدارة في أعمالها المتنوعة. وهكذا نجاح هذه العملية الجليلة كما تحتاج إلى قوة ونصاعة المضمون، وشخصية دعوية مؤثرة فهي مفتقرة أيضا إلى تفنن وابداع صاحبها باستعمال الوسائل والأساليب المناسبة، والتي تكسب للدعوة انجازات وتوفقا. وأساس اللجوء إلى كل هذه المبادئ هي التأسى بالرسول ﷺ، والذي طلب من المؤمنين بأن يمارسوا أعمالهم على الإجابة والإتقان حتى ينال صاحبه محبة الله ورسوله، ولما كانت الدعوة هي غاية شريفة حيث يسعى حامله توجيه الناس إلى دين الله وعبادته، كان أولى بأن يمارس على الإتقان والتفنن، ومن إحدى أسس هذا الفن الإعداد والتخطيط المناسب لكل البيئة والمجتمع الدعوي الذي يدعوا فيها الداعي.

وهكذا كما مر بنا في المباحث المتقدمة تعريف التخطيط فإنه النظر إلى المستقبل والنتائج والأهداف التي يرمي بها إلى بلوغها مع تحديد الوسائل والأساليب الكفيلة إلى تحقيقها.

وسوف يرى الدارس للسيرة النبوية المطهرة اهتمام النبي ﷺ بهذا الأسلوب والفن وجعل ذلك منطلقا لدعوته، وبالتالي كان يخطط لكل مرحلة وعمل، وكان يضع لها أهداف مع تحديد الوسائل والأساليب التي يوصله إلى ذلك، ويختار مع ذلك أساليب لمواجهة الصعوبات والاحتمالات المنتظرة؛ ولكن ما يميز عمله عن باقي المهام الإنسانية أنه كان بعد الإعداد يتوكل على الله عزوجل ويوكل له الأمور، وكما كان يستعين في بداية الأعمال بمسألة توفيق الله؛ وبهذا فالتوكل هو السير في المهام على أساس العدة والتخطيط التام ومن ثم تفويض النتائج إلى الله عزوجل.

وقد ذكر أهل السير نماذج لذلك، وخير شاهد على ذلك لجوء النبي ﷺ للتخطيط واعداد العدة في مسألة الهجرة النبوية، فقد ذكر ابن هشام في سيرته: أن جبرئيل عليه السلام لما أخبر النبي ﷺ بأمر الله له لهجرته، عمد هو لبعض الأمور وتخطط بأساليب وأخذ العدة ومنها، أنه أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأن ينام على فراشه ومن ثم

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٠٠.

أخذ حفنة من تراب ينثره على رؤوسهم فلم يرونه أحد حتى أتى لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم عمدا إلى غار ثور فدخله، وأمر ابن الصديق بأن يتسمع لهما ما يقوله الناس في النهار ويأتي لهما في المساء ليسمعهما، وأمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولاہ الراعي بأن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما في المساء وأسماء بنت أبي بكر تعد لهما من الطعام لما يصلحهما^(١).

ولقد استنبط العلامة البوطي رحمه الله من خلال وقوفه على هذه الحادثة حكما ودرسا عظيما، وأدحض في هذا الصدد شبهة أثارها البعض في حادثة هجرة عمر بن الخطاب حيث هاجر علانية دون خوف، وأما هجرته ﷺ فكان على تستر أخذًا بالتدابير الاحتياطية، وبهذا هو أشد جرأة من النبي ﷺ، فيقول: إن عمل عمر رضي الله عنه وغيره من المسلمين ما سوى الرسول ﷺ تعد تصرفات شخصية ولا يحسب حجة تشريعية، وبهذا لهم أن يختار من الطرق والوسائل والأساليب بما يتفق مع جرأتهم وقوة إيمانهم، وأما ما كان من رسول الله ﷺ فهو المشرع، وتعد سائر أعماله وتصرفاته المتعلقة بالدين أحكاما ودينا، فلو فعل مثل ما فعله عمر لفهمه الناس أنه من الواجبات، وبناء عليه كانوا يحسبون أنه لا يجوز أخذ الحيلة والتستر في أمور الدنيا حال كونه أن الله ربط في الدنيا الأسباب بالمسببات. ونذكر أن رسول الله ﷺ بهذا الصدد استعمل في كله بالوسائل والأساليب و المادية التي يهتدي إليه العقل البشري، وخطط لذلك خطة متينة، واستعان في نيلها بكل الأساليب ولم يترك واحدة منها.

وعلى هذا لم يكن قيامه بهذا الأمور خوفا على نفسه أو التخوف من أن يقع في مكيدة الأعداء بل كل ما قام به كانت خطة أو وظيفة تشريعية، وكلما انتهى من أدائها عاد قلبه مطمئنا بالله ومعتمدا على حمايته وتوفيقه، وبالتالي اللجوء إلى هذا الأمور كان لتعليم المسلمين بأن يكون توكلهم واعتمادهم على الله، ولكن مع احترام الأسباب التي جعلها الله في هذا الأمر طرقا يلجأون إليه^(٢).

ونذكر من الفقرة السابقة أن الدعاة إلى الله بحاجة في مهمتهم إلى الأخذ بالأسباب وترتيب الخطة أو التخطيط المناسب لما يوصلهم إلى غايتهم، وهو أسلوب مستقيم تتفق مع منهج الدعوة النبوية والتي تعد للأمور حسابا ويتوقع المستقبل والأخطار المحيطة مع الاعتماد على الله عز وجل، ولا يكون كالمتواكلين الذين يحرمون الأخذ بالأسباب والذي خلقهن الله كسنة جارية في حياة الدنيا، وبهذا يخطئون في فهمهم فضلا عن حرمان نعمة التوفيق للوصول إلى غايتهم.

وأما عن أهمية أسلوب التخطيط في الدعوة فيقول الباحثون عن ثمارها: إن أهمية تتبع هذا الأسلوب يتضح من خلال معرفة الفوائد المكتسبة منها وهي كالآتي:

١- إن مهمة التخطيط يسهل أمر قيادات الدعوة ويجعلهم يدركون المطلوب وكيفية انجازهم بسهولة ويسر.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ٩٧-٩٨.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٠٠.

٢- التخطيط ينسق الجهود ويركز الإلتباه على الأهداف والمقاصد، وبالتالي يساعد على زيادة الكفاءة فضلا عن سرعة تحقيق المقاصد.

٣- يتيح معرفتها القيادات إلى معرفة المشاكل المتوقعة حدوثها والاستعداد لمواجهتها.

٤- يساعد هذه المهمة على تحقيق الرقابة العملية في مراحل تنفيذها ومن ثم تتيح لهم فرصة تقييم الجهود.

٥- يعطي هذا الأسلوب القيادات والأفراد نوعا من الثقة وكذلك نوعا من الأمن النفسي باستمرار العملية.

٦- يجعل عملية التخطيط الطاقات البشرية والإمكانات المادية يستغل ويستوظف بأحسن طريقة ويتقي عن ضياعها.

٧- تؤدي مهمة التخطيط إلى بناء ادخار المعلومات وتوفير تهيئتها للإستفادة منها في العمليات الأخرى^(١).

وبالجملة: فالتخطيط هو أسلوب مؤثر دعوي يساعد الدعاة في تسهيل أمورهم، ويعد كذلك سبيلا لمواجهة الصعوبات والمخاطر التي طالما يعترضهم في طريقهم، فضلا على أنه يجعل المهمة منظمة بعيدة عن التشطط وضياع الجهود والإمكانات.

(١) انظر: المكي، عبد المولى الطاهر، التخطيط للدعوة الإسلامية (الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، ص ٢٢-٢٣.

الفصل الثاني

فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المدني

لقد ميزت الفترة المدنية من السيرة النبوية المباركة بالقوة والمتعة واتساع رقعة الإسلام مع ايجاد وزاع وسلطة تحكم بالإسلام وتسعى لها، وهكذا تغيرت البيئة المقهورة المضطهدة إلى مجتمع غالب ينشر رسالة الدين بكل عز ومباهة علنا لا يهاب إلا الله عزوجل؛ وبفضل هذا تحصل المسلمون وسائل وأساليب عزيزة لم تكن معهودة بناء على ظروفها في الفترة المكية، وبهذا أثمرت تلك الجهود أهدافا غالية وعزة وكرامة.

ونظرا لأهميتها لقد وقف الأعلام الأجلاء على أهم تلك الوسائل والأساليب في ظلال السيرة النبوية من المرحلة المدنية حيث أبينه في المباحث الآتية.

المبحث الأول: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى المودودي

الوسائل والأساليب هي الطرق والأدوات الحسية والفنية لمسيرة الحياة البشرية بغية الوصول إلى المقاصد المعنية، وهي بطبيعة الحال مرتبطة بالمجتمع والبيئة التي يمارس فيها الإنسان الحياة ويأخذ قوة وضعفا وتغيرا وتنوعا بناء على مؤثراتها وضرورتها؛ وعلى هذا المنطلق وقف الإمام المودودي رحمه الله على أهم جوانبها المميزة في العصر المدني وسوف نوضحه في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية

الوسائل هي الأدوات المساعدة لإنجاز الأهداف أو هي أسباب يتوصل بها إلى المقاصد سواء كانت حسية أو معنوية، وبالتالي تعد وجوده سبب لتحقيق الأهداف التي يتبغي الداعي طلبه، وهكذا تفوقه وحطه تعد علامة على مدى علو الغايات ونزولها. والدعوة الإسلامية كغاية أو مهمة شريفة بحاجة إلى توظيف وسائل نبيلة واسعة الأفق والمدى، وبالتالي سوف نلمس على أهم نماذج منها في الفترة المدنية المباركة.

١- بناء المسجد ومكانته الدعوية: لقد أنيطت مسيرة الأعمال الدعوية بوجود مكان ومركز يأوي إليه الدعاة أثناء مهمتهم بغية التعليم والتوجيه والتقويم، وكذلك سائر ما يهمهم في حياتهم اليومية، وبهذا يجدون راحة وقوة معنوية واعدادا مناسبا ينظم عملهم، فيسيرون على منهاج مستقيم على طبق ما يؤول إليه القائد من التوجيه والقرار وغير ذلك.

ولقد تنبه النبي ﷺ بمثابة القائد والداعي الأول للأمة الإسلامية لهذه الوسيلة المؤثرة، واتخذها منذ الفترة الأولى من المرحلة المكية وذلك باتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم كأول مركز دعوي لاجراء سائر المهام السالفة، وقد مر بنا في الفصل السابق أهميته ودوره؛ واستمرارا لأهمية ذلك بادر الرسول الأعظم ﷺ في الفترة المدنية كذلك بإنشاء المركز والمقر الأساسي للمسلمين، وذلك بهيئة عالية مرموقة في الأوان الأولية فور وصوله إلى المدينة المنورة كأول عمل يقوم بإنجازه وهو بناء المسجد النبوي الشريف.

وقد ذكر أهل السير بناء المسجد في بدايات هجرته ﷺ، ومنهم ابن هشام حيث يقول: لما خرج النبي عليه الصلاة والسلام من قباء نحو المدينة والناس ملتفين حوله يستقبلونه ويطلبون منه النزول عندهم إلا أنه وكل الأمر لبروك الناقة بناء لمأموريته حتى بركت في مريد لغلّامين يتيمين سهل وسهيل إبنني عمرو، فسأل عنهما حتى علم واتخذته منذ الحين مسجداً، وقد كان يعمل به بنفسه ليرغب المسلمين من المهاجرين والأنصار؛ وفيها أنشد قائل منهم:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا منا العمل المضل

وكان المسلمون أيضاً يغنون في البناء:

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم أرحم الأنصار والمهاجرة^(١)

وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه: أن موضع المسجد كان لبني نجار، وكان فيه بعض النخيل والحرث وقبور أهل الجاهلية، وقد طلب منهم رسول الله ﷺ بيعه، فقالوا: لا نبتغي ثمنًا ونطلب أجراً من الله، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور حتى نبشت، وبالنخيل حتى قطعت فبناه مسجداً، وقيل إنه اشترى موضع المسجد من الغلامين اليتيمين^(٢). وأما عن أهمية ومكانة الدعوة للمسجد فيرى السيد المودودي رحمه الله: لقد كان بناء المسجد النبوي إحدى معالم الحياة الاجتماعية الجديدة، وبفضلها استطاع ﷺ أن ينشئ جماعة مرتجلة مطوعين لخدمة الدعوة الإسلامية، وبالتالي أنشأ بجوار مسجده صفة كمأوى للغرباء والفقراء وكذلك لكل الوافدين الذين لا يملكون داراً ونفقة، وهكذا إذا كان لم يشغله أمر فإنه كان يجالسهم ويعلمهم الدين ومن ثم يكلفهم أن يبلغوها للآخرين، وظل يريهم حتى أصبحوا أعلاماً في العلم والتربية.

ونظراً لهذا لم يكن هذا المكان سكناً للفقراء والمساكين فحسب بل أصبح في تاريخ الإسلام مدرسة وداراً للتربية حتى شاع أنوارها للعالمين. وقد كان ﷺ يحث ويرغب كل هؤلاء بأن يصبح منهم دعاة ومبلغين وحملة لرسالة الإسلام، وأوضح لهم كذلك أن أفضل الناس فضلاً هم الذين يأوون للمساجد بغية أن يعلم الناس الدين وآيات من الذكر الحكيم^(٣).

ويضيف الباحثون إضافة إلى ما سبق: لقد ارتبط التاريخ الإسلامي منذ أيامه الأولى بالمسجد ومكانته المرموقة، وبالتالي لم تقصر الشريعة رسالتها بأداء عبادة الصلوات المكتوبة فحسب، بل جعل النبي ﷺ ذاك مكاناً يمارس فيه المجتمع الإسلامي أهدافاً عالية، ويكون له دور إيجابي في حياتهم؛ فهو بذلك موضع التلاوة والتدبر ومهد للتربية والعلم، ومقر للمجالس الاجتماعية، ويمارس فيه المجتمع صلحهم وقضاؤهم وملتقى للتكافل وموضع للرأي والمشورة وخاصة فيما يتعلق بشؤون الحرب منها. وقد كان ﷺ بنفسه يستقبل فيه السفراء والوفود ويعقد مهم المعاهدات، وفوق كله فقد كان ملتقى المسلمين حيث كان يتلى فيه القرآن الكريم.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ١٠٤.

(٢) انظر: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (تاريخ الطبري)، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٣) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرة سيد العالم (سيرت سرور عالم)، ج ٣، ص ٧٢-٧٣.

وقد ذكر: أنه كان ثكنة عسكرية للمجاهدين في بعض الأحيان حيث أصبح في بعض الأوقات ساحة للتدريب على فنون القتال، وبعض الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعدون الأقواس والسهام، وحتى أصبحت في وقت ما مركزا للإسعاف ومكانا لتمرير الجرحى وغيرهم... وبالجمله فقد مارس المسجد منذ الأيام الأولى رسالته، وأصبح بذلك مركزا ثقافيا وأنموذجا حضاريا بحيث يشاع منه اشاعات ساهمت في تطور الإنسانية وغيرت مجرى تاريخ العالم^(١).

ويتضح من الفقرتين السابقتين أن المسجد هو وسيلة مؤثرة دعوية عرفت في التاريخ المبكر من الأمة الإسلامية حيث يمارس من خلاله وظائف وممارسات عملية بعيدة عن الأجواء النظرية، وقد اتخذ النبي ﷺ كأول وسيلة في الفترة المدنية وظل محتفظا به طول حياته، وكان معه أحب الأمكنة إليه حيث يقضي أكثر أوقاته فيه، ومن ثم يجد متعة روحية فيه إلى جنب الممارسات الدعوية المبدعة والتي لم تكن معهودة في الفترة المكية.

وينظر الباحثون كذلك أن المسجد كوسيلة دعوية هي من إحدى نقاط تميز الدعوة الإسلامية عن باقي الدعوات في كثرة مجالاتها ومن إحداها جانب الوسيلة، وبهذا يقولون: فالمسجد له من السر والحكمة الذي امتاز به عن معابد أهل الديانات والملل جميعا، وبالتالي أكبر امتيازه أنه ترجمة عملية لتكوين الفرد والمجتمع المسلم وعلى إثرها بناء الدولة الإسلامية وهكذا حقيقة الوجود الإسلامي في العالم.

وبهذا هو مكان العبادة والتربية الخلقية والنفسية والعناية الصحية، وفيه جانب التعليم والهام التربية العسكرية من معرفة الانضباط والعمل الجاد.

وبالجمله فالمسجد هو مركز التربية الشاملة الواسعة والعميقة حيث يسعى لغرس تربية الجانب العبادي والفكري وينمي الجانب الاجتماعي والنفسي والجسمي، واخيرا يبني شخصية الإنسان الصالح في المجتمع الإسلامي^(٢). وصفوة القول: لقد بدأت الفترة المدنية بتوظيف وسائل مبدعة ومؤثرة وعلى رأسها المسجد، وبهذا فهو يحتل عند المسلمين إضافة إلى تقدسه ومكانته الروحية التعبدية منطلقا للأمور التربوية وكذلك ممارسة الأعمال الاجتماعية من الخير والتكافل وبناء روح الجماعة المسلمة كقوة واحدة مترابطة، ويستلهم منه أيضا مدى شمولية وتكامل كلمة الدعوة الإسلامية وتميزها عن الدعوات والرسالات الوضعية الأخرى.

٢- كتابة الدستور لتنظيم شؤون الناس: الإسلام هو ملاذ الحياة البشرية، ودعوتها السامية كفيلة لتحقيق سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، ويقدم لها في تعليماتها كل ما يحتاجه هذا المخلوق الهادف كخليفة الله في الأرض من عمارة الأرض وتنفيذ أحكام الله وفوق كله عبادة الله واختيار مكارم الأخلاق، وعلى هذا يمارس الإنسان مهمته كموجود مكرم والعالم مسخر له؛ ولكن كل ذلك منوط بمتابعة أوامر خالقه والإجتناب عن نواهيه.

(١) انظر: علي محمد، دور المسجد في الإسلام (مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، ط ١، ١٤٠٢)، ص ٤٦ و ٦٧.

(٢) انظر: الرشيد، عبد العزيز راشد علي، رسالة المسجد التربوية (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م)، ص ٤-٨.

ولتحقيق هذه المهمة كان لزاماً أن يكون أمام الإنسان دستور وميثاق ينظم حياته ويكون سائراً عليه فيوجهه إلى ما فيه خير له وصلاحه، ولأهمية ذلك المبتغى بادر النبي ﷺ في بادي دعوته المدنية بكتابة دستور وميثاق كوسيلة مؤثرة وثابتة لحياة المسلمين في حياتهم وكفالة لمصيرهم الأبدي.

وعن مدى ضرورة هذه الوسيلة في الفترة المدنية وظروفها يقول المودودي رحمه الله: لقد كانت الفترة المدنية من حياته ﷺ هي الحد الفاصل للدعوة الإسلامية بالنسبة لما قبلها، وبالتالي لم يتمكن المسلمون بشكل مستمر أن يأخذوا أمور مجتمعهم ولا إنفاذ أوامر شريعتهم، كما لم يتسن لهم أن يبنوا حضارتهم الخاصة، وما أتيح لهم فرصة ترتيب نظام العيش والسياسة، وهكذا لم يكن لهم في أغلب الأحوال موقف يسمع في قضايا السلم والحرب آنذاك، بل كل ما كان يملكهم أنهم وضعوا لسير حياتهم أصولاً أخلاقية ومن ثم يفوح رائحتها على الأعمال الإنسانية، وهكذا ما كان ينتظر من الأتباع كان إلزاماً خلقياً حيث كان يدعوا إليه ﷺ على أساس الحث والترغيب، وكما لم تكن أيديهم مفتوحة لإجراء ما كان ينتظر منهم؛ وبالتالي فجملة أحوالهم قبل هجرة المدينة تتحدد في نقاط تالية:

١- لم يبلغ عدد أفراد المجتمع الإسلامي آنذاك إلى حد كبير حتى يغيروا الحساب والكرة، ولكن لما هاجروا إلى المدينة الطيبة بلغ عددهم إلى مستوى لا يستهان بهم، وهكذا لم يكن الأتباع في المرحلة الجديدة مجرد الإنتساب بل إنضمت معها روح التضحية والمحبة، وإن كان بدر منهم نماذج رفيعة في المرحلة المكية إلا أنها لم ترفع إلى مرحلة النضج، وبالتالي كان عليهم أن يقدموا شيئاً كثيراً.

٢- لم تنتشر مهمة الدعوة في ربوع الأرض على هيئة منظمة وإن كانت أذيعت صداها إلى أبعد المدى، ولكنها كانت غير منتظمة، ولم يكن لديها كذلك القوة الاجتماعية كما كانت للنظام الجاهلي آنذاك.

٣- لم تكن للدعوة الإسلامية أرضية واقعية بحيث يطبق له أنموذج حتى يراه الناس ويقبلوا عليه، بل جل ما كانت أنها جهود تؤثر في القلوب وكلمات للأسماع... ولكن لما هاجر النبي ﷺ إلى تلك الديار الطيبة تغيرت الموازين، وبالتالي أصبح مجتمعاً منظماً، وكان لزاماً أن يختار لسير الدعوة الإسلامية وسائل وأساليب جديدة توائم هذه المرحلة، ولهذا عمد النبي ﷺ لبعض الأمور، ومنها كتابة الوثيقة أو الدستور لتنظيم حياة ومجتمع المسلمين^(١).

واستنتاجاً لما سبق فإن الدعوة الإسلامية هي غاية عالية وثابتة، وأما وسائلها متجددة ومتغيرة، ويختار منها أمثلها وأنسبها حسب الظروف والأحوال، وبالتالي ينبغي على دعاة الحق أن ينتبهوا للأحوال والظروف التي تمر بهم حتى يحصلوا النتيجة المطلوبة، ويكون تيسيراً عليهم في جلب المدعوين وحث الناس على الخير والفضيلة.

وقد كان وضع الدستور أو الصحيفة المدنية هي الصورة المثلى لهذه الوسيلة في الفترة المدنية حيث جمع شمل المسلمين في مجتمع يسوده العدل والتعاون والإخاء، وكان حرياً للمسلمين أن يتكفل حالهم بوثيقة تحكم بينهم

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٦٤.

فيما كانوا فيهم، وما يحدث مستقبلا، وكذلك لتمارس ما عليهم من الحقوق والواجبات إلى جنب تسير الدعوة الإسلامية في جهتها المطلوبة كأصل وفرض حقيقي عليهم.

وأما عن أهمية ومكانتها الدعوية وثمارها فيرى السيد المودودي رحمه الله: "إنها تعد بمثابة أكبر وسيلة خادمة للدعوة الإسلامية، وقد حققت بفضلها مكاسب عظيمة وهي:

١- لم تكن هذه الوثيقة مجرد صحيفة سياسية يبتغي من وراءها المنافع المادية فحسب بل حملت في طياتها الدعوة إلى التوحيد والرسالة والإيمان بالمعاد والحث إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، وكذلك مراعاة الحدود التي بينها الرسالات السماوية وتقضي على إثرها على العصبيات والجمود الديني.

٢- لم تكن الوثيقة مجرد تصالح أو الترابط بين الأوس والخزرج بل انضمت في مضمونها الدعوة لكل القبائل العربية للدعوة إلى الإسلام، ومن ثم شمولها في مجموعة الأمة الإسلامية المحظية للحقوق والواجب والمتممة بالوحدة المثالية التي حيرت البشرية جمعاء.

٣- لقد حظيت هذه الصحيفة بالتعاليم الرفيعة التي تنظم أمور المجتمع والحضارة وكذلك تسد الباب على المفسد السياسية والاقتصادية التي طالما كانت مسيطرة على حياة العرب والناس أجمعين"^(١).

ومن هنا يرى الباحثون أن الوصول إلى هذه الأهداف والمقاصد لم يكن ميسورا إلا بوضع دستور وصحيفة سياسية في ظل الدولة، فيقول: لقد أدرك النبي ﷺ أن الإنقلاب الحضاري العظيم لا يتم إلا ببناء دولة وكذلك في مساهمة فكرة الحق في انهاض المجتمع، والسييل إلى ذلك هو التدوين لاستيعاب فكرة الحق وازدهارها.

وعلى هذا حينما نقارن هذه الوسيلة بالوسائل الأخرى نجدها أنها لن يتيسر الأمور إلا بها، فمثلا العرف يعجز عن ادراك هذه المقاصد ولا يمكن له أن يستوعب التحولات الاجتماعية الضخمة والحادة بسبب بطء نشوء هذا المصدر، فضلا إلى افتقارها للوضوح والتحديد والثبات.

ولا يمكن للتعليمات الأخلاقية أيضا أن تستوعب هذا الجانب بحجة عدم الزامها وكذلك جلائها ووضوحها، وبالتالي لم يتبق إلا هذه الوسيلة ومن ثم بادر النبي ﷺ في مطلع هجرته المدنية لها^(٢).

وختاما يمكن أن نستنتج أن كتابة الدستور المدني هي من أعظم الوسائل الدعوية والتي بادر إليها النبي ﷺ في مطلع هجرته، ولم تكن ذاك مجرد دستور سياسي تنظم الحياة الاجتماعية الإنسانية، بل اتسمت في كل بنودها التركيز على الدعوة إلى الدين الإسلامي وكذلك تضمنين بقاء مسيرة هذه المهمة، فضلا عن المنهاج الثابت لإصلاح المجتمعات البشرية إلى يوم الدين.

(١) المصدر السابق نفسه، ج ٣، ص ٨٢-٨٣.

(٢) انظر: زريق، برهان، الصحيفة ميثاق الرسول (دمشق، دار النميز، ط ١، ١٩٩٦م)، ص ٥٦.

٣- الجهاد وقتال معاندي الدعوة: لقد واجهت الدعوة الإسلامية منذ مطلع فجرها بالتحديات والمشاكل، وكانت مسيرتها منذ اللحظة الأولى محتفة بالعوائق الفردية والاجتماعية، وكذلك النيل من أصحابها بالقتل والتعذيب والتشريد والتنكيل، ولكن أمر النبي ﷺ والقائد الدعوي آنذاك لهم كان بالتحلي بالصبر والمثابرة وتحمل الأذى حتى تنضج تربية الطليعة الأولى ويبلغ رشد، وعلى هذا لما هاجر هو وأصحابه بأمر من الله إلى دار الإسلام وأخذوا أولئك أشواطاً من البناء والتكامل كان حري لهم أن يغيروا الوسائل والأساليب الدعوية طبعاً لتغير المقاصد والأهداف.

ولم تكن الهجرة كما مر بنا يقصد من وراءها حفظ النفس ونجاتها فحسب، بل حملت في طياته رسالة الإعداد والمواجهة وبث رسالة الإسلام والسعي الحثيث وإفراغ كامل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله وإزهاق الباطل، ولا شك أن هذه المهمة منذ لحظتها كانت تحمل نوعاً من المشقة والعسر ومواجهة الأعداء الذين يقفون في سبيله، وبطبيعة الحال تحتاج إلى بذل النفس والأهل والمال، واختار اسم الجهاد كوسيلة مؤثرة لنشر الدين والدفاع عنه. وعلى هذا يرى الإمام المودودي رحمه الله إن هجرة النبي ﷺ كانت مرحلة فاصلة بالنسبة لما قبلها في مجال الدعوة الإسلامية من ناحية الموضوع والظروف، وعلى إثرها تغيرت الوسائل والأساليب المساعدة لها، وعن مدى مقارنة تغير تلك الظروف عن الفترة المكية وجده في نقاط تالية:

١- لقد دخل الصراع بين الإسلام والكفر بعد هجرة النبي ﷺ إلى مرحلة جديدة، وكانت قبلها تمارس الدعوة الإسلامية في دار الكفر، وكل من كان يسلم من القبائل المتفرقة من أتباع الجزيرة العربية يبقى في عقر دارهم، وكان لزاماً عليهم أن يمارسوا الدعوة مع تحمل الظلم والعدوان، ولكن بعد الهجرة النبوية وحد شمل المسلمين المتفرقين إلى بقعة جديدة كمعسكر ودولة مستقلة وتجمع تلك الشتات، وبالتالي كانت دوامها منوطة بالدعوة إلى كلمة الإسلام على أساس الحب والإخلاص والتضحية.

٢- كان عليهم أن يبتطلوا زيف الباطل بالأدلة والبراهين الناصعة حتى لا يبقى لمتبعيها أدنى شك على دوام ذلك المنهج.

٣- يجب على ساكني هذا المعسكر من المسلمين والذين فقدوا ديارهم وبيوتهم إلى جنب ما أتى عليهم من الجوع والقاقة أن يتحملوها ولا يضيق بها ذرعاً، ويكونوا على أهب السكينة والإطمئنان لما يعتقدونه.

٤- يلزم على أفراد هذا المعسكر أن يأخذوا الحيطة وأهب الإستعداد لكل خطر محتمل يواجههم في دعوتهم والقيام أمام من يسعى لإفشال مهمتهم مهما كانت قوتهم وعددهم وعدتهم، وبالتالي عليهم أن يقدموا في مقابل كل ذلك على أساس من الشجاعة والجرأة.

٥- وأخيرا أن ينال جنود هذا المعسكر الشجاعة والقدرة بأن توصل هذه الدعوة إلى العرب جمعاء طواعية، وإذا لم يسلموا لها، فيكون معهم القدرة بأن يزيحوا البساط الأخير من المجتمع الجاهلي والتي تثن آخر أنفاسه في هذه المعمورة^(١).

وهذه الوسيلة كما تتجلى من مسمائها ليست مجرد حرب وقتال وضرب بل تفصل عن كافة الحروب التي شنتها البشرية منذ القدم في الأهداف والغايات وقوانين اجراءها، وكذلك الدوافع وحتى المسمى، وعن هذا يقول السيد المودودي رحمه الله: لقد جرت عادة الغرب أن يعبروا عن فريضة الجهاد بمصطلح الحرب المقدس (Holy War)، وبهذا فسروا هذا المصطلح تفسيراً بشعاً ومنكراً.

فمصطلح الجهاد عندهم عبارة عن ممارسة أشرس الأعمال الهمجية وسفك الدماء؛ وقد بلغ بث هذا السموم لأسماع الناس إلى درجة حتى أنهم بمجرد سماعها تتمثل أمام أعينهم صورة من الأفعال الهمجية التي يمارسها المقاتلون والذين ملأت صدورهم من الغضب والتعصب، فضلا عما ينضم إليها من النهب والقتل والتخريب، وبهذا فالمجاهد هو المقاتل المستل سيفه ويعلوا على فيه شعار (الله أكبر) وما أن يرى الكافر إلا ويمسك بخنقه ويجعله أمام أمرين: إما أن ينطق بالشهادة حتى تصون دماءه أو أن يضرب عنقه ويتخطب بالدماء صريعا قتيلا.

وقد نسوا أولئك بأنفسهم أنهم منذ القرون المديدة يمارسون هذه الأفعال لارضاء شهواتهم في حروبهم غير المقدسة في مشارق الأرض ومغاربها وذلك بحثا لطلب الأسواق لبضائعهم في صورة المستعمرات بهيئتها الجديدة، وقد كانت حملتهم مرفقة بهجوم الدبابات وفوق رؤسهم الطائرات في جو السماء، ومن وراءهم مئات الآلاف من الجنود المدربين، والهدف من كل ذلك أن يهيئوا وقودا لنيران أطماعهم الفاحشة والمطغية والتي يزيد بها الأيام اضراما ولهيبا.

ولكن حقيقة الجهاد في أصلها يرتبط بدين الإسلام ويخطئ الناس في التعبير عنه أيضا، وهو في أصله فكرة ثورية أو مناهج إنقلابي يريد أن يغير نظام العالم الاجتماعي بأثره ويأتي بنيانه من القواعد من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي؛ وأما الجهاد فهو الكفاح والنضال الإنقلابي عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول إلى هذه الأمنية وادراك هذا المبتغى والمطلوب.

وعلى هذا فالإسلام كسائر موارد يتجه نحو تحديد مصطلحاته الخاصة على وجه الدقة، وذلك لئلا يقع الناس في الإلتباس من دعوته وفكرته، ومن إحدى هذه المصطلحات الجهاد، وبالتالي تجنبت الشريعة عن مصطلح الحرب له واستبدلها بالجهاد والذي تفيد معنى (بذل الجهد والسعي) وهو أبلغ من كلمة (Struggle) الإنجليزية.

وبناء على هذا فالجهد في أصلها تطلق كما كانت ولا زالت على القتال والذي ترفع لهيبه وتضرم ناره بين الرجال والشعوب والأحزاب والجماعات لأغراض ذاتية واجتماعية، وهكذا لا تكون فيها رائحة الفكرة وانتصار المبدأ، أما

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ٧٠، وكذلك: تفهيم القرآن، ج ١، ص ٤٣-٤٤.

الجهاد لا يتبغي من وراءه مصلحة أمة دون أمة ولا يهمه أن تملك الأرض وتستولي هذه المملكة أو تلك، وإنما تهمه فلاح الإنسانية وسعادتها، وبالتالي تقاوم بكل سعيها وجهدها ازاء كل حكومة أو قوة على خلاف هذه الفكرة والمنهج.

وتحقيقاً لهذا المطلوب يلزم الإسلام على أتباعه أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن إستخدامها، وبالتالي يسمى هذا الكفاح والنضال المستمر واستنفاد القوى البالغ وشتى الوسائل المستطاعة بالجهاد في سبيل الله^(١). ويتضح من الفقرة السابقة أن الجهاد هو وسيلة مؤثرة دعوية وتتميز عن كافة أنماط الحروب وأساليب القتال التي تمارسها البشرية إلى اشباع الغرائز الفردية والإجتماعية والتي تنضم إليها بطبيعة الحال التخريب والتفكيك والهمجية وما إلى ذلك من أبشع صور الفساد الذي عرفتها البشرية؛ أما هذه الوسيلة فبخلافها هو سعي لتغيير حالة البشرية وحياتهم من الشر إلى الخير والصلاح، وبالتالي تلزم على أتباعها ممارسة كافة الأساليب الإنسانية من الأقوال والأفعال حتى النيات وغيرها بغية الوصول إليه، وهكذا لا يعد القتال إلا نوعاً يسيراً وآخرها من أنماطه حيث يلجأ إليه الدعاة في آخر مطافهم مع مراعاة كامل الضوابط والمقاصد التي وضعتها الشريعة؛ وهو في هذه الحالة رحمة وعدالة وحق.

ولقد تتابع السيد مودودي رحمه الله مسيرة فريضة الجهاد في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ فوجد مؤثراتها وأنماطها على أنواع، وعن هذا يقول: لقد أقبل موسم الحج الأول بعد هجرة النبي ﷺ في حالة مؤسفة حيث كان مجتمع المسلمين مهاجرين وأنصار يحسبون بعدهم عن الديار المقدسة وكذلك منعهم من فريضة الحج ظلماً وعدواناً إلى جنب ما كانوا يلاقونهم الباقين في تلك الديار، وفي أثناءها نزلت آيات من سورة الحج حيث يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَّجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلِيَنْصُرَكَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

ولسوف يرى المحقق أن تلك الآيات هي الحزمة الأولى من الأوامر التي يؤذن الله عزوجل فيه للمسلمين، ولكن أصل حكم الجهاد والإذن السابق كما يصرح أهل السير كان بينهما فاصل زمني يصل إلى عدة أشهر، فقد كان الإذن في السنة الأولى من شهر ذي الحجة، وأما حكم الجهاد وفرضيته أتى في شهر رجب أو شعبان من السنة الثانية من الهجرة النبوية، وبفور نزول هذه الآيات خرج النبي ﷺ بخلاف قريش وبني ضمرة في شهر صفر من السنة الثانية على سواحل بحر الأحمر، فأقام بها مدة وسميت الغزوة بودان أو غزوة الأبواء^(٢).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، الجهاد في سبيل الله (الكويت، الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ط ٢، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م)، ص ١٥-٥.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ١١٢.

وأما بنسبة نزول الآيات الأولى أي إذن القتال في موسم الحج فكانت حاملة للرسالة العظيمة للناس وهي أن المسجد الحرام ورعايتها ليست ملكا خاصا لقوم أو طائفة محددة، ولا يحق لأحد أن يمنع الناس عن زيارتها وحجها، كما قرعت من الناحية السياسية أذان قريش بالمواجهة، وهكذا أخذت أقوام العرب لأول مرة انتباها - هل يحق لقريش أن تمنع الناس عن حجهم وزيارتهم؟- وهل هم مالكي ذلك البيت أم خدامهم وحفاظهم.

وقد بينت الآيات في جملتها كذلك أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام حينما كان يبني هذا البيت أذن وأعلن لجميع الناس أن يأتوا لهذا البيت وأنه لا فرق في اتيانها بين الناس سواء كان من ساكني بلدها أم يكون من خارجها، وكان الإعلان الثاني منه أن هذا البيت تم بنائه أصلا لعبادة الله ولا يحق للمشركين أن يدخلوه، ولكن في هذا الزمن أصبح الأمر معكوسا، فطرد أصحابها ومعتقدوها ونالت رعايتها وعبادتها للمشركين.

وبعد نزول الآيات الكريمة التي كانت تؤذن للقتال جاءت آيات كريمة أخرى وهي توضح حكم الجهاد في سبيل الله والغاية المرجوة منها وكذلك الضوابط التي تجب مراعاتها وهي: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

فهذه الآيات توضح أن الجهاد مبني على محورين:

١- أولاها أن القتال يشرع بخلاف الذين يقاتلون المؤمنين؛ وهم الذين يمارسون دعوة الإصلاح لإقامة النظام الإسلامي، وهؤلاء يقومون في مواجهتهم.

٢- يلزم أن يكون هذا القتال على أساس العدل وحدوده، وبعيدا عن الظلم والعدوان^(١).

وبعد ترسيخ تلك الآيات جاء الخطاب مشددا حيث قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ١٩١)، فهذه الآية الكريمة دلت على أن القتل فعل شنيع يأباه الشرع ولكن الأشنع منه هو ذلك الفرد والجماعة التي تقف تجاه أولئك الذين ينادون بالإصلاح ويريدون أن يتوصلوا من خلال نقدهم ودعوتهم الإصلاحية وتغيير حال قومهم، وهؤلاء الأولين يقفون بخلافهم ويجبرون الناس على عقائهم الباطلة، وبالتالي هم أكثر ضررا على الناس حيث سمي عملهم بالفتنة، وما على الدعاة إلا أن يزيحوها، ولكن الآية التالية من السورة استعملت مصطلح الفتنة كذلك وهي متميزة عن سابقها حيث يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَفُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ١٠٦-١٠٧.

والمراد منها في هذه المرة أن يكون الدين والإطاعة بدل الله عز وجل لشخص وجماعة أخرى؛ والقتال هنا بمعنى القضاء على هذه الفتنة وهو المطلوب^(١).

وبالجملة فالجهاد هو وسيلة متميزة في الدعوة الإلهية، وفرض بغية السعي الحثيث لإقامة دين الله وإزاحة كل ما تقف في سبيل ذلك، وهو بهذا ليس فساداً ولا تخريباً، بل هو الجهد المتكامل للإصلاح والبناء وإقامة الحق والعدل، وهكذا القتال آخر أنماطه، ولا يلجأ إليه إلا في آخر المطاف حينما تفشل أساليبها الأخرى، ولكن ذاك في حدود الشرع ومقاصدها، وهو بنفسه الوقوف بحدود العدل والبعد عن الظلم والعدوان.

المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية المستفادة من الفترة المدنية

الأساليب هي الفنون المساعدة والمعبرة عن الغايات والتي تقدم بطريقة شيقة حسب المقتضى، ويجب أن تكون مثل الوسائل مناسبة لبيئة المدعوين، مراعيًا فيها الحكمة والطريقة الحسنة حتى يجلب المدعوين فيقبلوا على الدعوة طائعين دون إكراه، ويلمس كذلك المحبة والإخلاص.

ولقد كانت السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم الزاد الطيب للأساليب كغيرها من الموارد في ميدان الدعوة، واقتبس منها الإمام المودودي رحمه الله قبسات جميلة، وسوف نبينه في العناوين الآتية:

١- الدعوة عن طريق المجادلة بالتي هي أحسن: الدعوة الإسلامية مهمة المواجهة بين الأفكار والاتجاهات العقدية منذ بدء الخلق في هذه المعمورة إلى أن تقوم الساعة، وبهذا يتطلب من دعاة الحق إلى جانب قوة المضمون ونصاعة الدليل المجادلة بالتي هي أحسن، وذلك لكي يدحض غثاء الباطل وما يقدمونه من الزيف وممارسة جلب الأفراد والجنود الذين يقفون في مقابل الحق ويقاثلون في سبيله.

وبناء على ما سبق يجدر بالدعاة في أولى مهامه الدعوية كما يسعون لجلب الخير والفضيلة أن يردوا كذلك على الباطل شرهم بالرد والإنكار على ما يعتقدونه من الباطل ويعملون لأجله، والسييل إلى ذلك اختيار أسلوب المجادلة والمناقشة والنقد حتى يدرك أولئك بوهن والتوهم الخاطئ للباطل ويفلتوا من سيطرته إلى الحق مؤمنين مسلمين.

ولقد اتخذ النبي ﷺ من أسلوب المجادلة سبيلاً لسير عمله الدعوية واستعمله في كلتا المرحلتين المكية والمدنية منهما، وذلك في مقابل أولئك الذين يسمعون القول من أصحاب الباطل كما يدعون بشيء من الفكرة والتعقل فيما يدعونهم، وبهذا أقرع أسماعهم بزيف الباطل واثبات الحق البديهي في جميع مباحثه، وبالتالي أسلم أصحاب الفطرة السليمة منهم، والباقيون اتخذوا العناد وباتوا في لجاجهم رغم ثبوت ما يدعيهم.

وهذه المهمة الجليلة إلى جنب أهميتها تحتاج من صاحبه أن يكون منضبطة بصفة الإحسان والإجادة حتى ينال المطلوب والمقصود منها، وعن مدى أهميتها يقول المودودي رحمه الله: لقد خاطب الله نبيه ﷺ أن يلجأ ويختار الحسن في حين المناقشة مع أولئك الذين يجادلهم حتى تثمر دعوته، وعنه يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن، ج ١، ص ١٩٤-١٩٥.

الْكُتُبِ إِلَّا بِأَلْفَاظٍ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ (العنكبوت: ٤٦)، وتعني هذه الآية أن تزود المناقشة والبحث بالأدلة المقنعة كما يختار لها اللغة المناسبة والمهذبة والقائمة على الافهام والتفهم بغية أن تصلح أفكار هؤلاء، ويلزم على الدعاة كذلك أن يفتح بكلامه قلوب وعقول المخاطبين، ومن ثم يرسخ ما يحتاج إيصاله، وعليه أن يعي أيضا أن مهمته ليست عمل المصارعة حتى تكون المقصود منها الغلبة بل بمثابة الحكيم الذي يبت الحكمة أو كالطبيب الذي يكتب وصفة دقيقة لأجل معالجة المرضى وأن تنال أقل مقدرة من الشفاء والصحة، وهكذا الحال في جلب الهداية والتوجيه إلى المدعوين.

وهذه الآية وإن كانت مناسبتها على الأخص في مجادلة أهل الكتاب ولكنها في الأصل تضع قاعدة عامة لعموم المخاطبين وتأييدها آيات أخرى من الذكر الحكيم كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)، وهكذا هناك آية توضح أن على الداعي أن يرد الإساءة بالحسنى كما يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (حم السجدة: ٣٤)^(١).

ولقد سار النبي ﷺ في مهمته على هذا الأسلوب وخاصة في العصر المدني حيث يمتاز هذا العصر بكثرة أصناف مدعويها، وكان من بينها مجموعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ حيث عرفوا أولئك بأهل الجدل والعلم، ويدعي أنفسهم بأصحاب الرسالات العظيمة والعريقة وبالتالي كان لابد من اختياره حتى تدحض فكرهم الباطل، وقد سبق في الفصول الماضية ذكر قدوم وفد نجران المسيحية إلى مدينة الرسول ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة النبوية، ووصلت مناقشة الرسول ﷺ معهم إلى المباهلة، وقد نزلت قبلها في الموقع آيات كريمة من القرآن الكريم تدحض باطلهم، ولكن كل ذلك كان بأسلوب حسن وتكريم فائق حتى نزلوا في مسجده عليه الصلاة والسلام. وهكذا اعتنى الإسلام بأسلوب المجادلة اهتماما كبيرا، وذلك لأنها فطرة الإنسان الأزلية حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤)، ويقول: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَدِّدًا عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (النحل: ١١١)، ولذلك دعا القرآن الدعاة إلى اتخاذها مع أحسن الاختيار لها، وقد مارسه النبي الكريم ﷺ في حياته العملية بين المسلمين وغيرهم، فمنما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: (إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزَّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَرَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: ادْنُهُ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: أَتَحِبُّ لَأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٢، ص ١٧٥، وكذلك: تفهيم القرآن، ج ٣، ص ٩٨٧-٩٨٨.

اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِمَهَاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتَحِبُّهُ لِابْتِكَ؟ قَالَ: لَا. وَاللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ. فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ^(١).

وأما عن غايتها وأهدافها فكما يقول الباحثون فإنها تتجلى في عدة أمور: أولاً أنها امتثال لأمر الله عز وجل حيث أمر الله الدعاة بها حيث يقول: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وفيها تقديم الهيئة الأحسن التي أمر الله به أن يتحراها المسلمون، وكذلك تحسم فيها صورة الخلاف في الأمور الإجتهدية بين المسلمين وكذلك الخلاف بين المؤمنين وغيرهم في دفع الشبهات والآراء الفاسدة ومحاولة الوصول إلى ارضاء جميع الأطراف بحلول سليمة، فضلاً على أنها تمنح للبشرية فرصة التعبير ويسد باب التشردم والتفرق بين الدعاة والمدعويين^(٢).

واستنتاجاً لما سبق فإن المجادلة بالتي هي أحسن من الأساليب الراقية في الدعوة الإسلامية حيث أمر الإسلام بإختياره بحجة أنها نزعاً إنسانية أزلية بينهم، وفيها كذلك بيان مدى تكريم الإنسانية بغض النظر عن الدين والأفكار في أمثل تمايزهم، وبها تحسم الخلاف وتثبت الحق مع ازهاق الباطل.

٢- اختيار أسلوب الرفق واللين في دعوة الناس: الرفق واللين هما زينة الأعمال، وكلما زاد إلى الشيء إلا أناره وسهل دوامه واستمراره، وهو بذلك صفة عالية حيث تحتل بين الأخلاق مكانة مرموقة، وتظهر آثاره على الأعمال بالنسبة لباقي المكارم بسرعة وتفوق؛ ومن أهمها أنه يطمئن إليه الأنفس فيقبلون عليه طائعين رغم ما تحمله الرسالة من المشقة الطبيعية التي لا تنفك عنها غالباً.

وأما في المقابل فالشدة والقسوة كما تفتت عزيمة صاحبها تجعله وحيداً بعيداً عن المجتمع مع تنفر القلوب عنه، وبالتالي لا يجد أحداً يقبل عليه أو يدافع عنه، وأساس ذلك أن البشرية خلقوا على جبلية الإحسان والتلطف والرفق ويكرهون العنت والقسوة وإن كان صواباً.

ونظراً لأهمية ما سبق فقد إتخذ النبي ﷺ في دعوته أسلوب الرفق واللين وجعل من ذلك منطلقاً وطريقاً يدعو الناس في كلتا مرحلتى دعوته المكية والمدنية منهما، وكان يقبل على الناس بتلطف ويعرض عليه مهمة الدعوة كأنه حاجة الإنسان أو ضالته المنشودة، وكانوا يدركون مدى رأفته وشفقته عليهم فيقلب هؤلاء إلى أولياء وأصحاب مودة تزود عنه كأنه منهم، ولقد أشار الله تعالى إلى ذلك في آية كريمة كما يقول: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُونَا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٦٠).

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند تمة مسند الأنصار، رقم الحديث: ٢٢٢١١. المسند بتحقيق شعيب الأرنؤوط، وقال: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) انظر: العقيل، عبد الله، أدب الحوار والمجادلة (القاهرة، مركز الإعلام العربي، ط ٢، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ص ١١-١٦.

وعلى هذا فقد أمر الله تعالى ورسوله المؤمنين والدعاة بالتحلي بها وأوضح لهم أنه كلما زاد إلى الشيء إلا زانه جمالا وحسنا، وبالتالي يجب مراعاته إلى كل المدعويين مؤمنين كانوا أو غيره، ولكن يجب التنبه كذلك أن اختيار هذا الأسلوب لا يعني بأية حال معنى الخوف والتملق كما هو حال بعض الناس، وشتان بين هذا وذاك، وأساس التفرقة بينهما تمايز القصد والمبتغى، وعليه فالرفق مقصد شرعي شريف أمرنا الله باتخاذ.

ونظرا لأهمية هذا الأصل فقد تتبع السيد المودودي رحمه الله في جملة أساليبه ﷺ من خلال اطلاعه على السيرة النبوية المطهرة فوجد أن أمثل الأساليب هي اختيار الرفق واللين، وقد مارسه في المرحلة المدنية منها مع سطوته وسيطرته على البلاد. وعنه يقول: إن انهزام المسلمين في غزوة أحد وما تخلفه من نتائج أليمة كانت بحاجة إلى تقويم ومراجعة عما بدر منهم، ويرجع هذا في مجموعها إلى عدة عوامل، وأولاها يتمثل في تراجع المنافقين عن منتصف الطريق، وكذلك بعض الضعف الذي بدر من المسلمين في أثناء المعركة نتيجة ضعف التربية وعدم نضج أولئك؛ وعلى هذا فقد خصص الله تعالى آيات من سورة آل عمران بيانا وتقويما لإصلاح عما صدر منهم حتى تكون درسا لهم في الأيام المستقبلية وكذلك معلما للأجيال القادمة.

وقد كان من ضمن التعليمات حث النبي ﷺ ورغبتهم بها هي: ممارسة أسلوب الرفق واللين مع جماعته إياه، وهكذا التحلي بالعفو والغفران تجاه من ارتكب منهم الأخطاء، وذلك حتى لا تفرق شمل المسلمين ويبقى مجتمعين. وعنهم يقول تعالى: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٦٠). وهذا الخطاب وإن كان المختص منه في السبب هو النبي ﷺ إلا أن العبرة عمت واتجهت في كل الأحيان لجميع المسلمين والدعاة^(١).

ويتضح مما سبق أن اختيار أسلوب الرفق هي من الأساليب الرفيعة التي يجب للدعاة التنبه له، فهو إلى جنب فوائده الجمة سبب لتجمع المدعويين وتشفي لصدور المسلمين ببعض ما أصابهم من الوهن والضعف، وبهذا لا بد منها في دعوة الناس من خيرهم وشرهم، وأما عن حقيقة جوهر هذا الأسلوب ومدى حدوده فيقول الباحثون: "المقصود اتصاف الدعاة بالرفق واللين هو أن تكون دعوته ومهمته خالية من العنف والقسوة والخشونة والشدة والجفاء، أو بعبارة أخرى أن يكون لديهم مداراة"^(٢).

وهكذا قد فصل العلامة ابن حجر العسقلاني في مصطلح المداراة وهي: "الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه"^(٣).

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ٣، ص ١٩٨.

(٢) فضل، إلهي، اللين و الرفق (حجرانواله، ترجمان الإسلام، ط ٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م)، ص ٩.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٠، ص ٥٢٨.

وأما عن تأثير وأهمية هذا الأسلوب في الدعوة فيتجلى ذلك على صعيدي الدعاة والمدعويين، وعنهما يقول المختصون: إن من أهم الآثار المحموددة والتي تتجلى من اتخاذ هذا الأسلوب في الدعوة أنها تسبب إلى تجاذب الخلق إلى رسالة الإسلام بناء على ميلان النفوس إلى السماحة والرفق ونفورهم عن الغلظة والقسوة، وبالتالي تنجح المهمة على وجهها المطلوب، وأما على صعيد جانب الدعوة فترتفع به سهام محبته لدى المدعويين، ويكون كذلك اتخاذه أدعى للإلتفاف حوله، وذلك لأن بالحب تكسب الأتباع والهداية^(١).

المبحث الثاني: فقه الوسائل والأساليب في العصر المدني عند الشيخ محمد الغزالي

الوسائل والأساليب هي حزمة الزاد الدعوية والتي يحتاج إليها الدعاة في مسيرتهم بغية الوصول إلى المبتغى، وينبغي أن تكون موافقة مع مشوار المسيرة التي بدأت بها، بحجة اناطة أهداف المهمة بالوسائل والأساليب بناء على قاعدة ايجاد السبب بالمسبب.

ونظرا لأهمية هذا الجانب وقف الفقيه الدعوي الشيخ محمد الغزالي رحمه الله على المسيرة الدعوية في خلال محطات السيرة النبوية المباركة، واستخرج منها أسسا منيرة تفيد الدعاة في هذه المهمة، وذلك كنماذج حية باقية صلاحيتها على مدار الأزمان، وهكذا استنار جوانبها وحيويتها للإستفادة في العصر الحديث، ونبينه في المطلبين الآتين:

المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية

لقد اتخذ النبي ﷺ كإمام الدعاة في العصر المدني من دعوته الشريفة وسائل حية ومتنوعة تمكنه من إيصال رسالة الإسلام إلى العالمين، وكانت الدعاة بجملتها وسائل معقولة ومناسبة للبيئة التي احتضنها لهذه المسيرة المباركة، وبالتالي استوظف كلا منها على هيئة حسنة ومناسبة كما نال منه نتائج مطلوبة، وكما بقيت تأثيرها على مدار كل العصور والأزمان. ولهذا استدرك الشيخ محمد الغزالي فقهها ومؤثراتها في خلال السيرة المدنية ﷺ، وسوف نلمح إلى نماذجها في عناوين تالية:

١- الكفاح الدامي وأهدافه: الدعوة الإسلامية مهمة مستمرة ومتداومة فرضت على عاتق الأمة الإسلامية بغية اسعاد الإنسانية وإنقاذهم من الشر والفتنة التي طالما تعتر بهم في حياتهم من أهل الباطل، وبهذا هي رسالة طبيعتها أنها مواجهة منذ يومها الأول من القوات الطاغية والتي يعدون ذاك صيحة وقضاء على مطامعهم وزيفهم التي يجلبون إليها الناس.

وبناء على ما تقدم تحتاج الدعوة الربانية إلى قوة دافعة وتأهب ترد بها كيد أعداء المتربصين لهذه الكلمة ودعاتها الخيريين، ويلزم على أصحابه أن يكونوا مستعدين للكفاح المستمر حفاظا على مجتمعهم ومدعويهم، والذين تجاذبوا على أثر سعيهم ودأبهم المستمر، وبهذا سمي الله عز وجل جهدهم بإسم الجهاد، وجعله وسيلة خادمة

(١) انظر: فرج، نورة بنت عبد اللطيف، الرفق وأثره في الدعوة إلى الله (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢٩هـ)، ص ٥٢٦.

للدعوة الإسلامية، ويحمل في حقيقته شتى أنواع الجهد وافرغ الوسع، وهو يدور حول محور توصيل رسالة الإسلام من الكلمة والكتابة والكفاح والنية تجاهه، وقد شرعت لازاحة السدود والعوائق التي تقف في سبيل كلمة الإسلام والقضاء على الفتنة التي تمنع عن الناس وصول النور الإلهي لحياتهم.

وعلى هذا فليست هذه العملية مهمة اراقة الدماء والكفاح الدامي فحسب، بل هو نوع يسير منها، ولا يلجأ إليه أصحابه إلا في آخر مراحلها بعد ما تفشل الخطوات الأولى منها، وهو بذلك مقصد شريف منضبط عن كل أنواع الحرب والسفك والأذى يلجأ إليه أصحاب المطاعم والغرائب.

ولسوف يدرك الدارس للسيرة النبوية المطهرة أن هذه الفريضة قد وجبت في بدايات المرحلة المدنية من دعوته ﷺ حيث قويت بنية المجتمع الإسلامي ونضجت تربية أهله مع استمرار نزول الوحي الرباني المتزايد يوما بعد يوم، وكذلك بزيادة هجوم الأعداء المنكرين والمنافقين والمتربصين من أهل الكتاب المتمثلين في اليهود والنصارى.

وأما عن ظروف التي يلزم اللجوء إلى هذه الوسيلة ومدى أهدافه فيقول الغزالي رحمه الله: لم يكن استيطان النبي ﷺ وأصحابه في المدينة المنورة نجاة من سطوة شر المشركين وانفلاتا منه إلى الأبد، بل بدأت بهجرتهم صفحة جديدة من الأذى والضرر، وبهذا تألب جموع المشركين ضد المسلمين منذ يومه الأول والذين يمثلون مشركي مكة مع عبدة الأصنام من أهل المدينة نفسها جهارا، وانضم معهم كذلك طوائف اليهود الذين أوجسوا خيفة من انتشار دعوة الإسلام والقضاء على الوثنية العربية امامها، وبالتالي لم يكن أمام المسلمين بد إلا أن يتأهبوا قوة تجاه هذا الخطر ويتربصوا لهجومهم ويكون معدين كذلك لتأديب المجرمين معهم.

وعلى هذا لم يكن هذه الحرب داعية للهمجية ولا لتفكيك بل مارست منذ يومه الأول تحت قيادة الرسول ﷺ في كل معاركه وعلى مدار حياته الطيبة أشرف أنواعه ولأغراض حميدة وهي: رد المظالم، حماية الحق، وكسر الجبابة وقمع العدوان^(١).

ويتضح من الفقرة السابقة أن الشريعة لم تقصد بالحرب والكفاح الدامي غاية لذاته، بل هو مقصود لغيره وهي في جملته وسيلة لغاية مقدسة شرعه الله عز وجل لحماية أمر الدعوة والحفاظ على أهله، ويلجأ إليه الدعاة حينما يسد أمر دعوتهم أو تواجه أهلها بالظلم والعدوان. وبهذا تميز هذا الكفاح الدامي عن كل أنواع الحروب البشرية بعنوان وضبط (في سبيل الله)، وبها يصير مثل غايتها مقدسة أو مقصدا شريفا، وبالتالي يلزم على المسلم الداعي أن يمارسه كجندى للدعوة الإسلامية على دقة وتفنن من الإعداد والرباط وآخرها المحاربة والقتال.

وقد إرتبط هذا الكفاح مع الدعوة وجودا وعدما، ويمارسه في حالة السلم والحرب، وعن ممارسته في السلم يقول العلماء: "الجهاد في حالة السلم استعداد لا يفتر، إنه استعداد معنوي يقوي الإيمان، ويثبت الإعتماد على الله، وهو

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٢٢-٢٢٣.

استعداد مادي لا يقتصر على زاوية من الزوايا المطلوبة للقوة، ومن مظاهرها أن الرسول ﷺ يشجع على الرماية ويسر حينما يرى المسلمون يمارسها" (١).

ونظرا لأهمية ومكانة هذه الوسيلة في الدين ومدى ارتباطها بالدعوة الإسلامية ألزم إمام الدعاة ﷺ أمته بأن يتأهب لهذه الفريضة أجمعين شبانا كانوا أو شيوخا، وبالتالي يكون لهم دور في ممارسته حتى تنال بها المقصود ويصير مثابين ومؤجرين عند الله عز وجل، وعنه يقول مفكر الدعوة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "وتمشيا مع توجيه الوحي وسياسة الواقع، وحفاظا على حق الله وحق الحياة درب الرسول ﷺ رجاله على فنون الحرب، واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك، وعد السعي في هذه الميادين خطوات إلى أجل القرب وأقدس العبادات، لعله بذلك يفل شوكة الكفر، ويكسر عن المسلمين أذاه" (٢).

وهكذا أمر الله تعالى نبيه والمؤمنين من بعده بممارسة الجهاد ومن ثم حدد مقاصده وغايته أيضا من وراءه والمتمثلة في حفظ حق الله أي دينه وكذلك بقاء الحياة الإنسانية والتي تعد من أكبر مقاصد الدين الإسلامي، فيقول عنه جلا وعلا: ﴿فَقَنِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (النساء: ٨٤).

وامتثالا لهذا التوجيه الرباني فقد مارس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين تحت اشراف النبي ﷺ هذه المهمة طوعية، وبالتالي تدربوا على فنون القتال والتدريب حتى في أعمار متقدمة ولم يؤخرهم في ذلك مشاغلهم الجمة، بل حسبوا ذلك تقربا وعبادة لله عز وجل، وبالمقابل الإهمال والتكاسل فيها نوعا من الإثم والمعصية.

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه حديث عبد الرحمن بن شماسه حيث يقول: (أَنَّ فُقَيْمًا اللَّخْمِيَّ، قَالَ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: تَخْتَلِفُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْغَرَضَيْنِ وَأَنْتَ كَبِيرٌ يَشُقُّ عَلَيْكَ، قَالَ عُقْبَةُ: لَوْ لَا كَلَامٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ أُعَانِيهِ، قَالَ الْحَارِثُ: فَقُلْتُ لِابْنِ شِمَاسَةَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّهُ قَالَ: مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى) (٣).

واستنتاجا لكل ما سبق فإن الجهاد أو الكفاح الدامي الذي يلجأ إليه المسلمون في حياتهم هي وسيلة شريفة لتحقيق غاية نبيلة، وقد فرض عليهم كوسيلة خادمة للدعوة الإسلامية، ويصون به حق الله وحق حياتهم الشخصية، وهو مع كل ذلك مهمة متداومة ومستمرة يجب على المسلمين أن يأخذوها في حالتها السلم والحرب، وقد يكون معناه في الحالة الأولى التأهب والاستعداد والتدريب حتى إذا أتى يومها فيكون المسلمون مبدعين ومتفوقين فيها.

(١) محمود، عبد الحليم، الجهاد في الإسلام (القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ب ت ط)، ص ١٥-١٦.

(٢) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٢٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: بَابُ فَضْلِ الرَّمْيِ وَالْحَتِّ عَلَيْهِ، وَذَمُّ مَنْ عَلِمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، رقم الحديث: ١٩١٩.

وأما عن غايته فقد فرضت لأجل أن يكون الدين كله لله، وأن لا تكون فتنة ويصون معها حياة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يجدون حولا ولا قوة، وآخيرا أن يكون تشفيا للمظلومين والمضطهدين الذين يعانون ظلم الطغاة والجبابرة حتى يعود إلى حقهم.

٢- الإهتمام بالمكاتبة وإرسال السفراء: لقد أرسل الله محمدا ﷺ بالدعوة العالمية الخاتمة، وأكملت بها الرسالة التي بدأ بها الأنبياء والمرسلون منذ بدء الخلق، وبها صارت منهجا ثابتا للحياة الإنسانية إلى قيام الساعة، وكانت بعثته في زمن كانت البشرية وصلت إلى مرحلة النضج والتكامل بحيث اتبحت لهم الحياة الحضارية المميزة عما سبق، وارتبط حياتهم السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية ببعضهم البعض، وباتت عندهم القواسم المشتركة تحكم في أمور حياتهم، فضلا عن اللغة المشتركة للتفاهم والتفاوض والتواصل، وبها أصبح العالم بقعة مترابطة تسودها التعاون والاشتراك بعد ما كانت أجزاءها منفصلة كالقرى المتباعدة لا يعرف أهلها بعضهم البعض، ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم منفصلة عن البعض، ولأجلها كانت ترسل الرسائل المتعددة في زمن واحد، ولكن أوان البعثة الخاتمة تغيرت الأحوال والظروف حتى أصبحت تحقيق الرسالة الخاتمة والعالمية أمرا منطقيا لا تنكره العقلاء؛ ومن ثم لما بعث النبي ﷺ وقويت البنية للدعوة الإسلامية بدأ يفكر ويمارس في توسيع نطاق دعوته ورسالته، وبطبيعة الحال يختار لها من الوسائل والأساليب التي تحتضن هذه الرسالة العظيمة حيث حددت غايتها إسعاد الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، وبالتالي كانت إرسال السفراء والمكاتبة من إحدى وسائلها المميزة.

ونظرا لأهمية ما سبق فقد اتجه النبي ﷺ في الفترة المدنية وخاصة بعد ما قويت رسالة الإسلام وتوسع شمله، وإطمأن على إثر صلح الحديبية من أعداءه المجاورين في السنة السابعة من الهجرة إلى إختيار وسيلة المكاتبة وإرسال السفراء لدعوة الحكام والأمراء الذين كانوا يحكمون شعوب العالم، فراسلهم واتخذ منهمجاً جديداً في دعوة الناس لم يكن مألوفاً في الحضارات المعاصرة البشرية آنذاك.

وعلى هذا فقد تضافر في كتب السنة النبوية ذكر أخبار تلك الرسائل التي بعثها النبي ﷺ إلى حكام وملوك الشعوب بدعوتهم إلى الإسلام، ومبيناً فيه رسالته وأنه مبعوث من رب العالمين، وقد جاءت هذه الأخبار في آثارهم مجملاً ومفصلاً منها.

روى الإمام الترمذي حديث أنس رضي الله عنه حيث قال: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ قَبْلَ مَوْتِهِ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ^(١)).
وقد روى الإمام مسلم عن هيئة المراسلة عن أنس رضي الله عنه أيضاً: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى كِسْرَى، وَقَيْصَرَ، وَالنَّجَاشِيِّ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا بِخَاتَمٍ، فَصَاغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاتَمًا حَلَفْتُهُ فِضَّةً، وَنَقَشَ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ^(٢)).

(١) سنن الترمذي، أبواب الاستئذان والآداب، باب: في مكاتبة المشركين، رقم الحديث: ٢٧١٦. قال الألباني: هذا حديث صحيح.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: في اتِّخَاذِ النَّبِيِّ ﷺ خَاتَمًا لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الْعُجَمِ، رقم الحديث: ٢٠٩٢.

وقد احتلت هذه الرسائل قيمة وأهمية دعوية بالغة من جهة المضمون والأساليب والوسائل، وعنهما يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: لقد كانت هذه الرسائل في مجموعها دالة على معنى توسيع الدعوة في أرجاء المعمورة من أرض الله، وهو في زمن كان العرب بكونهم المخاطبين المباشرين للرسالة الخاتمة يستنكرون النبوة على واحد منهم، وإليه أشار الحق تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان: ٤١)، وقد كان العجم بالنسبة لهم أكثر نفورا بحجة أنهم كانوا يعلنون أنفسهم من العرب منزلة من ناحية الحضارة والسياسية والثقافية و... ولكن أصحاب الرسائل وأولي الهمم لا يبالون بهذه الفكرة الضيقة؛ بل إن ثقتهم بهمتهم وفكرهم يجعلهم يوسعون نطاق رسالتهم، وبالتالي على حسبها تصغر وتسهل كل الصعاب والتحديات المفروضة، ويغلب عليها؛ ومن ثم يجعلها هباءا منثورا^(١).

ويتضح من الفقرة السابقة أن النبي ﷺ لجأ إلى هذه الوسيلة لتوسعة أمر الدعوة الإسلامية وانتشارها خارج الجزيرة العربية، وهي دالة على مدى حقبة دعوته وبعدها عن العصية القبلية التي اتسمت العرب بها حيث كانوا يحبون الخير لأنفسهم فحسب، وبالتالي كان يعرف أن اللجوء إلى هذا الأسلوب سوف تجر دولته الفتية وقواته نحو الحرب والمعارك غير المتوازنة في العدد والعدة، ولكن اليقين والإعتماد بربه ودعوته جره إلى ذلك دون النظر لاقترحام هذه المخاطر واكتسب بفضلها مكاسب عظيمة وأقل منها توصيل صوت الدعوة إلى تلك الديار، وقبول بعضهم والإعتراف بوجود تلك الرسالة السامية.

وأما عن مدى تأثير هذه الرسائل وارسال السفراء على الدعوة الإسلامية فيقول الباحثون: إن ارسال السفراء مع الرسائل خارج حدود الجزيرة العربية في تلك الأوان تعبير عملي على عالمية الرسالة الخاتمة، وبهذا اتخذ النبي عليه الصلاة والسلام بعض الوسائل المعينة لتحقيق الانجازات ومنها اتخاذ خاتم الفضي حيث نقش عليه (محمد رسول الله)، فضلا عن اختيار الأكفاء والخيرة من أصحابه لحمل هذه الأمانة، وكان من أكبر ميزات ذلك أنه أرسل الناس الذين يتكلمون بلسان القوم^(٢).

ويضيف الباحثون أيضا: إن مراسلة النبي ﷺ للأمرء والشعوب دالة على أنها وسيلة متميزة في الدعوة، وقد كان لها بلا شك تأثير على المدعوين حيث دخل بعضهم في الدين، وظهرت الود من جانب آخر، وعلم المرسل ﷺ من ردودهم، وبهذا انتهج في مقابل كل منهم أسلوبا سياسيا وعسكريا على حدة وكذلك أتم حجته عليهم^(٣). ويستدرك من الفقرات السابقة أن ارسال السفراء والمكاتبة للأمرء والشعوب من الوسائل المفيدة في توصيل الدعوة، وهو في مجموعها تعدد منهاجا دعويا متميزا لتوصيل رسالة الإسلام، ولكن مع مراعاة الأصول المتبعة التي اتخذها النبي ﷺ في مهمته؛ وبالتالي استخرج منها المتخصصون قبسات نافعة في كل أركان الدعوة الإسلامية، ومن أهم

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٢٩١.

(٢) انظر: الوادعي، علي بن حافظ بن سالم، فقه الدعوة في رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء (المدينة المنورة، جامعة طيبة، ١٤٢٥هـ)، ص ٣.

(٣) انظر: الصلابي، محمد علي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، ج ٢، ص ٣-٤.

مكاسبها أنها أعطت لتلك الدعوة صفة العالمية وكذلك محبة الخير للناس أجمعين وبعدها عن التعصب والعنصرية التي ابتليت بها طوائف البشرية.

٣- **تكريم الوجهاء في الدعوة:** لقد خلق الله البشرية على تفاوت من أمرهم وجعلهم ذو نزعات متباينة، فرغم أنهم متساوون في الخلقة ومصير النهاية في الحياة الدنيا، إلا أنهم اختاروا في حياتهم أساليب متباينة، وعلى هذا يحسبون البعض غيرهم متفوقين في مجتمعهم ونظمهم بناء على الاعتبارات المختلفة والمكانة القبلية والقوة العلمية وكذلك باقي المواهب من حكمة وحنكة ورياسة وبالتالي يعدون أولئك أشرفا وسادة وكبراء، ومن ثم يتبعونهم في حياتهم ويجعلونهم مرجعا للتقليد والتبعية، ويكون كلام أولئك ليست تعبيرا عن سلوكهم الشخصية بل تعد كلامهم ومواقفهم معبرا عن الجمهور المتبعين والذين يمشون وراءهم ويفدونهم بالروح والدم.

ونظرا للاعتبار السابق فقد يتجه أصحاب الدعوات والرسائل العظيمة التركيز على هؤلاء بغية أن ينال من أساس وقاعدة هؤلاء التأثير على الجمهور، وبهذا إن كسبوا هؤلاء فإن الباقين يتبعهم بطبيعة الحال، وعلى هذا فالدعوة الإسلامية كدعوة فطرية ومهمتها للإنسانية ليست بعيدة عنها وبالتالي اتجه النبي ﷺ في كلتا مرحلتي دعوته المكية والمدنية التركيز على أصحاب النفوذ والأشراف ولكن على العقلاء وأصحاب العقول السليمة منهم؛ بغية أن يظفروا من إيمان هؤلاء استسلام الباقين إلى كلمة الله ورسائله العظيمة، وقد عرفهم ابن الجزي^(١) رحمه الله: إن الوجهاء هم "الذين يسودون قومهم أي يفوقهم في الشرف والفضل"^(٢).

وقد كانت من إحدى وسائل كسب هؤلاء اعطاء التكريم والانتباه والمجالسة والملاطفة معهم؛ بيد أن ذلك لم يكن في مقابل طرد وعدم المبالاة بالبؤساء والفقراء والتي طالما تركز الإسلام على حالهم وتؤكد على جلب السرور لهم. ولسوف نجد للدعاة مدى التركيز على هذه الوسيلة بغية النيل لحساب الدعوة الإسلامية وخاصة في الفترة المدنية منها، وقد ذكر أهل السير في هذا الصدد أحداث ووقائع كثيرة، ومنها مدى تعامل النبي ﷺ الخاص مع أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه زعيم قريش آنذاك وتكريمه بأن جعل بيته مأمنا لكل من يدخل بيته، وقد مر في الفصول الماضية تفصيله.

وأما عن الدرس المستفاد من القصة ومدى تأثيرها على الدعوة فيقول الغزالي رحمه الله: وكان اعطاء النبي ﷺ لزعيم أبي سفيان هذا التكريم والميزة بغية ارضاء عاطفته التي كان يحب الفخر لنفسه حيث قال له العباس: (إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فأجعل له شيئا، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)^(٣).

(١) ابن الجزي (٦٩٣هـ - ٧٤١هـ): محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، فقيه من العلماء بالأصول واللغة. من أهل غرناطة. من كتبه القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، التسهيل لعلوم التنزيل. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٣٢٥.

(٢) ابن جزي، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي (بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط ١، ١٤١٦هـ)، ج ١، ص ١٥١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام ج ٢، ص ٢٢٨.

وعلى هذا فلم يكن يعرض الرسول ﷺ عن عمل ثمنه ميسور، ولم يضر اعطاءه المسلمين ضرا ولا يكلفهم جهدا بل بالمقابل أرضى الرجل وحصل منها مكتسبا عظيما حيث سار الأمور بعيدا عن الحرب والضرب، وفوقه فقد لجأ الرجل حين القاء القوم مخوفا لهم قائلا: (ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن)، وبهذا فقد دخل المسلمون مكة فاتحين دون مقاتلة إلا يسيرة، وتحقق وعد الله لهم بالنصر والتمكين، وهكذا حين تقسيم غنائم يوم حنين عمدا رسول الله ﷺ إلى تكريم الرجل ومثله معه، فأدهشهم بالعتاء والحق أن النبي ﷺ وسع بكرمه وحلمه مسالك بينة في سبيل تألف هؤلاء الناس وتحبيهم في الإسلام^(١).

ويضيف الباحثون إضافة إلى ما سبق أن استخدام هذه الوسيلة في أصلها توجيه قرآني وعمل نبوي وتعود بالخير والمكسب على الدعوة، ومن أهم آثارها تتجلى في نقاط تالية:

١- يمكن للدعاة أن يستغلوا المكانة الاجتماعية للوجهاء في صالح الدعوة، وبها يمهّد إيمان هؤلاء الطريق لإسلام ضعاف المجتمع، فضلا على أنهم يمنحون للذين أسلموا قبلهم تعزيزا وثباتا على دينهم، وقد كان هذا دأب النبي ﷺ طيلة دعوته، فحينما كان يعرض نفسه على القبائل العربية في المواسم يبحث عن ساداتهم ويكلم الشريف بغية أن ينال الإستجابة منهم.

٢- إن التكريم لهؤلاء سبب لتهيئة المنعة والنصرة للدعوة الإسلامية، وعلى هذا فليس كل المدعوين على وتيرة واحدة؛ فإذا أسلم الوجيه منهم فإنه يقوم مع الإسلام ويهيئ له البطانة ويقوم بنصرته شهامة وحمية، وبالتالي يزود عن أهلها حسب طاقته.

٣- لقد مارس الرسول ﷺ هذه الوسيلة لتأليف قلوب الناس ولتحقيق المنعة الدعوية، ومن ثم فقد كان هدفه في التأليف تتفاوت عن فئة إلى فئة، فصنف يتألفهم ليسلموا كصفوان بن أمية، وطليلة ليثبت إيمانهم كأبي سفيان بن حرب، وطائفة لدفع شرهم كعيينة بن حصن والعباس بن مرداس.

٤- إن في تكريم هؤلاء ومخاطبتهم استمالة للجماهير، وهذه هي في الحقيقة ثمرة غير مباشرة على الدعوة، وبالتالي مخاطبة هؤلاء واذاعة صداها تؤثر على جمهور المدعوين فينتبهون للرسالة الإلهية ويقبلون عليها.

٥- إن جلب الوجهاء في دائرة الدعوة الإسلامية لتساهم في استثمار جانب القدوة الحسنة والتي طالما عرفت بها المجتمعات الإنسانية، وبالتالي يقومون هؤلاء بدورهم المنشود كما كانوا قبل اذعانهم ويؤدون ما عليهم، وبهذا تحفل التاريخ الإسلامي بأمثلة هؤلاء^(٢).

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ١١٠-٤٢٦.

(٢) انظر: القرني، عبد العزيز بن عبد الله، منهج دعوة وجهاء القوم والدور الدعوي المنوط بهم (المدينة المنورة، مجلة العلوم الإسلامية الدولية، العدد الرابع، ٢٠٢٣)، ص ٤١٢-٤٢٠.

وبالجملة فتكريم الوجهاء منهج دعوي مميز في مهمة الدعوة الإسلامية وقد أنيط أصناف المجتمع بهم ، وقد مارسه النبي ﷺ كتوجيه رباني قديم في هذه المهمة ، وبالتالي وضح معالمه وأساليبه في دعوته للناس ، ومن أهم مظاهره انزال الوجهاء المنزللة اللائقة بهم والملاطفة في الحديث والحوار معهم والإعتراف بحسنتهم وأعمالهم الخيرية ، ومبادلة المعروف بالمعروف والوفاء معهم بالمنافع الدنيوية فيما لا ضرر فيه ولا مظلمة وغيرها كثير ، وبهذا إذا ما أتمت ذلك إلا وقد استمال الجمهور والذين يتبعونه إلى زمرة الدعوة الإسلامية مباشرة منهم وغيرها تلقائيا .

٤- لقاء الوفود ومخاطبتهم بالأسلوب الأمثل: لقد عرف المجتمع الإنساني المتحضر بالتواصل والترابط ونبذ الخلاف مع الآخرين الذي يؤدي إلى التناحر والتفكك ، وبهذا يتواصلون معهم عن طريق اللقاءات والوفود ، فيتبادلون معهم المعتقدات والأفكار ويفصلون الخلاف الذي طالما ينشأ عن عدم المعرفة أو البعد أو السمعة السيئة التي ألصقوها بهم الأعداء نتيجة كيدهم وتربصهم ، وبهذا سرعان ما ستنجلي الحقائق المقلوبة عندهم فيتجهون نحو مسيرة واحدة أو على الأقل تتقارب الفجوة الواسعة بينهم على إثر التنافر والعداوة بينهم . وتأثير هذه الوسيلة بناء على الإستقراء والتتبع أشد وقعا على الملل ، وتحظى من الأهمية الكبيرة بالنسبة عما سواها ، وتدخر الجهد والمال كما يتجنب الخصومة والمواجهة التي تقع بين فئات البشرية ؛ ولكن تناط تحقيق وانجاز هذه المهمة على التركيز التام بهذه الوسيلة وجعلها منضبطة بالقواعد والأصول وكذلك بالإخلاص والمحبة تجاهها . وهكذا يتعارف استخدام هذه الوسيلة أوان قوة الدعوة والحركة وشهرتها وغلبتها ، وبهذا يتجاذبون إليها الناس تلقائيا حتى ولو لم ينتبه لها أصحاب الدعوات .

ونظرا لما سبق فقد كانت للدعوة الإسلامية نصيب أكبر من هذه الوسيلة ، وقد عرف كل مراحلها باستخدامها وخاصة المرحلة المدنية منها حيث توسع شملها في الأفاق والربوع وانتشرت صداها في ربوع الأرض بحيث أصبحت حقيقة ثابتة لا يمكن الإنكار عنها ، وهكذا أذيعت صوت وكلمة الإسلام على مسامع الناس إثر الانتصارات والفتوحات الإسلامية ، وبات الناس يدخلون إلى دين الله أفواجا ، وكانوا يدركون حقيقة الدين ومدى ثبوته بعين اليقين .

وقد عُرف العام التاسع من الهجرة وقبيل وفاة النبي ﷺ بعام الوفود وذلك لكثرة اتيان الأقوام ووفادتها على مدينة الرسول ﷺ ؛ وقد اكتسب عليه الصلاة والسلام بتوفيق الله وإخلاصه وتفننه معها انجازات باهرة حيث أن عدد الداخلين للإسلام عن طريقها فاقت عن دعوة أكثر السنوات التي مارسها ذلك الداعي ، وهي بالتالي تعد ثمرة الدعوة والجهود المتواصلة ومجالا خصبا للدعاة ، وما عليهم إلا أن يوظفوها كأحسن وسيلة لجلب المدعوين .

وقد عرفها من هذا المنطلق علماء الآثار والسنن حيث يقولون على إختلاف وجهتهم برأيين :

١- قال النووي : "الْوَفْدُ الْجَمَاعَةُ الْمُخْتَارَةُ لِلتَّقَدُّمِ فِي لِقَائِ الْعُظَمَاءِ" (١) .

(١) ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ١٣١ .

٢- ويقول ابن الأثير: "إنهم أناس أرسلوا إلى قوم آخرين في مهمة ما، أو القوم الذين يردون على البلاد"^(١). ويمكن بعد سرد هذين التعريفين أن الوفادة هي مهمة عظيمة بغية التفاوض مع طائفة أو قوم أجنيين؛ سواء أكان ذلك في استقبال القادمين منهم أو كانوا هم المرسلين إليهم برسالة أو تكليف معين، ولكن الطابع الغالب كما ذكرنا أنفا كحادثة مهمة في السيرة النبوية لأناس قادمين على مدينة الرسول ﷺ حاملين معهم رسالة أقوامهم للتطلع على أخبار النبي ﷺ ورسالته العظيمة، ومن ثم آمن أكثرهم.

وقد تتبع الباحثون قديما وحديثا الروايات المرتبطة بأولئك في جوانب عديدة في الإطار الزمني والعدة لهؤلاء وكذلك الأطراف الذين أرسل أولئك، ومجمل ذكره كالآتي:

اختلف المؤرخون في تاريخ وعدد تلك الوفود، ولكن الثابت أن أكثر أولئك قدموا في السنة التاسعة من الهجرة، ولكثرتها سمى هذا العام بعام الوفود إلا أن بعض المؤرخين يشيرون أن تلك السلسلة بدأت منذ وقت مبكر مثل وفد مزينة، وجذام والأشعريين وغيرها، ولكنها بدأت بالكثرة بعد فتح مكة وبلغت ذروتها في السنة التاسعة من الهجرة وخاصة بعد غزوة تبوك.

وأما عددها فأیضا محل الخلاف فيحسبها البعض أكثر من ستين، والبعض عدها ستة وتسعون، والبعض يشير إلى أنها مائة وأربعة، ومتتبع بعض الروايات الصحيحة حسبها ما بين صلح حديبية وعام الوفود ثلاثة وثلاثين وفدا^(٢). وأما عن تأثير وأهمية تلك الوفود في الدعوة النبوية ومدى مكسبها يقول الشيخ محمد الغزالي: لقد أينعت تلك الجهود المباركة بعد مضي اثنين وعشرين سنة من السعي الحثيث وتحمل الأذى والكفاح الذي مارسه النبي ﷺ، وكان أهم مظهر منها هي القضاء على بقايا الشرك والإستيقاظ من الغفلة التي كانت مسيطرة على عقول الناس، وفجأة تنبه لها ذو الألباب وعرفوا أن الأصنام المعبدة حول الكعبة قد أطيحت إلى الأبد، وأصبحت هي قبلة يؤمه الموحدون. وكما أدرك عرب المشركين قاطبة أنهم لا طاقة لهم بالمعركة والحرب تجاه الرسول ﷺ وعداوته ومن ثم دخلوا في هذا الدين أفواجا، وكانوا يوفدون من كل حذب ونسل إليه، وقد أشار الله عز وجل في محكم كتابه حيث يقول: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ (٢) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۖ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ (٣) (النصر: ١-٣)^(٣).

ويشير الغزالي أيضا عن تأثير حسن التعامل معهم فيقول: "وكان النبي ﷺ في المدينة يستقبل الوفد ويشعها بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير ويزودها بحكمته الباهرة، فتعود من حيث أتت لتنشئ في مواطنها القضية معاقل للإسلام وصحائف بيضة في تاريخه أمة"^(٤).

(١) ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٥، ص ٢٠٩.
(٢) انظر: شارب، عبد الله راجح، مرويات الوفود التي قدمت على النبي ﷺ (صنعاء، جامعة صنعاء، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م)، ص ٣١-٣٤.
(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤٥١.
(٤) الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤٨٥.

وأما عن منهج تعامل الوافدين ومدى تكريمهم فقد تضافرت حولها روايات كثيرة مجملها: أن النبي ﷺ كان له مع هؤلاء منهج وفعال خاصة، وهي في الحقيقة تدور حول محور الإهتمام بهؤلاء؛ ومن دأبه أنه كان يستعد للقاء وفد، وقد ذكر الإمام البخاري في هذا الصدد (باب التجميل للوفود)، وكان منهجه فيها أنه كان يحسن استقبال هؤلاء من ناحيتي الترحيب وكذلك تيسير متطلبات المعيشة؛ وبهذا كان يختار المكان المناسب لهم، وبناء على هذا فقد خصص ﷺ دار رملة بنت الحارث النجارية في أكثر الأوقات لوسعتها وطيب منظرها لهم، وفوق كل ذلك أنه كان يكرمهم حتى أنه يبسط رداءه لبعضهم ويطلب منه الجلوس عليها لازالة الدهشة عنهم حتى يأنسهم ويزيل الخوف منهم، وكان آخر عمله أنه يودعهم بسعة الصدر ويقدم لهم الجوائز والهدايا^(١).

وصفوة القول: فإن لقاء الوفود ومن ثم مخاطبتهم بالجميل هي من أمثل الوسائل الدعوية والتي عرفت بها المجتمع المدني، وكانت مخاطبة وتعامل هؤلاء مبنية على منهج ثابت للتكريم والاستقبال الجميل، وقد نال ﷺ منها نتائج عظيمة من أهمها أن عدة الداخلين في الإسلام على أثر لقاء هؤلاء فاقت عن الجهود الطيبة التي مارسه النبي عليه الصلاة والسلام في خلال سنوات دعوته، وما هي في الحقيقة إلا ثمرة لهذه المهمة الجليلة.

المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية

لقد عرف النبي ﷺ في حياته ودعوته بالأساليب العذبة والموائمة لطبيعة وفطرة المدعوين، وكان يختار لمخاطبة هؤلاء طرقاً وأنماطاً من الكلام والأحوال تجذبهم لدعوته، فيدركون منذ لحظتها محبته وإخلاصه تجاههم وبالتالي سرعان ما كانوا يلتفون حوله ويصيرون في طريقه. ونظراً لما ذكر فقد كانت الفترة المدنية لتوسعها تعد مجالاً محدثاً لهذه الأساليب، وقد تفحص العلامة محمد الغزالي رحمه الله على نماذج رفيعة منها حيث نجعلها في عناوين آتية:

١- الخطابة من أعظم الأساليب الدعوية: لقد منح الله عزوجل للبشرية مصادر ومنايع للمعرفة حتى يكسب بها فهم مايجهلهم أو يدرك ما يطلب منه إدراكهم من الأوامر التي يجب فعله والكف عنه، وبهذا قد احتلت الحواس ومن بينها النطق والبيان مكانة عالية فيهم حيث تفتح باباً للتعلل والبصيرة إلى جانب الإدراك عن مغزى ما يطلبه الشارع منه أثناء السماع، وفوق كله هي أداة الإستمرار للحياة الإنسانية وكذلك مفتاح التفاهم فيما بينهم فيحل بها مشاكلهم التي تعتري حياتهم. وعلى هذا فقد جعل الله هذه هبة ومنة إلهية عظيمة على الإنسانية والتي ميز بها هذا المخلوق الهادف من بين سائر الموجودات حيث يقول: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ (الرحمن: ١-٤).

ونظراً لما ذكر فقد احتل البيان من بين سائر الأدوات من أهمية فائقة حيث يعد ترجماناً لباقي الأدوات وبالتالي يخدمه عديد من الأساليب البيانية، والتي تجعل هذه الوسيلة مؤثرة ومطابقة للغاية التي أوجدها الله عزوجل في

(١) انظر: شارب، عبد الله راجح، مروييات الوفود التي قدمت على النبي ﷺ، ص ٣٧ - ٤١.

الإنسان، ومن إحدى هذه الأساليب الخطابة والتي عرفت البشرية منذ القدم، وقد عدّها البعض جزءاً من المنطق الإنساني. وبهذا قد عرف هذا الفن والأسلوب لفيف من العلماء، ومنه الشيخ أبو زهرة^(١) حيث يقول: "الخطابة صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول لمحاولة التأثير في نفوس السامعين وحملهم على مايراد منهم بالترغيب واقناعهم"^(٢).

ويتضح من التعريف السابق أن الخطابة هي أسلوب مؤثر للقناعة، ويستخدم غالباً لمخاطبة العقل واثارة الأحاسيس والعواطف فضلاً عن تقريع الوجدان الإنساني والذي تحتل كمحكمة إنسانية عالية والتي تميز بين التصرفات الإنسانية وباعث رائد وموجه للأعمال الإنسانية.

ونظراً لأهمية هذا الأسلوب فقد مارس النبي ﷺ دعوته من خلال هذا الفن المؤثر واتخذها بذلك وسيلة لبيان أهداف رسالته وتعليمه الذي أرسل إليه لأجله، وكان يسير عليه على منهج منظم يراعي فيه حالة وظروف المدعوين حتى أصبح بذلك مسلماً وطريقاً في هذا الباب من ناحيتي المادة والمضمون وكذلك الهيئة والإطار الشكلي.

وقد لجأ إلى هذا الأسلوب مباشرة بعد هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة، وخاصة بعد تأسيس الدولة والمجتمع الإسلامي الخالص، وبالتالي كان يجمع الناس في عباداتهم وشعائرتهم وأحداثهم وهكذا كل جديد طارئ عليهم؛ فيخطبهم ويرشدهم إلى ما فيه حكم الله وصلاحتهم الدنيوية والآخروية.

ومن إحدى هذه الخطب التاريخية والتي تناقلها أصحاب السنن والسير كانت خطبة حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة النبوية والتي وقف النبي ﷺ بين التجمع العظيم بين المسلمين كمودع بينهم معلناً فيها اكمال النعمة والدين الإلهي، ومن ثم القاء التوجيهات العظيمة الخالدة على مدى الأجيال.

وقد أشهد هذا الجمع الغفير عما أوصى لهم إلى جانب توصيل هذه الرسالة للمجتمعات الإنسانية على مدى الدهر، وقد عرفت هذه الخطبة إضافة إلى قوة مضمونها بتفنن العرض والتقديم حيث بدأ بقوله عليه الصلاة والسلام: "أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحَرَمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا"^(٣).

وعن أهمية وآثار هذه الخطبة العظيمة يقول الشيخ محمد الغزالي: "لقد أراد النبي ﷺ بعد تحمل العناء الطويل في ابلاغ الرسالة أن يفيض في مسامع الناس وقلوبهم آخر ما لديه من خير ونصح.

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م): من أكبر علماء الشريعة الإسلامية في الديار المصرية بعصره. تربي بالجامع الأحمدى وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي (١٩١٦ - ١٩٢٥) بدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين (١٩٣٣)، وعين أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في الجامعة (١٩٣٥) وعضواً للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. كان وكيلاً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية وأصدر من تأليفه أكثر من ٤٠ كتاباً في موضوعات مختلفة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٣٢٥.

(٢) أبو زهرة، محمد، الخطابة، أصولها وتاريخها (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م)، ص ١٥.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٦٠٣.

وكان يدرك أن هذا الركب سينطلق وسيسير في رحاب الحياة وحده، فهو يصرخ به كما يصرخ الأب يابنه الذي انطلق به القطار، يوجهه بالخير والرشد ويذكره بما ينفعه أبداً. وكان هذا الرسول الطيب كلما أوجس خيفة من مكر ووساوس الشيطان بالناس، كرر صيحات التخويف والإنذار، واستثار أقصى ما في الأعماق والنفوس من انتباه ثم ساق العلم والهدي... وقطع المعاذير المنتحلة وأخذ بعد ذلك شهادة منهم على أنفسهم أنهم قد سمعوا وأنه قد بلغ الرسالة^(١).

ويتضح من الفقرة السابقة أن خطبة حجة الوداع كانت خطبة وبياناً عظيماً في تاريخ الإسلام وانطوت على رسائل كبيرة للأمة الإسلامية وللأجيال القادمة منهم، وكانت بمثابة خاتمة لهذه الرسالة العظيمة، واتسمت كذلك بجمال الفن والأسلوب المميز من بين سائر الخطب التي قدمها إمام الدعاة ﷺ، ويميز بالتجمع الهائل من حيث العدد التي لم يشهدها تاريخ البشرية آنذاك.

وأما عن أهمية الخطبة في مسيرة الدعوة الإسلامية وما يجب أن تكون متمسكة بها ومتميزة عن باقي الخطب المنبرية اليوم، فيقول عنها فقيه الدعوة الشيخ محمد الغزالي: إن أسلوب الخطابة في الإسلام هي غير الخطبة التي يمارسها الخطباء المفوهين المعاصرين على شكل حائل ومائل، وقد كانت في أصلها هي صوت ونداء للحق والدين تدافع عنها بالبيان كما تمارس المقاتلين بأسلحتهم في ميدان المعركة.

إن الخطابة في الأصل هي مظهر للحياة المتحركة حيث ينتقل من قلب إلى قلب ومن فكر إلى فكرة وبالتالي ينتقل رسالتها من جيل إلى جيل ومن قطر إلى باقي الأقطار.

وقد إهتم النبي عليه الصلاة والسلام بها فكان يقف أسبوعياً وفي الأعياد وفي المشاعر وإذا ما تيسر له، فكان يرسل أحداً من أصحابه ينوبه في وفود الحج عند ذلك التجمع الأكبر.

وأما عن مضمونه فإنها تنبع من بينها آيات القرآن الكريم والمعاني الصحيحة المستفادة منه وكذلك أغراض الدين، وإذا كانت كذلك فإنها بلا شك تعد وقود النهضة وضياء هذه الأمة، وشتان بين تلك الخطبة والتي تعرض الآن على مسامع الناس من المنابر اليوم حيث يسمونها الناس باسم الخطب الإسلامية، وهي في الحقيقة كلمات ميتة فيخرجون الناس ولا يدرون ماذا قال داعيهم وخطيبهم، وحجة ذلك أنها لم تصل بروح القرآن ولا حرك قلباً بمعانيه ولا رفع الأبصار والعقول لأغراضه.

ولأجل ما ذكر فقد كان الرسول ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدون يخطبون بالقرآن، فتارة يخطاطب بـ ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق: ١)، وأحياناً بـ ﴿أَفَئِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ١)،...، وعلى هذا تغير اليوم لغة الخطاب، ولكن لغة الأداء ما زال باقياً ولا يخفى عن الناس حقائق القرآن وهي نفسه بما كان، وعلى

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤٨٩.

هذا يجب أن تكون مشتملة على المعاني الواسعة المشتملة على الدنيا والآخرة، والإنسان والجماعة، والغنى والفقر، وأمور السلم والحرب وكذلك الجسم والروح... وهي في مجموعها مسائل وقضايا الخطابة الإسلامية الأصيلة^(١). وبالجمله فالخطبة هي أسلوب دعوي مميز من بين سائر الأساليب النبوية، وذلك لارتباطها بالعبادات والشعائر الدينية الموقوتة في حياة المسلم، وهي تعد بهذه تذكيرا وتنبيها للمسلمين على مدار الأزمان، وبالتالي يجب على الخطيب والداعي أن يستغله بالطريقة المثلى، ويمارس من خلاله اصلاح الناس وحثهم لفعل الخير والبعد والكف عن الشر والرذيلة، كما يجب أن تكون موضوعاتها حية ترتبط بواقع الحياة الإنسانية حتى يحرك فيهم المشاعر والإحساس إلى أفضل حال.

٢- مخاطبة العقل والرشد في الدعوة: لقد كان دأب النبي ﷺ في دعوته الاهتمام بأصحاب الرشد والعقلاء الذين يستخدمون عقولهم وينفرون عن السفاهة، وكلما عرض عليهم الأمر رجعوا إلى أحلامهم وعقولهم ولم يصروا على التقاليد العمياء التي تحيل عن نظرة الحق.

وقد بدأ بادي دعوته في مكة من هؤلاء وذلك لأن التحكم إلى العقل والرشد طريق لا محالة لإشعاع النور والقبول، ومن ثم فقد استمر على هذا المنهج في فترته المدنية وخاطب فيها أصحاب الرشد والنهي لتفعيل هذا العنصر الفعال المؤثر، وكان ﷺ يدرك أن أصحاب العقول السليمة لا يمكنهم بتاتا أن يبقوا على أدران الشرك والكفر وسرعان ما سيفيقون.

ومرد كل هذه أن الدعوة الإسلامية دعوة معقولة، وقد يثق الإسلام بالعقل غاية الثقة وعلى أساسها يخاطب الإنسان بالتكليف، ويبرز الأدلة كمحل خطاب له ويوصل صاحبه إلى الحق، ومن هنا فقد جاءت معجزة النبي ﷺ بخلاف الأنبياء السابقين في نطاق العقل مبعدين إلى حد ما عن الأمور المحسوسة والتي سرعان ما يزول آثاره، وبهذا فقد يتركه حتى يفكر بحرية كاملة ويعي مغزى الدعوة، ويكافح في دعوته التقاليد والتكهنات وإتباع الغير بدون الدليل لمخالفة وتضادهم للعقول ومضرته للإيمان^(٢).

وخطاب العقلاء وأصحاب الرشد أسلوب دعوي مؤثر و اتسمت بالعقلانية، فالدعوة الإسلامية كما مر بنا لم تكن أحكام تعجزية لا تدركها العقول بل جاءت بأسلوب تخاطب العقل، وبالجمله معقولة المعنى وكثيرا ما نجد في السيرة النبوية أن الذين اتبعوا النبي ﷺ كانوا من الأشخاص الذين يستسلمون لأصوات عقولهم.

ومن هنا نجد أن الرسول ﷺ يهتم بهم ويشير في أقواله وأفعاله ومراسلاته بإثارة عنصر العقلانية فيهم، لقد أرسل ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين فقال له: "يَا مُنْذِرُ! إِنَّكَ عَظِيمُ الْعَقْلِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا تَصْغُرَنَّ عَنْ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذِهِ الْمَجُوسِيَّةَ شَرِّ دِينٍ لَيْسَ فِيهَا تَكْرَمُ الْعَرَبُ، وَلَا عِلْمُ أَهْلِ الْكِتَابِ يَنْكِحُونَ مَا يُسْتَحْيَا مِنْ نِكَاحِهِ

(١) انظر: الغزالي، محمد، مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة (دمشق، دار القلم، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)، ص ٢٩٥-٢٩٧.

(٢) انظر: غلوش، أحمد، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص ٧٢.

وَيَأْكُلُونَ مَا يُتَكَّرَمُ عَلَى أَكْلِهِ وَيَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا نَارًا تَأْكُلُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَسْتَ بِعَدِيمٍ عَقْلٍ وَلَا رَأْيٍ فَانْظُرْ هَلْ يُنْغِي لِمَنْ لَا يَكْذِبُ أَنْ لَا تُصَدِّقَهُ وَلِمَنْ لَا يَخُونُ أَنْ لَا تَأْمَنَهُ وَلِمَنْ لَا يُخْلِفُ أَنْ لَا تَتَّقِي بِهِ ..."^(١).

والقارئ ليجد في تلك العبارة السابقة الأسلوب العذب لصاحب الرسول ﷺ حيث تربى في مدرسة النبوة، فيها هو يثير دفائن العقول والرشد، ويكرم الرجل بمحاسنه ورشده ويتذكر له بشمائل الرسول ﷺ، ويذكر له عقليا حقيقة الدين ودناءة ما يعتقدون به.

ولقد اتخذ النبي ﷺ هذا المنهج والأسلوب وبدأ يكتب الملوك والأمراء، وكذلك يأمل بهداية الأعراب الشاردين في الفياضي، مرة طورا باللين وطورا بالشدة، ثم هو ينصح قادة الشعوب أن يفكروا في هذا الدين الجديد وأن يعتنقوه، والخرافة أفسدت عقول البدو وهي بعينها خرافة أفسدت فكر كسرى والروم، وقد أراد النبي ﷺ أن يشفي الصغار والكبار من أسقام نفوسهم و يناولهم جميعا الدواء الذي يشفون به وهو القرآن الكريم^(٢).

المبحث الثالث: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المدني عند الدكتور رمضان البوطي

لقد عرف المجتمع المدني من الدعوة الإسلامية ﷺ بالتوسع وتعزيز قوة الدعوة الإسلامية وبسط شملها في خارج أرضيتها وكثرة مدعوها اضافة إلى دخول طوائف جديدة نحو كلمة الإسلام فضلا عن استكمال تعاليم الدين الحنيف والشامل لكل أنحاء الحياة الدينية والدنيوية، وبما فيها المنهج الكامل للدعوة الإسلامية والتي جعل الله مناطا لفلاح الإنسانية، وبهذا وضعت لهذه المهمة الجليلة أركانها من الموضوع والدعاة والمدعوين إلى جانب الوسائل والأساليب المناسبة لكل بيئة ومرحلة حتى يدخل الناس على أساس الرضا والقناعة القلبية إلى هذا الدين. ولقد استقرأ وتتبع الفقيه الداعي الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على بعض هذه الوسائل والأساليب في ظلال قرائته للسيرة النبوية المباركة وخاصة في العصر الثاني (المدني) منها، وبهذا سوف نقف على هذين الجانبين في مطلبين منفصلين:

المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية المستفادة من المرحلة المدنية

لقد ارتبطت الوصول إلى الأهداف والمقاصد بسلوك وأخذ الوسائل والأدوات المتاحة، وهي بذلك تعين الدعاة لمواصلة المسيرة الجليلة والشاقة، وقد اتاحت الفترة المدنية لحاملي الدعوة الإسلامية بفضل تأسيس دولة ومجتمع إسلامي خالص تحت قيادة الرسول ﷺ الوسائل المناسبة والموائمة داخل حدود الجزيرة العربية وخارجها، وكانت بالجملة ادوات قيمة عالية ومستمرة صلاحيتها على مدار الأزمان؛ وسوف نقف على قبسات منها في العناوين المزيلة:

(١) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٦، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ج٧، ص ٥١٥.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٣٩٢.

١- جواز الإقامة بدار الكفر ابتغاء القيام بواجب الدعوة: لقد ميز الله بالإسلام وشريعته السامية حياة المسلمين ومعيشتهم من غيرها من البشرية من ناحية السلوك والمعيشة، وهكذا كما تتابن معتقداتهم وأفكارهم وعباداتهم، فيلزم عليهم كذلك أن يكون خلقهم وسلوكهم عالية ومكرمة، ومن ثم أن يظهر في حياتهم المادية ومجتمعهم السياسية والاقتصادية وغيرها من المجالات أن يصبغ بنور وضياء الشريعة، وحينما يراه الآخرون يلمس مظاهر الشريعة وحسنها في حياتهم، ويعجب ويدعوا المدعويين لسماحة الإسلام وعدله وخيره.

وليست هذه الميزة والسمة مجرد التحسن أو تطوع دعا إليها الإسلام بل هي شرط للحياة الإسلامية، وبالتالي تناط مسaire هذا الأمر الإقامة في المجتمع الإسلامي القائم على دين الله وتنفيذه، وبها يستطيعون أن يمارسوا حياتهم الدينية والدنيوية من خلال دار الإسلام، ويربي كذلك الناشئة في هذا المجتمع على الدين وشريعته النبيلة تلقائيا مع تركيز الأولياء على تربيته وتنشئتهم؛ وحجة ذلك أن الإنسان تابع لبيئته ومجتمعه ويصنع بالتعايش معهم.

ونظرا لما ذكر فقد كانت الفترة المدنية معلما واضحا لهذا المطلب حيث تمكن المسلمون في بادئ قدمهم على تأسيس مجتمع إسلامي خالص يقوده الرسول الأعظم ﷺ، ومن ثم وضع لها دستورا ثابتا لآنارة طريقهم، وطلب من المسلمين جميعا أن يجتمعوا في هذا المعسكر ويجمع شملهم فيه، ولم يستثن منه إلا الذين حبسهم العذر والاضطهاد تحت وطأة الظلم والعدوان، ولكن أعلى درجة منهم هم الذين يقيمون في دار الكفر أو الحرب حسب ما يصطلح له الفقهاء ابتغاء القيام بواجب الدعوة وجلب المدعويين الجدد من الخارجين عن دائرة الإسلام، وبالتالي هم أكثر شرفا وفضلا وقد أجاز الشريعة آنذاك القيام لهم في تلك الديار.

ولسوف يدرك القارئ للسيرة النبوية المطهرة تجلى هذا الحكم في هذه الفترة، ويستدل على بعض البعوث ومنها ما كانت في السنة الرابعة من الهجرة في شهر صفر والتي اشتهرت بحادثة بئر معونة، فقد روى ابن هشام في سيرته أنه في تلك السنة بعث النبي ﷺ على اثر طلب أبي براء عامر بن مالك والمشهور ب (ملاعب الأسنة) حين مقدمه على المدينة بارسال أصحابه لدعوة قومه، ولم يسلم بعد عرضه عليه، وقال: يا محمد! لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: إنني أخشى عليهم أهل نجد، فأجاب البراء: أنا لهم جار، فأبعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك؛ وبهذا استجاب لطلبه، وبعث المنذر بن عمرو في أربعين من خيرة أصحابه، وساروا حتى نزلوا ببئر معونة وهي أرض بين أرض عامر وحره بني سليم، وحينما نزلوا أولئك بعثوا قائدهم كتاب رسول الله ﷺ بيد حرام بن ملحان إلى كبيرهم عامر بن الطفيل، ولكن الرجل قبل أن ينظر في كتابه قام بقتله، ومن ثم هاجموا على المجموعة حتى استشهدوا كلهم إلا كعب بن زيد^(١).

وأما عن الدرس المستفاد من الواقعة فيقول الدكتور البوطي رحمه الله: لا يجوز للمسلم أن يقيم في دار الحرب والكفر في حالة استحالة من اظهار أمر دينه فيه، ولكن إذا استطاع أن يخفيها فهذا جائز مع الكراهة، ولكن هناك

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ١٥٧.

حالة خارجة عما سبق بل يثاب ويؤجر صاحبه إن فعل، وهو في حال الذي يقيم في تلك الديار ابتغاء القيام بواجب الدعوة الإسلامية، وبهذا تعد هذه الإقامة نوعاً من أنواع الجهاد الملزم على عاتق المسلمين ومن ثم يسقط الإثم عن باقيهم بحجة قيام بعضه، وإلا أثموا جميعاً لتركه^(١).

وفي هذا الصدد ذكر بعض الفقهاء أن هذه الإقامة هي أفضل من الجهاد بحجة أنها وسيلة دعوية، فلو تمكن ذلك بدون القتال كان أولى من المحاربة، وبهذا يقول: "ووجوب الجهاد وجوب الوسائل لا المقاصد؛ إذ المقصود بالقتال إنما هو الهداية وما سواها من الشهادة، وأما قتل الكفار فليس بمقصود حتى لو أمكن الهداية بإقامة الدليل بغير جهاد كان أولى من الجهاد"^(٢).

ويستنتج من هذين الفقرتين أن القيام بدار الكفر للمسلم العاجز عن الممارسات التعبدية والشعائرية هو محذور شرعي بحجة عجز صاحبه عن أداء هذه، وقد أقام الدين عليها. وحتى لو تيسر له فإن صاحبه يستأثر من البيئة ويوهن في ممارسة أكثر الأعمال؛ أما إن كان ذلك ابتغاء القيام لأمر الدعوة فإن صاحبه يؤجر ويثاب على فعله، وهكذا لا يتصور من الدعاة الناشطين الممارسين أن يقع في مكيدة الأعداء أو أن يوهن ويؤخر عن مهامه؛ وبالتالي فالحكم عليه مختلف بالنسبة لما قبلها بعلّة عدم الخوف والوهن أو الارتكان إلى الكفر، وهي مع ذلك أكبر وسيلة دعوية، وقد تمارسه الجاليات والمراكز الإسلامية في أكثر البلدان الغربية من العصر الحديث، وكان لجهودهم أثاراً ملموسة في إسلام الناس وإيمانهم.

٢- ضرورة تبيين أسباب الدعوة ومن ذلك تعلم لغة القوم: لقد أنيطت القيام وتوصيل أمر الدعوة الإسلامية إلى فئة المدعوين على عديد من الوسائل المادية والمعنوية، ومن أهم تلك الأدوات وجود لغة وكلمات مشتركة بين فئة الدعاة ومدعوهم بغية انتقال أفكارهم ومقاصدهم التي يرمي الوصول إليها، وبهذا خلق الله عز وجل في كونه السنة ولغات مختلفة منذ القدم، وجعلها إضافة على كونها آية وعلامة لقدرته وسيلة للتعارف والتفاهم بين البشرية في أمورهم المادية والمعنوية، وقد جعل الله هذا الأمر عظيماً حتى أنه قرن بها بخلق أكبر الموجودات في الكون وهي السماء والأرض، حيث يقول: ﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفْنَا السَّنِينَ وَالْوَنُكْرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

وهكذا يشهد تاريخ البشرية أن مجتمعاتهم دوماً كانوا يهتمون بهذا الجانب ويختارون السنة المشتركة رغم بعد ديارهم ومجتمعاتهم، وكانوا لهذا الغرض يربون أشخاصاً ذات مواهب يمكنهم على تحصيل وتعلم واكتساب السنة كثيرة حتى لتكون سفراء وحلقة وصل بين الفئات المختلفة وينال أغراضهم بالوجه المطلوب.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٠٣.

(٢) الخطيب الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)، ج ٦، ص ٩.

وبناء على ما ذكر لم يكن هذا الأمر بعيدا عن الدعوة الإسلامية، وكان الإهتمام به أكبر بكثير بكونه رسالة عالمية خاتمة، وأن نبيه هو المبعوث البشير والنذير لكل العالمين مع أن لسانه هو العربي المبين، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، ولهذا اهتم النبي ﷺ بهذه الوسيلة، وطلب وحث ورغب أصحابه على ذلك الممارسة بمهامه الدعوية والسياسية وما إلى ذلك، وبالتالي كان يختار لمهامه أصحاب المواهب وخاصة الذين كانوا يتكلمون بالألسنة العديدة حتى يوصل الرسائل على الوجه المطلوب، وقد كانت الفترة المدنية مجالا خصبا لهذه الوسيلة حيث وظّف أشخاصا لهذا الفن.

ومن إحدى تلك المهام التي مارسها هؤلاء بعث أولئك في مهمة ارسال رسائل النبي ﷺ لأمرأ وحكام العالم، وعن سمات وصفات أولئك يقول أهل السير: لما رجع النبي ﷺ من الحديبية في السنة السادسة من الهجرة أرسل على فوره رسائل إلى حكام وأمرأ الشعوب يدعوهم للإسلام، وكتب بهذا الغرض رسائل، فقليل يا رسول الله: إن الملوك لا يقرأون كتابا إلا مختوما؛ واتخذ يوما خاتما من فضة منقوشا بثلاث أسطر وهي (محمد رسول الله)، ومن ثم ختم بها الرسائل، وقد أعطى هذه لستة أشخاص في ست جهات، وكان كل منهم يتكلم بلسان القوم الذي أرسل إليهم^(١). وعن الفقه المستفاد من هذا يقول الدكتور البوطي رحمه الله: يلزم على المسلمين أن يعدوا لمهمة الدعوة كفريضة ملزمة عليهم لكل أرجاء الأرض بالوسائل والأساليب اللازمة، ومنها الإلمام التام بلغات الأقوام والأمم الذين تعرض عليه الدعوة، وقد اختار الرسول ﷺ لهذا الغرض أصحابه الأكفاء والمعرفين بلغات ذاك الأمم، وقد وصلت الخطابات كما طلب منهم رائدهم وقائدهم^(٢).

وأما عن أهمية وتأثير هذه الوسيلة يقول الدكتور القرضاوي رحمه الله: إن تعليم اللغة والألسنة المختلفة لتوائم البيئة إلى الدعوة والتعليم؛ فيجعل كل واحد من الدعاة والمدعويين مطمئنين؛ فيزيل الدهشة التي تسيطر على الأطراف، وهكذا نرى أن الشريعة لم تحرم على أتباعها تعلم لغة قوم بل حث المؤمنين على أن يتعلموها، وهي بذلك وسيلة عظيمة لنشر الدين؛ وبالتالي هي وسيلة هادفة ومقصودة. وقد نرى في تراث السنة النبوية أنه ﷺ أمر بعض أصحابه على تعلمها حتى تحمل هذه الرسالة، وما لم تكن بين أطراف الدعوة لغة للتفاهم فلن يسير الأمور على نهجها وستكون معوجة بالتحديات^(٣).

(١) انظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٩٨.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٧٣.

(٣) انظر: القرضاوي، يوسف، الرسول والعلم (مصر، دار الصحوة، ط ١، ب ت ط). ص ٨.

وهناك حكمة أخرى تتجلي في السنة النبوية أو أن ذلك الفترة المبكرة حيث يروي الإمام أبو داود في كتاب المصاحف حديثا عن زيد بن ثابت رضي الله عنه حيث يقول رسول الله ﷺ: "إِنَّهَا تَأْتِينِي كُتُبٌ لَا أَحِبُّ أَنْ يَقْرَأَهَا كُلُّ أَحَدٍ، هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْلَمَ كِتَابَ الْعِبْرَانِيَّةِ؟ - أَوْ قَالَ: السُّرْيَانِيَّةِ؟ - " فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا" (١). ويزيد الشراح والعلماء على مقصد الحديث أنها للأمر والطلب، وليست محددة في التكلم والخطاب فحسب بل ينضم إليها كذلك تعليم الكتابة والتسطير كذلك، ويقدم الحديث السابق دليلا عليه (٢).

ومنتهى القول: إن تعليم اللغة هي مفتاح التواصل بين أطراف الدعوة؛ فتيح لكلا الطرفين الترابط والتفاهم، ويزيل كذلك الدهشة والغموض التي طالما تعترى هؤلاء في المسيرة، ويجعل الدعاة فوقها بتعلمها مطمئنين ومؤمنين عن شر الأقوام الذين يتربصون بالدعاة والمسلمين جميعا، وبالتالي لا يتطلع أسرارهم التي يجب أن يكون محتفا بالخفاء ولا يجهر بها الناس.

٣- الجهاد وسيلة دعوية: لقد ارتبط مصطلح الجهاد بالدعوة ارتباطا وثيقا بحيث لا تنفك أحدهما عن الأخرى، وما دامت تمارس الأمة الدعوة فلا بد أن يكون هناك مجاهدين، وهي كما هو البين افراغ كامل الوسع لتحقيق كلمة الله في الأرض والتي تعد من أكبر معاني الدعوة إلى الله.

وبهذا فالجهاد هي وسيلة خادمة للدعوة ولا يمكن لها أن تستغني عن الثانية، ومن هذا المنطلق نرى؛ أن بين هذين المصطلحين تلازم وترابط، فإذا كان المقاتل يمارس جهاده فإنه بطبيعة الحال يعمل للدعوة، أو يمارس نمطا من أساليب الدعوة إلى الله. وغرضه في مهمته أولا وأخيرا هي الدعوة؛ وإذا انفصلت عن الجهاد هذه الغاية فإنه يصير حربا أو قتالا الذي يأباه الشرع، وهكذا كل حرب كانت منفصلة عن شعار في سبيل الله فإنه تعد شرا وفتنة، وقد أمر الدين بالقضاء عليها حتى يتسنى للناس طرق الحياة السلمية والعيش الرغد فيها.

ومن هنا يرى ابن خلدون: إن كل الحروب في أصلها غير مشروعة إلا ما كان جهادا في سبيل الله حيث يبلغ دين الله، أو كان بغرض تاديب العصاة أو البغاة في داخل الدولة الإسلامية (٣).

ونظرا لما سبق فإن الجهاد بهذا المعنى فريضة أو واجب تقدم لها طليعة الدعاة في الفترة الأولى، وتعد كل ممارستهم حتى في الفترة المكية نوعا من الجهاد؛ وهو بذل أقصى الجهد لرفعة الدين رغم شدة الأحوال التي كانوا يمرون عليها أصحابها، وأما الهجرة صوب المدينة فقد وفرت لهؤلاء مزيدا من التوسع والقوة، ومن ثم ألزمت عليهم بذل أكثر الجهد والحث نحو الدين، وقد زيدت فيها نمط القتال والحرب في سبيل الله بشقيه الدفع والمدافعة وكذلك الهجوم والقضاء على الفتنة التي تسد وجه الدعوة الإسلامية. وقد مارس هؤلاء حتى اكتمل الدين، ولكن لما كانت

(١) السجستاني، أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث، كتاب المصاحف، المحقق: محمد بن عبده (القاهرة: الفاروق الحديثة، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، ج ١، ص ٣٤.

(٢) القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، صبح الأعشي في صناعة الانشاء (بيروت، دار الكتب العلمية، ب ت ط). ج ٣، ص ٧.

(٣) انظر: ابن خلدون، مقدمة، ص ٢٣٥.

واجب الدعوة مهمة مستمرة فإنها بطبيعة الحال تدوم معها، وبالتالي على عاتق الدعاة أن يختاروا لكل بيئة أسلوبها الأمثل حسب وسعهم وطاقاتهم.

ولقد تنبه العلامة البوطي رحمه الله إلى جوهر وحقيقة هذه المهمة مستنبطاً ذاك من خلال القراءة المتفحصية من سيرة الرسول ﷺ، وبهذا الصدد يقول: إن الجهاد حسب ما توضحه الشريعة الإسلامية ليس قتالاً دفاعياً أو هجوماً كما يصوره المستشرقون، بل هو مهمة منفصلة عن هذا وذاك بل الغاية القصوى منه هو إعلاء كلمة الله في الأرض وبناء المجتمع الإسلامي السليم، ومن ثم إقامة دولة الله ونظامه في الأرض؛ فأيا كانت الوسيلة المساعدة إلى ذلك وجب اختياره. وقد تتجلى هذه الحقيقة من آيات سورة البراءة بكونها آخر سورة نزلت من القرآن وتحمل في طياتها أكثر معاني الجهاد، حيث يقول الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ۚ﴾ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢﴾﴾ (التوبة: ١-٣).

وبنزول هذه الآية أفندت شبهة من يرفع دعوى الحرب الدفاعية حيث يعدها أساس الجهاد بناء على قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۚ﴾ (الحج: ٣٩).

وهكذا لم تنسخ الآيات الأولى من سورة البراءة الآية الأخيرة ذكرها هنا بل إن القضية تدور حول محور اختيار الوسائل للدعوة الإسلامية. ومن هنا يجب أن ندرك: فتارة تكون الوسيلة لظرف ما اختيار أسلوب المسالمة والتعليم والنصيحة والارشاد كما هو الحال في الفترة المكية؛ ولا يفسر حينها إلا بالجهاد. وأحياناً تناسب حسب الظروف الحرب الدفاعية مع دوام الارشاد والنصح تجاه معاندي الدعوة الإسلامية فهذا نوع من الجهاد المشروع، ومرة تكون الظروف تقتضي وسيلة أخرى وهو الحرب الهجومي فهذا أيضاً ذروة سنام الإسلام؛ ولكن كل هذه المراحل محول استعمالها وتوظيفها للحاكم المسلم المتبصر لحكم الله ومصلحة المسلمين^(١).

ويتبين من الفقرة السابقة أن الجهاد في أصله ممارسة لمهمة الدعوة إلى الله ويختلف أنماطه حسب ظروف الدعاة والمدعوين، وبالتالي يختار لكل وقت ما يناسبها من الوسيلة والأسلوب، وقد يتفق مع ما قاله البوطي لفييف من الفقهاء قديماً وحديثاً، وقد أشار الدكتور وهبة الزحيلي^(٢) رحمه الله إلى هذه الحقيقة بحسن براعته قائلاً: لا يصح وصف الجهاد وتحديد مهمته بالدفاعي ولا الهجومي، بل هو أسلوب خاص وله غاية مقدسة.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) وهبة مصطفى الزحيلي (١٩٣٢م-٢٠١٥م): فقيه وباحث شرعي سوري معروف في العصر الحديث، نال شهادة الدكتوراه من كلية الحقوق بجامعة القاهرة، عام ١٩٦٣م، وكان عضواً في أكثر المجامع الفقهية وخبيراً فيها بكل من مكة وجدة والهند وأمريكا والسودان، واشتغل كذلك رئيساً لقسم الفقه

وعلى هذا يختلف تحقيق مصلحته، قد يكون لإعلان الدفاع المحض، وتارة يكون مفاجأة أو ابتداء من قبل المسلمين بعد تقدير ظروف الخطر عليهم من الأعداء المجاورين، وأما تقسيمه على حساب الدفاع والهجوم كما هو المتعارف في القانون الدولي الحديث فقد لا ينطبق على نظام الجهاد الإسلامي؛ بحجة أن هذا المبدأ لا يتأثر بالحدود الإقليمية ولا تجأ إليه على أساس المطامع والمصالح البشرية.

ووصف الجهاد بالهجومى خطأ فادح عقلي؛ لأن الهجوم تعني الظلم، وحقيقة هذه المهمة وممرها في الأصل تحقيق للعدل وحماية للقيم الإنسانية الخالدة، ومن أكبر مقاصدها تبليغ دعوة الحق والإصلاح وتخليص ونجاة الإنسانية من وطأة الظالمين واثابة الفرص لهم لتمكين النظر في مدى صحة الدين على أساس القناعة العقلية والحرية المطلقة واطمئنان النفس وراحة الضمير^(١).

وقد ظهرت مظاهر ومعالم هذه الرحمة والعدالة في سيرة النبي ﷺ في اجراء مهمة الجهاد ومدى اتسام حقيقته بتقديم الدعوة الإلهية كل حين، وكذلك حب الخير للبشرية جمعاء حتى لألد الأعداء الحاقدين والمتربصين لهم في ميدان المعركة، وبهذا نالت هذه الفريضة مكانة ورفعة رغم شهرتها بالقسوة وممارسة القتال والكفاح الدامي التي تنفر عنها الفطرة الإنسانية.

وعنه يقول الدكتور البوطي: إن الجهاد في الحقيقة لا يعني الحقد على الكافرين بل هو ممارسة للمهمة وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعد بهذا مسؤولية الناس كلهم تجاه بعضهم البعض، وذلك بغية اعتناق نفوس أولئك من العذاب الإلهي الدائم يوم القيامة. وخير دليل على ذلك دعاؤه ﷺ لأهل الطائف وخاصة الثقيف منهم بالهداية كما قال: "اللهم إهد ثقيفا وأت بهم"^(٢).

وقد ذكر أهل السير الواقعة: أن رسول الله ﷺ بعد الانتصار والمغانم بغزوة حنين في السنة الثامنة من الهجرة توجه نحو الطائف وأهلها ثقيف، وقد حاصرها بضعة عشرة يوما، وقيل بضعة وعشرين ثم بدأ يرحل عنهم، وحينما أعلن ذلك قال له أصحابه: (إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: نَذْهَبُ وَلَا نَفْتَحُهُ، وَقَالَ مَرَّةً: نَقْلُ. فَقَالَ: اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ. فَعَدَوْا فَاصَابَهُمْ جِرَاحٌ، فَقَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَأَعَجَبَهُمْ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ)^(٣).

ولما رجع رسول الله ﷺ عائدا قال لأصحابه قولوا: آثبون تائبون عابدون لربنا حامدون! وقيل: يا رَسُولَ اللَّهِ ادْعِ اللَّهَ عَلَى ثَقِيف. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا وَأَتِ بِهِمْ. وبالفعل تقبل دعاء النبي ﷺ حيث هدى الله وجاءوا بعد قليل وافدين معلنين إسلامهم^(٤).

الإسلامي ومذاهبه في كلية الشريعة بجامعة دمشق. له أكثر من مؤلف في مواضيع عديدة من التفسير والفقه، أبرزها: التفسير المنير، الفقه الإسلامي وأدلته. انظر: الموسوعة العربية العالمية.

(١) انظر: الزحيلي، وهبة، العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١)، ص ٣٥-٣٦.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣١٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف، رقم الحديث: ٤٣٢٥.

(٤) انظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٢١.

وبالجملة: فالجهاد هي وسيلة أو نمط من أساليب الدعوة الإسلامية، وهو في حقيقتها بذل أقصى الجهد لإعلاء كلمة الله ودحض وازهاق كلمة الباطل، وهو بذلك ممارسة لدعوة الحق وتأمين العدالة وتثبيت القيم الإنسانية النبيلة حتى يتسنى لهم الخير والصلاح ويزيح عن أبصارهم غشاوة العمه والضلالة.

٤- حسن معاملة الوفود والمستأمنين: لقد خلق الله الإنسان على جبهة محبة التعامل الحسن والحب والوفاء إلى من يحسن إليهم، وقد يجذب تجاه هؤلاء من ينظر إليه بالتوقير والإحترام حتى وإن كانت بينهما عداوة أو خصومة قديمة، وبهذا سيجلب لخطابهم ودعوتهم حتى ولو لم يدعوهم مباشرة، وهذا في أصله منهج قرآني طلب الله من الرسول والمؤمنين في آيات عديدة أن يسلكوها مع بني البشر كقاعدة عامة في السلوك والحياة وخاصة في مجال الدعوة التي تتطلب إلى وسائل وأساليب رفيعة حتى تجذب المدعويين بالطريقة المثلى، ومن أهمها التعامل والسلوك الحسن مع المستأمنين والوفود الخارجية بغية أن يدركوا أولئك في التعامل مدى سماحة الإسلام وحسن سلوكها، وبأثرها يترك بغض والحسد والتنافر تجاه الحق وأهله ويبدلها من سويداء القلب لمحبة الحق والخير ومن ثم متابعتها.

ومن هذا المنطلق فلقد مارس إمام الدعوة النبي ﷺ هذه الوسيلة في كل مراحل دعوته، إلا أن الفترة المدنية نظرا لخصوبتها وتوسع مجالها عرفت بكثرة الوفادة والاستئمان تجاه من يطلبها، وبهذا أصبحت دارهم ودولتهم محل أنظار الوافدين وطامعي الأمن، وعليه فقد انتهز النبي ﷺ من هذه الفرصة ولجأ إلى اختيار هذه الوسيلة العظيمة، وبالتالي فقد مالت إليه القلوب مجتمعين على أساس الحب ومؤثرين رسالته ومن ثم يزودون عنه بالنفس والمال. وبهذا الصدد ذكر أصحاب السنن والسير نماذج حية، منها الذي رواه ابن اسحاق عن قدوم وفد ثقيف في السنة التاسعة من الهجرة النبوية حيث يقول: لقد اجتمع زعماء ثقيف من ساكني الطائف وتشاوروا فيما بينهم أنهم لا طاقة لهم بالحرب والمؤامرة على المسلمين من بعد حيث استسلم العرب من حولهم لكلمة الإسلام وبايعوا النبي ﷺ؛ وبهذا أرسلوا وفدهم بزعامه كنانة بن عبد ياليل إلى المدينة وقد لقيهم المغيرة بن شعبة آنذاك؛ حيث كان منهم وقد علمهم بادي الأمر بأدب اللقاء والتحية مع الرسول ﷺ؛ ولكنهم لم ينتبهوا وبادوا بتحية أهل الجاهلية.

وقد أنزلهم النبي عليه الصلاة والسلام في مسجده وأقام لهم بهذا الصدد خياما حتى يكونوا مقربين منه لكي يسمعوا القرآن ويروا المسلمين بالصلاة، وظلوا هكذا مقيمين بها ليلي وأياما، وكان إمام المرسلين ﷺ يأتي للقاءهم بعد العشاء في كل ليلة ويحدثهم ويدعوهم إلى الإسلام حتى وقع الكلام إلى أفئدتهم؛ ولكن زعيمهم كنانة طرح قبل إسلامه أسئلة غريبة على الرسول ﷺ فأجابه ومنها: أفرأيت الزنا؟ فإننا قوم نغترب ولا بد لنا منه، فقال: هو عليكم

حرام، وقرأ عليهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢).

ثم عرضوا مسألة الربا بحجة أن كل أموالهم منها، فرد عليهم كذلك أنه حرام ولكم رؤس أموالكم وتلا عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٧٨).

ثم استفسروا في الخمر حيث قالوا: إنها عصير أرضنا ولا بد لنا منه ، ولكنه أجابهم بحرمة . فجاءوا أخيرا بقبوله بشرط أن يدع لهم صنمهم الأكبر (اللات) لثلاث سنين لا يهدم ، ولكن الرسول ﷺ رفض ذلك ، فقلصوا أولئك لستين ومن ثم سنة وأخيرا شهرا واحدا؛ بحجة أن سفهائهم ونسائهم سيؤذونهم ولكن النبي ﷺ رفض ذلك كله واستجاب لطلبهم أن يبعث أصحابه لهدمه بدل أولئك ، وبالفور أرسل خالد بن وليد وفي ركبه المغيرة بن شعبة وأبي سفيان بن حرب حتى هدم وأمنوا كلهم... وقد تحسن إسلام أولئك حتى أن ابن اسحاق يقول: فلا نعلم قوما من العرب أحسن وأصح إسلاما منهم وأبعد عن الغش لله ولكتابه^(١).

ويستدرك من الفقرة السابقة عدة أمور: أولاها مدى حقية دعوة النبي ﷺ ورفعته موضوع دينه حيث أنه لم يساوم مع أحد من الناس بل وقف في حكم من أحكام الإسلام مدافعا عنها ، وبالتالي لم يتنازل عن هدفه ودعوته في نقطة يسيرة ، ومن أهمها مسألة القضاء على الوثنية والالتزام بالعبادات ومكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل والفحشاء وهذه هي دائرة الثوابت.

وأما في الجانب الآخر فيما يتعلق بالسلوك والوسائل فإنها اتسمت بالمرونة واليسر ، وقد ذكر العلامة البوطي رحمه الله إلى جوانب عديدة منها حيث يقول: لقد استقبل عليه الصلاة والسلام ذاك القوم الذي أخرجه من دياره يوم أن جاء إليه بكلمة الإسلام فأستقبلوه بشر الإستقبال حيث شجع الصبيان والسفهاء لسبه وضربه ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام عاملهم بالعكس وأنزلهم بالحفاوة والتكريم ودفع اساءتهم بأحسن الحسنى حتى فتح الله بتعامله قلوبهم إلى الإسلام ودخلوه أجمعين .

وقد تحقق في حقهم رجاء النبي ﷺ كذلك حينما أجاب لصاحبه زيد بن حارثة في ذاك اليوم حيث سأله: كيف تدخل على قومك وهم أخرجوك؟ فقال له: "إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه"... وبهذا وقع كل ما دعاه وتمناه؛ وقد دخل أهل تلك الديار ومكة في دين الله أفواجا وقد ظهر الدين الحق ورسالته^(٢).

ويستدل البوطي من الحادثة كذلك حكما فقها في مجال الدعوة وهو جواز انزال المشرك الوافد والمستأمن في المسجد إن كان يتوقع إسلام هؤلاء أو هديهم ، ومن ثم يقول: إن هذه الواقعة لدالة على جواز انزال المشركين في المساجد بغية محادثتهم وتعليمهم للإسلام ، وإذا كان ذلك جائزا في حق المشركين فإنه بطبيعة الحال أولى في حق أهل الكتاب ، وقد نرى أنه ﷺ جلس مع وفد نصارى نجران في مسجده واستقبلهم فيه بالحفاوة والتكريم حيث جاءوا لسماع كلمة الإسلام والمعرفة به^(٣).

(١) انظر: ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر سعد شمس الدين ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ٣ ، ص ٥٢١.

(٢) انظر: البوطي ، فقه السيرة ، ص ٣٣٤.

(٣) انظر: السابق نفسه ، ص ٣٣٥.

وهكذا قد فصل الفقهاء قديما في المسألة على عدة أقوال وفصل في الشروط المباحة لدخول هؤلاء ، ومنهم العلامة الزركشي^(١) بقوله: لقد تباينت مواقف أهل العلم في القضية على رأيين: فمنهم من يرون بجواز دخول الكافر للمساجد يأذن المسلمين إلى كل مساجدهم ما سوى الحرم وذلك بشروط:

١- أن لا يكون دخول هؤلاء بخلاف عقد الذمة والمبينة في عقدها بعدم دخولها.

٢- أن يكون المسلم المؤذن لهم مكلفا ومن أصحاب الأهلية الكاملة.

٣- أن يكون الهدف من دخول هؤلاء سماع القرآن أو التعليم والدعوة لهم، أو لأجل اصلاح البنيان والعمل فيهم، وعلى رأس هؤلاء الإمام النووي^(٢) والرافعي^(٣) من أئمة الشافعية^(٤).

وأما مسألة استقبال وحسن التعامل مع هؤلاء فهو منهج قرآني وسنة نبوية قائمة ومتبعة، وقد ذكرنا في المباحث الماضية نماذج تعامل النبي ﷺ مع هؤلاء، وبهذا لم يفرق الشرع بين الوفود والمستأمنين بينهم.

فالوفود كما مر بنا في أغلب الأحوال هم القادمون من قومهم إلى بلاد المسلمين لبحث الحقيقة أو التفاوض في أمر الإسلام، وأما المستأمنين كما يقول البوطي: فهم القادمون لطلب الأمن لبلاد المسلمين، وقد منح لهم الحاكم حرية العيش والعبادة في دار الإسلام، وقد أمرنا الله في حق هؤلاء منح الاستئجار والأمن لديهم حتى يسمعوا القرآن وتلين قلوبهم لمتابعته، وقد قال الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة: ٦).

وبالتالي إذا كان ذلك في حق المستأمن صاحب غرض شخصي فإن الحكم في حق الوفود تكون أولى بالتطبيق وجد يرون بالحفاوة والاستقبال، وهذا ما هو مارسه النبي ﷺ في حياته الطيبة^(٥).

وخلاصة القول: إن حسن التعامل مع الوفود والمستأمنين من الوسائل المفيدة الدعوية في جلب المدعوين، وهي في أصلها جلبة وفطرة إنسانية عالية حيث تجذب أولئك نحو من يحسن إليها، وقد حث القرآن الكريم بناء عليه

(١) الزركشي (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ): محمد بن بهادر بن عبد الله، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقهاء الشافعية والأصول. تركي الأصل، مصري المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها: الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة، البحر المحيط، إعلام الساجد بأحكام المساجد. انظر: الأعلام، الزركلي، ج ٦، ص ٦٠.

(٢) النووي (٦٣١ - ٦٧٦ هـ): يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالفقهاء والحديث. مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران، بسورية) واليه نسبته. تعلم في دمشق، وأقام بها زمنا طويلا. من كتبه: تهذيب الأسماء واللغات، المنهاج في شرح صحيح مسلم، التقريب والتيسير في مصطلح الحديث، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٨، ص ١٤٩.

(٣) الرافعي (٥٥٧ - ٦٢٣ هـ = ١١٦٢ - ١٢٢٦ م): عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، أبو القاسم الرافعي القزويني: فقيه، من كبار الشافعية، كان له مجلس بقزوين للتفسير والحديث، وتوفي فيها. نسبته إلى رافع بن خديج الصحابي. له: التدوين في ذكره أخبار قزوين، الإيجاز في أخطار الحجاز " وهو ما عرض له من "الخواطر" في سفره إلى الحج، فتح العزيز في شرح الوجيز للغزالي، شرح مسند الشافعي. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ٥٥.

(٤) انظر: الزركشي، محمد بن عبد الله، اعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفاء مصطفى المراغي (مصر، وزارة الأوقاف، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦). ص ٣١٩.

(٥) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٣٦.

المسلمين عامة بمسايرتها حتى يترك الحسد والتنافر مكانه للود والولاء ، وكما أمر الدعاة على وجه خاص بأن يأخذوا هذا المنهج نحو المشركين وأهل الكتاب بغية أن تلين قلوب هؤلاء نحو الحق ، وبالتالي سرعان ما سيصيرون جنودا مخلصين أوفياء .

المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية

لقد امتاز المجتمع المدني في دعوته ﷺ بتغير البيئة الدعوية حيث تبلورت على إثرها المفاهيم والموضوعات وكذلك الموهبة واستعداد التلقي لدى المدعويين ، وكان حريا أن يغير على إثرها الأساليب التي تعرض بها الخطاب والمفاهيم ، وهكذا تنوعت بطبيعة الحال أصناف المدعويين فضلا عن ثراء وسائلها ، وكان لزاما أن يكون الأسلوب الموجه نحوهم مختلفا عما سبقها من المرحلة ... وقد نال ﷺ باستخدامها نتائج ملموسة تعد فقها دعويا في هذا المجال ، وقد وقف الدكتور البوطي على أهمها كالآتي :

١- ممارسة الدعوة بأسلوب البشارة وعدم العسر: لقد اتسم الدين الإسلامي بالسماحة واليسر ورفع الصعاب ووضع الأصر وفك الأغلال والتي تمثل بمجموعها المشاق على الفكر والحياة الإنسانية ؛ ومن هذا المنطلق كانت دعوة الإسلام مثل دينه عرفت بأسلوب البشارة واليسر وترك العسر التي تعرقل الفكر والعقل الإنساني ، وقد قامت دعوته على أساس من الرضا والقناعة العقلية والقلبية ، وهكذا كل عقيدة قامت على أساس الإكراه والجبر فإن الدين يرفضها ولم يبن عليه أحكام شرائعه .

ولسوف يلمس الواقف في تاريخ الدعوة الإسلامية بمرحلة السيرة النبوية في كلتا مرحلتيه وخاصة المرحلة المدنية منها باتسام هذه المهمة بالبشارة واليسر ، وترك العنف والمشقة المؤدية إلى التنفير ، وهكذا لم يغفل عنه صاحبه حتى في أوقات العز والمنعة ، رغم ما يلجأ إليها القوات الطاغية أثناء تمكنهم فيطشون بالناس ويمارسون الدمار والفساد ، ولكن النبي ﷺ كنبى رؤوف ورحيم كان يوصي دائما أصحابه بالرحمة ويذكر وينبه وفوده ومبعوثيه على سلوك هذا الأسلوب ، ويحذر المهملين فيها بعذاب الله الأليم في الدنيا والآخرة .

وفي الفترة المدنية من حياته ﷺ حينما توسعت دائرة الدعوة ، وقد وكل أمرها (الدعوة) لأصحابه بدأ يريهم على هذه المبادئ السامية ، ومن ذلك التحلي بهذا الأسلوب الدعوي ، ففي العام التاسع من الهجرة حيث سمي بعام الوفود جاءت حشود الناس يعلنون الإسلام ، أرسل هو كذلك بعض أصحابه المستعدين وأهل المواهب إلى ربوع الأرض يدعو الناس إلى الإسلام ويعلمهم مبادئهم وأحكامه .

وقد كان من ضمن أولئك أبي موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما حيث أرسلهما إلى اليمن ووصاهما قائلا: (يَسْرًا وَلَا تُعْصِرًا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلَفًا) ^(١) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب: الجهاد والسير ، باب مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالْإِخْتِلَافِ فِي الْحَرْبِ ، وَعُقُوبَةُ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ ، رقم الحديث: ٣٠٣٨ .

وأيضاً قد قال لمعاذ بن جبل: (إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) (١).

والناظر في هذين الحديثين ليجد بعض الأدب التي يجب للدعاة الحق أن يتحلوا بها ويسلكها في أمر الدعوة، ومن أهمها التيسير ومجانبة التضيق والتشدد وهذا ما سماه الرسول ﷺ بالتفكير. وقد وضح النبي ﷺ هذا المبدأ لمعاذ في دعوته للمدعوين الناشئين حيث أمره بأن يبدأ دعوته بتلقيين الشهادتين فإن هم استجابوا فليدعوهم إلى الصلاة، ومن بعدهم إلى دفع الزكاة وهكذا إلى آخر الأحكام؛ ولكن هذا المبدأ يضبطه ضابط آخر وهو أن مظاهر التيسير والبطء ينبغي أن لا تتجاوز حد الشرع والمباح؛ فليس من التيسير المشروع تبديل الأحكام أو تعطيلها بغية التيسير على الناس (٢).

وبناء على هذا فالتيسير ورفع الحرج في الدعوة الإسلامية بل في أحكام الدين كله ليست منهجاً عقيماً أو قواعد صماء، بل هو روح يسري في كيان التشريع سريان الماء في العود، وتعود خيره على الدين والمكلف والداعي والواقع، وذلك لأنه يسبب تحقيق المراد الإلهي من المتكلف ويأنس الناس بتعليم الدين أنسا روحياً، ويترشد الواقع كذلك بقيمومة الشرع وحكمها الباهرة ويمكن تلخيص أهم فوائده كالتالي:

١- إنه استلهم لروح النصوص.

٢- استئصال للفكر البدعي ويضيق الخناق على الأفكار الخرافية.

٣- تحقق به وسطية الإسلام.

٤- تسبب المداومة على العمل وتقضي على الغلو.

٥- تحقق مقصد الشرع من التكليف.

٦- تقوى في الناس النزعة الدينية.

٧- الميل إلى كنف الإسلام، وسبب لبيان محاسن الشريعة الإسلامية (٣).

وقد يرى الناظر في أحوال الدعوة الإسلامية المعاصرة نوعاً من الوهن والشلل وعدم تحقيق النتائج المرجوة ولعل ذلك يعود إلى إهمال المبادئ الدعوية ومنها مبدأ التيسر ورفع الحرج، وقد ثبتت بالنصوص الدينية تعميلها في الدعوة وذلك لأنه استلهم لروح الدين وتمثيل لمقاصدها الكبرى في إجراء التكليف على الوجه الأمثل، وكما يقول

(١) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: بَعَثَ أَبِي مُوسَى، وَمُعَاذٌ إِلَى الْيَمَنِ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، رقم الحديث: ٤٣٤٧.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٤٣.

(٣) انظر: شمام، عبد العال، الدعوة الإسلامية في ضوء المقاصد الشرعية (السودان: جامعة إفريقيا العالمية- مجلة المركز الإسلامي الإفريقي، العدد ٢٠، ٢٠١٠م)، ص ١٤.

الباحثون: "وكلما كان الحكم صحيح المدرك، ميسر المحتوى وجلّى جوهر الدين، ويمكن لفقه الدليل الذي لا يمكن أن يشذ عن أصل رفع الحرج وقد أنبت عليه العزائم وجرت به الرخص"^(١).

وعلى هذا فمهمة الداعي إلى الله هو توصيل الناس إلى جوهر الدين وتعاليمه العالية وتطبيق الناس عليهم، ولا يمكن ذلك إلا أن تكون الرسالة مرنة تعطف عليهم؛ فليست شعائر الدين أغلالاً تشد أعناق معتنقيه. والأدب الثاني في الحديث النبوي السابق هو الاحتراز عن التلبس بظلم أي إنسان وخاصة فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال الناس بغير حق وهونوع خطير من الظلم، وقد يتعرض له الدعاة إلى الله تعالى إذا ما غفلوا عن حقيقة مسؤولياتهم ومراقبة الله تعالى لهم، وغالباً ما يتعرض له الدعاة الذين يصلون إلى منصة الحكم والسلطان.

٢- التخاطب من أعظم الأساليب الدعوية: الدعوة والتبليغ مهمة ترتبط بمخاطبة العقول وتنبيه بصيرة القلوب وتحريك المشاعر نحو الحق والخير، وهي على ذلك يحتاج من صاحبه التفنن واستخدام الأسلوب الأمثل، ويناط كذلك نجاحها كما ترتبط بقوة المضمون وتوسيع مدى أفاقها؛ فهي كذلك قائمة على تقريع أبواب العقول وفتح أبواب البصيرة التي طالما تعثرها الغفلة والنسيان، ومن ثم تحجب ذلك عن أصحابها رؤية الحق والامثال له. ومن إحدى هذه الأساليب الناجحة هي مخاطبة الجمهور والإتيان إليهم في المناسبات الدينية والاجتماعية والتي تجتمع فيها أولئك، وقد يكون توفيق الداعي بأن يكون بارعاً في استخدام هذا الأسلوب المؤثر ويجذب قلوب الناس إلى ما يدعوا إليه.

وقد كان ﷺ يلجأ إلى هذا الأسلوب في أكثر الأحوال وبالتحديد في العهد المدني منه حيث تهيأت الاجواء لتجتمع المسلمين، ولم يكن ذاك الخوف مسيطراً عليهم كما كانت في الفترة المكية، وبالتالي كان يجتمع معهم في أوقات عديدة معهم، وكان طريقته فيها بسيطة حيث كان يأتي إلى الغاية المرجوة منها، وكانت خالية عن التعقيدات بحجة تعريضها على الجمهور.

ومن هذا المنطلق وقف الدعاة وأصحاب التخصص على خطبه ونظامه، ومن ثم استخرجوا الأصول، المظاهر والأصول التي قامت عليها هذا الأسلوب. وعن مظاهر ومعالم الخطبة النبوية يقول الشيخ محمد أبو زهرة: لقد أحدث النبي محمد ﷺ بدينه الحق ثورة في مجال الدين والسياسة والإجتماع في حياة الناس جميعاً والعرب خصوصاً، وكانت هذه الحركة بطبيعة الحال مصحبة ببيان خطابي كذلك بحيث لم تعرف البشرية لها المثل، وكان صاحبه عليه الصلاة والسلام يجادل ويكافح فيها الشرك والوثنية ويبين فيها ما أوحى الله إليه من العقيدة والشرعية، وقد منحه الله على ذلك فصاحة وبياناً إلى جنب ما أيده الله بروح القدس، وكان عليها مثلاً كاملاً للبلاغة حيث صار مثلاً ونموذجاً في هذا المجال، واستفادت الخطابة العربية منها في أكثر الأحيان^(٢).

(١) الريسوني، قطب، التفسير الفقهي - مشروعيته وضوابطه وعوائده (بيروت: دار ابن حزم، ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م)، ص ١٧٧.

(٢) انظر: أبو زهرة، محمد، الخطابة، أصولها وتاريخها، ص ٢١٩-٢٢٠.

ومن أعظم هذه الخطب العظيمة والتي حظيت في التاريخ الإسلامي أهمية ومكانة عظيمة على صعيد الموضوع والمقصد وكذلك التخاطب وهيئتها ومدى المدعويين ذاك الخطبة العظيمة التي قدمها النبي ﷺ في حجته الأخيرة والموسومة بحجة الوداع، وقد سبق أن تناولنا موضوعها ومقصدتها في المبحث السابق.

وأما عن هيئتها ونظمها فقد تناولها الباحثون بالدقة والتفصيل، ومنها الدكتور البوطي رحمه الله حيث يقول في جانب منها: هذه الخطبة عبارة عن كلمات قيمة أُلقيت على صعيد عرفات ومن إحدى سفوحها، ولم تكن هذه تخاطبا عاديا بل بيانا للأجيال والتاريخ، وفي نهاية السعي الحثيث ليقدم الرسول ﷺ فيها كلماته الأخيرة كالمودع بألفاظ جزلة حيث قال: "أيها الناس! أسمعوا قولي فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا...."

وبالتالي أنصت أهل تلك البقاع مع حجارتها ومدرها ليعوا هذه الكلمات الختامية للرسالة المحمدية، وقد اشتملت هذه الخطبة العظيمة على مواضع ومقاصد جليلة لجأ إليها النبي عليه الصلاة والسلام بأساليب وهيئة رفيعة نذكر منها ما يلي:

١- ففي البند الأول استلهم عليه الصلاة والسلام واقع منزلقات أمته المستقبلية بحلها على ضرورة التحلي بها كما هو الحال المعاصر، وذلك بقوله: "أيها الناس إن دماؤكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا".

ولقد كرر هذه الوصية في ختامه كذلك: "تعلمن أن كل مسلم وأخ للمسلم وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، "ألا هل بلغت".

٢- اشتملت هذه الخطبة على أخذ الشهادة من المجتمعين بقوله "ألا هل بلغت؟"، وبذلك هو أسلوب عظيم حيث يسجل المسؤولية تجاه المسلمين في الأجيال القادمة للقيام بحق هذه الوصايا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتعلن بلسان حاله ومقالها.

٣- وقد أردف النبي ﷺ من بعد أخذ الشهادة من هؤلاء مناديا إياهم بكلمات تلزم إياهم قائلا: "إنكم ستسألون عني فما أنتم قائلون؟ وأنظر الرسول الأعظم منهم حتى سمع النداء: "نشهد أنك قد بلغت، وأديت ونصحت"^(١).

ويزيد الباحثون إلى ما سبق: إن لتوظيف أسلوب الخطابة في ميدان الدعوة ونجاحها تحتاج من الداعية تسلك عدة أمور وشروط عديدة، وهي كالآتي:

١- تناط انجاح هذا الأسلوب في حقل الدعوة إلى الأخذ بعدد من المواصفات لدى الداعية، ومن أهمها العلم وسعة الاطلاع، وبهذا العالم المعاصر يتطلب خطيبا موسوعيا، وأما المقل فلا يسمعه أحد ولا يهتم لكلامه.

٢- يلزم على الخطيب أن يتصل بالجمهور ويعيش مع قضاياهم، وهو بالتالي كالطبيب الذي يقدم الدواء للمرضى.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٤٩-٣٥١.

- ٣- يجب على الخطباء أن يركزوا في دعوتهم على القضايا الكبرى المهمة في الدين من العقيدة والخلق والعبادة إلى جنب ممارسة التنبيه للقيم التي تعرضت للغزو الفكري.
- ٤- اتسام الخطابة بالتجديد والابتكار لكل من الأفكار والأساليب معا، وذلك بالالتزام بالمصادر الأصلية للدين الإسلامي الكتاب والسنة وكذلك السيرة العملية للنبي ﷺ.
- ٥- يجب على الخطيب أن يدرك أن خطبته أول المحطات ومن ثم عليه أن يمارس مع المدعويين بعد اتصالهم بهم ويرعاهم بالتربية والتعليم.
- ٦- استغلال المناسبات الدينية والوطنية المختلفة وذلك حتى يربط الناس بدينهم وتاريخهم.
- ٧- يناط اجراء الخطبة الناجحة كذلك بتحلي الخطيب بالصفات الشخصية لكل من الإخلاص والقُدوة الحسنة والصدق وما إلى ذلك.
- ٨- على الخطيب أن يعد نفسه قبل القاءها بالتدريب عليها نظريا وتطبيقيا.
- ٩- وجوب الاعداد التام واللازم لخطبة من ناحية الموضوع والوقت وما إلى ذلك.
- ١٠- التعرف التام للبيئة وكذلك جمهور المدعويين.
- ١١- معرفة الأساليب الأدبية الراقية واستخدامها في الخطبة لاقناع العقول وتجاذب القلوب^(١).
- وبالجملة فالخطابة هي من الأساليب الدعوية المؤثرة بالنسبة لباقيها بحجة سهولة تناولها وتجمع جمهور المدعويين إليها، وكثرة توظيفها وترابطها بالمناسبات الدينية والاجتماعية، فضلا عن خلوها عن التكلفة المالية وغيرها من الاحتياجات؛ وهي إن ترعى فيها الشروط اللازمة فإنها بلا شك حقل خصب للتأثير والتأثر على جمهور المدعويين.

(١) انظر: شاهين، أحمد عبد الهادي، وسائل الدعوة وأساليبه، ص ٢٣-٢٤.

الفصل الثالث

فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي في ميزان الدعوة

لقد عرف العصر الحديث في العصر الإسلامي بنوع من التخصص وسلوك جانب الموضوعية والدقة في مجال العلوم، وقد ظهر هذا الطابع على دراساتها ومحرريها؛ وعلى هذا المنطلق سار كتاب السيرة النبوية على هذا الاتجاه، وبالتالي ميزت كتاباتهم بالنسبة لما قبلها بالتبلور و إبراز جانب الفقه والدروس المستفادة وعدم الاكتفاء بسرد الروايات فحسب. بل وقد ظهر أفراد كذلك يهتمون بجانب معين من الحياة الاجتماعية في ظلال السيرة النبوية المباركة نحو القيادة والسياسية والاقتصاد...؛ ولقد كانت للدعوة الإسلامية بكونها الموضوع والمحور الأساسي للسيرة النبوية المطهرة نصيب أكبر في هذا المجال، وبرز كتاب أجلاء يمارسون مهمة الدعوة وإبراز الفقه الدعوي من خلال قراءاتهم للسيرة النبوية ﷺ، وتعد أعلامنا الأجلاء على رأس هذه القائمة، وأخرج كل منهم مناهج دعوية مميزة.

ويحسن بنا في نهاية المطاف أن نقوم عملهم في ميزان فقه الدعوة وكذلك إبراز الرسالة الدعوية فيهم، فضلا عن تذكير الإيجابيات والمآخذ التي يرى على عملهم بحجة أن عملهم إنساني، وسوف ندرسهم في مباحث مستقلة:

المبحث الأول: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الإمام أبي الأعلى المودودي

لقد عرف السيد أبو الأعلى المودودي بكونه المفكر والكاتب المبدع في العصر الحديث بكتاباته وقلمه الفياض لروح الإسلام، مدافعا عن الدعوة الإسلامية وعائشا آلام أبنائه، وبالتالي برز دوره في معالجة أهم القضايا التي ترتبط بالدعوة مستلهما ذلك في ضوء السيرة النبوية المطهرة بحجة استيعاب حلها لكل العصور والأزمنة وكذلك عدها منهجا متكاملا للتطبيق في كل المجتمعات إلى جانب اتخاذ الرسول الأعظم ﷺ أسوة كاملة للمسلمين، ولأجل هذا سار عليه في كتاباته القيمة والمجمعة تحت مسمى سيرت سرور عالم (سيرة سيد العالم)، تدارس فيها مجالات الدعوة وأركانها بالتفصيل؛ ويجدر بنا أن نعرض تلك المجالات في ميزان الدعوة مبرزاً في مطالب آتية.

المطلب الأول: الأهداف والمقاصد الأساسية من السيرة النبوية عند المودودي

احتلت السيرة النبوية المباركة في الإسلام ودعوتها مكانة مرموقة حيث تعود لقراءتها عموماً وللمسلمين ودعاتها بأخص الخصوص بفوائد وثمار يانعة في عملهم، وبالتالي ليس العكوف ودراسة هذا الجانب من الدين سرداً للحوادث ومعرفة للمحطات التي مر بها النبي عليه الصلاة والسلام أو ممارسة قرائتها بغرض النيل من فيض ينبوع النبوة فحسب أو إبرازاً فنياً للتاريخ الإسلامي كما هو العرف المتداول في الديانات المحرفة والوضعية حيث يتناولون سيرة أنبيائهم وعظمائهم لامتلاء التراث الديني في الكتب المقدسة أو المسايير على أصل التفنن الأدبي الديني والتي تحتف برواية الشخصيات أو التسلسل التاريخي؛ بل تختلف ذلك تماماً عن كل ما سبق، وبهذا ما يميز هذا الجانب هو نوع فريد بين سير كل الأنبياء والمرسلين والعظماء، وهكذا قام هذا الجانب بحمل مقاصد أو أهداف

عظيمة تفوقها بين كل التواريخ والسير، وحملت في طياتها رسائل لقرائها والعاكفين عليها، وكلما تنبه أو وقف هؤلاء نالوا منها مبتغاهم ومقاصدهم.

وبناء على ما سبق وقف المفكر الإسلامي العلامة أبو الأعلى المودودي رحمه الله على أهم الجوانب والمقاصد لهذه السيرة المباركة من خلال تبيينه وقرائته لهذه الحقبة التاريخية المباركة وانضم هذا الجانب في آخر كتابه كثمرة طبيعية لكتابات، وسماه برسالة السيرة النبوية، وسوف نبين أهم مقاصدها كالاتي.

١- السيرة النبوية مصدر العلم الصحيح: لقد ميز الله تعالى البشر عن سائر الموجودات بالعلم والمعرفة، ومن ثم منح لهم الأدوات والمصادر التي يستقي منه هذا الجانب، وقد حثهم على ذلك وبين لهم فضله في الدنيا والآخرة، وذلك حتى يكون حياتهم على بصيرة من أمرهم، ويدركوا ما عليهم من الوجائب والالتزامات التي انفصلوا بهم عن الخلائق بصفاتهم أصحاب إرادة وإختيار وملزمين للإيمان الكسبي.

وقد فضل الله على الإنسانية مع كل ذلك أنه زودهم بالمصدر والنبع الأصيل الدقيق الذي لا يخطأ ولا يشك في صحته وثبوته، ومن ثم أرسل أنبياءه ورسله للممارسة العملية لهذه التعليمات حتى تكون وفقا لها، وعن هذا يقول المودودي رحمه الله: إن من الحقائق التي لا شك فيها أن الله تعالى هو المصدر المطلق للمعرفة، وهو الخير بكونه وجميع خلائقه، ومن ثم ألهم لبعضهم بشيء من العلم والإدراك حتى يدركوا به أنفسهم وعالمهم الذي يعيشون فيه كما يدركوا بعض صفات خالقهم وصانعهم، ومن هذا المنطلق وهب للإنسانية مصدرين للمعرفة:

١- المعرفة التي يتحصل بها المعلومة عن طريق الفكر والاستدلال والمشاهدة والتجربة؛ وهذا النوع لا يحتاج في مجموعها الاعتماد على الذات العلوي ولهم فيها نوع من الحرية والاختيار.

٢- المعرفة التي يستحيل أن تحصل من الأدوات السابقة، وهي في مجموعها معلومات فائقة عن الحس والإدراك الإنساني، وغاية ما يتوصل إليه الفلاسفة تبقى في حد القياس والتخيل فحسب (Ultimate realities)، وبالتالي تحصيل هذه منوطة بتتبع مصدر موثق ومعتمد والذي يعرف بالوحي الإلهي، ولكن الناظر ليرى أن الله لم يعط رسالته للبشرية عن طريق إرسال الكتب المنزلة حتى يتناولوها بأنفسهم بل تفضل معها بإرسال الأنبياء الكرام حتى يكونوا مع تبليغ هذا العلم معلمين لتطبيقها وسلوكها في حياتهم، ويرى الناس جملة المظهر العملي لهذه التوجيهات بأعينهم؛ ولن يتسنى هذا المقصود إلا بتتبع السيرة العملية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام^(١).

٢- السيرة النبوية مظهر لحفظ الدين: لقد ميز الله الإسلام ورسالته الخاتمة بعديد من المزايا والمظاهر، ومن أهمها أن الله تعالى تكفل بحفظ رسالته ووحيه المتمثل في كتابه وسنة نبيه وسيرة رسوله الخاتم بحيث صان عن الضياع والتحريف فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهكذا ظل هذا الجانب من الدين محفوظا وثابتا يتناقله الأجيال بعضهم إلى بعض كأنهم يرون نبيهم رأي العين أو يسمعونهم بالأذان حيا، وظل السيرة النبوية صرحا

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٧٢٠-٧٢١.

شاملا ومنارة يستضاء بها ما دامت السموات والأرض ويجد فيها قاصدو الحق مبتغاهم وبضاعتهم المنشودة، وصار بجملتها مظهرها ووسيلة لحفظ الدين والإسلام.

وعن هذا يقول السيد المودودي رحمه الله: "والميزة الثانية التي تميز الديانة الإسلامية عن غيرها من الأديان هي استناد وإعتمادها على السنة والسيرة الصحيحة والمحافظة والتي تعد هاديا في جميع أنحاء الحياة الإنسانية. وعلى هذا من شاهدوا النبي ﷺ وتناقلوا أقواله وأفعاله وتقاريره يصل أعدادهم قرابة مائة ألف أو يزيدون، ومن ثم تناقلوها إلى الأجيال التالية، وقد خصص أناس أنفسهم لهذا العمل في حياته الشريفة واستمروا عليها حتى بعد وفاته، ويصل عدد هؤلاء حسب التحقيق الصحيح إلى أكثر من خمسين شخصا.

وقد اختار سلف الأمة من بعدهم منهجا قويا حيث غيروا مجرى التاريخ وذلك أن القائمين بنقل الآثار تتبعوا السلسلة الموصلة إلى رسول الله ﷺ، وزيد مع ذلك أنهم طلبوا التمهيد في حق الرواة، وما أن وجدوا مشتبها أو استفهاما عليهم إلا وقد ردوا الرواية عليهم وجعلوها غير صحيحة وبعيدة عن الاعتماد"^(١).

وأما عن مقصد وغاية هذا الجانب فيقول: لما كان الرسول ﷺ مبعوثا إلى جميع الخلق والأزمان من بعده فإنه سد باب النبوة على غيره، وهذا تقتضي بطبيعة الحال أن يحفظ الله عز وجل مع كلامه وكتابه العظيم السيرة الشريفة لنبه الكريم، وبذلك صارت متميزة عن سير باقي العمالقة والغزاة الفاتحين بغية أن تبقى تعاليم دينه عز وجل حية ومتمثلة في سيرة رسوله والذي جعله تيانا لوحيه وشرائعه، وبالتالي يجد السائرون مقصدهم في حياته الكريمة. وبالجمله ارتبطت حفاظة سنته بصيانة القرآن الكريم، ومن يفند ذلك فإنه يطلب بإدعائه رد القرآن الكريم والمتكفل بوعد الله حفظا إلى يوم الدين^(٢).

٣- السيرة النبوية هي المنهج الكامل للهداية: ليست السيرة النبوية المباركة مجرد أحداث وتغير حقبة تاريخية إنسانية، أو حكايات أو أساطير أبطال تخيلي محتف بالزيف والتفنن يقصد من ورائها جلب القراء والمطلعين لأجل نزاهتهم و الترفيه، بل هي في أصلها حقبة تاريخية ثابتة وحكاية نبي مرسل لنجاة البشرية من الزيغ والضلال وتوجيههم إلى ما فيه صلاح دنياهم وفلاح مآلهم في أخراهم والوصول كذلك إلى قمة الكمال الإنساني على صعيدي الحياة المادية والمعنوية وصلاح الجانب الفردي والاجتماعي وبناء وترقية الشخصية المتكاملة التي جاء الدين الإسلامي لتحقيقه.

وسوف يجد في تلك الصفحات كل إنسان بضاعته من عقيدة وعبادة وخلق وسلوك اجتماعي وكذلك السياسة والاقتصاد والحضارة والقيادة وما إلى ذلك، وهي في منتهىها مظهر من الإنسانية المتكاملة ومنازة الإصلاح والهداية الربانية.

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٧٢٨-٧٢٩.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، السنة ومكانتها التشريعية (سنت كي إيني حيثيت)، ص ١٢٣.

وعن هذا المقصد يقول المفكر الإسلامي أبو الأعلى المودودي رحمه الله: ليست من مزايا هذه السيرة العطرة ثقتها ومدى اعتماد وصولها للآخرين فحسب، بل من أكبر مزاياها أنها سيرة متكاملة ومفصلة وحافلة لجميع ما تحتاجها الإنسانية من المجالات العديدة، وبالتالي يجد قراءها فيها حكاية كاملة منذ أن كان ﷺ صبيا وحتى قبل ولادته إلى أن التحق بالرفيق الأعلى، وكذلك تعامله مع الشرائع المختلفة وما لاقاه في سبيل دعوته من الأعداء والمؤمنين وهكذا سلوكه وحياته الشريفة من حوادث كبيرة وصغيرة، وما قدمه من خلاله من التوجيهات والنصح من الأوامر والنواهي... وهي في غايته بغض النظر عن التعصب مجال متميز عن سائر الأنبياء والمرسلين في الهداية والإصلاح وكذلك بناء الشخصية المتكاملة الإنسانية^(١).

ولقد قارن الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله هذه النزعة في سيرة النبي محمد ﷺ وباقي سير الأنبياء وكذلك مؤسسي الديانات الوضعية فيجد أنها تميزت بهذا الجانب وأصبحت ذات نزعة شمولية ومتكاملة للهداية بالنسبة لغيرها، وبهذا الصدد يقول: إن أهم ميزة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام هي مدى شمولها وتكاملها من بين سائر السير، وهي في جملتها شاملة لشتى المجالات البشرية، وتجعلها صالحة لكل أصناف المجتمع من القواد والدعاة ورب البيت من الآباء والأزواج وكذلك الزعماء السياسيين والمربين وما إلى ذلك... ولكن باقي السير إن ثبتت فهي منحصرة على جانب معين؛ فمثلا سيرة الرسول موسى عليه السلام تعد درسا وتمثيلا لزعيم أنقذ شعبه من ذل العبودية ولكنها لا تصلح أن تكون قدوة للمربين والساسة المحنكين وكذلك المحاربين، وهكذا سيرة النبي عيسى عليه السلام تمثيل للداعية الزاهد الذي ينفر من ضجيج الدنيا ولكنه لا يمثل فقها للقائد المحارب ولا لرب الأسرة، وهكذا الحال في تواريخ باقي الزعماء للديانات الوضعية من بوذا وأرسطو، وأفلاطون ونبليون وكونفوشيوس فإنهم بجملتهم لا يصلحون للقيادة إلا في مجال واحد برعوا واشتهروا فيها وذاك أوان ثبوتها وتيقنها^(٢).

السيرة النبوية هي الأسوة المطاعة للإسلام: لقد جبلت الإنسانية في حياتهم على أن يؤثروا ممن يفوقهم علما وخلقا وشخصية، ومن ثم يتبعهم في حياتهم وفعالهم وسلوكهم تأسيا وأسوة مطاعة، وقد يبلغ ذلك التبع في أكثر الأحيان إلى حد المبالغة والإفراط في حقهم؛ حيث يجعلونهم آلهة من دون الله يقدمون على أسمائهم القربين والندور، ويقدمونهم حتى أنهم يعطيهم الطابع الإلهي وينسون الجانب البشري فيهم، وكذلك أفعالهم وأعمالهم الإنسانية... وهكذا أكثر الوثنية السائدة بين الأمم في الشرائع السماوية وكذلك الوضعية ناتجة عن هذا الجانب العاطفي الفائق فيهم، ومن ثم يتركون على إثرها التأسي والإطاعة في الأوامر والنواهي، ولكن شتان بين هؤلاء وسيرة الرسول الأعظم ﷺ، فإن سيرته بخلاف أولئك اتسمت بالواقعية والمنهاج العملي للإتباع، وهكذا أمر المسلمين بأن يجعلوا من رسولهم أسوة مطاعة يقتدى بأفعاله وتقاريره وحتى شمائله، وأن من أراد رضا الله والفوز بالآخرة فعليه

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٧٢٩.

(٢) انظر: السباعي، مصطفى بن حسني، السيرة النبوية دروس وعبر، ص ١٩ - ٢٠.

أن يتبع هذه السيرة النيرة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقد صرح القرآن في أكثر من آياته أن طاعة الله ومحبة منوطة بطاعة ومحبته رسوله ﷺ؛ وبذلك الوصول إلى هذا المبتغى الجليل تحتاج من صاحبه الدراسة الوافية والدقيقة للسيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وعن هذا يقول السيد المودودي: لقد أرسل الله تعالى محمدا ﷺ للناس كنبي مرسل وأوحى إليه شريعته كقانون متبع، ومن ثم ألزمه قبل كل الناس بإتباعه، وسد عليهم إختراع هدي غيره، وهو بدوره طلب من الناس أن يطيعوه في هديه كمنهاج ثابت فيهم صلاحهم وفلاحهم.

وقد كان حياته ﷺ وسيرته مظهرا تطبيقيا لهذا الدين، وكلما كان يأمر به أو ينهى عنه يلتزم به قبل أن يدعوا إليه غيره، وعنه قال تعالى: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٣).

ولم يكن التزامه ﷺ بهدي نفسه على أساس أنانيته بل يعود أمره إلى ما جاء به وليست من تلقاء نفسه بل هو مثل القرآن الكريم يلقي إليه من لدن حكيم عليم. وقد كان رعيال الصحابة يتتبعونه طواعية إلا ما ظهر لديهم أنه صدر ذلك من النبي عليه الصلاة والسلام برأي بشري دون الوحي.

وقد كان أولئك يفككون بين ما هو وحي منزل أو رأي شخصي، ولهذا كانوا يسألون ويخالفون رأي النبي ﷺ في الأمر الثاني، ودوما كانوا يلقيون إليه المشورة والرأي. وقد حفلت السيرة بعدد من نماذجها، وبين الرسول الأعظم ﷺ أن في تلك الحالة لا يلزم على الناس إتباعه، وكان ينهج مع ذلك باللجوء إلى المشورة^(١).

وخير نموذج على ذلك استشارته ﷺ في موضع غزوة بدر؛ حيث روى أصحاب السنن: لقد قام الصحابي الجليل الحباب بن المنذر رضي الله عنه في مقام غزوة بدر قائلا: "يا رسول الله، منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتعداه ولا نقصر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة..."^(٢).

ويضيف الباحثون إلى ما سبق أن العكوف على السيرة النبوية تفيد العلماء والدعاة والمربين المهتمين بالإصلاح والتربية في المقام الأول وذلك لأنهم:

الف- هم ورثة الرسول الكريم، وترك لهم هذا الأثر العظيم.

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٧٣٣.

(٢) البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٨م)، ج ٣، ص ٣٥.

ب- يلزم على هؤلاء التأسّي به في دعوته وذلك حتى يضمن لأوّلئك ابلاغ الشريعة والدين بأسلوب تفهمه القلوب والعقول؛ ويدفع بها كذلك التحديات والعواصف التي تضطرب أحوالهم، وبالتالي يستنبطوا من السيرة المطهرة السبل القويمة لأنجاح مهمتهم وأهدافهم الخيرة^(١).

وبالجملة فالسيرة النبوية المطهرة زاد ومنبع ثري للإسلام وكلمته السامية، وهي تحتل بذلك بين العلوم الإسلامية مكانة مرموقة وتعود خيرها على جميع المهتمين بهذه الرسالة من العلماء والدعاة وعامة المسلمين، وكذلك الباحثين المهتمين من غير المسلمين حول هذا الدين وتعاليمه.

ودراسة هذا الجانب كما سبق ذكره من ورائه (بخلاف سائر التواريخ البشرية) أهداف ومقاصد عظيمة من أهمها أنها تبين مقصود الدين ويظهر الصورة التطبيقية للدين والوحي، وبذلك تعد مظهراً لبيان الرسالة الخاتمة، ويقدم كذلك المنهج الشمولي للهدي الرباني، وفوق كله تعد دليلاً صحيحاً نحو الالتزام والإيمان ويزود دعاة الحق بالمنهج الصحيح في دعوة الإسلام وبلاغه للبشرية.

المطلب الثاني: الأثر المعجز للسيرة النبوية في حياة الدعاة

تعد السيرة النبوية المطهرة إلى جانب مصدريتها في الدعوة الإسلامية زاداً وموجهاً مؤثراً للدعاة بحيث يترك في حياتهم ووظيفتهم أثراً عظيماً تميزها عما سواها من الدعوات التي تمارسها الإنسانية في تاريخها العريض، وهكذا فكل دعوة بلا ريب تنبع بادي الأمر على أساس الحب والشغف وراء فكرة أو عقيدة؛ سواء كان تبليغاً حقاً أم باطلاً؛ وبالتالي يبذل فيه الإنسان سعيه الحثيث، إلا أن الدعوة الإسلامية تتميز عن كلها بالاعتماد على السيرة النبوية وباعتباره مسيرة حياة الداعي الأول والموجه الرباني القائد والمؤسس لهذه المسيرة الحقّة إلى يوم الدين، وقد كان هذا كافياً لاثبات هذه الدعوة النيرة. ومن هذا المنطلق يجد فيها الدعاة أثراً معجزاً تفيدهم في دعوتهم ومسيرتهم. ومن هنا فقد أدرك العلامة أبو الأعلى المودودي رحمه الله هذا الأثر الفياض ومن ثم فحصه في الدعوة الإسلامية، ويحسن بنا أن نبرز جوانب منها في عناوين تالية:

١- الرسالة المتجهة للعالم والمقاضية على جميع العصبية: لقد أرسل الله النبي محمداً ﷺ إلى كافة البشر كرحمة مهداة إلى العالمين أجمعين والمتجهة رسالته إلى كل الأزمنة والبيئات والأمكنة، وبذلك أبطل الفكر السائد للعصبية المسدلة على العالم منذ القرون من تميز العرق واللسان والدم والقبيلة وما إلى ذلك. وقد قدم النبي ﷺ بهديه البالغ الرباني وسلوكه الإنساني درساً بليغاً واندمالاً لكل ما تنبئ عنه البشرية منذ أمد بعيد، وبهذا سوى بينهم من جانب الخلقة والجبلة، وجعل بدلها معايير وأساساً أخرى للتفاضل والتفوق، وعن هذا الأثر المعجز يقول السيد المودودي رحمه الله: "إن الأثر الأكبر والملاحظ في سيرة ودعوة الرسول ﷺ هو تفوقها عن تميز اللون والعرق والوطن، وبالتالي يخاطب البشرية على مستوى الإنسانية جمعاء دون تميز، وإن من يدعن لها

(١) انظر: رضا، صالح أحمد، إنها النبوة، ص ٣٥.

يصبح فردا لهذه الأمة العالمية مسلما أيا كان انتسابه مشرقيا أو مغربيا، لغته عربية أم عجمية، منتسبا لأي عرق أسود أم أبيض، ومرتبطا لأي قبيلة... وبهذا يصبح مساويا الحقوق مع كل فرد مثله.

والمنعن لهذا الأثر ليدرك أنها (دعوة الرسول) كانت نعمة كبرى من بها محمد العربي ﷺ على الإنسانية والتي كانت تنم منها منذ القدم، وقد أبطل كل الأفكار السائدة وحسبها نتنا يجب الابتعاد عنها، وقد كانت هذه الشريعة قضا على العقيدة البرهمنية السائدة في بلاد الهند قديما وكذلك على فكرة التمايز العرقي المنتشرة في بلاد أستراليا و أمريكا القائلة بتفوق البيض على الزنوج حديثا... وقدم لها أخيرا علاجا شاملا سعدت بها الإنسانية إلى يوم الدين وتعترف بها ألد أعداء هذا الدين^(١).

وقد برع المودودي كذلك في هذا الصدد بذكر أقوال بعض أبناء الغرب والذين أدركوا هذه الحقيقة كاعتراف منهم قائلا: لقد تراجع الأمريكي الأفريقي الأصل (مالكوم اكس)^(٢) والذي قاد لعقود نضال العرقية الزنجية في تلك البلاد حيث وصل دعوته إلى حد التعصب معلنا إسلامه، ومن ثم اشترك في موسم الحج مظهرا تأثره بعبارات جزيلة حيث يقول: لقد أدهشني موسم الحج كعبادة عالمية والذي يشترك فيه المسلمون من شتى بقاع الأرض شرقا وغربا، شمالا وجنوبا وكانوا فيها من شتى أنواع العرقية القومية والبلاد، وكانوا متلبسين فيها ثوب الإحرام كرمز موحد ملبين شعار التلبية (بيك اللهم ليك)، وكانوا يطوفون حول الكعبة جنبا إلى جنب مؤتمنين خلف إمام واحد؛ وكانت بالجملة اندمالا وقضاً على نبد العصبية المهلكة بين البشرية. وهكذا فالحج ليس عبادة فحسب بل هو استشهاد لوحدة البشرية وتحقيقا لعالمية الإسلام ومنهاجا لفلاح الإنسانية جمعاء^(٣).

ويضيف على هذا لفي من المفكرين حول فريضة الحج مظهرا حكمته قائلا: إن فريضة الحج تعتبر في الإسلام مظهرا للجامعة الإسلامية والإنسانية، وقد جعل الله هذه فرصة لانتصار القومية والانتساب الإسلامي على مظهر هتافات القومية والعنصرية والتي عرفت بها أكثر الشعوب الإسلامية، وأصبحت هذه فرصة لأن تخلع هذه الشعوب عن هذا الداء وتختار منها سويا وحتى في طقوسهم الظاهرية من لبس الإحرام والمتعارف في لغة الدين والفقهاء حاسرين رؤسهم أجمعين من رئيس ورعية غني وفقير وصغير وكبير مهتفين شعارا بلغة واحدة... وهكذا تتجلى تلك الوحدة في اللباس والهتاف^(٤).

ويستدرك من الفقرتين السابقتين أن السيرة النبوية أكبر أثرها تتجلى في تحقيق الوحدة الإنسانية والقضاء على داء العصبية التي انتشرت جرثومتها بين البشرية على مختلف الأصعدة وعرقلت فلاحها وتطورها، وما كانت هذه الصفحات إلا مظهرا لتوجيه الإنسانية لمسارها المستقيم وكفالة لسعادتها.

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٧٣٠.

(٢) مالكوم اكس (١٩٢٥م - ١٩٦٥م): داعية إسلامي أمريكي من أصول أفريقي، كان مدافعا عن حقوق الإنسان والعدالة والمساواة، انضم إلى الأمة الإسلامية وذهب للحج فصالح مفاهيم فكره وتمسك بالإسلام حتى أغتيل. انظر: مقال موسوعة الجزيرة نت، أضيف ٢٠١٤/٩/١٠م.

(٣) السابق نفسه، ج ١، ص ٧٣١.

(٤) انظر: الندوي، أبو الحسن على الحسني، الأركان الأربعة، ص ٢٧٢.

٢- السيرة النبوية هي المنهاج الموسع لترسيخ العبودية: لقد ابتليت البشرية في تاريخهم القديم بمللها ونحلها أن يغالوا في حق أنبيائهم ومصلحيهم حيث جعلوها فوق فطرة البشرية، ومن ثم يقومون بتأليههم متعبدين إياهم، وذلك بعد أن أفرطوا تجاههم في حياتهم بالأذى والضرر، ولم يتبعوا دعوتهم، ... وهكذا كانت مسيرة حياتهم عبارة عن التفريط والغلو، ولم يسيروا على المنهج السوي المعتدل الذي تستقيم به الأمور، وبهذا لم يكن دراسة سير عظمائهم وتتبع آثارهم إلا نوعا من هذا الباب والذي لا يجدي منه ثمرة ولا اسعادا في حياتهم وأخراهم؛ بل أصبحت بالعكس لقرائها ومنعيتها نوعا من العنت والمشاق؛ وأما السيرة النبوية المطهرة فبخلاف كلها تعد منهاجا كاملا للهداية والإسعاد، وتتبع دراستها تفيد الإنسانية في دنياهم وأخراهم.

ولقد كان من أظهر أثرها ترسيخ مفهوم العبودية في الحياة والتي تعد مقصودا أكبر في الحياة، وعن هذا يقول السيد المودودي رحمه الله: "والأثر القوي في هذه السيرة النيرة هي توسيع وترسيخ مفهوم العبودية تجاه الله عز وجل والإذعان الكامل لوحدانيته، وتوسيع نطاق هذه الصفة من الربوبية والألوهية إلى أكبر مداها بحيث ترسخ عقيدة المؤمن بأن الله هو الواحد، الخالق، المالك، المدبر والحاكم الذي تؤول إليه جميع شؤون الخلق، ومن ثم يجب أن ترجع إليه الحاكمية المطلقة وأن نرد مرجعية الحكم في الحلال والحرام له وحده وقطعه عما سواه، وأن شريعته هو القانون المطلق لإسعاد الإنسانية، وأن على الإنسان أن يحيا ويموت بها، ويعتقد فوقه أن وضع الله من الدين هي الطريقة الصحيحة للحياة كما تفعله الأمم (Way of the life)، وبهذا يجب أن تقطع هذا الحق عن غيره تعالى سواء أيا كان نبيا أو عظيما"^(١).

وقد أورد الإمام الترمذي في هذا الصدد حديث عدي بن حاتم حيث قال: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ)^(٢).

ولقد قارن الباحثون هذه الميزة في سيرته ﷺ بين غيره من السير، فوجدوها من أكبر الفروق التي تتميز بها هذا الجانب، وعن هذا يقول: إن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام حكاية وسيرة بشر أكرمه الله بالرسالة، وتدور في جملتها حول الإنسانية ولم يخرج من نطاقها، وبالتالي لم يلصق في غرضونها أساطير وصفات الألوهية قليلا أو كثيرا، وإذا قارنا هذه بسير الباقين فنجد بونا شاسعا بينهم.

(١) المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٣٣٢.

(٢) سنن الترمذي، أبواب: تفسير القرآن، باب: وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، رقم الحديث: ٣٠٩٥. هذا حديث حسن.

فهؤلاء المسيحيون يقولون عن المسيح عليه السلام بأنه إله، والبوذيون يعتقدون مثله حول شخصية بوذا وكذلك باقي أصحاب الديانات الباطلة؛ ولكن في المحصلة ندرك أن السيرة النبوية هي نموذج للسلوك الإنساني والإجتماعي الأمثل، وما يعتقدهم أولئك فلا يعد بأية حال قدوة نموذجية في هذا الباب^(١).

ويضيف المودودي على ما سبق كذلك: السيرة النبوية هي الأنموذج الحقيقي والكامل للحريات التي تتطلع إليه الأنفس، ولا يوجد ذلك إلا في رسالة النبي ﷺ، وهذا الأنموذج تتمثل في عبادة الله عزوجل وقطع تأليه الغير، وقد وصلت الإلمام بهذه الصفة إلى درجة أن الرسول ﷺ أزاح عن نفسه هذه الشوائب وحسب نفسه عبدا لله تعالى، وفي جملتها حرر الإنسانية عن عبادة العباد إلى يوم الدين.

وقد ارتبط بهذه الحرية نعمة أخرى وهي ثبات الشريعة وسمو قانونها، وأصبح هذا الدستور سرمديا لا يمكن لأحد أن يغيره أو يبدله، وقد أصبح هذا الدستور بهذه السلطة فوق سلطة الإمبراطور، أو الملك، ومجلس الدستور ومجلس السيادة، وفي جملتها أصبح القانون هو الأبدى لتحقيق الخير ودرء الشر، ويصطلح له بمصطلح (permanent values) كلغة سائدة في هذا الباب^(٢).

٣- الاهتمام بخلق الدنيا وترك الرهينة: لقد ترك السيرة النبوية المباركة في كل الميادين ومجالات الحياة أثرا ومآثرا عظيما، ولعل أكبر هذه الآثار المشاهدة بالنسبة على سائر السير هي الاهتمام بالحياة الدنيا وترك الرهينة المبتدعة والتي ليست لها من الدين بحظ، وقد لا يعني الاهتمام بهذا المجال أن هذه السيرة والسلوك هي التمرکز والعكوف على الحياة المادية والعزوف والتنحية عن الجانب المعنوي والتي تحتل في الدين مكانة مرموقة، بل بالعكس جعلت سيرة الرسول ﷺ الخلق عنوانا ثابتا للدين بحيث لا تنفك عنه بأية حال.

وهكذا أهم ما يميز هذا الجانب عن سائر التوجيهات الأخلاقية أنها جعلت من السيرة وشوائب صاحبه عنوانا حقيقيا في الحياة بحيث تفوح رائحته على سائر الأعمال وتصبغ أفعاله بها، وبالتالي هي ليست أحكاما جامدة وجافة أو أساطير لا تمس بالحياة الدنيوية؛ وعن هذا الأثر المعجز يقول السيد مودودي رحمه الله: "إن أهم خصوصية دعوة وسيرة النبي ﷺ هي أن الأخلاق الذي يتمركز عليها بعيدة عن العزلة وليست مثل أخلاق الرهبان محددة حول الكنيسة أو مظهرة في الخانقاه^(٣) عند الدراوشة في شكلها الجديد؛ بل هي حاملة لكل مناحي الحياة. وهكذا القيم التي تتجه نحو الفقراء والدراوشة هي مركزة بنفس الدرجة نحو باقي أصحاب المشاغل في نظام الحكم، والتجار في متاجرهم والجنود والشرطة في ميدان المعركة والثكنات، وفي جملتها هي رد على الفكرة المزعومة السائدة أن الله هو ولي تاركي الدنيا والذين يذكرون الله بالاسم فحسب، وعلى هذا فمرتبة الولاية شاملة لكل من الحكماء والقضاة

(١) انظر: السباعي، مصطفى بن حسني، السيرة النبوية دروس وعبر، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٧٣٤.

(٣) الخانقاه: معرب فارسية (خانگاه) هو المكان الذي ينقطع فيه المتصوف للعبادة، اقتضت وظيفتها أن يكون لها تخطيط خاص، فهي تجمع بين تخطيط المسجد والمدرسة، ويضاف إلى هذين التخطيطين الغرف التي يختلي أو ينقطع بها المتصوف للعبادة والتي عرفت في العمارة الإسلامية باسم الخلاوي. انظر: ويكبيديا الموسوعة العربية.

ورؤساء الجند، وأصحاب الصنائع الذين يخافون الله ويتدينون بتعاليمه ويسرون في حياتهم على المنهج الصحيح من الخلق الرفيعة"^(١).

ومن هنا يقول الباحثون: إن السيرة النبوية تعد في هذا الجانب درسا عظيما حتى لغير المسلمين؛ وذلك لأنها تمثيل لقضية وحكاية أعظم الناجحين في التاريخ لهدفه وفكرته، وهو حقق إنجازات عالية لنفسه وأتباعه بعز الدنيا ورفعته ولكن على أساس قوة التزكية والقيم الرفيعة ومعايير سلوكية فردية وإجتماعية، وكذلك النظم الإجتماعية والسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك"^(٢).

ويضيف المودودي على ما سبق: "إن الرهينة كما يصطلح له بجاهلية الرهينة خطر وعائق على الحضارة والعمران الإنساني حيث يسميه (Anti-social)، وهي على ذلك تعمل عمل المخدرات وتؤثر سلبيا على العقائد والأخلاق والأداب وكذلك الحياة العملية فتعطل القوة وتقلل الحركة والنشاط الدائب وتضعف القوة حتى يسقط الإنسان"^(٣). وصفوة القول: فالسيرة النبوية هي الباب المؤثر في حياة الدعاة والمسلمين وكذلك سائر البشرية التي ترك لهم مآثرا معجزة محالة في السير الأخرى رغم اشتراكها في بعض أجزائها، وهذه المآثر تتلخص في سعادة الإنسان وعلاج شقاءها ورفعته قيمتها الإنسانية التي طالما تنحار من وقت إلى وقت، وهي توجه هذا المخلوق الهادف إلى قصده وغايته التي من أجلها خلق في هذه المعمورة.

المطلب الثالث: إيجابيات ومآخذ على المودودي في كتابه سيرت سرور عالم (سيرة سيد العالم):

ومما لا شك فيه أن الأعمال الإنسانية من غير الأنبياء أيا كان منزلته وعظمته تؤخذ بعين النقد والتحيص، يقبل من صاحبه ويرد عليه هفواته ومزالقه وتقصيراته، وهكذا لا يعد جهوده بحال محل العصمة والتقديس، إلا أنه يجب أن يقف التحكم عليه بالموضوعية والإنصاف؛ وهذه في الحقيقة هو المنهج القويم الذي سار به سلف الأمة، وكما ذكر الإمام البخاري قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: "لَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ"^(٤).

وبناء على ما تقدم يحسن بنا في هذا المقام أن نقوم جهد الإمام المودودي في كتابه (سيرة سيد العالم) ونقف على جوانب محاسنه وسليباته، وسوف نقف على الجانبين كالآتي:

١- إيجابيات كتاب سيرة سيد العالم: لقد تعددت مزايا هذا الكتاب القيم والذي كتب حول محور السيرة النبوية والدعوة الإسلامية، وقد برع صاحبه في بيانه بلسان بليغ وبيان رفيع أظهر فيه تفننه وروحه الدعوي والمحبة للإسلام والدفاع عنه، وقد قام كابن بار يدافع عن شرف نسبه، رادا كيد متربصيه؛ وبالتالي تعد مزاياه ومحاسنه عديد

(١) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٣٤.

(٢) انظر: رضا، صالح أحمد، إنها النبوة، ص ٣٥.

(٣) المودودي، السيد أبو الأعلى، موجز تاريخ الدين وحياته، ص ٢٣.

(٤) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، القراءة خلف الإمام (المكتبة السلفية، ط ١، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م)، ص ١٤.

الجوانب من ناحية الموضوع سواء كان تاريخياً أو دعويًا من جانب التحليل والتفسير وكذلك من ناحية العرض والتفنن وأخيراً طريقته، وسوف نبرز كل هذه الجوانب بشيء من التفصيل:

١- **إبراز رسالة السيرة النبوية والخروج من الأطار التقليدي:** تعد مادة السيرة النبوية المباركة من التراث القديم التي توارثها الأمة الإسلامية بطريق ثابت صحيح ومعتمد بعيد عن أدنى شك، ويجد في غصونها قراؤها الفيض والهداية، وقد كثرت فيها الكتابات المعتمدة منذ العصر الأول إلى يومنا هذا، وهكذا قلما نجد بينهم التباين إلا أن العصر الحديث عرف بالتخصص وتجديد العرض، قد قدم لها أعلام تدارس العلوم والروايات بأسلوب جديد والأهداف مستقلة ومحددة.

وقد كان للسيرة النبوية نصيب منها، ومن أهم مجال التجديد في هذا العرض كما يقول الباحثون: إن التحدي الأساسي الواقع في دراسة السيرة النبوية أنها تجري بصورة تقليدية وذلك بالاكتماء بسرد الحوادث والوقائع دون التركيز على بيان أهميتها السلوكية والتربوية وأثرها في تربية الجيل المسلم، وكذلك إبراز مآثرها في تقوية الإيمان، ولذلك حري باختيار منهج يتعدى لترتيب المسائل العلمية واستخراج القيم والتوجيهات الحضارية العظيمة منها حتى تؤدي ثمارها بآتم وجه^(١).

وقد كان المودودي رحمه الله من رواد هذا الاتجاه، وبرز هذا المعلم في كتابه، وعن منهجه وإبراز رسالته يقول الباحثون: "إن هذه السيرة تحمل في كل أجزائها الثلاثة ميزة واحدة وهي إبراز رسالة السيرة النبوية وبيان هدفها والتي تتمثل في نقطة واحدة وهي تكميل عمل الرسالة الإلهية"^(٢). وقد سبق أن بينا أن المودودي خصص في كتابه بالذات عنوان رسالة السيرة النبوية، ووقفنا على أهم جوانبه في المطلبين السابقين.

٢- **المسايرة مع الدعوة الإسلامية:** الميزة الأساسية الثانية لهذا الكتاب هو التركيز والمسايرة مع مفهوم الدعوة بسائر أركانها بحجة أنها المهمة الأساسية للرسول ﷺ، وقد تعرض لها السيرة النبوية.

وقد وفق الإمام المودودي في هذا العرض وارتكز عليها كتاريخ لهذه المسيرة الطيبة مبينا أهدافها وموضوعها ووسائلها في فترتي الدعوة المكية والمدنية. وقد لجأ المودودي لهذه المهمة كما يدقق له المختصون باعتبار أن السيرة النبوية هي سيرة وتاريخ مؤسس الحركة الإسلامية، وبالتالي أنيط فهم هذه الغاية بدراسة هذا الجانب دراسة وافية، وكان منهج هذا الكاتب هو دراستها والتعمق عليه ومن ثم القيام ببيان وتأليف هذا الموضوع القيم بأسلوب دعوي مميز حتى يكون للعاملين فيها هديا بالغ فيه^(٣).

(١) انظر: السلمي، محمد بن صامل، مسائل في منهج دراسة السيرة النبوية (الرياض، دار ابن جوزي، ط ١، ب ت ط)، ص ٣-٥.

(٢) أحمد، خورشيد، مقدمة سيرت سرور عالم (سيد العالم)، ج ٣، ص ٢٣.

(٣) انظر: ترايبي، أليف الدين، أبو الأعلى المودودي حياته و دعوته، ٢٣٣.

وقد ركز المودودي في كتابه كذلك أنه ﷺ كان حامل دعوة إلهية وبلغ مهمته على أتم وجه، وبهذا أدخل بدعوته تاريخ البشرية في دور جديد وأثبت شهادة الحق بين مفهوم الجهاد في سبيل الله وكذلك طرق إقامة الدين وأسس النظرية والتطبيقية من الهجرة والجهاد وإعداد القوة الواقعية وإقامة المجتمع الإسلامي^(١).

وسوف يرى القارئ حقيقة الدعوة الإسلامية جلية في سيرة سيد العالم، وكاد تكون هو المحور الأساسي لهذا الكتاب، فالمجلد الأول خصص للبحوث النظرية عن النبوة ومهامها الأساسية في دعوة كل الأنبياء، وأما القسم الثاني فخصص لدعوة النبي ﷺ بدأ من بداية الرسالة وسنواتها السرية ثم التركيز على أصولها وأساليبها ووسائلها، ومن ثم خصص بابا عن حقيقة الدعوة وموضوعاتها حيث تحتل جزء كبيرا في الكتاب، ومن حسن توفيق المؤلف كذلك أنه تعرض لأساليب الخصم وتحديات الدعوة الإسلامية في باب آخر، وكان آخر بحوثه التركيز على مواصفات أهل الحق والتضحية، وأما المجلد الأخير فخصص للمرحلة المدنية وبما فيها من نضج ثمار الدعوة الإسلامية.

٣- تجديد العرض والتوثيق والاعتماد على المصادر الإسلامية: يمتاز هذا الجهد المبارك أنه مأخوذ بشكل مباشر من مضامين القرآن الكريم والسنة النبوية، وبما أن أكثر مصادره هي بالذات مستسقية من تفسير تفهيم القرآن، وقد بذل فيه صاحبه كما يصرح السيد المودودي رحمه الله قرابة ثلاثين سنة تقريبا. والبدء في عمل السيرة بنفس المنهج يحتاج جهدا نفسيا ومتسعا في الوقت، ولولا قيام الشيخ نعيم صديقي وعبد الوكيل علوي بجمع هذه المادة من التفسير وغيره من كتب المؤلف لكان مستحيلا، ولكنه أسند له بذخيرة علمية غزيرة حيث يسر له كتابة إضافات وتعليقات عليه^(٢).

ومن الميزات الأساسية كذلك في هذا الجانب أن السيد المودودي اعتمد فيها على الروايات الصحيحة من كتب الحديث والسنة النبوية، واستفاد كذلك من أمهات كتب السير مثل المغازي لمحمد بن إسحاق، سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري وأحيانا زود فيها روايات بعض المؤرخين الآخرين نحو أنساب الأشراف للبلاذري، وأهم ما فيه أنه رجح أو وفق بين الروايات في التعارض.

ومن الجوانب كذلك أنه أورد فيها الخرائط الأساسية للمناطق نحو خريطة مكة المكرمة والكعبة المشرفة وكذلك مناطق استيطان القبائل العربية الشمالية والجنوبية في الجزيرة العربية و خريطة المدينة الطيبة زمن الهجرة. ويزيد قوة الرجل أنه أضاف التعليقات الحديثة لهذه الأماكن إثر زيارة هذه المعالم في جوانب منها.

٤- اتباع منهج المقارنة: لقد اتبع الكاتب في عمله ياتباع المنهج المقارن وذلك لإبراز محاسن دعوة النبي ﷺ وربطها بدعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وهذا العمل هو عمل بديع في هذا المجال حيث تعرض له السيد المودودي في بداية عمل السيرة النبوية في مهام النبوة ومن ثم البرهنة على عقيدة ختم النبوة منها.

(١) أحمد، خورشيد، مقدمة سيرت سرور عالم (سيد العالم)، ج ٣، ص ٢٣-٢٤.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، مقدمة سيرت سرور عالم، ج ١، ص ٣٦.

ولم يكتف الرجل في عرض القضية على الديانات السائدة من اليهودية والنصرانية بل تطرق إلى كل من الأديان المعروفة كالبوذية والزرادشتية وحتى النظريات الجاهلية المعروفة والتي برع السيد في تنفيذها وردها. وقد مهد المودودي كذلك أبواباً أربعة تفصيلية تحت عنوان أحوال الأمم البائدة وأسباب هلاكهم من قوم نوح وعاد وشمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وسبأ وقوم يونس، ثم عرض حال المشركين من اليونان والرومان والهند والمجوس، ووصل إلى مشركي العرب وبما فيها من الملل والنحل نحو الدهرية والصابئة وغير ذلك. ولم ينس الرجل بني إسرائيل بل فصل في اليهودية من زمن سيدنا موسى عليه السلام إلى أن وصل إلى عهد المسيح عليه السلام، ومن حسن توفيقه في عرضه أنه ضم في كل مبحث خرائط دقيقة تدل على أرضية استيطان هؤلاء وحالهم منذ القديم إلى بعثة النبي ﷺ.

وللمودودي في هذا الجانب ميزة أخرى كذلك أنه أفند شبهات المستشرقين المثارين والحاقدين للإسلام، وإن كان هذا العمل ليس بدعا فقد سبقه في شبه القارة سرسيد^(١) والعلامة شبلي نعماني^(٢) وكذلك البروفيسور ظفر إقبال^(٣)... ولكن الرجل سار بمنهج بديع وهو تفنيد الشبهات من أسسها وتجفيف جذورها المبنية على الحقد والعداوة تجاه الإسلام كما ألمح إلى المنهج السائد لهؤلاء والمبني على الإثارة بخلاف القرآن والسنة الشريفة^(٤).

٥- التوسع والشمول: من الميزات الأساسية لهذا الكتاب كذلك التوسعة والشمول لكل ما يتعلق بالنبوة وسيرة الرسول ﷺ، وهي بهذا تعد كموسوعة علمية كبيرة حول النبي ﷺ، وقد جاء المجلد الأول منها كمقدمة أساسية لتاريخ الدعوة والسيرة.

ولم يكن عرض المسائل كتسلسل تاريخ فحسب بل جمع المعلومات من مبدأها إلى نهايتها بالدقة والتخصص، وجاء تعليقاته المثرية في المجلدين الأولين أما المجلد الثالث فقد جمع بعد وفاته رحمه الله.

٦- الإنجاز الأدبي الرائع: لقد عرفت شبه القارة الهندية بوسعة أراضيها وكثرة ساكنيها وكثافة ثقافتها المتنوعة بالإنجازات والتطورات في مجال العلوم والأدب، وقد كان لعلمائها الأجلاء دور كبير في تطور العلوم وانتشارها باللغات العربية والمحلية الأردنية لمقتطني تلك البلاد.

(١) سرسيد أحمد خان (١٨١٧م - ١٨٩٨م): من أبرز رجال الإصلاح في الاتجاه الليبرالي من المسلمين في الهند، ومؤسس جامعة عليكرة، عرف بنشاطه التعليمي والسياسي في تلك الحقبة، كما أن له آراء شاذة في بعض القضايا العقدية. انظر: أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٩م)، ص ١٢٠.

(٢) شبلي النعماني (١٨٥٨ - ١٩١٤م): باحث، ومن رجال الإصلاح الإسلامي في الهند. تعلم في رامبور ولاهور وسهارنور، وحج فاتصل بكثيرين من رجال العلم. وانتدبه مؤسس جامعة (عليكرة) لتدريس العلوم العربية سنة ١٣٠٠ هـ فيها، فكان عوناً له على النهوض بالجامعة. وصنف كتباً جليلة بلغته، وبعضها بالعربية. شارك في إنشاء دار العلوم التابعة لندوة العلماء في لکهنو، وأنشأ (دار المصنفين) في بلده (أعظم كره) قبيل وفاته. فأصدرت مئات من الكتب، ولها مجلة اسمها (معارف). وكان وثيق الصلة بالعالم الإسلامي ونهضاته السياسية والاجتماعية. ومما كتبه بالعربية انتقاد تاريخ التمدن الإسلامي لزبدان، و الجزية. وكان يجيد العربية والفارسية، مع الهندية. انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ١٥٥.

(٣) ظفر إقبال: شاعر وكاتب باكستاني معروف ولد سنة ١٩٣٣م، عرف عنه التغزل باللغة الأردية وكذلك كتاباته الجياشة في أعمدة الصحف الباكستانية. انظر: ويكبيديا الموسوعة الحرة باللغة الأردية.

(٤) انظر: شاکر، عبد الجبار، المودودي وكتابة السيرة النبوية، ص ١١.

و للسيرة النبوية نصيب أكبر في هذه الكتابات حيث تحسب هواية وتفنن علمائها فيها، وبالتالي جاء هذا الإنجاز إلى جنب ذخيرة علمية انجازا أدبيا رائعا سجلته الحضارة الإسلامية.

وعن هذا يقول الدكتور غازي: "ومما لا شك فيه أن مسلمي شبه القارة الهندية تقاصروا في حق السيرة النبوية، ولم ينل هذا المجال بأي جهد رفيع يذكر، وكانت جهود علماءها قديما مرتكزة طوال ألف ومائة سنة حول العلوم العقلية واللفظية إلا أنهم انتبهوا في الأونة الأخيرة لهذا التقصير وباتوا يتداركون خلال مائتين سنة هذا التقصير، وعكفوا على دراسة السنة والسيرة النبوية المباركة بأسلوب جزيل ورائع حيث تفوقوا فيها على سائر المسلمين.

وقد كانت هذه الجهود متممة بالتجديد وتقديم الجديد وتأسيس مناهج رفيعة فضلا عن الدفاع عن الإسلام، وذلك بفضل ثقافة أهلها واطلاعها الواسع وخبرتها من التعلم في المراكز العلمية الشرقية والغربية، وبالجملته تعد القرن العشرون المنصرم هو العصر الإحيائي والتجديدي في مجال العلوم الإسلامية وخاصة في السيرة النبوية، وقد برز أعلام أجلاء فيها حيث تعد جهودهم بمثابة انجاز علمي وأدبي رائع.

ومن ضمن هؤلاء كتاب سيرة سيد العالم لكتبتها السيد المودودي رحمه الله حيث كانت موسوعة علمية شاملة لأبحاث السيرة النبوية، وإن كانت لم تنل بالتكميل كما بدء في مرحلتها المكية وذلك لوفاة صاحبها، ولكن تعد على أية حال ذخرا علميا فريدا في هذا المجال حيث انعكس أفكار الكاتب فيها بكونه قائدا لإحدى الحركات الإحيائية والإصلاحية في تلك الديار كما تجلّى محبة الرجل ودفاعه عن الإسلام في عرضه للقضايا^(١).

ويعلق الآخرون عن أسلوبه الأدبي الرفيع كذلك فيعده تجربة فريدة علمية أدبية حيث تطرق فيه صاحبه إلى أسلوب جديد وهو البساطة والبعد عن التعقيد واتسمت كذلك بالسلالة والوضوح، وبهذا يحتل الرجل في المرتبة الثانية حيث جاء بعد النعماني والذي قدم التراث العلمي بأسلوب أدبي رفيع في العصر الحاضر، ويمتاز مع ذلك بأسلوب عذب يجذب القراء ويحبب لهم الموضوع^(٢).

٢- المآخذ على كتاب سيرة سرور العالم: ويحسن بنا في النهاية أن نقف في النهاية على بعض المآخذ على هذا الكتاب القيم بكونه عملا إنسانيا معرض للخطأ والتقصير والكمال لله وحده، وإن كانت هذه الملاحظات لا ينقص من قيمة الكتاب وفضله على القراء، وأهم هذه الملاحظات كالآتي:

١- التظويل والإطناب: لقد جاء الكتاب بتشعب موضوعاتها وتششت مباحثها بأسلوب مطنب وعلى قدر طويل من الصفحات؛ ولا شك أن الإطناب لا يكون حسنا في كل الأحوال لأنه يسبب الملل.

وهكذا قد جاء المجلد الأول للكتاب وإن كان مباحثه لا تتعلق مباشرة بالسيرة النبوية؛ إلا أنها تعد مقدمة وتمهيدا للمباحث الأساسية، وتدور كلها حول النبوة والمعجزات، والمقارنة بين نبوة النبي ﷺ وغيره من الأنبياء، وقد خصص

(١) غازي، محمود أحمد، محاضرات سيرت ﷺ (لاهور: نشر الفيصل، ط ٣، ٢٠٠٩م)، ص ٦٤٥-٦٨٥.

(٢) انظر: شاعر، عبد الجبار، المودودي وكتابة السيرة النبوية، ص ١٣، و حسيني، سيد سعادت الله، كتب السيرة نبذة سريعة (كتب سيرت: ايك اجمالي جائزه) (موقع قنديل، <http://qindeelonline.com/kutbe-sirat-aik-ijmali-jayeza/>، 23/10/ 2020).

كذلك فيه أحوال الأمم البائدة والمعاصرة وبما لهم من الأحوال والصفات، وهذه المباحث وإن كانت مستحسنة إلا أنها جاءت على قدر من الطول والاطناب.

وأما المباحث الأساسية والمتعلقة بالسيرة ووقائعها فقد جاءت مختصرة ووجيزة ولم تنل بالتفصيل الكافي، وبهذا فاقت المقدمة على أصل المباحث في بعض الأحيان.

٢- عدم التوازن بين مباحث الدور المكي والمدني: لقد حظيت الفترة المكية في الكتاب بشيء من التفصيل، وخصص له المجلد الثاني على فخامة صفحاتها، أما الفترة المدنية والتي عرفت في تاريخ الإسلام بغزارة موضوعاتها ونضج ثمارها جاءت في الكتاب على قدر يسير من الصفحات، وهكذا لم تنل بدارسة وافية كما هو المطلوب. والسبب في ذلك كما يتضح من مقدمة المجلد الثالث أنه رتب على منهج الكاتب بعد وفاته من كتابات ودوروس المودودي رحمه الله ولم يره في حياته، وكما يقول الدكتور محمود أحمد غازي^(١) رحمه الله كذلك: "إن الفترة المدنية كما يتصرح بالمودودي شاطئ عظيم للمحيط الكبير والوقوف على جوانبه يحتاج جهدا طويلا، ولو كان الشيخ حيا لتناوله في عدة مجالات، ولم يكتف بمجلد صغير نسبيا بما سبقها"^(٢).

٣- عدم وجود منهجية واضحة في العرض: يتسم الكتاب مع وسعته وشمولها بخلو منهجية واضحة في العرض، وبالتالي لم نرى فيها الآراء والتعليقات المضافة من السيد المودودي في المجلد الأول والذي صرح بأنه لا يرى فيها حاجة، وخلت المجلد الثالث منها كلياً بحجة صدورهما وإتيانها بعد وفاته.

وهكذا لم يصرح السيد رحمه الله في مقدمة منها على تسلك منهج معين كما هو المعمول في الدراسات المعاصرة من سرد الروايات أو بيان فقه السيرة أو منهج التحليل وما إلى ذلك.

ولعل ما يبرر كل هذه المآخذ مع كثرة محاسنها هو عدم وجود وإتاحة الفرصة لمؤلفه رحمه الله في حياته بعد ما شغل بكتابة تفهيم القرآن قرابة ثلاثين سنة وكذلك انشغاله بالأعمال الدعوية، فضلا عن تقدم السن والضعف الذي يواجهه الإنسان في أواخر حياته.

ولعل الإعتراف الجميل الذي يقدمه المودودي في مقدمة كتابه يشفع له في آخره حيث يقول: وإن هذه المجموعة بحق لا يستوفي حق السيرة النبوية كما هو المأمول، ولكنها محاولة لمعرفة شخصية النبي ﷺ والأعمال التي قام به، وهذا الفهم غالبه جاء بناء على الفكر والبصيرة التي أملكها"^(٣).

(١) الدكتور محمود أحمد غازي (١٩٥٠م-٢٠١٠م): باحث ومحقق وأستاذ أكاديمي مشهور في مجال علوم الشريعة والقانون، شغل كوزير للأوقاف والشؤون الدينية في باكستان ورئيسا للجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد وعضو في معهد الفكر الإسلامي سابقا. ألف ما يقارب ٣٠ مؤلفا باللغة العربية والإنجليزية والأردية، من أهمها تحقيق لكتاب السير الصغير للإمام محمد بن حسن الشيباني رحمه الله. انظر: مجلة الشريعة الشهرية العدد الخاص بسيرة الدكتور محمود أحمد غازي، الصادرة عن ججرائواله، العدد ٢٢، يناير ٢٠١١م.

(٢) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، مقدمة سيرت سرور عالم، ج٣، ص ٢٣. و غازي، محمود أحمد، محاضرات سيرت ﷺ، ص ٦٨٥.

(٣) انظر: المودودي، السيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم، ج١، ص ٣٦.

المبحث الثاني: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الشيخ محمد الغزالي

لقد وقف الشيخ محمد الغزالي الفقيه الدعوي حياته للدعوة الإسلامية وتكاد تكون حياته مظهرا عمليا لهذه المهمة وبرز كجندي مخلص لهذه المهمة، يدافع عنها بالكلمة والكتابة. وقد برز فكره في كل كتاباته وخاصة في كتابه فقه السيرة، والذي كتبه على هذا المحور، وهكذا تجلّى في كل صفحاته هذه؛ وبهذا سماه فقه السيرة حتى يستخرج منها الأحكام والدروس الدعوية المستفادة منها، ويحسن بنا في المقام أن نقوم هذا الجهد تحت مطالب تالية:

المطلب الأول: رسالة السيرة النبوية

السيرة النبوية هي ذاك الحياة الحافلة للعطايا والمواهب الإلهية التي امتن الله عزوجل على عباده من خلال إرسال رسوله وحييه بغية أن يعلمهم ويزكيهم بالقول والفعل والتقرير والصفة، وليست هذه الحياة مجرد قراءة يتلى أو أساطير يقرأ على الألسنة للترفيه وغيره لا يقصد من وراءها أية جدوى، وشتان بين هذه القراءة وذاك الذي يرجى منها رسالة ونهوضا وهداية.

ولقد عاب الشيخ محمد الغزالي على القراءة الأولية والمنتشرة والسائدة في بلاد المسلمين بالنسبة لهذا النبع الفياض، واستدرك خطأ هذه القراءة وعاب على مقتنعيه بالنقد اللاذع على هؤلاء، ومن ثم استلهم الرسالة الدعوية للسيرة النبوية ﷺ، وبين ذلك في مستهل مقدمة كتابه فقه السيرة، وسوف نبرز أهم جوانبه في عناوين مزيلة:

١- السيرة النبوية هي مصدر الأسوة الحسنة: يحتاج المسلم في مسيرة حياته للتحلي بالفعال الحسنة والتخلي عن الرزائل إلى أسوة حسنة يقتدي به، وذلك لأن الاستقلال والاستغناء عن القدوة في تلك الأمر قد يجره إلى الاعوجاج والخطأ، وهكذا كلما كان الإنسان سائرا على نهج قدوته تكون أقربا للصواب، مطمئنا على ما يبتغيه ويدخر جهده بدل التحري في طلب صحة وثبت ما يرمي إليه إلى الوصول والفوز بمقصده.

وقد يرى علماء السلوك إلى أن أنجح وسيلة للتربية هي اختيار الأسوة الحسنة المطمئنة، وبالتالي جعل الله سيرة نبيه ﷺ للمسلمين أسوة حسنة يقتدي به في كل ما دعا إليه بقوله وبينه في كتاب ربه عزوجل؛ وهكذا لم يكتف القرآن بالدعوة والبلاغ الذي قدمه النبي ﷺ على أتم وجه بل انضم مع الأذان الصائغة رؤية أسوة حسنة في مسيرة وحياة النبي ﷺ والذي تتجلى فيه هذه الرسالة برؤية واضحة، وعنه قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، ويقدم الغزالي رحمه الله في هذا الصدد رؤية صحيحة عن السيرة النبوية بدل الخطأ الفادح الذي وقع فيه المسلمون، وعنهما يقول: ومعرفة السيرة على الوجهة الخاطئة تساوي بالجهل بها، وهي ظلم لهذه الحقيقة الكبيرة والتي تعبر عنها بالأسطورة الخارقة؛ وعلى هذا فليست السيرة مجرد حياة محمد ﷺ تعرض توصيفيا لشخص خالي الذهن أو كدراسة محايدة بل هي منبع للأسوة الحسنة ومصدر للشريعة الغراء التي تدين بها المسلم واستسقاء إلى حقيقة الإيمان نفسها^(١).

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤.

ويضيف الباحثون كذلك أن الإقتداء والتأسي ليست مجرد حث تطوعي بل هي أمر إلهي في غاية الأهمية، ولا يمكن الوصول إلى الغاية إلا بدراسة السيرة النبوية وفقهها والتعرف عليها. ومن القواعد الشرعية المعروفة ما ينص "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" فلذلك تناط أمر التأسي بدراسة السيرة النبوية وفقهها على الوجه الصحيح^(١).

٢- السيرة النبوية وسيلة لنماء الإيمان ونضج الدعوة: تعد قراءة السيرة النبوية المباركة إلى جنب متعتها الروحية ونبعها الفياض في إنارة الطريق للهدي والرشد وسيلة لنماء الإيمان وباعث على تقويتها حتى تثمر ذاك النبت وتظهر آثاره في الحياة على هيئة الأعمال الصالحة، وتصبح الإيمان قوة محركة بعيدة عن السكون الذي لا يتحرك العواطف والأحاسيس.

وعى هذا فالمقصد الأساسي من قراءة السيرة والوقوف عليها هي نماء وتعزيز الإيمان، وذلك لأن الإيمان بالرسالة هي جزء أساسي من أركان الإيمان، ولا يتذوق المسلم حلاوة الإيمان إلا أن يعرف حقيقة الرسالة ومدى ما لاقاه رسوله في سبيل الدعوة، وكيف تحقق كل هذه النجاحات الباهرة بعد سعي حثيث وعمل دائب في توجيه الناس، وبهذا سيتضح لقارئها مدى حقبة الدين ويرسخ عنده اليقين والطمأنينة فيما يعتقد وتشفيا وراحة في دعوته إن كان يدعو له.

وعن أهمية هذا الجانب والتي تعد كرسالة للسيرة النبوية المطهرة يقول الشيخ محمد الغزالي في هدف كتابة السيرة النبوية، فيقول قائلاً: وقصدت من كل هذا العمل أن تصبح قراءة السيرة النبوية المباركة باعثاً على نماء الإيمان وتزكية الخلق، وفي جانب آخر سبباً للهيبة كفاح الحق أمام الباطل، ويجعل قراءهم كذلك يعتنقون الحق ويوفون له... ولا شك أن السيرة النبوية تضم في صفحاتها كلها أمثلة ونماذج رائعة لكل هذه المقاصد السامية^(٢). ويوضح المختصون هذا الحق كذلك بأن السيرة النبوية تعد في مجموعها زادا ثريا للدعاة بحيث يشحنهم أولئك بقراءتها، ويقوي عزائمهم نتيجة اطلاعهم على بذل تلك الجهود الجبارة والدماء التي أريقَت لتعزيز الدين ورفعته لواء الله الواحد، وبالتالي سيدرك معها نعمة وصول الهداية لهم، وكذلك مدى شرافة النسب لهذا الدين والعمل له والجهد في سبيله^(٣).

٣- السيرة النبوية سبب لنهوض وحركة الأمة: السيرة النبوية هي ذاك الحركة الدائبة والمستمرة التي انبعثت في ظلام دامس نحو خير البشرية، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وكان صاحبها عليه الصلاة والسلام عمداً إلى إصلاح الأمة والبشرية مخاطباً قلوبهم وعقولهم بقوله وفعله وسلوكه، وذلك بأسلوب لين فيه الرحمة حيث يطمئن إليه الأنفس ويدرك المخاطبون والقراء جميعاً الرأفة والشفقة، وكان حريصاً عليهم ورحيماً فوق رحمة الوالدين لهم.

(١) انظر: غضبان، منير محمد، فقه السيرة النبوية، ص ١٥.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٥.

(٣) انظر: أحمد، فريد، وقفات تربوية في السيرة النبوية (الإسكندرية: دار العقيدة، ط ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)، ص ١١.

ولم يدع عليه الصلاة والسلام في حياته المسلمين ساكني الضمائر بل حرك فيهم نخوة الخير والمسؤولية وحثهم إلى ما فيهم صلاح دنياهم وآخراهم، وجعلهم فوق أولئك مسؤولين نحو الأجيال القادمة حاملا تلك الرسالة ليكون بذلك متسمين بالخيرية ومورثين لهذه الرسالة العظيم؛ وهذه هي في الحقيقة هي الرسالة والغاية العظيمة التي تدرك من قراءة هذا التاريخ العظيم. وعنه يقول الغزالي رحمه الله: لقد ابتلى المسلمون اليوم بأفة عظيمة حيث أنهم لا يدركون من هذا التراث القيم والثري (السيرة النبوية) إلا قشورا خفيفة بعيدة عن إثارة الهمم وتحريك القلوب والتي هي غاية هذه السيرة الجليلة، وجل ما يفعلونه هؤلاء تجاه نبيهم ﷺ أنهم يعظمونه بإجلال اللسان وعمل لا تعادل لهذه الحياة العظيمة، والأصل هو أن نأخذ الأحداث بالحكم والتفسير المرجوة حتى يترك على النفوس آثارها دون افتعال واحتيال^(١).

وقد يعبر عن هذه المهمة السالفة ذكرها الدارسون بالمنهج الحركي للإسلام، ويقولون عنه: إننا نعني من هذا المنهج هو ذاك الخطوات المرسومة التي اتخذها الرسول عليه الصلاة والسلام من بدء رسالته إلى أن لاقى ربه، ويجدر بنا أن نتبع ونحذو رعاها خطوة خطوة حتى يكون أمورنا على بصيرة في حياتنا في كل خطواتها ونصل إلى أهدافنا وإقامة حكم الله في الأرض^(٢).

ويستنبط من الفقرات السابقة أن السيرة النبوية تحمل في أحداثها الثرية نهوضا للأمة وتثير أصحاب الهمم نحو التطلع إلى المعالي وإدراك ما فاتهم من الخير والفضل والمسؤولية.

٤- السيرة النبوية منهج تصحيح المسار: لقد ابتليت الإنسانية على مدار تاريخها الطويل بالاعوجاج والانحراف والفساد المشتمل لكل أنواعه؛ وقد وصلت بهم الحال في فترة إلى أنهم وقفوا على شفا حفرة من النار وفي أثناءها أرسل الله النبي ﷺ برسالة المهديّة فأنقذهم مما كانوا فيهم وبعث فيهم روحا جديدا توائم كرامتهم ومنزلتهم الذي عين الله لهم، وهكذا كلما واجهوا سقوطا وتدهورا إلا وكانت لهذا المنهج تأثيرا في تصحيح المسار، وبالتالي تعد السيرة النبوية المباركة هي المنهج الأمثل لتدارك ما فاتهم وتعديل ما ينبغي سلوكهم لهم.

وعن مدى هذه الأهمية يقول الغزالي رحمه الله: إنني أتحري هذا الكتاب في حين بلغ التدهور والتأخر العاطفي والفكري على المسلمين قمتها، ولكن في أحداث السيرة النبوية القريبة والبعيدة لمحات واشتاتات لمعالجة حاضرنا المحزن، وهكذا فإن هذه الصفحات تحمل معها سلامة الفكر، وجلال العمل وفوقها شحنة من صدق العاطفة؛ ونستطيع أن نعالج بها تأخرنا وتدهورنا الذي أصيبنا^(٣).

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤.

(٢) الغضبان، منير محمد، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ص ١٥.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٥.

٥- العكوف على السيرة النبوية علامة الحب للنبي ﷺ ودعوته: لقد أُلزم المسلمون طبعاً للنصوص الناطقة بحق النبي ﷺ بامتلاك الحب تجاهه؛ وذلك لأنه من تمام الإيمان، وهكذا كل من أحب الرسول ﷺ واقتفى بآثاره وهديه فإنه يحقق الفوز والنجاح ونال بها رضا الله ونعيمه.

وليست هذا الحب مجرد علامة أو طقوس معينة تؤديها الأفراد تجاه النبي ﷺ بل يجب أن تصبغ هذا الجانب بمظهر الولاء والالتزام لحقوقه ووجائبه.

ولقد عاب الشيخ محمد الغزالي على المسلمين المتظاهرين لهذا الحب بمظاهر معنية، وبدأ يوضح للمسلمين نهجها الصحيح منه، وعنه يقول: لقد رأينا أن مسلمين من شتى بقاع الأرض يأتون مشوقين ومتلهفين لرؤية الرسول ﷺ وبدأوا يظهر حبه، ومن ثم يعودون إلى بلدانهم حاملين في قلوبهم هذا الحب الغامر حتى أن الناظر ييغظ على مكانهم ومقامهم، وهكذا رأينا أناساً عاكفين على باب مسجد الرسول ﷺ وحجتهم أنهم فروا من الفتنة محافظين على إيمانهم في هذه الديار الطاهرة... ويا ليت! أنهم فهموا أن عملهم يحسب فراراً من الزحف من إخوانهم الذين قدموا أنفسهم للدفاع والكفاح عن ديار الإسلام.

إن هذا الحب المطلوب لا تحصل بالهجرة نحو المدينة ولا يظهر بتتبع أعمال جزئية لا تحمل روحاً ولا جداً، بل كل ذلك منوط بفقه المسلمين لسيرة الرسول الأعظم ﷺ، والإدراك الحق لحياة صاحبها وكذلك الالتزام الدقيق لكل ما أتى بها، ومن هنا قال المثل القديم: "أرخص الحب إذا كان كلاماً، وأغلاه عند ما يكون قدوة وتأسياً".

ويشترط الباحثون كذلك أن هذه المحبة والتوقير والإجلال للحبيب المصطفى ﷺ يجب أن يكون على أساس العلم وبعيدا عن العاطفة الموروثة التي لا تفيد ولا يترتب عليه شيء^(١).

ومنتهى القول: إن السيرة النبوية هي العلامة والمظهر من مظاهر المحبة الملزمة على المسلمين، وقد يجب أن تراعي فيها جانب الاتباع والتأسي، وأن يكون في مجموعها بعيدة عن الطقوس الظاهرية والألفاظ والجمل التي لا تمس الروح ولا يغذيه، وهكذا وفق الأعداء في مبتغاهم؛ فعودوا المسلمين عليها وأنسوهم على ما يجب عليهم نحو الحق والرسالة.

المطلب الثاني: الأهداف والمنهج العلمي لدراسة السيرة النبوية

المنهج هو المسار التي يتوجه به إلى الوصول إلى غاية معينة، وهو بذلك طريقة متبعة يسلكها العامل في حين إجراء عمل ما بغية أن يكون فعله سهلاً ميسوراً ومثمراً بالغرض الذي بدأه، وهكذا كلما كان الأعمال مجانباً عن المنهجية تكون متشتتة وبعيدة عن الجدوى والفائدة، وبالعكس كلما كان متسماً به ومحددة كانت ثمارها مرجوة وملحوظة. ولقد سلك العلماء قديماً في كتاباتهم في كل فن منها بمنهج معين اتبعوها على أن يكسبوا منها غايات محددة، وكانت للسيرة النبوية المباركة منذ عصرها الأول طرق ومناهج معروفة؛ وبالتالي برز في هذا الجانب منذ بزوغ فجرها

(١) السابق نفسه، ص ٨.

(٢) الزيد، زيد عبد الكريم، فقه السيرة، ص ٢٨٣.

مدرستين عظيمتين؛ مدرسة المحدثين والروايين، وفي جانب آخر مدرسة المؤرخين. وقد سار كل منهما في مسيرتها وأكسبوا منها ما قصدوها، وهكذا كانت في المحصلة بينهما أهدافا متلاقية مع بعضهما البعض والآخر متباينة بحيث جاءوا على وفق وجهته واستمرت هذه المسيرة إلى يومنا هذا.

ولقد برزت في الأوانة الأخيرة والعصر المعاصر منها من ينادي بتجديد العرض والخطاب بحجة أن المسالك والمناهج القديمة لا يحصل منها مكاسب جديدة وأنها ضياع للجهد، ولم يكن هذا الطابع ظاهرا في هذا المجال فحسب بل ظهرت في كل العلوم والمسالك، وقد زادت أهمية هذه الدعوات بظهور مدارس استشراقية حيث عمدوا إلى تشويه وتخريب صورة العلوم الإسلامية وخاصة في مجال السنة النبوية وشككوا فيها من نواحي عديدة، ولذلك لا بد من تجديد وتحديد المنهج، وللمفكرين والكتاب الإسلامي نصيب ودور بارو فيها.

وعن ملامح وخصائص هذه المناهج الجديدة والمظهرة في السيرة النبوية يقول المختصون: لقد ظهرت في العصر الحديث كتابات في السيرة المعاصرة، وكانت لها انتشارا واسعا ونفعا عظيما في ميدان الدعوة، وقد عرفت هذه بتميز الدوافع والنسق والترتيب والصياغة والعرض؛ ولا شك أن لكل منهم سبب في إثراء التراث التأليفي المعاصر، وعادت نفعا في حياة المسلمين عامة وللدعاة بشكل خاص، حتى أن تأثيرتها بدت يتسرب في مجتمعات غير إسلامية والأكاديمية منها وغيرها وبدت عاملا مهما في تعريف الإسلام وحقيقته. ويتنوع هذه المناهج على شكل عام في محاور تالية:

الف- السيرة الروائية: الاهتمام بالرواية لها مكانة عظيمة في سرد الحوادث بحجة أنها الوعاء الحافظ للحقائق والتي تصون التاريخ عن التضييع والتحريف، ولما كانت السيرة هي جزء أصيل من الدين حيث تمثل التطبيق العملي له؛ فلهذا عمد المحدثون لها بقواعد الضبط الصحيحة في جانبها والمؤرخون في طرف آخر ليعرض الأحداث المهمة المرتبطة بهذا الزمن، ولكن ما أضافهم الباحثون المعاصرون هو أنه أضافوا إلى ذلك عرض أحداث السيرة النبوية في الاعتماد على القرآن الكريم، وكذلك جمع روايات المحدثين حول السيرة النبوية؛ وفائدة هذا العمل أنه تعرض المضمون بأدق الترتيب وأكثر الثقة.

ب- السيرة الموضوعية: هذا المنهج هو نهج جديد لجأ إليه الكتاب المعاصرون حيث يهتمون أصحابهم إلى التركيز على موضوع معين، فغالبا لا يهتم الكاتب بالتسلسل الزمني بل يقتبس المواقف الموائمة لما يعضد فكره وموضوعه. وتختلف هذه الكتابات؛ فتارة تكون التركيز على الموضوعات المستفادة منها وأحيانا بالوقوف على الأحداث المعينة في السيرة والتي تطبع طابعا واحدا مثل الغزوات والمعاهدات وغيرها.

ج- السيرة التحليلية: وهذا النمط هو الأكثر فائدة في هذه المناهج، وفيها يعرض الكتاب إلى جنب ذكر الأحداث الفقه المستفاد والدروس المأخوذة وذكر التعليقات والإشارات المتنوعة وخاصة في مجال الوعي المعاصر وتنزيل العبرة المستفادة من ذاك الزمن على المعاصر^(١).

١- منهج عرض الشيخ محمد الغزالي: ونظرا لأهمية هذه الكتابات برز من بين هذه الأعلام اسم المفكر الداعي الشيخ الداعي محمد الغزالي رحمه الله بكتابه القيم فقه السيرة، وسار بمنهج جديد جامعا بين أسلوب القديم والجديد، واخذ من كل ما يصلح في بيان وترسيخ رسالة السيرة النبوية المباركة، وقد بين الرجل منهجه ومبررات أخذه في ثانيا مقدمة كتابه فيقول: لقد سلكت في كتابي منهجا مبدعا حيث جمعت فيه بعض الأسلوب القديم والجديد، وبالتالي لم أكتف بما سار عليه المؤرخون الجدد فحسب حيث يميلون إلى التعليل وربط الحوادث في سياق متماسك، كما لم أنحصر نفسي بطريقة القدماء والذين عرفوا الآثار ومن ثم نقدوها وعرضوها للتمحيص وهكذا سرد كل دقيق وجليل من الأحداث والوقائع؛ ولا شك أن هذا العمل عظيم وخطير في حد ذاته، وقد يضر إذا لم يحسن الاستشهاد بها.

وأما عملي فكان بين هذين الطريقتين حيث جمعت خيري المنهجين، ومن ثم عمدت إلى أن أفصل أجزاء هذه الأحداث بموضوعاتها المتماسكة والمتراطة بحيث يشد بعضها البعض حتى يأتي موضوعات السيرة النبوية بتناسق واحد، وقد وزعت المرويات والنصوص الأخرى عليها في فصول على حدة، وكان الهدف منها اتقان الصورة مع اكمال الحقيقة المرجوة منها^(٢).

ويتضح من الفقرة السابقة بأن الغزالي لم يكن في كتابه مجرد ناقل الروايات وإن التزم نفسه بها حيث رتبها على الترتيب الزمني كما هو المعروف في تحرير هذه الكتابات، ولكن الرجل رتب الأحداث في إطار عناوين الموضوعات في أكثر مواضعها من مرحلتين الدعوة المكية والمدنية، فمثلا يضع عنوان "إلام يدعو الناس؟ لبدء الرسالة والنبوة، وأذى المسلمين وضرهم بعنوان الاضطهاد وبداية الهجرة بأسس البناء للمجتمع الجديد ونحوه.

٢- أسلوب ودافع الكتاب: لقد بين الغزالي في كتابه أن حكمه وعرضه للقضايا ليست كمنهج المؤرخ الذي يسرد القضايا فحسب وذلك في حيادية كاملة دون النظر إلى ما يكتب عنه، أو كالناقد الذي يكتب القضايا اعتبارا للتمحيص والنقد، بل يرى الرجل أنه يسير في مهمته بمنهج المحب للمحبوب أو التابع والعبد لمولاه؛ ولا شك أن يمثل هذه الكتابات تراعى فيها مظهرها من الحب والولوع والأدب تجاه من يكتب عنه، وهكذا يكون صاحبه مؤخذا الحيلة في كل ما يكتب، ويرد كل الأباطيل التي تلصق بالسيرة ومن ثم يكون اتيانه للموضوعات على أساس من العاطفة وسلامة الفكر.

(١) انظر: نحلة، بسيوني، مناهج الدعوة الحديثة من خلال كتابات السيرة النبوية المعاصرة (القاهرة، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية في موضوع جهود الأمة في خدمة السيرة النبوية، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م)، ص ٧١٣-٧١٥..

(٢) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤.

وعن هذا يقول الغزالي: إني أكتب في السيرة النبوية وأحسب نفسي كأني أكتب عن مولاي وسيدي أو كالتلميذ الذي يحرر عن أستاذه أو كالجندي الذي يسطر عن قائده المحبوب، وليست كالمؤرخ المحايد الذي يختار الحيادة في نقله ويكون مقطوع الصلة بمن يكتب عنه^(١).

٣- منهج توثيق النصوص والتعامل معها: ومن المسائل المسلمة أن البحث في مثل هذه القضايا أي السنة والسيرة النبوية بحاجة إلى التوثيق والتعامل مع نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي بذلك تعد المنهج الأمثل الذي لا بد منه، ولكن هناك ثمة مشكلة أحيانا في التعامل مع النصوص والتراث الديني حيث تتعلق بعضها بالرواية والسند والذي قدم لها المحدثون بمناهجها الوافرة والثرية، والبعض الآخر ترتبط بالتعامل مع النصوص والعمل بها، وبالأخص إذا كانت معارضة للبعض أو غريبة على العقول نظرا لتقصير عقولنا عن إدراكها.

وقد ظهرت في هذا الصدد منذ القدم في صدر الإسلام مدارس ووجهات غالوا بعضها وفرد منها الآخر، واختار البعض منها وسطا حيث بقوا على الصواب، وللفقهاء في هذا الغرض مباحث قيمة فاستنبطوا وبنوا عليها الأحكام. وهكذا قد ظهرت تأثير هذه النزعة في كتابات السيرة النبوية المباركة، وواجه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله بمثل هذه المشكلة فأشار إلى منهجه وتعامله في بداية كتابه؛ مع أن هذا الكتاب قام بتخريجه محدث العصر وناصر السنة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله، وقد شكره على ذلك المؤلف عليه.

ويقول الغزالي عن مهمته ومنهجه: لقد ألزمت نفسي في الكتابة عن هذا الموضوع القيم أعتمد على المصادر المحترمة والمعتمدة، وأحسب أنني بلغت في هذا الصدد مبلغا حسنا، وبالتالي جمعت من الآثار والأخبار التي يطمئن إليها العالم البصير، ولكن الناظر والقارئ ليدش حينما يرى تعقيبات الشيخ الألباني على هذا النصوص حين قرائته ويحكم طبعا حسب تخصصه عليها بالضعف، وقد يشكر الشيخ على جهوده وله في هذا المجال باع طويل؛ وقد يبرز هذا الجهد الحقيقة العلمية ويضبطها.

ولكن هذا العمل يجزني بأن أوضح منهجي في التعامل مع هذه القضية: فقد يختلف علماء السنة في الحكم على الحديث من ناحية التصحيح والتضعيف، فيراه الواحد قويا والآخر ضعيفا، ولكني أنظر لمتن الحديث من جانب آخر؛ فكلما كان متفقا مع آية من كتاب الله أو مع أثر من سنة صحيحة فإني أخذه دون حرج، وحجة ذفك أن يمثل هذه النصوص لا يقرر في ميدان الأحكام والفضائل أحكاما جديدة، بل جل ما يفعله أن يقرر للأصول شرحا جديدا لما ثبتت في الأسس المتينة من الدين، وهكذا قبلت الآثار والأخبار التي تتفق ويستقيم مع أسس الدين وإن ضعف روايته وسنده، وفي المقابل تنحيت عن بعض الروايات رغم كون صحته لأنه لا تتسق بفهمي مع السياق العام ولا لسياسة الدعوة الإسلامية، وليست هذه هي القضية المبدعة من صاحب السطور، فقد سبقني إليه أكثر العلماء في مواجهة الأخبار الصحيحة والضعيفة على السواء... ولا يعني تتبع هذا الأمر الذي سلكته هجمة على السنة

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٥.

مع إيماني على أنها الأصل الثاني للدين، بل كل ما حملني إليه هو تفاوت الأدلة في مثل هذه الأمور وهي مجال رحب للترجيح والرد^(١).

ويمثل الغزالي لمثل هذا برواية الصحيحين والذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه في غزوة بين المصطلق حيث يقول: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَكَتَلَتْهُمْ، وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُورِيَّةٌ»^(٢).

وقد عبر عن "غارون" العلامة ابن حجر العسقلاني: وَقَوْلُهُ وَهُمْ غَارُونَ أَيُّ غَافِلٍ أَيُّ أَخَذَهُمْ عَلَى غِرَةٍ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ^(٣).

وعن هذا يقول الغزالي: إن الاستدلال بالصحيحين بمثل هذا المواقف مستنكر في منطق الإسلام ومستبعد عن سيرة الرسول الأعظم ﷺ، وذلك بأن يهاجم على العدو بالغفلة دون أن يعرض عليهم كلمة الإسلام، ولذلك لجأت إلى سياق الذي نقله ابن جرير الطبري في تاريخه رغم ما يصفه الشيخ الألباني بالوهن والضعف، ويقول: "بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ يَجْتَمِعُونَ لَهُ، وَقَائِدُهُمُ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضَرَّارٍ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ خَرَجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى لَقِيَهُمْ عَلَى مَاءٍ مِنْ مِيَاهِهِمْ"^(٤). وهذه الرواية يتفق مع أصول الإسلام المتينة.

ويمكن أن يعقب على رواية الصحيحين بأن هذا الهجوم كانت في مرحلة ثانية من القتال حيث وقعت ذلك بعد الحرب الأول، وحينها انتهز المسلمون الفرصة والحرب والخدعة^(٥).

ويعقب الباحثون على موقف الغزالي في مثل هذه القضايا بأنه جاء بناء على تأكيده على القراءة الصحيحة من المصدرين (القرآن والسنة)، وهذه القراءة تتمثل في القراءة الشاملة التي لا تجزئ الفهم، ومن هنا دعا إلى التفسير الموضوعي بدل الموضوعي، والذي ساد عبر تاريخ الحضارة والثقافة الإسلامية فأضرت لها ولم تتحقق لها بالسعادة^(٦).

وبالجملة فموقف الغزالي كما بينه ليس بدعا في هذا المجال، فقد وافقه مؤيدوه وخالفه وأخذ عليه ناقدوه، ولكل فريق في المواقف لهم أدلتهم وتعليقهم، وسوف نبرز عليها في مطلب الآتي في الإيجابيات والسلبيات.

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٩-١٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب: العتق، بَابُ: مَنْ مَلَكَ مِنَ الْعَرَبِ رَقِيْقًا، فَوَهَبَ وَبَاعَ وَجَامَعَ وَفَدَى وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ، رقم الحديث: ٢٥٤١.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٧١.

(٤) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (تاريخ الطبري)، ج ٢، ص ٦٠٤.

(٥) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٥-١١.

(٦) انظر: جمعة، علي، الغزالي ورؤيته المنهجية الفكر الإسلامي والإنساني (الأردن: المعهد الإسلامي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ص ٣٥.

المطلب الثالث: إيجابيات ومآخذ على كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي

لقد كتب الشيخ محمد الغزالي كتابه فقه السيرة بناء على العاطفة الجياشة والإحساس الطاهر والمحبة الفائقة تجاه النبي ﷺ، ومن ثم وقف على محطات حياته الشريفة لإبراز الملامح الدعوية ومعبرا عن القراءة الرواية إلى بيان الرسالة والمغزى لهذا التراث العظيم؛ ولا شك أن عمله كسائر الأعمال الإنسانية ينظر فيه الإيجابيات والمحاسن كما أنه لم يسلم عن بعض النقد، وإن كانت هذه لا تحط من جهده وسعيه؛ ويحسن بنا أن نبرز هذين الجانبين كالآتي:

١- الإيجابيات: لقد حظيت فقه السيرة لصاحبه الشيخ محمد الغزالي بالاهتمام الفائق بين الأوساط العلمية والدعوية وتلقاها بالقبول والاعجاب، وقدم لها أعلام من أهل العلم يكتبون عن مآثره وإيجابياته، وهكذا تعد هذا العمل الجليل في هذا الجانب منهجا ومسيرا للدعوة الإسلامية، ويحسن بنا في المقام أن نبرز أهم جوانبه:

١- الكتابة على أساس دافع الحب وبيان مآثر السيرة النبوية: إن من أهم مميزات هذا الكتاب أنها كتب على أساس دافع الحب الفائق تجاه النبي ﷺ ويحمل صاحبه تجاه مولاه نوعا من الإيمان والولوع والمسؤولية تجاهه كما يعترف بالتقصير الذي صدر من المسلمين تجاه هذا الإنسان الكامل وسيرته العظيمة.

ومن حسن حظ المؤلف أن كل هذه الأحاسيس والخواطر تجاه الرسول الأعظم جاء على مجاورة النبي ﷺ في المدينة المنورة، وعنه يقول: لقد بدأت بكتابة هذه الصفحات وأنا في الجوار الطيب للحبيب ﷺ في المدينة المنورة، ومن ثم أعنت على اتمام هذا البحث القيم الذي يكتب عن السيرة العطرة.

والملاحظ أن المسلمين رغم ما يعتقدونه من المحبة تجاه الحبيب ﷺ والذي لا يماري فيه المؤمن إلا أنها بحاجة إلى البيان والتهذيب، ويجب أن تبدل بمظهر الولاء له بعيدا عن الطقوس الظاهرية كما يفعله هؤلاء أثناء زيارة الروضة بالشوق واللهفة^(١).

ويضيف الباحثون كذلك أن هذه الكتابة جاءت وقد كان الغزالي رحمه الله في آخر عهد شبابه، وذاق قبله شخصيا السجون المظلمة في بلده في سبيل الدعوة، ولاقى المسلمون أثناءها النكبة الأليمة من فقدان القدس الشريف وكذلك تواطئ بلدانهم الأخرى تحت أقدام القذرة للصليبيين الجدد... ولا شك أن الكتابة بمثل هذا سيدفعه أن يسفر عن رسالة هذه السيرة العظيمة وطرح القراءة التقليدية التي لا تجدي بفائدة لقرائها^(٢).

٢- بيان المنهج الحركي للسيرة النبوية وارتباطه بالعصر المعاصر: لقد بدأ الشيخ محمد الغزالي يكتب فهمه وإداركه عن السيرة النبوية المباركة في ثوب الفقه والدروس المستفادة منها بحيث ينمي عند قرائها الرسالة لهذا التراث بالنسبة إليها، وهكذا ربطت هذا التراث بالعصر المعاصر واستلهم منها معاني هائلة عظيمة تصلح لأن تكون نسخة للإصلاح في كل زمان ومكان.

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٥-١١.

(٢) مخلوف، محمود حسن، فقه السيرة بين الغزالي والبوطي (بحث منشور على موقع المكتبة المفتوحة، www.arabicpdfs.com)، ص ١١٣

وبهذا يقول: إن المسلمين يقرؤون السيرة النبوية قراءة خفيفة بحيث لا تحرك القلوب ولا تثير الهمم، وجل ما يفعلونه أنهم يحبون ويقدمون لعظمة الرسول ﷺ بتقليد موروث مظهرها إياها بالألسنة أو عمل قليل لا تجدي بشيء، والحقيقة أن السيرة هي مصدر الاقتداء ومصدر للشرعة الغراء ومنبعاً لحقيقة الإيمان^(١).

ومن حسن أسلوب الشيخ الغزالي أنها جعل من السيرة النبوية المباركة منهجاً حركياً فعالاً ترتبط به المسلم كل الحين وتطبق مآثره على العصر الحديث، فعلى سبيل المثال يتطرق الغزالي عن أسلوب الرعية والحواشي تجاه ملوكهم وطغاتهم أنها أسلوب تأليه قديم فيقول: إن تأليه الملوك غواية قديمة، وقد أزيلت بالإسلام ولكنها عادت آثارها في حياة المسلمين وبدأوا ينادون أمرائهم بلقب "صاحب الجلالة"! وهكذا لا يسألون فعالهم، وفي المقابل يبطلون شرع الله بإتباعهم للهوى^(٢).

ويرى مفكرو الأمة أن التطرق إلى النصوص والسيرة بدون منهج النهضة ولا جعلها حركة دائبة تساوي بالجهل بها، وعن هذا يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: إن منهج هذا الدين هي الواقعية الحركية، وكل حركتها لها مراحل، وتسير كلها إلى غايتها بوسائل مكافئة، وبالتالي لا يقابل هذه التعليمات بنظريات بحتة مجردة ولا بوسائل عقيمة؛ وهكذا الذين يوردون النصوص بهذا الأسلوب هم يخلطون الأمور ويسيرون بمنهج مضل، وأساس كل ذلك أن هؤلاء مهزومون عقلياً وروحياً ومضطربون تحت الواقع اليائس لحالة المسلمين، وبالجمل لم يبق لهؤلاء إلا العنوان^(٣).

٣- استخراج القواعد الدعوية: لقد سار الشيخ محمد الغزالي في كتابه على نهج الدعوة وارتبط أحداث السيرة النبوية المباركة بهذه الفريضة بحجة أنها تاريخ لهذه المهمة الجليلة، وهكذا تعد كل محطة من حياة ودعوة الرسول ﷺ موقفه الشريف حكماً ومنهجاً للدعاة من بعده.

وقد جاءت مباحث الكتاب منهجاً وأصل لكل أركان الدعوة بدء من موضوعاتها، ومهام الداعي وأحياناً الحديث عن أصناف المدعوين مؤمنين كانوا أو معاندين، وكذلك التطرق للوسائل والأساليب التي تكمل هذه المهمة؛ ومن حسن براعة المؤلف أنه يرتبط الدعوة الإسلامية المعاصرة بتلك الدعوة، وقدم لتحدياتها أصولاً ومنهجاً من ذاك النبع الصافي.

ويرد الغزالي أحياناً على بعض المواقف التي يتخذها أصحاب الدعوة الحديثة، ويبين لهم أن تصحيح المسار بحاجة إلى المراجعة الصحيحة للسنة والسيرة النبوية، وقد يتسم الرجل كذلك في مهمته أنه يرى كل هذه الأحداث تفسيراً دعوياً، ويرى أن من أكبر نعم الله عليه أنه كلما يورد القول أو يفعل العمل يؤديه في صراحة بعيداً عن

(١) انظر: الغزالي، محمد، فقه السيرة، ص ٤.

(٢) انظر: السابق نفسه ص ٣٨٩.

(٣) انظر: قطب، سيد، معالم في الطريق، ص ٨.

المجاملة والغموض ، وبهذا هو يتجاوز أحيانا عن المواقف الحرفية إلى الموضوعية بحجة تصادمها مع الأسس والمبادئ الكلية للدين وأمر الدعوة.

وعن هذه الميزة يقول الباحثون: "إن فقه السيرة للغزالي هو فقه الكليات من القواعد العامة التي تضبط أطر الدعوة والجهاد والحكم والمعاهدات ومعاملة غير المسلمين"^(١).

وإن من أهم الدروس والفقه المستفاد للغزالي كما يصطلح له كذلك تحليل النماذج البشرية المتباينة للوقوف على أسباب غوايتها وطرق هدايتها، وكيف أثرت في هؤلاء الإيمان الصافي وتركية النفس واصلاح المجتمع وأخيرا نهضة الأمم؟، وقد بين كل هذه الملامح في شخصية الرسول الأعظم ﷺ ومن بعده في أصحابه البررة.

فمثلا يرى الغزالي في تحليل فترة سيرة الرسول ﷺ قبل النبوة أنه نشأ شبابه مع تمكنه لكل أسباب المتعة والشهوات، ولكنه كان يقظ القلب صاحبا بين السكاري والغافلين، وتفوق مع كل ذلك بقواه الروحية وصفاءه النفسي حتى وصلت إلى قمة محامد الأدب والاستقامة والقناعة^(٢).

و يصف الغزالي متابعي الحق في الرسالة بأوصافهم وهكذا يحلل كذلك كل حادث تفسيراً دعوياً، فمثلا يحلل بقاء أصحاب الرسول ﷺ في شعب أبي طالب بأنهم زودوا عن نبهم وكانت بناء على التجرد والتفاني في الحق بعيداً عن المنافع والمصالح الخاصة^(٣).

وبالجملة فقد جاءت مباحث الكتاب في جميع محطاته مصبغا برسالة الدعوة، وما من صفحة إلا وتفوح منه هذه الرائحة.

وقد يحكم العلامة الدكتور يوسف القرضاوي رحمه الله على هذه المسيرة قائلاً: ومن تفحص هذا الكتاب القيم وكذلك التعليقات والوقفات وراء هذه الأحداث منذ بدء حياته ﷺ ومن ثم في بعثته لتعد مباحثاً للدعوة والجهاد والمصابرة وهكذا كل مرحلة منها من بناء الفرد إلى تأسيس المجتمع المدني ليجد فيه القارئ عقلية مدققة لمؤلفه، وكذلك القلب المحب والمؤمن وآخرها الروح الداعية المحلقة والذي يحيا في السيرة بل تحيا فيه السيرة^(٤).

٤- السيرة على منهج توضيحي كامل: إن من حسن براعة الغزالي في تصنيفه كذلك هو وجود منهج واضح بعيد عن الغموض، ويسير عليه في تعامله مع الأحداث والموضوعات التي يطرحها، وبذلك صان كتابه في أكثر من موضع عن التهم والنقد الذي يوجه إليه بحجة أنه بين الغرض والمنهج الذي سار عليه في مقدمة كتابه بحيث جمع بين خيرى طريقتي القديمة والحديثة، ومن ثم جاءت مباحثه متناسقة.

(١) انظر: مخلوف، محمود حسن، فقه السيرة بين الغزالي والبوطي، ص ١٢٩.

(٢) انظر: فقه السيرة، ص ٧٧. و مخلوف، محمود حسن، فقه السيرة بين الغزالي والبوطي، ص ١٢٢.

(٣) انظر: فقه السيرة، ص ١٢٦.

(٤) انظر: القرضاوي، يوسف، الشيخ الغزالي كما عرفته - رحلة نصف قرن، ص ١٥٠.

وأما منهج التعامل مع النصوص في باب الاستشهاد على الحوادث وإن لم يستسلم من النقد إلا أنه بينه بالصراحة كما يعتقد أنه نعمة من الله عليه، ومن ثم يذكر أنه ليس بدعا في هذا المجال، وقد سبقه فيه أعلام أجلاء من المحدثين والفقهاء في ذلك.

٥- وضع مقدمة تمهيدية عن النبوة وختم رسالته ﷺ: لقد بدأ الغزالي كتابه بمقدمة ثرية وشاملة لحالة البشرية أثناء بعثة رسالة الإسلام وبما فيها من الغواية والضلال، ومن ثم تحدث عن طلوع فجر الرسالة الخاتمة عليهم، وأثبت أن هذا يستغنيهم عن إرسال الأنبياء عبر العصور، وتحدث بأن حفظ رسالته تتمثل كأنها ملك كريم يتحرك بين البشرية فيما بقيت الحياة على هذه المعمورة.

ولقد بين الغزالي هذا الغرض بأمثلة حية وبأسلوب مقارن ومثال توضيحي فيقول: لقد جاء النبي محمد ﷺ كرجل رشيد بين الناس ورسم لأمته خط مسيرته مع حذر مواطن الخطر، وهكذا سار معهم قليلا ليديرهم حتى أصبحوا أولئك رواد أنفسهم يستطيعون الاستغناء عنه، وآثروا بدله التفكير والبصر بأنفسهم؛ وهكذا عمل الرسول ﷺ ليس جري الناس إلى الجنة بحبله بل عمد إلا أن يقذف البصر في الضمير لكي يرى الحق، وقد كانت وسيلته في ذلك الكتاب الحق المحفوظ من الزيغ والانحراف؛ وهي سر خلود هذه الرسالة^(١).

وفائدة اتیان هذه المقدمة التوضيحية تجعل القاريء مرتبطا بموضوع الرسالة فضلا عن رؤية اثر هذه الرسالة الخالدة على النفوس الإنسانية والتي هوت إلى الهاوية منذ زمن بعيد. ومن محاسن الغزالي كذلك في مهمته هو تسجيل اعتذاره عن التقصير في الموضوع بحجة أن هذا العمل هي مهمة جلية وعمل عظيم يحتاج السير معه إلى نفسية عالية وذكاء قوي.

٢- المآخذ على كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي: إن كتاب فقه السيرة مع ما حظي بها من المحاسن والإيجابيات الموضوعية والفنية وكذلك الأسلوب لم تفلت من المآخذ وشيء من السلبيات بحجة أنها عمل إنساني معرضة للخطأ والنسيان وترك الأمثل، وبالتالي أخذ عليه هذه، وإن كانت الآراء والوجهات اختلفت عليه بين مؤيد ومعارض؛ وجملة هذه النقود لا تساوي في مقابل الإيجابيات التي يملكها، ويحسن بنا أن نشير إلى بعضها:

١- إهماله لبعض الأحداث والمواقف: لقد تتبع الغزالي رحمه الله فقه أحداث السيرة النبوية المعاصرة بناء على التتبع الزمني، وإن كان عنوان تبويبه على أساس الموضوعات، وسار في ذلك أشواطاً إلا أنه فات منه بعض الأحداث في كل مراحل السيرة النبوية من قبل البعثة وبعدها في فترتي المكية والمدنية، ولا شك أن لكل هذه الأحداث فقهها ودروسا دعويا بليغة كما نهج عليه الرجل في باقي الكتاب.

(١) انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ٢٣-٢٤.

فعلى سبيل المثال ترك الغزالي قصة دار الأرقم بن أبي الأرقم و اشتغاله ﷺ بالرعي لأهل مكة وكذلك بعض التفصيل في بعض الغزوات التي مارسها النبي عليه الصلاة والسلام ولكل هذه الوقائع أهمية ودروس دعوية يستفيد منه القراء والدعاة على حسابهم.

وقد يشفع للغزالي اعتذاره وبيان تقصيره في بيان السيرة النبوية حيث لجأ القول بأنه عاجز عن إيفاء الموضوع بشكلها الكامل بحجة أنها تراث عظيم بالغ الأهمية.

٢- عدم التوثيق لبعض الأحداث: لقد اتسمت كتابات السيرة النبوية المعاصرة إلا الجانب الروائي منها بخلو الاسناد والتوثيق في أغلب الأحوال؛ وبالتالي يرجعون أو يعتمدون على كتب المصادر والمراجع في هذا الجانب وتلك هي ميزة غلبت على أكثر المؤلفات منذ زمن بعيد.

وعن هذا يقول الباحثون: لقد غلبت على كتب السيرة النبوية منذ بدء القرن الخامس الهجري مجانبة التحديث والرواية واختار بدلها منهج الرجوع إلى المصنفات والكتب المؤلفة في هذا الجانب وكذلك الاعتماد على اسنادات الأولية من هذه المصنفات، وعلى هذا ينظر إلى مدى صحة وقوة هذه الكتب اعتمادها ورجوعها إلى نوعية المصادر؛ فمنها ما تلقاه العلماء بالقبول ومنها ما هو مواجه بين القبول والرد^(١).

ولسوف يرى القاريء غلبة هذه النزعة في فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، ولكن الرجل أحيانا يذكر الروايات في بعض القضايا بحجة الاستشهاد لبعض الأحكام، وقد قام العلامة المحدث ناصر الدين الألباني بتخريج أحاديثه والحكم على الروايات في طبعاته بعد الأولية، وقد زود الغزالي عليها ببعض التعليقات في مقدمة كتابه مع ايضاح المنهج المتبع والذي سار عليه، وشكر الأستاذ المحدث على هذه الخدمة الجليلة.

٣- توجيه النقد لمنهج الغزالي في كتابه: لقد واجه منهج كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي للنقد اللاذع من قبل خصومه، وعد ذلك العمل بدعة منكرة مخالفة للمنهج النبوي السوي والمخالف لاستنباط الأحكام، وفي المقابل قام عديد من المفكرين والعلماء بالدفاع عنه مزودين عنه بأنه منهج نابع عن الاخلاص والمحبة تجاه الدين، وهكذا فليس الغزالي بدعا في هذا المجال بل سبقه في ذلك أعلام أجلاء من الفقهاء قديما وحديثا.

ولقد تطرقنا إلى منهج الشيخ في المطلب السابق، وعن هذا يقول الغزالي في مستهل كتابه قائلا: ولست بدعا في تلك الخطة التي اخترتها، فإن أغلب العلماء والفقهاء جرى على مثلها في مواجهة المرويات الضعيفة والصحيحة على السواء، وقد ذهبوا أن الأثر الضعيف يعمل به ما دام ملائما مع الأصول العامة والقواعد، وهذه الأصول والقواعد مستفادة بداهة من الكتاب والسنة.

وأما بالنسبة في أمر الصحاح فإن في تفاوت دلالتها مجالا رحبا للترجيح والرد، وما من إمام فقيه إلا رد بعض ما صح ايثارا لما ظهر أنه صح^(٢).

(١) انظر: السلمي، محمد بن صامل، مسائل في منهج دراسة السيرة النبوية، ص ٩.

(٢) انظر: فقه السيرة، ص ١١-١٢.

ومجمل هذا النقد الذي يأتي على الشيخ في هذا الكتاب وغيره كما يقول العلامة الدكتور قرضاوي رحمه الله تتمثل في رده لبعض الأخبار الصحيحة من السنة الأحادية... ولم يأت رفض الغزالي للعمل بهذه الأحاديث بناء على الضعف في عقيدته ولا انكارا للسنة ونقصا في قيمة الوحي، بل بحجة أن العلمانيين سيجدون منها ثغرة على النيل من الإسلام والتشكيك في أحكامه، وهكذا جاء هذا الدفاع عن الإسلام أمام أطماع الكائدين^(١).

وقد يرى الباحثون كذلك أن الغزالي لجأ لمثل هذا الموقف بناء على رؤية بعض مظاهر الخلل في التعامل مع أحاديث النبي ﷺ، وهي في الحقيقة تعد اساءة لأحاديث الرسول ﷺ.

ومن هنا فقد لجأ الرجل دافعا بوضع حزمة من الضوابط المرتبطة بنقد الآثار في شقيه السند والمتن، وإن كان التركيز الأول على فهم المتن ونقده؛ ولكنه لا ينسى نقد السند^(٢).

وعن هذه المهمة يقول: إن السلف صرفوا أكثر جهدهم بسند الأحاديث، وبذلوا سعيهم الحثيث على معرفة أحوال الرجال ولم يهتموا كاملا في مقابلتها بالمتون ولا تمحيصها... وهذا خطأ بحجة أن الإهتمام بالأول بغية أنها مقصودا لغيره، وهكذا لا تجيء صحة الأحاديث من عدالة الراوي فحسب بل أنيط قبل كله أن يكون منسجما مع الحقائق اليقينية للدين، وبالتالي تخرجه الشذوذ والعلة عن نطاقها الصحيح؛ وينبغي أن يدرك كذلك أن الحكم على الحديث لا يجوز أن يكون على الهوى بل يخضع العملية لقواعد فنية محترمة لجأ إليه الأولون^(٣).

وقد رأى الغزالي كذلك بنقد متون الحديث في ضوء آيات القرآن الكريم أساسا لمحاكمة صحته، وقد سبق أن مثلنا له في منهجه، وهكذا يضعون الأحكام على وفق منهج عظيم، فكانوا يعتمدون على القرآن بداية، وإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه وإلا فالقرآن أولى بالاتباع^(٤).

وقد يذكر القرضاوي رحمه الله مشكلة هذا المنهج الذي سار عليه الغزالي حاسبا أولئك مقصرا في هذه المهمة فيقول: لقد أسرف الغزالي في رد بعض الأحاديث الصحيحة، وقد كان يمكنه أن يؤولها على معنى مقبول، وفي هذا الصدد هاجم على بعض الفئات حتى أن وصفه لهم جاءت بألفاظ مثيرة وخشنة، ومن مزالقه أيضا أنه استعجل في صدور بعض الأحكام والأحرى أن تأتي على الدقة والتحقيق الفاحص... وجمله ما نقوله عنه: فقد أخطأ الرجل في بعض آرائه، وهو بذلك ليس بمعصوم، ولكننا في جانب آخر نتق به ولا نتهمه في دينه ولا علمه، ولا نغمض أعيننا عن جهاده الطويل وسعيه لنصرة الإسلام. وقد ثبت عنه إيمانه بحجية السنة كما دافع عنه في مواجهة الشاكين والمجتريين عليها، وهكذا دوما يستشهد به قوليا وفعليا وتقريراً.

(١) انظر: القرضاوي، يوسف، الشيخ الغزالي كما عرفته - رحلة نصف قرن، ص ١٥٩.

(٢) انظر: سعيد، عبد الجبار، الغزالي ومنهجه في التعامل مع السنة النبوية (الأردن: المعهد الإسلامي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، ص ٧٧.

(٣) انظر: الغزالي، محمد، ليس من الإسلام (بيروت: دار الشروق، ط ٦، ب ت ط)، ص ٣٥.

(٤) انظر: الغزالي، محمد، السنة النبوية بين أهل الفقه .. وأهل الحديث (بيروت: دار الشروق، ط ٦، ب ت ط)، ص ١٧-١٨.

وأما ما جاء لرفضه لبعض الأحاديث بناء على اعتبارات دينة وعلمية وعقلية فلم تكن على أساس الهوى ولا لاحتقاره للوحي والرسالة؛ وهكذا ما من إمام إلا ورفض بعض الآثار المثبتة عند الآخرين لأخبارات رآها يرفضه غيره^(١). وبالجملة فإن الغزالي قد نهج في عرضه لروايات السنة النبوية في فقه السيرة وغيره من المباحث منهجا لم يكن هو مبدعه، بل أخذ هذه الأمور لاعتبارات علمية ودينية ونابعا عمله من الإخلاص والوفاء للدين، وكذلك دفعا للشكوك وازاحة الغبار والإثارات عن هذا الدين باعتباره ابنا بار له؛ وقد أصيب الرجل في بعض مساعيه كما أنه انزلق في بعضه، ولا نحسبه إلا مجتهدا يصيب ويخطئ؛ يقبل منه صوابه ويشكر على اجتهاده وإن كان خطأ.

المبحث الثالث: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

تعد استخراج فقه الدعوة من دراسات السيرة النبوية المباركة من المجالات الجديدة التي وجدت في هذا العلم، وقد تنبه لها نفر غير قليل من أهل العلم والفكر في العصر المعاصر؛ وذلك في تجديد عرض هذا التراث القيم بعد إثارته والتشويه من قبل المستشرقين المعاندين للإسلام ورسالته.

ولم يكن هذا العمل على وتيرة واحدة بل سار كل علم طبق منهجية خاصة، وهي تعد مجالا خصبا وثرى عن دراسات السيرة النبوية؛ وبرز بين هذه المجموعة اسم الدكتور البوطي رحمه الله بكتابه القيم "فقه السيرة" حيث أخرج منها دروسا وقيما بليغة في الدعوة والتبليغ.

ويحسن بنا في ختام المطاف أن نبرز أهم المعالم عن هذا الكتاب في أهمية موضوعه ومنهجه وكذلك الوقوف على إيجابياته ومآخذه في مطالب تالية:

المطلب الأول: أهمية السيرة النبوية في حياة الدعاة

تبرز أهمية السيرة النبوية في حياة البشرية والمسلمين عامة بناء على البداهة التي تجلت من هذا النبع الفياض والنور الإلهي، وبهذا يجدون كل الفئات بضاعتهم المنشودة فضلا عن الهداية والتوجيه والأسوة التي أنيطت بها.

ولكن أخص هذه الأهمية تبرز في حياة الدعاة والموجهين حيث يأخذون هؤلاء من محطاتها قبسات يستفيدون منها في مسيرتهم؛ وهكذا فالسيرة هي مسيرة دعوية كاملة للنبي ﷺ حيث اكتمل فيها كل موضوعات الدعوة من العقيدة والسلوك وسائر التشريعات المدنية والجنائية وغيرها من الأنظمة، وبرزت في مرحلتها الدعوة المكية والمدنية ملامح شخصية الداعي ومدى تعامله مع أصناف المدعوين المذعنين والمعاندين وكذلك الوسائل المتاحة والأساليب المناسبة لكل البيئات والمجتمعات حتى أينعت ثمار هذه الجهود المباركة ودخل الناس في دين الله أفواجا؛ ولقد وقف العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في مستهل مقدمة كتابه على أهمية السيرة النبوية؛ وسوف نبرز أهم جوانبها كالاتي:

(١) انظر: القرضاوي، يوسف، الشيخ الغزالي كما عرفته - رحلة نصف قرن، ص ١٨٨.

١- السيرة النبوية نموذج حي للتعليم والتربية: لقد بعث النبي ﷺ في مهمته الدعوية معلما ومربيا وقدم لأمتة علما وتربية يخرجهم من الضلال والغواية التي كانوا عليها منذ أمد بعيد، وهكذا استنارهم في هذه المدرسة العظيمة التي كان يشرف عليها بأساليب رفيعة وطرائق مناسبة لكل فئات البشرية، وقاعته فيها كل الأمكنة المتاحة له؛ وكان يعلمهم في المسجد والسوق وميدان القتال وبيته وغيره غير محددين وملتزمين بوقت معين.

وقد علمهم كذلك بأن التربية والتعليم هما أساس الدعوة والقيادة التي ميز بها هذه الأمة العظيمة، وأنهم لن يمكنوا الوصول إلى غايتهم إلا بهما، وعن هذا يقول الباحثون: الرسالة في حقيقتها هي منهج تربية ربانية التي قدمت الإنسانية بواسطة الرسل الذين يصطفاهم الله من بين عباده لتبليغ ما أوحى إليهم، وكانت مهمتهم إرشاد الناس للإيمان وحسن معاملة بعضهم البعض.

وبناء على هذا فالرسول ﷺ كان بشر كامل الإنسانية في كل مراحل حياته منذ مولده إلى وفاته، وقد كملت فيه كذلك جميع الخصائص العقلية من الذكاء والفطنة إلى جنب كماله الأخلاقي... وقد أمر مع كل هذا بتبليغ رسالته والعمل بها والدعوة إليها وتنشئة الأفراد عليها^(١).

ومما لا شك فيه أن هذه المهمة العالية بحاجة إلى التفنن واختيار الطرائق المناسبة حتى تبلغ غايتها، وقد كانت السيرة النبوية ﷺ نموذج حي لها، وعنهما يقول الدكتور البوطي رحمه الله: تهدف السيرة النبوية كذلك أن يقدم للمعلم الداعية نماذج حية عن طرق التعليم والتربية التي مارسها النبي محمد المعلم المربي والناصح الفاضل والذي لم يأل جهدا في هذه المهمة خلال المراحل المختلفة للدعوة الإلهية، وهكذا نجد فيها أجدى هذه الطرق المناسبة^(٢).

٢- السيرة النبوية مصدر ثري لتعليم الدين والمعين على فهمه: تناط قيام أمر الدعوة إلى الله والممارسة فيها بالفهم الدقيق والشامل عن الدين وإدراك مقاصد الشريعة الإسلامية وكذلك معرفة غاية الحكم التي جاء بسببها هذا الخطاب؛ وما أكثر الخلل التي تعترى في مهمة الدعوة إلا وهو ناتج عن القصور في معرفة أسباب الحكم أو عدم التنبه للفكر المقاصدي فيها؛ وحينئذ تكون النتيجة معكوسة فيضر هذه الدعوة وأصحابها.

ومن هذا المنطلق يرى العلماء أن السبيل إلى ذلك إلى جنب باقي الشروط التحلي بالمعرفة الشاملة عن الإسلام، ولا يتيسر ذلك إلا أن تدرس السيرة النبوية المباركة بدقة، ويعرف بطريقها أسباب النزول والورود التي لجأ النبي ﷺ ببيان مرد الشرع تصريحا أو تلميحاً لأمتة.

(١) انظر: الهاشمي، عبد الحميد، النبي العربي المربي، ص ٦٥.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٠.

وعن هذا يقول البوطي رحمه الله في أهمية هذا العلم: إن الدارس للسيرة النبوية ﷺ ليجد من خلالها معينا على فهم القرآن الكريم، وكذلك يدرك روح الشريعة ومقاصد الحكم، وهكذا أنيطت فهم أكثر الآيات وتفسيرها بمعرفة السيرة النبوية ﷺ؛ وذلك لأن هذه الأحداث تجلي الحكم المقصود والتي مر بالنبي عليه الصلاة والسلام^(١).
ويضيف الباحثون كذلك: أن السيرة النبوية لها معين حقيقي لفهم كتاب الله وذلك لأنها هي المفسرة لمراد القرآن الكريم في الجانب العملي، وهي معها تعد ميدانا لمعرفة أسباب النزول في جانب، وتفسير لكثير من الآيات في جوانب عديدة من معرفة الأحكام وإدراك أصول السياسة الشرعية، وكذلك الوقوف على معرفة الناسخ والمنسوخ واستنباط المقاصد السامية للدين^(٢).

ويستلخص من الفقرتين السابقتين أن السيرة النبوية ليست مجرد أحداث أو وقائع مر بها النبي ﷺ، بل هي مع جانب فيضها تعد معينا أساسيا لمعرفة الدين وأحكامه ومقاصده السامية، وهكذا فهذا العلم يدلنا على تعلق خطاب الشرع نحو المخاطبين ويبين كذلك هدف الوحي وغايته التي لأجلها جاءت على لسان نبي القرآن وأفعاله التي يرى في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣- السيرة النبوية دليل على صدق الرسالة: احتفلت السيرة النبوية المباركة على عديد من المميزات حيث تجعلها في صدر كافة التواريخ البشرية من حيث الصحة والمحتوى، وبالتالي يجعل المسلمين يطمئنون ويقبلون عليها باللهفة والرحبة، ولعل من أكبر آثارها في حياة الدعاة أن قراءتها وحدها دليل كاف على صدق رسالته للرسول ﷺ؛ وذلك لأنهم هم الوارثون لرسالته العظيمة في تقديم الدعوة والتبليغ للناس، وهم بحاجة بطبيعة الحال إلى تقديم دليل على صدق مدعى الرسالة المحمدية والتي بعث الله لأجله محمدا عليه الصلاة والسلام.

وعن هذا يقول البوطي رحمه الله: إن استدراك شخصية الرسول ﷺ في مهامه من خلال تتبع حياته وظروفه الذي عايشه دليل كاف على صدق رسالته، وأنه قبل كل شيء نبي ورسول اختاره الله لوحيه ومن ثم أيده بتوفيق وتأييد منه^(٣).

ولقد جاءت هذه الفقرة بناء على إحدى البواعث الذي يكتب عنه البوطي حول السيرة النبوية وهي زيغ فرية المستشرقين الذين يقومون بدراسة هذا التراث القيم بناء على أنه تاريخ عبقرى من عباقرة التاريخ، ومن ثم يهملون جانب عظمة الرسالة الإلهية فيها، وقد أفاض في ثنايا الكتاب بحوثه حول هذه القضية.
وأما عن مدى مظاهر صدق هذه الرسالة في سيرة خير البشرية فيقول عنها الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله قائلا:

(١) انظر: السابق نفسه، ص ٢٩.

(٢) انظر: اليحيى، يحيى إبراهيم، مدخل لفهم السيرة النبوية (بيروت: دار الشروق، ط ٦، ب ت ط)، ص ٤.

(٣) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٩.

إن هذه السيرة هي تاريخ إنسان كامل سار في مهمته من ظفر إلى ظفر، ولم يكن ذلك على أساس خوارق الأفعال ولا معجزها، بل سلك فيها منهاجاً طبعياً خالصاً، وقد بدأ دعوته فأوذي ومارسها حتى أصبح له أتباع وأنصار، وحينما اضطر إلى المعركة حارب، وكانت في شخصيته قيادة حكيمة وحنكة، وظل يمارسها حتى وفاته، وكانت من ثمار دعوته مع قصر المدة التي استغرقها هي اذعان الجزيرة العربية كلها بالإيمان دون القهر والغلبة، وهكذا لم يكن كفتاً في أية معركة لأعدائه الذي انتصر عليهم من ناحية العدد والعدد... وكل هذا توحى بأنه رسول الله الحق وأنه مرسل ومؤيد من الله عز وجل^(١).

٤- السيرة النبوية نموذج رائع للدعوة الإلهية: اتسمت الدعوة الإسلامية بالشمولية والكمال، وما من مناحي الحياة الإنسانية إلا وقد جاء الإسلام لها بتوجيهات ربانية رفيعة وحل مشاكلها بأمثل طريقة تناسب كرامة هذا الموجود ويستغنيهم عما سواهم، وهم الذين ينحازون بطبيعة الحال لولا أن كانت هذه الدعوة إلى طرف الغلو والتفريط فيفسد حياتهم كما هو الملاحظ في تاريخهم.

ولقد بعث النبي ﷺ في ظل هذه الحقبة والتي كانت البشرية تنن فيها تحت وطأة الجبروت والضلالة فأمسكهم بأيديهم كما يمسك الوالد الرحيم طفله، وأرشدهم إلى ما فيه صلاح دنياهم ومآل أخراهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وما من مجال الحياة إلا وقدم لهم نموذجاً ودليلاً شاملاً يكفيهم كل حين، وهذا ما أوصاهم إليهم في آخر عهد لهم في خطبته الشهيرة بحجة الوداع.

ولم يكتف النبي ﷺ في دعوته بالقول والتوجيه فقط بل كان في حياته وسيرته الشريفة نموذجاً رائعاً لهذه الدعوة السامية والتي تشمل جميع مناحي الحياة الإنسانية من مادية ومعنوية، وعن هذا يقول الدكتور البوطي: فحياته ﷺ تعد نموذجاً رائعاً للدعاة والشباب المسلمين من استقامة الحال والتعامل مع القوم والأصحاب، وكذلك في تقديم أمر الدعوة وما اشتمل عليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وهكذا صورة للقائد والسياسي البار في تدبير الأمور على أساس الحكمة البالغة وكذلك مرآة للحياة الزوجية المثالية وحتى في القيادة الحربية الماهرة، ولم يدع حتى المغامرة والفكهة اللطيفة مع أصحابه وأهله^(٢).

٥- السيرة النبوية هي التطبيق العملي للحقيقة الإسلامية: عرفت أحكام الديانة الإسلامية مع مثالياتها الرفيعة تمكناً إلى واقعية عملية حيث تظهر في حيز الوجود تاركاً أثرها في حياة الناس، وبالتالي تبرز الحقيقة الإسلامية في جانبها العملي التي طالما يدعوا إليها الإسلام بالكلمة؛ فيرى الناس مظاهرها وتطبيقاتها الأمثل بعيداً عن النظريات البحتة والتخيل الذي عرفت بها الفلسفات الوضعية في تاريخ البشرية.

ولقد كانت السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات والتسليمات هي التطبيق العملي للدين الإسلامي ومظهرها لامتناهات أحكام الله على الوجه المطلوب، وهكذا كلما كان يدعو إلى الشيء فيكون أول المطبقين له، وحينما كان

(١) انظر: السباعي، مصطفى بن حسني، السيرة النبوية دروس وعبر، ص ٢٠-٢١.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٠.

يطلبون من الناس التجسيد والصورة العملية للإسلام أو القرآن التطبيقي كانوا يرون إلى النبي ﷺ وإلى أفعاله الطيبة، وكانوا بهذا يفهمون مغزى أو حقيقة الدين والتي كانت تعجز عن ادراكها في الصورة النظرية في اطار الأحكام والأوامر والنواهي.

وبهذا الصدد روى أصحاب السنن أحاديث توحى بأن الرسول ﷺ هو القرآن المتجسد بين المسلمين؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن سعد بن هشام، (قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرِيْنِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنَ)^(١).

وعن هذه المهمة يقول البوطي رحمه الله: والهدف الأساسي من السيرة النبوية أن يدرك المؤمن الحقيقة الإسلامية الكاملة والمتجسدة في الحياة الشريفة للنبي ﷺ، وقد بين له بادي الأمر أحكاما وقواعد مجردة في الذهن، وما السيرة النبوية إلا تجسيدا للحقيقة الإسلامية الكاملة والتي مثلت في سيرته عليه الصلاة والسلام على الوجه المطلوب^(٢). وأما عن ظهور هذا الجانب من السيرة في أمر الدعوة فإنه يمكن الدعاة إلى الله بأن ينالوا في دعوتهم مكسبا، ويُرى الناس والمدعويين بأن ما يدعون إليهم ليست نظريات تخيلية بعيدة عن الواقع كما هو المأمول في الفلسفات السائدة الوضعية، ومن هنا فيقبلون الجمهور على دعوتهم ويتأسون على هذه الحقيقة الرفيعة التي طالما ينظرون إليها بعين المثالية المجردة بعيدة عن الواقع، وفيها رسالة عظيمة كذلك بأن هذه الرسالة هي نسخة الله الأزلية الخالدة لاصلاح البشرية.

وبالجملة فإن السيرة النبوية المباركة هي ميدان حافل لدعاة الحق من ناحية المنهج والموضوع والوسائل والأساليب، وأن كل من اغترف منها فإنه سينال نصيبه من السعادة ويجعل عمله مثمرا عظيما بعيدا عن الفشل والتساقط.

المطلب الثاني: المنهج العلمي في دراسة السيرة النبوية

المناهج العلمية هي سلم المعرفة والطريق الموصل إلى ادراك حقيقة الأشياء على وجهها المطلوب، ويصون الباحث والكاتب عن التشطط والتفقد في مباحث العلم الذي يشبه البحر اللجي، وكلما كان المنهج سليما تكون الباحث موفقا في موضوعه وعرضه ويكون سالما كذلك من التهم والنقد الذي يوجه إلى أصحابها في أكثر الأحيان؛ وهكذا جاء العصر الحديث ومن أهم خصائصه انطباع مباحثه بالمنهجية والتي ظهرت في طابعها الجديد متأثرا عن الفكر والثقافة السائدة على مجتمعاتها.

ولقد برز هذا الطابع على دراسات السيرة النبوية المباركة في العصر الحديث؛ وذلك بعد ما كان مستقرا في قرون عديدة بمنهج موضوعي ثابت بعيدا عن الانخراط في قضايا معقدة ومعرضة للنقد والتهم. وعن هذا يقول الباحثون: لقد بدأ كتابة السيرة النبوية في وقت مبكر من تاريخ الإسلام حيث تعود تاريخها إلى أخريات القرن الأول الهجري،

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنه، رقم الحديث: ٢٥٣٠٢. المسند بتحقيق شعيب الأرنؤوط، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٩.

وظهر بين التابعين أعلام اجلاء مثل أبان بن عثمان بن عفان (٣٢هـ-١٠٥هـ)، عروة بن الزبير (٢٣هـ-٩٣هـ)، وعبد الله بن أبي بكر الأنصاري (ت ١٣٥هـ)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥٠هـ-١٢٤هـ)، وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (ت ١٢٩هـ) وغيرهم، وقد كان طريقتهم المعتمدة في ذلك هو المنهج الموضوعي في كتابة التاريخ أي سرد وكتابة ما هو ثابت منها طبق قواعد معتمدة، واستفادوا في هذا الصدد من قواعد علم مصطلح الحديث المرتبطة بسند الحديث ومتنه وكذلك من أصول علم الجرح والتعديل في دراسة الرجال وأحوالهم. وأهم ما يذكر عن هذا المنهج أنهم في نهاية عملهم بعد تلقي الأخبار والروايات بالقبول كانوا يقفون عندها ولا ينضمون إلى ذلك آراءهم وتعليقاتهم المنبثقة من أفكارهم وتصوراتهم النفسية وكذلك انطباعاتهم المؤثرة من ثقافة عصرهم وبيئتهم.

وأساس هذا العمل أي تقديم التاريخ وصفا كما هو بعيدا عن الآراء والأفكار تتفق مع القواعد والأمانة العلمية، وكانوا يحسبون الزيادة عليها خيانة وذنبا لا يغتفر؛ بيد أنهم كانوا يرون أن عملية الاستنتاج وإخراج الأصول والمبادئ منها عمل آخر لا شأن له بالتاريخ^(١).

وقد استمرت مدارس ومدادولة وكتابة التاريخ والسيرة النبوية عبر القرون والأجيال على هذا المنهج، وكتب أعلام أجيال كتباً وموسوعات تشار إليها بالبنان، وتعد هذا فضلاً على الحضارة الإنسانية إلا أن القرن التاسع عشر للميلاد كان فاصلاً في هذا الجانب حيث برز مناهج واتجاهات جديدة على أرض أوروبا تدعو لتجديد مناهج العلوم وتيسيرها للقراء، إلا أنها أضرت في أكثر الأحيان وخرجت عن الموضوعية والإنصاف.

ويقول الدكتور البوطي رحمه الله: إن هذا المنهج والمسمى بالعلمي في أصلها منبثق عن المذاهب الذاتية، ويعيد فرويد^(٢) من أكبر دعائها ومتحمسيها. وخلاصة منهج هؤلاء في التاريخ: أن تضاف إلى سرد الحوادث النزعة الذاتية والاتجاه الفكري والسياسي للمؤرخ ويفسر الحوادث ويعلل... وهي في نظره واجب المؤرخ تجاه مجتمعه وإلا سيبقى مهمته وقائع عارية لا جدوى من وراءها.

وقد ظهرت بوادر هذا الفكر المستعمر بدءاً في الديار المصرية حيث كانت آنذاك بمثابة منبر العالم الإسلامي، وبالتالي تسلسل هذه النزعة لبعض أبنائها وهم الذين ذهب أبصارهم ببريق مظاهر النهضة العلمية الحديثة؛ فنادوا

(١) انظر: جمال الدين، محمد سعيد، وعبد الله محمد جمال الدين، مناهج البحث والمصادر في الدراسات الإسلامية والعربية (إسلام آباد: دار الصدق، ط ١، ب ت ط)، ص ١٤٢. السباعي، مصطفى بن حسني، السيرة النبوية دروس وعبر، ص ٢٨.

(٢) سيجموند فرويد (١٨٥٦م-١٩٣٩م): رائد المنهج النفسي وفيلسوف يهودي ولد في تشيكوسلوفاكيا من والدين يهوديين. دخل الجامعة عام ١٨٧٣م وعُقب على ذلك بأنه يرفض رفضاً قاطعاً أن يشعر بالدونية والخجل من يهوديته. لكن هذا الشعور الموهوم بالاضطهاد ظل يلاحقه على الرغم من احتلاله أرقى المناصب. في سنة ١٨٨٥م غادر فيينا إلى باريس وتعلم على شاركو Charcot مدة عام حيث كان أستاذه هذا يقوم بالتنويم المغناطيسي لمعالجة الهستيريا وقد أعجب فرويد به عندما أكد له بأنه في حالة من حالات الأمراض العصبية لا بد من وجود اضطراب في الحياة الجنسية للمريض. انضم عام ١٨٩٥م إلى جمعية بناي برث أي أبناء العهد، وكان حينها في التاسعة والثلاثين من عمره، وهذه الجمعية لا تقبل بين أعضائها غير اليهود. كان يعرف تيودور هرتزل الذي ولد عام ١٨٦٠م، كما سعى معاً لتحقيق أفكار واحدة لخدمة الصهيونية التي ينتميان إليها، مثل فكرة معاداة السامية التي ينشرها هرتزل سياسياً، ويحللها فرويد نفسياً. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ج ٢، ص ٨٢٢.

بالادعاء الخطير وهو خضوع الدين لمقاييس العلم، وهكذا رأوا أن الغرب لم تخط مدارج الرقي إلا بعد أن استسلموا الدين للعلم، ولو أراد العالم الإسلامي تحقيق هذه الأمنية فعليه أن يسلك نفس المنهج ويخلص الفكر الإسلامي من سيطرة مفاهيم الغيبيات التي لا تفهم ولا تخضع لأسس العلم الحديث.

وقد ظهرت على إثر هذه الدعوة شعارات الإصلاح الديني وكانت في ضمنها تطوير كتابات السيرة النبوية وفهمها على منهج جديد، ومن ثم تحليلها بالواقعات بعيدا عن التطرق إلى نطاق الغيبيات والخوارق والمعجزات، وهي التي لا يبحث العلم الحديث فيها^(١).

وبالفعل بدا يطرأ هذا على كتابات هذا الجانب من الدين تغيرات ملموسة بحيث يوردون كل ما هو مألوف أو معمول به بالعقل ويخرجون كل ما هو يتعلق بالخوارق أو المعجزات، وهي التي حيزت جزء أكبر في تاريخ الرسالة الإلهية، ولو أزعنا ذلك لما كان للرسالة أية تميز يميز الرسول ﷺ.

نعم؛ لقد أضاف هؤلاء في بحوثهم للسيرة النبي عليه الصلاة والسلام صفات العظمة والعبقرية والبطولية، وحسبوا عملاقا ذو صفات حميدة، وكذلك مصلحا اجتماعيا قام بتغيير الأسس البالية للمجتمع المنهار.

وللأسف لم يقدّم لهذه المهمة الخطيرة المستشرقين المعاندين فحسب بل انضم إليها بعض المغترين بهؤلاء وكذلك أعلام أجلاء في الأمة الإسلامية وباتوا يكتبون كتبهم على هذا المنوال، ومن ضمنهم حسين هيكل في كتابه "حياة محمد"، وكذلك محمد فريد وجدي^(٢) في سلسلة مقالاتها بمجلة "نور الإسلام" تحت عنوان: السيرة المحمدية تحت أضواء العلم والفلسفة.

فهذا حسين هيكل^(٣) يقول في مقدمة كتابه: "إنني لم أسلك ما ذهب إليه المؤرخون والمحدثون في كتبهم، بل أردت أن أجرى في كتابي على الطريقة العلمية"^(٤).

ويقول العلامة محمد فريد وجدي مبررا عن منهجه قائلا: "وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على ألا نسرف في كل ناحية إلى ناحية الإعجاز ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية، حتى ولو بشيء من التكلف"^(٥).

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٦-٣٧.

(٢) محمد فريد وجدي (١٨٧٨ - ١٩٥٤ م): مفكر ومؤلف وباحث مصري. أصدر مجلة (الحياة) ونشر رسالة له سماها (الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان) سنة ١٨٩٩م. عمل بديوان الأوقاف، وأنشأ بعدها مطبعة أصدر بها جريدة (الدستور) اليومية، ثم (الوجديات) وهي شبه مجلة أسبوعية، ونشر كتابه (دائرة معارف القرن الرابع عشر، العشرين) وتولى تحرير مجلة (الأزهر) نيفا وعشر سنين. أنظر: الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ٣٢٩.

(٣) محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦ م): كاتب صحفي، مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة، بمصر. حصل على (الدكتوراه) في الحقوق من السربون بفرنسا عام ١٩١٢ وافتتح مكتبا للمحاماة بالمنصورة. وأكثر من الكتابة في جريدة (الجريدة) وترأس تحرير جريدة السياسة اليومية ثم الأسبوعية. ولي وزارة المعارف مرتين، ثم رئاسة مجلس الشيوخ. وصنف كتابا منها: حياة محمد. أنظر: الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ١٠٧.

(٤) هيكل، محمد حسين، حياة محمد (القاهرة: دار المعارف، ط ١٤، ب ت ط)، ص ٤٥.

(٥) وجدي، محمد فريد، السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م)، ص ٣٨.

ويلحق الدكتور محمد رجب البيومي^(١) عن هذه الأعمال وخاصة هيكل في كتابه: إن هدف هذا الكتاب هو توجيه الإنسانية في تتبع الكمال الذي أرشده النبي عليه الصلاة والسلام، وبالتالي هي مخاطبة للبشرية جمعاء دون المؤمنين بها، ولذلك هي بحاجة إلى استدلال منطقي وعقلي يترك فيها الحديث عن خوارق العادات والمعجزات، لا من منطلق علوم الإيمان بها بل لأنه يخاطب من لا يؤمن بهذه الرسالة ويعرض لهم منطق العقل بدل الإيمان بالخوارق الذي يرفضه؛ وهكذا جاء القرآن بأسلوب عقلي كمعجزة خالدة أمام من يفكر به.

ومن هذه الجهة فقد جاء كلام الدكتور هيكل على مخالفة للحقائق والثوابت الدينية؛ فإن الرجل مع كونه لا ينكر هذه المعجزات جاء قوله في التأكد على العقل وحده بحجة اقناع خصومه، ولكن الرجل يدرك أيضا أن هؤلاء المعاندين كانوا يعتقدون بأن نطاق عقولهم محدودة حيث لا تتجاوز المحدودات، ولذلك لا بد من الاحتكام للإلهام، وقد سبق أنهم آمنوا بالرسالات الأولية قبل النبي ﷺ وأيدوا معجزاتهم^(٢).

وهكذا سيرى المتفحص في تاريخ كتابات السيرة النبوية المعاصرة هذه النزعة جلية في أول ظهورها، وقد كان أول عهدا هي الولوع والحماس لهذا المنهج بحكم التأثير البيئي والذين كانوا يرون كل جديد لذيذا وحقيقة ثابتة، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا زيفها وبطلانها من قبل أنفسهم أو من غيرهم من النقاد، وبالتالي أدركوا أولئك أنهم على خطأ فادح، وأن لجوءهم لهذا المنهج كانت نتيجة الرؤية الخاطفة لبريق الحضارة الغربية؛ ولأهميتها قدموا أولئك على أساس الحماس والإخلاص لهذا الجانب قاصدين أن يخدموا للسيرة النبوية في عرضها الجديد ولذلك أضروا أنفسهم أكثر من نفعها.

ويتابع الدكتور البوطي في الدفاع عن المنهج القديم للسيرة النبوية فيرى: إن قضية الخوارق والمعجزات في العقيدة الإسلامية قامت على أساس خرقها للمألوف بين الناس، وليست فيها ما يسمى ممكنا أو غير ممكن، وبهذا لا يحكم علميا يوما ما أن المستأنس لأعين الناس هو المألوف وهو ممكن الوقوع وبالعكس ما استوحش منه عين البشرية تسمى غير مألوف أو غير ممكن.

وهكذا لا يفسر الخوارق والمعجزات تفسيراً علمياً؛ ولو سئل أصحابها عن ذلك فإنهم لا يجدون قولاً إلا أن يقولوا: ليست الخوارق والمعجزات من موضوع بحثنا واختصاصنا، بل إنها تدرس في نطاق خاص؛ ومتى أتاحت الفرص لتعقيها فإنها تصبح أن يكون موضوع البحث ويسند لأمر النظر والتحليل وكذلك يضاف عليها الشرح والتعليل^(٣). ويعقب البوطي ناقداً هذا المنهج الساري من قبل أولئك على دراسات السيرة النبوية بحجة أنها تخالف رسالة وطبيعة هذا التراث القيم الإنساني، وذلك لأن الرسول ﷺ لم يقدم نفسه إلى البشرية رائداً سياسياً أو زعيماً وطنياً أو

(١) محمد رجب البيومي (١٩٢٣م - ٢٠١١م): كاتب، أديب وشاعر مصري. عمل كرئيس تحرير مجلة الأزهر السابق، وعميد كلية اللغة العربية بالمنصورة والأستاذ المتفرغ بقسم الآداب والنقد بجامعة الأزهر. انظر: ويكبيديا الموسوعة الحرة.

(٢) انظر: البيومي، محمد رجب، السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين (القاهرة: مكتبة المهندسين الإسلامية، ط ١، ب ت ط)، ص ٩٥-٩٨.

(٣) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيّات الكونية، ص ٣٢٩.

مفكراً أو مصلحاً اجتماعياً أو شيئاً من هذا القبيل والذين يسعون إليه أصحاب النزعات الفردية والذاتية؛ بل جل ادعاؤه ودعوته أنه ليس إلا نبي ورسول مرسل من عند الله وأنه يحمل الرسالة والحقيقة التي بعث بها معشر الأنبياء من قبله؛ وهكذا حينما طلب البعض أموراً مادية وذاتية زائدة عن مهام النبوة والرسالة رد طلبهم موضحاً لهم بأنه ليس إلا بشر يشترك مع غيرهم في الطبائع ويسري عليه سائر سمات هذه الفئة؛ بل ما يميز هو عن غيرهم هو مدى ائتمانه من قبل الله عز وجل بالوحي الإلهي ومن ثم تبليغ ما أوحى إليه كخارطة إلهية تسعد الإنسانية على مدى الأزمان والمكان... وهكذا بلغ الرسول مهمته وأوضح للناس أنهم مكلفون بعبادة الله على النحو الاختياري مثل ما عبدت أبدانهم لسنة الله على وجه الإضطرار.

وإذا كنا نعتقد بالنبوة على هذا المنهج فهذا يفرض علينا أن ندرس سيرته على النحو الذي يطلبه منا النبي عليه الصلاة والسلام وبالهوية التي قدم نفسه للعالم حتى يتجلى صدقه ونبوته، ومن هنا ندرك واجبنا الذي يطلبه منا، ومن العبث أن نسير في هذه الأجواء البعيدة والتي لا يوصلنا إلى الهدف ويخرجنا إلى السبيل السوي. نعم؛ ومن المناسب أن تدرس الجوانب العديدة من السيرة النبوية وكل ما تتعلق بحياته وتعليماته وأخلاقه وتعامله، ولكن بناء على المنهج العلمي والذي يفرض أن تسلك بقواعد الرواية والإسناد وسلامة المتن وغيره^(١).

ويتضح من الفقرة السابقة أن دراسة السيرة النبوية على المنهج الحديث والذي يفرضه دعاة الحداثة نتيجة تأثيرهم من البيئة الغربية مخالفة مع طبيعة هذه السيرة المباركة والتي احتوت في صفحاتها الحياة والسيرة الدعوية للنبي ﷺ وهو الذي أوصل الأرض برسالة السماء، وأن ما كان يدعوا إليه هو تكليف رباني فائق عن الإنسان الوضع في الأرض والتي كدرت عقله وصفاء ذهنه نتيجة انخراطه بالوساوس والتعقل المادي. ومن هنا عرض إلى هذه المهمة أعلام أجلاء ينكرون على هؤلاء هذا العمل المجرد باستقصاء جانب العظمة الإلهية، وكان البوطي من أكبر ناقديه. وأما عن مهمته ومنهجه في كتابه فيقول: "لقد أردت أن يكون عملي في هذا الكتاب هو الإقدام على إزالة بقية الأطلال القائمة لتلك المدرسة المذكورة"^(٢).

ويستدرك من العبارة السابقة أن الكتاب جاء في أصله رد لآزر للمنهج المتبع الذي سار به أصحاب المدرسة وأن صاحبه أراد أن يخطوا خطوات يبين فيه مقام النبي ﷺ وأنه ليس مجرد عظيم أو عبقرى التاريخ الذي تظهر في بعض الأحيان، بل هو نبي مرسل ومؤيد من الله وسيرته إلى جنب القرآن الكريم كما هو المعروف معجزة تتجلى في صفحاتها أنواع كثيرة من الخوارق والمعجزات التي تدل على أنه نبي ورسول مرسل، وقد ثبتت بالأخبار والطرق الصحيحة سنده وامتته وهو المبين في ثنايا الكتاب.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٤١-٤٢.

(٢) انظر: نفسه، ص ٢٥.

وأضاف البوطي إلى جنب كل هذا استنباطات وقواعد وأحكام مأخوذة من هذا التراث لتيسير الحياة الإسلامية بعيدا عن المنهج الأدبي التحليلي المجرد، وقد انضم لكل بحث صفحات باسم العبر والعظات، وهي في غالبيتها أحكام فقهية مستنبطة من هذه الأحداث، وقد ذيل أكثرها بالمصادر والمراجع الفقهية بالآثار المختصين في هذا المجال.

المطلب الثالث: إيجابيات ومآخذ على الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة

أخرج الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي كتابه الموسوم فقه السيرة على منهج محافظ وناقد فيها على الحداثيين منهجهم المسمى بالعلمي، وسار الرجل يظهر في كتابه صفحات مشرقة من السيرة النبوية ورسالتها مع إبراز جانب الدروس والعبر، والذي أورد فيها الأحكام المستفادة والمستنبطة من هذه الوقائع.

وقد أبرز فيها الشيخ أفكاره العملاقة حول الدعوة وأهميتها وكذلك الأحكام المختصة للمجتمعات الإنسانية؛ ويعد هذا عمل مبتكر وبديع يقدم في هذا العصر؛ ولا شك أن عمله هذا جدير بأن يحمد ولكن ليست كل ما أورده من الآراء مقدسة ومعصومة، بل أخذ على بعضها بالنقد والتصحيح والرد، وبناء عليه يحسن بنا في نهاية هذه المسيرة أن نبرز إيجابيات هذا الكتاب وكذلك المآخذ الذي وجه إليه مع تفاوت وجهتها بين القوة والضعف، وسوف نلمح عليها في عناوين تالية:

١- الإيجابيات: تعد فقه السيرة النبوية من الكتب المثيرة بالأحكام والدروس البليغة، وتعود خيرها في مجموعها إلى حقل الدعوة في أركانها المختلفة. وقد تطرق إليها العلامة البوطي رحمه الله في أكثر الأحيان بحجة أنها التمثيل والأنموذج العملي للدعوة الإسلامية؛ وقد سلك صاحبه بمنهج وأسلوب عال، وارتبط هذا التراث بالدعوة أصالة ومصدرا؛ وبناء عليه سوف نقف على أهم الموارد الإيجابية له في ذلك كالاتي:

١- تحديد الغاية والمنهج: إن أهم ما يميز هذا الكتاب المعاصر عن غيرها وفي سلسلة دراسات فقه السيرة هي وضوحها غاية التبين وتحريرها على غاية معينة ومنهج علمي محدد بعيدا عن التشتت والغموض الذي تحيط على بعض الكتب أو التكرار الممل الذي نجده في بعضها.

وهذه الميزة بذاتها هي طابع العصر الحديث وتجعل على إثرها البحوث والدراسات علمية ومحددة ودقيقة، فيدخر للقاريء الجهد ويجعل معلوماته حول الموضوع في مجال محدد ولكن على وجه موسع ومركز تشمل كافة الجوانب، ولاشك أن للسيرة النبوية المعاصرة نصيب أكبر في هذا حيث لجأ مؤلفوه إلى تخصيص كتبهم لموضوعات معينة من الغزوات والخلق و الدعوة وغيرها.

ولقد سار الدكتور البوطي رحمه الله في تأليفه على غاية معينة وهي كما يقول: ليس المقصود من قراءة السيرة سرد الحوادث والوقوف على التواريخ كما هو المعهود في الحقب التاريخية فحسب، بل هي تحمل في طياتها أكبر غرض وهو تجسيد الحقيقة الإسلامية في مثلها الأعلى للنبي محمد ﷺ، وذلك بعد القراءة الشاملة لحياته الشريفة^(١).

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٩.

ويتبين من الفقرة السابقة أن السيرة النبوية هي المسيرة الحية والمتجسدة للحقيقة الإسلامية في صورتها الحية بعيدا عن التخيل والمحيط في أكثر الأساطير والقصص الأسطورية، ولذلك يجب أن تدرس على هذا الطابع. والميزة الثانية والتي تنضم للغاية هو وضع المنهج الذي سار عليه مؤلفه، وقد بينه بشكل دقيق بعد عرض المسالك المتبعة في مثل هذه الدراسات وهي المنهج التاريخي القديم، وكذلك اللجوء إلى التحليل والإستنباط، وقد يرد البوطي في هذا الصدد على طريقة المدرسة الإصلاحية والذين قاموا بدراسة التراث الديني ضمن إطار الصبغة العلمية البحتة بعيدا عن الوقوف على مجال الغيبات والتي لا تأتي تحت نطاقها بغية أن تقرأ في المجتمعات الغربية بلغة أو أسلوب تفكيرهم؛ ولكن البوطي رد عليهم وجعل ذلك عبئا وضياعا للجهود في هذا المجال وقدم للقراء أنه يريد أن يدرس هذا الجانب من خلال الهوية التي قدمه الرسول ﷺ؛ وقد سبق أن بينت هذا المنهج في المطلب السابق.

ويضيف الباحثون حول رؤية الدكتور البوطي في منهجه والذي رد على أصحاب المدرسة الحديثة: إن ذلك المنهج والتي تدعوا لعصرنة السيرة النبوية تخدم المصالح الخاصة في الغرب، وقد وجد مولعين في الديار الإسلامية وبالأخص في مصر بعد تغلل التفكير الاستعماري آنذاك، وما هو عملهم إلا تمزيقا للحقائق الذهنية في هيكله القدسي، وبالخط من قيمته تحت ظلمة المحكمة الوهمية والتي نتجت بنشوء أفكار غريبة بعيدة عن الفكر الإسلامي^(١).

٢- الأسلوب العالي والسهل والبعيد عن التعقيدات: إن من حسن مكانة الكتاب بين القراء هي سهولة أسلوبها مع رفعة عرضها وبعدها عن التعقيدات، وقد وفق البوطي رحمه الله في هذا الغرض حيث جاء كتبه وبالأخص السيرة النبوية على هذا المنهج، وقد ألزم نفسه على هذا.

وعن هذا يقول: لقد أثرت في هذه الدراسة البعد عن سلوك المنهج الأدبي والتحليلي المجرد مع قيمته في بعض الأحيان، واخترت بدلها باستنباط القواعد والأحكام وهو يستقيم في مجالات المنهج الدراسي والمجالات الجامعية، وقد رأيت أن ذلك وجد رضاية القراء^(٢).

٣- تنفيذ إدعاءات واثارة المستشرقين والمستغربين: لم يأت مباحث الكتاب بعد سرد الحوادث والوقائع على غرار واحد، بل تطرق صاحبه فيه على موضوعات مختلفة، وقد حظيت تنفيذ ادعاءات المستشرقين والمستغربين جزءا مهما فيها، وبدأ الرجل يصحح المفاهيم العقيدية والفقهية التي تعرض له الخصوم، وأصبح يدافع البوطي عن الإسلام وتعليماته الصحيحة مبينا المسار الصحيح من خلال السيرة النبوية المباركة.

(١) انظر: دحمان، زيرق، منهج الدعوة إلى الله مع محمد سعيد رمضان البوطي من خلال مؤلفيه: فقه السيرة النبوية وكبرى اليقينيات الكونية (الجزائر: جامعة زيان عاشور بالجلفة، مجلة المداد - في العلوم الإنسانية والاجتماعية، www.asjp.cerist.dz/en/artic), ص ٢٣٢.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٢٦.

ولم يكتف هو بتنفيذ شبهات المستشرقين فحسب بل لجأ إلى النقد اللاذع إلى المستغربين وبعض المولعين للحضارة الغربية رغم اظهار الولاء وتغريهم إياهم في بغيتهم .

وعن هذا يقول البوطي : لقد بذل الدعاة وفنانو الغزو الفكري من المستغربين والمستشرقين وبعض مولعي أولئك ذخرا عظيما منذ زمن بعيد في مهامهم وخاصة في كتبهم لأن يزهقوا الحق ويحولوا وجهة البشرية عنه ، ولكننا نؤمن أن الحقيقة الفكرية لا يغتال ولئن مكن لدعاتها مخادعة أتباعها أو إختيار التلبس إلا أنها لا يمكن أن تستمر إلى الأبد ، وهكذا سرعان ما سيحقق الحق والحقيقة^(١) .

وليست الفقرة السابقة مجرد رد عاطفي أو ارتجالي فحسب بل تطرق البوطي في ثنايا مباحث الكتاب بالتفصيل لبعض اثار أولئك ، وقد سبق أن أوردنا رده عليهم في منهج دراسات السيرة النبوية .

ومن إيجابيات الباحث في عرضه كذلك أنه يشير في الأماكن المختلفة إلى أسماء وأعلام الاتجاه الإستشراقي ومصادره التي أشاروا فيها إلى هذه الإيثارات ، ولم يكن عرضه للآراء من الفراغ ؛ فهذا يناقش مذكرات اللورد كرومر والمستشرق جيب في كتابه "بنية الفكر الديني" وكذلك الدكتور شبلي شميل^(٢) في مقدمة كتاب "بوكنز" في شرح مذاهب داروين^(٣) ولويس عوض^(٤) وغيره من الذين أوردتهم في مباحث الكتاب ورد عليهم بالحجة والزمهم في كلامهم .

٤- استخراج مفاهيم دعوية من السيرة النبوية: ارتبط موضوع الكتاب بالدعوة الإسلامية بكافة أركانها وذلك كدروس مستفادة من الوقائع والأحداث التي مر بها النبي ﷺ ، وقد جاء هذه المباحث مستندا إلى أهمية هذا الجانب . وقد صرح البوطي رحمه الله في مقدمة كتابه كما ذكرنا: إن السيرة تعين الدعاة في مهمتهم ، وما على هؤلاء إلا أن يأخذوا هذه الطرق الصالحة في دعوتهم ، وينظروا إلى النبي ﷺ كنموذج حي فيها . فعلى سبيل المثال يستنبط من أساليب النبي ﷺ في دعوة الملوك حيث اختار لكل قوم مبعوثا عارفا بلغتهم ، أنه ينبغي أن يهيئ المسلمين لمهمة الدعوة بكافة وسائلها وأساليبها ، ومنها تعلم لغة القوم^(٥) .

وقد يرى الباحثون: إن فقه السيرة النبوية للبوطي والتي جاءت كهيئة استنباطات فقهية تتعلق أكثرها بشأن الدعوة والجهاد ، وكذلك شمائل للدعاة ، وتعد في مجموعها إفادات فقهية ثرية في هذا الجانب ويفيد هؤلاء في مهمتهم^(٦) .

(١) انظر: البوطي ، فقه السيرة ، ص ٢٦ .

(٢) شبلي شميل (١٩١٧-١٨٦٠م): مفكر مسيحي مصري أكد على فلسفة النشوء والارتقاء في العالم العربي ، من كتبه: فلسفة النشوء والارتقاء . انظر: شميل ، شبلي ، مقدمة فلسفة النشوء والارتقاء ، (القاهرة ، دار مارون عبود ، ط ٢ ، ١٩٨٣م) ، ص ١٤ .

(٣) داروين (١٨٨٢-١٨٠٩م) : طبيب وفيلسوف انجليزي صاحب نظرية النشوء والارتقاء ، وله كتاب أصل الأنواع . انظر: (السيرة الذاتية للمؤلف ، أصل الأنواع ، ترجمة: مجدي محمود المليجي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة- مصر ، ٢٠٠٤م) ، ص ٣٠ .

(٤) لويس عوض (١٩٩٠-١٩١٥م) مفكر وكاتب ومترجم وناقد ومؤرخ مصري كبير ، طالب باستعمال اللغة المصرية في الكتابة ، وكان يحارب تجميد الفكر وتقديس ماضي الثقافة العربية ويميل إلى الحداثة والتجديد فيها . انظر: ويكبيديا الموسوعة الحرة .

(٥) انظر: البوطي ، فقه السيرة ، ص ٢٧٣ .

(٦) انظر: مخلوف ، محمود حسن ، فقه السيرة بين الغزالي والبوطي ، ص ١٢٤ .

٥- استنباط أحكام فقهية: تعد كتب فقه السيرة النبوية من أهم إنجازات العصر المعاصر في مجال السيرة النبوية وذلك لأن هذه فتحت مجالا جديدا للاستنباطات الفقهية من خلال السيرة المطهرة؛ ولقد كان للعلامة الدكتور البوطي رحمه الله إسهام أكبر في هذا الجانب، فقد تطرق من خلال وقوفه على الأحداث إلى استخراج مسائل وأحكام تتعلق بالأعمال العملية والتي تعرف بالفقه.

وعن هذا يقول الباحثون: تعد فقه السيرة للدكتور البوطي فقها للجزئيات لأحكام تفصيلية تتعلق بمختلف أبواب الفقه من العبادات والنكاح والمعاملات والسياسة وغيرها، وقد تجاوزت هذه المسائل من حيث العدد من المائة، مما يدل على اهتمام هذا الكتاب به وكذلك على غزارة معلومات كاتبه^(١).

ويحسن بنا أن نتطرق إلى مثال تطبيقي لهذا، فقد ذكر المؤلف في ثانيا الدروس والعبر من غزوة بني المصطلق حكم العزل عند الجماع في قضية تحديد النسل، وقد أفاض فيها بآراء الفقهاء قديما وحديثا، وبدأ يفصل في الغرض كأنه كتاب فقهي، وهكذا في سائر المسائل الفقهية؛ وقد ذيل كتابه بفهرس المسائل الفقهية حتى وصلت إلى عشرة صفحات.

ومن مميزات البوطي في هذا العمل أنه يرجح في القضايا المختلفة، ويورد أقوال الفقهاء من مصادرها الأولية والمرتبطة بمذاهبهم، وقد غلب على الرجل في حكمه على القضايا الاعتماد بمذهب الجمهور غالبا. وبالجملة: ففقه السيرة النبوية للعلامة الدكتور البوطي رحمه الله عمل وأثر مبدع في كتابات السيرة النبوية من حيث الغاية والمنهج والدفاع عن أحكام الإسلام، وكذلك عرضه للقضايا واستخراج المسائل الفقهية والتي لم تكن معهودة في العصر المعاصر. ولعل من أكبر إنجازات الرجل فصل الكلام في أمر الدعوة الإسلامية بكافة أركانها وارتباط قضاياها بهذه المهمة الجليلة.

٢- المآخذ على الكتاب: إن استدراك الفقه من السيرة النبوية المباركة جهد إنساني وهو مع علو تقدير هذه المهمة في جملتها عرضة للصواب والخطأ، وأن ما توصل إليه البوطي في استنباطاته مع جهد لا تتسم بالقدسية، وأن منهجه وكذلك موضوعاته كأحكام مستفيدة من الوقائع جعل المختصين يوجهون النقد إليه.

ومما يشفع للبوطي رحمه الله في هذا الصدد اعترافه في آخر مباحث السيرة النبوية لعجزه عن أداء حق سيد المرسلين ﷺ ودعا الله إلى أن يصفح عنه إن كان في الكتاب من زلات وأخطاء؛ وهذا هو دأب الصالحين في آثارهم، وبناء عليه يحسن بنا في ختام هذا العمل على أن نتطرق إلى بعض هذه المآخذ:

١- عدم مراعاة قواعد الحديث والخطأ في الحكم على الأحاديث: إن من أكبر المآخذ التي يحسب على البوطي في كتابه هو عدم مراعاة قواعد علم مصطلح الحديث وكذلك خطأه في الحكم على الأحاديث التي أوردها في الكتاب من ناحيتي سرد الحوادث وكذلك استنباط الأحكام المستفادة.

(١) انظر: مخلوف، محمود حسن، فقه السيرة بين الغزالي والبوطي، ص ١٢٤. وغازي، محمود أحمد، محاضرات سيرت ﷺ، ص ٦٩٠.

وقد أفرد العلامة ناصر الدين الألباني رحمه الله كتابه المسمى "دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على البوطي في كتابه فقه السيرة" لهذا الغرض واستدرك عليه هذه الأخطاء من هذا الجانب، وسوف أذكر نماذج لها كالآتي:

الف- اتيانه للأحاديث الضعيفة: فقد ذكر الألباني في كتابه إن مجموع أحاديث هذا الكتاب بغير ما رواه الشيخان في الصحيحين تصل إلى إحدى عشر حديثاً، وقد تتوزع تخريجه على كتب السنة؛ واحد لمالك، ثلاثة لأحمد والبقية لباقي أصحاب السنن، وثلاث هذه الأحاديث ضعيفة مع أن الرجل أشار في منهجه في الطبعة الأولى من كتابه أنه يعتمد على صحاح السنة.

فمثلاً الحديث الذي أورده في غزوة حنين حيث يقول: عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْرَقْنَا نَبَالَ ثَقِيفٍ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ. قَالَ: ... «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا»، «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»^(١).

ولكن البوطي في توثيق الحديث يذكر: رواه ابن سعد في الطبقات، وأخرجه الترمذي في سننه، وقدرناه ابن سعد عن عاصم الكلابي عن الأشهب عن الحسن^(٢).

وقد يؤخذ على البوطي مهمته في التخريج على أمور:

- ١- عزوه للحديث على طبقات ابن سعد بعد رواية الترمذي، فهو ليس أعلى طبقة منه في هذا الفن.
- ٢- لقد ترك الرجل حكم الترمذي في الحديث "حسن غريب"، وكان ذلك اللفظ أقوى في تخريجه، ولعل ذلك يعود إلى اعتماد البوطي على الترمذي لحسابه أنه من الصحاح.
- ٣- وأما قوله: "رواه ابن سعد عن عاصم الكلابي عن الأشهب عن الحسن" فخطأ وصوابه "غزوة رسول الله للطائف"، وعن عمرو بن عاصم الكلابي أخبرنا أبو الأشهب، أخبرنا الحسن^(٣).

ب- عدم الإنصاف وتعميم الحكم: لقد أورد البوطي في كتابه الحديث عن قضية كتاب "معراج ابن عباس"، وقد عده بالجملة كما يقول: أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند، وهكذا كل ما فيها باطل، ويعرف زيفه المثقف العالم، وابن عباس رضي الله عنه بريء منه حيث ما علم منه هذا التأليف، بل ظهر حركة التأليف في أصله أواخر عهد الأمويين^(٤).

ويقول الألباني عن موقف البوطي: لقد تظاهر الرجل وكأنه محدث نقاد للأحاديث المكذوبة، ويدعوا قراءه الكف عن قراءته بحجة كذبها على رسول الله ﷺ، ولكن بغض النظر عن نسبة الكتاب فقد جاء فيها بعض الحقائق الثابتة وهي ثابتة بالأحاديث الصحيحة ونذكرها كالآتي:

(١) سنن الترمذي، أبواب: المناقب، باب في ثَقِيفٍ وَبَنِي حَنِيفَةَ، رقم الحديث: ٣٩٤٢. قال الألباني: هذا حديث ضعيف.

(٢) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٠٤.

(٣) انظر: الألباني، محمد ناصر الدين، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة (دمشق: مؤسسة ومكتبة الخافقين، ط ١، ب ت ط)، ص ٧-٦.

(٤) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٢٩.

- ١- قوله في البراق: إنها دابة تشبه الدواب فوق الحمير دون البغل.
 - ٢- المذكور في الكتاب أن جبرئيل عليه السلام طرق الباب، قالوا: من هذا؟، قال جبرئيل: قالوا ومن معك؟، قال: محمد، قالوا: أرسل إليه؟، قال: نعم، قالوا: مرحبا بك وبمن معك.
 - ٣- وقد ذكر: أن أكثر أمتك لا يفنى إلا بالطعن والرمح.
 - ٤- وقوله: "وفرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة في كل يوم وليلة"^(١).
- ويعقب الألباني بعده: كيف يجوز للدكتور أن يقول عن الكتاب أنه ملفق من مجموعة أحاديث باطلة؛ على حين أنه جمع فيه الأحاديث المقبولة. ولعل ما يقوله البوطي ناتج على أنه لم يقرأ الكتاب مطلقا أو على أقل تقدير عند كتابة هذا الحكم، وقد ثبت صحة بعض هذه الأحاديث المذكورة^(٢).
- وبالجملة فإن البوطي لم يكن منصفاً في حكمه على الكتاب بل عمم قوله، ولعله نظر إلى سند الكتاب أو نسبته إلى ابن عباس رضي الله عنهما فأبطل من مبناه وبما فيها، وكذلك وجد البوطي أن دعاة الباطل بدأو يحثون الناس إليه كي يزعموا إيمانهم أمثال لويس عوض ونحوه؛ ولا يأتي بمثل هذا الحث إلا من الباطل.
- ٢- **عدم الاعتراف بفضل الآخرين والتأثر عنهم:** إن من أكبر صفات الباحثين المحققين هو الاعتراف بفضل الآخرين فيما سبق إليه وكذلك إظهار مدى التأثر في مسألة ما، وتلك تعد كمالات وحسناً في البحوث بدل النقص منه؛ ومن هنا أخذ على البوطي إهماله لهذا الجانب القيم.
- وسوف يرى الناظر بعض هذه المظاهر جلية في كتابه في عديد من القضايا، ولا شك إن للسابقين فضلاً عليه في هذا. فهذا كتابه يأتي بنفس المسمى بعد ما سبقه الشيخ محمد الغزالي وبنفس المفاهيم في بعض القضايا كأنه منه، وفي حال لم يصرح باسمه.
- ومن هنا يقول الباحثون: "لم يصرح البوطي باسم الغزالي في سرد ومعالجته للقضايا رغم بعض تقاريراته منه وذلك في عديد من القضايا: ميزان قبول الأخبار عنده، تفصيل القول في المعجزات وكذلك أحاديث مشاركة النساء في الغزو والجهاد"^(٣).
- وقد صرح الشيخ محمد الغزالي في خطبه لتلامذته: بأن الدكتور البوطي استأذنه حين الكتابة بأخذ مسمى الكتاب "فقه السيرة" وبالفعل أجازته قائلا: ليس العلم حكراً على الأشخاص^(٤).
- وهكذا لم يصرح البوطي في سلوك منهج السباعي رحمه الله رغم الاعتماد عليه في قضية مصادر السيرة النبوية، وقد ذهب القول: أن مصادر السيرة النبوية المعتمدة في كل العصور تنحصر على كتاب الله وكتب السنة النبوية

(١) انظر: ابن عباس، الإسرائء والمعراج (بيروت: المكتبة الثقافية، ط ١، ب ت ط)، ص ٣، ٧، ٣٩.

(٢) انظر: الألباني، محمد ناصر الدين، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة، ص ٧٣-٧٤.

(٣) مخلوف، محمود حسن، فقه السيرة بين الغزالي والبطي، ص ١٢٨.

(٤) قول منقول من الدكتور عبد الحميد خروب أحد تلامذة الشيخ محمد الغزالي والذي سمعه منه، وقد أدلى به أثناء مناقشة هذه الرسالة في ١٤٤٧/١/١هـ.

وهي التي دونها آئمة الحديث المعروفين بالصدق والأمانة ككتب الستة وموطأ الإمام مالك ومسند أحمد بن حنبل وغيره، وفي آخرها الرواة الذين اعتنوا بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وحياته^(١).

ويحسب للبوطي هذا الفضل أنه صحح كثيرا من المصطلحات السائدة والتي برزت في الطبقات الأولى من كتابه بعد ما وجه النقد إليه وخاصة من ناصر السنة الشيخ الألباني رحمه الله في أخذه عليه الصحاح الستة بدل الكتب الستة بحجة اشتغال كتب السنة من غير الصحيحين أبو داؤود، والترمذي والنسائي وابن ماجه على أحاديث الصحيح والحسن والضعيف.

٣- مزلقه في استنباط بعض الأحكام: يوجه العلامة الدكتور البوطي رحمه الله لنقد لازع ومجانبة للصواب وتعرضه للأخطاء في استنباط بعض الأحكام المستخرجة من الوقائع والنصوص الموردة في السيرة النبوية. وهكذا قد غلب على الرجل نزعة في انتصار المذهب الفقهي وكذلك ميوله للتصوف، وسوف أذكر نموذج منها: رأيه في التوسل والتبرك وكيفية الاستدلال عليهما: لقد ذهب الدكتور البوطي في قضية عقيدة التوسل إلى أبعد حد ورأى أنه مع التبرك شيء واحد، وذلك بعد قوله بأنه يجوز التوسل بذات النبي ﷺ والتبرك بأشيائه المادية حيا وميتا، ويسوق في هذا الصدد عدد من الأدلة ويرد على من يخالفه.

وقد ذكر في كتابه بعد سرده لبعض الآثار منها:

الف- أن أبا أيوب الأنصاري وزوجته كانا يتبركان بآثار أصابع النبي عليه الصلاة والسلام في قصعة الطعام وذلك بعد ما كان يترك من فضلة الطعام.

ب- وقد كانت أم سلمة زوجة ﷺ تأخذ شعراته الشريفة ويحتفظ بها في "جلجل" أي ما يشبه القارورة؛ وكلما كان يصيب الصحابة عين أو أذى يرسل بها ويضعها في الماء فيشربون للاستشفاء والتبرك.

ج- وقد ثبت في الصحيحين أن الصحابة كانوا يتسابقون إلى فضل وضوئه ويتبركون بآثاره من الألبسة والقدح الذي يشرب منه ﷺ.

وبعد أيراد هذه الوقائع ذهب البوطي بقوله: وإذا كان هذا شأن الآثار المادية في التوسل فكيف إذا كان بمنزلة وجاهه الشريف عند الله تعالى.

ومجمل القول في هذا أن التبرك والتوسل تدلان على حقيقة واحدة وهي التماس وطلب البركة والخير عن طريق المتوسل به، وهكذا نرى أن التوسل بمنزلة وجاه النبي عليه الصلاة والسلام عند الله عز وجل وكذلك طلبه بآثاره المادية أو فضلاته أو ثيابه مصاديق لهذا المفهوم المثبت بالروايات والأخبار الصحيحة، وهكذا كل صوره المنبثقة الجزئية مستدل عليها من باب تنقيح المناط كما يصطلح علماء الأصول لها. وفي هذا رد على من يقول بعدم فائدتها، والثابت عندنا أن جميع أقوال وأفعال وتقاريره ﷺ تشريع باق ومستمر إلى يوم القيامة.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ٣٣.

ويقول أيضا: إن المناط إنما هو كونه عليه الصلاة والسلام أفضل الخلائق عند الله عز وجل^(١).

ولقد وقف العلماء والمختصون من علماء العقيدة والمحدثون على رأيه في هذه القضية، وليس هو أول من يديه، ويرون أن ما لجأ إليه خلط بين المفاهيم وادعاء لا أصل له في إطار النصوص، وقد ذهب الشيخ الألباني ناقدًا إياه: الف- إن التفحص في النصوص النبوية لا يدل على مثل هذا التوسل الذي يقول به الدكتور البوطي في قوله عنه. ب- كيف يمكن أن نأخذ التوسل والتبرك بمفهوم ومعنى واحد؟ حال كونهما أنه لا يوجد بينهما تلازم، وذلك لأن التوسل كما يراه البوطي لا يستلزم حضور المتوسل به، وبالعكس فالتبرك يلزم حضور الشيء المتبرك به، وذلك من ضمن الأحاديث التي أوردها الدكتور في هذا الصدد.

ج- لقد دعا الدكتور في دعائه بجواز التوسل بذاته قائلا: "اللهم إني أتوسل إليك بفضلات نبيك وعرقه و..."، وهكذا يستحي المسلم من ذكره وكتابه، ومن الثابت أنه ﷺ نفسه يتطهر وينتزه منه كما هو الوارد في الصحيحين وغيره.

د- ويرى من أهل العلم أن ذكر أحاديث التبرك لا يترتب على ذكرها اليوم فائدة أو جدوى كبيرة؛ بحجة عدم وجودها اليوم، وأن ما يفعله المسلمون في بعض الأماكن حيث وضعوا شعرة محفوظة في زجاجة ويلتفون حوله بدعة محدثة ليس له من الدين بحظ^(٢).

هـ- ولقد نقل من السلف الصالحين إنكارهم لهذا النوع من التوسل؛ وفي الصدد نقله عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله وأصحابه التلامذة إنكار الدعاء والسؤال من الله تعالى بحق وجاه فلان، وعلل بأنه لاحق لأحد من الخلائق على الله تعالى حتى يسأل به، بل العكس، الله هو ذو الفضل، وقد يسأل من فضله وكرمه كما قال: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٢)^(٣).

وخلاصة القول: فإن البوطي مع حرصه وأدبه الشديد تجاه النبي ﷺ بدأ برفع القول بأن المسلم ينبغي أن يتوسل ويتبرك بذات النبي ﷺ، وكل ما يتصل به من الأشياء المادية من جسمه أو خارج عنه، فضلا عن المنزلة والجاه الذي يملكه النبي ﷺ عند الله عز وجل؛ ولكن الدكتور مع فقهه الشامل للدين لم يفرق بين ما كان في حياته وبعد وفاته ﷺ؛ وهذا هو المذكور بصراحة أصحاب الرسول ﷺ بكونهم حاملين لرسالته السامية، ومن ثم اتبعوهم الأئمة العظام وسلف الأمة والذين لهم مواقف ثابتة وواضحة تجاه القضية.

ويلاحظ على أمر التبرك بالأشياء المادية حتى ولو قبل أنها معروضة للضياع ولم تثبت بالتواتر تعينه بعد مضي هذه المدة العريضة من تاريخ الأمة الإسلامية؛ وبالتالي أصبحت قليل الفائدة والجدوى، ويمكن للمسلمين أن يأخذوا

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة، ص ١٥٦.

(٢) انظر: الألباني، محمد ناصر الدين، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة، ص ٧٦-٧٨.

(٣) الجزائري، أبو بكر جابر، عقيدة المؤمن (جدة: دار الشروق، ط ٤، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م)، ص ١٤٧.

بدلها التمسك بشريعته التي جاء بها هذا الرسول العظيم وكذلك العض على سنته ومنهجه الذي أتاه من الله عز وجل ، وهو المقصود من الدين والتمتين نتيجه ومكسبه في الحياة الدنيوية والأخروية .

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا البحث ، فله الشكر كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وإن كان من شيء فيه فهو أن: أشير إلى أهم وأبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث ، وهي كما يلي :

١- إن حقيقة موضوع الرسالة النبوية في أصلها الدعوة إلى الإيمان والإسلام والخير والحث عليه والتحذير من الشر والنفور عنه ، وقد اتسم هذا الموضوع خلال رسالات الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ ، وقد واثم خلال تلك المراحل كلها مع الفطرة البشرية ، كما اتسم بالصدق والحق والواقعية .

٢- لقد ركز الأعلام الثلاثة في دراساتهم للسيرة النبوية على أنها هي المرآة الحقيقية لتفحص جرثومة فساد البيئات البشرية من خلال ترابط الأزمنة والعصور والتطلع على رؤية الظواهر المشتركة بينهم من الجاهلية والوثنية في ثوبها الجديد وكذلك متابعة التقاليد العمياء التي ابتليت بها الإنسانية منذ أمد بعيد وجعلوها تبريرا لضلالتهم ؛ وما لم يفحص هذه فلن يجدي أي نسخة يقومون بها الدعاة والمصلحون في مهمتهم .

٣- يرى الشيخ محمد الغزالي في موضوع وسمات الدعوة النبوية من المرحلة المكية والمدنية على أنها ركزت حتى في الفترات العصيبة على بناء نظام إجتماعي بدل الفردية بحيث ينهض بنيانه على المعروف والخيرية وشعور أفرادها بالمسؤولية تجاه الآخرين ، وكذلك تمديد يد العون لمساعدة المنكوبين في حياتهم المادية والمعنوية ؛ انطلاقا من مبدأ رؤية المسلمين كالجسد الواحد داخل هذا المجتمع .

٤- لقد ركز المودودي في دراسته للسيرة النبوية على الفترة المكية أشد التركيز بحجة أن هذه المرحلة هي أساس للدعوة الإسلامية ؛ حيث نشأت أمة من العدم ، وقد جاءت بموضوعات بديعة مختلفة عما كانت عليها الحضارات المعاصرة لذلك العصر ، وبهذا الصدد تساءل: ما حقيقة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته؟ و ماهي خصائصها؟ .

٥- اتفق كلمة الباحثون الثلاثة المعني بهم حول الفترة المدنية من السيرة النبوية حيث وصفوها بمرحلة العز والقوة للدعوة الإسلامية ؛ وذلك بفضل النشاط المكثف لهذه المهمة داخل هذا المجتمع الفذ الفريد ، والذي عرفت بذاتية معالمها وعباداتها وشعائرها الإجتماعية بإعتبار أنها الأمة المميزة والرائدة للإنسانية .

٦- لقد تولع المودودي من تأثير دعوة النبي ﷺ على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وعدوهم جيلا قرآني فريدا نشأوا وتربوا في المدرسة النبوية العظيمة ، وقد نالوا منها أكبر قدر من الهدى والصلاح ؛ حتى وصلوا إلى أكبر موهبة وقوة فائقة في الدعوة الإسلامية بحيث كانوا يتطلعون للأحكام قبل ورودهم عليهم .

- ٧- لقد تجمع رأي الباحثون الثلاثة عن موضوع الجهاد؛ وبأنه هو الوسيلة الشريفة للدعوة الإسلامية، ويقصد من ورائه الدفاع عن عقيدة المسلمين وحياتهم وأراضيهم، وفي جانب آخر تقضي على الفتن التي تعوق أمام دعوة الحق وكلمة الله، وبذلك تعد وجهاً آخر لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٨- لقد اتفقا المودودي والبوطي حول تأثير سمة حفظ الرسالة الخاتمة وذلك بوضع مهمة الدعوة على عاتق معتنقيه خلفاً لنبيهم ﷺ، بعد ما أكمل وأتم رسالته وأمانته بأتم وجه حتى أتاه الله اليقين.
- ٩- لقد شدد المودودي في فقه الدعوة على عقيدة ختم النبوة أشد الاهتمام؛ والتي تنبؤ بكمال الإسلام و اتمام نعمة الله على عباده... وبهذا برز جهوده في مكافحة الفرق القاديانية و البروزية.
- ١٠- التركيز والتحلي بالصفات والشمائل الحسنة لدى الدعاة من أهم عوامل نجاح مهمة أولئك، وهي بذلك تعد دلالات وعلامات ودعوة تطبيقية لما يدعون إليها الناس؛ فيرون صورتها العملية في حياتهم.
- ١١- ركز المودودي و البوطي في دراستهما على أن أمر الدعوة إلى الله تتطلب الإهتمام التام بمقاصد الدين وأصوله السامية؛ ومن أهم هذه الضوابط التركيز على فقه الأولويات، والتي يتسر أمر تبليغ الدين فضلاً عن الثمار الياقة التي تنتج عن ذلك.
- ١٢- لقد التقت آراء الأعلام الثلاثة على ضرورة مشاركة النساء في أمر الدعوة الإسلامية، وهي بذاتها من أكبر مظاهر التكريم لهن في ضمن الحقوق التي أقر الإسلام لهن، وبذلك طلب منهن أن ينهضن مع الرجال في العمل للإسلام داخل المجتمع الإسلامي.
- ١٣- ارتهنت مسيرة الدعوة في الإسلام بتحمل الأذى والضرر القولي والفعلية التي يلجأ إليها الخصم المعاندون تجاه أهل الحق؛ وما على أهله إلا أن يصبروا عليها حتى يثابوا على ضرهم وينضج مسيرتهم بعد التمحيص الذي يصاب صفوفهم.
- ١٤- التفكيك والفصل بين أصناف الخصوم أمر ملح للدعاة في مهمتهم؛ وبذلك يتأهبون تجاه كل زمرة حسب موقعهم وقوتهم، وهكذا سيدخرون الجهد لصالح الدعوة التي تتطلب عملاً وجهداً مستمراً في هذا الطريق العريض والعويص.
- ١٥- استنبط الشيخ محمد الغزالي أن النساء تتميز بالنسبة للرجال بحياسة العاطفة الجياشة تجاه الدعوة، وهن بذلك أسرع استجابة؛ شريطة أن يدرك الدعاة طرقاً لتحريك مشاعر فطرتهن السليمة.
- ١٦- اليهود هم ألد وأعرق خصوم الدعوة طوال التاريخ؛ وذلك لتمسكهم بالفكرة العنصرية والمحافظة على السجيا الشريفة من النفور عن الحق والوقوف أمام أهله، إضافة إلى إثارة الفتن وتحكميهم للهوى؛ فعوقبوا نتيجة لذلك أنهم انسلخوا عن الدين بالكلية وصاروا منبوزين بين الناس.

١٧- النفاق ظاهرة الخصومة الخفية للدعوة الإسلامية، وخطرهم رغم تظاهر ولائهم أكبر بكثير من باقي الخصوم؛ وذلك لأنهم يضعفون بنية المجتمع الإسلامي ويوهنون ارادة المسلمين ويزعزعون بينهم الخوف حتى لا يقفوا أمام الباطل وأعوانه.

١٨- يشدد الأعلام الثلاثة على أسلوب الحكمة وضرورة الأخذ بها في أمر الدعوة، وذلك لأنها من أمثل الأساليب الدعوية وهي في أصلها عبارة عن حزمة التدابير اللازمة التي يتخذها الدعاة من استخدام الألفاظ وكيفية التعامل مع الوسائل المتاحة للإتيان بها للمدعويين؛ حتى يفتح بها العقول ويكسب النتائج المرجوة منها.

١٩- ركز الدكتور البوطي في قضية توضيح مفهوم الجهاد وأنماطه من خلال تتبع دراسته عن غزوات الرسول ﷺ؛ وبالتالي يرى أن أمر الجهاد في الإسلام ليس على وتيرة واحدة، بل القتال نوع من أنماطه ولا يلجأ إليه إلا في آخر المطاف، وذلك إذا فشلت باقيها؛ وحينها تكون منضبطة بحدود الشرع والعدل. وهكذا فالجهاد والقتال غاية لمقصود غيرها ووسيلة مساعدة للدعوة الإلهية.

٢٠- عرفت الدعوة الإسلامية مثل دينها باليسر والسماحة ورفع الحرج الذي تعوق الحياة الإنسانية؛ ولذلك نجد مظاهرها جليلة في الأهداف واختيار الوسائل المتاحة فضلا عن الوسائل والأساليب التي تعرض بها الدعوة.

٢١- اتفق رأي الأعلام الثلاثة حول رسالة السيرة النبوية وحسبها الباب المؤثر لدعاة الحق في مسيرتهم بحجة اشتمالها لكل من موضوعات الدعوة من العقيدة والسلوك وكذلك سائر التشريعات المدنية والجنائية، كما يجد في غضونها هدي للدعاة ومنهجًا للتعامل مع أصناف المدعويين المدعنين والمعاندين، إضافة إلى تقديم ملامح من الوسائل والأساليب المؤثرة في الدعوة الإلهية.

٢٢- السيرة النبوية في مجموعها تاريخ حافل للدعوة الإسلامية، وقد انبثق منه هذه المهمة الجليلة والمظهرة في حياة ودعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وبالتالي تعد منهجًا وهديا كاملا يستغنيهم عما سواها.

٢٣- لقد برزت الشخصية الدعوية للسيد أبي الأعلى المودودي من عرضه لموضوعات السيرة النبوية من خلال كتابه سيرة سيد العالم "سيرت سرور عالم"، وسار في كل محاطاتها مع هذا الروح؛ بحجة أنها مسيرة وتاريخ مؤسس هذه الدعوة النيرة. وقد أبرز فيها أن الوقوف عليها وعلى دراستها تعين الدعاة في اثبات شهادة الحق وكذلك في اقامة الدين في صورتها العملية.

٢٤- لقد كتب الشيخ محمد الغزالي كتابه "فقه السيرة" على أساس منهج الدعوة الإسلامية، وسار في كل هذه المسيرة ملتصقا القبسات الدعوية من الموضوعات وهدى للدعاة وكيفية التعامل مع المدعويين مع تفقد الوسائل والأساليب المعينة؛ وبالجملة تعد فقها للكليات والقواعد العامة المتعلقة بهذه المهمة الجليلة.

٢٥- تعد دراسة "فقه السيرة" للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي فقها دعويا مستفادة من هذه المسيرة المباركة والتي مر بها النبي عليه الصلاة والسلام في حياته ودعوته الشريفة؛ وما على الدعاة إلا أن يأخذوا من هذا النبع

الفياض ويستقيم حياتهم بها؛ وهي بذلك موسوعة شاملة وذخرا لهم في الأحكام المتعلقة لأمر الدعوة والجهاد والهجرة وما إلى ذلك.

التوصيات

وفي ختام البحث يحسن بنا أن نتطرق إلى بعض التوصيات والمقترحات التي هي بحاجة إلى التوجيه والتفعيل ؛ وقد اتضح لدى خلال البحث كالاتي :

- ١- يجب أن تدرس السيرة النبوية المطهرة بصياغة جديدة ولكن على رواية صحيحة ؛ تلبي حاجات العصر ، ويعطى لها الدور الراشد والفعال في معالجة مشاكل الأمة الإسلامية باعتبارها منهجا ودليلا حركيا موائما لكل الأزمنة والأمكنة . وهذه المهمة وإن انتبه إليها الباحثون في العصر الحاضر إلا أنها بحاجة إلى مزيد من التفعيل والاهتمام .
- ٢- يلزم أن تؤسس مراكز علمية فعالة في بقاع العالم الإسلامي يشرف عليها مؤسسات وجهات علمية عالمية مثل منظمة التعاون الإسلامي ، والرابطة الإسلامية العالمية و رابطة الجامعات الإسلامية وغيرها لتشرف على دراسة وتحقيق آثار العلماء والمفكرين القدامى والمعاصرين ، ومن ثم يربط أفكارهم بالعصر المعاصر بغية التعريف عن هؤلاء الأعلام وبأعمالهم ولكي يستفيد منها في معالجة قضايا الأمة .
- ٣- المبادرة إلى ترجمة كتاب سيرة سيد العالم "سيرت سرور عالم" للإمام أبي الأعلى المودودي باللغة العربية ؛ بغية تعميم الفائدة ولكونها لغة الأم في الدراسات الإسلامية .
- ٤- ضرورة تحقيق نصوص كتاب سيرة سيد العالم بكونها كتابا في السيرة النبوية مثل ما حظى كتابي فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي والدكتور البوطي ؛ وهذا ما سيجعله قيما وجديرا للمدارسة والقراءة .
- ٥- يحسن أن تقدم الجامعات الإسلامية والمراكز العلمية في مجال البحوث والرسالات العلمية إلى مقارنة بين أفكار وكتابات العلماء والمفكرين والدعاة ، وخاصة في السيرة النبوية لكي يستنبط منها قضايا متفقة عليها ويقرب الفجوات في المختلف فيها .
- ٦- يقترح فتح مشروع دراسة فقه الدعوة من خلال كتابات السيرة النبوية في التراث القديم والكتب المعاصرة ، أمثال سيرة ابن هشام ، زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن القيم الجوزي وفي العصر المعاصر في كتب شبلي نعماني والسيد سليمان الندوي والسباعي والندوي وصفى الرحمن مباركفوري وغيرهم لاستخراج مناهج علمية ودعوية مؤثرة ؛ وهذا العمل وإن حظى في علم التفسير والحديث بنصيب أكبر إلا أنها لم تنل دراسة وافية في هذا ، وهو في الأصل مجالها بحجة أنها التاريخ والنبع الأصيل للدعوة الإسلامية .
- ٧- يجدر لوزارة الشؤون الإسلامية في البلدان الإسلامية أن تأخذ السيرة النبوية الصحيحة مصدرا للدعوة والوعظ والارشاد ، ويركز على الكتابات المتخصصة في هذا المجال لإرشاد الشباب وعامة الناس ، ويستلهم كذلك منها الأساليب والوسائل المناسبة لكل بيئات المجتمع الإسلامي .
- ٨- يوصي البحث الجامعات الإسلامية في قسم الثقافة والدعوة الإسلامية أن تدخل منهج الدعوة من خلال السيرة النبوية إلى مناهجها العلمية للإطلاع على كثير من البحوث وإثراء هذا الجانب بصورتها التطبيقية .

٩- وأخيرا أرى ضروريا انعقاد مؤتمرات علمية إسلامية لمختلف الشرائح من الدعاة والشباب والوعاظ لمعالجة ودراسة جوانب الدعوة في السيرة النبوية المطهرة لتوضيح كثير من الحقائق المثمرة في هذا النبع الفياض المبارك.

The Science of Da'wah in Contemporary Sirah Writhing: A

Descriptive Analytical study of Mawdudi, Al- Ghazali, and Al- Buti

Abstract:

In the modern era, notable scholars have emerged who have written about the life of Muhammad (peace be upon him) in innovative ways. Among the most prominent are Imam Abu al-A'la al-Mawdudi, Sheikh Muhammad al-Ghazali, and Dr. Muhammad Sa'id Ramadan al-Bouti, may Allah have mercy on them all. These scholars endeavored to present the biography of the Prophet in a manner that could deeply influence the lives of Muslims. They employed precise scholarly methodologies, providing not only in-depth analyses of the Prophet's life but also integrating both traditional and contemporary approaches to writing about it. Their methods address both human intellect and emotions, distinguish between divine revelation and personal reasoning (ijtihad), and most importantly, describe, analyze, and critique the historical events of the Prophet's life, refuting misconceptions and falsehoods with sound logic. As a result, the Prophet's life, as presented in their works, has been depicted as a model for preachers, offering guidance not only for their own path but also for all of humanity. It serves as a practical example to lead people to the right path. It is noteworthy that the methodologies employed by these scholars are distinct and innovative. However, despite the commonality in the era and cultural conditions they shared, there are notable differences in their approaches. For instance, Imam Mawdudi, in his book *Seerat Sayyid al-Alam*, emphasized the importance of Islamic preaching (dawah), highlighting that the Prophet's life serves as a practical model for this mission. On the other hand, Imam al-Ghazali, in *Fiqh al-Sirah*, focused on the general principles and rules of dawah, writing during a period when Islamic preaching had stagnated due to the fall of al-Quds (Jerusalem) and successive defeats. Meanwhile, Dr. al-Bouti, in his *Fiqh al-Sirah*, concentrated more on refuting the misconceptions of Orientalists and Westernized individuals regarding the Prophet's life. He also provided detailed insights into specific aspects of the Prophet's life, such as preaching, jihad, migration (hijrah), and more.

Keywords: Jurisprudence of Islamic Preaching; Life of Muhammad (P.B.U.H); The Preacher; The Invitee; Methodology of Islamic Preaching; Abu al-A'la al-Mawdudi; Muhammad al-Ghazali; Ramadan al-Bouti.

فهرست الآيات الكريمة

الآية:	السورة ورقم آيتها	الصفحة
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).	٩٠	٩٠
﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)	٩٠	٩٠
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨).	٢٨٧	٢٨٧
﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١٠).	٢٨٧	٢٨٧
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١١).	٢٨٧	٢٨٧
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الشُّفَهَاءُ﴾ (البقرة: ١٣).	٢٨٧	٢٨٧
﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (البقرة: ١٤).	٢٨٨	٢٨٨
﴿وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ (البقرة: ٤١).	٢٨٢	٢٨٢
﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ (البقرة: ٧٦).	٢٨١	٢٨١
﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (البقرة: ١٠٦).	٢٨٣	٢٨٣
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة: ١٢٩).	٩٥	٩٥
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة: ١٢٩).	٢٠١	٢٠١
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).	١٣١	١٣١
﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣).	١٢٠	١٢٠
﴿فَدَرَى نَقْلُوبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤).	١٢٠	١٢٠
﴿وَلَمَّا أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٤٥).	٧٠	٧٠
﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).	١١٨	١١٨
﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠).	١١٣	١١٣
﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).	٣٦٢	٣٦٢

- ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١) ٣٦٢
- ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُمْ فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣). ٣٦٢
- ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧). ١٤٣
- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ (البقرة: ٢١٤). ١٠١
- ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧). ١٤٣
- ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٢١). ١٦٨
- ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨). ١٣٥
- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٧٣). ٢٠٠
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقَرُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٧٨). ٣٨٧
- ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). ١٧٧
- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ (آل عمران: ١٢). ٢٩٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلَا سَلَمٌ﴾ (آل عمران: ١٩). ١١
- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١). ٢٠٧
- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: ٥٠). ١١١
- ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾﴾ (آل عمران: ٥٠). ٩٤
- ﴿وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥). ٩٤
- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩). ٢٨٤
- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦١). ٢٨٤
- ﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ﴾ (آل عمران: ٧٢). ٢٨٢
- ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿١٠٤﴾﴾ (آل عمران: ١٠٤). ٥٩

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

٨١

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (آل عمران: ١١٠). ١٩١

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ (آل عمران: ١١٨). ٢٨٢

﴿ وَكَانَ مِن نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ (آل عمران: ١٤٦). ٢٧٢

﴿ وَسَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩). ٢٣١

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٦٠). ٣٦٥

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ﴾ (آل عمران: ١٦٤). ١٧٠

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٦٤). ٧٥

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ (آل عمران: ١٨١). ٢٩٨

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩١). ١٣٥

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠). ١٠٢

﴿ وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء: ٣٢). ٤٤٠

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣). ١٣٥

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ ﴾ (النساء: ٤٦). ٢٨٢

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥). ١٩٦

﴿ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ؕ ﴾ (النساء: ٦٩). ١٤٠

﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٧٨). ٩

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِّنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾ (النساء: ٨١). ٣١٤

﴿ فَاقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النساء: ٨٤). ٣٦٩

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (النساء: ٩٧). ١٦٠

- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٥).
 ١٧٢
- ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣).
 ١٠٩
- ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة: ٤٦).
 ١١٠
- ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨).
 ١١٠
- ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاً ﴾ (المائدة: ٤٨)
 ١٢
- ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١)،
 ١٦٠
- ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة: ٥٦).
 ١٦٠
- ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَنُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رَسُولُهُ ﴾ (المائدة: ٦٧).
 ١٣
- ﴿ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتْلَىٰ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ﴾ (المائدة: ٦٨).
 ١٠٩
- ﴿ لِعِبَادِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ٧٨).
 ٣١١
- ﴿ أَتَمَّا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْمُبِينُ ﴾ (المائدة: ٩٢)،
 ١٩٩
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ (المائدة: ١٠٤).
 ٩٨
- ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ (الأنعام: ١٩)
 ١٣
- ﴿ وَبِذَٰلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٣).
 ٣٩٩
- ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ ﴾ (الأعراف: ٢٨).
 ٧٦
- ﴿ بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ﴾ (الأعراف: ٣٥).
 ٦٥
- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف: ٥٩)،
 ٢٤٥
- ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).
 ١٧٢
- ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).
 ٣٢٧

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال: ١) ٢٠٢
- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١) ٢٠٤
- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ (الأنفال: ٩) ١٦٢
- ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢٠) ٢٠٤
- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ (الأنفال: ٦٢) ١٢١
- ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ (التوبة: ١) ٣٨٥
- ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَةً﴾ (التوبة: ٦) ٣٨٩
- ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ (التوبة: ١٧) ١٢٩
- ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ (التوبة: ١٨) ١٢٩
- ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ (التوبة: ٢٨) ١٢٨
- ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْكَابًا مِنَ دُوبِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١) ٦٥
- ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْكَابًا مِنَ دُوبِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١) ٤٠٢
- ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ (التوبة: ٤٧) ٣١٣
- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنَ لِي وَلَا نَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ (التوبة: ٤٩) ٣١٣
- ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ (التوبة: ٦٧) ١٩١
- ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ (التوبة: ٨١) ٣١٣
- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ (التوبة: ١١٣) ٧٩
- ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ١٢٠) ٢٨٩
- ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (التوبة: ١٢٢) ٩
- ﴿وَإِذَا تُنْزِلَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِشُرِّهِمْ غَيْرِ هَذَا﴾ (يونس: ١٥) ٢٥٩
- ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ (يونس: ١٥) ٧١

- ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس: ٣٦). ٩٨
- ﴿الْأَإِنِّهَمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ﴾ (هود: ٥) ١٧٥
- ﴿الْأَإِنِّهَمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ﴾ (هود: ٥). ٢٤٦
- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ﴿١٥﴾﴾ (هود: ١٥). ٩٣
- ﴿فَقَالَ أَمَلًا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ (هود: ٢٧). ٢٤٢
- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ (هود: ٢٩) ٢٤٢
- ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ (هود: ٨٧). ٧٦
- ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود: ٩١). ٢٦٩
- ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ﴾ (يوسف: ٤٠). ٦٥
- ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف: ١٠٤). ١٧٤
- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨). ١١
- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨). ٣٣٣
- ﴿حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ (يوسف: ١١٠). ٢٧١
- ﴿وَقَالُوا يَأَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: ٦). ٢٦١
- ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾ (الحجر: ١٤-١٥). ٢٧٠
- ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦). ٦٦
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤). ٢٥٠
- ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤). ٧١
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧). ٢٥٦
- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴿٦٣﴾﴾ (النحل: ٦٣). ١٧١
- ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). ٣٢٤

- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (بني إسرائيل: ٣٢). ٣٨٧
- ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (بني إسرائيل: ٣٦). ٩٨
- ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوُا عَلَىٰ آذُنِهِمْ فَتُورًا ۖ ﴾ (بني إسرائيل: ٤٦). ٦٢
- ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجُرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ ﴾ (١٠) أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ ﴿ (بني إسرائيل: ٩٠-٩١)، ٢٧٠
- ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ ﴾ (الكهف: ٢٨). ٢٤٢
- ﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْنَتْنَا بَيْنَتْ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًا ﴾ (مريم: ٧٣). ٢٥٩
- ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ (طه: ٢٠) ١٢
- ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ ﴾ (طه: ٩٨) ٦٣
- ﴿ قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ ۖ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٥٦) ﴿ (الأنبياء: ٥٦). ٦٣
- ﴿ وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ۖ ﴾ (الأنبياء: ٨٧). ١٨٨
- ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢). ١٥٣
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) ﴿ (الأنبياء: ١٠٧) ٤٠
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). ٦٨
- ﴿ وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: ٥). ٢٥٣
- ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج: ٢٧). ٣٣١
- ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣٩) ﴿ (الحج: ٣٩). ٣٦١
- ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج: ٣٩). ٣٨٥
- ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (الحج: ٤١) ١٣٣
- ﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْنَتْنَا بَيْنَتْ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ (الحج: ٧٢). ٢٥٨
- ﴿ هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (الحج: ٧٨). ٧٩
- ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (٢) ﴿ (المؤمنون: ١-٢) ١٣٥

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (النور: ١١) ٣٠٣
- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ (المؤمنون: ٢٤) ١٨٣
- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١) ١٣
- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١) ٣٨٣
- ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوعًا أَمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان: ٤١) ٣٧١
- ﴿فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢) ٥٢
- ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) ٢٤٠
- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَكِنَّمَا أَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يَوْمُونَ﴾ (٥٢) ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ (القصص: ٥٢-٥٣) ٨٠
- ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) (القصص: ٨٨).
- ٦٣
- ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) (العنكبوت: ٢) ١٠١
- ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ (العنكبوت: ٤٠) ١٧٩
- ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦) ٣٦٣
- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالتَّخْلُفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّونُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَلَمِينَ﴾ (الروم: ٢٢) ٣٨٢
- ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم: ٦٠) ١٨٤
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (لقمان: ٢١) ٧٧
- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤) ١٨٥
- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤) ١٨٥
- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١) (الأحزاب: ٢١) ٥٦
- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١) ٢٠٦
- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) ٣٩٩

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، ٤١٠

﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢) ٢١٨

﴿كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠)، ٦٩

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠)

١٤٩

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥) ١٧١،

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨)، ٦٧

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَغِيكُمْ إِذَا مَرَّ قَرْعُ كُلِّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٧)، ٧٤

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨)، ١٤٩

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨)، ١٨٠

﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٠)، ٦٤

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الصفافات: ٣٥) ٦٣

﴿وَجَبَّوْا أَن جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ (ص: ٤)، ٢٦١

﴿أَجْعَلِ لِلْأَلْهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: ٥)، ٦٣

﴿ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ (الزمر: ٤٥)، ٦٢

﴿أَنفَقْتُمْ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٨) ١٩٤

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)، ٢٥٠

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٢٦) ٢٥٩

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (فصلت: ٣٤) ٣٦٤

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (فصلت: ٤٠)، ٢٥٠

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)، ٧١

- ﴿وَالَّذِينَ يُجَاجِرُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ، جُحُومُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الشورى: ١٦). ٢٥٠
- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ (الشورى: ٤٨). ١٨٧
- ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد: ١٩). ٩٥
- ﴿قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ﴾ (ق: ١). ٣٧٨
- ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ (الرحمن: ١-٤). ٣٧٦
- ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَآ رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٧). ١٣٠
- ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة: ١٩). ٨٠
- ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْآيَمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجَاجِرُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ (الحشر: ٩). ١٢٠
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ﴾ (الممتحنة: ١). ٢٩١
- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُولِي﴾ (الصف: ٦). ١٠٧
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢). ١٩٩
- ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ ٨ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ۝ ٩ ۝﴾ (الملك: ٨-٩). ٦٦
- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤). ١٤
- ﴿وَإِنْ يَكَذِّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ لِقَاكَ يُبْصِرُهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم: ٥١). ٢٦١
- ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم: ٥٢). ١٤٩
- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ ٣٨ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ ٣٩ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ۝ ٤٠ ۝﴾ (المدثر: ٣٨-٤٠). ٩٠
- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ ١ ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝ ٢ ۝﴾ (عبس: ١-٢). ٢٤٣
- ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۝ ٣ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۝ ٤ ۝ أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَلَ ۝ ٥ ۝﴾ (عبس: ٣-٥). ٢٤٣
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ ٢٩ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ۝ ٣٠ ۝﴾ (المطففين: ٢٩-٣٠). ٢٥٠
- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ ٧ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ ٨ ۝﴾ (الزلزلة: ٧-٨). ٨٥
- ﴿وَالْعَصْرِ ۝ ١ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ۝ ٢ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (العصر: ١-٣). ٧٧

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝﴾ (العصر: ١-٣). ١٩٤

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۝٢ إِنَّا شَائِئُكَ هُوَ الْآبِتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر: ١-٣). ٢٤٩.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ فَتَرْكُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ (الكافرون: ١-٢). ٢٤٧

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ (النصر: ١-٣). ٣٧٥

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ (المسد: ١). ٨١

ثانيا فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث

الصفحة

- ٣٥ ١- (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)
- ٦٤ ٢- (يَا عَدِيَّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٍ):
- ٦٥ ٣- (أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ).
- ٦٨ ٤- (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ)
- ٦٨ ٥- (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ، أَوْ: كَهَاتَيْنِ " وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى)
- ٦٩ ٦- (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْتُمُونَ).
- ٦٩ ٧- (إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ، مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ، أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ،)
- ٦٩ ٨- (أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي)
- ٨٦ ٩- (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)
- ٨٨ ١٠- (أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النَّسَاءِ، أَوِ النَّاسِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا)
- ٩٣ ١١- (اللَّهُمَّ نَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ،)
- ١٠١ ١٢- (كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ)
- ١٠٢ ١٣- (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ)
- ١٠٧ ١٤- (هُوَ عَلَىكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ)
- ١٠٩ ١٥- (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ،)
- ١٢٦ ١٦- (مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ)
- ١٢٨ ١٧- (هَلْ أَنْتَ مُرِيحِي مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ)
- ١٣٩ ١٨- (لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)
- ١٤٧ ١٩- (أَمَّا إِنِّي سَأَكْتُبُ لَكَ بِالْوَصَاةِ بَعْدِي)
- ١٥٤ ٢١- (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: بَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى، مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَافَةَ السَّهْمِيِّ)
- ١٦١ ٢٢- (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ، بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: هَذَا مَصْرَعُ فَلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ،)
- ١٧٦ ٢٣- (وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ)
- ١٧٩ ٢٤- (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا).
- ١٨٥ ٢٥- (لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ).
- ١٨٩ ٢٦- (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ)
- ١٩٤ ٢٧- (رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا)
- ٢٠٧ ٢٨- (قَوْمُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا،)

- ٢١٤ - (أَيَزِيدُونَ أَمْ يُنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ...)
- ٢١٤ - (لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَصَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ.)
- ٢١٥ - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ)
- ٢١٦ - (وَاللَّهُ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا)
- ٢١٩ - (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي)
- ٢٢٢ - (أُحَدِّثُ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)
- ٢٢٣ - (مَا مِنْ أَمِيرٍ بَلِيٍّ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ، وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ).
- ٢٣١ - (ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصِيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: انْهَزِمُوا وَرَبُّ مُحَمَّدٍ)
- ٢٣٣ - (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ)
- ٢٣٦ - (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ)
- ٢٤٠ - (وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّينِي مَا شِئْتُ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)
- ٢٤٤ - (الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّخَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ)
- ٢٤٨ - (وَاللَّهُ مَا كَذَبَ قَطُّ، ارْجِعُوا رَاشِدِينَ)
- ٢٧٦ - (لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ)
- ٢٧٦ - (إِنَّ الْأَنْصَارَ قَدْ قَضَوْا مَا عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ مَا عَلَيْكُمْ فَأَحْسِنُوا إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ)
- ٢٧٧ - (لَا يُجِبُهُمْ إِلَّا الْمُؤْمِنُ، وَلَا يُعْضِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مِنْ أَحَبَّهُمْ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَأَبْغَضَهُ اللَّهُ)
- ٢٧٧ - (أَرَأَيْتَ اسْمَ الْأَنْصَارِ كُنْتُمْ تَسْمُونَ بِهِ، أَمْ سَمَّاكُمْ اللَّهُ؟ قَالَ: بَلْ سَمَانَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)
- ٢٧٧ - (أَسْلَمَتِ الْمَلَائِكَةُ طَوْعًا، وَأَسْلَمَتِ الْأَنْصَارُ طَوْعًا، وَأَسْلَمَتِ عَبْدُ الْقَيْسِ طَوْعًا)
- ٢٨٤ - (دَعُوا الْحَبْشَةَ مَا وَدَّعُوكُمْ، وَاتْرَكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ)
- ٢٩١ - (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)
- ٢٩٢ - (أُحَدِّثُ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)
- ٢٩٢ - (إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضَ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا)
- ٢٩٤ - (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ سَيْفًا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: مَنْ يَأْخُذْ مِنِّي هَذَا؟)
- ٣٠٥ - (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)
- ٣٠٧ - (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ.)
- ٣١٤ - (دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)
- ٣٢٨ - (يَسْرُوا وَلَا تَعْسُرُوا، وَبَشُرُوا، وَلَا تَنْفَرُوا)
- ٣٣٠ - (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ، فَقَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ،)
- ٣٤١ - (رُفِعَتْ إِلَى السُّدْرَةِ، فَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النَّيْلُ وَالْفَرَاتُ،)
- ٣٦٩ - (مَنْ عَلِمَ الرَّمِيَّ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى)
- ٣٧٠ - (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى كِسْرَى، وَفَيْصَرَ، وَالنَّجَاشِيِّ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا بِخَاتَمٍ،)
- ٣٨٤ - (إِنَّهَا تَأْتِينِي كُتُبٌ لَا أَحِبُّ أَنْ يَفْرَأَهَا كُلُّ أَحَدٍ، هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْلَمَ كِتَابَ الْعِبْرَانِيَّةِ؟)

- ٣٨٦ ٦١- (إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَأَعْجِبْهُمْ ، فَضْحِكَ النَّبِيُّ ﷺ)
- ٣٩٠ ٦٢- (يَسْرًا وَلَا تَعْسَرًا ، وَبَشْرًا وَلَا تَتَفَرًّا ، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلِفًا)
- ٣٩١ ٦٣- (إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،)
- ٤٠٢ ٦٤- (أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ)
- ٤١٧ ٦٥- (إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُونَ ،
- ٤٣٧ ٦٦- «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا» ،

فهرس الأعلام

العلم	الصفحة
أبوبكر ابن العربى	١٠٤
أتاترك	٤٤
أحمد البدوى	٨٤
أحمد بن يحى البلاذرى	١٢٢
أحمد غلوش	٤, ١١, ٤٦٧
الألوسى	٦٢, ٦٣, ٤٦٣
برنارد لازار	٣١١
البينانونى	١٧٠, ٢٣٨, ٣١٦, ٣١٧, ٤٦٤
التهانوى	٩, ١٢٧, ٤٦٥
الجرجانى	١٠, ٩٨, ٤٦٥
ابن الجزى	٣٧٢
جولد تسيهر	٤١
جيب	٩٩, ١٦٠, ٤٣٥
أبو حامد الغزالى	٣٤, ٩٣
ابن حزم الأندلسى	٢٢٢
حسن البنا	٣٦, ٣٧, ٤٩, ١٣٣
حسن حبنكة الميدانى	٤٧
أبو الحسن الندوى	٢٨, ١٣٢, ١٥١, ٣٠٠
حسين هيكل	٤٣٠
ابن الديع الشيبانى	٢٥٤, ٤٦٠
الرافعى	٣٨٩

۳۴	ابن رشد
۳۸۹	الزرکشی
۳۷۷, ۳۹۲, ۴۶۲	أبو زهرة
۴۰۷	سر سید
۲۰	سکندر اللودهی
۲۲	سید سلیمان الندوی
۳۷, ۶۵, ۱۹۶, ۲۹۶, ۳۴۶, ۴۱۹	سید قطب
۴۰۷, ۴۴۶	شبلی نعمانی
۲۳	صدر الدین الشیرازی
۱۰۷	صفی الرحمان مبارکفوری
۴۰۷	ظفر اقبال
۳۸	عبد الحلیم محمود
۲۰	عبد العزیز جاویش
۱۸	عبد الفتاح أبو غدة
۱۱	عبد الکریم زیدان
۳۲, ۳۳	عبد الوکیل العلوی
۱۸, ۴۶۱	ابن عطیة
۳۲	غلام رسول مهر
۱۰۶	فان فلوتن
۴۲۹	فروید
۲۰	قاسم أمين
۱۹, ۴۷۲	القرافی
۱۹	قطب الدین مودود چشتی
۲۱۹, ۴۷۳	کارین ارمسترونج
۱۰۶	کریمر

٤٠١	مالکوم اکس
٢١٥	مایکل هارت
٢٢, ٢٣, ٢٤, ٤٧٠	محمد إقبال
٤٣١	محمد رجب البیومی
١٣٨	محمد سلیم العوا
١٧	محمد عبد الله دراز
٢٢, ٤٧٤	محمد علی جوهر
٤٣٠, ٤٣١	محمد فرید و جدی
٤٠٩, ٤٧٤	محمود أحمد غازی
٣٥	محمود شلتوت
٤٩, ٥٧, ٣٩٨, ٤٢٦	مصطفی السباعی
١٢٥	میکاولی
٥٨, ٤١٦, ٤٢٢, ٤٣٧	ناصر الدین الألبانی
٣٠, ٣١, ٣٢, ٢٨٣, ٢٨٤, ٤٠٦, ٤٧٥	نعیم صدیقی
٣٧٤, ٣٨٩	النوی
١٥, ٢٢٧, ٤٧٦	الواقدی
٣٨٥	وهبة الزحيلي
٢٨, ٣٦, ٤٠, ٤١, ٤٢, ٤٣, ٤٢٠, ٤٧٤	یوسف القرضاوی

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- ١- أ محزون، محمد، منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة (القاهرة: دار السلام، ط ٥، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م).
- ٢- ابن أبي شبة، عبد الله بن محمد، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المحقق: كمال يوسف الحوت (الرياض: مكتبة الرشد، ط ١، ١٤٠٩هـ).
- ٣- ابن اسحاق، محمد، سيرة ابن إسحاق، تحقيق: سهيل زكار (بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).
- ٤- ابن الأثير، عز الدين بو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
- ٥- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي (بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م).
- ٦- ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين، تاريخ عمر بن الخطاب (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ب ت ط).
- ٧- ابن الديبع الشيباني، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي، حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ﷺ، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري (مكة المكرمة: المكتبة المكية، ط ٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).
- ٨- ابن العربي، محمد بن عبد الله أبو بكر، أحكام القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).
- ٩- ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩١م).
- ١٠- ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: أبي محمد حمود بن محمد (دمشق: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م).
- ١١- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل (بيروت: دار عالم الكتب، ط ٧، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م).
- ١٢- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م).
- ١٣- ابن جزى، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط ١، ١٤١٦هـ).

- ١٤- ابن حبان البستي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
- ١٥- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري (بيروت: دار المعرفة، ط ١، ١٣٧٩ هـ).
- ١٦- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، الأخلاق والسير في مداواة النفوس (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط ١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م).
- ١٧- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، فضائل الصحابة، المحقق: د. وصي الله محمد عباس (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م).
- ١٨- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (مقدمة ابن خلدون)، المحقق: خليل شحادة (بيروت، دار الفكر، ط ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
- ١٩- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م).
- ٢٠- ابن عابدين، حمد أمين بن عمر بن عبد العزيز، رد المحتار على الدر المختار (بيروت: دار الفكر، ط ٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).
- ٢١- ابن عباس، عبد الله، الإسراء والمعراج (بيروت: المكتبة الثقافية، ط ١، ب ت ط).
- ٢٢- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢ هـ)، ج ١، ص ٥٣٧.
- ٢٣- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م).
- ٢٤- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر سعد شمس الدين، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م).
- ٢٥- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، المحقق: محمد أحمد الحاج (جدة: دار الشامية، ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م).
- ٢٦- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، الفوائد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م).
- ٢٧- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م).

- ٢٨- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، المحقق: علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
- ٢٩- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩ هـ).
- ٣٠- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (مصر: دار إحياء الكتب العربية، ب ت ط).
- ٣١- ابن منظور الإفريقي، محمد بن مكرم جمال الدين، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ط ٣، ١٤١٤ هـ).
- ٣٢- ابن نجيم المصري، زين الدين بن إبراهيم، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (بيروت: دار الكتاب الإسلامي، ط ٢، ب ت ط).
- ٣٣- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م).
- ٣٤- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ب ت ط).
- ٣٥- أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، (بيروت: دار إحياء الكتب العلمية، ١٤٠٥ هـ).
- ٣٦- أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، المحقق: أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م).
- ٣٧- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: المكتبة العصرية، صيدا، ب ت ط).
- ٣٨- أبو زهرة، محمد، الخطابة، أصولها وتاريخها (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م).
- ٣٩- أبو غدة، عبد الفتاح، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم (بيروت: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط ٤، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م).
- ٤٠- أبو فارس، محمد عبد القادر، المدرسة النبوية العسكرية، (عمان: دار الفرقان، ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م).
- ٤١- أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).
- ٤٢- أحمد، فريد، وقفات تربوية في السيرة النبوية (الإسكندرية: دار العقيدة، ط ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م).
- ٤٣- أحمد، مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).

- ٤٤- أحمد، مهدي رزق الله، صفوة السيرة النبوية في سيرة خير البشرية (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط ٣، ١٤٢٣هـ - ٢٠١١م).
- ٤٦- الأزرق، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد المكي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، المحقق: رشدي الصالح ملحق (بيروت: دار الأندلس للنشر، ب ت ط).
- ٤٧- الأسطل، علي رضوان أحمد، الوفود في العهد المكي وأثرها الإعلامي (الأردن: مكتبة المنار، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
- ٤٨- أشرفي، سيد أحمد، بحوث في معرفة الأديان (جستارهاي در دين شناسي تطبيقي) (كابل: الطباعة الفنية الأفغانية، ١٣٨٩هـ ش).
- ٤٩- الأشعري، أحمد داوود المزجاجي، مقدمة في الإدارة الإسلامية (جدة: جامعة الملك عبد العزيز، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- ٥٠- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (مصر: السعادة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).
- ٥١- آل محمود، أحمد محمود، البيعة في الإسلام (بحرين، دار الرازي، ط ١، ب ت ط).
- ٥٢- الألباني، محمد ناصر الدين، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة (دمشق: مؤسسة ومكتبة الخافقين، ط ١، ب ت ط).
- ٥٣- الألبزائري، أبوبكر جابر، عقيدة المؤمن (جدة: دار الشروق، ط ٤، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
- ٥٤- الآلوسي، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ).
- ٥٥- أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٩م).
- ٥٦- الباكري، حسين أحمد، مرويّات غزوة أحد (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٣٩٩هـ).
- ٥٧- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، القراءة خلف الإمام (القاهرة: المكتبة السلفية، ط ١، ١٤٠٠هـ).
- ٥٨- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (مصر: دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ).
- ٥٩- بدر الدين العيني، أبو محمد محمد بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ب ت ط).
- ٦٠- بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين (بيروت: دار العالم للملايين، ط ٣، ١٩٩٣م).
- ٦١- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي (بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).

- ٦٢- البوطي، محمد سعيد رمضان، المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني (دمشق: دار الفكر، ط ٢، ب ت ط).
- ٦٣- البوطي، محمد سعيد رمضان، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث (دمشق: دار الفكر، ط ١، ٢٠١٨م).
- ٦٤- البوطي، محمد سعيد رمضان، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ب ت ط).
- ٦٥- البوطي، محمد سعيد رمضان، الإسلام والعصر تحديات وآفاق (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨).
- ٦٦- البوطي، محمد سعيد رمضان، البدايات باكورة أعماله الفكرية (دمشق: دار الفكر، ط ٢، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م).
- ٦٧- البوطي، محمد سعيد رمضان، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ (دمشق: دار الفكر المعاصر، ط ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م).
- ٦٨- البوطي، محمد سعيد رمضان، شخصيات استوقفتني (دمشق: دار الفكر، ط ٧، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م).
- ٦٩- البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الرشدة (دمشق: دار الفكر، ط ٤٤، ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م).
- ٧٠- البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقنيات الكونية (دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٩٩٧).
- ٧١- البوطي، محمد سعيد رمضان، من سنن الله في عباده، (دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٩٩٧ ب ت ط).
- ٧٢- البوطي، محمد سعيد رمضان، هذا والدي- القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨م).
- ٧٣- البوطي، محمد سعيد رمضان، هكذا فلندع إلى الإسلام (دمشق: مؤسسة الرسالة، ب ت ط).
- ٧٤- البينانوني، محمد أبو الفتح، المدخل إلى علم الدعوة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م).
- ٧٥- البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٨م).
- ٧٦- البيومي، محمد رجب، البيان القرآني (القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية لجامعة الأزهر، ١٩٧١م).
- ٧٧- البيومي، محمد رجب، السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين (القاهرة: مكتبة المهتدين الإسلامية، ط ١، ب ت ط).
- ٧٨- ترابي، أليف الدين، أبو الأعلى المودودي حياته و دعوته (الكويت: دار القلم، ط ١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).
- ٧٩- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، المحقق: أحمد محمد شاكر و محمد فؤاد عبد الباقي (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥).
- ٨٠- التميمي، محمد بن خليفة، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة (الرياض: مكتبة أضواء السلف، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).

- ٨١- التهانوي، محمد علي، كشاف اصطلاحات العلوم والفنون (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٦).
- ٨٢- الجرجاني، علي بن محمد، كتاب التعريفات (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).
- ٨٣- الجعبري، سمير روبين عبد الحليم، الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي وأراؤه الإعتقادية (جامعة خليل: رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في أصول الدين، ٢٠١٥م).
- ٨٤- جمال الدين، محمد سعيد، وعبد الله محمد جمال الدين، مناهج البحث والمصادر في الدراسات الإسلامية والعربية (إسلام آباد: دار الصدق، ط ١، ب ت ط).
- ٨٥- جمجود، سميرة محمد عمر، المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منهم (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م).
- ٨٦- جمعة، علي، الغزالي ورؤيته المنهجية الفكر الإسلامي والإنساني (الأردن: المعهد الإسلامي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- ٨٧- الجهني، مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤٢٠هـ).
- ٨٨- جيب، بنية الفكر الديني في الإسلام، تعريب: عادل العوا (دمشق: جامعة دمشق، ط ١، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م).
- ٨٩- جيلاني، أسعد، أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته (باكستان: الأكاديمية الإسلامية بمنصورة، ط ٦، ١٩٨٣م).
- ٩٠- الحارثي، ناصر بن علي، دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة المكرمة - دراسة تاريخية حضارية، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، مجلة الدارة، رجب ١٤٢٦هـ)، ص ٤١-٤٤.
- ٩١- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
- ٩٢- الحامدي، خليل، الإمام أبو الأعلى المودودي - حياته، دعوته، جهاده - (الرياض: مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤٠٣هـ).
- ٩٣- حب الله، محمود، الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م).
- ٩٤- الحداد، محمد عاصم، سفرنامه (رحلة) أرض القرآن (لاهور: فيصل لنشر الكتب، ٢٠٠٣م).
- ٩٥- حسن، نور حسن، التأدب مع الرسول ﷺ (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ٩٦- الحسين، عثمان، محمد سعيد رمضان البوطي وآثاره الأدبية (دمشق: دار الفكر، ٢٠١٥م).
- ٩٧- حسيني، سيد سعادت الله، كتب السيرة نبذة سريعة (كتب سيرت: ايك اجمالي جائزه) (موقع قنديل، 23/10/ 2020 .qindeelononline.com/kutbe- sirat-aik-ijmali- jayeza/).

- ٩٨- الحنين، سلطان بن عمر ، الدعوة إلى الله في الحج (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ب ت ط).
- ٩٩- الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الصوفية (القاهرة: دار الرشد، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م).
- ١٠٠- حمزة، عمر يوسف، أهمية السيرة النبوية في ثقافة الداعية، (قطر: جامعة قطر، بحث منشور على Q Space المستودع الرقمي، ١٩٩٠م. qspace.qu.edu.qa
- ١٠١- حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت: دار النفائس، ط ٦، ١٤٠٧هـ).
- ١٠٢- الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله، التاريخ الإسلامي - مواقف وعبر (الإسكندرية: دارالدعوة، ط ٣، ١٤١٥هـ)
- ١٠٣- حوى، سعيد، الأساس في السنة وفقهها (القاهرة: دار السلام، ط ٣، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م).
- ١٠٤- الخازن، علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، المحقق: محمد علي شاهين (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥ هـ).
- ١٠٥- خطاب، محمود شيت، الرسول القائد (بغداد: مكتبة الحياة ط ٢، ١٩٦٠م).
- ١٠٦- خطاب، محمود شيت، سفراء النبي ﷺ (بيروت: مؤسسة الريان، ط ١، ١٤١٧ هـ-١٩٩٦م).
- ١٠٧- الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد البستي، الغزلة، المحقق: ياسين محمد السواس (دمشق: دار ابن كثير، ط ٢، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
- ١٠٨- الخطيب الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م).
- ١٠٩- الخلف، سعود بن عبد العزيز، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (الرياض: مكتبة أضواء السلف، ط ٤، ٢٠٠٥م).
- ١١٠- خليل، عماد الدين، دراسة في السيرة النبوية (بيروت: دار النفائس، ط ١٣، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١ م).
- ١١١- داروين، أصل الأنواع- السيرة الذاتية للمؤلف، ترجمة: مجدي محمود المليجي (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٤م).
- ١١٢- دحمان، زيرق، منهج الدعوة إلى الله مع محمد سعيد رمضان البوطي من خلال مؤلفيه: فقه السيرة النبوية وكبرى اليقينيات الكونية (الجزائر: جامعة زيان عاشور بالجلفة، مجلة المداد - في العلوم الإنسانية والاجتماعية، (www.asjp.cerist.dz/en/artic
- ١١٣- دراز، محمد بن عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم (القاهرة: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).

١١٤- دروزة، محمد عزة، سيرة الرسول ﷺ - صور مقتبسة من القرآن الكريم (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ب ت ط).

١١٥- جريدة المحجة، العدد: ٤٣٨، ٢٠١٧م، الدكتور أحمد غلوش شيخ أساتذة الدعوة في مصر (سيرة ومسيرة)، almahajjafes.net.

١١٦- الدوسري، عبد الرحمن، النفاق، آثاره ومفاهيمه (الرياض: مكتبة الرشد، ط ٢، ١٤٠٤هـ).

١١٧- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

١١٨- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح (بيروت: المكتبة العصرية، ط ٥، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

١١٩- الرازي، فخر الدين، الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح، تحقيق: مصطفى عاشور (القاهرة: مكتبة القرآن، ب ت ط).

١٢٠- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي (بيروت: دار القلم، ط ١، ١٤١٢هـ).

١٢١- الرحيلي، حمود بن أحمد، أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط ٣، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

١٢٢- الرشيد، عبد العزيز راشد علي، رسالة المسجد التربوية (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

١٢٣- رضا، صالح أحمد، إنها النبوة - بصائر وعبر من سيرة خير البشر - (دبي: دار الخيل للنشر والتوزيع، ط ٣، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م).

١٢٤- الرقب، صالح حسين، أبو الأعلى المودودي ومنهجه في الإصلاح والدعوة (جامعة أم القرى: رسالة مقدمة لئيل درجة الماجستير في العقيدة، عام ١٤٠٢هـ).

١٢٥- الريسوني، قطب، التيسير الفقهي - مشروعيته وضوابطه وعوائده (بيروت: دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

١٢٦- الزحيلي، وهبة، شمائل المصطفى ﷺ (دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).

١٢٧- الزحيلي، وهبة، العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

١٢٨- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، ب ت ط).

- ١٢٩- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد، الأعلام (دمشق: دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م).
- ١٣٠- الزركشي، محمد بن عبد الله، اعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفاء مصطفى المراغي (مصر: وزارة الأوقاف، ١٤١٦هـ-١٩٩٦).
- ١٣١- زريق، برهان، الصحيفة ميثاق الرسول (دمشق: دار النмир، ط ١، ١٩٩٦م).
- ١٣٢- الزيد، زيد عبد الكريم، فقه السيرة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٢٨هـ).
- ١٣٣- زيدان، عبد الكريم، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م).
- ١٣٤- زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٩، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م).
- ١٣٥- السباعي، مصطفى بن حسني، السيرة النبوية - دروس وعبر (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).
- ١٣٦- السباعي، مصطفى، التكافل الاجتماعي في الإسلام (بيروت: دار الوراق، ط ١، ١٤٣٠هـ-٢٠١٠م).
- ١٣٧- السجستاني، أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث، كتاب المصاحف، المحقق: محمد بن عبده (القاهرة: الفاروق الحديثة، ط ١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م).
- ١٣٨- سعيد، عبد الجبار، الغزالي ومنهجه في التعامل مع السنة النبوية (الأردن: المعهد الإسلامي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م).
- ١٣٩- السلمي، محمد بن صامل، مسائل في منهج دراسة السيرة النبوية (الرياض: دار ابن جوزي، ط ١، ب ت ط).
- ١٤٠- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المحقق: عمر عبد السلام السلامي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٦، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).
- ١٤١- السويكت، سليمان بن عبد الله بن مديد، محنة المسلمين في العهد المكي (الرياض: مكتبة التوبة، ط ١، ب ت ط).
- ١٤٢- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م).
- ١٤٣- شارب، عبد الله راجح، مرويات الوفود التي قدمت على النبي ﷺ (صنعاء: جامعة صنعاء، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م).
- ١٤٤- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان (الرياض: دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
- ١٤٥- الشافعي، حسن، وأبو اليزيد العجمي، في التصوف الإسلامي (القاهرة: دار السلام، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م).

- ١٤٦- شاكِر، عبد الجبار، سيرت نكاري او مولانا مودوي (المودودي وكتابة السيرة النبوية) (لاهور: مجلة ترجمان القرآن، مايو ٢٠٠٦م).
- ١٤٧- الشامي، صالح أحمد، من معين السيرة (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٤، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م).
- ١٤٨- الشامي، محمد بن يوسف الصالح، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض (بيروت: دار دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م).
- ١٤٩- شاهين، أحمد عبد الهادي، وسائل الدعوة وأساليبها (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ١، ١٤٤٣هـ- ٢٠٢٢م).
- ١٥٠- الشعيبي، أحمد قائد، وثيقة المدينة - المضمون والدلالة (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، ١٤٢٦هـ).
- ١٥١- شلبي، أحمد، اليهودية (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط ٨، ١٩٨٨م).
- ١٥٢- شمام، عبد العال، الدعوة الإسلامية في ضوء المقاصد الشرعية (السودان: جامعة إفريقيا العالمية- مجلة المركز الإسلامي الإفريقي، العدد ٢٠، ٢٠١٠م).
- ١٥٣- شميل، شلبي، مقدمة فلسفة النشوء والارتقاء، (القاهرة، دار مارون عبود، ط ٢، ١٩٨٣م).
- ١٥٤- صقر، شحاتة، إدارة العمل الدعوي (الإسكندرية، دار الخلفاء الراشدين، ط ١، ب ت ط).
- ١٥٥- الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية- عرض وقائع وتحليل أحداث (لبنان: شركة أبناء شريف الأنصاري، ط ١٢، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م).
- ١٥٦- الصلابي، علي محمد، فقه التمكن في القرآن الكريم (عمان، دار البيارق، ط ١، ١٩٩٩م).
- ١٥٧- الصلابي، علي محمد، وسطية القرآن في العقائد (إسكندرية: دار الإيمان، ٢٠٠٢م).
- ١٥٨- الصوياني، محمد، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (الرياض: مكتبة العبيكان، ط ١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م).
- ١٥٩- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الأوسط، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (القاهرة: دار الحرمين، ب ت ط).
- ١٦٠- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الكبير، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي (القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط ٢، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م).
- ١٦١- ظهير، فضل إلهي، حب النبي ﷺ وعلاماته (الرياض، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط ١٢، ١٤٣٥هـ).
- ١٦٢- عبد الرحمن، سعيد، شيوخ الأزهر (القاهرة: الشركة العربية للنشر والتوزيع، ١٣٩٧م).

- ١٦٣- عبد الغني ، عبد المقصود ، محمد إقبال ومنهجه في تجديد الفكر الإسلامي (القاهرة: مكتبة الزهراء ، ٢٠٠٠م)
- ١٦٤- العتيبي ، سعد بن مطر المرشدي ، التعليق على السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (عنيزة: مدار الوطن للنشر ، ط ٢ ، ١٤٣٤هـ).
- ١٦٥- عرجون ، محمد الصادق ابراهيم ، محمد رسول الله ﷺ (بيروت ، دار القلم ، ب ت ط).
- ١٦٦- عرموش ، احمد راتب ، قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية (بيروت: دار النفائس ، ط ٧ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
- ١٦٧- عزام ، عبد الله يوسف ، العقيدة وأثرها في بناء الجيل (بشاور: مكتب خدمات المجاهدين ، ط ١ ، ١٩٨٨هـ).
- ١٦٨- العقيل ، عبد الله ، أدب الحوار والمجادلة (القاهرة ، مركز الإعلام العربي ، ط ٢ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
- ١٦٩- العقيل ، عبد الله ، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة (القاهرة: دار البشير ، ط ١ ، ٢٠١١م).
- ١٧٠- علوان ، عبد الله ناصح ، سلسلة مدرسة الدعوة (القاهرة ، دار السلام ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ - ٢٠٠٤م).
- ١٧١- عليوان ، هشام وفادي الغوي ، البوطي - الدعوة والجهاد والإسلام السياسي (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ، ط ١ ، ٢٠١٢م).
- ١٧٢- عمارة ، محمد ، أبو الأعلى المودودي والصحة الإسلامية (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، ب ت ط).
- ١٧٣- عمارة ، محمد ، الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).
- ١٧٤- العمري ، أكرم ضياء ، السيرة النبوية الصحيحة (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم ، ط ٦ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- ١٧٥- العمري ، أكرم ضياء ، الرسالة والرسول (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ، ط ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م). ١٧٦- العوا ، محمد سليم ، في النظام السياسي للدولة الإسلامية (القاهرة: دار الشروق ، ط ٢ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- ١٧٧- العواجي ، محمد بن محمد ، أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، ب ت ط).
- ١٧٨- العودة ، سلمان بن فهد ، من أخلاق الداعية (موقع طريق الإسلام ، ب ت ط) ، ص ١٦.
- ١٧٩- عياض ، بن موسى ، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ (عمان: دار الفحاء ، ١٤٠٧هـ).
- ١٨٠- العيد ، سليمان بن قاسم ، الدعاء وأهميته في الدعوة إلى الله في ضوء القرآن والسنة (الرياض: جامعة الملك سعود ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ).

- ١٨١- عيسى، محمد حسين، دور المرأة في حمل الدعوة (جيزة: قطر الندى للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م).
- ١٨٢- غازي، محمد جميل، من مفردات القرآن - المنافقون- (جدة: مكتبة المدني ومطبعها، ب ت ط).
- ١٨٣- غازي، محمود أحمد، محاضرات سيرت ﷺ (لاهور: نشر الفيصل، ط ٣، ٢٠٠٩م).
- ١٨٤- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة، ب ت ط).
- ١٨٥- الغزالي، عبد الحميد، حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة (بورسعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط ١٣، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م).
- ١٨٦- الغزالي، محمد، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (بيروت: دار الشروق، ط ٦، ب ت ط).
- ١٨٧- الغزالي، محمد، ليس من الإسلام (بيروت: دار الشروق، ط ٦، ب ت ط).
- ١٨٨- الغزالي، محمد، الإسلام والإستبداد السياسي (القاهرة: نهضة مصر، ط ٦، ٢٠٠٥م).
- ١٨٩- الغزالي، محمد، الإسلام والأوضاع الإقتصادية (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).
- ١٩٠- الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (دمشق: دار القلم، ط ٢، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م).
- ١٩١- الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية في القرن الحالي (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).
- ١٩٢- الغزالي، محمد، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).
- ١٩٣- الغزالي، محمد، عقيدة المسلم (القاهرة: دار نهضة مصر، ط ٤، ٢٠٠٥م).
- ١٩٤- الغزالي، محمد، فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء (بيروت: دار الشروق، ط ١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).
- ١٩٥- الغزالي، محمد، هذا ديننا (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م).
- ١٩٦- الغزالي، محمد، هموم داعية (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).
- ١٩٧- الغزالي، محمد، الجانب العاطفي من الإسلام (القاهرة: نهضة مصر، ط ٣، ٢٠٠٥م).
- ١٩٨- الغزالي، محمد، خلق المسلم (إسكندرية: دار الدعوة، ط ٥، ١٤١٤هـ-، ١٩٩٤م).
- ١٩٩- الغزالي، محمد، فقه السيرة (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي، ط ٧، ١٩٧٦م)، ص ٧.
- ٢٠٠- الغزالي، محمد، مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة (دمشق، دار القلم، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).
- ٢٠١- الغضبان، منير محمد، المنهج الحركي للسيرة النبوية (الأردن: مكتبة المنار، ط ٦، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
- ٢٠٢- غضبان، منير محمد، فقه السيرة النبوية (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
- ٢٠٣- الغضبان، منير، التربية القيادية (السابقون الأولون من الأنصار) (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م).

- ٢٠٤- غلوش ، أحمد أحمد ، الدعوة الإسلامية- أصولها ووسائلها (القاهرة: دار الكتاب المصري، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).
- ٢٠٥- غلوش ، أحمد أحمد ، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١ ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م).
- ٢٠٦- غلوش ، أحمد أحمد ، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي (القاهرة: مؤسسة الرسالة، ط ١ ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).
- ٢٠٧- الفالح ، عبد الله بن سعد بن ابراهيم ، الابتلاء وأثره في الدعوة في العهد النبوي (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٤ هـ).
- ٢٠٨- فائز ، أحمد ، طريق الدعوة في ظلال القرآن (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٧ هـ-١٩٧٧م).
- ٢٠٩- فرج ، نورة بنت عبد اللطيف ، الرفق وأثره في الدعوة إلى الله (مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٩هـ).
- ٢١٠- فضل ، إلهي ، اللين و الرفق (ججرانواله ، ترجمان الإسلام ، ط ٢ ، ١٤١٢هـ-١٩٩١م).
- ٢١١- فوزي ، محمد فيض الله ، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة (دمشق: الدار الشامية ، ط ١ ، ١٤١٦هـ).
- ٢١٢- الفيروزآبادي ، مجد الدين أبو طاهر محمد ، القاموس المحيط (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ٨ ، ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥ م).
- ٢١٣- الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (بيروت: المكتبة العلمية ، ب. ت. ط).
- ٢١٤- القحطاني: سعيد بن علي بن وهف ، فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط ١ ، ١٤٢١هـ).
- ٢١٥- القحطاني ، سعيد بن علي بن وهف ، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى (الرياض ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ط ٤ ، ١٤٢٥هـ).
- ٢١٦- القحطاني ، محمد بن سعيد ، الولاء والبراء في الإسلام (مكة المكرمة: دار طيبة ، ط ٦ ، ١٤١٣هـ).
- ٢١٧- القرافي ، شهاب الدين أحمد بن إدريس ، أنوار البروق في أنواء الفروق (الفروق) ((بيروت: عالم الكتب ، ب ت ط).
- ٢١٨- القرضاوي ، يوسف ، الشيخ الغزالي كما عرفته- رحلة نصف قرن (القاهرة: دار الشروق ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)، ص ٣١-٣٢.
- ٢١٩- القرضاوي ، يوسف ، واجب الشباب المسلم اليوم (القاهر: مكتبة وهبة ، ط ١ ، ب ت ط).
- ٢٢٠- القرضاوي ، يوسف ، العبادة في الإسلام (القاهرة: مكتبة وهبة ، ط ٢٤ ، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م).
- ٢٢١- القرضاوي ، يوسف ، نظرات في فكر الإمام المودودي (القاهرة: دار المقاصد ، ط ١ ، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م).

- ٢٢٢- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (القاهرة: دار الكتب المصرية ، ط ٢ ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م).
- ٢٢٣- القرني ، عبد العزيز بن عبد الله ، منهج دعوة وجهاء القوم والدور الدعوي المنوط بهم (المدينة المنورة ، مجلة العلوم الإسلامية الدولية ، العدد الرابع ، ٢٠٢٣).
- ٢٢٤- قريشي ، عمر بن عبد العزيز ، سماحة الإسلام (الرياض ، مكتبة الأديب ، ط ٣ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م).
- ٢٢٥- القطان ، مناع الخليل ، القضاء في عهد الرسول ﷺ (الرياض ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ط ١ ، وقائع ندوة النظم الإسلامية المنعقدة في أبوظبي صفر ١٤٠٥هـ - نوفمبر ١٩٨٤م).
- ٢٢٦- قطب ، سيد ، معالم في الطريق (المنصورة: الحدود للنشر والتوزيع ، ٢٠١٢م).
- ٢٢٧- قطب ، سيد ، دراسات إسلامية ، (القاهرة: دار الشروق ، ط ١١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- ٢٢٨- قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ، (القاهرة: دار الشروق ، ط ١٧ ، ١٤١٢هـ).
- ٢٢٩- قلعه جى ، محمد رواس ، قراءة سياسية للسيرة النبوية (بيروت: دار النفائس ، ط ١ ، ١٤١٦هـ).
- ٢٣٠- القلقشندي ، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ، صبح الأعشي في صناعة الانشاء (بيروت: دار الكتب العلمية ، ب ت ط).
- ٢٣١- كارين آرمسترونج ، سيرة النبي محمد ، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد عناني ، (القاهرة: شركة سطور ، ط ٢ ، ١٩٩٨م).
- ٢٣٢- الكاندهلوي ، محمد زكريا ، تاريخ مشايخ چشت (كراتشي: مجلس نشریات إسلام ، ١٣٩٧هـ).
- ٢٣٣- كحيل ، عبد الوهاب ، الحرب النفسية ضد الإسلام (بيروت: عالم الكتب ، ط ١٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- ٢٣٤- كرزون ، أنس أحمد ، منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله (مكة المكرمة: جامعة أم القرى ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- ٢٣٥- كرمي ، أحمد عجاج ، الإدارة في عصر الرسول ﷺ (القاهرة: دار السلام ، ط ١ ، ١٤٢٧هـ).
- ٢٣٦- الكتاب المقدس: العهد القديم والعهد الجديد (دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط).
- ٢٣٧- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد ، الأحكام السلطانية (القاهرة: دار الحديث ، ب ت ط).
- ٢٣٨- المباركفوري ، أبو العلا محمد عبد الرحمن ، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، ب ت ط).
- ٢٣٩- مباركفوري ، صفى الرحمن ، الرحيق المختوم (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- ٢٤٠- مجاهد ، حورية توفيق ، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبدة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١ ، ١٩٨٦م).

- ٢٤١- المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم (الرياض: دار الشواف للنشر والتوزيع، ١٩٩٢هـ).
- ٢٤٢- مجلة الشريعة، العدد الخاص بسيرة الدكتور محمود أحمد غازي (ججرانواله: العدد ٢٢، يناير ٢٠١١م).
- ٢٤٣- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط (القاهرة: دار الدعوة، ب.ت.ط).
- ٢٤٤- محسن، حسين، الطريق إلى جماعة المسلمين (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط ٤، ١٩٩٠م).
- ٢٤٥- محمد علي جوهر.. بطل الهند ودفن المسجد الأقصى، مقال منشور في الموسوعة لشبكة الجزيرة بتاريخ ٢٠١٧/٠١/١٨م.
- ٢٤٦- محمود، علي عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله (المنصورة: دار الوفاء للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٠م).
- ٢٤٧- محمود، عبد الحليم، الجهاد في الإسلام (القاهرة: دار المعارف، ط ٢، ب.ت.ط).
- ٢٤٨- مختار، علي محمد، دور المسجد في الإسلام (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، ط ١، ١٤٠٢)، ص ٤٦ و ٦٧.
- ٢٤٩- مخلوف، محمود حسن، فقه السيرة بين الغزالي والبوطي (بحث منشور على موقع المكتبة المفتوحة، www.arabicpdfs.com).
- ٢٥٠- مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ب.ت.ط).
- ٢٥١- المصري، عبد الله، الداعية الشهيد الشيخ محمد الغزالي (القاهرة: دار الاعتصام، ب.ت.ط).
- ٢٥٢- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع (بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
- ٢٥٣- المكي، عبد المولى الطاهر، التخطيط للدعوة الإسلامية (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- ٢٥٤- ملكاوي، فتحي حسن، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (مقال الدكتور يوسف القرضاوي - الغزالي رجل الدعوة) (الأردن: المعهد الإسلامي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- ٢٥٥- منصور، أنيس، الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ رسول الله، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط ٦، ١٩٨٥م).
- ٢٥٦- المودودي، سيد أبو الأعلى، السنة ومكانتها التشريعية (سنت كي اييني حيثيت)، (لاهور: اسلامك پبلي كيشنر، ط ٣٢، ١٩٩٩م).
- ٢٥٧- المودودي، سيد أبو الأعلى، سيرت سرور عالم (سيد العالم) (لاهور: إدارة ترجمان القرآن، ط ٣، ٢٠١٩م).

- ٢٥٨- المودودي، سيد أبو الأعلى، اسلامي رياست، ترتيب: خورشيد أحمد (لاهور: اسلامك پبليڪيشن، ط ١، ١٩٦٧م).
- ٢٥٩- المودودي، سيد أبو الأعلى، الجهاد في الإسلام (لاهور: ادارة ترجمان القرآن، ط ١٦، ١٩٩٦هـ).
- ٢٦٠- المودودي، سيد أبو الأعلى، تفهيم القرآن (بشاور: ادارة احياء العلوم، ط ١، ١٩٨٥هـ).
- ٢٦١- المودودي، سيد أبو الأعلى، فضائل قرآن، جمع وتدوين: حفيظ الرحمن أحسن (لاهور: البدر پبلي كيشن، ط ١، ١٩٩٩م).
- ٢٦٢- المودودي، سيد أبو الأعلى، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م)، ص ١٨-١٩.
- ٢٦٣- المودودي، سيد أبو الأعلى، الجهاد في سبيل الله (الكويت: الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ط ٢، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م).
- ٢٦٤- مودودي، سيد أبو الأعلى، المبادئ الأساسية لفهم القرآن، (بيروت: دار التراث العربي، ب ت ط).
- ٢٦٥- المودودي، سيد أبو الأعلى، المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: محمد كاظم سباق (الكويت: دار القلم، ط ٥، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م).
- ٢٦٦- المودودي، سيد أبو الأعلى، النصرانية في ضوء القرآن (نصرانيت قرآن كي روشني مين)، ترتيب: نعيم صديقي وعبد الوكيل علوي (لاهور: ادارہ ترجمان القرآن، ط ٤، ٢٠٠٠م).
- ٢٦٧- المودودي، سيد أبو الأعلى، اليهودية في ضوء القرآن (يهوديت قرآن كي روشني مين)، ترتيب: نعيم صديقي وعبد الوكيل علوي (لاهور، ادارہ ترجمان القرآن، ط ٤، ٢٠٠٠م).
- ٢٦٨- المودودي، سيد أبو الأعلى، قرآن اور پيغمبر (القرآن والرسول)، (لاهور، مكتبه تعمير انسانيت، ط ١، ١٩٨٧م).
- ٢٦٩- المودودي، سيد أبو الأعلى، كتاب الصوم، جمع: حفيظ الرحمن حسن (لاهور، البدر پبلي كشنر، ١٩٧٨م).
- ٢٧٠- المودودي، سيد أبو الأعلى، مبادئ الإسلام، (الكويت: الإتحاد العالمي للمنظمات الطلابية، ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
- ٢٧١- المودودي، سيد أبو الأعلى، موجز تاريخ الدين وحيائه (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
- ٢٧٢- المودودي، سيد أبو الأعلى، نظام الحياة في الإسلام، تعريب: محمد عاصم الحداد، (دمشق: دار الفكر الإسلامي، ط ٢، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م).
- ٢٧٣- الموصلي، أحمد، الموسوعة الحركية في الوطن العربي وإيران وتركيا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ٢٠٠٤م).

- ٢٧٤- النابلسي ، محمد راتب ، الشباب في الإسلام (كتاب منشور على موقع كتوباتي .kotobati.com/book).
- ٢٧٥- نحيلة ، بسيوني ، مناهج الدعوة الحديثة من خلال كتابات السيرة النبوية المعاصرة (القاهرة ، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية في موضوع جهود الأمة في خدمة السيرة النبوية ، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م).
- ٢٧٦- الندوي ، أبو الحسن علي الحسني ، من أعلام المسلمين ومشاهيرهم (دمشق : دار ابن كثير ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م).
- ٢٧٧- الندوي ، أبو الحسن علي الحسني ، الأركان الأربعة في ضوء الكتاب و السنة (دمشق : دار ابن كثير ، ط ٢ ، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م).
- ٢٧٨- الندوي ، أبو الحسن علي الحسني ، السيرة النبوية (دمشق : دار ابن كثير ، ط ١٢ ، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م).
- ٢٧٩- الندوي ، أبو الحسن علي الحسني ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (الكويت ، دار القلم ، ط ١٣ ، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م).
- ٢٨٠- ندوي ، سيد سليمان ، سيرة النبي ﷺ (بشاور : مكتبة نفيس ، ط ١ ، ١٤٢٨هـ)، ج ٤ ، ص ٢٤٩.
- ٢٨١- نوح ، سيد محمد ، أفات على الطريق (المنصورة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٣٣ هـ- ٢٠١٢م).
- ٢٨٢- نيا ، محود حقيقت ، أبو الأعلى المودودي ومنهجه التربوي في تفسيره تفهيم القرآن (الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، عام ٢٠١٨م).
- ٢٨٣- الهاشمي ، عبد الحميد ، النبي العربي المربي (الرياض : دار الهدى للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٢٧هـ).
- ٢٨٤- هنداي ، عبد الحميد ، موسوعة الدار الآخرة ، (مصر : مكتبة العلوم والحكم ، ٢٠٠٧م).
- ٢٨٥- هيكل ، محمد حسين ، حياة محمد (القاهرة : دار المعارف ، ط ١٤ ، ب ت ط).
- ٢٨٦- الوادعي ، علي بن حافظ بن سالم ، فقه الدعوة في رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء (المدينة المنورة : جامعة طيبة ، ١٤٢٥هـ).
- ٢٨٧- الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد ، المغازي ، تحقيق : مارسدن جونس (بيروت : دار الأعلمي ، ط ٣ ، ١٤٠٩هـ).
- ٢٨٨- وجدي ، محمد فريد ، السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة (القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ط ١ ، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م).
- ٢٨٩- وكيل ، محمد السيد ، تأملات في سيرة الرسول ﷺ (جدة : دار المجتمع للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ).
- ٢٩٠- وكيل ، محمد السيد ، شرف المصطفى (مكة المكرمة : دار البشائر الإسلامية ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ).
- ٢٩١- اليزيدي ، أروى بنت علي بن محمد ، الهجرة إلى الحبشة وأثرها في نشر الدعوة الإسلامية (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، ١٤٣١ هـ- ٢٠١١م).

٢٩٢- اليوبي، محمد سعد بن أحمد، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (الرياض: دار ابن الجوزي، ط٦، ١٤٣٦هـ).

العنوان	الصفحة
المقدمة	١
التمهيد	٩
١- تحديد المفاهيم والمصطلحات	٩
٢- فقه الدعوة و علاقتها بالسيرة النبوية	١٣
٣- نبذة عن حياة الإمام السيد أبي الأعلى المودودي وكتابه سيرت سرور عالم :	١٩
٤- نبذة عن حياة الشيخ محمد الغزالي وكتابه فقه السيرة	٣٣
٥- نبذة عن حياة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وكتابه فقه السيرة	٤٥
الباب الأول: فقه أصول الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبطي	
الفصل الأول	
فقه موضوعات الدعوة في العصر المكي	
المبحث الأول: فقه موضوعات الدعوة عند الإمام أبي الأعلى المودودي في العصر المكي	٦٠
المطلب الأول: البناء العقدي	٦١
١- إثبات توحيد الله تعالى ونفي الشرك:	٦١
٢- الدعوة إلى الإيمان بالرسالة وختم النبوة:	٦٥
٣- الدعوة إلى الإيمان بالقرآن ككتاب وتشريع إلهي الملزم اتباعه	٧٠
٤- الإيمان بالمعاد واليوم الآخر	٧٢
المطلب الثاني: الدعوة إلى مكارم الأخلاق	٧٤
المطلب الثالث: تأسيس أمة عالمية	٧٨
المبحث الثاني: فقه موضوعات الدعوة عن الشيخ محمد غزالي في العصر المكي	٨٢
المطلب الأول: إلام يدعو الناس ؟	٨٢
١- الدعوة إلى الوحدانية المطلقة والرد على مزاعم الوثنية:	٨٢
٢- الاهتمام بدار الآخرة:	٨٥
٣- الاهتمام بتزكية النفس:	٨٦
٤- التركيز على العبادات والشعائر الدينية:	٨٨
٥- إحياء روح التكافل الاجتماعي:	٨٩
المطلب الثاني: أساسات الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية	٩١
١- الدعوة إلى الثبات والثقة بنصرالله:	٩٢
٢- مكانة الدعاء واليقين في الأهوال:	٩٥

المبحث الثالث: فقه موضوعات الدعوة عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في العصر المكي	٩٧
المطلب الأول: منطلقات الدعوة في هذه المرحلة	٩٧
١- محاربة التقاليد السائدة للوثنية:	٩٧
٢- تلقين فن الصبر:	١٠٠
٣- الدعوة إلى التمسك والحفاظ على الدين:	١٠٢
المطلب الثاني: السمات الدعوية في هذه المرحلة	١٠٤
١- حقيقة الدعوة الإسلامية وتميزها من الأهداف والأغراض الدنوية	١٠٤
٢- الإسلام كلمة الله السابقة والأخيرة لعباده:	١٠٧

الفصل الثاني

فقه موضوعات الدعوة في العصر المدني

المبحث الأول: فقه موضوعات الدعوة عند الإمام أبي الأعلى المودودي في العصر المدني	١١٤
المطلب الأول: مبادئ الدعوة الإسلامية في الفترة المدنية	١١٤
١- الدعوة إلى الإيمان الذي يصدر عنه الأعمال الصالحة:	١١٤
٢- تعميم مفهوم عبودية الله في أنحاء الحياة وإعلان شعائر الإسلام:	١١٩
٣- الدعوة إلى ترابط المجتمع الإسلامي بعقد المؤاخاة الدينية:	١٢٠
المطلب الثاني: محاربة أنواع الجاهلية والفساد	١٢٢
١- الجاهلية المحضة:	١٢٥
٢- الجاهلية الوثنية الشركية:	١٢٩
٣- الجاهلية الرهبانية:	١٢٩
المطلب الثالث: معالم الدعوة في هذه المرحلة	١٣١
١- قيادة وأستاذية العالم:	١٣١
٢- النصر والتمكين:	١٣٣
المبحث الثاني: فقه موضوعات الدعوة عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المدني	١٣٤
المطلب الأول: منطلقات الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة	١٣٤
١- الدعوة إلى صلة الأمم بالله والاعتراف بجميل الله:	١٣٤
٢- الدعوة إلى ترسيخ معاني السماحة والعدل والمساوات في المجتمع الإسلامي:	١٣٦
٣- تقديس معنى الرسالة وغرس محبة الرسول ﷺ:	١٣٨
المطلب الثاني: خصائص العمل الدعوي في الفترة المدنية	١٤١
١- التنبيه لتشوية وإثارة ريب الأعداء	١٤١
٢- الاهتمام بالسياسة:	١٤٣
٣- الاهتمام بالجهاد وقتال العدو:	١٤٥
المطلب الثالث: معالم هذه المرحلة من الدعوة	١٤٧
١- الاهتمام والتركيز على استمرار الدعوة وبيان فضلها:	١٤٨
٢- توسيع نطاق الدعوة الإسلامية وتحقيق عالميتها:	١٤٩
المبحث الثالث: فقه الدعوة عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في الفترة المدنية	١٥١

المطلب الأول: منطلقات الدعوة الإسلامية.....	١٥١
١- ترسيخ معنى الأمة الإسلامية القائمة على أساس الدستور والنظم:.....	١٥١
٢- إصلاح المسلمين من أهم دعائم الدعوة الإسلامية:.....	١٥٤
٣- ضرورة الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في كل الأمور:.....	١٥٥
المطلب الثاني: ضوابط هذه المرحلة من الدعوة.....	١٥٧
١- ضرورة الأخذ بالسياسة الشرعية:.....	١٥٧
٢- حرمة الولاء مع غير المسلمين مهما اشتركت المصالح:.....	١٥٩
٣- معايير النصر ليست بالعدد والعدة وحده:.....	١٦١
المطلب الثالث: معالم هذه المرحلة.....	١٦٣
١- الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها:.....	١٦٣
٢- المسلمون كلهم مشتركون في مسؤولية الدعوة:.....	١٦٥

الباب الثاني

فقه الداعي والمدعو في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي

الفصل الأول

فقه الدعي في العصر المكي

المبحث الأول: فقه الداعي في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى مودودي.....	١٦٩
المطلب الأول: مقام الداعي ومهامه.....	١٦٩
١- المهام التعليمية للداعي:.....	١٧٠
٢- المهام العملية للداعي:.....	١٧١
المطلب الثاني: أوصاف وسمائل الداعية المستفادة من تلك المرحلة.....	١٧٣
١- الزهد عما في أيدي الناس والبعد عن المطامع:.....	١٧٣
٢- عدم اليأس والثقة بنصر الله:.....	١٧٦
٣- الحرص على هداية الناس إلى الإسلام:.....	١٧٧
المبحث الثاني: فقه الداعي عند الشيخ محمد الغزالي في العصر المكي.....	١٧٩
المطلب الأول: شخصية الداعية ومهامه في الرسالة الخاتمة.....	١٨٠
المطلب الثاني: صفات الداعية المستفادة من هذه المرحلة.....	١٨٢
١- الصمود أمام المؤتمرات:.....	١٨٣
٢- المداومة على العمل وعدم اليأس:.....	١٨٥
٣- حيازة العاطفة الجياشة تجاه الدعوة الإسلامية:.....	١٨٧
المبحث الثالث: فقه الداعي في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.....	١٨٩
المطلب الأول: مكانة الدعاة في الرسالة الخاتمة ومهمتهم.....	١٨٩
المطلب الثاني: أهم الصفات التي يجب على الداعية التحلي بها والمستفادة من هذه المرحلة.....	١٩٢
١- تحمل أنواع الأذى وحكمها:.....	١٩٣
٢- اشتراك ومساهمة المسلمين في عبء الدعوة الإسلامية:.....	١٩٥

الفصل الثاني

فقه الداعي في العصر المدني

- المبحث الأول: فقه الداعي في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى مودودي ١٩٨
- المطلب الأول: جوانب شخصية الداعي المستفادة من هذه المرحلة ١٩٨
- ١- الداعي المعلم: ١٩٨
- ٢- الداعي المربي: ٢٠١
- ٣- الداعي القائد والأمير: ٢٠٤
- المطلب الثاني: صفات الداعي المستفادة من هذه المرحلة ٢٠٨
- ١- حيازة مؤهلات القيادة ٢٠٨
- ٢- الاهتمام التام بمقاصد الدين والدعوة: ٢١١
- المبحث الثاني: فقه الداعي في العصر المدني عند الشيخ محمد الغزالي ٢١٣
- المطلب الأول: معالم في شخصية الداعية المستفادة من المرحلة المدنية: ٢١٣
- ١- القيادة التي تهوي إليها الأفئدة: ٢١٣
- ٢- إيجاد روح الأمل والبشارة رغم شدة الأهوال: ٢١٦
- ٣- توثيق الصلات بأفراد المجتمع: ٢١٨
- المطلب الثاني: الصفات اللازمة في الدعاة والمستفادة من المرحلة المدنية ٢٢٠
- ١- الوفاء والاعتراف بالجميل: ٢٢١
- ٢- التضحية والاهتمام بالأفراد: ٢٢٣
- المبحث الثالث: فقه الداعي في العصر المدني عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ٢٢٥
- المطلب الأول: المعالم الأساسية لدعاة الحق المستفادة من المرحلة المدنية ٢٢٥
- ١- اشتراك المرأة مع الرجل في جميع مسؤوليات الإسلام العامة ٢٢٥
- ٢- التحلي بالأصول والتهبؤ لمهام الدعوة: ٢٢٨
- المطلب الثاني: أهم صفات الداعية المستنبطة من الفترة المدنية ٢٣٠
- ١- الحزم في مواطن القيادة: ٢٣٠
- ٢- الفراسة في توقع الأخطار المحيطة: ٢٣٢
- ٣- المساهمة والوقوف مع الأفراد جنباً إلى جنب: ٢٣٥

الفصل الثالث

فقه المدعو في العصر المكي

- المبحث الأول: فقه المدعو في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى مودودي ٢٣٩
- المطلب الأول: العوامل المؤثرة في جلب المدعويين ٢٣٩
- ١- البدء بالأقرباء والعشيرة أولاً: ٢٣٩
- ٢- الاهتمام على المدعويين المخلصين: ٢٤٢
- ٣- المعرفة الشاملة لحال المدعويين: ٢٤٤
- المطلب الثاني: معرفة معاندي الدعوة وخططهم اللئيمة والمستفادة من هذه المرحلة ٢٤٥
- ١- أصناف الخصوم في المرحلة المكية: ٢٤٦
- ٢- معرفة أساليب المعاندين في محاربة الدعوة ٢٤٧

المبحث الثاني: فقه المدعو عند الشيخ محمد غزالي في العصر المكي	٢٥٣
المطلب الأول: العوامل المساعدة في دعوة المدعويين	٢٥٣
١- الإهتمام بالرعيل الأول وطلبة المخلصين:	٢٥٣
٢- الإهتمام بمكانة المرأة في أمور الدعوة:	٢٥٥
المطلب الثاني: معرفة أصناف الخصوم والأساليب التي يواجهون بها الدعاة	٢٥٨
١- أصناف الخصوم:	٢٥٨
٢- أساليب الخصوم تجاه الداعي ودعوته:	٢٥٩
المبحث الثالث: فقه المدعو في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي	٢٦٢
المطلب الأول: أسباب نجاح الدعوة في جانب المدعويين	٢٦٢
١- الإهتمام بالشباب:	٢٦٣
٢- التهيؤ النفسي لدى المدعويين:	٢٦٥
المطلب الثاني: تأمر الخصوم على الدعاة	٢٦٨
٢- ما يلاقه أرباب الدعوة الإسلامية من المصائب لا يعني الفشل ولا الخيبة:	٢٧١

الفصل الرابع

فقه المدعو في العصر المدني

المبحث الأول: فقه المدعو في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى مودودي	٢٧٤
المطلب الأول: نماذج من خصال متبعي الحق	٢٧٤
١- خصال أهل التضحية والنصرة:	٢٧٥
٢- الأدب الرفيع الذي يراعيه الأفراد مع قائدتهم الدعوي:	٢٧٧
المطلب الثاني: نماذج من أساليب معاندي الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة	٢٧٩
١- اليهود وموقفهم اللئيم تجاه الدعوة الإسلامية:	٢٨٠
٢- النصارى وموقفهم تجاه الدعوة الإسلامية:	٢٨٣
٣- المنافقون وخطورتهم تجاه الدعوة الإسلامية:	٢٨٥
المبحث الثاني: فقه المدعو عند الشيخ محمد غزالي في العصر المدني	٢٨٨
المطلب الأول: نماذج من خصال وحقوق المدعويين الحق المستفادة من المرحلة المدنية	٢٨٨
١- محبة وتضحية المدعويين تجاه قائدتهم الدعوي:	٢٨٩
٢- الذكر والثناء على جميل المدعويين:	٢٩١
٣- التركيز على إحسان الجندية كإحسان القيادة:	٢٩٣
٤- تربية المصطفين الأخيار:	٢٩٥
المطلب الثاني: نماذج من أصناف وخصومة معاندي الدعوة الإسلامية	٢٩٧
١- اليهود ومؤامرتهم التاريخية:	٢٩٧
٢- خطر النفاق والمنافقين على المجتمع الإسلامي:	٣٠٠
٣- النيل من شخصية وبيت الداعي: لقد	٣٠٢
المبحث الثالث: فقه المدعو في العصر المدني عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي	٣٠٣
المطلب الأول: نماذج من خصال وحقوق المدعويين المستنبطة من هذه الفترة	٣٠٣

- ١- محبة ودفاع الأفراد عن قائدهم الدعوي أكثر من أنفسهم: ٣٠٤
- ٢- التكريم والعطاء لأهل الفضل: ٣٠٦
- ٣- سمو النفس الإنساني والافتخار عن الغدر: ٣٠٨
- المطلب الثاني: نماذج عن خصوم معاندي الدعوة الإسلامية في الفترة المدنية ٣٠٩
- ١- اليهود وحقدهم على الإسلام: ٣١٠
- ٢- خطر المنافقين في المجتمع الإسلامي وكيفية التعامل معهم: ٣١٢

الباب الثالث

فقه الوسائل والأساليب الدعوية في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبوطي

الفصل الأول: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المكي

- المبحث الأول: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المكي عند الإمام أبي الأعلى مودودي ٣١٧
- المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية ٣١٨
- ١- أهمية اختيار المركز ومكان الاجتماع في الدعوة الإسلامية: ٣١٨
- ٢- البيعة ومكانتها في نجاح الدعوة الإسلامية: ٣٢٠
- ٣- اختيار النقباء وسيلة لتسهيل أمور الدعوة: ٣٢٢
- المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية المستفادة من الفترة المكية ٣٢٣
- ١- التركيز على الحكمة: ٣٢٣
- ٢- الموعظة الحسنة: ٣٢٥
- المبحث الثاني: فقه الوسائل والأساليب في العصر المكي عند الشيخ محمد الغزالي ٣٢٩
- المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية ٣٢٩
- ١- رسالة الحج الدعوية: ٣٢٩
- ٢- الهجرة إلى البلدان وتأثيرها على الدعوة: ٣٣١
- ٣- إرسال السفراء والمعلمين: ٣٣٤
- ٣- أخذ البيعة والعهد من المدعوين: ٣٣٥
- المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية ٣٣٧
- ١- جهار الدعوة بعد تشكيل النواة الأولى: ٣٣٧
- ٢- الإدارة والتخطيط في الأمور الدعوية: ٣٣٩
- المبحث الثالث: فقه الوسائل والأساليب في العصر المكي عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ٣٤١
- المطلب الأول: نماذج من الوسائل المستفادة من المرحلة المكية ٣٤٢
- ١- العزلة والإختلاء سبب في تربية الداعي: ٣٤٢
- ٢- الهجرة من أعظم الوسائل الدعوية: ٣٤٤
- المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية ٣٤٨
- ١- بدء الدعوة سرا وعدم المجاهرة بها أول الأوان ٣٤٨
- ٢- مراعاة الحكمة وحدودها: ٣٤٩
- ٣- وجوب الاعداد والتخطيط في عمل الدعوة: ٣٥١

الفصل الثاني

فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المدني

المبحث الأول: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المدني عند الإمام أبي الأعلى المودودي	٣٥٤
المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية	٣٥٤
١- بناء المسجد ومكانته الدعوية:	٣٥٤
٢- كتابة الدستور لتنظيم شؤون الناس:	٣٥٦
٣- الجهاد وقتال معاندي الدعوة: لقد	٣٥٩
المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية المستفادة من الفترة المدنية	٣٦٣
١- الدعوة عن طريق المجادلة بالتي هي أحسن:	٣٦٣
٢- اختيار أسلوب الرفق واللين في دعوة الناس:	٣٦٥
المبحث الثاني: فقه الوسائل والأساليب في العصر المدني عند الشيخ محمد الغزالي	٣٦٧
المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية	٣٦٧
١- الكفاح الدامي وأهدافه:	٣٦٧
٢- الإهتمام بالمكاتبة وارسال السفراء:	٣٧٠
٤- لقاء الوفود ومخاطبتهم بأسلوب الأمثل:	٣٧٤
المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية	٣٧٦
١- الخطابة من أعظم الأساليب الدعوية:	٣٧٦
٢- مخاطبة العقل والرشد في الدعوة:	٣٧٩
المبحث الثالث: فقه الوسائل والأساليب الدعوية في العصر المدني عند الدكتور رمضان البوطي	٣٨٠
المطلب الأول: نماذج من الوسائل الدعوية المستفادة من المرحلة المدنية	٣٨٠
١- جواز الإقامة بدار الكفر ابتغاء القيام بواجب الدعوة:	٣٨١
٢- ضرورة تبيين أسباب الدعوة ومن ذلك تعلم لغة القوم:	٣٨٢
٣- الجهاد وسيلة دعوية:	٣٨٤
٤- حسن معاملة الوفود والمستأمنين:	٣٨٧
المطلب الثاني: نماذج من الأساليب الدعوية	٣٩٠
١- ممارسة الدعوة بأسلوب البشارة وعدم العسر:	٣٩٠
٢- التخاطب من أعظم الأساليب الدعوية:	٣٩٢

الفصل الثالث

فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند المودودي والغزالي والبطي في ميزان الدعوة

المبحث الأول: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الإمام أبي الأعلى المودودي	٣٩٥
المطلب الأول: الأهداف والمقاصد الأساسية من السيرة النبوية عند المودودي	٣٩٥
المطلب الثاني: الأثر المعجز للسيرة النبوية في حياة الدعاة	٤٠٠
المطلب الثالث: إيجابيات ومآخذ على المودودي في كتابه سيرت سرور عالم (سيرة سيد العالم):	٤٠٤
١- إيجابيات كتاب سيرة سيد العالم:	٤٠٤
٢- المآخذ على كتاب سيرة سرور العالم:	٤٠٨
المبحث الثاني: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الشيخ محمد الغزالي	٤١٠

المطلب الأول: رسالة السيرة النبوية	٤١٠
المطلب الثاني: الأهداف والمنهج العلمي لدراسة السيرة النبوية	٤١٣
المطلب الثالث: إيجابيات ومآخذ على كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي	٤١٨
١- الإيجابيات:	٤١٨
٢- المآخذ على كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي:	٤٢١
المبحث الثالث: فقه الدعوة في دراسات السيرة النبوية عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي	٤٢٤
المطلب الأول: أهمية السيرة النبوية في حياة الدعاة	٤٢٤
المطلب الثاني: المنهج العلمي في دراسة السيرة النبوية	٤٢٨
المطلب الثالث: إيجابيات ومآخذ على الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة	٤٣٣
١- الإيجابيات:	٤٣٣
٢- المآخذ على الكتاب	٤٣٦
الخاتمة	٤٤١
التوصيات	٤٤٥
Abstract	٥٢٧
فهرست الآيات الكريمة	٤٤٨
ثانياً فهرس الأحاديث النبوية	٤٥٩
فهرس الأعلام	٤٦٠
فهرس المصادر والمراجع	٤٦٤